السابقة

التوبة

عبد المنعم الصاوى

التوبـة

عبدالمنعم الصاوى

الساقية

السابقين

التوبة

عبد المنعم الصاوى

الناشر
شركة عالمية للنشر والإعلان

الإهــداء

هذه هى: التوبة

الكتاب الرابع من: الساقية..

وانى لأبدأ سطوره الأولى هذه، ليلة مولد النبى من العام الهجرى ١٣٨٨، بعد أن فرغت من مراجعة صفحات النصيب..

فلمن يكون الإهداء؟

ولمن سواه: رسول الله، إلى عباد الله؟

هذا الجلال المهيب، وقد اخترق حجب الزمن، بأعظم ما نزل على الناس من الصور والرؤى والقيم والمعتقدات، تسرى كأنها الأحلام... رقيقة، رفيقة، رائعة! وتسبح كأنها الدعوات...تتلمس سبيلها إلى السماء! أما حولها فكأنما هى طبقة من البخور، تحيط الفضائل بالبركة، وتمتد إلى الهواجس بالرحمة، وتغلف النزوات بالندم...أو التوبة!

إذاً إليك يا محمد!..

أيها اليتيم، يا راعى الغنم، يابن عبد الله!

إليك، وإلى كل الذين شملهم نورك، من العلماء والأتقياء والأولياء، ومنهم سيدى أحمد الذكيرى..

إليك وإلى كل الذين حررتهم دعوتك، من المظلومين والتعساء والمضطهدين، ومنهم أبو المكارم الأخرس...

يابن آمنة بنت وهب، أيها النبى الأمى، يا محمد اقبلها منى ومن كل قراء التوبة، هدية أو زلفى..

أو ربما توبة.. على صفحات التوبة..

عبد الحليم الهادى

مقدمة

نعم هو قضاء، من الكبرياء!

نعم، وعلى هذه الصفحات، لنا معهم دائماً ..لقاء!!

فأما الذين ذهبوا إلى رحمة الله ففى ذمتنا لهم اما فاتحة الكتاب الكريم أو فى القليل..دعاء.

وأما الذين لا يزالون يواجهون المحنة، ويقاسون العذاب، فى رحلة طويلة شاقة، فلهم فى أعناقنا دائماً حق الوفاء.

أليسوا أصدقاء؟

ألم يصبحوا، بعد طول العشرة، أصدقاء؟

يا شيخة تفيدة يا باتعة! يا قطعة من الجمر، ملفوفة فى طرحة بيضاء!

وأنت يا وردة يا نقرزان! يا دمعة المحروم، تتخفى وراء أهداب كحيلة طويلة، كأنما هى نداء، ولا نداء.

والمعلم مبروك الحنطور، وزبيدة البطة، وناعسة الحرامية، وكل أهل المنيرة ممن نزلت بهم بركة النداهة، فلبوا النداء فى كرم وكرامة وسخاء.

وأهل القرية الطيبون، التائهون المعذبون، يتبادلون النظرات، تارة إلى عباس، وقد صار عمدة، وتارة إلى الجوهرى، وهو يجرى بسيارته أسرع مما يجرى "الرهوان"، وتارة

إلى دياب، وهو يحمل الصحف والمجلات، دون أن يدرى ماذا فيها، وتارة إلى أم الشحات بعد أن قالت يوما كلمة حق خر على أثرها الرجل العجوز التافه صريعاً لا حراك، لا دواء، لا شفاء.

لكن أهل القرية الطيبين يقطعون كل ذلك الكابوس، بركعتين لله سبحانه وتعالى، أو بزيارة لسيدى الذكيرى، يتبركون بالضريح، ويسألون الشيخة تفيدة والشيخ عبد الرءوف الدعوات، وينظرون إلى القبور فى استسلام وتسليم ورضاء.

اللهم أنه قضاؤك، غير مردود، و إنها ارادتك...لا اعتراض!

فهناك، حول سيدى الذكيرى، التقى القاتل والمقتول، والظالم والمظلوم، والباغى... والضحية... تحت ثراك الرحب، حيث تتسع رحمتك للسفهاء والشرفاء.

كلهم تساووا فى رحيلهم إليك، وفى مقامهم عندك.

الشحات والحاج غضبان.

جلال وأبو سريع.

سيد شيخ البلد، وابن اخته أدهم.

الحاج سلطان بكل آثامه، وحوله زوجتان حاقدتان ناقمتان:

"الحاجة زهرة القديمة، صاحبة الجرن"، والست نبوية بنت العمدة وأم العمدة.

لكن الدنيا مع ذلك تسير.

الساقية تدور بمزيد من الماء.

والثوران معصوبا العينين يجرانها فى غير ملل.

وأبو المكارم يدور حولها، برغم تجاعيد السنين، وابتسامة رقيقة ترتسم على شفتيه، كلما لمس خطاب غرامه الوحيد: فردة الشراب الأحمر.

وهوى آخر مكتوم، يطل من بين عيون كحيلة رائعة، وأخرى مجهدة، لكن ذكية ودافقة.

وبين نظرة ونظرة، مرة منها: خضرة الحلوة، ومرة منه: المعلم بيومى الأعرج، تلمع تحت وهج الشمس، سمكة، تختفى تحت قروش كثيرة... كثيرة جداً لكنها على كثرتها، ليست أكثر مما بين ضلوعهما من لواعج الشوق، ونبضات الأمل.

على أن اللواعج والنبضات، لم تكن وحدها أبداً، الطريق إلى التلاقى.

اللهم رحماك:

... لهم،

ولمن صارت عشرتهم عليه، قدراً مكتوباً...

عبد المنعم الصاوى

١

كانت تجرى بكل ما فيها من عزم.

تمسك بطرف ثوب يتقدمها، وتدع طرف ثوبها فى قبضة أخرى تتبعها، والضحك يملأ شدقيها، والسعادة تأكل وجهها، أسنانها البيضاء تلمع فى وهج الشمس. وتترك شعرها خلفها يشاركها النزق والمرح، الذى ملك عليها نفسها.

وتدور... مع الدائرة، تصرخ وتصيح من فرحتها. وتثب مرة عن يمين، ومرة عن يسار، وشعرها المرسل خلفها يترنح معها كالسكران.

وكانت حافية، وكن كذلك حافيات. كلهن كن مثلها، فرحات، مرحات، يدرن مع الدائرة، ضاحكات نزقات، مرسلات شعورهن فى غير ضابط، حافيات من فرط النشوة.

وأشجار باسقة قديمة تحيط بالفناء، حيث جمعهن الرقص المتتابع، فى دائرة تربطها أطراف من أثوابهن، فى قبضات أيد نشوانة.

وعيون كسولة ترقبهن من بعيد، ثم تنصرف عنهن إلى أحاديث عقيمة قديمة مكررة، وعيون أخرى أشد كسلاً ترقبهن، وترقب من يرقبهن، ثم تنصرف عنهن إلى كلام أغلبه فارغ، وعيون بعد هذه العيون تتطلع خلف ذلك جميعاً فى غباء وبلاهة ثم تنصرف عن ذلك كله، تبحث لنفسها عن ظل تطفىء تحته وهج الشمس المحرقة.

والدائرة الراقصة تمضى فى نزقها غير عابئة. الشمس لا تحرقها، والوهج لا يثنيها عما هى فيه من صراخ عابث. أبداً، ولا العرق، ولا الضنى، ولا شىء يصرفها عما هى فيه من المرح المجنون.

وبينما كل شيء يسير هكذا، إذاً هي تخرج من الدائرة. تدع طرف الثوب الذى كان بقبضتها، وتمضى بعيداً عن القبضة التى كانت فى طرف ثوبها. ثم تسير الهوينا فى ذهول. وتصاب الدائرة كلها بوجوم. هذه مفاجأة. لماذا تخرج علينا؟ ماذا دهاها؟ ومن يكون هؤلاء القادمون إليها عبر الفناء؟

ويتجمعن حولها، يتحركن مع حركاتها.

وتسير هادئة فى وجوم، ويسرن خلفها.

وتتطلع إلى الجمع القادم نحوها، ويتطلعن إليه معها.

وتبرق عيناها ببريق غريب، وهى لا تدرى: أحلم أم علم!

لكنها لا تنطق بحرف، ولا هم كذلك ينطقون.

ما أبلغ الصمت... أحياناً! عندما يكون أفصح من الكلام.

وعندما تقدمت من جانبها، وتقدموا من جانبهم، حتى كادوا يتصادمون وقفت ووقفوا متقابلين صامتين، تتطلع إليهم فى ذهول، ويتطلعون إليها فى رثاء.

كانت هى واحدة ووحيدة، برغم كل الجمع الذى كان منذ قليل، حلقة منتظمة تدور فى صخب ثم تجمع خلفها يتحرك معها فى صمت مخيف.

وكانوا خليطاً من نساء ورجال: النساء فى ملابس سود وطرح، والرجال فى جلاليب منوعة الألوان وطواقى.

وعندما وقفوا عن الصدام متقابلين، خيم سكون بليغ، انحبست خلاله الحركات والأصوات والمشاعر، كأنما الجميع قطع من ثلج بارد، لا حراك.

ومضى الوقت القصير ثقيلاً طويلاً. لحظات. نعم لحظات، لكن كل لحظة منها كانت عمراً. حتى الدمع لم يكن له مكان فى هذا الجمود.

وفجأة تفجر كلّ شيء. الأصوات والأبدان والأشجان والذكريات والدموع.

ارتفعت الصيحة عالية، تعالى يا أختى: سلامتك يا أختى.

وارتفعت صيحة أخرى: عمتى. سلامتك يا عمتى.

وارتفعت صيحة ثالثة أكثر حماسة وأسى: تعالى فى حضنى "يا أمه" سلامتك ألف سلامة.

وصيحة رابعة وخامسة، تلتها نداءات النساء والرجال، ودعوات بالسلامة والنجاة من المكروه، وكلمات حزينة دامعة متقطعة.

وهى هى لا تتحرك. لا يبدو أنها فرحت بهم أو تأثرت منهم، كأنما هذا الجمع حولها فراغ! والأصوات التى ارتفعت عنهم صمت! والنداءات التى انطلقت لها وباسمها رياح فى الفضاء!.

عيناها كانتا جامدتين، وهى تنظر نحو الجمع فى بلاهة وتوجس، تنتقل من هذه إلى تلك إلى ذاك، ولا يبدو أن تنقلها بنظراتها بينهم قد ذكرها بشىء أو أثار فيها ذكرى.

وانطلق نحوها نداء متقطع. كان الصوت هذه المرة مليئاً وغليظاً، لكنه كان مع ذلك حانياً تملؤه الرحمة.

أنت يا ست الناس! ألا تذكريننا؟ نحن ناسك وأهلك.

ولم ترد!... ولم ترتجف عيناها، ولا أهدابها!.. بل ظلت ساكتة صامتة، كأنها تمثال.

وعاد النداء يتجه نحوها فى رجاء.. وتوسل:

- أنت يا ست الناس. ألا تسمعين؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. هذه أختك درة زمانها. نعم أختك. وهذه بنتك نواره! الغندورة! تذكرين؟

أنت تسمينها الغندورة. وهذه نبوية بنت أخيك. زوجة ابنك أدهم.

ولم يكد عباس ينتهى من كلماته، حتى وثبت ست الناس تمسك بتلابيبه، وتطبق على عنقه فى شراسة، وهى تصيح فى رعونة:

ـ أدهم! وتتحدث عن أدهم؟! أنت قاتل أدهم. أنت الذى قتلت أدهم. سأقتلك كما قتلت أدهم.

وأخذ عباس بالمفاجأة كما أخذ بها الجمع حوله، وحاولوا أن يثنوها عما عزمت عليه. لكن صديقاتها الأخريات، شريكات اللعب فى الحلقة، أسرعن إليها، يساعدنها على قتله!

ـ أنت الذى قتلته.

ـ يا مجرم يا سفاح.

ـ لابد من قتلك فيه.

ـ الانتقام يا نساء.

ـ الثأر...لا ترحمنه.

وأضافت هذه الكلمات المتناثرة، وقوداً جديداً، دفع نساء الحلقة إلى اندفاع مجنون فى الهجوم مع صديقتهن على هذه الجماعة من الناس.

واشتد وطيس المعركة بين نساء حافيات صائحات، وشعورهن منكوشة، يكشرن عن أنياب الشر، وبين عباس العمدة الطيب وأهل القرية الطيبين، يدفعون هذا الشر الأحمق الذى أخذ يهدد حياتهم.

وبين صيحات الفزع هذه، كانت ترتفع أصوات استغاثة من هنا وهناك.

ـ أنا أختك يا ست الناس. ماذا جرى لك؟ نسيت أختك؟

ـ يا سنة سودة يا ناس. ماذا جرى لك؟ نسيت أختك؟

ـ يا سنة سودة يا ناس. أنا نوارة بنتك يا "أمه". نوارة الغندورة.

ـ يا ست الناس "اعقلى". ربنا يشفيك يا شيخة ويرد لك عقلك.

لكن كل ذلك لم يجد. المعركة هى المعركة، والنساء الحافيات يهجمن فى شراسة، فإن وقع شىء فى قبضتهن، فتلك إذن نهايته.

مزقن أثواب الرجال والنساء، وكدن من القسوة أن يأكلن لحوم أهل القرية نيئة. وما كان الصياح ليجدى، ولا الا ستغاثة، ولا الا سترحام.

أبداً. أنت قاتل، والقاتل يقتل ولو بعد حين.

لكن العيون التى كانت تطل فى كسل قد نشطت، وأسرعت الممرضات إلى حيث دار القتال وهجمن غير وجلات على فريق النساء الحافيات، وأخذن يضربنهن بلا شفقة، ويسحبنهن من شعورهن فى غير ترفق، ويدفعنهن إلى الأرض فتسقط منهن من تسقط، لكنها تعود فتثب، لتعاود القتال.

ولم يكف هذا العدد من أصحاب العيون الكسولة، فأقبل صف ثان من الممرضين الرجال، وهجموا فى غير رحمة على النساء الثائرات.

ثم أقبل صف ثالث من عساكر البوليس ثم أسرع الأطباء. وتحول فناء المستشفى إلى ساحة قتال، فيها من هزم وفيها من انتصر، وفيها كذلك جرحى وضحايا وخسائر، لكن بلا أسرى أو مفقودين.

وبكى عباس من تأثره وبكت معه زوجته درة زمانها، ثم ارتفع نحيب بنتها وزوجة ابنها وعدد آخر من النساء والرجال. بينما هى تنظر إليهم فى جمود، وخلفها صديقاتها، جامدات مثلها.

لكنها ليست إلا لحظة، وتغير كل شىء، ولم يكن الا نفجار هذه المرة بكاءً ولا رثاءً.

انطلقت ست الناس ضاحكة، وهى تتطلع إلى هذا الجمع الباكى أمامها!

وما أن بدأت تضحك، حتى بدأت صديقاتها يشاركنها الضحك.

وملكهن سلطان ضاحك، فاستسلمن له غير عابئات بما يدور حولهن، وانصرفن إليه عن كل شىء، ثم أخذن يتضاربن فى مزاح عابث وهن يضحكن، حتى حولن الساحة كلها إلى ضحك متصل لا ينقطع.

وعجب الأطباء وعجب العساكر وعجبت الممرضات، وارتسمت على وجوههم فى أول الأمر ابتسامات، ثم ما لبثت الابتسامات أن صارت ضحكات.

وفى غمرة هذا الضحك المتصل، ذابت أصوات البكاء والنحيب، وتاهت بين قهقهة المقهقهات الدموع والآهات.

ونظرعباس إلى درة زمانها، وإلى نبوية أرملة أدهم، وإلى الغندورة، وإلى الرجال، وإلى النساء، ولم يستطع أن يقاوم ضحكة غلبته. لكن الضحكة امتدت فصارت ضحكات، واشتركت معه فيها زوجته، ثم كل الذين معه من رجال ونساء.

وتحولت الخانكة، فى مكانها النائى المنعزل، فى وسط صحراء العباسية إلى ضحكة طويلة نشطة، خففت عن كل الناس الهجير وتقطيع الجلاليب وشد الشعور، واللكمات والكدمات وآثار أسنان غائرة فى أماكن متفرقة من الأجسام.

ثم اتجهت نوارة نحو أمها، وفجأة تعانقتا فى حب وحنان.

قالت الغندورة: وحشتينى يا "أمه". سلامتك يا "أمه".

وقالت ست الناس: وأنت أيضاً يا غندورة. كيف حالك؟

قالت الغندورة: بخير الحمد لله.

قالت ست الناس: وأختك، كيف حالها؟

وتقدمت منها درة زمانها وتعانقتا، ثم نبوية... ثم بقية النساء، وعندما جاء دور الرجال تقدم عباس منها، وعلى وجهه بقايا الدموع والضحكات، فعانقته ست الناس وهى تقول له:

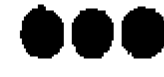
- سامحنى يا عباس. أنا مجنونة! أنت تعلم أنى مجنونة، وليس هذا ذنبى.

قال عباس فى حنان:

- أنا أفديك برقبتى يا ست الناس. المهم ترجعين معنا إلى دارك وأهلك وبلدك.

ـ تحت أمرك. أنت الآن كبير العائلة أنا عارفة أنك صرت كبير العائلة. افعل بى ما تشاء.

وهز الطبيب رأسه وهو يتجه إلى مكتبه، لاتخاذ إجراءات تسليمها لهم.



وفى القطار العائد بهم إلى القرية كان عباس يجلس وقد أحاطت به مجموعة من الرجال، حول سيد شيخ البلد الذى أخذ يتحدث فى صوت عال كريه، ويضحك بين الحين والحين بغير سبب، بينما عباس والرجال يتبادلون النظرات، ويهزون رءوسهم فى أسى.

"وفى يوم من الأيام يا رجال، دعونا ملك اسطنبول على الغذاء، وجاءت معه زوجته الحلوة الفاتنة. يا خبر يا أولاد. تركنا الغذاء وأخذنا نتملى فى جمالها ومفاتنها.

"شبعنا يا أولاد، كلنا شبعنا، ما عدا الملك، لأنه حمار".

وأخذ سيد شيخ البلد، ابن سلطان الكبير يضحك ضحكاً عالياً متصلاً، والرجال حوله لا يصدقون ما يسمعون. أهذا شيخ البلد الرزين الرصين العاقل؟ أهذا صهر الحاج غضبان الكبير، وكان أنصح رجل فى الناحية، وأكثرهم قدرة على تشغيل أمواله فى الحلال والحرام جميعاً؟ ألم يكن الحاج غضبان يعده ليخلفه من بعده؟ ألم يكن يقول أنه لم ينجب إلا ولداً خائباً لا له فى الطور ولا فى الطحين، لكن ربنا عوضه بابن أخيه سلطان وزوج بنته نعمت، وشيخ بلد مهيب عاقل؟ أهذا هو المهيب العاقل؟

لكن الفلاحين طيبون. إنهم ينظرون إلى الرجل فى رثاء ودعاء.

لكنه ينظر إليهم فى استغراب.

ـ إيه؟ ماذا ؟ غريبة؟ أهذه رواية غريبة؟ عمركم ما سمعتم عن ملك؟ نعم ملك!؟ طبعاً بهائم ربنا! حتى عباس من بهائم ربنا!؟

ويضحك ضحكة طويلة جداً، وهو يمسح على رأس عباس، ويقبله فى ود وهو يتابع كلامه هذا:

"عباس أنت صهرى وزوج أختى الكبيرة. أنت تتحملنى. آه... لابد أن تتحملنى. أنا أيضاً شيخ البلد. أنا ابن سلطان الكبير، ومقامى محفوظ. أليس كذلك يا عباس؟ ".

ويؤمن عباس على كلامه، وهو يربت على كتفه فى حنو وإشفاق، ويقول له فى ود وصوته يتهدج وكأنما دمعة قلقة تسللت من مآقيه إلى حلقه، فتعثرت فيها كلماته:

- نعم يا سيد يا شيخ البلد، مقامك محفوظ، أنا أتحملك على عينى يا شيخ البلد، ربنا يقويك على ما أنت فيه.

وتهلل وجه سيد وهو يسمع هذا الكلام، فوقف يصفق بيديه فى مرح وهو يقول:

- هيه... ألم أقل لكم؟ تماماً كأنه شامل تابع ملك الجان. ألا تعرفونه؟.

لكن من أين تعرفونه يا بهائم ربنا؟ أنا أحكى لكم حكايته.

وجلس شيخ البلد متربعاً، وقد شمر عن ساعديه، وأخذ يروى الرواية.

- وكان لملك الجان تابع أمين مخلص اسمه شامل. وكان ملك الجان يصحبه فى كل مكان حتى حسبه الناس أخاه أو صديقاً عزيزاً جداً عليه، وأخذوا يعاملونه كما يعاملون ملك الجان، حتى ظن شامل أنه صار وملك الجان أخوين، لا فرق. وخشى ملك الجان على نفسه يا بهائم ربنا، فأخذ يتعمد أن يتصنع المزاح مع تابعه شامل أمام الناس، و"يلطشه" ... هكذا ...

وامتدت كف شيخ البلد، فضربت عباس ضربة خفيفة على وجهه.

وضحك سيد ضحكاً عميقاً، بينما عباس صامت كتمثال، والناس حوله تتملكهم الحيرة والغضب.

ويستأنف شيخ البلد الرواية.

وأكثر ملك الجان من المزاح عامداً متعمداً، وفى كل مرة ـ وأمام الناس ـ كان يقترب من شامل، و " يخبطه" ...هكذا.

ويعود شيخ البلد يمثل المنظر مع عباس، وهو يضحك، وعباس كما هو فى صمته الصبور، والرجال ينظرون فى غضب حائر.

ويعود شيخ البلد إلى روايته.

ـ وعندما ضاق شامل بتصرفات ملك الجان، قال له أنه لم يعد يطيق هذه الاهانات، فصاح فيه ملك الجان: إذن فقد أصبح على أن أضرب نفسى بالرصاص. إذا لم تكن أنت تتحملنى يا شامل، فلم يعد فى هذه الحياة شخص آخر يتحملنى. أستودعك الله. سأذهب الآن عنك لتستريح، ولن ترانى. وأخذ الملك يبكى يا أولاد، وشامل يبكى معه، وعندما أراد أن يذهب عنه، أمسك شامل به، وأخذ يقبل رأسه ويديه ويرجوه البقاء، والملك غاضب يريد الذهاب إلى حيث يضع لحياته نهاية حزينة.

ـ دعنى أذهب. الحياة لم تعد تستحق أن يحياها ملوك من أمثالنا.

ـ بل تبقى يا مولاى لعرشك وللجن الذى آمن بك، ولرعاياك الشياطين.

ـ لا ... الدنيا تغيرت يا شامل. حتى أنت يا شامل تغيرت، ولم تعد تتحملنى.

ـ بل أقسم لك انى سأتحملك. لن أعترض بعد ذلك على شىء.

ـ و إلاهانات يا شامل؟

ـ ستصبح تحيات يا مولاى.

ـ واللطشات والضربات؟ ...

ـ ستصبح أرق من اللمسات.

وأخذ ملك الجان يجرب "فيلطشه" مرة كهذا ... ومرة هكذا ...

وبينما سيد شيخ البلد ماض فى تمثيل روايته، وعباس صامت يتطلع إليه، كانت نفوس الرجال تغلى من ضيقها بهذه التصرفات.

وانطلق صوت يصيح:

- ألا يكفى هذا يا شيخ البلد؟ أتنسى أنه العمدة وأنت شيخ البلد؟

وصاح سيد فى استنكار:

- والنبى؟ خوفتنى يا أخ! الله! فتوح. أنت فتوح بن الحاج قنديل. كبرت يا فتوح.

وأجاب فتوح:

- هذا كثير.. هل هذا جزاؤه؟ والله لو كان أخوك العمدة غضبان لا يزال حياً ما فعل مثلما فعل حضرة العمدة. والله ...

وقبل أن يتم صاح عباس قائلاً:

- فتوح. إياك! ولا كلمة.

قال فتوح:

- الحق يا عمدة. ألا أقول الحق؟

قال عباس:

- وماذا فعلته أنا؟ وماذا أكون أنا لأفعل شيئاً. الفعل فعل ربنا يا أخى ولسنا جميعاً إلا عبيده. ان مقام شيخ البلد محفوظ، والعين لا تعلو على الحاجب.

ونظر عباس إلى شيخ البلد وربت على كتفه، وقبل رأسه، وهو يقول له:

- شرفتنا يا شيخ البلد. أهلاً وسهلاً. أهلاً وسهلاً.

لكن شيخ البلد لم يرد، وأخذ ينقل عينيه بين عباس وفتوح والرجال كأنه لا يعى مما يدور حوله شيئاً.

وأخذ عباس يستفسر عن الحالة هناك، فى العربة الأخرى من القطار، وارتاحت نفسه عندما علم أن ست الناس هادئة، وأنها تتحدث مع ابنتها حديثاً شيقاً حول ذكرياتها الطويلة مع سبع الليل، "أبو سريع".

وعندما وقف القطار فى طنطا، ونزل من نزل، وبدأ يصعد إليه ركاب آخرون ارتفعت أصوات الرجال بصيحة عجب وفرح، وهم ينطقون اسمه: سيدنا الشيخ عبد الرءوف.

وابتسم الشيخ وهو يصعد القطار، وألقى عليهم السلام، واتجه نحوهم فى تؤدة، بينما كانوا يسرعون نحوه، يصافحونه ويقبلون يديه.

وعندما استقرت عيناه على شيخ البلد، صاح بسم الله الرحمن الرحيم، وأنه جل جلاله، خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

وانتقض سيد، واندفع نحو الشيخ يقبل يديه، وصيحة الرجال ترتفع بالصلاة والسلام على النبى، و الاستغاثة بمدد الشيخ العظيم.

قال عباس:

- والنبى نظرة إليه يا مولانا.

قال الشيخ:

- ربنا يتولاه ويتولاها.

وصاح الرجال فى عجب:

- الله أكبر ... الله أكبر ... مدد يا سيدى يا ذكيرى. مدد يا شيخ عبد الرءوف.

ونظر الشيخ إلى عباس وأخذ يسأل:

- وهى، من معها هناك؟

قال عباس:

- أختها وبنتها وامرأة ابنها.

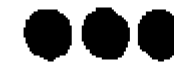
قال الشيخ:

- طالما الست راضية معهن، فسيكون كل شىء على ما يرام.

وصاح العمدة عباس:

- مكشوف عنه. أى والله. شافها وهى هناك فى العربة الثانية. ربنا يجعلنا من بركاتكم يا أسيادنا. ربنا يديم عليكم النعمة والكشف والنور.

ولم يرد الشيخ، لكنه مضى إلى العربة الأخرى، ليقرأ لست الناس الفاتحة. وحوله العمدة وسلطان وبعض الرجال، بينما أحاط بقية الرجال بشيخ البلد حتى يصلوا به إلى البلد فى سلام.



وعلى رصيف المحطة كان أبو اليزيد الحمار فى الانتظار. صف طويل من الحمير وقد جهزت أحسن تجهيز بالسروج والبرادع. وصف آخر طويل من الصبيان، من الأولاد والأصهار والأقارب، وفى يد كل منهم عصاه، وفى ساق كل منهم عفريت يسابق به الراكب والركوبة.

وفى أول الطريق الزراعى كان الجوهرى منتظراً بسيارته السوداء، بعد أن أصبحت جزءاً من حياة الناحية، يكمل الطريق الزراعى والرياح و "أبو اليزيد" الحمار.

وعندما نزل الشيخ، ثم عباس، ثم الرجال، كان شيخ البلد بينهم يتطلع إلى المحطة والريف والناس كأنه لم ير شيئاً من ذلك أبداً. لكنه على كل حال امتطى ركوبة ومضى وخلفه عدد كبير من الرجال على ظهور ركائب أخرى تسابق ركوبته فتسبقها حيناً وتتخلف عنها حيناً آخر.

وانطلق صوت الحمار بآهاته الحزينة، وهو يتوجع فى أسى ومرارة، والرجال يرددون معه بعضا مما حفظوه منها.

أمـا ست الناس، فـقـد نزلت من العـربة الأخـرى يحـيط بهـا النسـاء وسلطـان وبعض الرجـال. لكنهـا مـاأن مـضت خـطوات ووصلت إلى أول الـطريق الزراعى، حـتى اخـتـفت وبعض النسـاء داخل السيـارة السـوداء، ومضى الجـوهرى بهن كـالشـيطان، يسـابق الريح وأشجار التين والسنط والتوت والجميز، ليصل فى طرفة عين إلى القرية، يقف أمام بيت سلطان لتنزل ست الناس والنساء.

وكأنما كانوا وكن على ميعاد.

لقـد أطلت من داخل الدار وجـوه عـديدة، لنسـاء ورجـال وأطفـال، كانـوا جـمـيعـاً فى انتظار ست الناس، وسيارة الجوهرى.

وارتفعت أصوات كثيرة، غلب عليها نداء فيه لهفة وحزن.

- عمتى.. عمتى ست الناس.. عمتى.. الحمد لله على السلامة يا عمتى.

وبعـد لحظات كـانت ست النـاس قـد اخـتـفت داخل الـدار، بين القـبـلات وعـبـارات الترحيب، ودعوات السعادة والشفاء.

واختفت بعد ذلك الوجوه، إلا واحداً حلواً ومليحاً، برغم السنين.

الست السيدة، ظلت واقفة، تطل من فتحـة الباب، وكان الجوهـرى لا يزال كذلك واقفاً يطل عليهـا من شبـاك السيارة. وسـرت بينهمـا ابتسامـة رقيقـة حيبـة، تخشى أن يضبطها الناس متلبسة!

لكن الجـوهـرى عـفـريت! الا يقـود "الأوتـرومـبيل"؟ ألا يجـرى "بالأوتـرومـبيل" أسـرع ممـا يجرى الرهوان؟

ثم أنه وحـده فى هذه الناحيـة الذى يعلم أشياء كثيرة غـامضـة لا يعرفهـا الناس. إنه يعـالج الأوتـرمبيل إذا اختل. أنه يملؤه بالبنزين ليتحول فيه إلى قـوة عاتية تجرى كبسـاط الـريح. إن عنده كـمنجة يعزف عليها ألحانـا رقيقـة جميلة، تختلف عن الأرغول والصـفارة الغـاب التى يعزف عليهـا سـعـد "العايق الفـايق" ألحـانه الغرامـيـة المتأججة. أنه صـديق كل

سائقى القطارات، فإن بحَّر إلى دمنهور أو قبَّل إلى كفر الزيات فهو يركب مع سائق القطار. وتردد القرية أنه يعاون السائق فى عمله وهو يسوق القطار. ياه! وله صفارة عندما يكون قادماً مع قطار. إنها صفارة ذات نغم يكاد من دقته يصبح كالنداء، ما أن يتردد فى الفضاء حتى يقول الفلاحون فى الحقول "الجوهرى"، هو الجوهرى لا جدال. والجوهرى فوق هذا معروف أكثر من العمد والأعيان، وله من النفوذ ما يفوق نفوذ العمد والأعيان. الناس يعرفون اسمه ويهتفون به. وضابط النقطة لا يتنقل إلا معه، وكم رآهما الفلاحون وهما يتبادلان المزاح. حتى المأمور لا يركب إلا معه. الحكمدار يا شيخ هو الآخر إن جاء - وقلما يجىء - فركوبته المفضلة، هى هذه السيارة الحديد، "الأوترمبيل".

إنه جن مصور الجوهرى هذا، لا يعجز عن شىء.

لقد نزل من السيارة، بينما الست السيدة تشهق من الفزع. ظنت أنه سيتوجه إليها، بلا حياء.. يفعل ماذا؟ مصيبة! والله تبقى مصيبة!

فإن خلت إلى نفسها، وصدقت نفسها، فإن هذه المصيبة هى إذن أحب ما تنتظره الأرملة، بنت العمدة القديم، وزوجة العمدة الراحل، القتيل! ليت المصيبة أن تقع، وليكن بعد ذلك ما يكون!.. وماذا يكون؟

فإن استفاقت من هذا الخدر اللذيذ، عادت إلى نفسها تلوم.

ما هذا؟ هراء! تغفيل! أنت من، وهو من يا مجنونة! ثم إنك قد كبرت على لعب العيال. والناس ينظرون إليك على أنك أم، وتكادين أن تصبحى جدة ذات يوم قريب. ومقامك، وأسرتك، والهالة الضخمة التى تحيط بك من يمين وشمال!

وماذا أخذت يا بنت من كل هذا؟ طول عمرك مسكينة برغم هذا، وربما من أجل هذا! الحب، ما ذقته أبداً يا بنت العمدة! الهيام، ما أحسسته يوماً مع العمدة! الغرام... كان دائماً عليك حراماً! ألا تذكرين حبك القديم أيام الصبا؟ حتى هذا الحب كان منحوساً يا بنت. إن حبيب الصبا طار، قبل أن يطفىء من قلبك نار الغرام، وعبثاً ضاعت

توسلاتك يا سيدة مع القريب والصهر الحبيب، مرسى الملعون. لقد كانت حجته السمعة. خاف على سمعتك وخشى أن يفتضح السر، وما كان فى الحقيقة يسعى إلا إلى هروب، بعد أن شبع! وتفكرين بعد هذا فى اسم العائلة والسمعة والصيت؟! طيب. لتسعدى يا أختى بالعائلة والسمعة والصيت! نامى وبين جفنيك السمعة، واستيقظى وبين ذراعيك اسم العائلة وصيتها! إن شاء الله ينفعك هذا ويغنيك عن الحب والهوى، وكلمة رائعة مملوءة بالنشوة، وقبلة طويلة، طويلة، طويلة.. أطول من جسر الرياح، وإغفاءة لا يقظة بعدها، على صدر يدق بالرغبة الدافقة المجنونة.

وفزعت الست السيدة مما أصابها من الدوار.

نعم إن رأسها تدور، وعيناها زائغتان، وهى ترى الجوهرى وقد ترك السيارة وخرج من بابها بعد أن دفعه وراءه فى ثقة، ودار حولها ...متجهاً نحوها.

وكادت تناجيه: تعال... تعال يا حبيبى.

وكادت تصيح فيه: بل اذهب عنى. إياك.

وكادت، وكادت، حتى لم تعد تدرى، ماذا تحب، وماذا تكره.

على أن كل هذه الخيالا ت قد تبددت، عندما ذهب الجوهرى إلى مقدمه السيارة، وفتح غطاءها، كأن عطباً أصابها. ووقف فى زاوية تحت غطاء السيارة، يتظاهر بأنه يكشف على ما فيها من عطب، وما كان ينظر إلى شىء فى السيارة، إنما سمر عينيه فيها، "الست السيدة".

وشعرت وهى تطل من زاوية الباب، أن جسمها قد بدأ يتعرض لشىء كأنه "شكشكة" الدبابيس. نعم وكأن هذه الدبابيس "تشكشها" من رأسها إلى أقدامها.

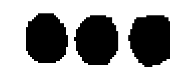
وحاولت أن تتراجع، وأن تغلق الباب خلفها، لكن قلبها لم يطاوعها، ولا يداها ولا قدماها، ولا عيناها.

وظل الجوهرى يطل عليها، وظلت هى تطل عليه، بينما النساء مشغولات بست الناس داخل الدار، والرجال مشغولون بشيخ البلد فى الطريق إلى البلد.

وعندما اقتربت أصوات القادمين أغلق الجوهرى غطاء السيارة، ومضى متفائلاً فجلس أمام عجلة القيادة، ومضى كما جاء، سريعاً كأنه من الجن.

وما كانت الست السيدة تستطيع إلا أن تتنهد، وهى تغلق الباب فى تثاقل وتمضى إلى حيث تشارك فى استقبال عمتها، أخت زوجها، ست الناس.

لكنها لم تكن مع هذا الجمع من النساء، إنما كانت هناك، مع ذكريات دافئة مليئة، بالمتناقضات: الدموع والبسمات. الأسى والأمل. الملابس السوداء من قسوة المحنة!، والقلوب البيضاء من روعة النشوة!



كان ذلك بعد الحادث المروع الذى ذهب بالعمدة غضبان وأخيه ممتاز، على يد الأخ الثالث، شيخ البلد سيد.

نعم وكانت فى سواد ودموع، يحملونها حملاً من هنا إلى هناك، لا تدرى ماذا يريدون بها، وماذا يطلبون منها.

ولقد كان كل شىء غامضاً، يمر أمام نظرها، ملفوفاً فى سحاب كثيف، لا ترى منه إلا أجزاء متفرقة منثورة لا يربط بينها شىء.

عساكر وضباط، ومحقق يسأل، ورجل يكتب.

وناس يجيئون، وناس يذهبون.

وذراع تمتد إلى يدها هنا، لتغمس إصبعها فى شىء، ثم يختمونه على ورق.

وأطفال يتصايحون، ونساء يولولن، ورجال يتماسكون، وقعقعة سلاح، وطلقات تتدافع عبر الحقول، وكرابيج سودانى تتدلى من أيدى الهجانة. وأشياء أخرى كثيرة، كثيرة جداً.

والست السيدة تتلفت هنا وهناك تحاول أن ترى شيئاً واحداً، فترى كل شيء منثوراً مشوهاً. وتحاول أن تتعرف للحظة على واحد تعرفه، فترى كل الناس، لكنهم يمرون من أمام نظرها أسرع من "ترومبيل" الجوهرى.

والجوهرى نفسه يقبل عليها يسندها حتى تركب السيارة، ثم ينطلق بها، إلى ايتاى البارود أو دمنهور، ويعود بها آخر النهار، أو فى المساء.

يا حلاوة!! الترومبيل له نور!!

هذا تذكره، واحدى التابعات تصيح، وهن عائدات من هذه الرحلات ذات مساء!!

وتذكر كذلك أن النور انطفأ، وأن السيارة وقفت فى عرض الطريق، وأن الجوهرى نزل يصلحها، فاستنفد منه ذلك جهداً ووقتاً.

ولما خاف عليها من الحقول والظلام والفضاء الواسع، قال لها فى حنان شديد: تعالى يا سيدتى، اجلسى إلى جانب الرياح حتى أفرغ من مهمتى.

ولم يكن معك يا بنت إلا تابعة عجوز، لا تكاد ترى الناس إلا أشباحاً.

ونزلت من السيارة مستندة إليه. أمسك بكفك، لكنه وضع قلبه فى كفه، وهو يضغط على كفك، ووضع مشاعره فى أصابعه، وهو يداعب أصابعك، فلما أصابك الارتباك وكدت تسقطين على الأرض، مد ذراعه إليك وأحاط خصرك فى حنو رقيق ولذيذ. وتلاقت عيناه بعينيك، فى الظلام، فأضاءت نظراته لك الطريق.

ما بقينا غير لحظة، لكنى شعرت أنى محتاجة اليه. هذه هى الأمنية الحبيسة التى ادخرتها الأيام لى. وأسندت رأسى على صدره، وعيناى فى عينيه. وارتحت راحة عمرى. وما شعرت أنى امرأة، وأنى زوجة وأنى أرملة، وأنى أم. أبداً من هنا تبدأ حياتى. كل ما فات قد ضاع هدراً.

لكنى استفقت، وهو استفاق، فأجلسنى على حافة الرياح وأتى بالتابعة إلى جوارى ومضى هو يصلح السيارة.

ولما فرغ أخذنى إلى السيارة، مثلما أتى بى منها . كف فى كف. وأصابع تتحرك بكلام شفاف. واغماده وذراع تمتد إلى الخصر. ثم وقفة من العمر رائعة على صدر حنون.

رباه! أهو لذيذ هكذا؟ وأين كان هذا طيلة هذا الزمان؟

وصرت أنتظره كل صباح. نعم وبدأت مرحلة الوعى به والانتباه له.

عندما كان يقبل عقب الحادث، كان يظهر من بين كثافة الدموع، وما كنت تحفلين به إن ذهب أو جاء. لم يكن أكثر من شخص غريب، وضعته الظروف فى طريقك، لفترة قد تقصر وقد تطول.

أما الآن، فقد صار شخصاً له فى القلب مكان، يخفق له إذا غاب، فإن جاء خفق به وكاد من الفرحة أن يجاوز السحاب. وما كان أحلى حياة الانتظار والقلق واللهفة والضيق والسأم، والنظرات المتسللة من بين الصفوف ومن فتحات النوافذ والأبواب، والخطوات المترددة المتأنية فى الظلام فى طريق المحطة، حتى يصلح الجوهرى السيارة مما أصابها من عطب. ودائماً كان يصيبها عطب! بل وما كان هذا العطب يصيبها إلا فى الظلام، وفى مكان بعيد آمن، وإلا إذا كانت مع تابعة عجوز! أما فى ضوء النهار، فلا عطب! وأما إن كان برفقتها رجل من الرجال، فالسيارة سليمة قوية البنيان!

وما كان بينهما حديث. أبداً.وأين الكلمات، والحلق جاف، واللسان مشدود، والنظرة واللمسة والخطوة كانت تستنفد كل الطاقات، فلا تبقى مكاناً لحديث، أو لكلام؟

وذات مساء، فى رحلة من الرحلات، كان قادماً بها من المجلس الحسبى ولم يكن معها إلا سلطان ابن عم زوجها القتيل، وعجوز شمطاء من التابعات المخلصات. أما سلطان، فقد فرضت عليه ظروفه أن يبيت فى ايتاى البارود، وقال للجوهرى: تعود بهما أنت. البركة فيك.

ومضى الجوهرى يتسكع! ويضيع الوقت!

وتجاوز الوقت الغروب، ثم أوغل فى الليل حتى تجاوز العشاء، ثم تعطلت السيارة قبل أشجار التين الشوكى، على حافة الرياح.

وأخذ الجوهرى كالعادة يحاول أن يصلح السيارة، فلما طال عليه الوقت دون أن يتمكن منا اصلاحها اتجه نحوها، ليفتح لها السيارة، ويأخذ بيدها يسندها فى هذا الظلام لتستريح على حافة الرياح.

وكانت فى الإنتظار. مدت إليه يدها، ونزلت فى تؤدة، وأخذت تتمايل كأنها على وشك السقوط، فأحاطها بذراعه، فاستجابت له، وسحبها إليه، فأقبلت عليه، وأطال النظر إليها فأطالت النظر إليه، والتابعة العجوز فى عز النوم.

ودار فى ذهنه أن يقول لها أحبك، لكن الكلمات انحبست فى حلقه.

ودار فى ذهنها أن تقول له أحبك، لكن الألفاظ تعثرت فى حيائها.

واستعاضا عن الكلام نظرات، تنطق بالصمت، وتتحدث خرساء!

ولم يشعرا لنفسيهما بوجود، إلاعندما استيقظت التابعة العجوز، وأخذت تسأل نفسها أين تكون.عندئذ ذهبت إليها، وتبعها الجوهرى حيث أدار السيارة واستأنف المسير، بلا كلام.

ياه!...أنه كذلك أقوى من الخطأ!!

لكن هل يفكر فيك يا بنت، بمثل ما تفكرين فيه؟ وهل يريدك؟ هل ينتظر فرصة يغرق فيها نفسه، ويعبر بها عما يشتعل فى داخله من طيش الرجال؟

لكنه لا يفعل. أهو زهد فيك؟ وهل تزهدينه أنت كذلك؟

إذن لابد أنه كما تقولين يا بنت، أقوى من الخطأ.

وهل الحب دائما هكذا، أقوى من الخطأ؟.

ربما!.. من يدرى!

وأقسمت ست الناس أنها لا تريد من زيارة الخص، إلا أن تستعيد ذكرى ابنها أدهم.

وعندما قالوا لها أن ذلك يسبب لها انفعالاً شديداً، وأن ذلك ليس من مصلحتها، ضحكت فى سخرية وقالت: هذا كان زمان. أما الآن، فأنا عقلت.

وصحبوها إلى الخص القديم المهجور الرابض فى اصرار عند أقدام حديقة الحاج سلطان.

إنه لا يزال، برغم القدم والاهمال مثلما كان. صحيح تناثرت بعض أجزائه، وتبعثرت جوانب من أشلائه، وتجمعت فيه بعض الطيور النافرة، وتلاقت عنده القطط والكلاب، تعوى وتنبح، وتغفو عندما لا تجد صدى لهذا العواء والنباح. لكنه مع هذا لا يزال يحمل رائحة خاصة، كعبق التاريخ.

كأنما أبو عوف لا يزال هنا، يسعل من العلة والحاجة. وكأنما أم الهنا إلى جواره تعد له ورق الجوافة مغليا، حتى تزول عنه أزمة الربو.

وكأنهما هنا لا تزالان: مفيدة وتفيدة.

تمرحان كأنما لم يخلق الله على وجه الأرض سواهما. وتقفزان هنا، وتثبان هناك، كأنهما عصفورتان أو غزالتان، أو فى القليل قطعتان. وقد ينضم إليهما الأخرس أبو المكارم، فيملئون الدنيا مرحاً وفرحاً ولعباً. هو يجرى وهما تحاولان اللحاق به، أو هما متخفيتان عنه، وهو يحاول العثور عليهما.

وفردة الشراب الأحمر عطية أرسلها الله إليها: تفيدة الحلوة الفاتنة. لكنها لا تحتكرها لنفسها، وإنما تقاسمهما النشوة بها، والعدو خلفها، واللحاق بها هنا وهناك، عندما حشوها لتصبح كرة مستديرة ككرات أولاد الأعيان، من تلاميذ المدارس.

آه! والله وأحسن! هذه حمراء وصوف، وطرية على اللمس واللعب، لا منفوخة هواء، تترنح من شكة الدبوس!

وقد صارت فردة الشراب الأحمر أقدس رسالة غرام فى هذا الجو السحرى الفاتن حول الساقية، وغير بعيد من الخص أو من قبة سيدى الذكيرى.

لكن الذكريات ليست كلها بهذه الرقة أو الدفء.

لقد شهد هذا الخص ـ مع ما شهد ـ الحاج سلطان، وكيف هوى إلى قاع النزوة، فأخذ يلاحق بنتاً صغيرة فقيرة ومسكينة، يريد أن يفتك بها، ليطفىء ما فى نفسه من السعار. فلما يئس وما استطاع أن ينالها، قرر أن يغتصبها اغتصاباً شرعياً. نعم ولم لا؟ يتزوجها على سنة الله وسنة رسوله، ليضيفها إلى الرصيد الحى من الزوجات القديمات والجديدات، الكالحات والقادحات والفاتنات، الصالحات والطالحات والخبيثات والطيبات. وكله يستوى: ما فات، وما هو آت، حتى يصبح ذات يوم مع ما فات!

ومن الخص ساقوها للحاج سلطان سوق العبيد، لتصبح الزوجة الرابعة فى طابور الزوجات، ثم لتسقط ضحية فى مياه الرياح، وطفلها الرضيع يبكى، ويمد شفتيه إلى ثديها، فلا يمدها إلا إلى فراغ!

لكن هذا الرضيع يكبر ويصبح بعد حين، الساكن الوحيد المجهول، الذى يتسلل إلى هذا الخص المهجور، ليستلقى على أرضه الطيبة، حيث كانت أمة تستلقى فى نوم عميق أول العمر، ثم فى نوم المفزوع بعد أن صادفها نحس الحاج سلطان.

ولكم كنت تبكين على هذه الأرض يا أماه! ولكم كنت تتأوهين هنا، فتتردد آهاتك فى جنبات هذا الخص الصغير!

نعم وكم فزعت فى أحلامك، فأخذت تصيحين صيحاتك الطفلة، تتلمسين طريق نجاة، لكن الطريق كان أقرب إلى المستحيل. وكيف تكون لك نجاة يا بنت "أبو عوف"، وأبوك قطعة من أرض الحاج سلطان، لا يملك من أمره إلا أن يسمع ويطيع؟ وأمك وأختك أشد ضعفا وأكثر حاجة! وأبو المكارم أخرس ضعيف مغلوب لا يملك إلا الدموع والنحيب!

وتمضى يا جلال تخاطب نفسك وتخاطب أمك، لكن الخطاب لا يؤدى إلى شىء. أنه يعتصر همك، ويعتصر مع المهم دمعك... ثم تدور الأيام كالساقية!

وتدور أنت مع الأيام، ومسدس فى يديك، وقلب من حديد بين جنبيك، والناس كالأغنام تسمع طلقاتك، فتهرول هنا وهناك مضطربة الخطا متعثرة المشاعر.

وتلتقى بناس كثيرين، أشقياء وطيبين ومساكين ومغلوبين، وتقيم من نفسك حارساً لآمالهم، وراعياً لأمانيهم.

ثم تبحث عن نفسك فتجدها فى قلب رفيق حنون.

لكن سالمة ترحل مع الراحلين، يا خلفة النحس، يا ابن سلطان الكبير!

وتترك هذه الساحة المباركة، وهذا الخص المهجور، إلى رحلة مقفولة عليك، فى زنزانة سجن دمنهور، لكن السجن ليس إلا "تهذيب وتأديب واصلاح"، فما أن يحقق رسالته فيك حتى تعود إلى مكانك من الخص والساقية وسيدى الذكيرى، وشجرة الصفصاف والجميزة العتيقة، وآمال رائعة تتملك مشاعرك.

وتقفز من حيث أنت إلى حيث تجد الثأر العظيم.

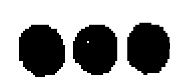
نعم وتؤرق جفون الإنجليز، كما كنت تؤرق جفون العمد والأعيان و "أبو سريع".

لكنهم يا جلال يشعرون بك، ويأخذونك إلى المعتقل، فتهرب إلى مهمة أخرى أكبر، وهذه الساحة بين ناظريك، تعود إليها، عندما تضيق بك الحياة.

لكنك تعود هذه المرة شيخاً جليلاً مهيباً، وفى صحبتك شيخة جليلة مهيبة، وأمل عزيز كريم يملأ عليك قلبك وهواك.

لكنك ترحل يا جلال مع الراحلين، لتترك الشيخة تفيدة وابنك "أبو عوف" الصغير.

وتتسع الساحة بعدها لكثير من المحنة و والاثم والعذاب.



لكن هذا كله لا يهمك يا ست الناس. ومالك أنت وجلال وتفيدة و "أبو عوف" وناس مظلومين أو منصفين؟! هذا الخص ليس إلا قبراً، وعلى هذه الأرض سالت دماؤه، وفاضت روحه. نعم ولم تعد ترى شيئاً إلا وجهه الصغير الأسمر، وهويناديها صائحا :من قتل أبى يا أماه؟ أريد أن أثأر لأبى يا أماه.

لكنك يا أدهم تذهب لتلحق بأبيك، تاركاً طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يصيح فى أمه مثلما تصيح فى سائلاً عمن قتلك، ليثأر لك ولجده وسميه "أبو سريع".

ترى كيف وجدت الحياة الأخرى؟

هل تلتقون هناك، أنت وأبوك؟

وهلا عرفت الآن من أبيك، من قاتله؟ لابد أنه يعرف، ولا بد أنه قال لك من ذلك الذى دفعه إلى الرياح، ليذهب فى هوة سحيقة عميقة تنتزعه من دنياه على هذه الصورة القاسية. إذن، وها أنت ذا قد عرفت، ألا تثأر له؟ ألا تنتقم؟ ألا تقتص؟ لكن كيف يا مسكين وأنت هناك، وقد عبرت حاجز الموت، فلم تعد قادراً بعدها على أن تعبره إلى الدنيا؟

أما عنك يا أدهم يا بنى، فقد عرفت من قاتلك. الدنيا كلها تعرفه. أنه خالك يا أدهم. خالك سيد المجنون. لابد أنه جن من قبل أن يقتلك. مجنون وابن مجنونة، خالك يا أدهم.

وتذكر ست الناس أمها فتسأل أدهم، هل لقيها هى الأخرى؟ وهى لا تزال كسنطة عجوز، ساح الصمغ على وجهها، ثم ضربته الشمس فتشقق كالأرض البور؟ وهلا تزال تنعق فى نباح ثقيل متصل؟ وهل يا ترى عادت إلى شبابها، أم هى فى الآخرة، تبدو فى آخر قالب صبوها فيه، محنية تتوكأ على عكاز، وتنظر إلى الناس من ثقبين كخروم الإبر؟

وتهز ست الناس رأسها وهى تقول لنفسها: وما الفرق فيها بين الشباب والكهولة والشيخوخة. طول عمرها، وهى هكذا!!

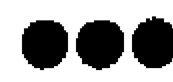
وتستحضر ست الناس بعض حياتها، "فيصعب" عليها أبوها المنحوس.

والله لك الجنة "يابه"!! طبعاً. بل وستشفع فى الآخرين.

آه. أعرف أنك تزوجت بعدها الست قمر ثم قطعة القشدة الصغيرة الحلوة تفيدة. لكن والله يوم واحد مع أمى، يرميك رمياً فى الجنة، أنت ومن تريد.

وكنت مجنونة! أى والله كنت مجنونة، عندما خاصمتك انتصاراً لها. أمى. سامحنى "يابه" فإنها أمى، وكان لابد لى من الانتصار لها، ومحاربة ضرائرها.

على كل حال، لقد كانت نهايتها على يدى. أظنك كنت تتمنى أن أخنقها لك من زمان، لكن كان لها عمر، وكان لابد لها من أن تعكر صفوك. آه. والله تقول لى "يابه"، كيف كان لقاؤها لك؟ هل تركتك تفعل ما تشاء، أم أخذت معها إليك طول اللسان، والتعالي على خلق الله، مع ما أخذت من صفاتها النادرة؟! مسكين "يابه"... "وراك وراك". تهرب منها؟ وأين؟ نصيبك يا حاج سلطان. تمتع بنصيبك، فى دنياك وأخراك! لا تلمنى يا أبى، فإنى لم أكن أستطيع الانتظار. ثم إنها كانت ستموت ذات يوم وتأتيك. أنا عجلت بها إليك، ليس إلا.



وعندما نظرت ست الناس خلفها وجدتها واقفة بباب الخص.

يا ربى من؟ إنها تذكر أنها رأتها من قبل، وتذكر أنها حدثتها، لكنها لا تذكر اسمها، ولا أين كان لقاؤهما.

وفركت عينيها بيديها، لتتأكد أن ما تره حقيقة.

نعم وهذه امرأة بدوية واقفة تطل عليها، وعلى شفتيها ابتسامة باهتة، وفى عينيها بريق لامع، وحلقه مستديرة من نحاس قد تدلت من أنفها، تحمل طابوراً طويلاً من رقائق نحاسية صفراء، تتلامس وتتباعد كلما تحركت ليصدر عنها صوت رتيب رقيق.

أما شعرها فقد تدلى جدائل ملفوفة فى عناية. والحزام حول وسطها، والطرحة السوداء تغطى جانباً من وجهها، والخلخال الفضة حول أسفل ساقيها.

أنت رأيتها يا ست الناس. لكن أين رأيتها يا بنت الناس، يا ست الناس؟ ومتى رأيتها؟ وفيم كان حديثكما؟

أتكون قد جاءتها ذات يوم لتقرأ لها الودع؟

أتكون قد طلبتها لتساعد فى خدمة البيت فى المناسبات؟

وظلت كل منهما صامتة، تنظر إلى الأخرى من بعيد.

وأفاقت ست الناس لنفسها، فسألت نفسها أين تكون التابعة التى أتت بها والتابع الذى أرسلوه معها، ليكون فى خدمتها إذا احتاجت إليه ؟

لكنها لم تر أحداً معها! وبدأت تعجب للموقف الذى هى فيه.

لقد كانوا يخافون عليها أن تأتى إلى الخص، حتى لا تصاب بنكسة شديدة، فلما أصرت أرسلوهما معها. التابعة والتابع. فأين ذهبا؟

وأطلت من فتحات الخص، فوجدتهما بين أشجار الفاكهة، فى حالة غرام عنيف..

وكادت تضحك، لولا الموقف الذى تواجهه.

- من أنت؟ من تكونين؟

- واحدة من خلق الله يا ست الناس. أنا لست جنية ولا عفريتة؟

- أعرف أنك واحدة. لكن اسمك ماذا؟

- اسمى الغجرية. ألا ترين؟ أنا غجرية.

- وتعرفيننى؟

- عز المعرفة. وكيف لا أعرفك وبيننا قربى؟

- قربى؟

- نعم ونسب.

- شىء غريب. أفصحى.

- أنا ضرتك يا ست الناس.

- إيه! كنت...

- نعم هذه هى الحقيقة.

- من مدة طويلة؟

- من أيام شبل.

- ياه...زمن. هذا زمن.

- نعم زمن. زمن طويل.. كالزمن!

- لكن... كيف؟ هذا شىء غريب.

- ما غريب إلا الشيطان يا ست الناس.

- بل أنت كاذبة. أنت تشوهين سمعته. طبعا مات. لو كان حياً لأدبك.

- أبداً. لو كان حياً لقال لك أن هذه هى الحقيقة. ثم لا تغترى فيه يا ست الناس. على مهلك أحسن. يؤدب من؟ الله يرحمه، يؤدبنى أنا؟

- طبعاً لأدبك أنت. بل ولأدب معك أهلك ومن يتعرض لك.

- سبحان الله. و"النبى إيه" خفت أنا!! يا ست الناس، اسمعى كلامى، وزوجك وزوجى كان البعيد نعجة! والنبى كان نعجة!

- اخرسى يا غجرية.

- حاسبى على كلامك يا ست الناس أحسن.

- تهددينني يا كلبة؟

- حلمك والنبى يا ست الناس. أنا ضرتك صحيح، لكنى أستطيع أن أكيل لك الكيل كيلين، لولا أن مقامك عندى كبير.

- ومن أجل هذا تزوجت "أبو سريع"، حباً فى أنا!!

- آه لو تعرفين يا ست الناس. كنت ترتاحين.

- يا سلام. إذن قولى. احكى لى.

- بلا مقابل.

- أى مقابل تطلبين؟ نقوداً؟ أنا... كما تعلمين. أنا...

- أعرف يا ست الناس أنك صرت على الحديدة.

- تعايرينني يا بنت؟

- أبداً والله، ما خطر ببالى هذا. ما أنا إلا غجرية مسكينة ضعيفة الحيلة.

- إذن تحكين لى كل شىء بصراحة.

- وتصدقينني؟

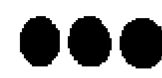
- ...آ...سأرى.

- لا. لن أحكى لك حرفاً إلا إذا قلت إنك تصدقين كل ما تسمعين.

- فإن كذبت على؟

- لماذا أكذب عليك. الرجل ومات، وأصبحنا كلينا أنا وأنت أرملتين لرجل واحد.

لماذا أكذب إذن هل هناك مطمع؟ وهل أريد من الكذب مصلحة؟ لا شىء يستحق الكذب. فكرى قليلاً وستجدين ألا مصلحة لى فى أن أكذب عليك.



وأخذت الغجرية تحكى وست الناس تسمع، فى انتباه شديد.

تذكرين "شبل" والأعمال التى كان يقوم بها هنا فى هذه الناحية؟ تذكرين النقود التى كان يطلبها من العمد والأعيان، والنقود التى كان يوزعها على المحتاجين؟ تذكرين الطلقات الذكية التى كان يطلقها فى هذا الخلاء فتصيب العمد والمشايخ والأعيان بالرعب، بينما ترتاح نفوس الأهالى، ويطمئنون إلى ما وراء هذه الطلقات من أمن وحماية؟ أما زوجى وزوجك يا ست الناس، سبع الليل أبو سريع، فقد كان يصاب بدوار. كان يرتعد من هذه الطلقات. كان يفزع منها كالمحموم. كان يخاف "شبل" ويعمل له ألف حساب، وكان يتصور أن آخرته ـ إذا دنت ـ فلن تكون إلا على يديه.

ويوم حرق "شبل" زراعته، بكى كالنساء. أى والله بكى كالنساء. صحيح لقد خرج يزمجر كالسبع، ويصيح ويتوعد ويهدد، لكنه قبل ذلك وهو وحده معى فى خصى المتواضع، خارج البلد، كان يبكى من الخوف.

وقاطعتها ست الناس:

لم يكن وحده يا غجرية. أنت كذابة.

قالت الغجرية:

يا...ه! وهذا وحده هو الذى أثارك ياست الناس؟ طيب والله العظيم كان وحده، وكان لابد أن يكون وحده! هل كان عندى يصلى العشاء؟ هل كان عندى يتعبد؟ هل كان يقرأ كتب الشرع؟ لماذا كان عندى يا ست الناس؟ يا شيخة اعقلى!

وسكتت ست الناس، ومضت الغجرية:

وعندما أخذ يبكى، بدأ لى صغيراً جداً أمام المحنة. أنا الغجرية البسيطة الفقيرة المشردة فى أطراف القرى والبلاد، لا أواجه المحنة بهذه الصورة المخزية ولا بالدموع الذليلة على النحو الذى فعل. وقلت له هذا، فلم يزدد إلا بكاءً، ثم خرج إلى الناس

يزمجـر يا ست الناس، والكرباج فى يده، والسلاح على كتفـه. منظر. أبو سريـع لم يكن غير منظر رهيب، أما فى الداخل، فقد كان أجوف.

وصاحت فيها ست الناس:

ـ كذابة. أبداً. لقد كان رهيباً.

قالت الغجرية:

ـ صدقيني. والله العظيم كان أجوف. وأنت تعلمين أنه كان أجـوف، "و إلا يعنى"... أنت تعرفين يا ست الناس، ولا داعى للكلام. نحن امرأتان تفهم كل منا الأخرى، ولو أنك وجدت فى "أبو سريع" الرجل الذى يملأ عليك عقلك وقلبك ما بحثت عن شىء آخر...

وصاحت ست الناس:

ـ تكذبين يا غجرية. أنت كلبة. أنت مجرمة.

وقالت الغجرية فى هدوء شديد:

ـ ست الناس؟

وقالت ست الناس فى صوت أقل حدة:

ـ نعم أنت كلبة... أنت مجرمة.

وعادت الغجرية تقول لها فى هدوء:

ـ ست الناس؟

وقالت ست الناس فى صوت هامس، كأنما تتحدث مع نفسها:

ـ نعم يا غجرية. أنت كلبة.. أنت مجرمة.

وقبل أن تعود الغجرية تقول لها ما تقول، ارتمت ست الناس على صدرها تبكى فى استسلام، بينما الغجرية تربت لها على خدها، وتمسح رأسها، وتضمها إليها ترحم الانهيار الذى تعانية.

ولما فرغت من الدمع المحبوس فى داخلها قالت:

- أكملى يا غجرية...

ونظرت إليها الغجرية فى صمت ولم ترد، كأنما أرادت أن تطمئن إلى أنها ستصدق ما تقوله لها، قبل أن تعود إلى سرد روايتها.

وارتسمت على فم ست الناس ابتسامة خفيفة وقالت للغجرية...

- قلت أكملى الحكاية.. يا غجرية.. يا كلبة يا مجرمة.

وابتسمت كل منهما للأخرى، وقد فهمت كل منهما عن الأخرى بعض ما فى دخيلة نفسها.

وعادت الغجرية تقول:

- كنا نقول عن شبل، وعن حرق غيط "أبو سريع". تعرفين يا ست الناس. هذه وفاتت. و إنما الشىء الذى أذله حقيقة يوم أن حرقت الدار وخرجت عارية بقميص النوم، وحولك الأولاد والخدم. يومها أبو سريع كان فى حالة انهيار. كان لا يكتفى بالبكاء، ولكنه كان يصيح من الذعر. كان خائفاً من خياله. كان يتصور أن الخطوة التالية هى ضربة على قفاه فى طرقات القرية. وكنت أقول له: يا رجل تماسك ولا تكن هكذا خائراً خاوياً. وهب أنهم سيقتلونك، هل يحول هذا الخوف بينهم وبين قتلك؟ مت رجلاً وأنت واقف على قدميك، ولا تمت وأنت تستجدى قاتلك.

لكن ذلك كله لم يجد شيئاً!

المهم أن "أبو سريع" العظيم! مسح دموعه، وحمل بندقيته على كتفه، وأمسك فى يده الكرباج السودانى، وخرج من عندى ليجلجل صوته فى كل مكان، وهو يأمر وينهى، ويهدد ويتوعد.

نعم يا ست الناس، هكذا كان زوجنا.

اليوم الذى لا ينسى، يوم أن قابله شبل فى طريق المحطة، وسحبه إلى الحقول وأهانه إهانات جارحة. وكشفه أمام رجاله، ثم ألقى به على قارعة الطريق وهو يسخر منه ويهزأ به.

على كل حال... لا تؤاخذينى يا ست الناس. إنه زوجنا نحن الاثنتان، لكنه لم يتزوجنى حباً فى، ولا هياماً بى، أبداً، لقد تزوجنى لأنه جبان!

صحيح يا ست الناس، وبصراحة كنت له بلا زواج، وما كنت أستطيع أن أعصاه. ففى أول الأمر كنت أظنه... أظنه ماذا ؟ كنت أظنه "أبو سريع" كنت أخاف منه وأخشاه، وأرتعد من طوله وعرضه وشواربه، وصيحاته المدوية. كنت أتصور أنه يأكلنى إذا رفضت شيئاً له. كنت أريد حمايته لا خصومته، وأنا غجرية مسكينة مكسورة الجناح، أعيش فى أطراف القرى والبلاد، ومعى أهلى مساكين مثلى محتاجون إلى من يبسط عليهم الحماية والرعاية. لهذا لم يكن يهمه أن يتزوجنى لينالنى، فلم أكن حصناً منيعاً عليه لا يفتحه إلا المأذون. اغفرى لى صراحتى يا ست الناس.

نظرت ست الناس إليها فى إشفاق، وربتت على خدها، وقالت لها:

- مسكينة يا غجرية. إذن لماذا تزوجك؟

قالت الغجرية:

- ستعجبين يا ست الناس. لقد تزوجنى لأحميه، أنا وأهلى. وأراد أن يستعملنا نحن غجر هذه المنطقة فى حمايته من الخوف الذى سيطر عليه، وكان يقول لى صراحة أنه لا يستطيع أن يظهر أمام الناحية بمظهر ضعيف، لكن الغجر ليسوا من أهل الناحية. ثم أن أحداً لن يصدقهم لو قالوا شيئاً عن حمايتهم له. سيسخر منهم الناس، وسيهزأون بهم.ولقد أراد المارد أبو سريع أن يقيم الدليل على ثقته بالغجر، وأن يكسب ودهم فخطبنى وتزوجنى على سنة الله ورسوله، وإن يكن كل شىء قد تم سراً. وبهذا صار صهراً وله علينا واجب الحماية والتأييد.

قالت ست الناس:

- وأنت؟ كنت سعيدة به؟

قالت الغجرية:

- وما الجديد؟ علاقة فى السر، وزواج فى السر؟ أى فرق؟ لم يجد على شىء حتى يتغير شعورى.

قالت ست الناس:

- لم تكونى تحبينه؟

قالت الغجرية:

- فى الأول كنت أخافه، ثم ارتبطت به برابطة لاهى حب ولا هى كره، لكنها كانت رابطة على كل حال. أما فى آخر الأمر، وبعد أن انكشف على هذه الصورة الوضيعة الجبانة، فقد كنت أحتقره أشد الاحتقار. أهلى كانوا مغتبطين به، وكانوا مغشوشين فيه، وكانوا فعلاً يحرسونه، ويحملون السلاح دفاعاً عنه. فى السر أيضاً!.

وضحكت الغجرية وهى تقول:

- غجر يا ست. غجر ضائعون بلا أهل ولا أرض.

لكن ست الناس عادت تسأل:

- ولم تتجبى منه؟

قالت الغجرية:

- أعوذ بالله. أبداً.

قالت ست الناس:

لكن لماذا. ألم تشعرى أنك محتاجة إلى أن تربطيه بك أكثر؟

قالت الغجرية:

ـ الله الغنى. أبداً. أنا كنت أكثر الناس معرفة به. رجل طويل وعريض وصوته يجلجل كالرعد فى خلق الله، ثم ينكفىء على وجهه يبكى وهو يرتعد من الخوف. هل مثل هذا الرجل تحترمه امرأة؟ يا ست الناس أنا لم أتزوجه حباً فيه، أهلى توهموا أن هذه المصاهرة قد تكفل لهم بعض الاستقرار فى هذه الناحية. أما أنا فما كان هذا يخدعنى. أنا كنت أشعر أن كل هذا ليس إلا وهماً، وقد صدقت مشاعرى.

قالت ست الناس:

ـ ولهذا لم تنجبى منه؟

قالت الغجرية:

ـ طبعاً. أنجب ماذا! أنجب من؟ واحداً جباناً مثله؟ يا شيخة.

قالت ست الناس:

ـ وما هو الثمن الذى كنت تشيرين إليه؟

قالت الغجرية:

ـ وماذا تظنين هذا الثمن أن يكون؟

قالت ست الناس:

ـ أن يكون نقوداً، فأنت تعلمين! فإذا لم يكن الثمن نقوداً، فماذا يكون؟.

قالت الغجرية:

ـ لا ثمن يا ست الناس. أنت دفعت الثمن.

قالت ست الناس:

ـ أنا دفعت؟ ماذا دفعت؟

قالت الغجرية:

- انك صدقت ما سمعته. هذا هو الثمن يا ستى. هذا يكفى.

قالت ست الناس:

- غريبة! لا يمكن. قولى الحق، ماذا تريدين؟

قالت الغجرية:

- صداقتك، إذا كنت تعتقدين أنى أصلح صديقة لك.

قالت ست الناس:

- طول عمرى وأنا أسمع عن الغجر أنهم لا يعرفون معنى للصداقة، ولا للحب، ولا للوفاء، ولا للشرف، وأن الحياة عندهم ليست إلا مغامرة سريعة، وفرصة من الفرص يقتنصونها اقتناصاً، ويجرون. لكنك يا غجرية تقولين كلاماً آخر.

قالت الغجرية:

- خدعوك والله يا ست الناس. الغجر ناس كسائر الناس، وخلق ككل خلق الله، ولدوا من آباء وأمهات، ونزلوا إلى الدنيا وهم يصيحون وترتفع عقائرهم بالبكاء. لكنهم غجر. الناس يعاملونهم بحذر، ويسكنونهم أطراف القرى والمدن، فى الخلاء الواسع، لا يسمحون لهم بأن يقتربوا من دنياهم أو يقر لهم قرار. منبوذون يا ست الناس، مشردون فى كل مكان. يسعون وراء فضلات البشر. حتى المرعى لا يقتربون منه إلا إذا هجرته ماشية الفلاحين. حتى ماء النهر، لا يشربون، منه إلا بعد أن يمر بألوف الأفواه العطشى. إنهم لا ينالون إلا الفتات، والبقايا. وهم راضون بما قسمة لهم الله، لا يثورون ولا يتمردون، ولا يسعون إلى تغيير هذه الحياة. إنهم على العكس سعداء بما يجدونه فى أرض الله الواسعة. الخيمة والناقة والشاه والكلب، وتوكل على الله فى الحل والترحال، ولا شىء غير هذا. هذه هى حياة الغجر يا ست الناس قد يستقرون فى مكان ما، ولكن شعورهم الدفين أنهم رحل، أو أنهم معرضون لرحيل. لهذا فهم مهيئون للتغيير، مهما

استقرت بهم الأحوال، حتى لقد أصبح التغيير طبعاً من طباعهم. والفجر يا ست الناس يعتمدون على الله، وهم يتعلمون من طفولتهم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وأن حياتهم رهينة بالجهد والعرق والضنى والتحمل والصبر على المكروه والقناعة، و إلا فمآلهم إلى الجوع والتشرد والضياع. لهذا فالغجر يا سيدتى شجعان، لا يبالون بالخطر، ولا يخافون إلا الله. وحياة الغجر يا سيدتى بطبيعتها صريحة وواضحة. وهم لهذا لا يكذبون، ولا يجدون داعياً للكذب. الذين يكذبون يدارون بالكذب شيئاً يخافون أن يفتضح، وليس لدى الغجر ما يدارونه، وليس لديهم شىء يمكن أن يفتضح.

قالت ست الناس:

- غريبة هذه الحياة!

قالت الغجرية:

- هى حياتهم على كل حال، وهى غالية عندهم، لا يفرطون فيها، ولا يغيرونها.

قالت ست الناس:

- لكنها قاسية يا غجرية.

قالت الغجرية:

- الشىء السليم دائماً قاس يا ست الناس وأسهل شىء هو أرخص شىء، والخطأ أسهل من الصواب، و والانحراف أسهل من الاستقامة.

قالت ست الناس:

- ماذا تقصدين يا غجرية؟

قالت الغجرية:

- هنا نكون قد عدنا مرة ثانية للثمن. ألم نتفق على أن نكون صديقتين؟ آه لم نتفق بعد. لكن حسن. أنا لا أزال أعرض أن نكون صديقتين، فإذا وافقت كان لنا فى هذا حديث طويل.

قالت ست الناس:

- لا أفهم. أنا لا أفهم. ماذا تريدين؟

وتلفتت الغجرية خلفها، وتلفتت ست الناس معها، فوجدتاه. كان على باب الخص، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وقد خفض رأسه حياء، وتلعثمت خطواته فى ارتباك.

قالت الغجرية:

- مدبولى. الغفير مدبولى. تعرفينه؟ أنا الذى اتفقت معه على هذا.

- سامحينى يا ستى.

ولم ترد ست الناس.

ومضت الغجرية:

- تعال مدبولى.. قبل يديها واسألها أن تغفر لك.

وبدا للغجرية أنه وقف عن الحركة فصاحت فيه:

- مدبولى! ألا تسمعنى؟ تعال قلت لك. هذه ستك ست الناس. هل نسيتها، ونسيت أفضالها عليك؟ تقدم وقبل يديها يا مدبولى.

لكن لا ست الناس ولا مدبولى تحركا. أما ست الناس فقد أخذت تنظر إلى مدبولى نظرات طويلة، تفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وأما مدبولى فلم يكن ينظر إليها. كانت عيناه لا تزالان فى أرض الخص، وقد تسمر فى مكانه لا يتقدم ولا يتأخر.

ومرت لحظات ثقيلة جداً، قالت الغجرية بعدها:

- ست الناس. سامحيه يا ست الناس.

وصاحت ست الناس فى الغجرية تقول:

- قصدك إيه ؟ قولى قصدك إيه؟

قالت الغجرية:

- مدبولى استقام وصار أحسن رجل فى الناحية.

وعادت ست الناس تصيح:

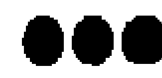
- ومالى أنا، استقام أو لم يستقم!!

ومضت الغجرية تقول:

- واشترى له قيراطين إلى جوار ماهيته وحالته "بقت معدن".

وأخذت ست الناس تتساءل فى عصبية:

- معدن أو قطران. هذه مسألة تخصه هو، ولا شأن لى بها.



وكأنما قد مضى على ست الناس وقت أطول مما يجب، وهى فى حالة تعقل واتزان. ووجدت نفسها تواجه أشياء كثيرة مختلفة ومتناقضة ومتداخلة: الخص المهجور وذكريات ابنها القتيل، وصوت من الماضى حبيب وكريه فى آن. عندما يحتويها بفيض من حنانه يصبح أحب إليها من نفسها، وعندما يطالبها بمثل الثمن الذى يقتضيه رجال الحريق عن إطفاء النار فى جسمها، يصبح أبغض مخلوقات الله إليها. وهذه الغجرية وحديث مفاجئ عن زواج مكتوم أتى إليها بضرة لم تكن قد حسبت حسابها من قبل. ووهج الخيانة يعمى عينيها فلا ترى شيئاً سواه.

نعم خيانة، وهو خائن!!

لكنك يا ست الناس كنت على ثقة من خياناته.

ألم يكن يغازل قمر زوجة حماه؟ وألم يحلق من أجلها شاربه، ليبدو كأشباه الرجال بين الرجال، خنثى لا هو رجل، ولا هو إمرأة؟ وأخريات وأخريات ممن تعرفين أو لا تعرفين.

لكن زواج!! يا نهار اسود، زواج!!

وما الفرق يا ست الناس يا مجنونة ألا تكون الخيانة خيانة إلا بزواج؟

آه...زواج!! وصلت إلى هذا؟ زواج!!

يا ست الناس يا مجنونة! هل هى غيرة؟...تغارين عليه؟

لا.. لا غيرة ولا شىء. لكن يتزوج؟!

وانت يا ست الناس! هل الحلال لك، حرام عليه؟

لا.. يتزوج. يخوننى ويتزوج!!

فإن خنته أنت فهذا لا يهم. أما أن يخونك هو، فهذه هى الخيانة!

لا.. هذا شىء، وهذا شىء. أبو سريع يتزوج على ابن...!! أما يكفى أنى رضيت به زوجاً؟ هل كان يحلم بواحدة مثلى؟ لكن الناس هكذا، لا تحمد الله على النعمة!!

هى إذن مسألة كبرياء يا ست الناس! وما كلمات الخيانة والتنكر والخسة إلا غطاء للكبرياء! ولولا أنك تشعرين باهانة شخصية يا ست الناس، ما كان لهذه الكلمات هذه المعانى المثيرة! لأنها تجرح كرامتك وتلحق الأذى بشخصك الكريم، تنكرين الزواج؟ أما ما دون الزواج فشىء لا ينطوى على الاهانة؟! أنه شخصك، ولا شىء إلا شخصك يا ست الناس. من أجل شخصك، استبحت لنفسك ما تحرمينه على "أبو سريع". وفى سبيل شخصك ترفضين أن تكون خيانته لك مؤكدة بالزواج!

ويصل الانفعال بست الناس إلى حد التوتر، فتصيح صيحات مجنونة، كأنما تحاول أن تهرب من نفسها، أو تحاول أن تهرب من الناس، لكن الصيحات لا تجديها فتنكفىء على وجهها تبكى فى حسرة ومرارة.

وتأخذها الغجرية فى حضنها، وتمسح على وجهها ورأسها وهى تردد الدعوات وتصلى على النبى، وتستعين عليها باسماء الله الحسنى، بينما يغادر مدبولى الخص والدموع فى عينيه، ويجلس على بابه كأنه كلب أمين.

هو هكذا يقبل كالسهم، وكأن الأرض قد انشقت عنه.

وعندما يجده على هذه الصورة التعسة، يربت على كتفه فى حنو، ويرفع رأسه إليه، ويضع عينيه فى عينيه.

ماذا جرى لك؟ ماذا حدث لك يا مدبولى؟

بهذا تحدثت نظراته. إن لسانه أخرس، لكن نظراته فصيحة ومعبرة.

ومضى عم "أبو المكارم" يستفسر من مدبولى عما عسى أن يكون قد أصابه، وكلما زاد الاستفسار هطلت الدموع من عينيه، يقطعها بين الحين والحين، نحيب كأنه صوت فروع الصفصافة تتمزق، وهى تنتزع من جذعها القديم.

لكن "أبو المكارم" قد استطاع أخيراً أن يحمله على شىء من هدوء.

ونطق مدبولى. الجو الذى يحيط به قد حمله على الكلام.

الخص بما يحمل من الذكرى، وست الناس الماضى الملىء بالمتعة والأشجان. وأبو المكارم حارس الساقية القديمة ذات الصوت المتصل الذى لا يعرف معنى اليأس أبداً، مهما كانت الدموع وأحزان المظلومين وآهات العشاق. والتابعة والتابع قد غابا عن الخص، وعن المتبوعة الحزينة، فيما يعانيان من الضنى والحرمان. وغجرية حزينة فيها طراوة وفيها كذلك جفاف، قد احتضنت غريمة لها وضرة، تخفف عنها ما تعانية من مأساة.

جو غريب، مشحون بعواطف كثيرة جداً ومضطربة ومتناقضة وحزينة.

وقال مدبولى وهو يمسك بكف عمه "أبو المكارم".

- إنى لم أعد أدرى من أمرى شيئاً. ضائع. أنا ضائع يا عم "أبو المكارم" ومشتت، ومفقود. تعرف الزورق الضال فى بحر عالى الأمواج؟ إنه أنا! تعرف الورقة الطائرة فى فضاء واسع فسيح، تعبث بها الريح، ولا تدرى كيف أو متى تستقر على أرض ثابتة لا

تهتز؟ إنه أنا! وأنا كذلك يا عمى أبو المكارم أعانى من الندم. أقاسى من الشعور بالاثم! أنا مجرم يا عمى "أبو المكارم"، أنا مخطىء. الذنب فوق رأسى وتحت قدمى. أشعر أن الدم يقطر من بين أصابعى. نعم والسحت والمال الحرام كأنه شوك يوخز ضميرى! يا عمى "أبو المكارم" أنا نادم على كل شىء فعلته، ولو قدر لى أن أعود إلى شبابى لرفضت أن أفعل ما فعلته. نعم يا عمى "أبو المكارم" إن كل ما فعلته حرام لا يرضى الله ولا الرسول ولا الناس، وهو الآن لا يرضينى. كنت جاهلا، كنت طائشاً ياعمى، وزين لى الشيطان أشياء كثيرة قبيحة. المال؟ وما المال إذا كان حراماً ياعمى؟ الطعام؟ وما الطعام إذا كان منزوعاً من محتاج؟ والشهوة والمتعة والعبث. كل تلك أشياء لا يرضى عنها الضمير. لكن وقتها وفى سنوات الشقاوة، يكون لها بريق يخطف الأبصار، كما يكون لها إغراء. والواحد منا يشعر أنه كالمسير يفعل ما يستطيع أن يفعله، ولو سرقة من الناس. لكن عندما يراجع نفسه، يجد أن طعامه مسروق، وماله كذلك مسروق، حتى حبه قد يكون كذلك مسروقاً . ويعيش مثلما أعيش الآن فى ندم لا نهاية له. لكن هل يجدى الندم؟ أبداً يا عمى، ومتى أفاد الندم صاحبه؟ إنى كلما راجعت نفسى، لم أجد أمامى إلا دموعى أمسح بها همى، وأكفر بها عن سيئاتى.

ويحاول أبو المكارم أن يخفف عنه، فيشير له أنه لم يؤذ أحداً أبداً.

ويصيح مدبولى قائلاً:

- أنت لا تعرف يا عمى. بل لقد آذيت ناساً كثيرين. لقد عشت حراماً. أى والله حياتى كلها كانت حراماً فى حرام، لكنى والله كنت كالمسير، بلا إرادة. أنا أسأت للشحات وأم الشحات وأدهم وشيخ البلد سيد، والعمدة عباس، والمرحوم "أبو سريع". نعم وكدت أسىء لنفسى. إساءات فى إساءات. هذه كانت حياتى يا عمى "أبو المكارم" ولا تصدق غير هذا. ربما كان مظهرى الطيب قد خدعكم عنى، لكنى مخطىء، مخطىء، وحياتى كلها أخطاء. هل يا ترى يرحمنى الله؟ هل يغفر لى؟ هل يسامحنى؟

وبينما أبو المكارم يؤكد له أن الله غفور رحيم، كان مدبولى يصيح فيه: أبداً. ان كل هذه الذنوب لا تغفر، ولا مكان لها فى دنيا المغفرة والرحمة. انى ملوث، وكل قطرة فى دمى تتضح بالإثم.

وهز أبو المكارم رأسه فى أسى، وأشار إلى داخل الخص يسأله عما يراه بشأن ست الناس!

وذعر مدبولى وهو يقول:

ـ وكيف تعرف عنها؟ وماذا تعرف؟

وأخذ يهز أبو المكارم رأسه مؤكداً أنه يعرف كل شىء، وأن هذه المسائل لا يمكن أن تخفى عليه، ثم أنه يعرف ما لا يتصور أنه يعرفه!

وقال الخفير مدبولى، وقد انتفض واقفاً:

ـ لكن بالله العظيم ثلاثاً، لقد كان هذا هو الشيد الوحيد الجاد والعميق فى حياتى. صحيح كان حراماً، لأنه من حق واحد سواى، لكنه كان حياتى كلها. ست الناس كانت حياتى يا عمى أبو المكارم، بل إنها لا تزال هى الحياة، وبدونها لا حياة. إنها لا تصدقنى ولا تصدق حبى، لكنها مخطئة. هى تظن أنى كنت أعرفها لأستفيد منها، المال والجاه والنفوذ. لكن والله العظيم لقد كنت أحبها، وأقاسى من هذا الحب الأهوال. ست الناس لا تعرف كم كنت أسهر الليالى أفكر فيها، وأغار عليها من زوجها وأهلها وكل شىء يحتك بها. أنا كلى أخطاء. كلى آثام، إلا فى هذا. وكثيراً ما روضت نفسى محاولاً أن أنساها، لكن كل ذلك ذهب هباء، وظلت ست الناس، هى سيدتى، وروحى، وقلبى، وكل شىء لى على وجه الأرض.

وبينما مدبولى يعبر عن حبه لست الناس بهذا العمق وهذا الصدق، إذا هى واقفة على باب الخص وخلفها الغجرية، وإذا هى تصبح فى رقة حانية، ليسمعها مدبولى، فيتوقف عن الحديث.

تقول ست الناس:

- ولم لم تقل هذا لى من زمن؟

ولم يرد مدبولى، وخفض عينيه إلى الأرض.

وعادت ست الناس تقول:

- لماذا أخفيت عنى كل هذا يا مدبولى، وأنت تعلم أنى كنت أتمناه؟ ولم يرد مدبولى، وتضرجت بالدم وجنتاه.

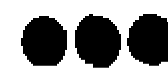
وأستأنفت ست الناس الحديث:

بل كيف تركتنى طيلة هذه السنوات، وأنا أتصور أنى لست إلا فرصة، للثروة أو للشهوة... ولا شىء. بل لماذا لم ترحم حرمانى، وأنت تعلم أن "أبو سريع" لم يكن إلا أباً لأولادى، وشيخ الغفر الذى اختاره لى أبى؟

وساد الصمت...

وتقدمت هى فى خطو بطىء، حتى وصلت إليه، فأمسكت بيديه، ثم ألقت بنفسها على صدره وهى تقول فى صراحة ووضوح:

- الآن وجدت ما أبحث عنه. وجدتك ووجدت نفسى.



وضاعت محاولات "أبو المكارم" هباء.

كان ينصحهما أن من صالحهما أن يخفيا هذا الحب عن الأسرة، وأن المثل العامى يقول "دارى على راكيتك تولع"، وأنهما لو لم يداريا على حبهما لأخمدته لهما الأسرة قبل أن يضىء.

لكن ست الناس لم تسمع لكل هذه النصائح، وظلت يداها فى يديه ورأسها على صدره، وابتسامة رزينة عاقلة تقية تكسو وجهها كله.

وبدت الأرملة القاتلة المجنونة كما لم تبد قبل ذلك أبداً.

إن ملامحها القاسية قد صارت طرية حلوة.

وابتسامتها الخبيثة قد صارت طيبة رقيقة.

ونظرتها الصارمة قد صارت وديعة حانية.

وشراستها وغلظتها وعصبيتها وتعاليها وغرورها وتسلطها وتكبرها وتجبرها، وكلمات الدس والوقيعة تديرها فى حنكة وبراعة. كل ذلك اختفى وحلت محلة صفات أخرى حبيبة طيبة.

وصغرت ست الناس، فلم تعد أرمل كالحة، سليطة اللسان ومتسلطة، وإنما صارت شابة فى عينيها حور، وعلى شفتيها نداء، وفى لفتاتها إغراء. كأنما قد ذهبت ست الناس القديمة إلى غير رجعة، وجاءت بدلاً منها واحدة أخرى جديدة، عروساً بكراً طازجة، لم تهدها الأيام بعد.

ورقت ست الناس، فلم تعد ألفاظها كالحجارة ترمى بها الناس، لكن صارت كالزهور تحيى بها الناس!

هكذا فجأة، كأنما هى معجزة نزلت من السماء!

وتنهدت الغجرية وهى تقول: الحب! لا شىء كالحب أبداً. دواء لكل داء. وشفاء لكل مريض. أى والله، وهذه هى ست الناس، لم تعد ست الناس التى كانت معنا منذ قليل. أنا قلت هو... هو فقط الدواء. إنما السراية الصفراء، والحكما والأدوية، وناس مسافرون إلى مصر، وناس راجعون من مصر. كل هذا كلام فارغ. ها هى ذى. قطرة واحدة من حب، أعادت إليها شبابها، بل وغيرتها وجعلتها إنسانة أخرى. أنا كنت أتوقع هذا، ولم يكن أحد يصدقنى. كل الغجر كذبونى. غجر! طبعاً غجر!! حتى مدبولى كان يسمع منى ويبكى، ثم يدير وجهه لى وينصرف عنى، وكنت أدرك بشعور الأنثى أنه يحبها، وأنه يتمنى لو يلقاها بعد هذا الزمن الطويل، ليقدم حياته فداء لها. لكنى كنت أعرف أنه

خائف منها، متشكك فى حبها، خصوصاً بعد موقفه من أدهم، وكيف أخذ يحرضه على قتل أم الشحات، تنفيذاً لتعليمات شيخ البلد.

لكن الغجرية توقفت عن حديث النفس هذا الدافىء، لترى التابعة والتابع وقد شبعا حباً وهياماً، ووقفا غير بعيد يحملقان فى المنظر الماثل أمامهما.

أهى حقيقة ستهما ست الناس، خرجت من الخص المهجور؟

أهى هى بلحمها وشحمها مع الخفير مدبولى؟

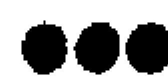
وكاد كل منهما يلطم وجهه بيديه.

لابد أنها خرجت، وجرت بين الحقول، وفضحت الدنيا بكلامها الكثير الفارغ، وضحكاتها الخارجة الوقحة، فأقبل الخفير مدبولى إليها ليمنعها عن هذا العبث، ويمنع سخرية الناس منها.

يا نهار أغبر يا فرحات. والغجرية هذه، ماذا أتى بها!! ياه! هل ذهبت لغاية كفور الغجر؟

ـ" والله ورحنا فى داهية يا بت يا كايداهم". الغفير مدبولى هنا وسيقول لهم كل شىء. وهل الغفير أيضاً سيكذب؟ أنا دخت يا بت!! يعنى كان من اللازم...؟! الله يقطعك يا شيخة!!

ـ" يوه! " وهو يعنى كان إيه. و إلا عملنا إيه!! تقولش عملنا اللى ما ينعملش!! ".



فى اللحظة نفسها كانت الغجرية قد اقتربت من ست الناس وسحبتها إليها فى شدة وهى تتظاهر بأنها تحاول أن تهدىء من روعها، وتحملها على السكينة والصبر والتحمل.

وأبو المكارم هو الآخر شد مدبولى إليه، وهو يشير فى عصبية ليسمع كلامه فلا يفسد كل شىء قبل أن يستوى.

وأقبل فرحات مذعوراً وهو يصيح:

- ستى، ست الناس. أنا كنت هناك لضرورة..

وأقبلت كايداهم خائفة ومذعورة ومرتبكة، وقالت:

- وأنا أيضاً يا ستى، ست الناس... كنت معه!...

وابتسم أبو المكارم وأخذ يعنفهما على طريقته، ويربت على كتف ست الناس لتسامحهما.

ونظرت إليه ست الناس فى ود، وهزت رأسها كمن قبلت العذر وسامحتهما.

وعادت ست الناس إلى الدار هادئة النفس وادعة، تحيى الناس فى ود، وترد على مجاملاتهم فى اتزان، وتخطو فى خفة كالعصفور.

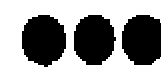
وصلت النسوة على النبى.

وتطلع الرجال كل إلى صاحبه لا يصدق عينيه.

ست الناس صغرت عشرين سنة!

ست الناس احلوت يا ناس!

كأنها عروس ليلة زفافها!



سبيلة الغجرية ظلت على اتصال دائم بها.

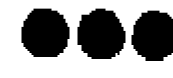
نعم وكانت تخاف عليها من نكسة تذهب بكل ما استعادته من هدوء. الغجر أهلها قالوا لها هذا، ونصحوها أن تلازمها، وأن تقرب ما بينهما بقدر ما تستطيع، بشرط أن تهيىء لهما جواً عاطفياً رقيقاً، بعيداً عن جو الإثم والشهوة.

آه يا سبيلة يا بنتى. لابد لهما من حنان وخيال وحرمان.

نعم ليشعرا أنهما عاشقان يتعذبان، كما يتعذب سائر العشاق، فإن نالا بعد ذلك بغيتهما، شعرا بثمرة العذاب.

أعرف هذا يا عمى، لكن كيف السبيل إلى تحقيق أمنيتهما بعد الضنى والدموع والآهات؟

هذا شأنك يا بنتى. أنا أصف لك العلاج الناجح الصحيح، أما من أين أصرفه، فذلك شأنك، وأنت به أدرى.



وأخذت الغجرية تفكر، وتحاول أن تجد الطريق الذى يوصلها إلى ما تريد.

- غريبة أنت يا غجرية! أهكذا تسعين لتحققى لها أعز أمانيها؟!

- أصلها مسكينة ومريضة.

- وما شأنك يا غجرية؟ وفيم هذا الحرص عليها؟

- أنا إنسانة وهى إنسانة مثلى.

- أنت ضرتها، وبين الضرة وضرتها خصام ومرارة، وكبرياء مجروح. القديمة منهما عليها حكم بذبول الصلاحية، وعدم القدرة على سد الفراغ، والجديدة عليها حكم باستمرار الحنين للماضى، وعدم القدرة على نسيان ما فيه من الذكرى. لكنك مع هذا تسعين لها، وتحاولين أن تساعديها.

- الظلم جمع بيننا يا خالة. أى والله هى مظلومة وأنا مظلومة مثلها، والظالم كان واحداً.

- ولماذا أبقيتما عليه ولم تتركاه؟ ولماذا شرع الله الطلاق إلا لمثل هذه الحالات؟

- نعم هذا صحيح. لكن هل كانت أمورنا فى أيدينا حتى نتصرف كما نشاء؟ هل كنا قادرتين عليه أو على أهلينا، وقد كانوا علينا معه؟ لا أنا يا خالة ولا هى كنا قادرتين على شىء. آه لو تعرفينه يا خالة!!

- مسكينة يا بنتى ومسكينة هى الأخرى. صحيح قد تضطر الواحدة إلى مالاترضاه. أنا أعلم هذا يا بنتى، من تجربتى الخاصة.

- لهذا لجأت إليك.

- وماذا أستطيع أن أفعل؟

- كثير... تستطيعين أن تفعلى الكثير يا خالة.

- كيف؟ وما هذا الذى أستطيع؟

- أعلم أن لك نفوذاً كبيراً على العمدة، والعمدة الآن هو كبير العائلة يا خالة، ولو استطعت أن تقنعيه لانتهى الأمر.

- العمدة؟.. عباس تقصدين؟

- نعم يا خالة.

- لكن قولى لى... من الذى قال لك أن لى مكانه عند العمدة؟

وسكتت الغجرية، وخفضت عينيها فى الأرض، ولم ترد.

ومضت لحظات والصمت بينهما مطبق وكثيف، حتى ليكاد أن يخنقهما!

وأراد الله أن يعفيهما من هذا الجمود الصامت، فدخل عليهما حضرة المأمور بكل ما له من هالة وهيلمان. كانت تسبقه ضحكاته وصيحاته، وقرقعة سلاح العساكر وهم يستقبلونه بالتعظيم.

وأسرعت الست قمر تقول لسبيلة الغجرية، محاولة أن تخفى موضوع الحديث:

- هيه.. والودع ماذا يقول؟

وبسرعة وذكاء قالت الغجرية:

- أنا أشوف الكف. الكف أصدق شىء يا ستى.

وناولتها الست قمر كفها، فأخذت تتأمله فى عناية، وقبل أن تقول شيئاً قالت لحضرة المأمور القادم عليها:

- تعال يا سعادة البيه المأمور هات كفك تقرأه لك الغجرية.

ونظرت الست قمر إلى الغجرية وهى تبتسم وتقول:

- هيه! هيه. قولى لنا ولد و إلا بنت. مراته ستلد ولداً أم بنتاً؟ وأنت يا سعادة المأمور. ماذا تريد؟

قال ناجى وهو يضحك:

- يا ستى كله خير. بنت حلوة لستها، أو ولد بنجوم بتلمع على كتفه.

قال الست قمر:

- وإن رزقك بالإثنين؟

قال ناجى:

- ياه... زى الفقى لما يسعد يرزقه ربنا "بعشوتين" فى ليلة واحدة!

وضحكت وضحك وهو يمد لها كفه.

وأخذت الغجرية تنظر فى كفه، وهى لا تدرى ماذا تقول له. لكن الست قمر أدركت حيرتها، فتدخلت تساعدها. قالت:

- ألا تريد الترقية فى الطريق؟

قالت الغجرية:

- دبورة. أرى دبورة ذات بريق يخطف البصر. الله. والنبى ونذر. صاحبها نذر نذراً كبيراً. ماذا ستذبح يا سيدى؟

ونظرت إليه، فوجدته يطيل النظر إليها، غير عابىء بما تقوله له.

وارتعدت الغجرية خائفة، لكنها تمالكت نفسها ومضت تقول:

- لابد من ذبيحة كبيرة يا سيدى. إنها وظيفة كبيرة، وكل شىء بقيمته.

ونظرت إليه فوجدته قد سمر عينيه فى عينيها.

وشعرت الغجرية أنها لم تعد ترى أو تسمع. حتى جسدها لم يعد قادراً على الحركة. وماذا تقول له وهو يطيل إليها النظر على هذه الصورة؟ ماذا فعلت؟ ماذا يريده منها؟ يا نهارك أسود يا بنت يا سبيلة. أنه مأمور. مأمور المركز كله. ان "أبو سريع" كان يهز الناحية، وهذا المأمور عنده مئات مثل "أبو سريع". يا خيبتك يا سبيلة! جئت برجليك يا سبيلة! وكادت تجرى من الرعب.

الست قمر هى الأخرى كانت مرتبكة لا تدرى ماذا يدور فى ذهن المأمور ابنها.

سبيلة الغجرية تاهت فى المصير الذى ينتظرها، لكنها قالت لنفسها: والله العظيم لأقول له على كل شىء.

آ... أنا كنت مع "أبو سريع" فى المحلة، يوم أن اطلق الرصاص على الست قمر. لكن والله العظيم ما قال لى، إلا بعد أن أطلق عليها النار.

آ... أنا كنت مع "أبو سريع" وهو ذاهب إلى النقطة يحضر الضابط والعساكر لجلال... أو لشبل كما كان يسمى نفسه. لكن هل كنت أعرف أن "شبل" هو جلال، وأن "جلال" أخوك يا حضرة المأمور؟

آ... وأنا أيضاً كنت مع "أبو سريع" وهو يسرق خلق الله. إمرأته... أنا إمرأته، وما كنت أستطيع أن أشى به. الزوجان كل منهما ستر للآخر، فهل أشذ عن كل الناس؟ لا يا حضرة المأمور. أبداً. أنا لست شريكة "لأبو سريع" فى جريمة. صحيح كان يرتكب خطاياه، ثم يأتينى ليحتمى عندى من نفسه، ومن مخاوفه، لكن عمرى ما شاركته فى سرقة أو قتل أو أعتداء. أبداً والله يا حضرة المأمور.

وبينما كانت سبيلة الغجرية تدير هذه الأفكار فى رأسها استعداداً لما قد يفاجئها به من اتهامات، إذا بالبيه المأمور ينطق. أنه يقول للغجرية فيما يشبه الغزال:

- لماذا لم تأتنا من قبل، كانت بهية "اتوحمت" على هذه العيون الكحيلة الحلوة؟

وضحكت الست قمر وضحكت الغجرية، وقد فهمت كل منهما سر هذه الضحكة المطمئنة. وصاحت الست قمر فى ابنها:

- يا ولد.. ألا تزال على شقاوتك القديمة؟ ألا تتغير؟ هى فرصة وامرأتك عند أهلها حتى تلد. آه، طبعاً! " ان غاب القط، العب يا فار "!!

وضحك حضرة المأمور وهو يشد كفه من الغجرية ليرتاح قليلاً، بعد تحقيق طويل سهر فيه الليل كله.

وبعد أن انصرف عادت المناقشة بين الست قمر والغجرية:



- من أين عرفت أن لى صلة به؟

- لا تسألينى يا ستى. عرفت والسلام!

- بل لابد أن أعرف. ومن أنت؟

- أنا رسول عباس إلى أهل سالمة.

- أنت التى...

- نعم أنا التى كانت تذهب إليهم فى أطراف الدنيا بالقدور والملابس والسلامات.

- وعباس هو الذى كان يرسلك إليهم؟

- لا يا خالة. عباس يثق فى واحد من أعمامى. غجرى مثلى، لكنه ككل الغجر شهم وأمين.

- وعمك كان يرسلك بدلاً عنه؟

- فى أغلب الأحيان.

- منذ متى يا شابة؟

- منذ بدأت تحضرين إليه فى الخص.

- يا...ه! وتعرفين أيضاً حكاية الخص؟

- على قدى يا ستى. على قدى.

- وألم تكونى تخافين؟

- ممن؟ أخاف ممن؟

- من "أبو سريع".

- لا. أبدا. أبو سريع كان يخيف الناس كلها إلا أنا.

- يا سلام.. أنت شجاعة جداً.

- ولماذا أخاف يا ستى. ماذا كنت أفعل؟

- تتصلين بأعداء "لأبو سريع"!

- توصيل شىء لناس مساكين وجياع، فيه إساءة "لأبو سريع".

- طبعاً. هكذا يفكر هو.

- وهل يتركون حتى يموتوا؟ حرام! هذا والله حرام يا خالة.

- عندى وعندك حرام. لكن عند "أبو سريع"، حلال وألف مرة حلال.

- يعرف شغله. نحن نفعل ما يرضى الله لا ما يرضيه هو.

- هيه... وتعرفين مصدر النقود.

- طبعاً ... من حلال.

- أيضاً؟ هذا أيضاً تعرفينه؟

- طبعاً يا ستى. ومن أجل هذا كنت أذهب بالنقود. جلال كان بطلاً وشهماً ورجلاً.

- جلال أم شبل؟

- جلال وشبل واحد يا ستى. أنا كنت أقول هذا "لأبو سريع" فى مواجهته.

- وكان يقبل ذلك منك؟

- غصباً عنه!

- الله الله. أنت يظهر أنك كنت على صلة جامدة به!

- وأى صلة.

- وإمرأته كانت تعرف؟

- ومالى أنا وإمرأته؟

- يعنى لم تكن تعرف؟

- ولماذا تعرف؟

- على رأيك!

- على كل حال أنا لم اسع إليه. هو الذى جرى ورائى حتى حفى.

- عنده حق! أين يلقى مثلك يا حلوة؟

- يا ستى والنبى أنا غجرية وفقيرة ومسكينة.

- وما دخل هذا فى الحب والدلع والخفة؟ وقع. أبو سريع وقع. لكن قولى لى...

- نعم يا ستى. تحت أمرك.

- زوجك كان يعرف صلتك "بأبو سريع".

- يا خبر أسود يا ستى. هل خطر بذهنك أنى كنت أكذب على زوجى؟

- الله!! ما هذا؟ يعنى زوجك كان يعرف؟

- طبعاً. لا والله أخدعه!!

- وكان يقبل؟

- طبعاً يقبل يا ستى.

- أنا خلاص مخى طار. زوجك كان يقبل علاقتك "بأبو سريع"؟

- طبعاً. وكان سعيداً بها جداً.

- يا ناس! يا شابة قولى كلاماً آخر.

- الحقيقة يا ستى. هذه هى الحقيقة.

- زوجك كان يعرف؟ وكان يقبل؟ وكان سعيداً جداً؟ هذا شىء غريب! ولم تقم القيامة بعد؟

- لماذا؟.. ما هو الشىء الغريب فى هذا؟

وفجأة خرج ناجى من غرفته، وهو يصيح لأمه:

- يا ست "نينه" ما غريب إلا الشيطان.

وصاحت الست قمر فى ناجى:

- الله! هل كنت تسمع؟

قال لها:

- طبعاً كنت اسمع، وأردت أن أقدمها إليك. ألا تعرفينها! إنها الست سبيلة الغجرية الزوجة الثانية "لأبو سريع"، يا ست "نينة". فهمت؟

وشهقت الست قمر وهى تردد من المفاجأة كلمات متقطعة غير مفهومة.

- أبو سـريع. أنت يا غـجرية. الزوجـة الثـانيـة. الله وست الناس؟ أبو سـريع! ست الناس!

ومضى ناجى يقول:

- وكنت تظنين أنى لا أزال على شقاوتى القديمة. أنا كنت أنظر إليها لأتحقق منها، وقد عرفت عن يقين أنها هى سبيلة الغجرية زوجة "أبو سريع". تزوجها سراً دون أن يعرف أحد.

وكانت الست قمر قد استعادت بعض هدوئها فأخذت تقول:

- ابن الإيه! كان هو الآخر متزوجاً فى السر. هذا غير سهرات الليل هنا وهناك. والله الدنيا أسرار يا أولاد. هل كان أحد يصدق هذا. أبو سريع كان زوجك إذن، فالتى تتحدثين عنها هى...

قالت الغجرية:

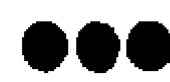
- تمام يا ستى. هى ست الناس.

قال ناجى:

- والآن أذهب أنا إلى المركز استكمل الشقا، وأترك لكما فرصة لحديث أطول.

وبينما كان يغادر البيت أخذ يضحك ويضيف:

- وسيكون الحديث شيقاً جداً كذلك. أليس كذلك يا سبيلة؟



وأخذت الست قمر تعجب لما تسمع، وزاد عجبها عندما علمت أن "أبو سريع" تزوج الغجرية ليحتمى بها وبأهلها من شبل. ولما أخذت الغجرية تحكى لها بعض النوادر عنه،

وكيف كان يتملكه الخوف من شبل إلى درجة الفزع، أخذت تضرب كفاً بكف وهى تقول فى سخرية:

- وكنت تمثل علينا؟ الله يكسفك يا شيخ. سبع الليل، سبع الليل! وشوارب الصقر المفتولة، والصوت "الحيانى"! كان هذا ... "إيه "؟

وكلما كانت الغجرية تحكى كانت الست قمر تستزيدها لتسمع، وتضحك، وتسخر!

وفجأة، أمسكت الست قمر بالغجرية، كأنما تنبهت لشىء كانت قد نسيته. وقالت الست قمر:

- لكنك لم تقولى لى... هل تعرفين من أكون؟

- طبعاً يا ستى. أنت الست قمر البندرية الحلوة الجميلة. والله كنت خسارة فيهم ياستى.

- لكن الست قمر ماتت. قتلها أبو سريع.

- لا يا ستى. لم يقتلها. أنا مثلك كنت أظن أنه قتلها.

- تظنين؟... الله ماذا تقولين؟

- أنا كنت معه فى المحلة عندما ذهب ليقتلك يا ستى. لكن والله ولا لك على يمين، ما كنت أعرف. قال لى فقط أن عنده موضوعاً فى المحلة، وطلب منى أن أذهب معه.

- وماذا قال لك؟

- قال قتلتها. قتلك يعنى، بعد الشر عنك يا ستى.

- وأقاموا سرادق عزاء فى البلد.

- آ... الله يأخذهم جميعاً. لقد أخذهم على كل حال.

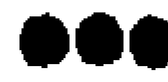
- وكيف عرفت أنى لا أزال حية؟

- أنا وحدى الذى أعرف أنك حية، وأنك لم تموتى.

- كيف هذا يا غجرية؟

- منه هو! لم يقل لأحد يوم قابلته فى حقول الذرة، إلا لى! أنا الوحيدة التى كان يتعرى أمامى من نفسه، ومن تمثيله، ومن ادعاءاته. أنا الوحيدة التى كان يأتمنها على ضعفه.

- وهل يعرف ذلك أحد سواك؟



وسكتت الغجرية قليلاً، ثم نظرت إلى الست قمر وسألتها:

- هل ستثقين بى يا ستى؟

وترددت الست قمر قليلاً ثم قالت:

- أظن أنى سأثق بك.

قالت الغجرية:

- وهل تعتبرين ما أقوله لك سراً لا يذاع حتى نتفق عليه؟

قالت الست قمر:

- لك هذا يا غجرية.

وأخرجت الغجرية من جيبها حلية ذهب فى شكل صندوق صغير وقالت:

- أو تذكرين هذه؟

وشهقت الست قمر فى تعجب، وهى تأخذها، وأسرعت تفتحها، ثم صاحت تسألها:

- وأين وجدتها يا غجرية؟

قالت:

- لست أنا التى وجدتها. لقد كانت فى الخص يا ستى. وقعت منك مرة أثناء مقابلة مع عباس، فعرف منها كل شىء. أولادك فيها. صور أولادك فيها. من ستحملها وفيها هذه الصور، إلا أنت؟!

قالت الست قمر وهى تضرب بكفها فى شبه ندم:

- يا ندامتى. يا ندامتى! وأنا التى احتطت بكل الوسائل حتى لا يعرف!

قالت الغجرية:

- اطمئنى يا ستى. والله عباس ما فتح فمه بكلمة إلا لدرة زمانها ولى. وظل يحترم رغبتك فلم يحاول أن يطلعك على شىء مما عرف. حتى الحلية خاف أن يضعها فى الخص ليقع عليها نظرك، حتى لا تشكى أن أحداً رآها. لقد أدرك كل شىء لكن كأنه لم يدرك شيئاً. ولولا أنه كان مضطراً لأن يضعها فى البيت ما عرفت به درة زمانها، ولما خاف أن يراها أحد عندها، وهى كما تعرفين ساذجة إلى درجة العبط، أعطاها لى لأحافظ عليها، فلم يرها من يومها أحد إلا أنت. وأنا كنت أعرف أنك قد تشكين فى ولهذا أحضرتها.

وقبل أن تجيب الست قمر بشىء، أضافت الغجرية:

- يا ستى يا ست قمر لا تزعجى نفسك بهذه الأمور. نحن ناس يعتمد علينا. انسى كل شىء. انسى أنك رأيت هذه الحلية. سآخذها معى حتى لا يشعر عباس بأنى جئت إليك.

قالت الست قمر ساخرة:

- وإلى متى نستمر نضحك على أنفسنا. عباس يعرف أنى قمر، لكنه لا يريدنى أن أعرف أنه يعرف! وأنت تعرفين أن عباس يعرف، لكنك تحتفظين بالحلية حتى لا يعرف

عباس أنك جئت إلى، وعرفتنى أنه يعرف. وأنا الآن أعرف أنه يعرف، ومطلوب منى أن أتجاهل أنه يعرف، وأتصرف على أساس أنى أعرف أنه لا يعرف! لماذا نلف حول أنفسنا كالساقية. لا يا بنت يا غجرية. سآخذ الحلية، فهى لى، وقد وقعت منى، ولا داعى لأن نعيش كلنا فى أوهام. المهم الا ينتشر الخبر فى البلد الآن.

ثم قالت الست قمر لنفسها:

- ولست أظن أنه سيختفى عن الناس إلى الأبد. ستظهر الحقيقة ذات يوم فأنها أقوى منا، ومهما حاولنا أن نخفيها، فستظهر رغماً عنا. هذه هى، برغم القتل والعداء، وكل ما اتخذوه من احتياطات. حلية صغيرة فى حجم حبة فول، غلبت تدبيراتهم وأظهرت الحقيقة لعباس، ثم لدرة زمانها، ثم للغجرية. ولماذا نذهب إلى بعيد. أبو سريع تزوج الغجرية فى السر، وأخذ كل احتياطاته حتى لا ينكشف أمره للناس، وخصوصاً لست الناس، لكن الحقيقة فرضت وجودها، وإذا الغجرية وست الناس وجها لوجه. الحقيقة دائماً أقوى، من "أبو سريع"، والناس، والغجرية وأنا، وست الناس.

وسكتت الست قمر قليلاً ثم استأنفت الحديث همساً، كأنما تناجى نفسها:

آه لو علم الناس! إذن لأراحوا واستراحوا. أن السارق يسرق فى السر، متوهماً أن أحداً لن يكشفه. والنصاب، والمرتشى، والسفاح، وسارق الأعراض. كل هؤلاء يغرقون فى الإثم سراً، يحتمون بظلام موهوم! لكن هل يدركون أن الظلام لا يدوم، وسيطلع النهار، فإذا كل شىء مكشوف، و إذا هم عرايا، بغير غطاء؟ لكن الإنسان حيوان مخدوع ومغرور!! لا يسمع النصح من أحد، ولا يتعظ بأحد. منذ خلق الله الدنيا وفيها آثام، ومنذ خلق الله آدم وحواء، ومصير هذه الآثام أن تتكشف للناس، وما أفلح أحد - مهما يكن جبروته، ومهما تكن وسائله - فى أن يخفى الحقيقة إلى الأبد. قد ينجح فى أن يخفيها بعض الوقت. قد ينجح فى أن يخفيها عن بعض الناس. أما أن ينجح فى أن يخفيها عن كل الناس، وإلى الأبد، فمحال. الحقيقة أقوى من الناس. ويدرك إلا نسان

هذا كله، وكلما ظهرت حقيقة كانت مخفية، صاح الناس كأن ذلك قول مأثور: الحقيقة لا تختفى أبداً. ثم ينسون ما قالوه، ويأخذون هم يصنعون بأنفسهم حقائق، يخفونها عن الناس. لكن الحقيقة يا أغبياء، تظهر للناس، كما ظهرت حقائق آخرين لكم. دوامة!. تلف بالعقول! أو ساقية! يدور بها الناس كالثيران، معصوبى العيون!

وذكرت الست قمر فى حديثها هذا الهامس زوجها الحاج سلطان وآثامه وكيف كانت تزجى إليه النصح، فلا يزداد إلا كبراً! وأولاد زوجها المتآمرين! وضراتها العزيزات المتفرغات للدسائس وأذى الناس! ودرة زمانها وست الناس، وزوجات الأبناء الفارغات! وعباس المسطول! والعمدة والغفر والحشم والتابعين! وأدهى هؤلاء الشيخ أبو طاقية!! وعندما تذكر الشيخ أبو طاقية، تقول الست قمر لنفسها:

كم فى الدنيا من المخدوعين والمغفلين!! كلكم كنتم مخدوعين ومغفلين، ومن أكبر كبير إلى أصغر صغير. تدوسون على الناس بالنعال، وأعراضكم تحت النعال يا سادة يا أعيان! دنيا كأنها بئر لا يعرف أحد عمق ما فيه من ماء!

لكنها عادت تتذكر أسماء طيبة لها فى نفسها معزة ومكانة:

"أم الهنا، وأبو عوف" والبنتين الرشيقتين المظلومتين: مفيدة وتفيدة.

والحاج مرزوق وزوجته الطيبة وبنته راضية، والشيخ مختار.

وأم الفرح وسعد وعبد النبى الحاج خميس والشحات.

وسالمة... وأهل سالمة، وما دفعته المسكينة من الثمن.

وجلال "وأبو المكارم".. والشيخة تفيدة، والشيخ عبد الرءوف.

وناساً آخرين شرفاء ملئوا الناحية بالخير والبركة.

وتشعر الست قمر أن الكآبة التى ملأت وجهها، قد وجدت ابتسامة رطبة هادئة عوضتها عن بعض ما سببته لها شرور الناس.

الشر والخير، كالظلام والنور. هذا موجود وذاك موجود، والمحظوظ من يحيا فى النور، بلا ظلام، ولا أسرار!

هكذا تحدثت الست قمر إلى نفسها، ثم اتجهت إلى سبيلة الغجرية وقالت لها:

- وماذا تريديننى أن افعل يا غجرية؟

-"مشوار" إليه، فى الخص المهجور، وينتهى كل شىء.

- وما هو المطلوب بالضبط؟

- أن يوافق على أن تتزوج ست الناس.

- يا بنتى ست الناس الآن كبيرة. لقد صارت جدة.

- لكنها لن تشفى إلا بالزواج.

- ياه... "قد كده الزواج بيشفى؟! "

- هكذا يقول كبير الغجر، بعد أن درسها تماماً.

- وتتزوج من يا غجرية؟ العائلة كلها رحلت ولم يبق فيها أحد.

- لا... تتزوج من غير العائلة.

- من...من هذا السعيد الحظ يا بنتى؟!

- مدبولى...

- من؟ الخفير مدبولى؟

- نعم يا ستى قمر... نعم هو الخفير مدبولى.

- يا نهار أسود! لقد كان..

- نعم كان ما كان. كان حراماً، ويريده اليوم حلالاً. هل هذا عيب؟

- " بعد إيه"؟..ما كان من الأول؟!

- ما كان هذا ممكناً يا ستى. هو ممكن الآن. أما قبل الآن، فقد كان ذلك مستحيلاً.

- وهى هل تريده؟

- موت يا ستى قمر..موت!

- والنبى؟! بذمتك؟

- أقول...أقول ماذايا ستى؟ قلت موت. إما أن تتزوجه أو تعود إلى السراية الصفراء.

- هكذا! ولا وسط؟

وصاحت الست قمر تقول:

- والله عال يا بلد... الدنيا والنبى "بتلف"!! مدبولى يتزوج ست الناس؟!

- نعم يا ستى. أليس رجلاً صالحاً للزواج؟

- آ... رجل صالح للزواج.

- وأليست امرأة صالحة للزواج؟

- يا حلاوة! ست الناس ومدبولى..يتزوجان؟!

- والنبى يا ستى! أبوس رجلك يا ستى.

- الله. لكن أنت متحمسة جداً...لماذا؟

- إنسانة. أنا إنسانة مظلومة، وهى مظلومة مثلى.

- غريبة. أول ضرة أراها تعمل لمصلحة ضرتها.

- وأنت يا ست قمر. لماذا كنت تحمين ضرتك تفيدة؟

- مظلومة. اغتصبوها بالقوة والجبروت.

- وست الناس مظلومة.

- ست الناس كانت ظالمة.

- لكنها الآن مظلومة... ومريضة... ولو رأيتها تصعب عليك. والنبى يا ستى! أبوس رجلك يا ستى.

وافترقتا على أن تدبر الست قمر لقاء فى الخص من العمدة. عباس لتحدثه بشأن ست الناس ومدبولى.

وخرجت الغجرية، وهى تحمد الله على ما وصلت إليه.

هى كلمة واحدة من الست قمر، وسينفذ لها عباس ما تقوله.

نعم وتتزوج ست الناس مدبولى، وتعود إلى طبيعتها الأولى، امرأة تضع همها على كتف رجل.

وبينما الغجرية شاردة عن دنياها سعيدة لنجاح مهمتها، تقطع الطريق فى سرعة كمن تعدو، إذ بعسكرى جلف، بشوارب سوداء كثيفة يتقدم منها فى غلظة ويقول لها:

- هل أنت سبيلة الغجرية؟

وذعرت سبيلة من السؤال، وأجابت فى تردد:

- آه.. أنا سبيلة. لكنى لم أعمل شيئاً. أى والله لم أعمل شيئاً.

قال العسكرى فى صوت أجش:

- أمامى.. هيا أمامى.

قالت سبيلة:

- إلى أين يا شاويش. إلى أين؟

قال فى شدة:

- إلى المركز... أمامى إلى المركز.

قالت فى توسل:

- لكنى لم افعل شيئاً. لماذا تأخذنى إلى المركز؟

قال العسكرى:

- أوامر يا بت. أوامر حضرة المأمور.

وصاحت وهى تتقدمه:

- يا مصيبتى، يا مصيبتى! ماذا فعلت يا سبيلة؟ ماذا فعلت؟ والنبى مظلومة يا شاويش. مظلومة.

ثم ذكرت أن حضرة المأمور هذا هو نفسه الشخص الذى كانت تقرأ له كفه فصاحت فى العكسرى تقول له:

- حضرة المأمور؟! أنا أعرف حضرة المأمور. آ...أنا حتى قريبته.. آ.. حتى والنبى اسمه ناجى.

وصاح فيها العسكرى:

-" بلاش قلة أدب". مالك أنت والبيه المأمور. قريبته!! غجرية مثلك قريبة حضرة المأمور. "انجرى على المركز وأنت ساكته".

"وانجرت" الغجرية، وصوتها يجلجل بالشكوى والصياح، والقسم أنها مظلومة.

وكانت كلما مرت بجماعة من الناس، من السائرين أو العابرين، تستعين بهم أن يخلصوها من الشاويش الفظ، والحكومة الظالمة.

ومن الناس من كان يهز رأسه فى إشفاق.

ومن الناس من كانت تأخذه النخوة فيعلق تعليقات سريعة لاذعة. طبعاً. وماذا يشغل الحكومة إلا هذا؟!

ألم تجدوا إلا هذه تمارسون عليها السلطة؟

يا ناس حرام عليكم. غلبانة. اتركوها لحالها!

هكذا، والغجرية ترفع عقيرتها بالشكوى، لا تمل ولا تتوقف.



وعندما أدخلوها على المأمور، كان وحده.

فما أن أغلقوا خلفها الباب، حتى انطلق يضحك كطفل صغير ساذج، ويضرب الأرض بقدميه!

ونظرت هى خلفها، فلما اطمأنت إلى أن كل شىء على ما يرام، شاركته بدورها الضحك، حتى كادت تستلقى على قفاها من فرط الضحك.

وبعد فترة، هدأ وهدأت.

قال لها:

- أديت دورك تماماً يا ملعونة.

قالت له:

- البركة فيك يا معلمى.

قال:

- على أن من الضرورى أن تستمرى إلى الآخر.

قالت:

- حتى تتزوج ست الناس الغفير مدبولى.

قال:

- وحتى تتزوج الغجرية ...أقول؟

قالت:

- يا سيدى، أنت أصلك فائق.. "ورايق"!

وتركته وانصرفت، وطرحتها السوداء، تخفى نصف وجهها، ومن النصف الآخر، تتدلى الحلقة النحاس من جانب أنفها.

□□□

٢

- وكيف أطيق الانتظار يا سبيلة؟

- هانت يا سعد فات الكثير، ما بقى إلا القليل.

- الشىء الذى لا أفهمه، أقاريك هؤلاء.

- "ليش" يا سعد؟

- هل أنا بكل هذه الوسامة "والطعامة" وخفة الدم، لا أعجبهم؟

- نقول تانى: إيش عملك يا ولد؟

- أنا أيضاً أقول تانى: فلاح! فلاح!

- البدو ناس غير!

- يا أخواتي "يعنى الفلاحة و إلا الصياعة"!

- والله لولا انى عاشقاك، ما بقيت معك ثانية يا سعد ... يا نور العين.

- والنبى صحيح ليش هذا يا سبيلة؟

- الفلاح فى نظر البدوى طرى!! استقر فى الأرض، ولانت عريكته، وما عادت فيه نخوة الرجال!

- يا سلام والبدوى "راجل..تمام"!

- طبعا يا سعد البدوى راجل من ظهر راجل، لا يقبل الذل ولا الظلم ولا الضيم يعيش فى الخلاء مثل النسور، ويفضل حريته على لقمة العيش، وكبير ..كبير جداً أمام نفسه وأمام الغير لا يقبل أن يتحكم فيه أحد ولا يرضى أن يذل نفسه بلقمة عيش.

- طيب عال تأخذوني معكم؟ هلا أليق بكم؟ وأنا أبكى على "إيش " يا سبيلة؟ العائلة؟! ها ها!! النسب؟ ها ها ها!! الجاه والعز ومسائل أخرى! ها ها ها ها!!

- ونحن نأخذك على إيش يا ولدى؟ الغنا؟ ها ها!! المواويل؟ ها ها ها!! "البصبصة" لخلق الله؟ ها ها ها ها!!

- طيب نأخذك إحنا نقبلك فلاحة.

- على إيش يا ولدى؟

- ألست طرية؟

- لأ ... لأ عيب أنا بدوية أنا غجرية.

- طيب ..ابقى كما أنت خشنة وصلبة إذن يلزم لك "واحد طرى" و إلا فإثنان خشنان "تبقى بلوى"!

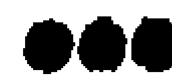
- ومن سيكون الرجل، ومن ستكون المرأة؟

- لا يهم ..أنت!! أنت الرجل هيا اخطبينى!

- خطبتك ... زوجة لى! يا ولد يا "حليوة"!!.

- وأنا قبلتك زوجاً لى ..يا غجرية!! ... ذكر!!

وانطلقا فى وقت واحد، وفى صوت واحد يقولان: ها ها هاهاى ...



وتردد هذا الضحك السعيد المرح بين الحقول، فى هذه الساحة القديمة، قريباً من الموردة، ومن شجرة الجميز العريقة، ومن جسر الرياح، ومن ضريح سيدى الذكيرى، ومن الساقية، ومن النخيل المنثور هنا وهناك بين الحقول.

فى مكان من تلك الأماكن التى شهدت من قبل "شبل وسالمة" يتطارحان الهوى بعيداً عن الناس، وعن الأحقاد، وعن الغاضبين والناقمين والموتورين!

لكن سعد وسبيلة مختلفإن.

سعد لا يحمل مسدساً فى يده، وليس بين جنبيه قلب جسور مغامر، يفرض وجوده على أعدائه بما فيه من جرأة واقدام.

سعد هو كروان القرية، وشاعرها الرقيق الحنون، صوته الصداح يعكس ما فى قلب القرية من آلام، وما بين جوانبها من آمال، تكاد تكون من اسرافها كأنها أحلام.

فى المولد يرتفع صوته بالأناشيد والمدائح، ذات الجلال.

وفى الكوارث يتردد صوته بأهازيج الصبر على المكروه والاستعداد للثار.

وعندما تخفق القلوب بالهوى، فصوت سعد يلهب الصدور، ويرطب الجراح.

إن "سعد" ترجمان القرية كذلك تاريخها كله على لسانه، أغان وأناشيد دموعها، ضحكاتها، خفقاتها عندما تسبح فى الأحلام، ابتهالاتها عندما تتوسل بالدعوات، كل ذلك على لسانه مرسوم، يردده وحوله عدد من الرجال والشباب والأطفال، وقد تردده بعده النساء داخل الدور، وعند الموردة.

إنه قلب القرية الخفاق، وبعض من نسيمها الرائع، عندما تحتاج إلى النسيم ترطب به لظاها.

وسبيلة كذلك تختلف عن سالمة.

غجرية، وبدوية، بنت خيمة من وبر الجمل، منصوبة هناك فى أطراف الخليقة تواجه المزارع من جانب، والبرارى من الجانب الثانى، كأنها فى وادى عبقر، حيث تعيش جنبات وحوريات وشياطين.

وهى تبدو متحررة تقوم بكل الأعمال، وتستقبل الرجال دون حرج ولا بأس أن ترقص وتغنى، وتطرب الغجر ببعض الأغانى فى وهج النار أو ضوء القمر. لكنها إلى ذلك عصبية، لا تسلم نفسها بغير إرادة، ولا تقبل أن يمسها أحد، ليتسلى!

فيها عناد يصل إلى درجة الغباء وفيها كذلك تحرر ذكى لماح.

بهذا عاشت فى هذه الناحية تلهب خيال الرجال، ولا تتحرج أبداً أن تمد الحبل لغريق، حتى لا يذهب غريقاً بين الموج، لكن ما أن يصل إلى الشاطىء حتى تتركه يواجه ما هو أعتى من الموج: إباء الغجرية وكبرياؤها، وأنفها الشامخ فى استعلاء إن سبيلة الغجرية شىء آخر غير سالمة، وكما أن "سعد" هو النقيض لشبل، كذلك فإن سبيلة هى نقيض سالمة.

سالمة كانت خادمة فى بيت "أبو سريع"، يأمرها فتطيع، ويرفع فيها عقيرته، فترتجف من الرعب! وسبيلة كانت زوجة "أبو سريع" وكانت صديقته قبل أن تصبح زوجته، وفى كلتا الحالتين، كان يركع تحت قدميها، ويبكى نعم كانت سبيلة هى الوحيدة التى ترى "أبو سريع" يبكى، من ضعفه، ومن خوفه، ومن ذله، وكانت تقول، فيسمع ما تقول! وكانت تطلب، فينفذ ما تطلب! كان يحتمى بها وبالغجر أهلها، من هواجسه ومخاوفة وأوهامه.

على أن سبيلة لم تشعر نحوه بحب أبداً.

وطيلة زواجها منه كانت تعانى من طول الانتظار، فقد كانت تنتظر معجزة من السماء، تخلصها منه!

إنها قبل أن تتزوجه، كانت تعيش قصة غرام لا تنسى.

نعم لقد كانت تحب "سعد" كانت تحب أغانيه وروحه المرحة. كانت تلقاه ليغنى لها وحدها، فى ظل الشجر، أو فى ضوء القمر، فيجعل عمرها شيئاً يستحق أن تحياه.

- لكن المهر يا غالية أنا لا أملك المهر.

- وأنا لا يهمنى المهر يا نور عينى لكن أهلى غجر، ومهر الغجرية غالى يا سعد.

- وكيف السبيل؟

- تتصرف وأنا أتصرف معك نضع القرش على القرش، حتى تدخر المهر.

- يطول هذا شىء يطول.

- كلما كان الحبيب غالياً، كلما كانت التضحية أكثر.

- يا سبيلة لا أستطيع الانتظار.

- تبحث إذن عن سواى.

- يا مجنونة ليس هذا قصدى.

وتنشق الأرض فجأة عن فتى ملثم جرىء يقول لهما:

- لا تخافا سيصلكما المهر عن قريب.

وصاح سعد:

- من؟ أتكون من: "شبل"؟ أأنت شبل؟

- ومن سواه يا سعد، يا مطرب القلوب؟

وكاد سعد يقفز إليه وهو يصيح:

- الله يخليك يا عم شبل الله يخليك.

أما الغجرية فقد كانت تنظر إليه دون أن توجه إليه كلمة واحدة، فلما طال صمتها قال شبل لها:

- هل ترضين الآن عن هذا الولد الفلاح؟

وضحكت وضحك، وتركهما كما جاء، سهماً اختفى بين المزارع.

وعندما وجد سعد المهر فى داره، وانتشر الخبر فى أنحاء القرية، وظن أن البلد كلها ستفرح له! أليس ابنها؟ ألا يغنى لها؟ ألا ينشد فى الحضرات للذاكرين الله من أبنائها؟ عندئذ تغير كل شيء فجأة! أبو سريع اعتبره من حزب شبل، وأحاطه بأنواع من الاضطهاد لا يقوى عليها.

وهز أبو سريع رأسه عندما علم بأنه يحب سبيلة، وأقسم ليحول الحب فى قلبه إلى حسرات.

كان يراها فى أول الأمر، غير عابيء لم تكن فى نظره تستطيع أن تكون غير فرصة وسهرة، ينتقل منها إلى فرصة أخرى وسهرة أخرى.

لكن الحب الذى بلغوه له عنها، حببها إليه لقد بدأ يشعر أنها قادرة على أن تحب، وإذا كانت قد أحبت هذا الصعلوك "سعد" فلماذا لا تحبه هو؟! نعم وهو من؟ سيد هذه الناحية وحامى أمنها!

مسكين يا "أبو سريع" فأنت بشر تبحث عن الحب، وأنت تعلم أن كل صلاتك قائمة على الخوف منك حتى حماك يخافك حتى إمرأتك ست الناس تخشاك لا أحد يحبك، وينتظرك ويتمناك.

أبداً ست الناس تقبل عليك، لأنها لا تملك أن ترفضك!! زوجها! أنت زوجها!

وسبيلة الغجرية تنزل على إرادتك، لأنها تخاف أذاك إذا هى عصتك!! غجرية هى، وغريبة عن هنا، ولابد لها من ملاينتك، مداراة لك!! عملاً بالحديث الشريف: "داروا سفهاءكم"!!

وأخذ "أبو سريع" للمرة الأولى يعض على شفتيه فى غيظ المحروم.

وأخذ يقول لنفسه، وهو ثائر وحزين:

آ.... الولد سعد أحسن منك وكل "التملية" أحسن منك سعد تحبه سبيلة، وكل "تملى" له واحدة تحبه، وتنتظره هنا وهناك، تنظر إليه فى وله، وينظر إليها فى رجاء.

وأنت يا شيخ الغفر، لك واحدة وواحدة وواحدة، لكنهن جميعاً يخفن منك، فإن نزلن على إرادتك، فإنهن تتقيأن منك، وتبصقن على خيالك، وأنت تمضى عنهن إلى بعيد.

وعاد أبو سريع يعزى نفسه، فى حوار مع نفسه، تعس وحزين.

- وفى النهاية تنال ما تريد

- قسراً!!

- قسراً أو طوعاً أنا آخذ ما أريد.

- وماذا تريد؟

- أن أتمتع.. آ.... أتمتع!

- بماذا؟ يا حيوان؟!.

- بالمرأة

- بجسم ميت.

- بل حى، يغلى من الشهوة.

- ولا ينبض بالانفعال أبداً.

- وماذا يعنى الانفعال؟

- يعنى الإقتناع، والرغبة، والميل، وأشياء أخرى عميقة.

- وأنا لا يهمنى هذا.

- وأيضاً لا يهمها هذا منك.

- ولماذا تنتظرنى إذن؟

- خوفاً من غدرك واستبدادك.

ويكاد "أبو سريع" يصيح، وهو يعانى هذا التمزق.

ولا يجد "أبو سريع" حلاً، إلا أن يغير نظرته للغجرية سبيلة، فلا بد لها من أن تحبه.

- يا "أبو سـريع" يا نذل! تريد أن تنال أنت كل شيء؟!! إن الحب يا "أبو سـريع" لا يفرض طالما أنك تفرضه، فليس هو الحب.

ويمضى أبو سريع يقنع نفسه بأهمية هذا الحب ولا بأس- عند اللزوم- أن يصبح زواجاً، ويصبح الغجر أصهاره وأهله، وهم ناس لا وراءهم ولا أمامهم، والشجاعة عندهم حالة إفلاس وعدم مبالاة!! اليأس أيضاً شجاعة! وأنت يا سبع الليل قادر أن تسخرهم لدفاع مكتوم عنك آ..ه! أصهارى! أليسوا أصهارى؟! سيصبحون أصهارى، ومن صالحهم أن يدافعوا عنى.

- يا "أبو سريع" يا جبان! ستعود تفرض حتى العواطف؟! بالحب؟! الحب يا "أبو سريع" لا يرتبط بشيء فهو فى ذاته كل شيء الحب قد يعنى التضحية والفداء! قد يعنى مثلاً أن تترك مشيخة الغفر إذا لزم الأمر، لا أن تترك الحب لصالح هذه المشيخة!! يا "أبو سريع" مالك أنت والحب؟!

شرط جديد يديره "أبو سريع" فى رأسه.

أن يتم هذا الزواج سراً.

- يا "أبو سريع" يا أنانى يا نفعى! ستعود تؤثر مصالحك ولا تدفع عما تناله شيئاً! تريد أن تأخذ ... تأخذ ... تأخذ، ولا تعطى! لا يا "أبو سـريع" ليس هذا من الحب الحب عطاء قبل أن يكون أخذاً يا "أبو سريع".

- ثم ممن تخاف؟ من سلطان؟!

- سلطان من؟! سلطان تزوج أربعة، ولا قدرة له على اعتراض، خاصة معى!

- إذن تخاف ... حماتك؟

- قد يرضى هذا حماتى (......) عندما تسوء علاقتى ببنتها، ولو إلى حين!!

- إذن تخاف ست الناس؟

- ست الناس من؟ ستهب كالعاصفة، لكنى قادر على أن أخمدها بأمها!

- إذاً ممن تخاف؟

- من الست قمر (.....) قد تتهم حبى لها، وأنا لا زلت أطمع فى حبها.

- ومن؟

- والأخريات (.....) نعم لا أحبهن، لكن لا أريد أن أفقدهن.

- وسبيلة تقبل؟ هل تقبل سبيلة؟ وهل يقبل أهلها؟

- السبب سيكون بسيطاً مركزى بين أصهارى من عائلة سلطان وعائلة العمدة مركزى سيختل ويضطرب، وهذا شىء لا يرضيهم.

والعجيب أن "أبو سريع" عندما عرض هذا على سبيلة وزنت الأمر فى رأسها وفكرت فى حبها، وفى سعد، ووجدت أنها لو رفضت، فمصير سعد سيكون أسوأ من مصير الشحات ستفقده إلى الأبد، ولن يحميها دمعها على قبر أصم بينما تستطيع لو وافقت أن تحتفظ ببعض الأمل فى قلبها من يدرى؟! إن دوام الحال من المحال.

وقضت سبيلة أياماً حزينة، تبكى على حبها، وعلى حبيبها.

وأخذ الكروان المرح السعيد، يرتل أناشيد البكاء والنحيب.

الدموع خرجت من بين شفتيه غناء!

الآهات القاتلة، صاغها سعد فى نغم حزين!

ورددت القرية مع سعد ألحاناً حزينة مبللة بالدموع!

وبينما كان سبع الليل يتأهب لمعركة طاحنة مع سبيلة والغجر وسعد هذا الصعلوك الحافى، اذ بسبيلة تفاجئه بموافقتها على الزواج منه شرعاً، لكن سراً، احتراماً لمكانته فى الناحية. كانت تحرسه، وأهلها كانوا يحرسونه معها.

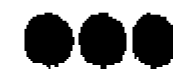
وكانت الغجرية تلقى "سعد" أحياناً، فيفجعها فيه نحول وجهه وضمور بدنه ونظرة استغاثة صامته وحيية تختنق بين جفنيه.

وكانت تختلى بنفسها لتبكى على نفسها وعليه، لكنها مع ذلك لم تفقد الأمل أبداً كانت تشعر أن القدر الذى فرق قلبيهما، سيعود ذات يوم يرسم الطريق للقاء بينهما وسيكون هذه المرة كالزمن طويلاً ... طويلاً ... لا ينتهى.

وحدثت المعجزة، وذهب الكابوس الثقيل إلى غير رجعة.

نعم إن "أبو سريع" لقى مصرعه فى الرياح، مكتوف اليدين، مشلول الحركة.

جزاؤه نعم بل ربما أقل من جزائه، على ما فعله للناس.



وتجتر سبيلة ذكريات من عمرها لا تنسى.

فاتتها هذه المرة! ولا بد أنه أرادها أن تفوتها، وأن تفوت عليها، فتم له ما أراد، لكنه دفع فيها حياته فذهب إلى غير رجعة.

سبيلة لا تقول هذا لنفسها لأنها تغار عليه، لكنها تقوله حتى لا تبدو أمام نفسها مغفلة، أو واقعة تحت تأثير الخداع المزيف، الذى كان يلجأ إليه فى بعض الأحيان.

كانت تسير وراءه، فى خفة كالقطة، ترى ما لا يراه، وتشعر بما لا يستطيع أن يشعر به نعم وكثرون من أهلها كانوا يتعقبونه كأنهم ظله.

لكنه أحياناً كان يختفى عنها وعنهم.

وكانت سبيلة تقول لنفسها: فى ستين داهية! خائن ونذل، ولا يستحق إلا الاهمال.

لكنها أنثى إمرأة وفى هذا تخرج المسألة عن الغيرة، إلى أنها اهانة نعم إهانة وقحة أن يتركها هكذا ليبحث عن واحدة سواها! فيم إذن الوله والهيام؟ غش! نصب! كذب!

لكنك لا تحبينه.

نعم لكن ليس معنى هذا أن أقبل اهانته.

صحيح كانت سبيلة تنصرف عنه إلى أهلها تغنى وترقص، وتحاول أن تنسى حبها الأول والوحيد، الذى لا يزال ينزف فى قلبها لكن صحيح أيضاً أنها كانت تغافل الغجر وتخرج وتتجسس عليه، وكثيراً ما كانت تعرف مكانه إنها غجرية فيها ذكاء، إلى جوار شعور المرأة وحاسة فيها قلما تخيب.

ويوم غرقة، كان من تلك الأيام التى قررت أن تعرف إلى أين ذهب.

وفى ذلك اليوم، لم يسعفها ذكاؤها، ولا شعورها، ولا نفعتها حاستها.

وعندما كادت محاولاتها أن تذهب سدى

وعندما قررت أن تعود إلى خيمتها حيث تعيش، من طريق الساقية سمعت استغاثة متقطعة محبوسة فى حلقه.

وأخذت تبحث عنه هنا وهناك، لكن دون جدوى.

وعندما وقفت حائرة على جسر الرياح شعرت أن الاستغاثة قد صارت صمتاً، ونظرت إلى الرياح، فوجدته جثة تطفو إلى مصيرها فى الحياة الأخرى.

وتماسكت الغجرية، واعتقدت أن الحادث حديث الوقوع نعم لابد أنه وقع الآن، منذ لحظات، ولابد أن الفاعل لا يزال فى هذا المكان، يحاول أن يخفى جريمته عن الناس.

وأخذت تسير هنا وهناك تبحث عن الفاعل.

وسمعت أصواتاً خافتة، تتردد فى حذر.

وأسرعت ترى لابد أنه الفاعل! نعم ولا فاعل سواه!

إنه يتلفت إلى يمين ويسار، فى خفة وحذر، ثم يقف قليلاً عن الحركة ليتبين وقع أقدامه على الطريق! إنه ليس وحده جريمة مشتركة إذن، والفاعل ليس واحداً إنهما إثنان اشتركا، وسيختلفان ذات يوم، لتظهر الحقيقة من خلال الخلاف!

لكنها إمرأة التى معه إمرأة.

وهو يقول لها فى همس:

- اذهب أنا مفروض أنى لست هنا.

قالت فى حذر:

- خائفة (......) خائفة من خيالى.

قال فى ثقة:

- اذهبى أنت، وأنا ذاهب، ألقاك على خير ....

قالت فى وله:

- على أن تحذر خذ بالك من نفسك.

قال فى حنان:

- لا تخافى. ربنا معى.

قالت وهى تودعه:

- مع السلامة. ربنا يحميك.

وافترقا. هى فى طريق القرية، وهو فى طريق المحطة.

وعادت سبيلة تسأل نفسها: من منهما يكون الفاعل؟ هو بطبيعة الحال، والواجب أن أتبعه.

وهناك عند أشجار التين، تعالت أصوات قادمة ناس من أهل البلد عائدون من سفر، وهم يتحدثون، وصوت "أبو اليزيد" الحمار يقطع أحاديثهم بين الحين والحين بكلمة أو ضحكة أو غنوة واختفى جلال بين أشجار التين، ليتفادى فضولهم.

سبيلة وجدت الفرصة ذهبية، لتدخل وراءه بين أشجار التين.

ووقف ومسدسه فى يده.

وأقبلت عليه، فلما شاهدته شهقت مذعورة:

- لا يمكن أنت عدت؟ أنت الفاعل أنت شبل جلال أنت..؟

ودارت بها الدنيا، وشعرت أن على عينيها غشاوة كثيفة تتحرك فى بطء، وأن فى حلقها غصة تمنعها من الحديث إنها صارت خرساء، "كأبو المكارم".

وشغل جلال نفسه بها، فأخذ يعالج ما صارت إليه، وحملها وهى فى غيبوبتها إلى مكان آمن، بعيد عن الطريق، فلما أفاقت قالت له:

- أهو أنت؟

- نعم أنا جلال.

- لكنك فى السجن.

- ومن منا ليس فى سجن؟

- وأنت الذى؟

- نعم أنا الذى قتلته، مثلما قتل أمى.

- أنت قاس.

- اسم الله عليه هو كان رقيقاً جداً.

- لابد أن أبلغ عنك.

- لن يصدقك أحد، فإنا الآن فى مكان بعيد جداً عن هذا المكان، وسأذهب إليه حالاً سأصله قبل أن تبلغى عنى.

- يا مجرم ياسافل.......

- يا سبيلة عيب أنت لست إلا مطية كان يركبك إلى غاياته.

- أعرف هذا ....

- إذن فيم ادعاء الشهامة والشرف؟

- زوجى.

- سراً!

- وماله؟

- على كل حال هذا شأنك.

- وسأخرب بيتك.

- إن كان لى بيت!

- سيعدمونك.

- يا شيخة! اسمعى الكلام واعقلى احمدى ربنا فقد خلصتك منه.

- أنا غجرية، والغجر......

- حجر؟! هل كنت تحبينه، أم تحبين "سعد"؟

- وأنت مالك؟

- قولى الحق أولاً وهل. تنسين الجميل؟

- الغجر لا ينسون شيئاً. المعروف عندهم مقدس.

- وأنا الذى حاولت أن أحقق لك أمانيك.. ألم أدبر لكما المهر؟

لماذا؟ ألم يكن هذا جميلاً؟ لكن "أبو سريع" انتزعك منه برغم هذا، وتركه، وتركته أنت كذلك شقياً محروماً معذباً......

- هذا يكفى يا شيخ هذا يكفى.

- إذن.........

– لكن هذا شىء وهذا شىء. أنت قدمت المعروف، لكنك أيضاً قاتل!.

– يا سلام!! قاتل من يا حلوة؟ أنا قتلت القاتل انتقمت لكل الذين قتلهم، ومنهم أمى كما تعرفين. أنت غجرية. هل الغجر يهملون الدم؟ هل الغجر ينسون الثأر؟ الحكومة عجزت عن القصاص لأمى، فأصبح القصاص واجباً على.. فهمت يا سبيلة؟

– لا ..... كل هذا لا ...... تعال معى إلى النقطة.

– يا شيخة.......

ودفعها بيده، فانكفأت على وجهها، بينما مرق هو كالسهم، واختفى عن نظرها.

وسمعت سبيلة وهى تحاول اللحاق به صوت سيارة يسابق الريح إلى مكان مجهول، وحاولت أن تصيح بالناس ليلحقوا بها، ويمن فيها، لكن الصوت انحبس بين شفتيها وارتمت قرب المحطة تستيعد ذكرياتها.

وظهر لها وجهه الحبيب الحزين، باهتاً ذابلاً، يبتسم لها فى توسل.

سعد كان يتطلع إليها كمن يقول لها:

إنى لا أزال أنتظرك يا نغماً على شفتى لم أقله، وأملاً فى قلبى لم أخنه، ودمعة فى مقلتى لم أجففها بعد.

وبين شبح "أبو سريع" ودموع سعد، تاهت فى جو غامض، لم ينقذها منه إلا أنها أغفت تستريح، قبل أن تقرر ماذا هى فاعلة.

وفى نقطة البوليس،جلست سبيلة تنتظر حضرة الضابط.

نعم، وتخفف هذا الحمل الثقيل من فوق قلبها، وتريح ضميرها، ويتحمل الضابط بعدها المسئولية!

أما أن تسكت، فستظل حياتها تتعذب لماذا لا أبلغ؟ ولماذا أسكت عن الشهادة؟ الرجل جلال وقد اعترف لك بعظمة لسانه، فلماذا تسكتين؟

- آ.. آ.. كان شهماً، عندما كان يسمى نفسه "شبل" ودفع مبلغاً يكفى المهر وزيادة، ليساعدنا على الزواج، لكن "أبو سريع" الله يجحمه أخذ المبلغ، وأخذ العروس، أبوعين فارغة!!

- ومن أجل هذا المجحوم "أبو سريع" تأتين لتشكيه؟!

- هذا شيء. وهذا شيء. قتله. غرَّقه فى الرياح واعترف لى بنفسه!! هل بعد هذا.... أسكت؟ كيف يا سبيلة؟

- وهل سيعود إليك. هل الشكوى ستعيده؟

- وهل أنا أريده؟ هل أريد أن يعود؟ أنا "ما صدقت"!!

- أ : أ.. لكن أسكت، وقد رأيت الحادث، وسمعت الاعتراف بأذنى؟!

- احمدى ربنا "روق لك السكة"! الآن لا تخافين على سعد، والرجل فى الانتظار.

- ومن أدراك؟

- عيناه ......

- قد تكذبان!

- تبقى مصيبة.

- لكن يا بنت يا سبيلة. ماذا تكسبين لو بلغت؟ وماذا تخسرين لو لم تبلغى.

- وسعد ..... هل التبليغ يأتى به، أم هل يعيده؟

وفجأة، بينما هى جالسة كفها على خدها، تنتظر الإذن لها بمقابلة حضرة الضابط، إذا بالشيخ "أبو عوف" خادم سيدى الذكيرى يدخل النقطة، وقد كسا الجلال وجهه، وبدت المهابة على قسماته الطيبة كان يذكر الله، ويرفع صوته بين الحين والحين بدعوة صالحة وكان الناس، العساكر والغفر والمساجين، وكل من ينتظرون داخل فناء النقطة، يهرعون إليه ويقبلون يديه.

ووجدت سبيلة نفسها مع الناس تهرع إليه، تقبل معهم يديه كان الشيخ قد أسبل جفنيه فى ورع، فما أن تقدمت نحوه حتى صاح: اللهم يا هادى الناس إليك، لا تدع خلقك يعيشون فى أوهام! اللهم ومكنهم بنورك أن يفرقوا بين الحقائق والأشباح! اللهم ولا تتركهم يتخبطون فى الظلام! عبيدك يا رب، فلا تدعهم واقعين تحت خداع النفس، وخداع العقل، وخداع البصر! إنهم عبيدك! إنهم محتاجون لك، فبدونك يضلون الطريق يظلمون أنفسهم ويظلمون الناس!!

وقالت سبيلة لنفسها:

- الله!! ماذا يقوله؟ إنه مغمض جفنيه لا يراك يا بنت، ومع هذا يقول الكلام كأنه لك!!

هذا إذن وحى والهام

واندفعت سبيلة تسأله:

- والنبى يا سيدى تقول لى: ما هو خداع البصر هذا؟ هل العين تخدع؟.

ونظر إليها فى هدوء، ثم مسح على رأسها وهو يقول:

- اللهم اهدها أنت طيبة يا بنية. من طيبتك تظهر لك أشياء تبدو لك صحيح لكن... ليهدك الله يا بنتى.

وسكت وهو يمضى عنها، فتشبثت به وهى تقول:

- يعنى ما أراه ليس صحيحاً؟

قال غير مكترث:

- الله أعلم يا بنتى. أنت طيبة وأمثالك قد يقعون تحت تأثير خداع البصر.

قالت فى لهفة:

- واذا كلمت شخصاً وكلمنى.

قال فى بساطة وثقة:

- ألوان الخداع كثيرة لا تحصى اللهم اهدها اللهم اهدها.

قالت فى لوعة:

- ولو اعترف لى لو قال إنه قاتل.

قال فى استنكار:

- أعوذ بالله دعينى يا بنتى دعينى. هذا فظيع فظيع.

ونظر إلى العساكر وهو يسأل:

- علمت هذا الصباح وأنا عائد من لدى بعض المحبين، أن شيخ الغفر...

قالوا له فى صوت واحد:

- قتلوه أغرقوه فى الرياح.

وصاح يقول:

- اللهم اغفر لنا وله. اللهم ارحمه برحمتك.

ثم عاد الشيخ يسأل:

- وامسكوا بالقاتل؟

قال العساكر:

- إنه يا سيدنا - كالعادة - مجهول!

قال الشيخ:

- عندكم، وعند العبد. لكنه ليس مجهولاً له سبحانه، وسينال عقوبته لديه.

واندفعت الغجرية إلى الشيخ "أبو عوف" تصيح:

- وإذا عرفته؟ إذا كنت أعرفه.

وصاح فيها فى غضب واستياء:

- استغفرى الله يا بنتى، وإياك أن تظلمى أحداً الظلم كالقتل الظلم أشد من القتل.

وغادر الشيخ نقطة البوليس، بأن والعساكر والناس تودعه بمثل ما استقبلوه به من الإجلال والاحترام، بعد أن وعد بأن يعود مرة أخرى يزور حضرة الضابط.



سبيلة عاشت بعد ذلك فى دوامة رأسها تدور مع دورات الساقية، ومع ما أخذ يتردد على الألسنة فى القرية وعندما ذاع أن قاتل "أبو سريع" هو الشحات، ثارت ثائرتها وذهبت إلى عباس تحكى له ما تعرفه:

- أنا أعرف القاتل.

- أنت؟ عيب يا غجرية!

- والله أعرفه.

- من؟ من ذاك؟

- جلال، أو شبل!! هذا الذى تقولون عنه "شبل"!

وضحك عباس ساخراً وهو يقول:

- جلال! شبل! يا شيخة، أين نحن، وأين هو؟

- هو الذى دفعه إلى الرياح، وقضى عليه.

- وأنت من أين لك بهذا؟!

- رأيته.

- رأيته وهو يدفعه إلى الرياح؟

- رأيته وهو يهرب بعد فعلته.

- يهرب؟ جلال يهرب؟ ممن؟

- منى.

وضحك عباس طويلاً وهو يقول فى استنكار.

- جلال يهرب (.....) منك (.....) يا غجرية؟!

- آ..... يهرب منى!! وما العجب فى هذا؟

- يبدو أنك لا تعرفينه؟

- يا وكيل شيخ الغفر صدقنى. هو قال لى. هو اعترف هو قال أنى قتلته انتقاماً لكل ضحاياه، ومنهم أمى.

وبدأ عباس يستفيق. هل صحيح؟ أيكون هذا الكلام صحيحاً؟ غريب هذا! لكن آخر ما كان يعلمه عباس عن جلال أنه يعيش فى دمنهور، وأنه يسكن فى بيت سيدة فاضلة، تشبه الست قمر تماماً، وأنه يمارس العمل الوطنى، ويتعقب الإنجليز وعملاءهم بجرأته النادرة.

وعباس قد رآه مرة عندما زاره فى الخص المهجور، ومنذ ذلك الحين لم يره، ولم يعرف عنه إلا ما تنقله إليه عنه، الست التى تشبه الست قمر.

وعلى كل حال، فإن "عباس" يحب "جلال"، سواء كان كلام سبيلة صحيحاً أو غير صحيح، وهو مستعد أن يداريه بين جفنيه، لا أن يسلمه إلى طاغية مستبد "كأبو سريع".

قال عباس لسبيلة:

- أنت موهومة يا بنتى جلال ذهب ولا يدرى أحد أين أراضيه. منذ دخل السجن، وهو بعيد لا يعرف أحد عنه شيئاً.

قالت سبيلة:

- والله يا وكيل شيخ الغفر إنه هو الذى قتله، ومن الظلم أن تلصق بالشحات هذه التهمة.

وهز عباس كتفيه وهو يدفع عن جلال أى اتهام.

وقال فى نفسه:

- وحتى لو أنه فعلها، فلن يكون هذا ظلماً ماذا يفعل المسكين؟ القانون لم يفعل شيئا "لأبو سريع" الحكومة لم تفعل له شيئاً قتل وسفك دماء وقبض أرواحاً كأنه "عزرائيل"، ثم لا شىء! إذن يتصرف فى غيبة القانون، وخمول الحكومة، وتهريبه من يد العدالة.

وظل عباس يؤكد للغجرية أنها موهومه.

وانشغلت القرية عن كل ذلك بموت "الشيخ أبو عوف"، وهو يزور أحبابه ومريديه فى منطقة قناة السويس، وانشغلت الغجرية مع القرية فى أحزانها وهمومها ولوعتها على الشيخ الراحل.

لكن دموع القرية ظلت متصلة، فقد مات الشحات "بعد أن عاد"، وترك أمه وأرملته وأولاداً ثلاثة يبكون أباهم فى أسى.

وعادت الشائعات تؤكد أن الشحات هو الذى قتل "أبو سريع" وأن ابنه أدهم مصر على الانتقام من أم الشحات وأولاده.

واختلطت دموع القرية بالخوف وعادت سبيلة تقول لوكيل شيخ الغفر:

- يا ناس هذا ظلم الشحات لم يقتله. أنا رأيت قاتله كانت معه واحدة ست، اتجهت هى نحو القرية، وذهب هى إلى المحطة.

قال عباس:

- والله أنا مخى طار!

ومرت أيام، وتلاقى عباس بالست التى تشبه الست قمر، وفى هذا اللقاء عرف أنها هى الست قمر! نعم لقد سقطت منها الحلية الصغيرة فى الخص المهجور، فعرف أنها هى، لا شبيهتها وود لو استطاع أن يعرف حكايتها.

وعجب عباس بينه وبين نفسه.

إذن جلال يحيا عند الست قمر.

على كل حال هى إمرأة أبيه، كأمه، بل وكانت هى المحامى عن تفيدة عندما ساقوها كالعبيد إلى بيت أبيه.

الله.. لكن أيكون جلال هو قاتل "أبو سريع" كما تقول الغجرية؟!

إن "عباس" يتنازعه عاملان: الخوف على جلال، والخوف على أم الشحات وأولاد الشحات أما جلال فقادر على الدفاع عن نفسه وهو جن لن يصل إليه أحد أما المسكينة أم الشحات فماذا تفعل، لو قتلوها فى "أبو سريع"؟ واستقر رأى عباس على أن يبعد الشبهة عن الشحات حتى لا تتعرض أم الشحات لسوء عندئذ قرر أن يغرى الغجرية بالتبليغ عن جلال وفى ظنه أنه بهذا يبرئ الشحات ولا يؤذى "جلال".

وقال عباس لسبيلة:

- اذهبى إلى المركز وقدمى بلاغاً عما تعرفينه.

قالت سبيلة:

- أقول أن "جلال" هو الذى قتل "أبو سريع"؟

- نعم وتقولين أنك رأيته بعينيك.

- لكنك كنت ترفض هذا، وكنت تتكره!!

- طالما أنك على ثقة مما تقولين، فاذهبى وقدمى بلاغاً إلى المأمور، لتخففى عن أم الشحات وأولاده!

لكن المأمور بعد أن استمع إليها، قال وهو يهز رأسه فى حزن بالغ:

- على كل حال، لقد وضع الله نهايته جلال يا غجرية مات.

وبدا على الغجرية أنها تأثرت تأثراً بالغاً، وروت له قصتها معها ومع سعد، وكيف كان جلال شهماً ونبيلاً.

قال المأمور:

- ومن أجل هذا جئت تشكينه؟!

ولم يتركها ترد فقال:

- زوجك. هذا حقك، أو حقه عليه..

ودهشت الغجرية وفغرت فاهاً، وهى تشهق وتضرب وجهها بكفيها، وأضاف المأمور ما زاد دهشتها وعجبها، وجعل الكف الذى ضربت به وجهها كفين:

- أنت زوجة القتيل، وأنا أخو القاتل.

وصاحت:

- أنت يا سعادة البك أخو جلال.

قال فى هدوء:

- وهو وأنا وغيرنا أولاد الحاج سلطان، وأصهار صديقك عباس. أليس هو الذى أرسلك اليوم بهذا البلاغ؟ قولى له وصل.

قالت:

- ياه!! وماذا أيضا؟

قال:

- لكن طمئنيه على أم الشحات وأولاد الشحات لن يصاب واحد منهم بسوء إلا أن تكون هذه هى إرادة الله.

ولم يتركها حضرة المأمور ناجى سلطان تعود إلا محملة بهدايا من البندر، واتفاق سرى بينهما أن تلجأ إليه ويلجأ إليها، فيما يطلبه منها. وأكد لها أنه لن يطلب إلا ما يعود على القرية بالخير.

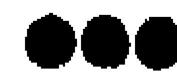
قالت فى زهو: كأنى شيخ غفر، أرجل من "أبو سريع"!

قال: وإياك أن يعرف هذا أحد و إلا فسد كل شىء.

قالت: أنا مباحث لا تخف فلن أصبح مأموراً!

قال: ولا تخافى، فلن أصبح غجرية!

وافترقا على اتفاق، أن تنفذ ما يريد، وألا تقول لأحد، حتى عباس.



سعد مطرب عواطف القرية وراويها، هو الذى كان يعجب لها، لكثرة ذهابها إلى إيتاى البارود كان يسكت فى ضيق، وكان يتكلم أحياناً معترضاً.

وكانت سبيلة الغجرية تلوى وجهها عنه فى بعض الأحيان، وهى تخاطبه، وتنكر عليه أن يشك فيها.

- أشك أو لا أشك. ما لزوم الذهاب الكثير إلى إيتاى البارود؟

- أشغال (.....) عندى أشغال.

- يا صلاة النبى صرت محامية يا بنت!! من البلد إلى المحكمة، ومن المحكمة إلى البلد. إن الشيخ سيد فى زمانه لم يكن يذهب كثيراً هكذا. ومع هذا كان باشكاتب المحكمة!!

- آه لو تعرف يا سعد، تعذرنى!

- ولماذا لا أعرف يا سبيلة؟

- تريد ضررى؟

- أنا!! يا شيخة!

- إذن لا تسألنى ... ستعرف ذات يوم.

- أخاف أن أموت قبل أن أعرف.

- يا شيخ حرام عليك (.....) وتتركنى؟ (.....) وحدى؟.

- يعنى تريديننى (.....) إلى هذا الحد؟

- إلى غير حد يا ولد يا فلاح.

- تعيشين لى يا بنت يا غجرية.

وتذهب الغجرية بأخبار كثيرة جداً وغريبة أيضاً "للبيه المأمور". مرة عن زوار سيدى الذكيرى. ومرة عن الشيخة تفيدة!

- أهناك من يسأل عن الشيخة؟ حتى الشيخة! مالك بها يا مأمور.

- يا غجرية اسمعى الكلام، بلا كلام!

- حاضر يا مأمور.

وكثيراً ما كان يسأل عن عباس وعن مدبولى، وعن سلطان ابن غضبان!..

يعرف كل شىء عن البلد هذا المأمور، حتى كايداهم وفرحات! كأنه لم يغادر البلد أبداً.

وكانت الغجرية تسأله عن حياته هو، فكان يجيبها حينا، ويغير الكلام فى أغلب الأحيان.

وعرفت أن أمه الست قمر تقسم حياتها بينه وبين أخيه وأخته. أخوه سامى قد صار شيئاً هاماً.

- مياه النيل كلها، ومياه الترع، وكل مياه الرى يا سبيلة، هو الذى يفرقها على البلاد، وعلى الغيطان.

- يا ......! مهندس!

- مهندس فقط إنه الآن وكيل تفتيش.

- إيش هذا؟

- شىء مهم جداً. وعليه الدور.......

- فى الرى؟!

- الله يضحكك يا شيخة (.....) فى الترقية. سيصبح مفتشاً عما قريب.

- وأختك (.....) وردة؟

- تزوجت زميلاً من زملاء سامى أخى، وهى سعيدة "وعايشة فى التبات والنبات، وخلفت أولاد وبنات".

- وأنت (......) من إمرأتك؟

- بنت خالى. اسمها بهية.

- تحبها يا مأمور؟

- طبعاً ... موت. ولهذا انتظرتها حتى كبرت.

- وما رأيك فى زواج ... الحب؟

- هو الزواج وما عداه ....

- عذاب ......

- وزيف، وخداع.

- لماذا إذن تحرمه على أختك؟

- أنا ... أختى من؟

- ست الناس.

- ربنا يشفيها يا شيخة! وهل هى ....

- نعم هى........

- تحب من؟

- مدبولى .... الغفير مدبولى.

- شىء غريب. منذ متى؟

- طول عمرها.

- وخلفت ولداً وبنتين؟!

- آه ... غريبة!!

- ليس هذا قصدى. إنما المسألة الغريبة حياتها مع "أبو سريع" ألم تكن تحبه؟

- لم تكن تطيقه.

- أرغموها عليه؟

- كما أرغمونى تماماً، رغم اختلاف الأسباب.

- وأنت لم تكونى تحبينه؟

- مثلما كانت ست الناس!

- وكنت أيضاً؟

- حب آ.... فقط!

- من؟

- سعد ... الولد سعد . ألا يليق؟

- يليق "ونصف" . مبروك.

- انتظر .....

- قصدى، مقدما!

وبدأ ناجى يضع حكاية أخته فى مقدمه المسائل التى تعنيه . مسكينة يا ست الناس، مع الناس!! من يصدق؟! كنت عند الناس جميعاً شيئاً قوياً هائلاً مستبداً، صاحب كلمة ونفوذ بنت من؟ سلطان أبوك وأمك نبوية، ولك إخوة ثلاثة: واحد عمدة والثانى شيخ بلد والثالث طرى من التخمة والفراغ ثم زوجك مارد يهز الأرض هزاً وكل هذا لم يسعدك!! فبحثت عن السعادة فى علاقة حرام؟!

مسكينة يا أختى، يا بائسة!! وهذا مصيرك يا أيتها الشقية ذهب الرجل كلوح من طين، أغرقوه، ثم ذهب الابن، فى صراع فرضه عليه ما تصوره ثأرا لأبيه! ثم ذهب وراء الزوج والولد أعز ما تملكين عقلك ثم ذهبت مع عقلك أمك التى خنقتها بيديك ياست الناس إن ذهاب أمك كان يمكن أن يكون شيئاً جيداً، لولا أنها ذهبت مخنوقة بيديك!

وشرد المأمور ناجى، وهو يبحث عن حل لأخته.

وفكر ودبر، وحاول دون جدوى.

وفى مناقشة مع سبيلة قالت له:

- لماذا لا تتزوج ست الناس الغفير مدبولى؟

واستفاق المأمور! الشىء الوحيد السليم، هو الشىء الوحيد الذى لم يخطر له على بال!! وعجب من نفسه، ومن فكره، ثم قال للغجرية:

- لكنها كبرت يا غجرية.

- نصيبها الناس.. إما بأولاهم أو بأخراهم.. حظها.

- لقد صارت جدة.

- الله!! خلاص وقفتموها على الحزن والنكد والحرام؟ هذا حرام!

- عندك حق (.....) ليس معنى أن تظلم، أن يستمر هذا الظلم إلى الأبد.

وبدأ المأمور يرسم لها الطريق.

وطريق الأسرة هو عباس.

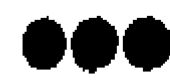
وطريق عباس، الست قمر.

وكان لا بد لعباس من أن يقتنع بأن تعود، ولم يكن هذا مستحيلاً فعباس رجل طيب وعاطفى ورقيق وكان لا بد من أن تعود الصلة بين ست الناس ومدبولى، ولم يكن هذا مستحيلاً، فإن مدبولى كان يحب ست الناس إلى درجة العبادة، وست الناس كانت تحبه، ولم تكن فى الواقع إلا له.

ثم كان لا بد من اللقاء مع الست قمر.

وكان لا بد من لقاء بين الست قمر والعمدة عباس.

على أية صورة يتم؟ على أنها الست التى تشبه الست قمر؟ لكن الست قمر نفسها آثرت أن تجلى الموقف، وألا تلف على عباس، ويلف عباس عليها.



- الآن أستطيع أن أناديك باسمك الحقيقى يا ست قمر.

- طيب يا عباس ..... يا عمدة.

- ولماذا لم تخبرينى؟ ..... تشكين فى يا ست قمر؟!

- ألم تقتلونى؟ ربنا وحده هو الذى يحيى العظام وهى رميم أنا كنت ميتة.

- ربنا كريم هم الذين ماتوا أو قتلوا، ولا تزالين أنت فى عزك.

- "خلاص يا عباس. راحت علينا".

- وكيف حال الأولاد؟ سامى وناجى ووردة.

- كلهم بخير. يسلمون عليك.

- لا بد أنهم نسونا. طبعاً! الله يجازيهم، من كانوا السبب.

- لا نسوا ولا شىء بلدهم وناسهم، كيف ينسون؟

- وجلال ألا يزال معكم؟ وضحكت على يا ست قمر، وأفهمتنى أنه يعيش عندك، وأنك لا تعرفينه ولا شىء على كل حال جزاك الله عنه كل خير إنه رجل. جلال رجل شهم وشجاع وجرىء ومظلوم يا ست قمر! شريف وأمه شريفة لكنهم سلبوه حتى السمعة الطيبة وحاربوه فى أمه!! البركة فيك وفى اخوته، تعوضونه عن كل شىء.

- إلا شيئاً واحداً، لا نملكه.

- ماذا؟

- الحياة!...

- إيه؟ ماذا تقولين؟ ماذا حدث؟

- ما يحدث لكل الناس خطفه الموت!

واحتقن صوت عباس، وسقطت من عينيه الدموع صامتة، وأخذ ينظر إلى الست قمر لحظات وهو لا يعرف ماذا يقول إرتج عليه، وتاهت كلماته فى حلقه، ولم يعى ماذا يدور حوله.

ولما استعاد بعض هدوئه، صاح يسأل:

- جلال مات! تقولين مات؟!

- نعم يا عباس جلال مات. قتله الإنجليز.

- ولا حول ولا قوة إلا بالله. لا يمكن.. لا يمكن.

- صلى على النبى يا عباس. إلا هذا! إنه علينا حق.

- آمنت بالله ... لكن جلال ... جلال.

وانكفأ على كفيه يبكى، وهو يتذكر ويتحسر.

وبعد أن أفاق، أخذ يقول:

- الله يلعنهم فى كل كتاب، الإنجليز هؤلاء. قتلوا "جلال"، وقتلوا الشيخ "أبو عوف" الرجل الطيب الأمير وهو يزور مريديه قرب السويس.

وفغرت الست قمر فاها وهى تشهق فى هلع وتقول فى استغراب:

- والله ... حتى الشيخ قتلوه.

وفى طيات نفسها كانت تسأل نفسها:

- أهو تخابث يا عمدة؟ ... هل تعرف أن "جلال" هو نفسه الشيخ؟

لكنها لم تكد تسأل نفسها هذا السؤال، حتى عاد عباس يقول وهو يخبط كفاً بكف فى حسرة وعجب واستنكار.

- الإنجليز دائماً الإنجليز! هم أيضاً الذين أخرسوا "أبو المكارم"! منذ قتلوا أباه وأمه واخوته أمامه وهو أخرس!

ومضى عباس يهز كتفيه ورأسه وهو يقول:

- والعجب أنهم لا يقتلون شخصا سيئاً أبداً! هم لا يقتلون إلا الصالحين. جلال البطل يقتلونه! طيب، لنقل أنهم أرادوا التخلص منه، لأنه خطر عليهم... والشيخ "أبوعوف"، خطر عليهم هو الآخر؟! الشيخ "أبو عوف" الرجل المبروك، الولى الطاهر، الذى لا ينطق إلا عبادة، ولا يتحرك إلا لله، ... حتى هذا الملاك يقتلونه؟ لكنهم لا يقتلون إلا الصالحين أبو "أبو المكارم" كان أيضاً صالحاً، ولهذا قتلوه بقى أن يقتلوا

الشيخة تفيدة يا ست قمر، ويقتلوا الولد الصغير "أبو عوف" وقد يقتلون "أبو المكارم" ويتقلونك، ويقتلونى... آه، لكنى لست على كل حال من الصالحين.

وابتسم عباس وهو يقول:

– و إلا ما صرت عمدة لو كنت صالحاً، ما صرت عمدة.

وابتسمت الست قمر وهى تقول:

– وهل أنت بحق وحقيق، عمدة؟

قال مازحاً.

– "ليه"؟ ناقص اصبعا؟

قالت تداعبه:

– مسطول!

قال متبسطاً:

– أحسن، ولماذا أفيق؟ هل تستحق الحياة أن أفيق؟

قالت:

– نعم تستحق.

قال وقد بدأ يعتدل فى جلسته:

– لماذا؟

قالت فى حسم:

– لتصحح أخطاء الآخرين. لتنصف الناس من الظلم الذى وقعوا فيه. لتقول كلمة حق تبدد بها الباطل.

قال فى قنوط:

– ويسمعون؟

قالت فى شدة:

- يسمعون أو لا يسمعون. المهم أنت، تؤدى واجبك وليكن بعد ذلك ما يكون.

ثم اعتدلت الست قمر وهى تنظر إليه فى عمق، تحاول أن تنفذ بعينيها داخل نفسه، وشعرت أنه ينصت إليها بكل جوارحه، فقالت له:

- اسمع يا عباس. هل كنت مقتنعاً بما تفعل؟ هل كنت راضياً عن سلوكك القديم؟

قال لها فى استسلام:

- لا تفتحى جرحى يا ست قمر أنت تعرفين أنى لم أكن راضياً أبداً.

قالت له:

- الشقاوة القديمة، وإيذاء خلق الله، وتقليع الزرع، والقتل وسفك الدماء، وسرقة أموال الناس.

قال وهو يشير بيديه:

- حرام ... كان هذا كله حراماً فى حرام.

واستأنفت الست قمر تقول:

- والكيف والإسراف فيه.

قال فى تسليم:

- كنت أنسى به ما كنت فيه. مظلوم. كنت مظلوماً يا ست قمر كما تعرفين.

قالت فى ذكاء:

- وترك الظلم يستشرى على وجه قبيح كما كنت ترى. ألم تكن تعرف جرائم عديلك "أبو سريع"؟ وألم تكن تعرف جرائم أسرتك؟ والنهب والسرقة والاستغلال ألم تكن تعرف ذلك كله؟

قال فى ضعف:

- وماذا كنت أستطيع أن أفعل؟

قالت:

- لكنها سلسلة ضخمة من الجرائم يا عمدة.

قال:

- لكنى تبت الآن، والله غفور رحيم، يقبل التوبة.

قالت:

- وما هى التوبة يا عمدة؟ أن تصلى؟ أن تصوم؟ أن تقلع عن الكيوف؟ ما هى التوبة؟

قال:

- هى كل ذلك.

قالت فى حدة:

- إن تكن فى هذا فحسب، فخير لك أن تبلها وتشرب ميتها. لا يا عمدة. التوبة أن تصحح أخطاء الماضى، وتنصف المظلوم، وتقتص لصاحب الحق ممن اغتصب حقه... ومسائل أخرى عديدة، بلا حصر.

قال فى تسليم:

- ومن أجل هذا قبلت العمدية.

قالت فى هدوء:

- لتنصف المظلومين؟ مهما تعرضت لثورة الأسرة الكريمة عليك؟

قال فى تصميم:

- على أن يكون المظلوم حقيقة مظلوماً.

قالت:

- تصدقنى إذا دللتك على حالة؟

قال:

- طبعاً، وبلا شك.

قالت:

- إذن أنصف ست الناس.

ونظر إليها طويلاً وقبل أن يقول شيئاً، أضافت الست قمر:

- أعرف أن أحداً لا يصدق أن ست الناس مظلومة، أو أنها يمكن أن تكون مظلومة! طبعاً، فقد كانت دائماً هى الظالمة، وهى المفترية على الناس بالباطل! شاركت فى كل المظالم التى وقعت فى القرية، وأخفت فى بطنها كثيراً من أسرار الظلم لكنها مع ذلك كانت مظلومة، بل ربما لم تفعل كل ذلك إلا لأنها كانت مظلومة.

وفتح عباس فمه فى تعجب. وقبل أن يتكلم، كانت الست قمر تقول:

- نعم فقد كانت تعيش فى مأساة. زوجوها لشخص لا تحبه.

وصاح عباس يقول:

- أبو سريع!! ست الناس لم تكن تحبه؟

قالت الست قمر:

- آ.. آ.... يا عباس ست الناس لم تكن تحبه. ولهذا كانت مندفعة للتسلية بحب آخر، وكانت تعانى المر والعذاب فى سبيل حبها، وكان هذا الاضطراب سبباً فى اندفاعها نحو الظلم فقدت نفسها، وفقدت الشعور بالاقتناع والقناعة، وأنها نالت ما تريده، ولم يكن ما تريده ميسراً لها فى أمان كانت دائماً خائفة من نفسها وعلى نفسها، وكان هذا سر قسوتها.

وصاح عباس كأنه صحا من حلم:

- ياه ... وأنا الذى كنت أظنها......

قالت الست قمر:

- كثيرون وكثيرات يظهرون على غير حقيقتهم، ويظلمهم الناس وهم معذورون.

قال عباس:

- طيب قولى يا ست قمر. من كانت تحبه ست الناس؟

قالت:

- بشرط. تنفيذه؟

قال:

- من عينى الاثنين.

قالت:

- ألا تقول لأحد إلا إذا اتفق عليه رأينا معاً.

قال:

- لك هذا يا ست قمر.

ووضعت الست قمر يدها فى عبها، وأخرجت ورقة مطوية ناولتها لعباس وهى تقول له:

- اقرأ هذا أولاً.

وفتح الورقة، وأخذ يطيل فيها النظر ثم صاح:

- مدبولى. مدبولى الغفير. شيخ الغفر مدبولى! الله... لكن ... آه لم لا؟

ونظر إليها طويلاً ثم صاح:

- أهو ... يعنى آه...

وأسرعت الست قمر تومىء له برأسها وهو تقول:

- آ..هو... هو الغفير مدبولى.

قال:

- "عشت مغفل وحتموت مغفل يا عمدة! و إلا يمكن كنت مسطول".

وضحك وضحكت وافترقا على أن يبدأ فى تنفيذ الأمر الصادر إليه، بتعيين مدبولى شيخ غفر، قبل أن يتخذ خطوة أخرى جديدة.

وبينما كان فى طريقه إلى البلد بعد هذه المقابلة، أخذ يتطلع إلى الأمر المكتوب، ويطيل النظر فى توقيع المأمور: ناجى سلطان:

ويهز عباس رأسه وهو يقول: زمن. أى والله زمن. من يصدق؟



وصرت يا مدبولى شيخ الغفر! أى والله يا ولد صرت حكمدار القرية وحاميها! وكل هؤلاء الغفر، يعظمونك، ويطرقعون على السلاح عندما تمر بهم، ويقفون أمامك "زنهار" كأنك أبو زيد الهلالى فى زمانك يا ولد!!

وتمدد فى حجرته الرطبة، وقد غلبه النعاس.

آ.... تنام قليلاً، فقد مضت عليك ثلاث ليال لم تذق فيها طعم النوم. وهل ينام شيخ الغفر؟

هل كان ينام أبو سريع؟

وابتسم بينه وبين نفسه، وهو يقول فى نفسه:

آ.... كان ينام. بل وكان ينام نوماً عميقاً كأنه الموت، وكان شخيره يملأ جنبات المكان الذى ينام فيه. لكن الناس كانت تظن أنه لا ينام أبداً بل إنه - إذا نام - فإنه كالذئب - ينام وعين من عينيه مفتوحة!

كلام!!.. آ.... كلام!

كان لا بد من أن ينتشر هذا الكلام، لينخدع الناس، ولتنخلع قلوبهم من سبع الليل. بل كان لابد من أن ينتشر هذا الكلام حتى بين أهله وأصهاره.

طبعاً! سبع الليل لا ينام سبع الليل يطوف طول الليل فى كل مكان.

ياخى!! وصدقتم؟ وصدقت يا قرية طيبة ساذجة ومخدوعة؟! وارتعدت مفاصلكم يا رجال؟! واهتزت أعطافكن يا نساء؟! آ.... والله! وأخذتم تديرون على المصاطب وفى الأجران، وحول الساقية، وفى الحقول كلاماً عن "أبو سريع" كأنما كان جناً، أو كشفت عنه حجب الغيب! ولو علمتم أنه كان هنا أو هناك نائماً يتمطى! لكن لماذا تدركون؟ وكف تدركون؟ معذورون! الغطاء كان على أعينكم ثقيلاً وكثيفاً، فلا تبصرون!

واعتدل شيخ الغفر مدبولى، قبل أن يغفو ليبل ريقه ببعض الماء.

وقال لنفسه قبل هذا النعاس:

هل تصبح كسبع الليل يا مدبولى؟ هل تريد أن تكون مثله، ترعب الناس؟ لا يامدبولى... أنت منهم، وهم منك.

وشرد وهو بين النائم واليقظان.

وظهرت أمام عينيه مظاهر الفرح التى استقبلت بها القرية نبأ تعيينه شيخ غفر. رقص الرجال، وزغردت النساء، وظهرت فى عيون الأطفال نظرات رضى وتفاؤل.

وذهبت القرية إلى ضريح سيدى الذكيرى، وشاركت كلها فى حضرة ذكر تجلت فيها نورانية رائعة. وكان الشيخ عبد الرءوف فى أعمق حالاته، وكذلك الشيخة تفيدة، حتى أبو عوف الصغير، ابن الشيخ، قد كان هائلاً. كان يذكر معهم كان ينشد معهم كان فرحاً بهم سعيداً ومشرفاً الشيخ مختار كذلك كان هناك مع الناس، بل أن ست الناس ذهبت إلى الضريح! ومعها عدد من نساء القرية، جلسن مع الشيخة خلف الذكر يشتركن فى

فرحة القرية بالشيخ الجديد أبو سريع كان هناك أبو سريع الصغير، حفيد سبع الليل الذى ذهب أبو سريع وأبو عوف كانا متجاورين فى حلقه الرجال يذكران الله معا! نعم حفيدان واحد لأبيه، والثانى لأمه، لكنهما بريئان مما كان بين جديهما، ومسالمان.

وكانت الشيخة تفيدة تنظر إليهما وعلى شفتيهما ابتسامة رضا وقناعة، وتطل على القبر الفارع العالي، لتقول لجلال فى صمت: أتراهما؟ وهل تصدق؟ هل كان يخطر هذا لك على بال؟ أن ترى حفيد خصمك العنيد، جنباً إلى جنب مع ابنك الجميل؟

ورأى مدبولى نفسه فى المنام شيخاً عادلاً ومحبوباً، يسهر على راحة الناس ويحقق حاجة المحتاج لا يعتدى على أحد، ولا يستغل السلاح الذى كل كتفه إلا لخير الناس.

وشعر بالندم على ماضيه.

لماذا كنت هكذا مجرماً؟ لماذا كنت تساعد على الأذى؟ ولماذا كنت سيف ظلم تقطع ألسنة من يتطاول بكلام؟

لكنك كنت مخدراً يا مدبولى لا تشعر بما تقوم به من أعمال! نعم وكنت تنسى، فى جو الجريمة المظلم، أن فى الدنيا نوراً وأملاً، وناساً لهم قلوب نعم يا مدبولى، بل وكانت الدموع كحبات العقد، تلمع فى عينيك تحت الأنوار! كنت تنتشى بها يا مجنون! اللهم لا تعدها تلك الأيام.

يعنى كنت مظلوماً، وأنت تظلم؟!

وهل صحيح كنت تتمزق، وأنت تمارس هذه المظالم؟

والخيانة؟ وست الناس؟ وطعن شيخ الغفر فى قفاه؟!

وهذا أيضاً كنت تمارسه مخدراً، ومظلوماً؟!

كنت تحبها؟! وكانت تبدو أمامك محرومة ومظلومة؟ وكانت كذلك تغريك، بنفسها، ونفوذها، وبالمال!! ولماذا كنت تقبل؟ لماذا دنست حبك بالخيانة والظلام والمال؟ لم تكن قادراً! لم تكن تستطيع! يا مسكين!

وكنت تسلى نفسك، بأن "أبو سريع" يوغل فى الحرمات، كأنما يدوس فى وحل، بلا حياء! لكنك كنت تعلم أن ذلك لم يكن إلا غطاء تدارى به عورتك يا مدبولى. مالك أنت و"أبو سريع"؟ هل كنت كلفاً بتقويمه؟ أو الانتقام منه؟ وتسمى هذا حباً... بعد هذا؟

ويصيح مدبولى وهو نائم، من قسوة ما أطبق عليه من كابوس:

– لكنى أحبها. والله أحبها. ست الناس هى حبى الوحيد. هى عمرى. هى أملى. هى مستقبلى، فلا تحرمونى منها، لأنى أسأت السلوك ذات يوم.

وتكاد صيحاته أن تخترق الباب إلى الطريق العام، لولا أنه صحا من نومه، وهو يستغفر الله العظيم.

وعندما التقى مدبولى بالعمدة عباس بعيداً عن الناس، تبادلا نظرة طويلة معبرة، وكان بينهما حوار قصير.

– الناس كلها فرحت لك يا مدبولى.

– البركة فيك يا حضرة العمدة.

– البركة فيها هى......

– هى؟ ... من هى؟

– ألا تعرفها؟

– من تقصد يا عمدة؟

– ست الناس......

وشهق مدبولى كمن لدغته أفعى، وجف فى حلقه الكلام وشعر عباس أن العيار أصابه. ولم يكن فى نيته أن تكون الإصابة فى مقتل، فاستأنف يقول:

– وست البلد كلها.....

وظل مدبولى فى حالته تلك المضطربة، والعمدة يتظاهر بالهدوء، ثم قال:

- وستى وستك، وست الحاج سلطان أيضا.

وسكت العمدة قليلاً ثم قال:

- تعرفها؟ ألاتعرفها يا شيخ الغفر؟

وأخذ شيخ الخفر يبلع ريقه ويكح تارة، ويتنحنح تارة، وقد تملكه الاضطراب حتى كاد أن يقع.

قال العمدة عباس فى ضيق:

- يا شيخ! ماذا جرى لك يا شيخ الغفر؟ أنا كنت أظنك ذكياً. ألا تعرفها ست الناس جميعاً ... الست قمر؟!

وكأنما لم يسمع ما يقوله العمدة، فظل مضطرباً جامداً متلعثماً، وأدرك العمدة حالته، فصاح يقول:

- أقول لك الست قمر. ألم تسمع يا مدبولى؟ الست قمر!

وكرر مدبولى اسمها كأنما لا يزال الامر مغلقاً عليه:

- آ.. آ.... الست قمر... أعرف. سمعت... الست قمر.

فلما دخلت الكلمات أذنيه، واستوعبها تماماً صاح فى العمدة وقد أدرك ما سمعه:

- الله!! لكن الست قمر مالها بهذا الموضوع؟ وماذا أتى بها؟ ألم تقتل! ألم يقتلها أبو سريع؟ لقد ماتت وشبعت موتاً.

قال العمدة عباس:

- لا يا سيدى. الست قمر حية وصحتها أحسن منك ومنى.

قال مدبولى:

- الكذاب المفترى حتى على ربنا الذى يقبض الأرواح وحده!!

ثم عاد يسأل العمدة:

- لكن كيف عرفت يا حضرة العمدة؟ هل قابلتها؟ هل تقابلها؟

قال العمدة:

- قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم...

قال مدبولى:

- بل لن يسوءنى شىء.

قال العمدة مازحاً:

- اصبر وما صبرك إلا بالله. سيأتى كل شىء، فى موعده.

وهز رأسه وهو يقول:

- ستعرف.. ستعرف... يوماً

وتأهب العمدة للانصراف، فقال لشيخ الغفر:

- أذهب أنا لأقابل ست الناس.

وعاد شيخ الغفر إلى الاضطراب، وصاح فى هذه المرة يسأل:

- لكن لماذا؟ وماذا تريد من ست الناس؟

وصمت العمدة ثم قال متسائلاً:

- الله. ماذا جرى لك مدبولى؟ لماذا تثيرك سيرة ست الناس؟ ماذا بينك وبينها يا شيخ الغفر؟ أنسيت أنها مجنونة؟

صاح مدبولى:

- أبداً . إنها أعقل منى ومنك ومن البلد كلها.

قال العمدة:

يا... ه !! ولماذا تتحمس هكذا؟ وهل تعرف أكثر من الحكماء؟

قال مدبولى:

– والحكماء مالهم ... هلى هذا أيضاً خراج أو اسهال أو مغص؟ هذا شىء، من عند ربنا، وربنا وحده يعلم ماذا بها.

قال العمدة:

– طيب ربنا يعلم ... آمنا بالله. وأنت؟ تشارك ربنا فى علمه؟!

قال فى تردد المضطرب الحيران:

– أنا ... يعنى ... أهو ... أنا يخيل لى...

قال عباس وهو يربت على كتفه فى ود:

– اسمع يا شيخ الغفر. معى أنا يحسن أن تكون صريحاً أنا العمدة، وأنا رئيسك ورئيس البلد، وتضحك علىَّ ... لأ. نحن اثنان رجال ولكل منا أخطاؤه وحسناته، وليس عيباً أن تحبها.

وسكت شيخ الغفر لم يعد قادراً على الكلام.

ومضى العمدة فى صوته الدافىء الحنون:

– وهل تريد أن تتزوجها؟

وأومأ شيخ الغفر برأسه، وقد تملكه التأثر والأمل.

قال العمدة:

– وتعرف صعوبة ذلك أم لا؟ تعرف العجرفة الكذابة!؟ تعرف عائلة سلطان وحكاية الأعيان!؟ ومن يكون هو هذا الصعلوك، ليصاهر الملوك!؟ وهذا من هذا؟ واحد من

خدمنا يتطاول علينا؟ تعرف كل هذا الكلام الفارغ؟ كلام مكرر ومعاد وسخيف، لكن لابد من أن يقال! ثم الأمر أصعب يا شيخ الغفر. إنها أرملة سبع الليل، ولها بنتان متزوجتان، ولكل منهما لسان أطول من الفرقلة!! وكل زوج وزوج، وتوقع حكايات وروايات وقصصا يشيب لها الولدان! تعرف هذا أو لا تعرفه؟

قال مدبولى:

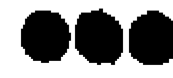
- لكن أنا الآن .....

وقاطعه العمدة وهو يقول:

- يا بنى شيخ غفر هذه، تلعبها على غيرهم. إنما مع أخوانا الأعيان الأمر مختلف لأنهم يعيشون فى أوهام المجد والعظمة، وكيف كان لهم جدود ذوو سلطان أسياد وسادة، حتى لو صاروا شحاذين!! ويقولون علينا نحن أننا مساطيل والله يا سيدى المساطيل عقلاء إلى جوار أوهامهم وتخريفاتهم.

وسكت العمدة قليلاً، ثم قال:

- على كل حال. سنرى ماذا يكون.



وعندما اختلى عباس بدرة زمانها، أخذ يحكى لها حكاية ست الناس ومدبولى ولم يبد عليها أنها فوجئت بما تسمعه، وأخذ عباس، وتملكه عجب شديد.

- هل كنت تعلمين؟ هل كنت تلاحظين؟ ولم تقولى لى؟ ولم تتحركى؟

قالت فى بلاهة:

- أختى! أختى يا عباس! أقول عن أختى؟ اسمها أختى يا عمدة! أفضحها؟!.

قال ضيقاً بما يسمع:

لأ ... عيب تتركينها تهوى إلى القاع!! تدارين عليها حتى لا يفتضح أمرها!! هذا هو الشرف! يا ناس يا أعيان، يا أسياد، يا أكابر! وتتعاظمون؟! وتتكبرون؟! وتحتقرون

المساكين؟! والله هم ناس فى حالهم، يحافظون على أنفسهم إذا استطاعوا، ولا يفرطون فى شرفهم برغبتهم!!

وصاحت درة زمانها فيه:

- ماذا جرى؟ إيه؟ إيه؟ "فاتوحة وانفتحت؟!! ومن أدراك ماذا كانت تعانيه مع "أبو سريع" أتظن أنها لا تعلم أنه كان رجلاً بعين فارغة، يشتهى أى إمرأة؟! أتظن أنها كانت تائهة عما كان بينه وبين أخريات كثيرات؟ أتظن أنها لم تكن تعلم أنه كان يشتهى حتى زوجة أبيها؟!

وأخذ عباس يردد:

- زوجة أبيها!! وأخريات كثيرات!!

بينما انطلقت درة زمانها تقول:

- هل هى حجر؟ إنها إنسانة يا عباس، تشعر وتحس، وهذه التصرفات تقتلها حاولت أن تصبر على كل هذا ولا تتحرك، لكنها لم تستطع هل كانت تطلب الطلاق؟ ولو طلبت، من كان سيسمع لها؟ كانوا يضربونها بالرصاص ولا يضحون "بأبو سريع" ست الناس معذورة. أى والله معذورة، والمسئولون عن خطئها، هم! نعم هم! هم الذين وضعوها هذا الوضع، ووضعوا إلى جوارها وفى بيتها ناراً تأكل قلبها هى، والحرمان يهددها، ومدبولى محروم مثلها، يحترق بالحب معها. والله لو كانت ستنا مريم، ما استطاعت أن تتحمل.

وهز عباس رأسه فى أسى، وتملكته عواطفه الطيبة، فأنسته أحكام القرية الصارمة، وأحس أن ست الناس كانت حقيقة معذورة. الست قمر كذلك أكدت له أنها كانت معذورة، وهو يثق فى الست قمر ثقة لا حد لها. إمرأة قادرة وقوية. من كان يقدر على الدفاع عن تفيدة؟ ثم من كان يقدر على تربية أولادها، بعيدة عن زوجها، وبلا مساعدة منه، ليصبح واحد منهم مأموراً، والثانى مهندس رى قد الدنيا؟ ثم من كان يقدر على تحدى "أبو سريع" بصورة لم يعهدها هذا المارد من قبل؟ ثم ها هى ذى تعين "مدبولى"

شيخ غفر، لتهيئة ليصبح زوجاً لست الناس ومن قبل هذا كانت تؤوى "جلال" عندها، برغم أنف الحكومة والحكام ألم يكن فى نظرهم شقياً محكوماً عليه بالسجن؟ وألم يكن يحارب الانجليز؟ الست قمر تعتقد أن ست الناس مظلومة. هى إذن مظلومة لابد أنها مظلومة يا ست الناس أنت مظلومة!! أنت أخت إمرأتى يا ست الناس، والظفر لا يخرج من الإصبع، والدم لا يصبح ماء!! ربنا موجود يا ست الناس، وأنا خدامك يا أختى آ.... أخت إمرأتى أختى تماماً جننوك يا أختى من الظلم، لكن الناس منهم واحد بأولاه وآخر بآخراه وأنت يا ست الناس ستكونين بأخراك. فاتك أولاك، فقضيته فى الذل والظلم والوحل والخيانة، مع وحش نهم مغرور غشاش مستبد، وقد آن الأوان لتعوضى ما فات بأخراك، مع حبك القديم العذب الشهى الرقيق، فى حياة ممتعة متصلة لا تنتهى إلا بالموت. أنا خدامك وربنا معى. وان شاء الله أقدر على خدمتك.

وعندما فرغ عباس من هذا الحديث الصامت مع نفسه، نظر إلى زوجته يسألها من من الأهل يأخذ رأيهم فى زواج ست الناس إنه لا يريد أن ينزل إلى سؤال الصغار، لكن الكبار ذهبوا، ولم يعد أمامه إلا الصغار. صار الصغار كباراً، برغم أنه يراهم أصغر من أن يأخذ رأيهم أو يستشيرهم.

وأخذ يقول لزوجته:

- أخذ رأى من؟ عيال!! كلهم عيال!! أين أيامك يا عم سلطان؟ وأنت يا حاج غضبان يا بنك الرهونات؟ والشيخ سيد وممتاز أفندى، والعمدة والأعيان حتى "أبو سريع"، على ما كان عليه من سوء، كلهم ذهبوا، وذهب وراءهم كل من خلفوا، إلا القليل. العمدة غضبان رحل وممتاز الصغير، ولم يبق إلا سيد، شيخ البلد المجنون! حتى أدهم رحل خلف أبيه، "أبو سريع" والعمدة القديم خلف وراءه اليأس لقد غادر بعض أبنائه القرية بحثاً عن العلم، ثم عن الرزق، ولم يبق إلا واحد خاب فعاش على الزراعة وذكريات الماضى وتطاول السادة الأعيان! لم يبق يا عمدة النحس يا عباس إلا سلطان بن غضبان،

وابن العمدة القديم الخائب، وبعض أبناء العمومة، والأصهار آ.... الأصهار!! يا ويلك من الأصهار يا عباس! يا ويلك من الزوجين، والزوجتين، وكل منهما بلوى "مسيَّحة"!

نوارة "الغندورة" ولسانها، وزوج كلسانها طويل و"هايف"!

ونور الهدى "ست أبوها" ورقاعتها التى لا تحتمل، وزوج طرى مثلها!

وأخذ عباس يذكر كلا منهما، ويستعيد بعض الذكريات عنهما الأولى غندورة من صغرها، وأمها لا هم لها إلا زينتها كل الناس قالوا أنها هى هى ست الناس، فصادف هذا الكلام هوى فى نفس ست الناس، فأرادت أن تجعل منها تحفة، حتى لا تقع عليها عين، إلا وتجدها أحلى مما تتوقع! وبهذا شبت البنت وهى تشعر بجمالها ودلالها، ومكانتها عند أمها صارت غندورة، ولهذا فقد تنافس عليها العرسان، واختار لها أبوها ولداً ممشوق القوام، طويل القامة، من أولاد الأعيان الكبار، وكان يقول عنه لست الناس: المهم أنه رجل غنى، لكن هذا ليس المهم من أصل كبير، لكن هذا ليس المهم من عصبية قوية، لكن هذا ليس المهم. المهم هو أنه رجل من ظهر رجل قلبه حديد، ويلعب بالبيضة والحجر ذكى يا ست الناس ودماغه ... تلعب ببلدنا. نمس! سموه النمس أنا وأبوه سميناه النمس، لأنه نمس......

وكان أبو سريع يضحك سعيداً مرتاح البال، وهو يتحدث عن عريس ابنته الغندورة وعندما كانت ست الناس تقول له:

- وهى أيضاً غندورة.

عندئذ كان شيخ الغفر يقول فى وحشية:

- من يشهد للعروسة؟ يا شيخة! الولد فرج النمس ولد صحيح، وحلو أيضاً، إن كان هذا هو ما يهمك. غندور وغندورة.

- والثانية ... آه من الثانية!

- نور الهدى "ست أبوها".

هو - أبو سريع - الذى سماها "ست أبوها"، ليغيظ بها ست الناس إمرأته! طبعاً، فقد كانت شديدة الاهتمام بالغندورة وأدهم، أما نور الهدى، فقالوا أنها شكل أبيها، فلم تنل نفس الاهتمام الذى تناله الغندورة وكان أبو سريع كثير الشجار مع إمرأته من أجلها.

- يا "ولية" نور الهدى بنتك مثل نوارة.

- "يوه طيب ما أنا عارفة".

- إذن تهتمين بها مثلما تفعلين بنوارة.

- وأكثر يا شيخ الغفر.

- كدابة يا ست الناس.

- "خسرها بكلامك. أنت حتخسر البنت"!

- إنها ستى "ست أبوها" فاهمة؟ "ست أبوها" أنت ست الناس وهى "ست أبوها".

وأقسم شيخ الغفر ليأتين بواحدة ترعاها وتهتم بها، إذا لم تجد الرعاية الكافية والاهتمام الكامل من أمها.

وخافت ست الناس، فبذلت لها من العناية مثلما تبذل لأختها.

وعندما وصلت نور الهدى سن الزواج، اختار لها أبوها واحداً مثلها "سيد أبوه" مثلما هى "ست أبوها". اختار "فتوح الحاج قنديل"، فإن أباه لم ينجب سواه، بعد عذاب طويل، فلما أعطاه الله "فتوح"، جعل منه عجيبة!! لا يطلب شيئاً إلا أجيب. أكل، شرب، لبس، نزهة، أى شىء، وكل شىء يطلبه فتوح مجاب له خادم مخصوص، يتبعه حيث ذهب. حتى فى الكتاب يكون التابع واقفاً على الباب فى الإنتظار. وكان كأولاد الحواديت يشرب الماء بالماورد! ويكاد لا يأكل إلا اللوز! رقيق المضروب، كأنه نازل من السماء!!

وكان أبو سريع يقول:

- هو هذا الذى يليق بها كل منهما كالأخر البنت "ست أبوها"، والولد "سيد أبوه".

وكانت ست الناس ترد عليه:

- خائبة وخائب ما جمع إلا ووفق!

وكان أبو سريع يصيح فيها بملء فيه:

- أنا ربيتها لتكون زينة فى بيتها تخدم وهى جالسة فى عز..آ.... ستى أنا إنها ستى، ومن بخت من يتزوجها أن يتزوج "ست أبو سريع" هل هذا قليل؟ كل الناس، أبو سريع سيدها، لكن هذه هى الوحيدة التى قبل أبو سريع أن يجعلها سته "شوفى أنت بقه"!!

ويضيف أبو سريع قائلا:

- فتوح فقط هو الشخص الوحيد الذى يصلح لها عنده مال لا حد له أرض لا ينافسه فيها أحد دوار مثل قصور الخلفاء ووحيد، لا أخ ولا أخت، وأبوه وجهه وباب القبر، وأمه ست لوز، وحلوة و"متختخة"!!

وتصيح ست الناس فيه ليستحى! حتى حماه بنتك لا تفلت منك!!

وينصرف "أبو سريع" وهو يبرم شوارب الصقر المستقرة تحت أنفه الضخم.



واستخار عباس الله، ودعا "سلطان بن غضبان"، ابن عم ست الناس، كما دعا "فرج النمس وفتوح الحاج قنديل"، وأحد أبناء العمدة القديم، وعدداً من الأهل والأقارب، ليشاورهم فى أمر يهم العائلة.

وعندما اكتمل الجمع، قال عباس:

- الأول صلوا على النبى.

وصلوا على النبى ومع هذا ظل ينظر إليهم وقلبه يدق من الخوف ولم يكن يدرى كيف يبدأ، ولا ماذا يقول وظن أن الله لن يفتح عليه بكلمة واحدة يقولها لهذا الجمع المنتظر.

لكنه صلى على النبى وقال:

- لقد أردت أن أستشيركم فى أمر يهمكم، لكنى قبل هذا أود أن أسألكم: ماذا ترون فى الزواج؟ أليس شرع الله وحلاله؟

ونظر كل منهم إلى الآخر، وقالوا له: وما سر هذا السؤال؟ ماذا جرى لك يا عمدة؟

وقال واحد: ربما يكون العمدة قد زاغت عينه!

وعقب آخر: آ.... على كبر!

وقال ثالث: الرجل لا يكبر يا أولاد شوفوا جدكم الحاج سلطان.

وارتفع صوت: "وإيش جاب لجاب" تشبه "عباس" بجدى سلطان؟!

ويلع عباس ريقه وهو يقول لنفسه " "آه ... ابتدينا"!!

وبعد أن سكت الجمع عن هذه التعليقات قال عباس:

- على كل حال، أنتم أولادى، ولا بد لى من أن أتحملكم.

وقبل أن يتم قال سلطان بن غضبان:

- والله وما عيبه يا عمدة؟ يمكن يكون نفسك فى الخلفة كفاك العمر الطويل الذى ضاع والله عندك حق لو أنك تشتهى الذرية.

وارتفع صوت سمج:

- آ.... حتى لا يذهب "الورث" للغرباء!

وعقب صوت أكثر سماجة:

- ويضيع ملك الأسرة على الأسر الطمعانة!

وارتفعت ضحكات مستهترة طائشة أفقدت عباس صبره، فاندفع فيهم ثائراً يقول فى شدة:

- اسمع يا ولد أنت وهو أنا لم أطلبكم لهذا الحديث، لأسمع كلاماً فارغاً سخيفاً أنا ظننتكم رجالاً مسئولين، تقدرون ما يقال، ولم يخطر على بالى أنكم على هذه الدرجة من الوقاحة وقلة الحياء ميراث!! الميراث تبحثون عنه أنتم! والثروة تجرون وراءها أنتم! وليكن معلوماً لكم أنى لم أسع لا إلى مال ولا إلى سلطان، ولا إلى مركز العمدية؟! أنا قبلتها من أهل البلد الطيبين الشرفاء. لم آخذها منكم، ولا عنكم. أتفهمون؟! كلمة زائدة عن الحد تخرجون حالاً من هنا ولا تعودون بعد ذلك تجلسون مع الكبار. أنا عمدة البلد بحق وحقيق. لست مفروضاً على الناس لأنى من الأعيان، و لا لأنى غنى، ولا لأنى من أصحاب السلطان. أبداً. الناس طلبونى وانتخبونى ووضعونى هنا، لأرعى مصالحهم، وأحافظ على حرياتهم منكم فحذار أن يتطاول أحد منكم. إن أشرف ما يشرفنى أنى من عامة الناس، وأنا أعلم هذا وأحافظ عليه فلماذا "التلسين" وخفة الدم، والتظرف؟ اطمئنوا لو كنت أريد الزواج، ما استشرتكم، لأنى لست تابعاً من أتباعكم، وأستأذنكم فيما أنوى عمله إنما المسألة تتصل بقريبة من قريباتكم وهى عمتكم المريضة ست الناس أعرفتم إذن؟

قالوا: مالها؟ خير مالها؟

قال: هل زواجها حرام؟

قالوا: زواجها؟ زواج من؟

قال: زواج ست الناس هل حرام؟

ولم يتكلم أحد لم يتصوروا أن سؤالاً كهذا يمكن أن يطرح لمناقشة! ست الناس جدة ست الناس عمة أو بنت عم أو فى مكان الأم وست الناس بعد هذا مريضة ... بعقلها! مجنونة! هل تتزوج المجنونة؟ هل زواج المجنونة حلال؟ هل تعى لتتزوج؟

ودار فى كل الرءوس مع هذا تساؤل: تتزوج من؟ ست الناس تتزوج من؟ إنها أرملة "أبو سريع"، وقد اعتادت على الحياة مع سبوع الليل، ولم يعد فى بلدنا لليل سبع، فمن يا ترى

تتـزوج؟! ثم هى سـت الناس وكـفى ... ست الناس بنت السـت نبـوية، بل وقـاتلة السـت نبوية! من تتزوج؟ هل هى مجرد عروس يتقدم لها الخطاب؟ إنها ست الناس!!

وصاح فرج النمس: ما هذا الكلام الفارغ يا عمدة؟

قال العمدة: فارغ؟ حاسب يابنى على ألفاظك شرع الله فارغ؟

قال النمس: شرع الله شىء وهذا شىء آخر؟

قال العمدة: الله هل هى إمرأة راشد أم بنت قاصر؟

قال النمس: آ.. لكنها كبرت.

قال العمـدة: كبـرت أو لم تكبـر هذا شىء لم يرد ضـمن مـوانع التصـرف فى الحقـوق الزوجية.

قال النمس: يا عمدة إنها جدة ... جدة. تزوجون جدة؟!

قال العمدة: يا بنى ... شرع الله أعطى كل إمرأة حريتها، حتى لو كانت جدة.

قال النمس: ثم أنها.. الله! يا عمدة أنت تعلم.

قال عباس فى هدوء: تريد أن تقول أنها مجنونة؟

قال النمس: وهل هذا سر؟ الناس كلها تعرف أنها ... مجنونة.

قال العمدة: لكنها هدأت الآن تماماً لم تعد مريضة يا نمس.

قال النمس: من قال لك هذا يا عمدة؟

قال العمدة: أنا أعرف أليست أخت إمرأتى؟ إسأل أقاربك هؤلاء.

قولوا له يا إخوانا، ما حال ست الناس الآن؟

وارتفعت أصـوات مختلفة تصيح: لأ لأ ... لقد صارت أعقل منا جميـعاً أى والله، منذ أسابيع طويلة، وهى فى غاية الهدوء والاتزان.

وصاح النمس: "موالسين ... موالسين معاك يا عمدة".

قال العمدة: اسمع يا فرج يا بنى. صدقنى إذا قلت لك انى ما قابلت واحداً منهم فى هذا الشأن إلا الآن. والله العظيم ما حدثت واحداً منهم عن هذا الأمر إلا الآن.

قال النمس: لا أصدق. غير صحيح. لا أصدق.

ونظر النمس إلى عديله فتوح، فرآه هادئاً، ينظر فى جمود وبلاهة، فصاح فيه:

- وأنت توافق، على أن تتزوج حماتك؟

وأخذ فتوح يدير عينيه هنا وهناك، فلما رأى عينى النمس قد برقتا فى غضب، خاف وقال له:

- لا ... لا أوافق. حماتى تتزوج!! يا... ه!..لا.. لا..لا.. يجوز.

قال النمس:

- سامع يا عمدة سامع هذا واحد.

قال العمدة:

- أنت تهدده. أنت لم تتركه يقول رأيه فى حرية.

قال النمس:

- "طيب بلاش"، وأنت يا خال سلطان، تكلم.

قال سلطان بن غضبان:

- الحقيقة أنا لا أصدق. هل هذه رغبة ست الناس بنت عمى؟

قال العمدة:

- ومنذ متى كنتم تقيمون اعتباراً لرغبات النساء؟

قال سلطان:

- وهل ست الناس بنت عمى من النساء؟!

قال العمدة:

- ستعرفون رأيها فيما بعد. المهم المبدأ.

وسأل سلطان:

- طيب يا أولاد، ألا نعرف الأول من يكون عريس الهنا الذى يريد مصاهرتنا؟

قال العمدة:

- على كل حال هذا ليس سراً. لقد تقدم الرجل يطلب يدها.

وصاحوا جميعا يتساءلون:

- من؟ من؟

قال عباس:

- مدبولى شيخ الغفر.

ومرت لحظات صمت ثقيلة، وأخذ كل من المجتمعين ينظر إلى الآخر فى جمود وبلاهة، وعباس ينظر إلى الجميع، يتحسس ما عساهم أن يكونوا قد وصلوا إليه من قرار. ولم ينطق منهم أحد، لفترة بدت على قصرها دهراً.

وقطع سلطان بن غضبان الصمت قائلاً:

- مدبولى!! صحيح اتق شر من أحسنت إليه!

وكانت هذه الجملة بداية الثورة والسخط والشتائم.

- مدبولى هذا "خدام من خدامينا"!

- مدبولى هذا "تابع حقير من تابعينا"!

– مدبولى هذا "صعلوك صايع بلا أصل"!

– مدبولى هذا "شحات ومن أصل شحاتين"!

– مدبولى هذا "مقطوع من شجرة، بلا أهل ولا ناس"!

– سيتزوج سته؟!

– يتزوج ربة نعمته؟!

– يتزوج من كان كالكلب يتبعها؟!

– يتزوج ست الناس، هذا الخادم المحتال؟!

– يتزوج بنت أسياده، الذين ربوه، وأطعموه، وآووه، هذا المتشرد؟!

– إذا كان مدبولى يظن أنه صار شيخ غفر، فهو شيخ على نفسه!

– ثم أننا نستطيع طرده، هذا الكلب!

– "حصَّلت"... أسياده يتطلع إليهم... هذا الحقير!

– والله عال يا شيخ الغفر..."يا نعجة"!

– مات أبو سريع، و إلا كان سلخ جلدك كالأرنب!!

وكان عباس طيلة كل هذا، ينظر إليهم فى سخرية، ويبتسم فى هدوء وهو يتطلع إلى فرج النمس، يرتج كالمحموم، ويكاد من طوله أن ينثنى نصفين، وفتوح الحاج قنديل يسب ويشتم خوفاً من فرج، ويبدو متململاً كأنه جالس على نار، يريد ـ لولا الحرج ـ أن يخرج عائداً إلى "ست أبوها" بدلاً من ضياع الوقت على هذا النحو الفارغ! وسلطان بن غضبان، يعيد إلى الأذهان ذكريات بنك القرية بكرشه الهائل، يبلغ فيه كل ما تنتجه القرية من الخير، وهو يتكلم ويسب ويشتم، لكن من الظاهر! كأنما الكلام يخرج من سقف حلقه، ولا يتجاوزه إلى ما فى داخل نفسه والآخرون كلهم يقولون كلام "عيال"، ينثرونه فى الهواء، كأنه فقاقيع!!

– ويهز عباس رأسه بعد هذا كله ثم يقول فى هدوء:

– شتمتم الرجل الغلبان المسكين، ولم يتعرض واحد منكم للعروسة؟! وقبل أن ينطلقوا فيه كالمدافع الخربة، أشار إليهم عباس أن يهدأوا حتى يكمل، ومضى يقول:

– لم يتعرض رجل منكم لست الناس، ويسأل عن رأيها ألا يمكن أن تكون الرغبة هى رغبتها، وأن تكون أكثر من العريس لهفة على الزواج؟ أم أنها لا تخطىء لأنها منكم، والخطأ دائماً خطأ الخدام التملى الحقير، الكلب، النتن: مدبولى؟!! لو كنتم حقيقة رجالاً فيكم نخوة، فأول ما كنتم تفعلون أن تلموا عرضكم، لا أن تتركوه ممزقاً مهلهلاً، وتجرحون أعراض الناس. مدبولى لا يمكن أن يتجرأ ويطلب يد ست الناس،إذا كان يعلم أنها ترفضه، ولا ترضاه ... أنا أعلم هذا عن يقين، ولهذا فأنتم تدورون فى الفاضى، لو اقتصرتم شتم الرجل المسكين وما معنى أن تشتموه؟ وما قيمة أن تسبوه؟ الشتم والسب وقلة الحياء أمور سهلة يستطيعها الأعيان كما يستطيعها الأهالى إنما المهم أن تحلوا الموضوع. ست الناس ومدبولى "فى الهوا سوا"، بدلاً من أن تظلموا الرجل، فكروا فى الحل الصحيح الذى يرضاه الله، ويحفظ عليكم كرامتكم.

وعاد "العيال" إلى الهياج والثورة والصخب:

– "يعنى تهديد" ... هذا تهديد.

– والله لنقتلن هذا الكلب ونتخلص منه.

– والله لنربينه حتى يلعق الأرض بلسانه.

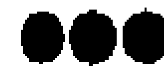
– والله لنفرجن عليه أهل الناحية فلا يعود يتطلع إلى أسياده.

– والله ... والله ... والله ....

وظلوا على هذه الوتيرة من القسم والأيمان، حتى صاح فيهم عباس:

- والله مـا تقـدرون على الإقـتـراب من فـرخـة! كلكلم جبنـاء كلكم أنذال ولو أن فـيكم نخـوة مـا كان هـذا حالكـم اذهبـوا افـعلوا مـا تشـاءون، والـرجل فـيكم يرينـى مـاذا يفـعل هيـا اخرجوا لقد ضيعت وقتى معكم وأنتم "عيال" لا تستحقون.

وأخـذ عـبـاس يدفـعـهم بيـديه إلى الخـارج فى عـصـبيـة، وهـو يصـيح فـيهـم ليـخـرجـوا، ويرحلوا عن هذا المكان، ليفـعلوا مـا يشـاءون، والويل لمن يعتـدى على أحـد، أو يخـرج على القانون.



وسـمـعـتـهم القـرية وهـم خـارجـون يسـبـون مـدبولـى، ويشـتـمـونه بأقـبـح مـا يسـتطيـعـون، ويتـوعـدون، ويقـسـمـون، ويتـصـايحـون، ويؤكـدون أن شـيخ الخفـر لن يـبـقى فى مكانه، وأنهم سيعملون على خلعه!!

بينمـا كـان مـدبـولـى جـالسـاً مع الـشـيخ مـخـتـار، فى حـديث طلى عن رسـول الله عليه صلوات الله، والخلفـاء الراشـدين، وعن قـوم صـدقـوا الله مـا عـاهدوا فنجـاهـم، وآخـرين عدلوا فأمنوا، لا يزعجهم شئ، ولا يخافون شيئاً.

وأخـذ أهل القـرية يتبـادلون نظرات صـامـتة، لـكن ذات معنى، ثم انصـرفـوا إلى بيوتهم وعيـالهم وأعمـالهم. منهم من جلس على إحدى مصـاطب القـرية فى حديث مع آخرين ومنهم مـن اختلى بأهل بيتـه، ولا سيـرة لهم إلا مـدبولـى والأعـيـان، والكلام الغـليظ الذى سـمعـوه، ومنهم من انصـرف إلـى الحقل، فـجلس على حـافـة التـرعة يرقب الـزرع فـلا يمل، أو جلس حول الساقية فى حديث أشهى من حديث المصطبة.

لكن القرية - على سذاجتها - غريب أمرها!

إنهـا - على بسـاطتـهـا - عـميـقـة الشـعـور بالحـدث، تسبـقـهـا إليه حـاسـة دقـيـقـة غـامـضـة وهى من فرط تعلقها بأبنائها، تكاد تحدد إتجاه كل حدث فى كل مرة، إلى من!!

وقد تكون القـرية الضـعيفة عاجزة عن حماية أبنائهـا، لكن هذا لا يمنعها من أن تدرك

ما قد يكونون فيه من الحاجة، ولا يمنعها من أن تحاول صادقة أن تلبى حاجة المحتاج، ولو فى الخفاء، ولو بالدعاء ثم بدموع اليأس!

وشعرت القرية شعوراً خفياً بأن شيئاً ما سيحدث لمدبولى.

ومدبولى واحد من أبنائها، له عليها حق الرعاية والحماية.

وفجأة، وبغير ترتيب، تردد بين أهل القرية نداء خفى دعاهم إلى التجمع هنا قريباً من حقله.

إن حقل الرجل فى القرية جزء من حياته والماشية فيه أعز ما يملكه.

لكن هذا لم يحدث فجأة، ولا جاء عفواً.

لقد وجد أهل القرية أولاد عائلة سلطان قادمين، وعلى رأسهم فرج النمس ومعه عدد من شباب الأسرة وأقاربها فتوح الحاج قنديل كان معهم، لكنه لم يكن فى مثل حماسة الآخرين، وكان فرج الطويل الفارع يحمل بندقية على كتفه، وقرطاساً فى يده، وعلى شفتيه كلمات شديدة.

كان يصيح بأعلى صوته: أنا ذاهب إلى حقله لأسمم بهائمه.

وكان يضيف فى رعونة: "الجدع يتصدر له".

وكان الناس فى حيرة من أمرهم وهم يسمعون! ماذا يفعلون؟

وأسرع منهم فريق لينبهوا مدبولى شيخ الغفر، أسرع فريق آخر لينبهوا العمدة والغفر وفريق آخر اقترب من فرج النمس، وبدون كلام أو حديث أحاطوا به وساروا خلفه كأنهم معه.

ومضى هو، وهم وراءه.

وكلما كان يقترب، كان الجمع يتكاثر، حتى كاد أن يضم القرية كلها حتى النساء سرن مع الجمع حتى الأطفال أخذوا يجرون بين سيقان الرجال.

كل ذلك وفرج النمس والعصبة من أولاد الأعيان تسير، لا تتوقف، ولا تتمهل ولا تمل.

وأصبحت القرية كلها تعلم أن فرج النمس ذاهب ليسمم بهائم شيخ الغفر.

ولم يعد خافياً على أحد، أن فرج النمس سينتقم من شيخ الخفر، لأنه جرؤ على أن يطلب يد ست الناس!! إن ست الناس حماته، وهو لا يقبل على كرامته وكرامة الغندورة زوجته، أن تتزوج حماته!

وعندما تكاثف الجمع خلف فرج النمس، وقف عن المسير، ونظر إلى الفلاحين فى استنكار، وصاح فيهم ليعودوا من حيث أتوا. أنتم يا غنم: فيم سيركم؟ عودوا إلى جحوركم و إلا .... ورفع بندقيته فى وجوههم.

وتراجع الجمع إلى وراء. لكن ما أن استدار فرج النمس ليستأنف المسير إلى غيط مدبولى، حتى عاد الجمع يتابعه والجماعة التى معه ولم يجد فرج من وسيلة إلا أن يعود يتلفت نحوهم يتوعدهم ويهددهم. وعادوا إلى وراء، لكن ريثما يستديرا!! وهكذا صارت المسألة كأنها لعبة العساكر والحرامية فرج النمس يسير والناس خلفه لكن فرج النمس يقف عن السير ويستدير إلى الناس مهدداً فتقف القرية عن المسير خائفة من تهديده فإن عاد النمس كما كان متجها نحو حقل شيخ الغفر فإن القرية كلها وراءه تحيط به!!

وبين حين وحين، كانت القرية تتلفت خلفها، لتعرف ماذا حدث عند العمدة، وعند مدبولى.

أما العمدة فوجدوه قد غادر الدوار إلى النقطة ليقابل حضرة الضابط.

وأما مدبولى فقد قال للرسول: غير معقول هذا أمر غير معقول فرج النمس ولد عاقل، ولا يمكن أن يطيش صوابه على هذه الصورة.

ولم يصدق بل وأصر للرسول أنه لا يصدق، وصرفه فى رفق وهو يقول له: يا شيخ دعنى مع سيدنا الشيخ مختار أسمع حديثه هذا الجميل.

لكن الرسول لم يشأ أن يعود إلى الجماعة بخفى حنين، فمر على الغفر، وبعضهم من صدق فأسرع إلى غيط شيخ الغفر معه، وبعضهم من أنكر أن يكون فى بلدنا من يسمم بهائم شيخ الغفر.

كان غيط شيخ الغفر بحرى البلد.

وكان لا بد من المرور بالساقية.

وهناك كان أبو المكارم يجلس على حافة الساقية يسمع إلى أحاديث الرجال وانضم أبو المكارم والرجال إلى أهل القرية يتبعون النمس.

ثم كان لا بد أن يسيروا على حافة قناة، تحاذى غيط سلطان وحديقة الفاكهة التى شهدت غرام الحاج سلطان والضحية الحلوة تفيدة.

فإذا تجاوز الجمع خص "أبو عوف" استداروا إلى اليسار ليسيروا على حافة ترعة فى الطريق إلى حقل شيخ الغفر. لكن الحقل مع هذا ليس على جسر الترعة، وإنما تفرقه منها بضعة حقول، لكنه هناك فى هذا الإتجاه على كل حال.

وعندما تجمع أهل القرية، وأخذوا يلاعبون النمس لعبة العساكر والحرامية، كانوا يتصورون أنهم بهذا يمطلون وقوع الجريمة حتى يحضر شيخ الغفر، ويواجه هؤلاء المجانين، وينقذ بهائمه من الموت بالسم.

لكن شيخ الغفر لم يحضر.

وبدأ شعور بالقلق يسيطر على الجمع.

يا نهار أسود وماذا نستطيع أن نفعل، لو أن هذا المجنون سمم البهائم؟ إن البندقية على كتفه تحمل نذر الموت. إن حوله جمعاً من المجانين مثله. ثم من يجرؤ على هؤلاء، وهم أعيان البلد؟

لقد تجاوزوا خص "أبو عوف" واتجهوا إلى اليسار. نعم وأخذوا يسيرون فى رعونة على حافة الترعة، إلى الحقل. كلماتهم المجنونة تتقدمهم، وسبابهم كأنها القذائف! وما هى إلا لحظات، ثم تقع الجريمة، ويفقد مدبولى بهائمه.

والله ضعت يا مدبولى! أيسر لك يا مدبولى أن تفقد مشيخة الخفر، أما بهائمك فهى كارثة!! مسكين يا مدبولى وماذا جنيت يا مسكين حتى تواجه هؤلاء المجانين؟! إن كنت حقيقة تريد زواج ست الناس، فهذا شرع الله، ويستطيع أهلها أن يرفضوك، لا أن يهددوك ويسمموا بهائمك، ويخربوا بيتك.



اللحظات تمر سريعة .....

وقلوب الناس تخفق أسرع مما تمر.

وهواجس مثيرة تراود هذه الجموع.

هل هذا الزواج يساوى هذه التضحية؟ يا أخى النساء كثيرات، وهن أكثر من الهم على القلب، فلماذا الاصرار على ست الناس؟

لكن ربما يحب شيخ الغفر ست الناس، بل لا بد أنه يحبها، و إلا ففيم هذا الإصرار وهى ليست صغيرة بل أرمل ومجنونة؟ لو أنها غنية لفهم الأمر، لكنها الآن لا تملك شيئاً.

الصيت!! يتزوج الصيت! ألا تقول الأمثال: الصيت ولا الغنى؟!

وفجأة وقف النمس ليستدير إلى اليسار، ويمضى إلى غيط مدبولى هنا لا ترعة ولا قناة ولا يحزنون لا بد له من السير على حد بسيط يفرق الغيطان، كل منها عن الآخر ويمر بواحد والثانى، ثم يجد غيط شيخ الغفر، وفى وسطه ستكون البهائم مربوطة ترعى، وهى لا تعرف المصير الغادر الذى ينتظرها!!

وما كان فى الحد البسيط الفاصل متسع للقرية كلها لتمر.

لكن النمس مر، وأولاد الأعيان مروا وراءه.

ووقف الناس يرقبون هل يمرون خلفه؟ هل يتبعونه؟

وأعفاهم النمس من الاجابة، فقد وقف وهو يصيح: الغيط مروى! من غرقه ماء؟ من سبقنا ليغرقة ماء؟!

ونظر الناس كل منهم إلى الآخر فى استغراب.

صحيح من الذى غرقه ماء؟ لقد كان جافا طول اليوم، ولم يلحقه الدور بعد، والغيطان قبله كلها جافة، فكيف حدث هذا، ومتى؟!

ولم يفهم أحد شيئاً!!

شخص واحد كان يبتسم، وكان يحاول أن يخفى ابتسامته عن الناس كان يخاف أن تفضحه ابتسامته وهو واقف خلف الجمع: أبو المكارم!!

على أن فرج النمس لم يتراجع لقد شمر جلبابه وخلع نعليه، وصاح فى عصبته أن يتبعوه، ففعلوا مثلما فعل.

وفى الطين، وبين غيطان مروية، أخذوا يسيرون فى الوحل وحدهم، ولم يتبعهم أحد.

وفيهم من وقع فى الطين، فضحكت القرية فى صخب، وكان ضحكها يغطى على صيحات النمس.

وفيهم من مال فى اضطراب، وأخذ يستغيث بمن يسنده، والقرية ساخرة مما ترى.

وفيهم من استند إلى ذراع زميله، وهو يلعن هذا اليوم المشىءوم، ويلعن معه ـ من أجل النمس ـ شيخ الغفر الوقح، قليل الحياء!!

بينما أبناء القرية قد نسوا البهائم، وشيخ الغفر، وفرج النمس، أمام هذا المنظر الفريد.

فتوح الحاج قنديل كان عجباً، وهو يضع رجلاً فى الوحل، ثم يصعب عليه اقتلاعها، فيصيح طالباً النجدة، فيسرع إليه واحد من أقاربه، فما أن يخلص له رجلاً، حتى تكون الأخرى قد غاصت فى الطين، تحتاج إلى من يقتلعها له.

والقرية تكاد من فرط الضحك تقع على قفاها!!

لكن النمس كان يتقدم غير عابىء.

وعادت اللحظات تمر سريعاً!

إن النمس صار قاب قوسين أو أدنى من غيظ شيخ الغفر، وسينفذ وعيده لا جدال وأخذ الناس يتساءلون عن البهائم: هلا تزال في الغيط؟ إن أحداً لا يراها إن أعواد الذرة تحجبها عن العيون.

وصاح أحد الأصوات: واحد منكم يتحرك إليه.

وصوت آخر انطلق: امنعوه هذا المجنون.

وصوت ثالث ارتفع يستغيث: يا ناس هذه البهائم نعمة ربنا أنقذوها منه.

وصوت رابع يقول: إذا كان يريد انتقاما من مدبولى، فما ذنب البهائم؟

وصوت خامس، وسادس، وأصوات أخرى كثيرة متداخلة ومضطربة، تطالب بإنقاذ البهائم من النمس المجنون.

واندفع بعض الرجال خلفه، وغاصت أرجلهم فى الوحل لا يعبئون لم يخافوا النبدقية، ولا التهديد، ولا الرصاص المهم أن يؤدوا واجبهم إن أداء الواجب عبادة، كالصلاة.

وتداخلت الأصوات والنداءات والانفعالات.

أصوات تقول: امنعوه. لا تخافوا منه.

ونساء الرجال الذين تبعوه تصيح: إياكم . إنه مجنون، وطائش.

وبكاء أطفال، وصياح، وأصوات استغاثة والمجنون الطائش، فرج النمس، يخوض فى الوحل ليصل إلى غايته، ويسم البهائم. إن مدبولى الكلب قد تطاول على أسياده، ولا بد من الانتقام منه.

وفى هذا الجو المضطرب المشحون، تاه الناس مع الأصوات، مع العواطف، مع تهديد فرج النمس، مع الخوف على بهائم شيخ الخفر.

وفجأة ارتفع صوت يقول: هذه هى بهائم شيخ الغفر.

ونظر الناس فرأوها قادمة على جسر الترعة من أمام: البهائم التى أراد النمس أن يسممها، انتقاماً من مدبولى.

جاموسة وبقرة وعجل صغير وحمارة.

هذه هى بهائم شيخ الغفر، أقبلت من الحد الآخر للغيط، قبل أن تغرقها المياه التى أغرقت الحقل كله.

وبينما كان النمس لا يزال يغوص فى الطين ليصل إلى غايته، وخلفه عدد من أقاربه وأصهاره وبينما كان فتوح الحاج قنديل لا يزال يحاول اقتلاع رجليه من الوحل، كانت البهائم تسير الهوينا فى كبرياء، بعد أن أفلتت من السم الغادر المعد لها.

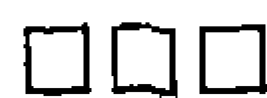
وفى ضجيج الضحك والفرح وسعادة أهل القرية، نظر النمس وهاله ما رآه! وشعر بالحقد يأكل قلبه، وبأن خيانة من أهل القرية قد سبقته إلى الغيط، فاحتاط مدبولى، وأرسل من سحب بهائمه بعيداً عنه.

وفقد المجنون أعصابه، فخلع البندقية من على كتفه، وأعدها ليطلقها على الشخص الذى أنقذ البهائم، وأخذ يقودها عائداً بها إلى القرية.

وعندما وجه البندقية نحوه، صدمته مفاجأة أخرى.

لقد كان الشخص الذى يقود البهائم إمرأة.

سبيلة الغجرية، وحولها ثلاثة من أهلها البدو، يحملون السلاح.



٣

قديمة وجديدة، هذه الطبيعة الساحرة.

كل فجر، يسرى فى أوصالها هذا الهدوء، ويساقط قطر الندى على أوراق البرسيم.

ومع طلعة الفجر، كل يوم، تتردد بين الحقول الخضر، دعوات صوفية تطلقها طيور الكروان: الملك لك..الملك..لك.. لك..لك. يا مالك الملك.. لك..لك..لك.

ويطل قرص الشمس كل صباح، من بين ستائر الفجر الرمادية، يستأذن فى أدب وحياء، لا يتسلل فى ظلام، ولا يقتحم فى جرأة، ولا يغزو الأرض والسماء فى استعلاء، حتى لو أنه قادر، أو يستطيع.

وبرغم هذا التكرار، فإن الناس يستقبلون كل فجر بالبهجة، ويستقبلون قرص الشمس بالترحاب، وتخفق قلوبهم، مع مطلع كل يوم، فى تفاؤل وأمل. لا التكرار يصرفهم عن شعور عميق بسحر الطبيعة، ولا التعاقب يثنيهم عن انتظار لحظات السحر الأخاذ. ولا أحد يقول لنفسه، فى مطلع الفجر: هذا رأيته أمس، وأول أمس... وقد يمضى راجعاً بالذكرى إلى يوم ولد. لا، وإنما هو يستنشق النسيم الرطب الرائع، وصوته يتهجد بذكر الله جلت قدرته، صانع هذا الوجود البديع، وصانع أبدع ما فيه: لحظات الفرقان.. عندما يفترق الليل عن السحر، ويفترق السحر عن النهار، ويفترق النهار عن المساء، ويكون أبدع رحيل يشهده اليوم ـ كل يوم ـ مع الأصيل... ثم الغروب.

قديمة وجديدة، هذه الطبيعة الساحرة.

كالطعام، والشراب، والنوم، والحب.

يأكل الناس كل يوم، بل مرات فى اليوم، وفى كل مرة، يستقبلون الطعام فى لهفة وشهية.

وكذلك يشربون، لا يقولون: شربنا قبل.

وهم يقولون عن النوم انه سلطان، لأنه يجرهم إليه، فتغفو عيونهم وتهمد أجسادهم، لا يتحركون، ولا يشعرون، كأنهم موتى.

وهم يحبون، ولا يملون. يقولون الكلام نفسه، منذ غازل آدم حواء، بل ويقوله الناس أنفسهم، وتسمعه الآذان نفسها وأهم من هذا أنهم يعرفون أن هذا الكلام سيقال... ومع هذا فإن له مع كل مرة، نشوة، وقد تصبح النشوة سكرة، وينسى الناس فى السكرة اليقظة.. فينغمسون إلى الأذقان فى شىء كالحريق، تزيد لذته، كلما توهجت... جمرته.

قديمة وجديدة، هذه الطبيعة الساحرة.

كقبة سيدى الذكيرى، والشيخة تفيدة، و"أبوعوف" الصغير، والشيخ عبد الرءوف.

قديمة وجديدة، هذه الطبيعة الساحرة.

كالساقية التى لا تكف عن الدوران. والثورين المعصوبة عيونهما فى احكام، وشجرة الصفصاف المتدلية غصونها تقبل صفحة الرياح، وشجرة الجميز الممتدة أغصانها فوق المكان، والنخيل الباسق المنثور هنا وهناك، و"أبوالمكارم"، وفردة الشراب الأحمر.

قديمة وجديدة، هذه الطبيعة الساحرة.

كاللقاء المكرر المعاد المتعاقب، بين الشيخ والشيخة وأبو المكارم وبينهم الصغير اليتيم الذى يشب إلى جوار قبر أبيه: أبو عوف بن جلال، أو ابن الشيخ أبوعوف، الفقيد الجليل، الذى يحرك قلوب القرية، حتى وهو ميت.

قديمة وجديدة، هذه الطبيعة الساحرة.

كأثقال الزمن والناس، يحملها نفر من الناس، عن الناس، أمانة يجب أن تصان، لا يهم أنها من ثقلها تكاد تقسم ظهورهم، ولا يهم أنها لا تعود عليهم بشيء، إلا الهم و الخطر. إنما المهم أن يزول الكابوس الثقيل الذى يخيم على الوجود، فيكتم الأنفاس، ويكاد يخنق الحياة. المهم أن تنحسر الأوهام، لتحل محلها الحقائق، وأن تتحطم القيود ليشرق نور الأمل والحرية، وأن ينتهى عقم الخيال لتمتد الآفاق إلى ساحات أرحب، وهذا الكساح، وهذا الرياء، وهذا الخوف، وهذا الذبول، وهذا الضمور، وهذا الجفاف. كل ذلك يجب أن ينقضى لينال كل مظلوم حقه وليستمتع كل انسان بما خل الله من نعم، بلا احتكار، ولا استبداد ولا ارهاب.

وليتزوج مدبولى ست الناس، طالما أنه حق مشروع وأن إرادتهما التقت عنده.



ويضحك ممدوح، أو الشيخ عبد الرءوف، وهو يستعيد ما كان أمس.

إن أمس قد كان يوماً مشهوداً. إنه يوم البهائم كما يقول ممدوح ضاحكاً. لكن البهائم نجت من السم، وعادت إلى بيت شيخ الغفر، وحولها القرية كلها، فى فرحة غامرة، كأنه مولد أو عرس.

إن القرية المغلوبة اعتادت على الهزيمة، وعندما تومض فيها لحظات انتصار، تهتز كلها بالنشوة لتغسل بعض همومها. وقد وجدت فى نجاة البهائم انتصاراً لها على نية غادرة وظالمة وقادرة كانت على وشك أن تقضى عليها فى وضح النهار، وعلى رءوس الأشهاد، فلما نجت البهائم من كل ذلك، طربت القرية كما تطرب فى الموالد والأفراح.

نسى الناس أنفسهم، فمنهم من أخذ يهلل، ومنهم من أخذ يكبر، ومنهم من أنساه الطرب نفسه، فأخذ يرقص فرحاً سعيداً. وسبيلة الغجرية تمسك بمقود البهائم رافعة رأسها فى تحد، وحولها أهلها البدو، يحملون السلاح احتياطاً لأى طارئ.

بينما فرج النمس وجماعته قد أخذوا يتبادلون النظر، يعجبون ولا يفهمون.

وسرت فى أوصاله رعدة، كأنه محموم! وأخذ يصيح مهدداً ومتوعداً، بينما كانت ساقاه قد غاصتا فى الوحل إلى قرب ركبتيه، وأقاربه حوله يحاولون أن ينتزعوا أقدامهم من الطين!

وأبو المكارم يرى هذا كله، ويخفى ابتسامة رضا عما حدث، ويكاد أن يطير ليلتقى بمديحة وممدوح يطمئنهما على ما حدث.

إن رى الأرض، وغمرها بالماء، كانت من بنات أفكاره. ويضحك أبو المكارم وهو يرى النمس مغروساً فى الطين على هذه الصورة المضحكة، بينما البهائم ترفع عقائرها وهى تتهادى على جسر الترعة فى طريق العودة إلى زريبة شيخ الغفر.

أما سبيلة الغجرية، وأخذها البهائم من الحد الثانى، فهى ليست فكرته.

آ... لا تحتكر كل شىء لنفسك يا "أبو المكارم". هى فكرة الشيخة... أى والله فكرة الشيخة تفيدة! أرسلت "أبو المكارم" إليها على عجل، لتنقذ البهائم قبل أن تلقى مصرعها، بينما كان ممدوح يتولى غمر الأرض بالماء. لقد حول ماء الساقية وماء الترعة، وكل ماء حتى ماء عينيه إلى أرض شيخ الغفر قبل دورها، ليعطل النمس وجماعته حتى تتم المعجزة. وكان ممدوح فى سباق مع نوايا الغدر، أيهما يسبق. لقد كان أول من علم. كان فى الجامع يصلى العصر خلف الشيخ مختار، وجاءه من أسر فى أذنه أنهم هناك فى دوار النمس فى حالة هياج شديد، وقد أقسموا أغلظ الأيمان أنهم سيلحقون أفدح الضرر بشيخ الغفر، وأنهم سيبدأون بسم بهائمه اليوم وهى فى الحقل، وأن النمس قال إن ذلك يجب أن يتم علانية وفى وضح النهار!! آ.نخاف ممن؟ من شيخ الغفر!! طول عمرنا أسياد البلد، قبل شيخ الغفر وبعد شيخ الغفر!!

وبينما كلف النمس أحد أتباعه، بإحضار "سم هارى" لا يرحم.

وبينما كلف تابعاً آخر بإعداد السلاح، لأنه سيفرغ الرصاص فى أى صدر يتعرض له.

كان ممدوح يتجه نحو الضريح فى حالة هلع وخوف وقلق. ومر بالساقية فنصحه أبو المكارم أن يذهب حالاً إلى حقل شيخ الغفر يغرقه بالماء، وأنه سيسرع بدورات الساقية وسيضحك على صاحب الدور فى الرى ليعطله عن ملاحظة أرضه ليتم له ما يريد، دون اعتراض صاحب الدور على تحويل ماء الساقية أو استعمال الثورين فى رى أرض غير أرضه.

وشعر ممدوح أنها فكرة طيبة جداً، فخلع ملابسه ليستعد لأداء دوره بسرعة.. نعم بسرعة قبل أن تنفذ المؤامرة. وبينما كان يسرع نحو الحقل قال له أبو المكارم أنه قد يجد فى الترعة ماء، وعليه أن يستعمله كذلك ليسرع بغمر الحقل بالماء. آ... لا تخف من شىء. إن صاحب الدور لن يثير أية مشكلة، إذا عرف السبب. إن أصحاب الأرض فى هذا الحوض مساكين وطيبون ومن أصحاب الملكيات الصغيرة جدا. إن كلا منهم يملك بضعة قراريط، تساعده على مواجهة الحياة. أسرع ولا تخف... أسرع، أسرع!

ومضى ممدوح لينقذ الموقف، وطلب أبوالمكارم أن يذهب إلى الشيخة ليخبرها ويستشيرها.

وذهب أبو المكارم إلى الشيخة، وحكى لها ما حدث، وأنفاسه تتقطع من سرعة العدو وراء الخطر. وكانت الشيخة تسمع فى انتباه شديد جدا، فلما فرغ، قالت له، إن هذا إجراء مؤقت، لكنه لا يكفى. إنه سيكفى حتى يتم إنقاذ البهائم. لابد من سحب البهائم من الحقل حالا. إن غرق الأرض إجراء ضرورى لتعطيل هؤلاء الكلاب، لكن الإجراء الحاسم هو سحب البهائم من الحقل. فاهم؟ اذهب حالا إلى سبيلة الغجرية، وستجدها عند الخص. قل لها تذهب حالاً إلى الحقل تنقذ البهائم.

وأخذ أبو المكارم يصيح: سبيلة!! سبيلة عاجزة عن مواجهة النمس يا ست الشيخة. النمس سيكون مسلحا، وسيعتدى عليها بلا شك، فيسم البهائم ويقتل سبيلة.

وربتت الشيخة على كتفه وهى تدفعه أمامها قائلة له: لا تخف على سبيلة. إن أهلها جميعاً هناك يحرسون حقول القطن. إنهم مسلحون كالنمس، بل وهم أكثر ضراوة من النمس وجماعته.

وذهب يجرى... كان أبو المكارم يعرف أن كل دقيقة لها ثمنها، فلم يشأ أن تضيع منه ثانية واحدة. وعندما أنهى مهمته وبلغ سبيلة، ذهب إلى الساقية وقلبه يرتجف من التعب والجهد، لكنه كان يشعر بالراحة والاطمئنان.

وعندما جلس على حافة الساقية، كان كل شىء قد انتهى.

وجاء النمس وفى يده قرطاس السم، وعلى كتفه السلاح، وعلى لسانه تهديد ووعيد وشر وشرر. وسار أبو المكارم خلفه مع السائرين، وكان الوحيد الذى كان يعلم أنه سيلقى هناك حقلاً أغرقه الماء، وطيناً، ووحلاً، وسبيلة الغجرية.



وعندما تلاقى الثلاثة: مديحة وممدوح وأبو المكارم، كانوا سعداء بما تم. تفتر ثغورهم عن بسمات راضية قانعة.. لكنها كانت مع ذلك قلقة، من المستقبل الغامض الذى ستشهده القرية.

وأخذ ممدوح يروى كيف حول ماء الرى إلى الأرض، وكيف شعر أن الماء ضعيف. وأن هذه الأرض تحتاج إلى أيام حتى تشبع ماء. وكيف أخذ يجرى نحو الترعة فوجدها مليئة بالماء، فحول ماء الرى إلى الأرض من جانب آخر، واكتشف بعد برهة أن الماء يتجه منه إلى حقل آخر، ولم تكن معه لا فأس ولا حتى قطعة صفيح، فأخذ يسد مجرى ويفتح مجرى بيديه.

ويختم روايته بأنه الآن تعلم كيف يروى الأرض. كله بثمنه. لابد من التجربة الشخصية، وإلا فلا!!

ويضحك وتضحك الشيخة ويضحك أبو المكارم وهو فخور ببنات أفكاره!

لكن مديحة تقول:

- أو تظنون أن الحالة ستقف عند هذا؟!

وصاح ممدوح:

- أبداً . هذه بداية يا مديحة. وانتظرى بعد ذلك حكايات وروايات وحيلاً.

قالت مديحة:

- وسيكون مدبولى فى فوهة المدفع.

قال ممدوح:

- آه.. لكنه الآن مدفع "خربان"، متهالك.

قالت مديحة:

- لا تقلل من الخطر يا ممدوح. لا تستهن بهولاء. إنهم مجانين ويائسون، وهذا أخطر ما يصل إليه ناس مثلهم.

قال ممدوح مازحاً:

- على كل حال.. نحن هنا!!

وسكتوا جميعاً. شىء كالومض ملأ الساحة نوراً، ثم خفت، ثم ومض ثم خفت... وارتفعت ألسنة لهب، ثم هوت، ثم اختفت، ثم ارتفعت، وهوت واختفت... وهم حيارى لا يعرفون ماذا يحدث.

وتحولت الحقول حولهم إلى سيقان تعدو نحو القرية.

وترددت فى جنبات سا حة سيدى الذكيرى صيحات استغاثة.

وحملت الأصداء إليهم فى هذا المساء إنهم يحرقون الجرن بحرى البلد.

- وماذا فعل مدبولى يا أولاد حتى يعلنوا عليه الحرب!

- والله لو كان خطفها ما استحق الأمر كل هذا!

- " وهى يعنى ايه؟ سنيورة من اسطنبول؟!

وكلمات أخرى كثيرة تدافع عن مدبولى، وتستنكر أن يكون هذا جزاءه.

وقالت الشيخة:

- إذا كنت على حق. ها نحن أولاء، نراهم يحرقون جرن شيخ الغفر.

قال ممدوح:

- لكن القرية أطفأت الحريق. هكذا يبدو الأمر.

وكان أبو المكارم قد طار عندما رأى الومض إلى الجرن، فلما هدأت الحالة وأخمدت النيران جاء وهو يهز رأسه فى حسرة واستنكار، ويضرب كفاً بكف ويقول لمديحة إن الكلاب المجرمين أحنقتهم نجاة البهائم، فأقسموا ألا تمر الليلة إلا بحادث. لن يفلت منا. وذهبوا إلى الجرن وأشعلوا النار فى حصاد شيخ الغفر، لولا أن القرية كلها هبت عن بكرة أبيها، لم يتخلف منها أحد. لا رجل، ولا إمرأة، ولا طفل، إلا وشارك فى اطفاء الحريق. وانطفأ الحريق، ولم يترتب عليه إلا خسائر طفيفة والحمد لله.

وحكى أبو المكارم أن شيخ الغفر جاء، وشارك فى الاطفاء، ثم انصرف وهو يحمد الله، ولم يرد بحرف واحد على عشرات الصيحات التى جهرت بأن النمس هو الذى فعلها. لا أحد إلا النمس. أمسكه يا شيخ الغفر. آ... هذه جريمة يجب أن يحبس فيها، لكن شيخ الغفر لاذ بالصمت، ولم يرد، وانصرف وهو يردد عبارات الحمد لله والشكر له.

وسأل ممدوح:

- وهل كان النمس هناك؟

- نعم كان جالساً غير بعيد من الجرن يضحك ولا يشارك فى الاطفاء.

- وهل هو الذى فعلها؟

- بلا شك هو، أو بتحريضه وتدبيره.

– ولم يضبط أحد؟

– أبداً. فى المساء المبكر يكون غفر الحقول مشغولين باحضار عشائهم من القرية، ولا يخطر بذهنهم أن يحدث شىء والدنيا نور لا تزال.

لكن ممدوح هز رأسه، وهو يفكر فيما حدث ثم قال:

– والله أعلنت الحرب يا ست الشيخة وصدقت نبوءتك.

قالت مديحة تداعبه:

– شيخة. أنا الشيخة تفيدة، ولابد من أن تصدق النبوءة!

لكن هذا المزاح لم يستمر، فقد ارتفعت صيحات أبو المكارم ثم أعقبتها أصوات غريبة قادمة من القرية، يتقدمها صوت ساخر يقول:

– "تتلفت يمين، تتلفت شمال، سأفرغ المسدس فى كرشك. تمشى على طول وإلا والله يا نمس أقلبك أرنب". فاهم يا فرج يا نمس؟ فاهم؟

ويمضى الصوت يقول:

– أنا رأيتك بنفسى. شاطر ترش الجرن بالجاز، ثم توقد الكبريت؟

أمامى إلى النقطة يا نمس، وهناك سيجلدونك ويسلخونك، ومن يدرى، ربما يقطعونك إربا إربا، ويوزعوك "منابات"! ياه إنك تكفى البلد كلها يا ولد يا نمس!! أنت أطول من النخلة!

وأخذ الصوت يقهقة فى غير مبالاة ثم استعاد جديته وأخذ يقول:

– أنا شيخ البلد. أنا مسئول. أنا رأيتك بفسى، ولابد من معاقبتك. هل المسألة فوضى؟ أنا نفسى تعرضت لهذا. أخى العمدة غضبان سلمنى للسجان الله يخرب بيته، وكم قاسيت الويل يا نمس. عليك الآن أن تقاسى كما قاسيت. آ... آ... أعلم أنك صهر عزيز وغال. أنت زوج بنت أختى. كل هذا مفهوم. طيب. الم أكن والعمدة أخوين شقيقين، رضعنا من ثدى واحد.

وسكت الصوت قليلاً ثم قال:

- "اخص..." كان ثدياً أجرب! ليتنى ما رضعت منه!

قال ممدوح:

- هذا الصوت أعرفه. نعم أعرفه، لكن يبدو أنى نسيته.

وقالت مديحة:

- وأنا أيضاً أعرفه. لكن صوت من يا ترى؟

وضحك أبو المكارم ملء شدقيه وفى اشارات خفيفة الظل، أشار لهم أن الرجل يقول إنه شيخ البلد! من يكون شيخ البلد؟ أليس سيد ابن الحاج سلطان شيخ البلد؟

ومضى يضحك وهما يعجبان لأن ذكاءهما قد خانهما هذه المرة!! وكانت اللحظات حرجة:

سيد مجنون، وقد قتل ابن اخته، وقتل أخويه، وها هو ذا يسير خلف النمس وفى يده مسدس محشو بالرصاص.

ثم هو يتلفت خلفه للناس الذين يتبعونه ويصيح فيهم محذرا أنه سيقتل النمس فوراً، لو أحس أن وراء ظهره حركة واحدة تقترب منه.

والله يا بهائم ربنا أطلق عليه الرصاص، لو سمعت طنين ناموسة ورائى.

لا تظنوا أنكم تفاجئوننى لتنتزعوا منى المسدس!! والله العظيم ثلاثاً "أطخه" فى ثانية وانتهى منه أولا، ثم ألتفت إليكم يا غجر. لا والله، أسكت وأترككم تتظاهرون بالشهامة!! كلكم بهائم، وكلكم تكرهونه!! هل هذا مفهوم يا بهائم؟! يا بهائم ربنا!

من يجرؤ؟ إن الاقتراب من هذا المجنون معناه التعجيل بمقتل النمس.

والنمس الطويل الفارع كان يسير فى خوف وفزع، تكاد أنفاسه أن تسمع من بعيد. إن لونه أكثر اصفراراً من الليمون! ورجلاه الطويلتان قد خلعتا من جسمه، فأخذ يسير

بهما كما لو كان يجرهما جراً فلا يقعان منه فى الطريق. والوجه الساخط صار وجهاً خائفاً! الصوت المجلجل صار صامتاً! والشتائم وقلة الحياء، انقلبت إلى طاعة عمياء، طريقها أذناه، يسمع فيطيع!! آه يا نمس!! يا مفترى يا نمس!! وقعت يا نمس!!

هكذا كان شعور الناس، وإن كانوا أيضاً مشفقين عليه!!

مساكين هؤلاء السذج البسطاء، لا مكان فى قلوبهم للاساءة. أبداً، ولا يعرفون معنى الحقد، والتشفى! كذلك لا يفرحون فيما يصيب خصومهم من شر!

هذا النمس كان منذ ساعات يتحدى القرية كلها، ويقتحم الحقول كأنه القضاء والقدر، وفى يده قرطاس السم، وعلى كتفه سلاح الغدر، وفى عينيه بريق مخيف.

وكانت القرية كلها تكرهه، وتتمنى له الموت، قبل أن يسمم بهائم شيخ الغفر.

ولا تمضى إلا ساعات، حتى تلتف القرية حوله بعواطفها، تحاول أن تنقذه من الموت. إنه فى موقف الضعيف المحتاج، المهدد بالموت فى أية لحظة. لمسة واحدة من اصبع الرجل المجنون لزناد المسدس، ويصبح النمس فى خبر كان.

لا حول ولا قوة إلا بالله!! اللهم نجه منه! ما هذا المصير الأسود؟! نحس أصاب أسرة سلطان، وأصهار الأسرة، ومعارف الأسرة! اللهم استر يا رب، حتى لا يمتد النحس إلى القرية كلها، وهى مظلومة وضعيفة وقليلة الحيلة!

وطوى الناس قلوبهم على هذا وعلى أشياء كثيرة أخرى تذكروها! سبع الليل الذى ذهب، وكيف أذل الرقاب!

الشيخ مرزوق الذى غاب، وحول غيبته ريب وظنون!

الشيخ أبو طاقية وألاعيبة وحيله وكيف خضع له السادة الأعيان!

الست نبوية وأولادها وأحقادها وكيف فرضت على الناس حياة كالكابوس لا تطاق!

لكن القرية لا تتمنى للنمس الشر، وهو فى موقف يواجه فيه المحنة ويتعرض فيه للمأساة!

وهذا موكب القرية يسير خلف النمس، فى صمت، وأنفاس لاهثة من القلق والخوف، تحيط الموكب الخائف.

ونظرات ممدوح ومديحة و"أبو المكارم" تسير مع الموكب مخدرة!

ما هذا؟ حتى الغفراء عاجزون عن الاقتراب منه! حتى بنادق الحكومة مغلولة لا تتحرك! مجنون... مجنون واحد، قادر على هذا كله؟ على التحدى السافر، لا يراجعه أحد، ولا يستطيع أن يقترب منه أحد؟ شىء غريب! هل عقل الإنسان هو أقوى ما فيه أو أضعف ما فيه؟ رجل واحد فاقد العقل، يصبح أقوى من القرية كلها؟ هل لو لم يكن فاقد العقل، بلا ضابط يكبله بالمسئولية، أكان يمكن أن يكون على هذا القدر من الخطر؟ هل العقل ضعف؟ هل الفكر المتزن ضعف؟ هل العقلاء ضعفاء؟ وهل لابد للناس من أن يفقدوا عقولهم ليصبحوا أقوياء؟ هل لابد للناس من أن يجنوا ليخافهم الناس؟ هل لابد للناس من أن...؟

وقبل أن يتم الشيخ عبد الرءوف رحلته تلك فى عالم التساؤلات هذه.

وقبل أن تمضى الشيخة تفيدة فى خيالاتها الفسيحة بلا حدود.

كان موكب القرية قد وصل إلى ضريح سيدى الذكيرى، وأصبح يواجه الضريح وما حوله من المقابر.

وفجأة وقف شيخ البلد سيد بن الحاج سلطان، وأمر النمس أن يقف دون حراك. ونظر إلى المقابر، وأخذ يخاطبها فى صوت متهدج حزين:

ها نحن أولاء يا شيخ الغفر، يا سبع الليل، ندفع ثمن خطاياك! هذه تعاليمك يا شيخ الغفر، أثمرت جرائم وحرائق ومشاغبات. زوج بنتك هذا يا سبع الليل يقتدى بك. أخذ منك المثل يا رجل يا "ضلالى" يا"مفترى" يا أفاق. يا ترى ماذا يفعلون بك فى "تربتك"؟؟ لابد أنهم يخلصون كل ما فعلته من جثتك. أنت الآن والملائكة وربنا وجهاً لوجه. يا ويلك يا "أبو سريع". هذه التربة العالية لن تحميك. إنها تحميك منا نحن، لكنها لن تحميك من الله.

وتهدج صوت شيخ البلد وهو يقول:

أمـا أنت يا أدهـم، فـلا تلمنى. إن قـاتلك الحـقـيـقى هـو أبوك. ظلم أبيك لحـقك وأصابك بالنحس. أنا لم أفعل شيئاً. أنا كنت آلة أنفذ فيك إرادة الله. أنا لم أكن إلا انتقام الله من أبيك.

وتلفت بين المقابر، ثم صاح:

وأنت يا عمى! يا حمـا السعد يا حاج غضبان! كيف حالك فى الآخرة، يا ميت وعينك "الزائغة" ملهوفة على أم الشحـات؟! الآن امتـلأت عيناك بالتـراب؟ صحيح عين ابن آدم فـارغـة، لا يملؤها إلا التـراب! يا ترى لا تـزال حقـوق الناس فى كرشك، أم أنهم فـرغـوه؟! وهل تذكـر زوجتيك؟ عيوشـة والبـالوظة؟ والثـالثة البنـدرية المظلومة، هـل تذكرها أيضـاً؟! وهل تذكر أولادك؟ سلطان ونعمت... ومحمود الذى طردته من رحمتك؟

وانتـفض شيخ البلد كمن تذكر شيئاً، ثم نظر إلى الشيخة تفيـدة وقال: أو تذكـرين يا ست الشيـخـة؟ تذكرين الميـراث الذى كتبـه لمحمود ابنه؟ أو تذكرين؟ سـيـأتـى يوم ينال المظلوم حقـه فيـه. أى والله. كل هـذا الإستبـداد، وكل هذا الظلم، لن يؤثر فى الحـقوق. إنها ثابتة، ومؤكدة، وستصل إلى أصحابها مهما طال الزمن.

وارتفع من بين الصفوف صوت يقول:

- كفى هذا يا شيخ البلد... كفى هذا.

ونظر الناس إلى سلطان بن الحاج غضبان وهو يشق الصفوف إلى ابن عمه المجنون.

لكن سيد صاح فيه قائلا:

- قف عندك. إياك أن تتقدم وإلا أفرغت هذا فيك.

وخاف سلطان فوقف مع الناس ولم يستطع أن يتقدم. قال له:

- أنا سآخذ النمس إلى النقطة. استرح أنت.

قال سيد :

- وإنت مالك. أنا شيخ البلد، أما أنت فنفر شأنك شأن أهل البلد جميعاً. ثم إنى أنا الذى رأيته. أنا الذى ضبطته بنفسى، ولن أتنازل عن حقى فيه. أنا الذى سأقطع رقبته الطويلة هذه.

وارتفعت أصوات أهل البلد تقول:

- لكنا لم نره يا شيخ البلد. يمكن خيل لك.

كانوا يكذبون، لينقذوا النمس. قال سيد وهو يصيح فيهم:

- مساكين. تريدون أن تنقذوه. هل كان يفعل ما تفعلون لو أنه مكانكم؟ هل كان يرحمكم؟ هل كان يرق قلبه لكم؟ يا بهائم ربنا، ستظلون بهائم، طالما أنكم طيبون إلى درجة الضعف.

وعادت الأصوات تقول:

- سلمه لنا، وسنتولى أمره.

وقال وهو يسخر:

- تتولون أنتم أمره.. أنتم بهائم، بهائم ربنا.. حتى العمدة من بهائم ربنا. عباس صهرى وأنا عارفه. والله العظيم عباس العمدة من بهائم ربنا.

وسكت سيد قليلاً، وأصوات أهل القرية تطن فى أذنه كأنها طنين النحل، ثم قال كأنما اهتدى لحل:

- هى فقط التى تقول آخذه إلى النقطة أم أتركه لكم.

وأشار إلى الشيخة تفيدة وهو يقول:

- ستنا كلنا الشيخة تفيدة.

وكانت مفاجأة للشيخة وللشيخ عبد الرءوف، لكنها تمالكت نفسها وهى تسمع هذا الكلام، ونظرت إلى أهل القرية فوجدتهم يتطلعون نحوها فى أمل وفى رجاء.

ونظرت إلى الشيخ عبد الرءوف فهمت منه ما يريد.

ودارت بنظرها بين صفوف الناس، فوجدت بينهم الشيخ مختار، وكانت نظراته كنظرات أهل القرية طيبة ورحيمة.

وقالت الشيخة فى صوتها الرقيق الواضح:

- ربنا يهديك يا شيخ البلد، ويهدى "فرج النمس" ويوفق أهل القرية إلى مرضاة الله.

وصاح أهل القرية فى فرح. وهلل الأولاد، وزغردت النساء.

وعاد النمس إلى بيته بعد رحلة الموت، وعاد سيد شيخ البلد إلى البلد عن طريق الساقية، ولم ينس أن يجلس فى الخص المهجور لحظات، اعتصر فيها بعض الذكريات، مع بعض الدمع.



سبيلة الغجرية كانت جالسة أمام الشيخة تتلمس البركة، وتتلمس مع البركة النصح.

قالت سبيلة:

- حضرة المأمور قال لى أسألك النصيحة، ولا أتصرف إلا بارشادك.

قالت الشيخة:

- رجل طيب وأمير. إنه من مريدى الشيخ "أبوعوف" رضى الله عنه وأرضاه. وهو يحسن بى الظن. على كل كيف ترين الحالة الآن؟ لعل النمس أن يكون قد حفظ لأهل البلد هذا الجميل.

قالت سبيلة:

- جميل! النمس يحفظ الجميل !! يا ست الشيخة أنت لا تعرفين. لقد عاد أسوأ مما كان. إنه يحاول أن يقتل مدبولى، فإن فشل فسيقتل حماته! سيقتل ست الناس.

وذعرت الشيخة مما تسمع، وهالها أن يعيش مدبولى وست الناس فى خطر.

قالت الشيخة:

- وماذا ستفعلين؟ ماذا تستطيعين أن تفعلى؟

قالت الغجرية:

- عن مدبولى الأمر سهل، فهو رجل، وأهل الغجر متكفلون بحمايته والدفاع عنه.

قالت الشيخة:

- وهل يعرف مدبولى؟

قالت الغجرية:

- ولماذا يعرف؟

قالت الشيخة:

- ليحتاط.

قالت الغجرية:

- أحياناً يكون العلم بالخطر سبباً فى الارتباك والاضطراب فيفسد كل شىء.

قالت الشيخة فى قلق:

- وهى؟ ماذا عن ست الناس؟

قالت الغجرية:

- هذه هى المشكلة. على كل حال إن "سعد" فاتح عينيه عليها. أنا قلت له يتبعها، ولا يغمض عينيه عنها أبداً، فإن رأى شيئاً أو شعر بشىء، فسيقول لى لأحتاط. وعلى كل حال، فإن الخطر الآن يحيط بمدبولى، ولن يتجه النمس نحو ست الناس إلا إذا يئس من قتل مدبولى.

قالت الشيخة:

- وبنتاها؟ هل توافقان على قتل أمهما؟

قالت الغجرية:

- ومن سيقول لبنتيها؟

قالت الشيخة:

- هذا سهل وممكن. المهم هو أن نعرف أنهما ـ لو علمتا ـ ستقفان معها، ولا تتآمران عليها.

قالت الغجرية لنفسها:

- يا نهار أسود! تتآمران عليها! إنهما بنتاها. لكن يا بنت ياسبيلة لقد نسيت أن ست الناس قتلت أمها!! والمثل يقول "اكفء الجرة على فمها، تطلع البنت لأمها.."!! لكن ست الناس كانت مجنونة. ست الناس قتلت أمها وهى مجنونة، ولو كانت عاقلة ما فعلت هذا. والغندورة وست أبوها ليستا مجنونتين. إنهما عاقلتان.

قالت الشيخة:

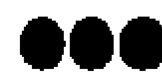
- على كل حال يجب أن نحتاط للأمر، ولابد من تنبيه الذين يخدمونها إلى هذا.

قالت سبيلة:

- أى والنبى يا ست الشيخة. كايداهم بنت طيبة، وهى التى ترافقها، هى والولد فرحات، وهو أيضاً ابن حلال.

قالت الشيخة:

- لايكفى، ولابد من مزيد من الحيطة.



وذهبت سبيلة الغجرية إلى "البية المأمور"، وحكت له ما حدث، وما يدور فى القرية، وما اتفقت عليه مع الشيخة تفيدة. وقال المأمور ناجى سلطان:

- الشيخة عندها حق. اليأس كالجوع كافر، والنمس قد يلجأ إلى أسرع طريقة فيقتل حماته. هذا عنده أسهل، وسيؤدى للغرض نفسه. الشيخة عندها حق.

وقالت سبيلة الغجرية:

- لكن النمس يريد أن يقتل مدبولى. حماته مهما كان الحال، وهى بنت الحاج سلطان، وهو لا يراها معتدية ولا مخطئة، والخطأ كله يتمثل فى مدبولى، لا لأنه يحبها، ولا عقوبة له على عشرة طويلة معها كان يمكن أن تستأنف فى الحرام، وما كان هذا ليهزه أو يثيره، بل ما كان ليعرفه، ولكن المسألة فى نظره وفى نظر جماعته أنها تطاول وأن مدبولى السافل المنحط يضع رأسه برأسهم، ويريد أن يتزوج منهم. هذه اهانة. جرح لكبريائهم، يطمع الناس فيهم. لهذا فالعقوبة يجب أن توجه لمدبولى، والدرس يجب أن يلقن لمدبولى، حتى تستوعبه القرية كلها فلا ترفع رأسها أمامهم مرة أخرى.

قال المأمور:

- الله الله. أنت فيلسوفة يا بنت يا غجرية. أنا معك "تماما تتفعى وكيل نيابة" لكن عندما ييأس فرج النمس سيزداد حنقاً وحقداً. وعندئذ سيرتكب أية حماقة. متى ييأس؟ كيف ييأس؟ هذه مسألة ليس سهلاً أن نعرفها. لهذا فالشيخة على حق، واسمعى كلامها، كما قلت لك فهى ست متزنة ومكشوف عنها الحجاب. إنها ترى بنور الله. أنت نفسها رأيت كيف أرسلت لك بشأن البهائم. قلبها كبير الست الشيخة. المهم حاسبى، فإن شيوع هذه الأنباء عنها سيضركم جميعاً.

قالت سبيلة فى انزعاج:

- يا ندامتى!! أنا صغيرة يا سيدى!؟ أنا عارفة كل شىء. إنها تعمل الخير فهل تقابل بالشر؟ مستحيل. إنى أفديها برقبتى. إنها رحمة من ربنا أرسلها إلى بلدنا.

ولم تمض أيام حتى شهدت القرية حادثاً جديداً.

كان شيخ الغفر يمر على حدود القرية يطمئن إلى أن الغفر موزعون فى كل مكان، يحرسون القرية وزمانها. كان يقول لهم أن مبانى القرية لا تحتاج إلى حراسة والناس داخل الدور، ليسوا فى حاجة شديدة إلى الحراسة، لكن الحقول المفتوحة بلا أسوار هى التى تحتاج للحراسة. فتحوا أعينكم، فإن محصول البلد هو عرق أبنائها جميعاً. إنه حياة الناس وهو رزقهم ورزق عيالهم فاتقوا الله فيه.

وكان مدبولى يحب الساقية ويحب الظل الوارف هناك، فى الخميلة الجميلة التى تداخلت أغصانها، وتساندت فى ود وحنان. نعم وكان يشجيه صوت الساقية المتصل. كان يقول انه نواح فيه رنة عذاب. وكان الشاى الذى يقدمه له أبو المكارم شيئاً شهياً له كلما ارتاح عند الساقية.

وذهب شيخ الغفر إلى الساقية، ووقف لحظات مع "أبو المكارم"، لكنه لم يلبث إلا قليلاً ثم عاد إلى بيته. قال "لأبو المكارم" إنه متعب، وأنه شعر أنه محتاج إلى الراحة، ليمر على زمام القرية فى الليل.

لكن أحداً لم يعرف أنه عاد. ظنوا أنه على عادته سيجلس قريباً فى ظل الجميزة العريقة، وكوب الشاى فى يده، وعيناه على وجه "أبو المكارم" الصبوح المعبر، وأذناه مع النواح الدامع الذى ينطلق مع دورات الساقية.

حتى أبو المكارم خطف رجله وذهب إلى ضريح سيدى الذكيرى. وكانت الساقية خالية إلا من بعض أطفال، أوصاهم أبو المكارم، أن يراقبوا الثورين حتى يعود.

وفجأة اختل الصمت الهادئ، وارتفعت أصوات نافرة.

طلقات رصاص انهالت كأنها حرب البسوس، كما قال أهل القرية.

ومع الطلقات، هجم نفر ملثم، كأنها غزوة من غزوات الفروسية والبطولة!

واتجه الفلاحون إلى مصدر الطلقات، كما أسرع الغفر، كما وثب الغجر من أهل سبيلة الغجرية. ولم يستطع الفرسان الملثمون أن يهربوا فوقعوا فى المصيدة كأنهم فيران.

وأمسك الفلاحون بالنمس متلبسا. وأمسكوا بعدد من أقاربه وأصهاره. وأزاحوا الألثمة من فوق وجوههم، فبدوا جميعاً يرتجفون من الرعب، يكادون، لولا الحياء، أن يلعقوا الأقدام ليعفو عنهم الناس!

لكن الناس فجعوا فى ثورى الساقية، وقد أخذت الدماء تسيل من أجزاء مفرقة فيهما، ولم يهدأوا إلا عندما تبينوا أنها اصابات بسيطة قابلة للشفاء.

أين أبو المكارم؟ نعم أين ذهب أبو المكارم؟ هل أصيب بمكروه؟ لكن السؤال وجد الجواب، عندما أسرع أبو المكارم يطمئن على الثورين، وعلى الصبية الصغار الذين تركهم حتى يعود.

وأقسم أهل القرية بينهم وبين أنفسهم، ألا يتركوهم هذه المرة، لكن أحداً لم يجرؤ مع هذا على أن يقودهم إلى دوار العمدة، فانصرفوا مطاطئى الرءوس، مفضوحين، يكسوهم الخجل والعار.

- أعيان. إنهم أعيان! لهم على القرية دلال!

- لكن المسألة زادت عن حدها يا ناس. ولايجوز تركهم يعبثون!!

- وهذه الألثمة. ما ضرورتها؟ ممن يختفون؟ وممن يخافون؟

- ربنا لن يترك هذا. أبداً. إنه يمهل ولا يهمل.

- آمنا بالله رب العالمين. آمنا بالله.

وتزداد حدة الحديث عندما يقبل شيخ الغفر. إنهم يستحثونه أن يفعل شيئاً. إنهم كانوا يريدون قتلك يا شيخ الغفر. لابد أن تتصرف يا شيخ الغفر.

لكن شيخ الغفر مدبولى لم يعقب إلا بأن المسامح كريم، وأن خير علاج للأمر أن يتركوهم لله، وهو وحده قادر عليهم.

وفى المسجد تجمع الناس حول الشيخ مختار يسألونه عن حكم الشرع وحكم الله فى هذا كله.

ولم يكن الشيخ مختار خائفاً ولا متردداً فقال لهم رأيه فى صراحة وهو أن الله لن يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. نعم وما دمتم راضين عن هذا الحال، فتغيير الحال من المحال.

وكان الشيخ مختار يضيف أن على الناس أن يدافعوا عن أنفسهم وعن كرامتهم، فإن الاعتداء على مدبولى اعتداء على القرية كلها، والاستهتار حتى بشيخ الغفر استهتار بالأمن وبالنظام، وإذا كانت المسألة قد وصلت إلى هذا الحد من التحدى، فانتظروا إذا أى شىء. أى والله أى شىء. قد تفاجئون ذات يوم بخطف أولادكم أو زوجاتكم!! نعم ولم لا؟ ماذا سيحول بينهم وبين هذا؟

وذعر الناس وسألوا الشيخ مختار:

- وماذا نملكه يا شيخ مختار؟

وأجاب الشيخ مختار فى كبرياء:

- لا أدرى، ولكنكم الكثرة، وهم القلة، فإذا غلبت الكثرة واستذلت، فهم الضياع. الضياع يا أولاد.. الضياع.

ونظر كل واحد إلى الآخر، وفى عيونهم بريق خائف، ومخيف. وترك أهل القرية الشيخ مختار إلى العمدة.

آ..نسأل العمدة. عباس هو العمدة، وعباس منا وهو لا يكذب.

ولم يكذب عباس، ولم يضلل، ولم يدار قال لهم فى صراحة:

- الشيخ مختار عنده حق. صحيح هذا افتراء، وربنا لا يرضى الإفتراء. وصحيح هم قلة وأنتم الكثرة، لكن صحيح أيضاً أنهم أقوى منكم... بكم!!

قالوا له وهم يعجبون:

- أقوى منا بنا.. كيف هذا يا عمدة؟

قال فى صراحة:

- أنتم تخافون.. تخافونهم وتخافون منهم. لكنكم مساكين ومعذورون. أجيال وراء أجيال وهذا الخوف مستقر فى قلوب الفلاحين من الأعيان والسادة! أجيال وراء أجيال، والعين لا تعلو على الحاجب. أجيال وراء أجيال، والماء لا ينحدر إلا فى الأرض الواطئة!! أجيال.. ثم أجيال، حتى صارت هذه طبيعة وعرفاً وارثا! بل وحتى صار الخروج على هذا حراماً، وعملاً من أعمال الجن والشياطين!! الشيخ مختار عنده حق عندما قال لكم إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. غيروا أنفسكم أولا، وسيتغير ما بكم حتماً.

قالوا له فى سذاجة:

- لكن كيف نغير ما بأنفسنا يا عمدة؟

وصاح فيهم عباس:

- الله الله. وهل تريدوننى أن أغير لكم أنفسكم؟ ناقص آكل لكم وأشرب لكم، وأخلف ذرية لكم أيضاً!! يا ناس يا خلق، أنفسكم هى أنتم. هى ملك لكم وأنتم وحدكم القادرون على أن تغيروا ما بها. يظهر أن سيد صهرى عنده حق، وأنكم حقيقة بهائم ربنا.

وشعر الناس بالضياع.

الله! المسألة إذن فى أيديهم. لكن أيديهم خاوية خالية، ليس فيها إلا هواء فارغ. فماذا يستطيعون. وتصايحوا بأن الرأى النهائى هو عند الشيخة تفيدة والشيخ عبدالرءوف. هيا إليهما. نحضر حضرة لذكر الله، ثم نتذاكر فى هذه البلاوى.

وذهبوا إلى ضريح سيدى الذكيرى، وهناك وجدوا الشيخة والشيخ، و"أبوعوف" الصغير. وكانت ليلة. صلوا العشاء، وأشعلوا الشموع فى ضريح سيدى الذكيرى، وطافوا حول قبر الشيخ أبو عوف، ثم انتظموا فى حلقة ذكر نورانية. ذكروا الله حتى شفت نفوسهم، وتبركوا بالشيخ والشيخة، حتى شعروا أنهم يهيمون مع الملائكة. وأحسوا أنهم أقوياء، وأنهم تغيروا. تغير ما بنفوسهم.

وزادتهم قوة كلمات الشيخ عبد الرءوف التى أطلقها بغير سؤال:

– دين الله قوة يا أولاد. دين الله شجاعة. الإيمان الحقيقى لا يهاب ولا يخاف، والمؤمنون قوم نذروا لله نفوسهم، فلم يعد يخيفهم شىء، إلا الباطل وإلا أن يعصوا الله.

ونظر كل منهم للآخر فى عجب. أكان يعرف؟ أكان يدرك أزمة نفوسنا؟ سبحان الله. (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

ومضى الشيخ يقول:

– النبى صلى الله عليه وسلم عندما كلف برسالة الله، لم يخف من المشركين ولم يحسب حساب أغنياء مكة، ولا أعيان قريش، وكانوا ذوى مال، وذوى جاه، وذوى نفوذ. نعم وخرج يدعو لدين الله بلا خوف، ولا فزع، ولا تردد.

وعاد الفلاحون ينظر كل منهم إلى صاحبه، والشيخ يقول:

– ولو أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم حسب حساب المال والقوة والنفوذ، ما خرج يدعو لدين الله. ولظلت الإنسانية واقعة تحت سيطرة الشرك والوثنية. ثم انظروا ماذا فعلته قريش بالنبى، وكيف تعقبته بالتعذيب والتشريد والأذى؟ هل سلم؟ هل استسلم؟ هل خاف؟ أبداً. لقد هاجر بدين الله إلى المدينة. هاجر، وهو يحمل قلباً من حديد. هاجر ليحمى دين الله من بطش الكفار، وليؤمن المسلمين على دينهم وعلى أموالهم وعلى حرياتهم.

وهمس الفلاحون لأنفسهم، وهمس بعضهم لبعض: كأنما هذا الكلام لنا! كأنه يلبى رجاءنا فى أن ينير بصيرتنا! ما هذا الكشف؟

وزاد عجبهم عندما أخذت الشيخة تفيدة بدورها تروى الأحاديث عن الصحابة والخلفاء، وكيف تعرضوا لمحنة فما لانوا، وتعرضوا لقسوة الاضطهاد فما سلموا ولا استسلموا، وظلوا يصيحون بأعلى ما يملكون من طاقة. الله أكبر. الله أكبر. بلال مؤذن رسول الله كان مثلاً حياً على هذه البسالة، وكثيرون غيره من العبيد والأذلاء والمستضعفين. وذكرت الشيخة روايات أخرى عن مسلمات رفضن تهديد قريش، وسرن فى ركب الإيمان خلف رسول الله، حتى انتصر الاسلام وانتصرن معه.

وفهمت القرية كلها أن عليها أن تفعل شيئاً. لا عذر لأحد إذا استذل ولا غفران لمن فرط فى حق نفسه وحق الله عليه. إن التفريط فى الكرامة كفر بالله. إن الله لم يخلق الناس ليذلوا. إن الله لم يخلق الناس، وليستبد بهم الناس.

كلكلم لآدم وآدم من تراب.

ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

والناس سواسية كأسنان المشط.

وكلام كثير استحضروه وهم يسمعون، وهم ينصتون. وبغير كلام ولا حديث ولا اتفاق استقروا على نية، ووصلوا إلى قرار.

وفى الصباح كان على عدد منهم أن يذهب لحقل فرج النمس ليعزقوا الحقل، فلم يذهبوا. لم يتحركوا من بيوتهم. وقالوا لأنفسهم إن الجوع أرحم من أن نعمل فى خدمة طاغية مستبد، يذل كبرياءنا.

وعجب الخولى وتملية النمس، وأرسلوا يستفسرون، فلم يصلوا إلى جواب!

متعبون؟ هل أنتم متعبون؟

مرضى؟ هل أنتم مرضى؟

لا جواب. وإنما الجواب كان دائماً صمتاً!!

وعندما علم النمس بهذا، هاج على أتباعه هياجاً شديداً، وأمرهم أن يحضروا هؤلاء الناس بالقوة.

لكن القوة لم تجد.

لقد اعتصم هؤلاء فى بيوتهم لا يتحركون، ولا يرددون على نداء. قالوا: متنا نحن متنا. اعتبرونا متنا.

وكانت معركة حامية الوطيس بين الصمت والضجيج.

الصامتون أداروا ظهورهم وقد سدوا آذانهم لا يعبئون، ولا يهتمون بشىء.

والذين يصرخون ويتصايحون خائفون على أرزاقهم وعلى أنفسهم من النمس وأهله.

وأهل القرية يشهدون المنظر، وهم شديدو الرجاء ألا تلين قناة العصاة، لكنهم يخافون، ان تدخلوا، أن يلحقهم الأذى.

كانوا ينظرون من بعيد، ومن بعيد كانوا يدعون الله أن يقويهم، وأحياناً كانوا يضحكون من طرافة المعركة.

لكن النمس لم يستطع على ذلك صبراً، فذهب إلى الفلاحين يأمرهم أن يخرجوا لأعمالهم.

وزادت المعركة طرافة!

خرجت الزوجات إلى النمس يقلن له فى ود واستعطاف أن أزواجهن مرضى، وأنهم - يا حبة عينى - يتألمون أشد الألم، ويصيحون من المغص، وربنا يستر!!

ولم يصدق النمس فصاح فيهن صيحات غاضبة وانطلق إلى العمدة.

وقال العمدة فى هدوء:

- أرغمهم على العمل؟! ما هذا؟ ناس يقولون أنهم مرضى. مرضى! ألست انساناً؟

قال النمس وهو يضرب كفاً بكف:

- والله عال!! هل تصدق يا عمدة أنهم مرضى؟ أنت تعلم أنهم يكذبون.

قال العمدة:

- العمدة ليس طبيباً ولا حتى حلاق صحة يا نمس. العمدة عمدة. ماذا تريد؟

وخرج النمس ساخطاً يسب ويشتم، ويهدد ويتوعد.

وكانت القرية كلها قد تجمعت ترقب المعركة. المصاطب امتلأت بالناس والحوارى شهدت أطفالاً يتجمعون ليشاهدوا، ولينقلوا ما يشاهدون إلى أمهاتهم.

وأقبل النمس بين بسمات السخرية المتخفية وراء وجوه تطل فى فضول.

ونادى على الفلاحين مصراً على أن يراهم بعينيه ليتحقق من مرضهم.

وكان خروج الفلاحين من بيوتهم يجرون أرجلهم فى تكاسل، نهاية هذه الجولة مع النمس. ولقد خرجوا ـ كما اعتصموا ـ بلا كلام ولا حديث ولا اتفاق!

لم يكونوا محتاجين لكلام أو لحديث أو لاتفاق!

كانوا يتحاملون على أنفسهم، كأنما يقاومون المرض، كأنما المغص لا يزال يقطع أمعاءهم!!

وهذه الفئوس على أكتافهم، تكاد تهدهم هذا من الضعف. إنهم ضعاف تثقل الفئوس كواهلهم!!

ونظر أهل القرية كل منهم إلى الآخر.

صحيح؟ هل هذا صحيح؟!

وابتسم كل منهم للآخر، وهم يلاحظون هذه الطريقة البارعة فى تغطية الموقف.

أما المتحمسون من شباب القرية فقد ضاقوا بهذا السلوك الشائن، ولكن آباءهم وأعمامهم نهروهم نهراً، فإنهم صغار لا يزالون. هذه حكمة ألهمهم الله بها. أن التحدى لا يجدى، والنمس قد يستفيد من المعركة السريعة الحامية، قبل أن يتهيأ الناس للقائه، وقبل أن يستعدوا لمقابلة أساليبه... ثم أن الفلاحين لن يخسروا شيئاً. إنهم ضائعون ضائعون، ولو كسب النمس، فذلك لن يكون جديداً عليهم، لكن عندما يخسر النمس فهذا هو الشىء الجديد، ولن يقلل مما لدى الفلاحين شيئاً على كل حال.

قال النمس:

– أنتم مرضى! هل هذه وجوه مرضى يا كذابين؟

قالوا وهم يتأوهون:

– آه!ربنا يسترها معك يا نمس. ربنا يكفيك شر المرض يانمس.

وصاح النمس فيهم:

– هذا كله كذب فى كذب. هيا أمامى إلى الحقل. هل تظنون أن الله يرضى بخراب الأرض؟ إن خراب الأرض وخراب البيوت ليس مما يرضى الله. هل أنتم مسلمون؟ هل أنتم مؤمنون؟ هل تصلون لله، ثم تخربون أرضه؟ وتدعون المرض لتفلتوا من عقابه؟ طيب، أنا وقد ضحكتم علىّ، فهل تضحكون على ربنا؟! يا ناس!! يا ناس!! والله لو تكرر هذا منكم لأرينكم النجوم فى عز الظهر.

وظل الفلاحون يتأوهون وهم يقولون:

– منك لله!! هل نحن الذين نخرب أرض الله؟ هل نحن المفسدون فى أرضه؟ منك لله يا شيخ! ها نحن ذاهبون، ومنك لله فى ناس مرضى ضعاف مثلنا!!

ومضوا بينما أهل القرية يخفون ضحكاتهم من هؤلاء المرضى، وقد أخذوا يجرون أرجلهم فى مشقة، حتى لا يغضب النمس، أو يظن بهم السوء!!

ومضوا فى تراخ، إلى حقل النمس.

وسبقهم النمس، ليكون فى انتظارهم على قمة الحقل، وهو يسير فى خيلاء، لأنه انتصر على الفلاحين، وعلى العمدة، وعلى البلد كلها. وعندما حدثته نفسه بفضيحة الساقية، يوم الأقنعة المزيفة التى انكشفت أمام الفلاحين وأمام شيخ الغفر هز رأسه ليبعد عنها أوهام الفضيحة والضعف وهو يقول: يوه!!. وهل هذه الفضيحة الوحيدة فى بلدنا؟ غداً تنسى البلد كل شىء، ولا تعود تذكر إلا نفسها ولقمة العيش العصية التى تذلها، والأعيان الأشداء الذين يضعون لقمة العيش فى فمها، قبل أن يقتلها الجوع!! إن هذه القرية بلا ذاكرة!! إنها ككل القرى بلا ذاكرة!! لا تشغل نفسك يا نمس بهذه الصغائر، وسترى أن القرية فى قبضة يدك كالكرة الشراب!

وعندما وصل النمس إلى حقله كان منفوشاً كأنه الديك الرومى.

وصاح فى الخولى والتملية أنهم قادمون. الفلاحون قادمون. لقد أخرجهم من جحورهم كالفئران!

وقال الخولى فى دهشة: ألم يكونوا مرضى؟!

قال النمس فى خيلاء: "مرضى عليك يا نعجة"! أما على، فلا يستطيعون أن يلعبوا!

وأخذ التملية يرددون على مسامعه تحيات ومجاملات وصفات تزيده تطاولاً وغروراً.

وأقبل الفلاحون، يجرون أرجلهم وفئوسهم، ونزلوا غيط النمس، وهم يتحاملون، ويتبادلون النظرات الغامضة، وبدأوا يعملون فى تخابث! يرفعون الفئوس كأنهم يرفعون الجبل، ويهوون بها فى رقة كأنهم من أهل البندر ناعمون، يخافون أن تشقق أكفهم! وما كانوا يعزقون كما يجب أن يكون عزق الأرض، ولكنهم كانوا يتحسسون سطح الأرض!

قال لهم الخولى: ما هذا يا رجال؟

قالوا له فى ضعف: مرضى! إننا مرضى! ألا تحمد ربنا أننا جئنا؟ نحن جئنا من أجل النمس.

قال الخولى: لكنا لن ننتهى فى سنتنا.

قالوا: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. هذا وسعنا. هذا كل ما فى وسعنا.

قال الخولى: هذا لا ينفع بشىء.

قالوا: نعود إذن إلى بيوتنا.

وجاء النمس عندما صار الحديث مشادة بين الخولى والتملية والفلاحين. ولما شاهد ما أتموه، ثار كالمجنون، وفقد شعوره، وأمسك بكرباج طويل، وانهال على الفلاحين ضرباً وهو يصيح بأعلى صوته:

- تريدون أن تخربوا بيتى؟ والله لأمزقن أجسادكم ياكلاب، ياغنم، يابهائم. أنا فرج النمس. أنا رب نعمتكم.

ولم يسكت النمس عن الصياح، حتى كاد أن يهلك، وحتى أقبل بعض أقاربه فصحبوه إلى بيته وهو ينتفض من الحقد والمرارة.

أما الفلاحون، فقد ذهبوا إلى العمدة يشكون النمس.

- ضربنا ونحن مرضى.

- ولم يرحم ضعفنا، وهو يعلم أننا خرجنا من دورنا من أجله.

انهال علينا ضربا بالكرباج، وأصابنا إصابات مختلفة.

- إننا نستغيث بك يا حضرة العمدة.

قال العمدة:

- حاضر ... تريدون أن أبعث شيخ الغفر يناديه الآن، أم أن الصباح رباح؟

قالوا جميعاً:

- الصباح رباح.

وفى الصباح، أرسل العمدة فى طلب شيخ الغفر، فلما حضر كلفه بارسال أحد الخفر ليبلغ النمس ليحضر. وكانت القرية كلها فى الانتظار. ماذا سيفعل العمدة؟ وماذا سيفعل فرج النمس؟

لكن النمس سخر من الخفير سخرية شديدة ورفض أن يذهب إلى دوار العمدة.

– دوار العمدة!! العمدة عنده دوار أيضاً؟ يا حلاوة!! يا رجل امشى.. امشى وقل للعمدة يستح. قل له يعرف مقامه الأول، ومقام أسياده.

وعاد الخفير إلى شيخ الغفر يروى له ما حدث.

لكن مدبولى كان حكيماً، فلم يشأ أن ينقل هذا الكلام تماماً إلى العمدة. قال له إنه لا يزال متعباً، وعندما يتحسن سيحضر على التو.

وأخذ أهل القرية يرددون الحكاية وهم يعجبون من تصرف مدبولى شيخ الخفر. لماذا يخفى عن العمدة؟ لماذا لا يقول له الحقيقة ويدعه يتصرف؟ لكن العقلاء من أهل البلد قالوا أن مدبولى عنده حق. إن الأفضل أن يترك النمس يشنق نفسه بنفسه.

وما هى إلا أيام، واحتاج النمس لأنفار آخرين، فأرسل الخولى ليبيت على عدد من الأنفار. وبغير حديث ولا كلام ولا اتفاق، كانت اجابة الأنفار جميعاً أنهم قبضوا أجر غد لعمل آخر.

– الله! يعنى البلد لم يعد فيها أنفار؟

– كلهم قالوا إن عندهم عملاً آخر، وأنهم قبضوا أجر غد.

– كلهم!! يا سلام!! أنا لا أصدق.. أبداً.

– وما الحل يا نمس؟

– لابد من أن أعرف عندما يطلع النهار، هل هذا كلام صحيح، أم كذب؟

– لكن كيف؟

- إياك ألقى واحداً منهم فى داره غداً. والله، ثلاثة بالله أقطع رقبته!!

وتردد هذا التهديد فى كل منازل القرية، وعلم به الفلاحون الذين جاءهم رجال النمس يطلبونهم للعمل فى حقله. وبدأ الهمس يسرى بين بيوت الفلاحين بالنصح. لابد من أن تغادروا بيوتكم فى غد. فوتوا عليه الفرصة، حتى يتصور أنكم لم تكذبوا عليه. لا داعى للصدام العنيف. مجنون. إنه مجنون، ولا داعى لاستفزازه.

وفى الصباح وجد النمس ورجاله أن الرجال الذين طلبهم قد غادروا بيوتهم لأعمالهم.

- عند من يا خالة؟ ذهب عند من؟

- لا أدرى يا بنى. لم يقل لى.

- غيط فى زمام بلدنا وإلا...

- لم يقل لى يا بنى.

ولم يصدق النمس أنهم خرجوا لعمل، لكنه لم يكن يملك دليل الكذب أيضاً. وحاول أن يعرف الحقيقة، لكن محاولاته ذهبت هباء.

وأمر رجاله أن يتفرقوا على مداخل القرية ليفاجئوهم لحظة وصولهم ويكشفوا كذبهم، لكن الأخبار كانت قد وصلتهم، فلم يستطيع رجاله أن يأخذوا أو يعطوا معهم.

وتكررت هذه المصادفات!! نعم مصادفات!! لو كنا نعلم! لو كنتم قلتم لنا! يا ليتنا نعلم، فإننا نحب أن نخدم النمس، لكنا قبضنا أجرة غد وبعد غد، وصرفناها أيضاً، ولم يعد من الرجولة أو الشرف أن نترك الخلق ينتظرون!!

ولم يكن النمس يصدق هذا الكلام، لكنه لم يكن يملك دليل الكذب عليه.

كان الفلاحون يمشون مسافات طويلة، ليعملوا فى زمام قرى أخرى، ويتحملون المشقة، على أن يعملوا عند النمس. ومنهم من كان يتورط مرة، لكنه سرعان ما كان يفلت منه.

وأقبل موسم جنى القطن، وبدأت القرية تستعد له استعدادها كل عام.

أم الفرح اقترضت "قرشين" وذهبت إلى كفر الزيات تشترى أصنافاً حلوة، تحبها النساء والبنات خاصة. حلقان ومناديل وكرادين وغوايش، وقماش ألوان!! وأم الفرح تعلم أن بعض هذه الأشياء قد تبور، لكنها فى النهاية تكسب "قرشين" تعيش عليها بضعة شهور.

وسعد مطرب القرية ومغنيها يحتفل بموسم جمع القطن احتفالاً خاصاً.

إنه يغنى، لكن هذا لا يكفى. إنه يدعو زملاء له ممن لهم أصوات شجية، من قرى أخرى ليحضروا فى الموسم ويحيوا بضع ليال لأهل البلد، فى نظير أن يذهب هو إليهم فى بلادهم يحيى معهم بضع ليال فى موسم جنى القطن.

وسعد يستعد لذلك بالطعام والشراب والفاكهة. إن القرية لا تعرف الطعمية إلا فى مثل هذا الموسم. كذلك لا تعرف العجوة، ولا الكشرى، ولا الحلوى ولا فاكهة البندر إلا فى موسم جنى القطن والحصاد. وسعد هو الذى يرتب هذا فيتفق عليه مع بعض أهل البلد، فإن لم يجد أحداً، فإن سبيلة الغجرية تتكفل بذلك جميعاً. سبيلة كذلك ترقص على أغانى سعد، رقصها البدوى الجميل، أمام خيام أهلها الغجر، وقد تأتى مع بعض أهلها إلى القرية لتشترك فى أفراح الموسم وترقص لهم رقصاتها.

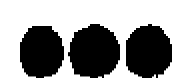
وسمعت القرية أن فرج النمس ينوى أن يقطع رجل سبيلة الغجرية من البلد، وأنه سيمنعها من الاشتراك فى أفراح الموسم.

- تريد أن ترقص، ترقص فى خيمتها، لكن تأتى البلد...لا!! وأضاف النمس أنه لم يشأ أن يقتلها يوم البهائم حتى لا يثير الفتنة ويفقد أهلها الغجر، وهم يحرسون للفلاحين محاصيلهم.

- غجر. الغجر هكذا، اما خفر أو لصوص، ولا وسط!

ويضيف النمس إلى هذا أنه لم يشأ أن يعرض محاصيل البلد لشرهم فتركها، لكنه أقسم ليمنعنها من الرقص فى ليالى موسم جنى القطن، بل وأنه سيمنعها من دخول البلد.

- وماذا تريد من البلد؟ إنها غجرية، وخيام أهلها فى آخر الدنيا، ولا عمل لها هنا.



وعندما قالت سبيلة هذا الكلام للمأمور ناجى سلطان، قال لها:

- إن كان "راجل" ينفذ ما قال.

وقالت هى:

- يعنى... أسمع كلامه، وإلا كلام سعد؟

قال لها فى ثقة:

- كلام سعد.

قالت فى خوف:

- وإن أذى "سعد"؟!

قال لها فى ضيق:

- إذن أكون أنا "اللى مش راجل"!!

وضحكت وضحك، وافترقا على ألا تخاف من شىء.

وفوجئت القرية ذات صباح باشارة للعمدة ليذهب إلى النقطة، ولم تكن هذه الإشارة فى ذاتها مفاجأة، فالعمدة يتلقى هذه الإشارات كثيراً. إنما المفاجأة أن العمدة عاد من النقطة ولم يذهب إلى الدوار، ولا المسجد، ولا حتى الكتاب، ولكنه مضى فى طرقات وحوارى إلى بيت سعد. ولما قابله قال له فى فرح: "بل الشربات يا ولد يا سعد. يا غفير سعد".

- غفير!! غفير!! تمزح يا حضرة العمدة؟

- عيب يا غفير سعد.. هذا أمر تعيينك غفيراً.

- آ... أنت الغفير سعد.

- يا حضرة العمدة..

- يا حضرة الغفير!!

ويبدأ سعد يتردد على المركز ليتدرب على أعماله الجديدة. إنه يعرف كيف يغنى، وكيف يطرب أهل القرية، لكن الغفير لا يغنى، ولا يطرب أهل القرية. الغفير يمسك البندقية، ويطلق الرصاص عند اللزوم! الغفير يحرس البلد والزراعة من اللصوص والأفاقين. الغفير ينفذ قوانين الحكومة ويدور مع الصراف ليحصل الأموال الأميرية، ويجر الناس إلى الجهادية، ويدفع الأولاد إلى المدرسة الإلزامية.

وبعد أسابيع من التدريب عاد سعد فى زيه الجديد، واللبدة السودة الطويلة، وعلى كتفه السلاح! لكنه كان كذلك يغنى!!

واستقبلته القرية بالزغاريد إلا النمس. كان صامتاً ساكتاً لا يدرى ماذا يدور حوله، ولا يعرف من أين لسعد هذا الصعلوك الحافى أن يصبح غفيراً، يقبض آخر كل شهر بضعة جنيهات غير ما يحصل عليه من قطعة أرض يستأجرها، ويزرعها فى غير أوقات الوردية التى يكلف بها.

أما سبيلة فقد فرحت فرحاً لم تعرفه من قبل، وعندما قابلت "سعد" قالت له أن ذلك كله من صنع يديه. المأمور ناجى سلطان هو الذى فعل هذا. لا يمكن إلا أن يكون هو!

وسعد يعجب لهذا. لماذا فعلها حضرة المأمور، دون أن يعرفه؟

وتقول له سبيلة: لكنه يعرفك يا سعد.. يعرفك منى.

وقبل أن يثور سعد من الغيرة، تقول له: يا رجل استح. يا فلاح استح. إنه مأمور وأنا لست إلا غجرية لا لى ولا على، وامرأته مثل القشدة.

وتمضى الغجرية تقول:

- الآن لم تعد فلاحاً يا سعد. الآن أنت بدوى.

قال لها:

- بل فلاح من ظهر فلاح.

وتقول له:

- بل بدوى فى يديك سلاح.

ويقول لها:

- بدوى... فلاح. المهم أنت. هيا بنا نتزوج.

قالت:

- أى والله يا ولد يا فلاح...

ويهز سعد رأسه مسروراً وشامتاً فيها.

وتضحك وهى تقول:

- يوه!.. غلطت. أنا أقصد يا بدوى... يا غجرى.

وتعود إلى حديثها الأول.

- كنت أقول. ماذا كنت أقول؟ آ.. نتزوج. هل تريدنى يا سعد؟

ويقول سعد، وهو يتنهد:

- لا والله. أنت مجنونة! لماذا انتظرتك طول زواجك من الوحش "أبو سريع". أنسيت يا سبيلة كيف كانت حالى؟! أنسيت أنى كنت والموتى سواء؟ والله لو لم يمت هو، لمت أنا!!

وتقول له فى حب:

- سلامتك ألف سلامة. إن شاء الله أنا! أذكر يا سعد. أنت أيضاً تعلم كيف تزوجته، وكيف كان حالى معه. أنت تعلم أنى لم أكن أحبه، ولم أكن أطيقه. لكن كان لابد من هذا.

ويقول سعد:

- وها نحن أولاء... بدوى وبدوية. ما المانع؟ أهلك غجر، ويحبون الغفر، ويحترمون السلاح والبنادق وضرب الرصاص، وهاأناذا صرت حكمداراً.

وتقول فى دلال:

- وهل ستكون كذلك حكمداراً.. معى أيضاً؟

ويقول لها فى هيام:

- معك لأ. فلاح. سأكون معك فلاحاً، مهما قلت أن الفلاح طرى، ومطواع! وما عيب الطرى أو المطواع يا غجرية؟! سأغنى لك من قلبى، وسترقصين لى بكل مشاعرك. سنغنى أنا فيما أقول، وأنت فيما ترقصين، ونقضى حياتنا فى غناء ورقص وطرب وحب.

وتمزح هى قائلة:

- والبلد تضيع وتنهب!

ويتدارك هو قائلا:

- هل أنا الغفير الوحيد؟ البركة فى شيخ الغفر والغفر. ثم هل تظنين أن أحداً يحرس شيئاً؟ يا بنتى الحارس ربنا. والله الحكاية كلها ماشية بالبركة! حتى أيام "أبو سريع" كانت أيضاً ماشية بالبركة. أنت تعرفين أكثر من أى انسان أنها طول عمرها "أحمدى".. سمعة. المسألة مسألة سمعة لا أكثر! والحراسة الحقيقية من ربنا، ومن الناس. الناس يحرسون حاجاتهم، والله لو أن الحاكم عادل ما احتاج أحد إلى حراسة. لكن...

وتقاطعه سبيلة وهى تقول:

- على كل حال. أنت تغنى، وأنا أرقص، والفجر يحرسون! الدنيا هكذا، حظوظ. ناس تنال الصيت، وآخرون يحفون من العمل، دون أن يعرفهم أحد. نعود لموضوعنا.

قال على الفور:

- سأتى إلى أهلك أطلبك.

قالت فى دلال:

- ولماذا هذه العجلة؟

قال فى اندفاع:

- لا أطيق بعد هذا انتظاراً.

قالت وهى تتثنى من النشوة:

- وكيف انتظرت طول هذا الوقت؟

قال فى سرعة:

- كنت يائساً منطوياً على حبى وهمى، أما اليوم، فلماذا أيأس؟ لماذا أنطوى؟ الشمس طلعت يا سبيلة. الدنيا نورت. لماذا الانتظار؟

قالت فى هدوء:

- أظن لابد من الإنتظار يا سعد.

قال متعجباً:

- لماذا؟ حرام عليك. أما كفاك انتظاراً؟

وعاد يهز رأسه فى غضب وهو يقول:

- لكن أنت لم تشعرى بانتظار. كنت زوجة. آ.. كنت زوجة، ومن يدرى ربما كنت سعيدة معه، وتمثلين على التعاسة وعدم الرضا.

وأمسكت سبيلة بكفه وهى تقول له:

- سعد.. حرام عليك، لا تظلمنى! أنا كنت سعيدة معه؟! إن أقسى الحرمان، هو حرمان الجائع، وأمامه طعام كثير. والجائع الذى لا يجد القوت فى حال أحسن من الجائع والطعام مكدس أمامه، أنا كنت زوجة، لكنى لم أعرف معنى الزواج.

قال فى عجب:

- تقصدين... أنك..

- ليس تماما. لكنى أقصد المعنى الحقيقى للزواج. لهفة الزوجة على زوجها! غيرة الزوجة على زوجها! رغبة الزوجة فى زوجها! حب الزوجة لزوجها! كل هذه أشياء لم أكن أعرفها، ولم يكن من حقى أن أعرفها. كذلك لم أكن أريد أن أعرفها .

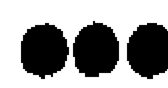
قال سعد :

- لماذا؟

قالت سبيلة:

- أنت تعرف لماذا... أنت تعرف أين كان الفكر والدمع والسهد واللوعة والحنان.

وأخذها بين ذراعيه، فى حنو بالغ، باركته الطبيعة بحفيف الشجر الرقيق الهامس، وشدو الطيور، وخرير الماء، ودورات الساقية، وصوت يشق السكون فى ابتهال إلى الله، يدعو المصلين للصلاة، فى هذا المساء البديع.



هل سكت النمس بعد هذا؟!

هل تراجع النمس بعد تعيين سعد خفيراً؟!

هل هدأ، هل صمت، هل سلم بالأمر الواقع؟!

- الغجرية لن تدخل بلدنا. لن ترقص فى بلدنا!

- أيام مفترجة أو أيام نحس، كله يستوى! أفراح أو أحزان، هذا ليس شأن الغجرية!

ونظر الناس كل منهم للآخر وهم يسمعون هذا الكلام، وتساءلوا عن سبب. إن الغرباء، من خارج البلد، ومن خارج الناحية ينتهزون فرص المواسم، ليشاركوا القرية أفراحها، فلماذا الاصرار على إبعاد الغجرية؟! ثم أن الغجرية ليست غريبة عن البلد تماماً، فقد ولدت على أطرافها، وعاشت مع أهلها الغجر تشم رائحتها وتسمع دقات قلبها، كأنها واحدة من أهل البلد. والفرق الوحيد أنها تعيش مع أهلها فى خيام، لكنهم استقروا هنا منذ سنوات طويلة ولم يعودوا رحلاً. إذن لماذا يصبح الفرح حلالاً على أهل البلد جميعاً، وعلى زوارهم، وعلى مغنين ظرفاء يستقدمهم سعد، وحراماً على الغجرية وحدها؟! آ... صحيح أنها سحبت بهائم شيخ الخفر وأنقذتها منه، لكن هذا كان شهامة تشكر عليها. لقد كانت أشجع من الرجال! ثم إن الله غفور تواب. حتى لو أنها أساءت، فلماذا خلق الله التسامح؟ لماذا خلق الله المصالحة بين الناس؟! مسألة وانتهت، ولا داعى لأن نحملها أكثر مما تحتمل، وهذه أيام مبروكة ومفترجة والناس تنتظرها مرة كل سنة.

لكن النمس ظل مع هذا متعصباً، يهدد ويتوعد فى شراسة.

وأزف موعد جمع القطن، وأخذ أصحاب القطن يبيتون على الأنفار، ليجمعوا المحصول.

وكان كل خولى يعرف كل أهل البلد واحداً واحداً. هذا البيت فيه أربعة أنفار وطفلان. وذاك فيه ستة وأربعة أطفال. وهناك رجل وإمرأة عاقر. وفى آخر الحارة بنات، كل من فى البيت بنات وبينهن واحدة تحسن الحداء، والغناء، وتحيل الغيط إلى زفة عروس، فتثير حماسة الأنفار.

وذهب رجال النمس يطلبون أنفاراً لجمع القطن.

وفوجئوا أن جميع الأنفار محجوزون!

وفى اليوم التالى، ظل الأنفار محجوزين!

وفى اليوم الثالث، وفى اليوم الرابع، وفى اليوم الخامس..كانوا محجوزين!...

وفقد النمس أعصابه فذهب إلى العمدة يصيح فيه أنه يريد أنفاراً يجمعون قطنه. يجب أن يجمع الأنفار قطنه. أنت مسئول يا عمدة. أنت مسئول لو بار القطن، ووقع على الأرض. أنت مسئول عن هذه الثروة البيضاء، أنت عنها المسئول يا عمدة..

ولم يرد العمدة على هذا الكلام، ولما حاول أن يزيد عن حده، تركه فى الدوار وخرج!

وخرج النمس فى طرقات القرية يبحث عن أنفار.

وعندما علم أهل القرية بنواياه، دخلوا بيوتهم، وأغلقوا عليهم الأبواب.

وانهال ضربا فى الخولى وأعوانه من التملية، وهو يعنفهم أشد التعنيف.

- أين الرجال؟ أين الأنفار؟ أنتم نعاج لا تصلحون لشىء. هيا أرونى بيوتهم " لأطربقها" فوق رءوسهم. أرونى وجوههم لأسلخها لهم. أرونى أطفالهم لأخنقهم فلا يعيشون.

لكن كل ذلك لم يجد النمس شيئاً، وظل على هذه الحالة الشديدة الحادة، حتى أقبل بعض أهله وحملوه حملاً إلى بيته، وهو محموم.

وظل النمس فى بيته قعيداً من الحمى، والقرية مترددة هل تستقبل الموسم بما يستحقه من الطعام والشراب والغناء والحداء، والرقص، أم تنتظر حتى يشفى النمس من محنته؟!

وغلب فى القرية، خالها الطيب، كما يقولون، فانتظرت صابرة حتى لا تجرح النمس أو تضايق أهله. وعندما ضاق شباب القرية بهذا، نهرهم الكبار وصاحوا فيهم أن التمسك بالتقاليد أهم من النمس وعائلة النمس كلها، وأن الفلاحين عندما يتمسكون بتقاليدهم، فإنهم يحترمون أنفسهم ويراعون الله سبحانه وتعالى فى واحد منهم، دون نظر إلى من يكون، أو ماذا يكون.

وبينما كان الأهالى قد تجمعوا بغير ميعاد، وسرى بينهم حديث عن النمس وحقل النمس وقطن النمس، واستقر قرارهم على أن يجمعوا له قطنه وهو مريض، كان النمس - برغم مرضه - يلتقى بأهله وأصدقائه ليشتموا الفلاحين الكلاب! ويفكروا فى طريقة يتخلصون بها من العمدة! ويسيطرون بها على الناس!

وعندما اتجه عدد من الأنفار إلى حقل النمس ليجمعوا له قطنه، كان النمس قد شفى، فخرج إلى الحقل ليطمئن، فما أن وجدهم هناك حتى صاح فيهم فى تعال وخيلاء.

- هكذا جئتم كالكلاب! جعتم فجئتم! على كل حال سترون نتيجة أعمالكم.

وعجب الأنفار مما يسمعون، وعندما أبدوا هذا العجب، أخذ يسبهم ويشتمهم فى عصبية، ورفض أن يسمع منهم أنهم لم يحضروا إلا لأنه مريض، ولو عرفوا أنه شفى لما اهتموا بالحضور، والدنيا مليئة عملاً، والله الغنى يا سيدى.

عندئذ صاح النمس يطلب أهله ليؤدب هؤلاء الكلاب، وخلع فرعا من شجرة توت قريبة وانهال عليهم ضرباً.

وارتفع الصياح، وولولت البنات، وبكى الأطفال، وانقلب الحقل إلى مأتم.

وعندما هم الأنفار بالهرب من الحقل، قابلهم أقارب النمس ممن اتفق معهم على تأديب الفلاحين، وكانوا يحملون العصى والكرابيج، وعلى أكتافهم بنادق وحوصر الأنفار المساكين، ووقعوا فى كمين. وارتفع صوت النمس يستحث أقاربه وأصدقاءه على الضرب، بلا رحمة ولا شفقة. اضربوهم. أدبوهم. لابد من أن يعرفوا أن الله حق، هؤلاء الجياع.

ولما شعر الناس بأن النمس لا ينوى أن يقف عند حد، بدأوا يقاومون.

الرجال خلعوا شجيرات القطن ودافعوا بها عن أنفسهم.

الفتيات حفرن الأرض بأيديهن لتكون منها قطع صلبة يقذفنها فى وجوه هؤلاء الأولاد المرفهين. حتى الأطفال اشتركوا. رشوا ماء القلل فى وجوههم فارتبكوا من المفاجأة.

وشعر النمس أنهم سيخسرون المعركة، وأن رفاقة من الطراوة والنعومة وقلة الحيلة بحيث أخذوا يتراجعون خائفين. عندئذ صاح فيهم ليضربوا ناراً، وفى المليان.

- اضربوا. افتحوا كروشهم. اضربوا فى المليان. لا تخافوا. اضربوا.

وأخذوا يستعدون بالفعل، وأعدوا البنادق للضرب فى المليان، وبدأت فوهات البنادق تتجه نحو الفلاحين.

وعاد الأنفار يصيحون مرة أخرى يطلبون النجدة.

إن شجيرات القطن لا تجدى أمام الرصاص، ولا الطوب، ولا الماء.

وارتفعت أصوات تولول وتستغيث.

وفجأة، وفى لمح البصر، كانت الساحة كلها قد غطيت برصاص يتطاير فوق الرءوس - حتى النمس أحنى رأسه خائفاً من المطر الذى نزل على رأسه -

وارتفعت صيحات رجال تقول:

- ارم السلاح. ارم السلاح وإلا ضربنا فى المليان.

ورمى كل سلاحه، واقترب الغفر والغجر يحاصرون المكان، ويستولون على السلاح، وينظرون إلى النمس ورجاله فى سخرية، ويشيرون إلى الأنفار أن ينصرفوا فى أمان، فمضوا وهم يدعون الله عليه، وعلى أنفسهم لأنهم صدقوا أنه مريض، وأنه يستحق الشفقة.

وظل النمس وأهله وأصدقاؤه واقفين فى خجل، والخفر والغجر ينصرفون عائدين من حيث أتوا. وسبيلة الغجرية عند الساقية تنظر فى سخرية.

ليلتها سهرت سبيلة مع أهل القرية، ترقص وتغنى، وتسمع أغانى سعد فى نشوة لذيذة، وتشارك فى كل ألوان البهجة والمرح والسعادة.

أكلت معهم وشربت الشربات، وملأت بطنها فاكهة لا تراها إلا مرة كل عام.

بينما اختفى النمس وجماعته داخل دورهم لا يجرؤن على أن يظهروا للناس.

واختفى مع النمس الخولى الذى يعمل عنده، ولم يستطع أن يطلب من أحد من أهل القرية أن يجمع القطن فى غيط النمس، أبداً لم يظهر الخولى، ولا أحد من تابعيه.

- لكن القطن يا أولاد. ما ذنبه؟

- ذنبه أنه قطن النمس.

- أبداً. إنه قطن البلد كلها، هى التى تعبت فيه، وبذلت له جهد أبنائها وعرقهم.

- وسيجنى النمس ثمرات هذا لنفسه.

- فإن تركتموه هكذا، فسيسقط على الأرض، ويختلط بالتراب والوحل، ويصبح والعدم سواء.

ولم يستطع أهل القرية أن يحزموا أمرهم على شىء.

كانت هذه المناقشات تدور فيما بينهم، وكانوا إذا مروا بحقل النمس، صعب عليهم ما يرونه من ثروة مهددة، وعز عليهم أن يذهب جهد العام نتيجة طيش النمس ونزقه. لكنهم ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

وفجأة، وفى أمسية من تلك الأمسيات الطريفة، وبينما القرية تمرح وتمزح وتأكل وتشرب وتغنى. إذا برجل عجوز أشيب، يستند إلى عدد من أقاربه وتابعيه، يطل على أهل القرية حيث كانوا يسمرون.

ويعرفه أهل القرية، فيقفون إجلالاً له ولشيبته ولضعفه.

إنه الحاج عبد الوارث والد النمس، المريض العجوز القعيد، الذى لم يغادر بيته منذ سنوات، ومنذ سنوات لم يتدخل فى شىءون القرية، ولا شىءون الزراعة. اختفى عن حياة القرية حتى كادت تنساه، وخيل إليها عندما أهل على الجمع السامر أن هذا هو البعث !!

وخيم على الجمع صمت. وسكت سعد عن الغناء. وكفت سبيلة عن الرقص.

وجلس الحاج عبد الوارث، وفى صوت ضعيف قال:

- كل عام وأنتم بخير يا أولاد   كل عام وأنتم بخير. إنهما كلمتان لا أكثر. حقكم على... حقكم جميعاً على.

ولم يقل أكثر من هذا، فخيم على الجمع الصمت.

ولما لم يقل أحد شيئاً، استأنف الحاج عبد الوارث الحديث.

- أعلم أن ابنى فرج مخطىء. أساء إليكم وإلى نفسه، لكن ما ذنب القطن؟ إنه رزق من عند الله. اجمعوه. ، وأصلحوا بثمنه المسجد. فرج ابنى لا يستحقه. والمسجد به أولى.

وختم الحاج عبد الوارث حديثه قائلاً:

- سأريحكم منه. أنا سأريحكم منه.

وعاد الرجل إلى بيته يسنده أقاريه وتابعوه.

ونظر كل واحد إلى صاحبه، دون حديث.

ثم تكلم سعد.

- ونسلمه لأصحابه؟!

- أصحابه تركوه للجامع. هذا حق الجامع. لقد صار حق الجامع. وانفض السامر بغير كلام.

وفى الصباح اتجه أهل البلد إلى غيط النمس، ليجمعوا القطن، وانتظموا فى صفوف، وأغانيهم تتردد على الألسنة.

ومضى الصباح جميلاً ورائعاً، وكاد الرجال والنساء ينهون مهمتهم على خير وجه. كلهم كانوا هناك، حتى الذين لا يستأجرون لجمع القطن كانوا هناك. الملاك الصغار وأولادهم كانوا هناك، قربى إلى الله.

وجاء الضحى وأصوات الغناء تتردد فى سعادة.

وعند الظهر، شهد ضريح سيدى الذكيرى مفاجأة لم تخطر لأحد على بال.

كانت الشيخة تفيدة وحدها فى الضريح، وكان أبو عوف الصغير ابنها يلعب حول المقابر، وكان صوت الساقية يخترق المكان إليها فتعرف أنه هناك. عمها أبو المكارم هناك يؤنس وحشتها.

وفجأة شهقت الشيخة من المفاجأة.

لقد سمعت أصوات أقدام تجرى فى خوف وهلع.

وأطلت من نافذة الضريح فوجدت " فرج النمس" يجرى، وعدد من أتباعه يجرون وراءه يريدون أن يمسكوه. كان يحمل بندقيته ويجرى بها نحو الحقل، وكان أتباعه يصيحون به أن يعود.

- لا داعى لهذا يا فرج.

- "تودى نفسك فى داهية يا نمس"!

- البلد كلها هناك يا فرج، ولن يرحموك.

- تعال يا فرج وسنفكر معك فى طريقة أخرى.

لكنه ظل يجرى بين الحقول كالمجنون. وتأكدت الشيخة تفيدة أن المجنون ذاهب ليطلق على الناس الرصاص. لقد فقد هذا المجنون عقله.

وشعرت الشيخة أن أرواح الناس معلقة بها. لقد علمت بالخبر وبالخطر، وأصبح من واجبها أن تنبه الناس إلى هذا الخطر. نعم هذه الأرواح أصبحت مسئوليتها، ولابد من إنقاذها.

وأخذت الشيخة تجرى. لم تعرف إلا اتجاهاً واحداً: الساقية. وعندما وصلت استغاثت بعمها "أبو المكارم" ليتصرف.

وهالها أنه تلقى هذا النبأ منها ببرود، ثم ضحك.

وصاحت فيه تحذره، وتنذره بأنه مسئول عن أرواح الناس، وأنه إذا لم يبادر بعمل شىء، فسيكون شريكاً فى قتلهم.

لكن "أبو المكارم" ظل يضحك، ثم أشار إلى الخص، فوجدت ست الناس جالسة أمامه.

ولم تفهم الشيخة شيئاً. وأشار لها أبو المكارم أن ست الناس قامت بالواجب، وأنها عرفت نية النمس فنبهت سبيلة، وسيلقى هذا المجنون جزاءه.

وما هى إلا لحظات، وسمعت الشيخة وهى فى مكانها عند الساقية بضع طلقات نارية. ونسيت فى ثانية كل شىء إلا ابنها. أين ابنها؟ لقد شغلها الخوف على الناس عن ابنها، وهذه الطلقات المحمومة تحملها على الخوف على ابنها. أين "أبو عوف"؟ وكما جاءت الشيخة تجرى من الضريح، انطلقت تجرى نحو الضريح، تبحث عن ابنها. وكان الصغير بدوره يبحث عنها ويناديها، وتبدو فى صوته رنة خوف وهلع. وتلاقت مديحة بالصغير "أبو عوف"، فأخذته فى صدرها، وقبع هو قريباً من قلبها، يأنس إلى دقاته السريعة الدافئة.

ومن هناك كان كل شىء واضحاً.

أصوات رصاص انطلقت أول الأمر فى رعونة، وفى أثرها أصوات استغاثة وصياح وبكاء.

ثم أصوات رصاص انطلقت بعد ذلك فى سرعة تحاصر الأصوات الأولى الطائشة، تصاحبها أصوات خائفة حيرى، لكنها تهدأ وتهدأ وتهدأ، حتى تختفى.

وسكت الرصاص بعد ذلك، ويشعر كل الناس عند الساقية، وتشعر الشيخة عند الضريح أن كل شىء قد انتهى، وأن النمس لابد أن يكون الآن مستسلماً لنهايته. نعم هذه يجب أن تكون نهايته، بعد أن صبرت القرية عليه أطول وأثقل مما صبر أيوب على بلواه.

وكان النمس فعلاً قد وقع.

واتجه إليه شيخ الخفر مدبولى، فأطبق على عنقه، وهو يقول له فى حزم:

اسمع يا ولد. أنا شيخ الخفر، والأمن فى هذه البلد مسئوليتى.

أنا أقبض أجرى لأحافظ على الأمن، وانت أصبحت عنصر شغب وإزعاج للناس وللحكومة وقد طاولناك أكثر مما تستحق، لكنك نذل وجبان ولا تستحى. اليوم لن أتركك إلا فى دوار العمدة.

ونظر إلى الخفر وهو يقول أمراً:

- امسكوه وسوقوه إلى الدوار، هذا المجرم الجبان.

ولم يستطع النمس أن ينبس بحرف. كان ينظر فى ذهول ولا يقول شيئاً.

وساقه الخفر أمامهم إلى الدوار. وتجمعت القرية حوله تنظر وهى لا تصدق أن الخفر يمسكون النمس، ويسوقونه إلى الدوار.

- يا خبر يا أولاد!! هل كان أحد يصدق أن خفيراً يجرؤ على أن يلمسه؟!

- يمسكون النمس، كأنه واحد مثلنا؟!

- وسيضعونه فى الدوار حتى يرحلوه إلى النقطة؟

-.. ومن يدرى. يمكن "طابخينها سوا"!!

- لأ لأ. لا يبدو هذا. هذه المرة.. جد.

- سنرى.. والماء يكذب الغطاس!

وعندما وصل النمس إلى دوار العمدة، لم يهتم عباس بأن يراه، وأمر شيخ الخفر أن يرميه فى أى "داهية" حتى يرحلوه إلى النقطة.

- لا أريد أن أرى هذا الجبان، فإنه لا يستحق أى عطف أو شفقة.

وقال شيخ الخفر:

- عندك حق يا عمدة. البلد أيضاً لها كرامة، وهو إنسان بغير حياء! وبغير ضمير!!

وعندما أراد بعض أقاربه أن يتدخلوا لصالحه، هب فيهم العمدة منذراً بأنه سيتخذ أشد الإجراءات ضدهم، وأقسم ليضعنهم جميعاً فى الحبس إذا لم ينصرفوا. وقال واحد منهم فى تطاول:

- هلا تعرف من هذا يا عمدة؟

وكان عباس قد ضاق بهؤلاء الرقعاء، فلم يرد على هذا الكلام، بكلام مثله، لكنه رفع يده وهوى بها، وبكل ما يملكه من قوة، على وجهه، وفوجىء بأنه أخذ يولول كالنساء، وأن الآخرين قد ذعروا من المفاجأة، وأخذ كل منهم يتدارى من عينى العمدة وهو يرتعد من الخوف، وامتلأ أهل القرية رضى وسعادة وهم يرون العمدة على هذا القدر من الشدة والحزم.

وذهب عباس إلى الحاج عبد الوارث يستأذنه فى اتخاذ الإجراء اللازم مع ابنه المجنون. وإلا فإن أمن القرية سيصبح لعبة فى أيدى الصغار.

وقال الحاج عبد الوارث:

- أنا خجلان منك يا حضرة العمدة. حتى كلمتى لم يحترمها. إنه أهاننى قبل أن يهين القرية، وقبل أن يهينك. وأنا لست متنازلاً عن حقى، حتى لو تنازلتم جميعاً عن حقوكم.

وبكى الرجل العجوز فى صمت، فارتبك عباس، وانحنى عليه بقلبه، ويبكى معه.

وخرج عباس بعد أن قال للحاج عبد الوارث:

- إنك فى عيون أهل القرية جميعاً يا حاج، ومصالحك فى قلوبهم. أما فرج فيجب إبعاده عن الزراعة، وعن القرية، إلا فسيلقى مصرعه بالنهار، ولن يستطيع أحد أن يحميه.

وقال الحاج عبد الوارث:

- هذا كرم منك ومن البلد يا عمدة. اعمل ما بدالك.

وذهب العمدة إلى الدوار، وأمر بأن يحبس فرج فى الدوار، حتى يتأدب!

ولم يعد للقرية حديث إلا النمس، وكيف انتهى مصيره إلى حجرة مظلمة لا ترى النور، يأكل فى الظلام، ويشرب الماء بالعلقم، ويجتر ذكرياته المرة.

الغندورة لم تسكت على هذا، ولم تقبل أن تهون الدنيا إلى هذا الحد!!

- أين أيامك يا آبه؟! أين خطوتك الناشفة، تهز بها الجبال؟ أين أنت وصيحة منك. صيحة واحدة كانت تكفى لتجرى البلد كلها أمامك؟ لقد ضاعت فى البلد هيبتنا من بعدك، وصرنا محتاجين للرعاع والكلاب والغجر!!

- وأخذت الغندورة تحكى وتروى وتستعيد ذكريات سبع الليل، لتستفز أقاربها ضد العمدة وضد أهل البلد. العمدة زوج خالتى، لكن كل البلد تعرف من هو. الله يرحمك يا آبه... كان قدامك كالقط. كان يرتعد من الخوف إذا رآك، واليوم يحبس زوج بنتك فى الدوار. وصار له دوار يا آبه... زوج خالتى درة صار له دوار، وفى الدوار حبس وسلاح وتلفون!!

وذهبت الغندورة إلى أختها ست أبوها، وأخذتا تتحدثان فى حرقة وعصبية.

- حبسوة... حبسوه يا اختى فى دوار العمدة!!

والنبى زمن.. نحن الآن نحبس فى الدوار، وأسافل الناس هم أصحاب الكلمة!!

- لكن هل هذا يرضى ربنا؟

- أبداً والنبى يا اختى. لكن آخر زمن. والنبى القيامة ستقوم!

- تقوم وتقلب عاليها سافلها، ونخلص.

وبدأت ست أبوها تتحدث مع زوجها، ولم يكن زوجها ممن يخالفون لها أمراً. وطلبت منه أن يذهب إلى العمدة، وأن يخرج زوج أختها من الحبس، فذهب فتوح الحاج قنديل إلى العمدة، وطلب منه أن يخرج "فرج" من الحبس! وضحك العمدة وقال له فى سخرية: حاضر! أمرك يا فتوح! وعاد فتوح الحاج قنديل منفوخاً ليقول لنور الهدى زوجته، أو ست أبوها: "خلاص" العمدة قال حاضر! سيخرج النمس!! ودفعته نور الهدى أمامها وهى تصيح فيه: والنبى صحيح؟! سيخرج النمس؟ "يا خايب يا نايب" يا راجل خيخة"!! ولم يفهم لماذا هى غاضبة عليه!!

الغندورة لم تكتف بحديث مع أختها. لقد مرت بأهلها جميعاً تحدثهم وتستحثهم أن يخرجوا زوجها من الحبس. آ... لابد من أن يخرج من الحبس.

- نحن الذين أصبحنا نحبس الآن؟!

- نحن الذين بدعنا الحبس... نحبس؟؟

ذهبت لأمرأة خالها غضبان، العمدة القديم.

- يا أمرأة خالى! زوجى فى الحبس! هل تتصورين هذا؟

- أنا أذهب إلى العمدة! من العمدة؟ أنسيت ماذا كان بينه وبين أبى؟! إنه ينتقم من أبى!!

وذهبت الغندورة إلى إمرأة خالها شيخ البلد سيد.

- يا إمرأة خإلى! هل تصدقين أنهم وضعوه فى الظلام لا يرى النور؟!

- هل هذا هو ما وصلنا إليه بعد أن أطعمنا هذه الأفواه الجائعة؟

وذهبت الغندورة إلى إمرأة خالها ممتاز.

- يا إمرأة خإلى! هل هذا العمل يخلصك؟

- فرج النمس يحبسونه يا إمرأة خإلى؟!

وذهبت نوارة الغندورة بعد هذا إلى أمها.. إلى ست الناس لتصبح فيها قائلة لها:

– كله منك! أنت السبب فى كل هذا! فرج فى الحبس بسببك. مجنون والله مجنون. كان تركك تفعلين ما تشائين. تتزوجين أو لا تتزوجين، تموتين أوتعيشين، تعقلين أو تجنين.. ماله هو وهذا كله؟ لكنه أراد أن يدافع عن كرامتك، وأن يصون عرضك، وأن يحفظ مقامك، فدفع الثمن. هذا هو الثمن دخل دوار العمدة وأصبح محبوساً لا يخرج. فرحانة؟ يا مصيبتى منك يا مصيبتى! وأنا؟ ما ذنبى يا أمه؟ ما ذنبى؟ انه يوم نحس، يوم أن فكرنا فى أن نعيدك من السراى الصفراء. لكنه بختى ونصيبى. اختفى منه؟ مستحيل!!

ولم ترد ست الناس. ظلت صامتة وساكتة، تسمع دون أن تجيب.

ومضت البنت تقول لها:

– قومى.. قومى اخنقينى يا "قتالة قتلة"! قومى، فقد اعتدت على خنق الناس. هل أنا أعز عليك من أمك؟ هل أنا أعز عليك من ابنك. أنت التى قتلت ابنك أدهم. كنت تعرفين قاتل أبى ولم تقولى له ليستريح، فظل يدور يبحث حتى لقى مصرعه. أنت قاتلة أخى. ثم من الذى قتل أبى يا أمه؟! الآن لا تستطيعين أن تخفى الحقيقة لقد فضحت نفسك يا مفضوحة! قتل الرجل، وجاء يتزوج عشيقته!! ماشاء الله! والله لأبلغن عنه. مدبولى هو قاتل أبى.

ولم تستطع ست الناس على هذا صبراً، فهبت فى ابنتها، وهجمت عليها وانهالت عليها ضرباً، حتى كادت تقضى عليها، بينما الغندورة تصيح وتستغيث:

– ستقتلنى...امنعوها هذه المرأة المجنونة، وإلا قتلتنى كما قتلت ستى. امنعوها.. امنعوها.. يا خلق يا هوة:. سأموت، سأموت.

وأسرعت "كايداهم"، فأمسكت بسيدتها، وأخذت تجرها بعيداً عن الغندورة وبصعوبة استطاعت أن تخلصها منها. ثم صاحت تستغيث، فأقبل إليها فرحات، وتعاون الإثنان فأعادا السكينة إلى ست الناس، وأخرجا الغندورة من الدار.

وانتشر فى البلد أن الغندورة تدعى أن مدبولى هو الذى قتل أباها ودفعه إلى الرياح فمات غريقاً. لكن القرية ليست على هذه الدرجة من السذاجة. سخرت من هذا الكلام ومضت فى حياتها اليومية لا تهتم بما قيل.

لكن كان لهذا الكلام صداه عند ضريح سيدى الذكيرى، فقد خافت الشيخة أن يؤدى هذا الكلام إلى فتح موضوع قديم يجب ألا يثار. لقد انتهى، وقفل المحضر على أن الفاعل مجهول، فلماذا يثار؟ مدبولى أو غير مدبولى، فإن الموضوع قد فات ومات، والموتى لا يعودون!!

واجتمعت الشيخة والشيخ أبو المكارم وأرسلت إلى الست قمر تستشيرها وحضرت كذلك المعلمة وردة النقرزان. وكان رأى ممدوح أن المسألة بسيطة جداً، وأنها لن تؤدى إلى شىء!! لكن مديحة شعرت أن شيئاً قد يحدث.

وحدث ما توقعته مديحة.

تلقى مأمور المركز بلاغاً من مجهول، أن مدبولى هو قاتل "أبو سريع" وتحرك المأمور وبدأ التحقيق، وأنكر مدبولى بطبيعة الحال، لكن الأمر، اقتضى سؤال "ست الناس" و"ست أبوها" والغندورة.

أما ست الناس فقد أنكرت.

وأما "ست أبوها" فقالت انها لا تعلم.

وأما الغندورة، فقد قالت أن المسألة واضحة. الذى قتل أبى، لابد أن يكون صاحب مصلحة فى قتله. وشيخ الخفر مدبولى يريد أن يتزوج أمى. هو قاتل أبى ليتزوج أمى.

وبدأت المباحث تتحرى.

وذات يوم أقبل على ضريح سيدى الذكيرى رجلان وامرأة. كانوا غرباء عن الناحية، لكنهم من محاسيب سيدى الذكيرى. وبعد أن زاروا ووضعوا النذور فى صندوق النذور،

أقبلوا على الشيخة يقبلون يديها ويسألونها الدعوات. وبدأوا معها حديثاً ملفوفاً فى غلالة رقيقة، سريعة ما كشفتها الشيخة بذكائها.

أنهم يتحرون مقتل "أبو سريع"!

وأنهم يتخفون فى زى محاسيب سيدى الذكيرى. بينما هم مباحث!

وحتى لا تكرههم، قالت لنفسها: إنهم مثلك يتخفون عن الناس فى زى محاسيب الذكيرى، بينما هم يبحثون عن قاتل مجهول! يا بنت. إنهم محاسيب، ولم يجرءوا بعد على أن يكونوا مشايخ!

ومرت هذه الحادثة بسلام.

لكن الشيخة أرادت أن تسد الموضوع إلى الأبد، وكانت تعتقد أن مفتاح هذا الموضوع عند الغندورة. أدهم وقد مات، وست أبوها مشغولة بالمساحيق والكحل والروائح، ولم يعد هناك من يهتم به إلا الغندورة. والغندورة لا يهمها الموضوع نفسه، بقدر ما يهمها أن تستعمله ليخرج فرج من الحبس.

ولماذا لا يخرج فرج من الحبس؟

لكن كيف يخرج من الحبس، والبلد كلها ساخطة عليه ولا تطيقه؟ وفكرت الشيخة فى الغجرية.

إنها تعلم أن الغجرية على اشتعداد لتنفيذ أى أمر تصدره لها الشيخة تفيدة. وتعلم أن الغجرية عرفت الطريق إلى إيتاى البارود، وأن العمدة عباس يسمع كلامها ويعتمد على أهلها الغجر فى المحافظة على الأمن.

إذن تلجأ إلى طريقين: طريق الست قمر، أم المأمور ناجى سلطان، وطريق سبيلة الغجرية.

لكن عباس العمدة رفض أى حديث عن النمس، وهدد بأن يرسله إلى النقطة لينال جزاءه العادل، ويدخل سجن النبدر، وهو سجن بحق وحقيق، لا كحبس الدوار فى البلد، بين أهله، يأكل من بيته، ويطمئن على أولاد، وغير بعيد من أصدقائه.

قالوا له: فإن ترك مصالحة كلها لا يقربها؟

قال فى اصرار: جربنا فلم تنفع التجربة.

قالوا له: فإن ترك البلد كلها؟

قال فى تردد: عندئذ يمكن.. آ ... يجوز.



وذهبت الغجرية إلى المأمور، وقالت له:

- مطلوب عمل فى البندر لواحد صاحبنا.

قال فى مزاح:

- يو..ه! وخفير عيب؟ استقل شغل الخفير؟

قالت وقد فهمت ما يريد:

- أنت مأمور قد الدنيا، لكن لا تزال محتاجاً إلى تمرين.

قال المأمور:

- من إذن تقصدين؟

قالت:

- فرج.. فرج النمس. العمدة حلف ألا يخرج من الحبس ألا إذا ترك البلد.

قال المأمور:

- يا...ه! العمدة أصبح شديداً جداً. هل تعرفين أن هذا إجراء باطل؟ العمدة يحبس الناس!! إيه؟ بلا حكم، ولا أمر من وكيل النيابة، ولا شىء اطلاقاً؟ إنه جرىء جداً!! على كل حال، هذا أحسن، طالما أن أحداً لم يشك من هذا... هيه. نعود لموضوعنا.

قالت الغجرية:

- ولكن يخرج النمس من البلد، لابد له من عمل.

قال ناجى سلطان:

- وأرضه؟ أبوه رجل غنى.

قالت الغجرية:

- لكنه أقسم ألا يعطيه شيئاً، وقف الأرض على الجامع بعد موته.

قال المأمور:

- والله رجل... على كل حال هناك وظيفة يا ستى. من أجل عيونك!

قالت الغجرية:

- الله يطيل لنا عمرك. وأين هذه الوظيفة؟

قال ناجى سلطان:

- مدير البحيرة... أم سيستقلها؟

وصاحت الغجرية فى ضيق:

- يو...ه! قل كلاماً جاداً

قال:

- بلاش... نائب عمومى!

وهزت الغجرية رأسها وهى تتململ من الضجر ثم قالت:

- يا سعادة البيه... الجد. وحياة أهلك.

قال:

- بشرط ألا يقول أنه من الأعيان. ويتطاول. "يتلهى يأكل عيش والسلام".

قالت:

- سنعرف نحن شغلنا معه.

قال:

- إذن سأرجو سامى أخى، ليجد له عملا فى الطرق.

قالت:

- يعنى أيش هذا؟

قال:

- هل ترين الناس الذين يرشون جسر الرياح. كل يوم مسافة؟

قالت:

- آ... شىء بسيط جداً. كل واحد معه جردل ماء، يملؤه من الرياح ويرش الجسر.

قال:

- هذا هو العمل.

قالت:

- يرش معهم الجسر طول النهار؟

قال:

- ومن أجل عيونك الحلوة، سأحاول أن يكون هو رئيساً على هؤلاء الأنفار يلاحظهم، ويستحثهم على العمل، ويتأكد من قيام كل منهم بالمطلوب منه.

قالت:

- ويأخذ كم عن هذا؟

قال:

- أربعة جنيهات.

قالت:

- رضــا... أى والله رضــا. قــاعــد طول النهـار تحت شـجـرة، ويـأخـذ عن هذا أربعـة جنيهات؟ كثيرا!! هذا كثيرا!! لكن بخته ونصيبه. لكل واحد بخت ونصيب.

قال:

- فإذا لم أستطع، فسيكون واحداً من هؤلاء حتى يخلو له مكان فيصبح رئيساً على مجموعة منهم. وفى هذه الحالة يأخذ ثلاثة جنيه فى الشهر.

قالت:

- رضا... أيضاً رضا. ومتى يمكن هذا؟

قال:

- حالاً. المهم أن يدبر لنفسه ركوبة يأتى بها لعمله، لأنه سينتقل على طول الرياح.

قالت:

- بسيطة. هذه بسيطة.

قال:

- أبداً ليست بسيطة. إنها تحتاج لتعليم.

قالت مستنكرة:

- تعليم ايش؟ الركوبة أم الراكب؟

قال جاداً:

- الراكب يحتاج إلى أن يتعلم كيف يستعمل الركوبة.

وضحكت طويلاً وهى تقول له:

- ايش هذا يا حضرة المأمور؟ ماذا جرى لك؟

قال لها:

- أنا لا اضحك. أنت تظنين أن الركوبة المطلوبة هى حمار مثلاً. لكن أين نضعه، وماذا يأكل، وكيف يتنقل به بسهولة؟ المطلوب حمار حديد.

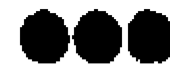
وقهقهت الغجرية من قلبها ثم قالت له:

- أنا صحيح غجرية، ويمكن أكون حمارة، لكن حكاية حمار حديد هذه... لأ.

قال لها وهو يشاطرها الضحك:

- والله العظيم ثلاثا هناك حمير حديد فعلاً، وهذا هو أطوع حمار وأسهل ركوبة.

وافترقا على أن يعين فرج النمس فى الطريق، بشرط أن يتعلم كيف يركب الحمار الحديد.



وعندما عادت سبيلة إلى البلد، كان عليها أن تذهب إلى الشيخة تفيدة لتقول لها أنها نجحت فى تنفيذ نصيحتها، وأن المأمور سيجد له عملاً فى الطريق، لكنه اشترط شرطاً غريباً جداً.

وأخذت سبيلة تضحك، والشيخة تنظر إليها تنتظر منها أن تحكى لها عن الشرط. ولم تستطع سبيلة أن تسيطر على نفسها، فظلت تضحك، كلما حاولت أن تكتم ضحكتها، تأدباً أمام الشيخة، زادت ضحكاً، والشيخة تنظر وتنتظر.

وعندما استعادت هدوءها قالت:

- لابد من أن يتعلم ركوب الحمار الحديد.

ثم عادت تسأل الشيخة.

- هل تعرفين الحمار الحديد هذا يا ست الشيخة. ما هو؟

قالت الشيخة:

- ا لبسكليته يا غجرية، هل تعرفينها؟

قالت الغجرية:

– يقطعنى!! غجرية وحمارة يا ست الشيخة، سامحينى.

وضحكت الشيخة، وأخذت تصف لها الحمار الحديد، وكيف يدير الواحد جنزيرا من حديد بقدميه، فتدور عجلتان "كاوتش"، بسهولة ويسر.

بعد ذلك صارت المشكلة هى اقناع عباس باطلاق سراحه، واقناع النمس بالعمل فى الطريق، وركوب الحمار الحديد كل يوم.

قالت الشيخة:

– اسمعى يا سبيلة. إنى حريصة أشد الحرص على إبعاد الفتنة عن هذه القرية. أنا غريبة لكن زوجى هنا، وهو مدفون هنا، فقد صرت جزء من سيدى الذكيرى رضى الله عنه، وصار من واجبى أن أخدم قرية سيدى الذكيرى بكل ما أستطيع. وخروج النمس إلى عمل كهذا، يعيد إلى القرية سكينتها وهدوءها وراحة نفسها، واطمئنانها إلى أمنها. لهذا يجب أن نعمل على تحقيق هذا من أجل النمس نفسه، ومن أجل أهل القرية كلها.

قالت الغجرية:

– ربنا يبارك فيك يا ست الشيخة. ربنا يقدرك.

وسألت الشيخة عن أحسن طريقة للوصول إلى هذا، فقالت الغجرية:

– طريقة واحدة: الغندورة.

واتفقت الشيخة والغجرية على أن تتولى الغندورة اقناع النمس بالعمل فى الطرق، وركوب الحمار الحديد كل يوم.

وذهبت الغجرية إلى ست الناس، فقالت لها:

– هلا تزالين غاضبة على الغندورة؟

قالت ست الناس:

- يا ليتنى أستطيع. إنها ابنتى يا سبيلة.

قالت الغجرية:

- وهلا تسامحينها؟

قالت ست الناس:

- أسامحها يا سبيلة. حاضر. أسامحها.

وكانت سبيلة قد رتبت الأمر، مع كايداهم وفرحات، فد خلت الغندورة على أمها، بعد أن سمعت منها هذا الكلام الحنون، وارتمت على صدرها تبكى وتقبل وجهها ويديها.

وقابلت ست الناس الدمع، بدمع آخر، والقبلات بقبلات أكثر. وبدأ بينهما عتاب.

- أنت لا تهونين علىَّ يا أمة..

- ولا أنت تهونين على يا غندورة.

- لا تلومينى يا أمة!..ألست مثلك وشبيهتك؟

- لكنك قليلة الأدب... وحلوة.

وهل الحلو يكمل...يا أمة؟

- لكنك كنت طويلة اللسان وكذابة ومفترية!!

- المثل يقول يا أمه: "اكفى الجرة على فمها...".

- "طيب بس يا كلبة...".

- الله!! أليس النمس زوجى؟ أنت لم تجربى يا أمه. النمس محبوس يا أمة!

وتدخلت الغجرية تقول:

- ومن أجل هذا طلبتك أمك. أمك عندها حل يخرج به النمس حالاً...

وعجبت ست الناس من المفاجأة ونظرت إلى الغجرية مذهولة، فنظرت إليها الغجرية ترجوها السكوت. ومضت تقول:

- إنما الأول قولى: هل أنت متمسكة بالبلد؟ لو فيه فرصة للنمس، ليلتحق بعمل فى الطريق، "ريس كبير" ويأخذ أربعة جنيهات كل شهر، ولا زرع ولا قلع، ولا فلاحة ولا يحزنون. أليس هذا أفضل؟

قالت الغندورة: يا نهار يا غجرية!! ونترك بلدنا؟

قالت الغجرية: قطعت البلد ومن فيها.

قالت الغندورة: قطعت قطعت، لكن... إذن يكون الفلاحون قد غلبونا وطردونا من بلدنا.

قالت ست الناس: يا بنت اعقلى. وماذا ستفيدين من كل هذا؟

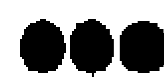
قالت الغجرية: لابد أنها تريد أن يستمر النمس محبوساً.

قالت الغندورة: يا شيخة حرام عليك. أنا أريده يخرج الآن، قبل غد.

قالت الغجرية: إذن فكرى... ضعى عقلك فى رأسك أحسن.

وقالت ست الناس: وإلا تكون هذه الحالة أحسن لك.

قالت الغندورة: يعنى يسيب الزرع والقلع والغيط ودوشة أهل البلد؟ الله - -! أى والله يا أمه، و"نروق ونتخلص من الدوشة!! آ.. وماله.. ما هو أحسن"!!



وقال له العمدة وهو يطلق سراحه:

- اسمع يا فرج يا نمس. أنت خارج من الحبس الآن، بشرط ألا تكون لك صلة بالبلد ولا بالغيط ولا بالناس بعد هذا. أبوك الحاج عبد الوارث وقف الأرض من بعده على

الجامع، وأعلن أنه برىء منك ليوم القيامة. أهل البلد أصبحوا لا يطيقون أن يروك. أهلك وأصدقاؤك أدركوا أنهم كانوا منساقين وراءك، وأنك كنت طائشاً بلا عقل. والآن ستذهب إلى دمنهور، وستقابل هناك مديراً كبيراً له سلطان كبير فى تفتيش الطرق والكبارى ليعينك فى الطرق. فاهم؟! بعد هذا تعود إلى البلد لتتعلم ركوب الحمار الحديد. الجوهرى سيشترى الحمار الحديد. لقد أوصيته أن يشترى واحداً "عمولة على قدك". وهو تكفل أيضاً بتعليمك كيف تركبه. أنا كنت مصراً على أن تغادر البلد فوراً، لتعيش حيث تعيش، بعيداً عنها لا تعرفك القرية ولا تعرفها، لكن أهل البلد الذين أسأت أنت إليهم توسطوا لك لتعيش فى دارك مع امرأتك، وقالوا إذا كان سيخرج قبل طلوع الشمس، ولا يعود إلا المغرب، فلا بأس من أن يستمر فى داره. المهم ألا تكون له فى البلد مصالح توجد بينه وبيننا مشكلات. ناس كرماء ومتسامحون، ومن أجل هذا فإن الله معهم دائماً.

ولم ينطق النمس بحرف. سمع كلام العمدة، ومضى مع زوجته إلى بيته، وفى الصباح كان يركب القطار إلى دمنهور، ليقابل المدير الكبير بتفتيش الطرق والكبارى.

لكن عقله كان مشغولاً جداً بالحمار الحديد!

هو... فرج النمس، سيركب الحمار الحديد!!

ويلف قدميه بالجنزير، فتدور العجلتان الكاوتش. ويجرى الحمار الحديد!

الله! وجلبابه الكشمير، ماذا يفعل به؟ سيلف حول الجنزير، فلا يدور أو يقطع الجلباب!

هل يخلع الجلباب؟ يا خبر! ويركب الحمار الحديد بالسروال؟! وغفا فرج النمس فى القطار، فرأى فيما يرى النائم، أنه يحاول ركوب الحمار الحديد، فيقع مرة على الأرض، ومرة يجد الحمار الحديد هو الذى يركبه. يقع ويقع الحمار فوقه... أنت إذن الحمار يا نمس، والحمار الحديد يركبك!!

وأخذ يضحك فى حلمه، وهو يفكر فى الطريقة التى يرفس بها الحمار الحديد، إذا غضب أو استفز!! ألا يرفس كالحمار الذى ليس حديدا؟! لكن الحمار الذى ليس حديداً يرفس بالقدمين الخلفيتين، وهذا كله حديد وكاوتش، وليس له إلا عجلتان إثنتان!! فما كان أجدى للذين عملوه أن يجعلوه بأربع عجلات ليرفس بالعجلتين الخلفيتين؟! مغفلون!! مغفلون، تفوتهم أشياء بسيطة كهذه.. من الغفلة!!

وزاد ضحك النمس، حتى كاد يصبح قهقهة عالية وصاخبة. عندما أخذ يبحث عن جواب لشىء آخر خطر على باله.. كيف ينهق هذا الحمار الحديد؟ ألا ينهق كالحمار الذى ليس حديداً؟! لقد سمع أن للحمار الحديد جرسا يرن، لكن هذا شىء والنهيق شىء آخر!! كان لابد لهم من طريقة يجعلونه بها ينهق كالحمار الذى ليس حديداً.

وشىء آخر دار فى خلده لكن فى حياء.

هل هناك حمار حديد وحمارة حديد؟!

يعنى هل فى الحمير الحديد ذكور وأناث؟!

وإلا فكيف إذا تتكاثر الحمير الحديد؟

وأخذ يستعيد أشكال حميرهم الذكور والأناث، وكيف كان يجمع الأولاد ليتفرجوا على منظرها وهى... تتكاثر... حتى الحمير تعرف الحب، وتعبر عن الحب بالنهيق ثم تغلى مما فيها من الشوق، ثم تصل إلى أشد حالات التوتر والانفعال. هل الحمير الحديد أيضاً تعرف هذا كله؟ انهم يصنعونها لتتكاثر، بلا حب ولا نهيق، ولا شوق، ولا توتر ولا انفعال! خسارة!!

وصحا النمس بعد هذه الرؤى من غفوته، فوجد نفسه قد وصل إلى دمنهور، فتوجه إلى تفتيش الطرق والكبارى، وطلب أن يقابل المدير. المدير الكبير الذى سيعينه "ريساً كبيراً".

- مأمون بيه؟ أنت تعرفه؟

- أنا قادم لأقابله؟

- إنه المفتش. "هيه سايبة"؟

- إنه ينتظرنى.

- يا... خى... ينتظرك أنت؟

- طبعاً، وأنا قادم من البلد لأراه.

ولم تجد محاولات النمس شيئاً، ويئس من أن يرى "البيه المفتش"، لولا أن رأى باب مكتبه يفتح، فيهب الجميع واقفين، ويخرج المفتش يودع زائراً كان عنده، ولا يضيع النمس وقته، فيتقدم منه وهو عائد إلى مكتبه ويقول له أن العمدة أرسله إليه ليعينه فى الطرق والكبارى.

ولم يكن المفتش على علم بهذا العمدة، ولم يكن يعرف ماذا يقصده هذا الفلاح الساذج، لكنه أراد أن يتسلى قليلاً معه، فأخذ يسأله أى عمدة، وعمدة أية بلدة، ونوع العمل الذى قال أنه سيلتحق به.

وكاد المفتش يستلقى على ظهره من الضحك، والنمس يقول له "ريس" العمل الذى سيلتحق به، هو "ريس كبير". آ... هكذا قال العمدة عباس.

وعاد المفتش يسأل عن بلدة النمس، وأى مركز تتبعه، فلما قال له إيتاى البارود، صاح يسأله:

- آ... أهو أنت؟ تعرف المأمور ناجى بيه سلطان؟

وفرك النمس ذاكرته وذكرياته وأخذ يسأل نفسه:

- المأمور ناجى بيه سلطان؟! أيكون هو.. لا لا.. غير معقول. لكن لم لا؟ ان للحاج سلطان ولدين وبنتا من الست قمر، ويقولون أن أحد الولدين صار ضابطاً كبيراً. لكن مأمور؟! لأ.. لا أظنه وصل إلى مأمور... أبداً.

وبينما النمس لا يزال يفرك ذاكرته وذكرياته، كان البيه المفتش يقول:

– ناجى بيه صهرى. إنه أخو الست حرمى. على كل حال انتظر. ونادى المفتش أحد الموظفين، وطلب منه أن يستكتب النمس طلباً.

وعاد النمس إلى البلد"ريساً كبيراً" كما قال له العمدة، وأصبح عليه أن يستكمل أوراقه ويؤدى كشفاً طبياً، ويتعلم ركوب الحمار الحديد.

لكنه عاد أيضاً بأشياء غامضة عن المفتش وصهره مأمور إيتاى البارود، والست قمر، وعلاقة عباس العمدة بهؤلاء جميعاً.

حتى زوجته الفندورة لم تستطع أن تجيبه، ولا أن توضح له شيئاً.

على أن الحمار الحديد شغله عن هذه الأفكار.

نظر إليه فوجده شيئاً معقداً جداً. شىء منه يلمع، شىء منه "مطفى" وجرس يرن، ومنفاخ معلق جنبه، وشىء من أمام اسمه "الجدون"، يدير الحمار الحديد ذات يمين وذات شمال، ثم شىء تحت الكف اسمه "الفرملة"، يضغط عليها فيقف الحمار الحديد.

هذا شىء معقد جداً. وهل أستطيع أن أركبه؟ "والله ورحت فى داهية يا فرج".

ولم يتصور النمس، أنه سيتمكن ذات يوم فى حياته أن يركب هذا الحمار الحديد. إنه سيقع من فوقه، ومن يدرى قد يقع مرة فى الرياح، فيكون مصيره مصير "أبو سريع".

وذهب تفكيره إلى "أبو سريع". ربما!! من يدرى؟! ربما كان يرحب حمار حديد هو الآخر، فوقع فى الرياح واختنق فمات. لكن. الله! ألم يجدوا جثة "أبو سريع" موثوقة القدمين واليدين؟ ألم يجدوا حجراً ثقيلاً معلقاً فى رقبته؟!

وعاد يفكر فى هذا الحمار؟

وخاف أن يقترب منه! حتى لمسه كان عنده شيئاً يدعو للحذر!! وغافل النمس الناس، فأخذ يتحسسه وهو خائف! يقدم يداً ثم يسحبها ويمد كفه يتحسس الحمار، ثم يسرع يسحبها من فرط التوجس.

ولولا أن النمس شغل بالأوراق والكشف الطبى، لأصبحت حياته لا تحتمل. ولقد صارت فعلاً شيئاً لا يحتمل، فما أن أتم كل شىء. حتى قالوا له: انتظر خطاباً رسمياً مسجلاً بعلم وصول، يصلك بالتعيين خلال أيام. وقال العمدة: إذن.. يتعلم ركوب الحمار الحديد فى أثناء ذلك.

وأقبل الجوهرى العفريت، فركب الحمار الحديد، ولف رجليه بالجنزير الحديد، ويداه على الجدون تحركان الحمار، وتحفظان توازنه، وجرى الحمار كالرهوان.

قال الجوهرى:

- أترى؟ سهل... سهل جداً. جرب.

واقترب النمس من الحمار الحديد، وقد غطس فى عرقه.

البلد كلها تجمعت لتتفرج على النمس، وهو يتعلم كيف يركب الحمار الحديد. وكان الجو لطيفاً ودورات الساقية تضفى عليه رقة وشاعرية. وهذه الأشجار التى تلتف حول الساقية وحول نفسها تضفى على المكان جمالاً خاصاً. لكن ذلك لم يؤثر على النمس.

إنه غارق فى بحر من الخوف والعرق!

ولم يكن يرى كل هؤلاء الناس حوله!

ولم يستطع أن يتراجع، فالدنيا كلها تتطلع نحوه، والعيون كلها مثبتة فيه...

وتوكل على الله، فأمسك بالحمار الحديد، ومال به كما يفعل الجوهرى ثم لف رجلية حوله، واندفع بالحمار الحديد محاولاً أن يثبت عليه، ثم يفعل ما فعله الجوهرى تماماً.

لكن النمس وجد نفسه فى التراب، ووجهه معفر، وعيناه لا تريان حتى نفسه!!

وجرى الناس نحوه يحملونه من فوق الأرض، ويساعدونه على الوقوف. وكاد يجرى من الناس ومن نفسه! مستحيل. ركوب هذا الشىء مستحيل.

- والجوهرى... لماذا يركبه ويجرى به؟

- الجوهرى جن. الجوهرى عفريت. الجوهرى شيطان.

وكان عليه أن يحاول مرة أخرى. البلد كلها تريد أن تراه يحاول مرة أخرى. ووضعوه هذه المرة فوق الحمار الحديد، وساروا حوله يسندونه ويدفعونه حتى لا يقع. ثم دفعوه إلى أمام وتركوه!! وكانت أقسى لحظات مرت بالنمس.

إنه يجرى فوق الحمار الحديد. ووضع يديه على الجدون فمال إلى يمين، فارتمى النمس فى حقل من حقول البرسيم، والحمار الحديد فوقه.

وضحكت البلد كلها على النمس، لكنها كتمت ضحكتها فى داخلها، حتى لا تجرح النمس.

وكان هذا يكفى لليوم الأول.

وبينا كانت القرية منصرفة إلى أعمالها ومشاغلها، تردد بين حين وحين كلاماً عن الحمار الحديد والنمس، والجوهرى، كان النمس مهموماً أشد الهم.

إنه يخاف من غد. البلد ستخرج فى غد، لترى النمس فى يومه الثانى، وهو يتعلم ركوب هذا "المدعوق"، الحمار الحديد.

ولم ينم من خوفه. ولم يرد على الغندوره، فقد كان مشغولاً عنها بما ينتظره فى غد. سيقع على الأرض مرة ومرات. ومرة سليمة، ومرة جسيمة، والثالثة من يدرى؟ ربنا يستر!!

وجاء بعد غد، فلم يزد عن أمس إلا... أصبعاً!

وجاء بعد غد، ثم يوم آخر بعد بعد غد وأيام توالت، والنمس يتعلم كل يوم، حتى فوجئت القرية ذات يوم بالنمس يركب الحمار الحديد فعلاً.

وفرحت القرية بالنمس، كما فرحت بالجوهرى.

النمس أول واحد فى بلدنا يركب "حمار حديد"!

وارتفعت الأكف بالتصفيق للنمس، فأصابه التصفيق بخيلائه القديم.

ولم تكتف القرية بالتصفيق، لكنها أرادت أن تزيد من تقديرها للنمس، فأخذت تهتف له وللجوهرى، وتصفق وتهلل وأصواتها تتداخل وهى تهتف "بحياة النمس مع الجوهرى. يحيا النمس مع الجوهرى".

وعندما اطمأن العمدة والقرية إلى أن النمس قادر على ركوب هذا الحمار الحديد، وأنه يستطيع أن يذهب به إلى مكان عمله اليومى على جسر الرياح "ريساً كبيراً" يرش الطريق، ويتنقل بسهولة من مكان إلى مكان، أذنت له بالتوكل على الله إلى عمله.

وفى العصر، وعلى جسر الرياح، من أول الجميزة العتيقة التى تقبع على أول الطريق القادم من محطة السكة الحديد، والمنحدر إلى البلد، فى مقابلة الموردة..وحتى آخر زمام البلد من الناحية البحرية، بعد الساقية بمسافة، هناك، تجمع أهالى القرية ليروا النمس يركب الحمار الحديد، قبل أن يستعمله غداً. آخر تجربة يقوم بها، على جسر الرياح.

وكان العمدة هناك جالساً تحت خمائل الشجر المتداخل عند الساقية.

وكان شيخ الخفر مدبولى هناك يجلس بجانب العمدة، وحولهما الخفر.

وكان الجوهرى كذلك هناك ليلقى للنمس بنصائحه الأخيرة.

وعدد من النساء كن هناك يسترقن النظر، ويشاركن فى الإعجاب بالنمس وقدرته الخارقة، وكيف استطاع أن يركب الحمار الحديد، ويجرى به أسرع من الحصان.

حتى أطفال القرية خرجوا ليروا النمس فى آخر تجربة له.

بل أن ست الناس حماته، جاءت إلى الشيخة مع سبيلة الغجرية وكايداهم ووراءهن فرحات، ليجلسن عند الضريح، يشاهدن النمس من بعيد.

وجاء النمس، وبغير مساعدة أحد، وضع الحمار الحديد بين رجليه الطويلتين، ثم وثب فوق المقعد، وأدار الجنزير، فتحركت العجلتان الكاوتش، وجرى الحمار الحديد فى

سرعة، والجرس يرن بين الحين والحين ينبه الناس إليه.

بينما أهل القرية معجبون يصفقون ويهللون ويهتفون ويكبرون.

والنمس يزهيه هذا الاستقبال، فيضغط على الفرامل فيقف الحمار الحديد، ويترك الفرامل فيمضى الحمار الحديد، ويدير الجدون عن يمين أو عن يسار، أو يدور بالحمار عائداً. وهكذا فى ثقة وتمكن.

وطلب العمدة من النمس أن يعود إلى داره بالحمار الحديد، فاستدار وعند الجميزة العتيقة، هبط مع الطريق إلى القرية ماراً بضريح سيدى الذكيرى، فقرأ له الفاتحة وهو يمر به... بينما حماته تنظر إليه فى عجب، والشيخة تفيدة تدعو له بالهداية والتوفيق... وسبيلة الغجرية تتململ فى جلستها، وهى تصيح، ولا تصدق عينيها!!

□□□

٤

يا سيدى يا ذكيرى: بركاتك!

يا سيدى يا ذكيرى: خلصنى!

يا سيدى يا ذكيرى: تعبان... أنا تعبان!

أنا مرة ممدوح، ومرة المعلم بيومى، ومرة الشيخ عبد الرءوف!

مرة لابس بنطلونا وقميصا، ومرة لابس صياد سمك، ومرة شيخاً بذقن طويلة، ومسبحة تتدلى فى تقوى!

وعندما أكون فى البنطلون، يتعذر على الذهاب إلى بيتى، ومقابلة زوجتى وابنى جلال. يجب ألا أدخل بيتى إلا وأنا معلم. صياد سمك، تفوح منه رائحة زفرة. فإن دخلت فى الجبة والقفطان، ووضعت العمامة الخضراء على رأسى، فالناس تسألنى الدعوات، وتقبل يدى!

وفى كل حالة، يصبح على أن أنسى الحالتين الأخريين، لا أذكرهما بشىء ولا أعيش فيهما. لا أردد الألفاظ التى أرددها وأنا شيخ، إذا كنت صياد سمك! فإن أصبحت "أفندى"، من الفدائيين "المستبيعين" فهذه حالة أخرى، لها لغتها، ولها كلامها، ولها سلوكها الخاص بها.

تمزقت يا سيدى يا ذكيرى. حالتان إثنتان تكفيان لأن تمزق الجمل. الكوب الزجاج ينكسر إذا تعرض لحالتين متناقضتين. من السخن إلى البارد مثلا ينكسر. وأنا لى ثلاث حالات.

وكم اختلط على الأمر! وكم اضطربت أمورى!

حتى مع ابنى يا سيدى يا ذكيرى، تتناقض خطواتى وتضطرب كلماتى!

تصدق بالله. والله مع امرأتى، أقع فى الكلام، وأنسى أحياناً من أنا!

إلى متى يا رب؟ إلى آخر عمرى؟

يرضيك هذا يا سيدى يا ذكيرى؟ هل هذا شىء يرضيك؟

وظل الشيخ عبد الرءوف واقفاً أمام الضريح، رأسه مستندة إلى الحاجز المحيط به، وساقاه مسترخيتان، تكادان من الضيق أن تهبطا به على الحصير.

كان وحده. فى ذلك اليوم كان وحده.

الشيخة تفيدة ذهبت لزيارة الست راضية زوجة الشيخ مختار، وصحبت معها "أبو عوف" الصغير، وظل وحده فى زيه الجليل، يتعبد داخل الضريح، ويؤدى بعض الخدمات يسلى بها نفسه، حتى تعود. لكنه وجد نفسه اليوم فى حالة تعسة وشعر أنه قد بدأ يضيق بالتعدد الذى يعان يه.

كل واحد... واحد! وأنت يا ولد ثلاثة!

آ... أعرف أن جلال كان ثلاثة هو الآخر، لكن جلال كان شيئاً آخر، وقد استراح على كل حال!

تفيدة أيضا إثنتان. لكن من قال انها سعيدة بهذا؟

يا سيدى يا ذكيرى: الرحمة!

أريد أن أرتاح، على جنب واحد. اختر لى حالة واحدة، بشرط الا أغيرها أبداً. لا شرط لى ولا اختيار. أنا ولدت "ممدوح"، لكن هذا ليس مهماً. أنا صرت الشيخ عبد الرءوف، ثم بيومى، وفى الوقت نفسه أنا لا أزال "ممدوح" يا ناس، روحى قد تجاوزت الحلقوم.

وسالت دموع ممدوح على حاجز الضريح، فأسبل جفنيه وغفا، والدموع لا تزال تنحدر على خديه.

ولم يدر هل طالت غفوته، أم أنها لم تكن إلا لحظة.

وأيا كان طولها أو قصرها، فقد كانت مليئة ومزدحمة ومتداخلة. لقد رأى نفسه فى شارع قصر العينى يشارك الطلاب حركتهم، ويدبر معهم، ويتحرك معهم، ويشير عليهم بما يجب أن يفعلوه ليتحقق الحلم الذى عاشت من أجله الأجيال، ويخرج الانجليز من مصر.

ورأى فيما يرى النائم خوذات وعصياً وعساكر على ظهور الخيل، وسيارات يقفز منها عساكر على رءوسهم خوذات حديد، وفى يمناهم سلاح وفى يسراهم دروع.

وسمع فيما يسمع النائم طلقات، وصراخاً، وأنيناً، وهتافات.

وبدا له جو رهيب معتم، ثقيل، يكتم على الأنفاس، ويكاد أن يخنقه.

وصاح يستغيث، لكن لا مغيث، وأخذ يجرى من نفسه، ومن الخطر، ومن الرعب الذى أحاط به كأنه كابوس، حتى وصل إلى القهوة، فارتمى على أول مقعد، فأسرعت إليه المعلمة وردة النقرزان، قلقة عليه، مضطربة من أجله. ولما رأته على هذه الحال أسرعت تحضر كوب ماء وأخذت ترشة على وجهه، وهى تصلى على البنى.

وعادت إليه الحياة قليلاً قليلاً. رأى أمامه الناس كأنهم أشباح.

هذا المعلم مبروك الحنطور، وهذه ناعسة، وعدد من أبناء المنيرة ممن يعرف أو لا يعرف، وكلهم قلق عليه.

وعندما زالت عنه هذه الغمة، وفتح عينيه بدأ يرى كل شىء تماماً.

ونظر أمامه، فوجدها: هى المعلمة وردة والمعلم مبروك وناعسة وآخرون.

تماماً... الحلم!

لكنه لم يكن فى المنيرة، ولا فى القهوة.

انه هنا لايزال، فى ضريح سيدى الذكيرى، وكلهم هنا معه. وارتبك، واضطرب، وتلعثم، وأخذ يفرك عينيه ليتحقق مما يراه.

وضحكت المعلمة، وهى تربت على كتفه، ثم قالت:

- تعال... انهم يطلبونك. لتسافر حالاً، إلى مصر.

قال وكأنما لا يزال غافياً يحلم:

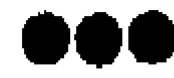
- إلى شارع قصر العينى؟

قالت وهى تعجب:

- غريبة!! وكيف عرفت؟ والله لولا السرعة ما تدخلت.

قال:

- الحلم تحقق! صدقينى. أنا أيضاً "الشيخ عبد الرءوف".



وارتدى زى المعلم بيومى وذهب إلى بيته، ليرى زوجته الحلوة، ويقبل ابنه جلال.

جلال: يا أعز اسم حملته هذه الأرض. أنت أيها الأستاذ والمعلم والبطل. يا خفقة القلب المحروم! يا همسة الروح الحيرى! يا نداء من الكبرياء! يا كلمة حق محبوسة فى الحلوق، لم ينطقها أحد بعد! يا وثبة عدل مكتومة فى الضمائر، لم يتحرك بها أحد بعد! يا نفحة طيبة مستكنة فى السرائر لم تفح رائحتها على الناس بعد!

وكان لا مناص من أن يكون فى بيتى سمى لك، فسميته "جلال"، ليصبح فى البيت جلالان أخوان: ولد من صلبى، وولد من صلب الشحات. أما ولدى، فهو يحمل اسمك الصريح منذ ولدت. وأما ولد الشحات، فهو يحمل اسمك، وأنت شبل، تهتز أرض هذه الناحية تحت قدميك.

وعاد ممدوح يقول لنفسه وهو يخلع ملابس الشيخ ليدخل فى ملابس المعلم بيومى: وبعد قليل تصبح شخصاً جديداً، لا يمت بصلة لا للشيخ ولا للمعلم.

ستعود إلى أصلك ممدوح الأعرج، الذى لفظته المدارس ورحبت به سلطات الاحتلال متطوعاً للدفاع عن شرف التاج البريطانى!!

لكنك مت يا ولد! أنت سجلت بين الأموات يا ممدوح، ولابد أن السلطة البريطانية دفعت لأهلك عنك التعويض اللازم.

نعم وأصبحت لا تستطيع أن تظهر باسم ممدوح أبداً.

تزور؟! جائز تستطيع التزوير. تزور شيكاً أو وثيقة أو مستنداً. لكن تزور ميتاً. فتجعله حياً؟! تبعث الموتى، أنت أيها الصعلوك؟

وعندما خطر ببالك أن تستأنف دراستك فى كلية الحقوق، شعرت أن ذلك سيعرضك للخطر. ومن يدرى قد تحاكم بتهمة الخيانة العظمى والهرب من القوات المحاربة فى أثناء القتال!! وستعتبر طابوراً خامساً تعرض الإمبراطورية للضياع، ووراءها مبادئ الحق والعدل والحرية!!

وظللت تتحرق شوقاً لتنتسب للجامعة.

أم تراك كنت تريد الانتساب إلى الجامعة لأمر ما! ليصبح لك حق الدخول والخروج بحرية، دون أن تثور حولك الشبهات! يا خبيث!

وبدا لك فى لحظة ألا أمل.

لكنك عدت تستعيد ماضيك الهائل فى مراحل التعليم. وتهيأت لك الفرصة عندما وافقت المعلمة على فتح فصول لتعليم الصيادين القراءة والكتابة ومبادئ الحساب. عندئذ بدأت تستذكر ما ضاع. وقلت لنفسك فى ثقة: وما المانع؟ أدخل امتحان البكالوريا، من منازلهم، فإن نجحت التحقت بالحقوق مرة أخرى، من جديد. يا سيدى! يعنى العمر وقد ضاع، فهلا يصعب عليك إلا هذه السنوات؟! بالمرة!!

وذاكرت. ونجحت. والتحقت مرة ثانية بالحقوق باسم بيومى... وهأنت ذا طالب متفوق وممتاز، لا تحضر إلا لماماً، لكنك لا تترك فرص المظاهرات والتدبيرات، والمشاركة فى تنظيم الانفعالات. الانفعال الطائش كالعيار الطائش، لا يصيب.

صفة جديدة رابعة! بلاوى!

تلميذ. أنت أيضاً تلميذ. شيخ وتلميذ وصياد سمك... يا ممدوح يا أعرج.

هأنت ذا صرت صياداً.

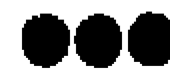
تذهب الآن إليها يا صياد. خضرة! آه يا حلوة يا سمراء، يا خضرة! يازوجتى ونور حياتى. يا أمى وأختى وحبى!

ونسيت يا نذل؟ نسيت عمرك كله؟ نسيت مديحة؟

ومن قال أنى نسيت؟ ان مديحة هى الأصل، وخضرة هى... "إيه"؟ الخيال؟! الظل؟ لا لا... مديحة هى اللون الرائع لأجمل لوحة فى الدنيا، وخضرة هى الغراء الذى يثبت هذا اللون على اللوحة... لا اللوحة تستغنى عن اللون، و إلا تصبح كالحة، وتنتهى، ولاعن الغراء، و إلا يصبح اللون معرضاً للزوال والاهتزاز!

وأنت؟.. اللوحة.. أو اللوح!!

وضحك، وهو يعدو نحو البيت.



ان بيت المعلم بيومى قريب من الحلقة. المعلمة أرادت هذا، ليكون قريباً من عمله.

ويضحك المعلم بيومى وهو يقول: حجة. انها حجة! انها تريد أن تبعدنى عن البلد والسلام. ان القرية مفتوحة، لا تعرف الأسرار، ولو أنى أنتقلت بعد زواجى من خضرة لأعيش معها فى بيت الحاج محروس وأم الشحات والأولاد، لأصبحت كل أمورى معروفة ومكشوفة. طبعاً، والقرية فيها ذكاء ودهاء، مغلفة بالصمت ويمظهر يبدو كأنه الغباء.. مساكين تعلموا هذا من الزمن، ومن المحن، ومن العذاب.

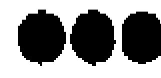
حتى فى البيوت مزقوك يا معلم بيومى.

الناس كلها لها بيوت، كل واحد له بيت، إلا أنت لك بيتان، واحد لخضرة، والآخر لحماتك أم الشحات والأولاد. والمعلمة أيضاً أرادت هذا.

تكريم.. هذا تكريم.. حجة أيضاً فى شكل تكريم! لكنها حجة ضرورية، لأنها قللت العيون التى ترقب، والتى تنظر، والتى قد تكشف أشياء يجب أن تظل سراً مكتوماً. والزوجة على كل حال زوجة تكتم أسرار زوجها. قد تلاحظ عليه شيئاً من الارتباك أو الاضطراب، لكنها سكن له. تدارى عنه وتخفى عيوبه. شىء واحد لا تخفيه، أن تكتشف خيانة... لها! يخون البلد، بسيطة! يتآمر على الناس، سهلة! لكن يخونها هى، يبقى نهاراً أسود من الكحل!

وضحك وهو يذكر خضرة الحلوة السمراء، وكاد أن يضم إليه هواء المكان! لذيذة، لذيذة المضروبة، ورشيقة، وخطوها وضحكها وحديثها، كأنه قطعة موسيقية يعزفها..من؟! ماذا تقول يا ولد؟... من يعزفها؟ هل هو كفر أن أقول يعزفها.. رسول هبط من السماء؟!

هكذا.. صرت المعلم بيومى.



وذهب إلى بيته للسلام قبل السفر.

وأشاحت خضرة عنه بوجهها... حتى هذا منها جميل وفاتن!

وقالت له: أنت تسافر كثيراً هذه الأيام؟ لماذا؟ تصيد السمك فى مصر؟!

قال لها: ليس فى الدنيا سمك ألذ من سمك هذا الرياح. وليس هناك صيد ألطف من الصيد.. معك.

قالت فى دلال، وفى عتاب: كنت تنتظر هنا. تبقى هنا.. معى.

قال وهو يضمها فى حنان: وهل أكون حيث أكون، إلا معك؟

قالت فى ألفاظ تتكسر على شفتيها، كقطع السكر: "يا أخى!... كلام"!

قال وقد ملكته عاطفة جارفة: والله أبداً . حقيقة. هذه حقيقة. لا صدقينى، أنت معى فى مصر، وفى أى مكان أكون فيه. هنا أو هناك، أنت معى... وستكونين معى حتى لو مت!... أنت معى، وستظلين معى يا فاتنة يا سمراء. لكن أخذل المعلمة؟ هل يرضيك أن أخذل المعلمة؟ انها تثق فى. انها تكلفنى بأعمال خاصة بها. لا صيد ولا سمك ولا يحزنون، لكن مسائل خاصة بالقهوة فى المنيرة أو المحلات الأخرى أو البيت الذى تملكه، أو المعلم مبروك الحنطور. وأنت تعرفين يا خضرة أن المعلمة تستحق كل شىء. انها إنسانة والمعلم مبروك انسان مثلها.

قالت وصوتها من رقته يذوب فى جو الغرفة: طيب. لاتغيب طويلاً.

وفى خفة العصفور، خرج المعلم بيومى يحمل "جلال" بين يديه ويقبله، ومر بحماته أم الشحات ليسلم عليها ويسألها عما إذا كانت تريد شيءياً من مصر، غير الفواتح لأهل البيت. وقبل "محروس" وتوفيق وشبل، ومضى كالسهم إلى القطار.

وفى قهوة بالمنيرة جلس ممدوح، أفنديًا يرتدى البدلة. الآن هو طالب بكلية الحقوق، واسمه بيومى، وله مكانة ممتازة بين صفوف الطلاب. خطيب رائع برغم أنه أعرج. أما تحليله للحوادث وإدراكه للسياسة ومتابعة للحكم وعيوب الحكام فهو فى ذلك فارس لا يشق له غبار. ولكم كان الطلبة يعجبون به عندما يناقش الأساتذة فى مواد تبدو لهم كالطلاسم. فى القانون الدستورى، والقانون العام والاقتصاد، كانت له مناقشات مع الأساتذة لفتت أنظارهم إليه. على أنه ليس مجرد تلميذ مجتهد. ان نشاطه العام هائل. فى جمعيات الخطابة والصحافة يكتب ويناقش ويحاضر، ويشترك فى المناظرات، ليفحم خصومه ويقابل بالتصفيق.

وكان معه على القهوة عدد من أفراد الجمعية.

ماذا يدور الآن يا أولاد؟ قولوا لى ماذا الآن؟

ورووا له أن الحالة فى الجامعة والمعاهد والمدارس تغلى، وأن الغليان وصل إلى حد الفوران، ولا حديث للطلاب، إلا أن الانجليز تنكروا لوعودهم كالعادة. ماذا يهمهم؟ كانت الحرب هى التى تهمهم، وقد كسبوها. لماذا إذن يحافظون على الوعود والعهود؟ كانوا يتملقون الشعوب والحكومات، عندما كانوا محتاجين. أما الآن، فليسوا محتاجين لأحد.

ونسوا الوعود، ونسوا الأيام السود!

نسوا أيام العلمين، وهم يفرون كالقطط المذعورة!

نسوا أيام الحرب، والتموين الذى استولوا عليه لجنودهم!

نسوا حرصهم على الناس بالاشاعات والروايات والآمال المزيفة!

لكن نحن نستحق. نستحق هذا وأكثر منه. نحن الذين أطمعناهم فينا! العملاء أطمعوهم فى البلد، وأعطوهم أكثر مما يستحقون.

بينما كان أقصى ما يطمعون فيه أن يجدوا حكومة لا تخاصمهم، وجدوا من يقول أننا تزوجناهم زواجاً كاثوليكيا لا ينفصم!! وبينما كان لأقصى ما يريدون أن يحصلوا من الحكومة على احتياجاتهم من التيسيرات والتموين بالثمن، وجدوا من يتطوع بأن يعطيهم ما يريدونه بالأجل، وفوقه أموالاً سائلة... ذهباً!! قرض قديم عمره أكثر من خمسين عاماً، تضاعف بالأرباح المعقدة والمركبة وطرق النصب والتحايل. قرض مسروق خدع فيه جيل من السذج يتعامل مع فرقة من البلهونات والأفاقين، ويتضاعف بصورة بشعة بلا منطق ولا قانون... وبرغم ما تجمع للبلاد من حقوق آجلة، عن خدمات ومواد أخذوها بسعر التراب، فإن القرض القديم يدفع ذهباً! ويوضع حاجز كبير جداً بين القرض القديم الذى تضاعف نهباً، وبين الحقوق الجديدة، التى أخذت قسراً وبسعر الشىء المسروق. سرقة من الناحيتين: فى مضاعفة أرباح القروض، وفى الهبوط بحجم الحقوق. ومع هذا فهناك فروق لصالح هذا الشعب المسكين. ومع هذا، واحتراما للحاجز الموضوع، يتقرر إعادة القرض القديم أولاً.. احتراماً لشرف العهد وكرامة الوعد، وتنفيذاً للمواثيق!! ويقولون فيما يقولون ان هذا الدين كان دائماً سبباً من أسباب الوجود

البريطانى فى هذه الأرض، وأنه أطال مدة الاحتلال، وأنه كان نقطة سوداء فى لوحة الشرف القومى! يا نهار أسود!! كأنما كان هذا القرض - ولا سواه - هو سبب العار!! وكأنما كانت بريطانيا العظمى ستنسحب من هذه البلاد، لو لم يكن بيننا وبينها هذا القرض المصنوع!!

ولكى يصحح الحاكم تاريخ مصر، ويزيل منه هذا العار، فإنه يقرر أن يدفع هذا الدين القديم... نقداً ذهباً!! وفى أثناء الحرب، حيث تتجمد الديون! لكنا أشرف من أن ننفذ ما ينفذه الناس. نحن ناس فينا مروءة وشهامة وكرامة، ولا نقبل على ضمائرنا هذا العار!! وهذه الحملة المسعورة التى رتبت دفع الدين عن طريق اكتتاب عام، سمته القرض الوطنى!! نعم القرض الوطنى!! وطرحت أسهم وسندات، ودبرت الحملة بعناية ونشرت عنها الإعلانات فى الصحف ومنع أى تعليق ضدها، ووقع الناس فريسة خداع قومى محبوك الأطراف، وساعدهم على قبول الفكرة الجديدة ضمان الحكومة لأرباح السندات. وغطى القرض الوطنى!! بل ان من المغفلين من اعتبر الاحتفاظ بسندات القرض الوطنى خيانة، فاشترى وحرقها فى مكتب مسئول فى وزارة المالية!!

يا بلد! يا بلد! نحن الذين أطمعناهم فينا!

نحن الذين أعطيناهم فأسرفنا، بل أعطيناهم قبل أن يطلبوا منا!

ألسنا مستورين؟ ألسنا نريد الحكم؟ ألسنا نتنافس عليه؟ وطالما أنهم هم أصحاب السلطة التى تمنح الحكم، فلم لا؟!

يا بلد!.. يا بلد!.

لكن ممدوح مد قامته بعد أن استعاد هذا الكلام، وقال لأعضاء الجمعية:

- إذن يجب أن نلقن العملاء دروساً لا تنسى!

قالوا له:

- لكنهم كثيرون يا ممدوح.

قال:

- أعرف أنهم كثيرون، لكنهم كذلك جبناء، ويكفى أن نختار نماذج، منهم، وعندما يشعرون بأن مصيرهم قد صار مهدداً على النحو الذى يلقاه زملاء لهم، فلن يجرءوا على الاستمرار. ثم ان التيار الوطنى مضروب، يعانى من الهزيمة، ويلعق جراحه،ولا يجد ما يعوضه عما أصيب به من ضربات. وما لم نبدأ نعيد الثقة إلى هذا التيار، والأمل إلى القلوب المؤمنة التى تعمل بلا جزاء، فقد ييأس هؤلاء يأساً كأنه الموت.

قالوا:

- وما الطريق؟

قال:

- أنت يا حضرة المهندس الكيماوى تصنع لنا قنابل يدوية من كل الأصناف. وأنت يا حضرة الضابط تهرب لنا هذه القنابل وأنت فى زيك العسكرى. وأنت يا دكتور ترتب وضع هذه القنابل فى أقرب مكان من فناء كلية الطب، وأنتم تندسون بين طلاب الطب غداً لتحركوا المظاهرات فلا تفتر ولا تهدأ.

ونظر كل منهم إلى الآخر لا يفهم ماذا يريده. قال ممدوح:

- لا تكونوا هكذا أغبياء. المسألة أبسط مما تتصورون. مظاهرات فى الطب، وموضوع المظاهرات طبيعى ومشروع. الكلية ستحاول تهدئة الحال، وستفشل، ويجب أن تفشل. عندئذ سيتدخل حرس الجامعة ولن يسمع له أحد. ستعرف الكليات الأخرى ما يدور فى كلية الطب، وعدوى المظاهرات أسرع من عدوى الأنفلونزا. عندئذ إما أن تقوم مظاهرات فى الكليات الأخرى، أو يأتى الطلبة للانضمام لمظاهرة كلية الطب. يجب أن تخرج المظاهرات إلى الشارع. يجب أن ننقل الحركة إلى الشعب كله، فإذا اصطدمنا بالبوليس فيجب أن نكون على أهبة الاستعداد.

وانصرفوا على موعد لتنفيذ الخطة.

ولم تمض إلا أيام، وهبت المظاهرات، وانعقد فى كلية الطب مؤتمر، وكان بيومى الطالب بكلية الحقوق وعضو الاتحاد أحد خطبائه. بل وكان أول المتحدثين، لأنه خشى أن يترك الأمر لأحد العقلاء، فتهدأ الحركة، ويكتفى الطلبة بإرسال برقية إلى هذا أو ذاك! لكن بيومى كان عنيفاً وحاراً ومؤثراً فأصدر مؤتمر الطلاب عدة قرارات، وأصر الطلبة على ألا يهدأوا إلا إذا أنتزعوا حقهم بأيديهم.

الاستقلال ليس منحة أيها الزملاء. أبداً، ولا تصدقوا أن أحداً سيتصدق به عليكم. انه حق، والحق لا يمنح، ولكن ينتزع.

الكفاح والنضال، ليس كلاماً يقال، ولا هو شعارات تطلق، لكنه عمل دؤوب ومستمر، ولا يجوز أن نتصور أن أمة تستطيع أن تنعم بالحرية أو الكرامة إلا إذا كافحت وناضلت، ودفعت لذلك أفدح الأثمان.

ان شجرة الحرية لا تروى بالأحاديث، ولا تعيش بالأمل. ان ريها الحقيقى - ولا رى سواه - هو الدم. والذين يشفقون على أنفسهم من أن تخضب الدماء أيديهم، عليهم أن يبحثوا لأنفسهم عن مكان آخر، بين المستسلمين والضعفاء.

وما قيمة هذه الحياة أيها الزملاء؟ إن كنا نريد أن نأكل، فالحمير تأكل. وإن كانت غايتنا ألا نعطش أو نجوع، فالحشرات لا تعطش ولا تجوع. لكن إذا كنا نريد حقيقة الكرامة والعزة لنرفع رءوسنا فى كبرياء، فطريق ذلك هو أن نكون شهداء.

من الشهداء من ماتوا، فاستحقوا الرحمة والخلود. ومن الشهداء أحياء يموتون كل يوم، توجه إليهم رصاصات الأعداء، لتقتلهم، فتخطئهم، ليعيشوا ليوم جديد، يبحثون عن الموت، فتكتب لهم الحياة.

اللهم ان كنت كتبتنا عندك أذلاء، فامح اللهم ما كتبت، واكتبنا عندك مكافحين شهداء، نذود عنك وعن دينك بالنفس والروح.

ليس الدين أن نصلى فحسب، وليس الدين أن نصوم رمضان، ثم نطاطئ رءوسنا فى ذلة للكفار والأفاقين والعملاء. ان الله لم يخلق الناس ليذلوا. أبداً ولا خلق هذه الرؤوس

لتتحنى. لقد كرم الله الانسان، فإذا أذل أنسان نفسه فقد كفر بالله. والأمة التى تقبل الاستعمار والاستعباد أمة كفرت بالله سبحانه وتعالى، لأنها تكون قد فرطت فيما كرمه الله.

هكذا كان بيومى مؤثراً فى زملائه إلى حد أنهم نسوا كل شىء، إلا النضال والكفاح، والسعى للاستشهاد، تخلصاً من هذه الحياة الكريهة التى يتعرضون بها للذل!

وشهدت كلية الطب بعد ذلك أفواجاً من الطلاب يتجمعون فى الفناء. وارتفعت النداءات والهتافات، ولم يعد هناك ما يتردد إلا شىء واحد: تحيا الحرية يحيا الاستقلال. اخرجوا من بلادنا أيها المحتلون.

وكالعادة بدأت الكلية تتحرك. عميد الكلية وأساتذتها توجهوا إلى الطلبة يحاولون أن يهدئوا الحال. واجبهم! إن هذا واجبهم، يتقاضون عنه مرتبات آخر كل شهر! هكذا سرى بين الطلاب، ثم وصل إلى آذان الأساتذة.

وقال الأساتذة:

- اننا مثلكم وطنيون. اننا لا نقل عنكم وطنية.. غير صحيح أننا نهدئ الحالة حرصاً على مرتباتنا. أبداً اننا نناقش معكم فكرة واضحة قد نختلف عليها ولكن هذا الخلاف لا ينفى أننا وطنيون مثلكم. اننا نسألكم سؤالاً بسيطاً: أليس العلم من أهم أسلحة الكفاح الوطنى؟ هل يستطيع الاستعمار أن يبقى فى أمة متعلمة، تدرك واجبها؟

وهب بيومى يقول:

- نعم يستطيع يا أساتذة ويا أطباء. إذا سيطر على المتعلمين باسم المدنية والتقدم، فإنه يستطيع. الاستعمار يستطيع أن يجد الوسيلة للسيطرة، وهو قادر على أن تتفق وسيلته مع أى مستوى يريد السيطرة عليه. ثم لو أننا أخذنا بمنطقكم، فعلينا إذن أن نقبل الاستعمار مئات السنين حتى يتعلم كل أبناء الشعب ثم نطالب بالاستقلال. هذه خرافة أيها الأساتذة، أيها الأطباء. الاستعمار كالوباء، لا يمكن أن نتركه حتى نستعد له. عندما ينتشر الطاعون، فإن أحداً لا يقول ننتظر حتى نهيئ الأطباء، أو نعد

المستشفيات! ان أى انتظار معناه مزيد من الضحايا، ومزيد من الكوارث. الاستعمار هو هذا الطاعون. نتركه حتى نتعلم؟! ومن الذى سيعطينا فرصة التعلم؟ هل يعطينا الاستعمار فرصة التعلم، لنحاربه؟ انه يحارب التعلم والتعليم والمتعلمين، إلا إذا كانوا أدوات له.يا حضرة الأساتذة اننا نواجه الخطر. نواجه الحريق. ولا يجوز أن نترك النار تأكلنا حتى نشترى مضخات لاطفائها. ان علينا أن نطفئها بالتراب. بالرمال. بأى شىء نملكه، قبل أن تقضى علينا.

وأحس الأساتذة أن الكلام مقنع، فهزوا رءوسهم ومضوا وهم صامتون! لكم ودوا لو استطاعوا أن يخلعوا عنهم هذه الأستاذية، لينضموا إلى هؤلاء الشبان الشجعان.

وعندما انسحب الأساتذة، جاء الحرس الجامعى.

وكما حدث مع الأساتذة، حدث مع الحرس الجامعى. حجة صلبة لا تتردد من جانب الطلبة، وكلام موظفين من جانب الحرس!

وما هى إلا لحظات، وإذا باب كلية الطب بشارع قصر العينى يشهد سيلاً من الطلاب يمرون منه متزاحمين، وهم يهتفون بجلاء الانجليز.طلاب الكليات الأخرى جاءوا بدورهم ليساهموا فى هذه الحركة.

وأطل بيومى، فلمح أعضاء الجمعية متفرقين بين المتظاهرين، فابتسم لهم وابتسموا له.انه هنا بيومى جمعة الصايت، طالب الحقوق، لا ممدوح الأعرج عضو الجمعية.

وقطع دخول هذه الجموع المناقشة بين الطلبة والحرس، وزادت النار اشتعالاً، واستأنف الطلبة الاستماع إلى بعض الخطباء، ثم قرروا أن يخرجوا إلى الشارع.

وتصدى لهم البوليس، بالعصى والخوذات، فرجعوا إلى فناء كلية الطب. ومن فناء الكلية وأسطحها ونوافذها بدأوا يقذفون الحجارة على رجال البوليس من كل جانب، وبصورة لم يكن رجال البوليس يتوقعونها.

وحاولت قوات البوليس أن تتجمع، لكن الطلبة كانوا أسرع منهم فى تفريق جموعهم.

فلما تفرقت قوات البوليس عاد الطلبة يحاولون الخروج إلى الشارع، فعادت القوات تحاصرهم وتتعقبهم، فعادوا يحتمون بالكلية وأسطحها ومبانيها ونوافذها ليستأنفوا المعركة.

وجاء الحكمدار. باشا كبير على صهوة جواد أبيض. باشا إنجليزى، وجهة كقطعة من الكبدة الحمراء.

وأخذ يزجى النصح للطلاب، بلا جدوى.

وأرسل إليهم بعض الضباط ليقنعوهم بالكف عن هذا الأسلوب، فلم يقتنعوا وهاجوا فى الضباط الرسل وصاحوا فى وجوههم ان هذه بلدكم كما هى بلدنا، ويجب أن تكونوا معنا وفى صفوفنا، لا مع هؤلاء الانجليز. لكن الضابط سمعوا وعادوا للحكمدار فأبلغوه أنهم يرفضون أى تفاهم.

عندئذ طلب الحكمدار أن يشددوا الحصار على الكلية، لكن قذائف الطلبة من الطوب قد كسرت هذا الحصار.

على أن الطوب لم يعد يكفى، فإذا الطلبة يطلقون قنابل مسيلة للدموع. عندئذ فقد الحكمدار أعصابه، فصاح يطلب إذن وزير الداخلية بدخول الكلية.

واتصل وزير الداخلية بوزير المعارف.

واتصل وزير المعارف بمدير الجامعة.

وشاع بين الطلبة أن مدير الجامعة قال للوزير: هذا حرم مقدس لا يمس. ان للجامعة حرما وحرمه، ولا يجوز أن يقتحم هذا الحرم، أو أن تنتهك هذه الحرمة، مهما تكن الأسباب.

وعادت الدائرة من أولها:

الحكمدار يهدد بأنه لن يستمر ساكتاً أمام قنابل ترمى على قوات الأمن. قنابل! هذه فوضى! ولو أن الجامعة هادئة وفى حالها، ماكان قد خطر على بال أحد أن يقتحم

أسوارها . لكن الجامعة تحولت إلى قلعة حصينة تقذف بالطوب والحجارة، ثم بالقنابل! كيف تترك هكذا؟ ان الجامعة هى المعتدية، وهى التى تضرب البوليس، فهل نترك الحال هكذا؟

وعرف الطلبة بمنطق الحكمدار فصاحوا يقولون:: يتركون المكان لماذا الحصار؟ وهذا الاستفزاز لا يحسب؟ ألسنا بشراً نشعر ونحس ونخاف ويصبح علينا أن ندفع عن أنفسنا الخطر؟

وبعد أخذ ورد، طلب مدير الجامعة أن يصله تقرير مكتوب عن الحالة، يقرر أن الطلبة قد أخذوا يقذفون القنابل، وأن الخطر قد امتد إلى المارين فى الشوارع والمجاورين لكلية الطب.

وكتب التقرير،وأرسل إلى وزير الداخلية، فأرسل يستأذن وزير المعارف، ووزير المعارف حول الأمر إلى مدير الجامعة.

وجمع المدير مجلس الجامعة.

– ماذا ترون فى هذا الطلب؟

قالوا له:

– يبدو أن الأمر خرج من أيدينا، وسنتهم بأننا نحمى طلبة يهددون الأمن العام، وأمن المارين والجيران.

وانتهى هذا الاجتماع العاجل، بتفويض رجال الشرطة بالدخول بأسلوب لائق، وبشرط أن تكون هذه المعلومات صحيحة، وأن يقتصر عملهم على منع الخطر عن المارة.

وابتسم رجال البوليس:

– انه تفويض والسلام. المسألة أن ندخل. هذا أهم ما فى الأمر، وبعدها تفرج!

وأراد الحكمدار أن يكون سبعاً!! فتقدم القوة إلى الفناء، على ظهر الجواد الأبيض!

ورد الطلبة على انتهاك الحرم الجامعى بقنبلة. قنبلة حقيقية، لا مسيلة للدموع، ولا للضحكات.

وفى ثانية اهتز المكان بالانفجار،وسمع دوى كأنه الرعد، وسقط الحكمدار الانجليزى من فوق ظهر الجواد، يتلوى من الألم، وارتبك الناس، وتاهوا غير مصدقين.

واهتزت القاهرة بالأنباء! حكمدار القاهرة قتل فى كلية الطب. الحكمدار الانجليزى قتل! ان المسألة لن تقف عند هذا. لابد أن بريطانيا العظمى ستتخذ اجراءات تأديبية عنيفة، لتربى الذين قتلوه. لكن من هم الذين قتلوه؟ هل أحد يدرى من الذين قتلوه؟ هل يستطيع أحد أن يحدد من هم الذين قتلوه؟

وقال الطالب بيومى فى التحقيق:

– ان قاتل الحكمدار هم الانجليز. لا تعجب يا حضرة المحقق. أنا لا أزال طالب قانون، لكنى سأثبت لك ما أقول. ان الحادث فى ذاته ليس جريمة قتل فردية، وليس شخص الحكمدار هو المقصود، وكان يمكن أن تصيب القنبلة أى شخص آخر سواه، ضابطاً أو شرطياً بسيطاً. لكن الصدفة قد اختارت الحكمدار. عمره! ثم هى ليست جريمة قتل. للسرقة أو للثأر المعروف بين الأفراد، ولكنها قتال من أجل الحرية. قتال لاقتل. ألم تقتل بريطانيا فى سبيل مصالحها؟ وألم يقتل فى هذا القتال ملايين؟ هل وجهت تهمة قتل لأحد من المحاربين الانجليز؟ طبعاً لا. وأخيراً يا حضرة المحقق، لو عرف السبب بطل العجب. ناس يدافعون عن بلادهم. أهذا عيب؟ ناس يطالبون بالحرية والاستقلال. هل فى هذا خروج على القانون؟ ان الدفاع عن الوطن، كالدفاع عن العرض، حق مقرر ومشروع، بل هو واجب يستحق الأداء، فإن أداه أصحابه، فهل يوجه إليه ماللوم؟ وأخيراً يا حضرة المحقق هناك حل واحد ووحيد، هو أن يخرجوا. لو خرجوا لم تعد بيننا خصومة ولا قنابل ولا دماء ولا ثأر. لكن طالما هم هنا، فلن يسكت عليهم الناس. قد تخمدون الأنفاس يوماً، لكن فى غد يهب انفجار. قد تكتمون الأنفاس فى مكان، بينما أماكن أخرى عديدة تموج بالثورة والغضب والسخط. ان الانجليز باصرارهم

على البقاء، يقتلون هؤلاء الضحايا هم الذين قتلوا حكمدار القاهرة يا حضرة النائب. نعم وقتلوا كثيرين سواه من البسطاء والفقراء والمحتاجين. العساكر الذين يعولون أسراً محتاجة إليهم. الضباط الصغار أبناء الأسر المصرية ثم الشهداء من المتظاهرين من الطلبة والعمال والفلاحين. كل هؤلاء الذين يذهبون هم ضحايا الانجليز.

قال المحقق:

- وتنسى يا حضرة الحقوقى أن القتيل موظف مصرى فى حكومة مصر. انه ليس من قوات الاحتلال، ولكنه موظف مصرى تعينه السلطة المصرية، ويرقى وفقاً للقانون المصرى.

وهاج بيومى فى وكيل النيابة وأخذ يصيح:

- يا حضرة المحقق هذا حرام. أو تظن أن الاستغفال يصل بنا إلى هذا الحد؟ أتريد أن تصدق هذا الكلام؟ الحكمدار الانجليزى موظف مصرى، اختارته حكومة مصر لكفايته وعبقريته؟ "يا عينى يا عينى"!! والضباط الانجليز فى البوليس المصرى موظفون مصريون، اختارتهم الحكومة بمحض حريتها؟ والكونوستبلات على الموتوسيكلات يذهبون ويجيئون بوجوههم الحمراء، الكالحة، ورءوسهم الخفيفة من السكر، هؤلاء جميعاً موظفون مصريون، أرسلت حكومة مصر تطالبهم ليحفظوا أمنها!؟ انهم مفروضون. انهم جزء من قوة الاحتلال. انهم عيون مفتوحة علينا من داخل بيوتنا. ان يكونوا حقيقة موظفين مصريين فافصلوهم دون أن تستشيروا أحداً، أو تحصلوا على موافقة دار المندوب السامى... آ! آسف، أعنى السفير!!

قال المحقق فى تعال وكبرياء:

- انك تتدخل فيما لا يعنيك يا بيومى أفندى. والقتل قتل يا أستاذ، وكل ما تقوله لا يبرر القتل وسفك الدم، وازهاق الارواح. أنت متهم بقتل حكمدار القاهرة.

وسخر بيومى، وهز رأسه فى عجب.

وبعد أربعة أيام، كانت معارضة الحبس الاحتياطى الذى قررته النيابة، وتحولت قاعة المحكمة إلى صخب شديد جداً، وارتفعت الهتافات باسم الوطنيين الشرفاء، وحياة الوطن.

وجددت المحكمة الحبس الاحتياطى لأربعة عشر يوماً، تلبية لطلب النيابة.

وعاد الموضوع أمام المحكمة بعد المدة، وتجددت المظاهرات فى باب الخلق، واشتد زحام الناس، حتى لقد استحال مرور السيارات فى الميدان.

وفى المحكمة تسابق المحامون ليدافعوا عن الطلبة.

ومع هذا تجدد حبس المتهمين أربعة عشر يوماً أخرى.

وكان سجن مصر يحبس الطلبة حبساً انفرادياً تشديداً للعقوبة عليهم، وكان بيومى أو ممدوح أو الشيخ عبد الرءوف، يحاول أن يقرأ ما يصل إلى يديه من صحف أو مجلات. لكن هذه الزنزانة ما أثقلها، وهذا الظلام الكثيف ما أبغضه! ومع هذا فقد كاد يجد بصيصاً من نور يستعين به لتبديد هذا الظلام. خيط رفيع يخترق الزنزانة من خلال الباب، فكان بيومى يقرأ فى ضوئه الباهت! وكان هذا الخيط يدور مع الشمس، فكان بيومى يدور معه، حتى كادت رقبته أن تنخلع.

وذات يوم، لا يعرف متى من النهار، صبحاً كان أو ضحى، فتح الباب، ودخل ضابط شاب.

قال الضابط:

- هل أنت الطالب بيومى جمعة الصايت؟

ونظر بيومى إليه، ولم ير شيئاً كأنه الشبح، فالنور الذى دخل من فتحة الباب، قد أعمى عينيه. لقد صار كالخفافيش لا يرى فى غير الظلام، وهذا النور غريب عليه.

ومرت لحظات، حتى اعتادت عيناه على النور، ثم رأى الضابط الشاب أمامه، وسيماً سمحاً هادئاً، مريح القسمات. وشعر بيومى أنه يستطيع أن يثق به. فيه شىء مريح ربطه به، فقال له على الفور:

- نعم. مـاذا تريد؟ على كل حـال ان كنت قـد أتيت لتنبه على بشـأن المحكمـة، فهـذا شىء و إلا فقل لى مـن أرسلك؟ لا تضع الوقت، فإن أعـصـابى مـحطمـة. مـن من رجـالنا أرسلك؟

قال الضابط فى صراحة وسرعة:

- إثنان أرسلانى إليك، وأخشى ألا تعرفهما. أما أحدهما فهو الضـابط عبد الرحمن، وأما الثانى فهو الضابط ناجى سلطان، تعرفهما؟ هل تعرفهما؟

- أعرف اسميهما. الأول بطل عزية الخواجة جورج بسطوروس خرايللو البحراوى.

قال الضابط:

- والثانى أيضاً شاركه البطولة بجداره.

قال بيومى:

- وأنت؟

قال الضابط:

- كنت تلميذاً فى مدرسة البوليس إذ ذاك، لكنى الآن...

قال بيومى:

- أنت مشروع بطل... ان شاء الله.

قال الضابط وهو يبتسم:

- هذا ليس مهماً. المهم أن يتحقق هدفنا جميعاً، بإذن الله.

قال بيومى:

- وما اسمك؟

قال الضابط:

- محمود محجوب. ملازم محمود محجوب، أحدث ضابط نقل إلى مصلحة السجون.

قال بيومى:

- جزء من الخطة؟

قال الضابط:

- طبعاً. أكذب عليك؟ على كل حال أنا لست وحدى هنا، وثق أن لك أصدقاء آخرين لا تعرفهم. وقد لا أعرفهم أنا أيضاً. المهم أن تتسلم الآن هذه الرسالة.

وعندما فتح بيومى الرسالة هب منتصباً وهو يصيح من المفاجأة، وقد أمسك بالضابط الشاب من كتفيه:

- تعرفها؟ هل تعرفها؟

قال الضابط فى هدوء:

- من هى؟ من تقصد؟ يا سيدى أنا لا أعرف شيئاً. أنا مكلف بتسليمك الرسالة، وأن أحصل على ردها إذا أردت.

وصاح فيه بيومى، وهو لا يزال يمسك به من كتفيه:

- ولا تعرف صاحبتها!!

قال الضابط فى براءة:

- هل هى من واحدة ست؟ لا أدرى! من هى؟

وبلع بيومى ريقه، وهم بأن يخفف عن نفسه بأن يذرع المكان جيئة وذهاباً. لكن الزنزانة ضيقة ولا تتسع إلا لأن يدور فيها حول نفسه. ودار حول نفسه، وهو يفكر تفكيراً سريعاً جداً، فى أشياء كثيرة مختلفة.

ماذا يربط هذا الضابط الصغير ببقية أفراد الجماعة؟

ماذا يربطه بالضابط عبد الرحمن، والضابط ناجى سلطان، ومديحة، أو الشيخة تفيدة؟!

ثم هل هناك ما يربطه بالمعلمة وردة، والمعلم مبروك؟

وكاد يصيح فيه بأعلى صوته.

- وأنت من تكون أنت؟ ألست هو.. ابن الحاج غضبان فى الحقيقة، وابن الأسطى محجوب بالتبنى؟ وهل تعرف هذا عن نفسك؟ هل تعرف انك ابن عم الضابط ناجى سلطان؟

وهم بأن يسأله، لكنه عاد فسكت عن أشياء قد لا يكون هذا موعدها، وتشاغل عن الموقف فعاد يتلو الرسالة على نفسه:

"اسمع يا ممدوح. لعل هذه الرسالة تطمئنك، لتثق فى حاملها إليك. سلمه مقالات عن السجن، وعما ترتكب فيه من فضائح. اكشف كل شىء. لا تخف. ستنشر المقالات فى الصحف. لابد من هذا لتهتز الحكومة أمام أسيادها الانجليز. ان رصيدها الوحيد الباقى لها عندهم أنها حكومة قوية تقبض على الأمور بيد من حديد، لكن لابد من أن يظهر للانجليز أن هذا الحديد "خردة"! وأن تراب هذه الأرض أصلب منه. مفهوم؟ مع تحياتى يا بطل".

وهذا توقيعها! خطها! انه خطها وتوقيعها: مديحة!!

لكن هذا الضابط لا يعرفها. انه يقول انه لا يعرفها. لغز! هذا لغز!

وقال بيومى للضابط:

- هل تريد الرد؟

قال الضابط:

- نعم... متى؟ متى يكون الرد جاهزاً؟

قال بيومى:

- لا أدرى.

قال الضابط فى استياء:

- بل لابد من إعداده على وجه السرعة يا سيدى.

قال بيومى فى استنكار.

- "تكونش فاكر انى حاوى؟! " تريده الآن..مثلاً؟

قال الضابط بسرعة:

- لا يا سيدى. أبداً! أعلم أنك تريد وقتاً.

قال بيومى فى ضيق:

- "...وبس؟! ".

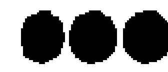
قال الضابط:

- وورقاً وقلما...

وبينما بيومى ينظر إليه فى استغراب ودهشة، كان الضابط يضع على سريره الحديد الورق وقلمين رصاصاً، بدلاً من قلم واحد!! ثم قال:

- لم يبق إلا الوقت... غداً فى مثل هذا الوقت يناسبك؟ أظنه يناسبك!!

وقبل أن يجيب، كان الضابط، قد أغلق الباب ومضى!



وهناك عند الضريح، فى هذه الساحة الهادئة المباركة، حول قبة سيدى الذكيرى وعلى قيد خطوة منه... جلال البطل، كانت مديحة تقلب فى الصحف والمجلات لتقرأ. كانت تقرأ بصوت مسموع، حتى وهى وحدها، ووحيدها الصغير يلعب حول قبر أبيه. نعم كانت تريده أن يسمع. جلال يجب أن يسمع. ان هذا يسره ويرضيه.

- أو تسمعين من فى القبور يا مديحة؟

- ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... بل أحياء عند ربهم يرزقون.

- يا شيخة... وجلال كان ولياً؟!

- طبعاً كان ولياً.

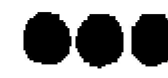
- بالعمامة والمسبحة؟!

- بل لأنه كان يعمل فى سبيل الحق. أليس الله هو الحق؟

وكم كان يسعدها أن يسمع أبو عوف الصغير ما تقرأه، ويثبت فيها عينيه وهى تقرأ فى براءة، كأنما كان يعى.

أبو المكارم كان شديد الاهتمام بما يدور، وكان هو الذى يحضر إليها الصحف والمجلات، فإذا تأخرت استعجلها من دياب ونبهه ألا يتأخر مرة أخرى.

وكان يسمع ما تقرأه الشيخة ويهز رأسه فى قلق.



المعلمة وردة النقرزان عند محطة السكة الحديد، كانت تتخذ مقعدها على القهوة، وفى فمها مبسم كهرمان لا يفارقه أبداً، ونفس الشيشة يدخل إلى صدرها ليطفئ ما فيه من اللهب، ويخرج من صدرها، وقد احترق من قسوة اللهب!

وكانت نظراتها عميقة كأنها بئر.

وكانت كلماتها محبوسة فى حلقها، كأنها خرساء.

وحولها ـ كالعادة ـ جمع من الناس يستمتعون بأن يكونوا فى خدمتها وطوع أمرها! أليست المعلمة، ذات الجلباب الرجالى الحرير؟ أليست من الخارج رجلاً، ومن وراء الرجل، فيها امرأة قوية حنون تتثنى فى طراوة واغراء؟ ثم هى ـ حتى وهى امرأة ـ امرأة رجل. نعم وأشهم، وأقدر!

انها ـ هذه الأيام ـ تجلس لتسمع ما يتلى عليها من مقالات وأخبار.

كانت تجلس ومحروس الصغير أمامها يقرأ لها، فإذا تعب محروس من القراءة أو لم يعجبها أنه يتلعثم فى بعض الأحيان، أرسلت تطلب "مرزوق".

– مرزوق ولد مبروك مثل أبيه.

– ومثل جده أيضاً يا معلمة.

وكان مرزوق قد داخ، وداخت معه الناحية كلها، ليحصل على وظيفة، لكن ذلك لم يجد.

وكانت البلد كلها تعجب.

وكان الفلاحون يديرون فى هذا كلاماً كثيراً.

الشيخ مختار حرم نفسه من اللقمة ليرى "مرزوق" وليصبح مرزوق افندياً له شأن. كان يقول للناس فى الجامع وعلى مصاطب القرية ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس للعلم. العلم يا ناس، والدين لن يعز إلا بالعلماء من أبنائه. العلماء فى أمور الدنيا وأمور الدين.

وكان الشيخ مختار يضيف إلى هذا أنه يعلم ابنه على قدر ما يستطيع.المصروفات كثيرة عليه، لكن ربنا موجود.

ولما أتم مرزوق الدراسة، ونال الدبلوم، كان أهل القرية يعتقدون أنهم سينامون ويصحون ليجدوا القرية وقد امتلأت برجال الحكومة، ومعهم "ترومبيل" الجوهرى، ليصحبوا "مرزوق" إلى البندر، ويضعوه على مكتب كبير، لينهى ويأمر كما يشاء، كالمأمور، أو المحضر... أو حتى الصراف!

لكنهم ناموا بعد احتفال مهيب، وصبحوا يصلون الفجر، ولم يجدوا أحداً ظهر فى طرقات القرية.

ومر يوم، ووراءه يوم، ثم يوم.

وأسبوع، وراء أسبوع، يجر أسبوعاً.

ثم شهر وشهران وثلاثة.

ورجال الحكومة لا يحضرون، كأنهم والقرية فى خصام! ماذا حدث؟

وبدأت القرية تتحدث.

وبدأت القرية تلاحظ أن الشيخ مختار مهموم.

وبدأت ترقب التلميذ المتخرج، وهو يروح ويجىء فى طرقات القرية، والدموع محبوسة فى عينيه.

لكن ايمان القرية بابنها كان كبيراً. كذلك كانت عزة نفس الفتى وعزة نفس أبيه كبيرة كأيمان القرية.

القرية كانت تردد ألا عمل إلا بالوساطة، لكن الشيخ مختار كان يردد انه لا يلجأ لغير الله سبحانه.

والقرية كانت تنصت إلى أحاديث القادمين من المدن أن الذين يطلبون عملاً، يرشون من أجل الوصول إلى العمل، وكله بثمنه. لكن الشيخ مختار كان يستعيذ بالله أن تكون وسيلة ابنه إلى الرزق حراماً.

وكان الناس يقولون للشيخ مختار: والله ان ربك لن ينساك يا شيخ مختار. أنت خادم بيته. كيف ينساك؟

وصح ما قاله الناس.

ربنا أرسل الرزق من عنده، بلا وساطة، ولا رشوة.

الخواجة جورج بسطوروس خرايللو البحراوى.

الخواجة عاد بهذا الرزق!

لقد فوجئت به المعلمة، وهى جالسة تسمع إلى مرزوق وهو يتلو عليها الأخبار والمقالات.

كان يجر رجليه من فرط الاعياء.

كان خائفاً من نفسه ومن الناس ومن المعلمة.

كان متهيباً متردداً متقطع الأنفاس.لكن المعلمة هبت واقفة وهى تصيح: الخواجة جورج. الخواجة جورج.

وأسرعت إليه، وأخذته بين ذراعيها فى حرارة أذابت ما كان فى نفسه من تردد.

وأمسكت بكفه وجذبته إلى مقعدها من القهوة.

ودار حديث، علمت منه المعلمة أنه حوكم، فلما لم تثبت تهمة محددة عليه، اعتقلوه.

وبكى الخواجة من التأثر.

ودمعت عينا المعلمة، من أجله.

وأطرق الفتى مرزوق، وهو يشاركهما الأسى.

قال الخواجة:

- عن الدكان يا معلمة، سأرسل واحداً من أقربائى ليديره.. أنا لم أعد قادراً على مواجهة الناس فى هذه الناحية. وأما عن الأرض، فسأتركها لك... لك أنت، تفعلين بها ما تشاءين. أجريها أو ازرعيها، أو أتركيها خرابا إذا شىءت.

واستبد التأثر مرة أخرى بالخواجة، فانحنى على كفيه يبكى، وينتحب، ويهتز من شدة التأثر.

ولم تجد دموع المعلمة، ولا مواساتها له فى التخفيف عنه.

وبعد الغداء، غادر الخواجة القهوة، وسارت المعلمة معه، وخلفها مرزوق وعدد من الرجال حتى محطة السكة الحديد.

وكان قد أجر العزبة والأرض للمعلمة.

وكانت المعلمة قد كلفت بها "مرزوق".

- باضت لك فى القفص يا عم. هيا. أنت زراعى، وقد تخرجت فى مدرسة الزراعة. أرنا شطارتك. هيا إلى العزبة والأرض، جرب فيها حظك.

وطار مرزوق من الفرحة.

وطار الشيخ مختار من البهجة.

وشاركت القرية كلها الشيخ مختار والست راضية و"مرزوق" الفرحة بهذا الرزق الحلال الذى أرسله الله، من غير ميعاد.

واتجهت القرية كلها، وعلى رأسها العمدة عباس إلى المعلمة، لتشكرها على هذا العمل، وهذا الصنيع.

وعلى طريقتها "البلدى"، قالت المعلمة وردة:

- على إيه؟ وهو أنا عملت إيه رزق من عند ربنا جاءنا من غير احتساب. أهفه؟! أزيحه؟!. أستفرد بيه؟! دا حتى ما يرضيش ربنا، ولا يبارك فيه. المهم يشتغل ويزرع ويقلع وياكل ويوكل الناحية كلها معاه. هذا هو المهم.

وعاد أهل القرية شاكرين حامدين لله.

ومروا بضريح سيدى الذكيرى. كان لابد لهم من أن يمروا بالضريح الطاهر، للزيارة وقراءة الفاتحة، وطلب المزيد من البركة للبلد، وللشيخ مختار، ولأبنه "الباشمهندس" الزراعى، مرزوق أفندى.

وكان مرزوق يسير بينهم على استحياء، كالعريس!

وكان الشيخ مختار يحمد الله ويكثر فضله، ويحمد لأهل البلد هذا العطف، وهذا الكرم.

وكان عباس العمدة يبدو فى قمة السعادة، لأن الله استجاب، ووجد مرزوق الصغير باب الرزق مفتوحاً له على مصراعيه.

وظهر للعمدة وهو يسير على رأس أهل البلد شبح من الماضى. شبح له من الجلال والهيبة ما جعله يرتعد وهو يسير.

وكان ينحنى ليقبل يديه!

وهاله منه هذه الابتسامة الشفافة الشفافة، القنوعة، الراضية.

هى هى ابتسامته لم تتغير، حتى وهو ميت! حتى وهو يتراءى له فى مشيته شبحاً بعث من قبره.

وقال عباس لنفسه، فى صوت حى، مجسم، واضح، يكاد يسمعه الأخرون:

يا ترى أين قبرك؟

يا ترى هل دفنوك، بعد أن قتلوك؟ أم أنهم تركوك، تنهشك جوارح الطير؟

وهل تألمت؟ هل كان الموقف صعباً عليك، وأنت تواجه الغدر، والموت، على صورته الكئيبة البشعة؟

وابتسامتك هذه، هل انقلبت صيحات واستغاثات، وآهات، وتوسلات؟ أم ظلت هى هى الابتسامة المشرقة العذبة المبروكة، التى تشفى المريض، وتقبل عثرة المحتاج؟

يا عم مرزوق... كيف تراك واجهت الوحش المجرم "أبو سريع". كيف تراك رأيت الغادر الجبان، فى عينيه، وعلى شفتيه، وفى يده، ولابد أنها تحركت نحوك لتخنقك أو تطعنك أو تطلق عليك النار؟!

وخيل إلى عباس أن عمه الشيخ مرزوق يسخر منه!

وكاد يسمعه وهو يقول له:

- يا ابنى ربنا موجود، وهو كريم... دائماً كريم.

الله!! يعنى ربنا حماك من الأذى يا عمى الشيخ مرزوق؟ يعنى أحاطك ربنا بعناية أبعدت عنك الشر؟

- موجود، ورحمته كبيرة... ربنا يا بنى أكبر منهم.

- قل لى يا عمى الشيخ مرزوق، ماذا تعنى؟ ربنا قدرك على أن تتحمل؟ كانت المصيبة خفيفة عليك؟ أم ماذا تعنى؟.. ماذا تعنى؟ ماذا تعنى؟

وارتبك العمدة عباس، وهو يصيح صيحات داخلية، لشيخ الشيخ مرزوق:

- ماذا تعنى؟ يا عم مرزوق ماذا تعنى؟

حكمتك يا رب!! والله أنت مهندس الكون الأعظم. حتى دبيب النمل له عندك نظام وتوقيت! حتى صيحات النفس الداخلية التى لا يسمعها أحد، ترسمها رسماً منتظم الخطوط والظلال، ولكل جزء منها ميقاته المعلوم!!

ها هو ذا جواب.

من مجنون!! لكنه جواب!!

كان سيد شيخ البلد قد انطلق من عقاله، وغافل الحراسة المفروضة عليه، وأخذ يجرى هنا وهناك فى مرح كالصغار.

وكان يداعب الفلاحين فى الحقول مداعبات خفيفة حينا، ثقيلة حينا آخر.

"فلاحين ربنا... يا فلاحين ربنا. أنتم يا بهائم.. حتعيشوا بهائم وتموتوا بهائم..!! بهائم ربنا! "

ويضحك، ويجرى، ويعبث، ويقطع بعض فروع الشجر ليضرب الريح، ويتعقب الذباب!!

ولما وجد المجنون أهل القرية، تسلل خلفها وحولها يتأملها دون أن تراه...

وفجأة صاح:

- "مرزوق.. أهو.. حى. أنا شايفه حى".

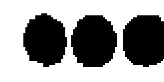
وضحك عندما تلفت الناس إليه، وهم يعجبون مما يسمعون، فلما طالت نظراتهم إليه صاح فيهم يقول:

- "إيه؟ يا بهائم ربنا.. إيه؟ اسمعونى.. مرزوق هذا.. ألا ترونه معى؟".

وسكت الناس، وأشاحوا عنه وجوههم، فعاد فى مرح عابث يقول:

- "الثانى نفذ.. ربنا وقف معه. ربنا أقوى من أبو سريع".

وارتبك عباس، وارتبك الناس، لكنهم مضوا إلى سيدى الذكيرى.



وهناك عند الساحة المبروكة، وحول القبة البيضاء الطاهرة، وبين قبور الأهل والأصهار والأصدقاء، انتشر العمدة وأهل القرية، يقرأون الفاتحة، ويرتلون آيات الذكر الحكيم، وفى قلب كل منهم ذكرى عزيز رحل.

وتختلط مظاهر الفرح بما أصاب مرزوق من توفيق، بآهات الذكرى الخفية المكبوتة. وتلتقى على هذه الوجوه السمراء التى لفحتها الشمس الابتسامات والدموع.

خفقة فرحة من القلب، تسجل شكرا لله على ما وهب، تتلاقى مع خفقة أخرى تنطوى على رنة أسى على الذين سبقوا إلى الآخرة، فى رحلة طويلة حزينة غامضة.

هم هكذا أهل القرية، لا شىء فى حياتهم مطلق... أبداً.

إذا ابتسموا، فوراء ابتساماتهم تتخفى دموع، تستحى أن تتساقط على الخدود.

وإذا دمعت عيونهم، فوراء الدموع تقف دائما انتفاضة كبرياء قانعة، مليئة بالأمل فى رحمة الله.

وفى وقت واحد تعيش القرية أفراحها وأحزانها معاً.

أفراحها تكشف صفحات الأسى والأحزان فى طياتها.

وأحزانها لاتخلو من خلجات العزة بما فى رحمة الله من العوض لها.

فى العيد، وفى الموالد، وفى مواسم الحصاد، تلتقى على شفاه النساء الزغاريد و "التعاديد"! وتتقابل على وجوه الرجال، مظاهر الأسى وابتسامات الرضا!

وها هى ذى القرية الطيبة، لا تنسى - وهى تفرح بأول من أتم دراسته من مساكينها - ذكرياتها، وأحداث الذين رحلوا من آباء وأجداد، وأمهات صالحات، وزوجات جميلات، وأطفال لم يكونوا قد فطموا عن أثداء أمهاتهم بعد.

وها هم أولاء أبناء القرية الطيبون، تفرقوا حول الضريح وبين القبور، وراحوا يحركون شفاههم فى ضراعة.

منهم من أقبل على الشيخة تفيدة يقبل يديها، ومنهم من آخذ يدور حول قبة سيدى الذكيرى، يتبرك ويتمسح ويتلمس الرضا. ومنهم من حمل "أبو عوف" الصغير وأخذ يقبل رأسه ويديه، قربى إلى أولياء الله. ألم يكن أبوه ولياً من أولياء الله، وخادماً لضريح سيدى الذكيرى؟

وكثيرون من أهل القرية أخذوا يدورون حول قبر الراحل الشيخ "أبو عوف" وهم يتحسرون عليه، وعلى أيامه المشرقة الوضاءة، وحضرات الذكر التى كان يقيمها حول الضريح أو فى الجامع، وتتجلى فيها بركاته.

لكنهم لا ينسون أن يمروا على قبور أخرى قابعة هناك، فى طاعة وتواضع بلا تعال ولا تطاول. ولا مكان هنا للتعالى أو التطاول. الحاج سلطان أو أبو سريع أو من يكون، كالشحات، ليس له فى هذا مكان إلا ما يستر جسده من التراب!

وأهل القرية طيبون، ينسون الإساءة، ولا يذكرون للموتى إلا ما قد يكون لهم من احسان، والفاتحة على كل حال صدقة، وزيارة القبور سنة عن رسول الله.

لكن زيارة الموتى كزيارة الأحياء، تكون أحياناً حارة وصادقة، وتكون أحياناً ضعيفة وفاترة. كله حسب الأحوال، وما يكون من فرق فى الأثر الذى خلفه هذا أو ذاك.

وتنتهى الزيارة، فتستأنف القرية رحلتها، عائدة إلى دورها، وتخلو القرافة من الناس، وتخلو الشيخة تفيدة إلى نفسها، وإلى ابنها، وإلى "أبو المكارم" عمها، ومؤنس وحدتها، وحاميها من نفسها ومن الناس.

وفجأة سمعت صيحات تشق هذا الهدوء إليها:

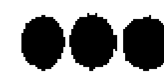
- "حاسب..الهوا فيه حشرات.. والحشرات سامة... حاسب...حاسبى".

وشهقت الشيخة من الهلع، وتطلعت فوجدت سيد المجنون يضحك بملء فيه، ويضرب الأرض بقدميه.

وأخذت تتطلع إليه، فمضى فى صيحاته المجنونة يقول فى سخرية:

- "فتح عينك تاكل ملبن. تغمض عينك تاكل زلط".

ومضى يضرب الأرض بقدميه، والشيخة حائرة، تستعيد كلماته الغامضة، دون أن تعرف لها معنى.



وقبل أن تقول لنفسها: مجنون! انه مجنون! وهل يحاسب الواحد مجنوناً على ما يقول؟

بل وقبل أن تدور حول نفسها لتعود إلى مكانها من الضريح، تستريح، رأت من بعيد منظراً عجيباً.

ناس قادمون من طريق المحطة، لكنهم ناس تفوح منهم رائحة، تكاد تزكم الأنوف!

يتلفتون حولهم كمن يخاف أن يتخطفه الجن!

يرتدون ملابس مضحكة، كالذين سرقوها، أو شحتوها!

ولهم أقفية محلوقة ملساء كألواح التين!

وعيونهم زائغة لا تعرف طريقها إلى شئ بعينه، ولكنها تتسكع على كل شئ كمن يبحث عن شئ مفقود، أو يهرب من خطيئة ارتكبها!

كلامهم كالح، بلا لون، ولا طعم، يقولونه غير مترابط أو مفهوم، لكنهم يقولونه والسلام!

وقد يضحكون، وقد يعبثون، لكن ضحكاتهم تكاد أن تقع على الرؤوس كالزجاج المشروخ!

كذلك عبثهم مرسوم، مطبوع.. كالعملة البرانى!

يا ساتر! سترك يا ساتر!

ان لهم مدخلاً، كعزرائيل!

هكذا قالت لنفسها، وقد انقبضت خائفة، فلما تلفتت حولها، كان أسرع إليها من نفسها.

وكادت ترتمى بين ذراعية، لولا أنهم كانوا يقتربون منها.

وأشار لها عمها أبو المكارم أن تهدأ، وأن تتماسك، وكاد يصيح فيها:

- ماذا جرى لك؟.. عيب يا مديحة. أهو شئ جديد عليك؟ لكن مديحة ظلت خائفة، وهمست تقول له:

- خائفة. خائفة يا عمى! شئ يحدثنى أن وراء هؤلاء شيئاً. ربنا يجعله خيراً.

ولم يسمح لهما الوقت بمزيد، فقد أقبلوا عليها وعليه وعلى الضريح. ودخلوا يتصنعون التبرك، كأنما هم من المريدين القدماء، أو ممن يعرفوا للمقام قدره.

قال واحد منهم فى غير حياء:

- بركاتك يا سيدى أبو الخير.

ونظرت الشيخة إلى عمها "أبو المكارم"، ونظر عمها إليها دون كلام.

قال آخر يكمل بقية الحلقة:

- ولى عظيم من أولياء الله الصالحين.. الفاتحة.. الفاتحة يا رجالة.

واتجه ثالث نحو أبو المكارم الأخرس وقال له:

- وأنت؟ خادمه؟

فلم يرد عليه، واكتفى بأن امتعض منه.

وتبادل الرجل النظرات مع رفاقه ثم اقترب منه وقال له فى حدة:

- إيه؟ ألست خادم الشيخ.. سيدى أبو الخير؟

وصاح أبو المكارم فى الرجل صيحة حادة، وهو يشير بيديه فى وجهه، ويقترب منه فى استنكار.

وخاف الرجل من المفاجأة، ثم عاد ينكر على نفسه أن يخاف من هذا الصعلوك، فاقترب منه، يحاول أن يتهجم عليه وهو يصيح فيه:

- هل تصيح فىّ أيها الرجل؟ أنت تصيح فىّ!! تكلم.

وهم بالاعتداء عليه، لولا أن ارتفع صوت الشيخة تقول:

- انه لا يتكلم يا أخى. انه كما ترى...

وأكمل هو:

- أخرس! آه... هو إذن أخرس.

ونظر إليه فى استعلاء وهو يقول له:

"أمال لو بتتكلم، كنت عملت إيه؟! يا أخرس".

وفى وقاحة، لمَّ قبضته، إلا السبابة، وأخذ يمررها على أنفه، يغيظ بذلك الأخرس، على عادة أطفال المدارس الصغار.

وأمسك أبو المكارم نفسه، وهو يراه على هذا النحو من الخفة والتفاهة.

لكن الرجل لم يسكت، فأخذ يخرج له لسانه مرة، ويمر بأصبعه فوق أنفه مرة، وزملاؤه يضحكون فى مجون، وكلما ارتفعت ضحكاتهم أوغل الرجل فى هذا التظرف.

وكاد أبو المكارم يفقد أعصابه.

وخافت مديحة عليه ان هو فعل.

وفجأة صاحت فى صوت عميق ومعبر:

- "يا رب.. أنت وحدك تخلق من طين. تخلق هذا أبيض، وتخلق الآخر كالليل البهيم. سبحانك خلقتهم جميعاً لآدم، وخلقت آدم من طين. ارحم عبيدك ان أساءوا أو أخطأوا، أو سخروا مما خلقت. ارحمهم يا رب ولا تخسف بهم الأرض، فإن ها لو غضبت، مادت بمن فيها وعليها، اللهم رحمتك، حتى لمن عصاك".

وأغمضت الشيخة عينيها فى تبتل، والرجال مسحورون، كمن مسهم مس.

وأقبلوا على الرجل الذى كان يسخر من الأخرس، يؤنبونه ويؤاخذونه، ويلومونه على هذه التصرفات الحمقاء.

وتعرض أبو المكارم لحملة مصالحة مشحونة بالتوبة والحماسة.

أقبل واحد عليه يقبل رأسه.

وأقبل الثانى يستسمحه.

وأقبل الثالث يرجوه:

- والنبى تقبل عذره.

- وحياة سيدى أبو الخير، وكلنا من بركاته.

وقالت الشيخة فى برود:

- من يا أخى تقصدون؟ عن أى شيخ تتحدثون؟

قالوا:

- سيدنا الشيخ أبو الخير... هذا.

وأخذ أبو المكارم يضرب كفاً بكف، وهو ينظر إلى الشيخة فى استنكار.

قالت الشيخة فى هدوئها:

- أى شيخ؟. هذا؟

وأشارت إلى ضريح سيدى الذكيرى، فقالوا.

- نعم... هذا.

قالت:

- هذا ضريح سيدى أحمد الذكيرى. اسمه سيدى أحمد الذكيرى.

قال واحد منهم فى وقاحة:

- نعم نعرف هذا. لكنه أبو الخير. أليس صاحب الخير وأباه؟

وهزت رأسها، وعلى شفتيها ابتسامة باهتة.

ومضى الرجال فى كلامهم الفارغ:

- أو تظنين أننا لا نعرف اسمه؟

- اننا من مخاسيبه.

- ان له عندنا نذراً كل عام.

- ان ما أردنا أن نصفه.

- هو الخير، وأبو الخير، وكل الخير.

- ان كل خير نصيبه منه... ولذا نسميه "أبو الخير".

- إياك أن تظنى أننا لا نعرفه.

- سيدى أحمد الذكيرى، وهل من لايعرف من هو سيدى الذكيرى؟

وظلت الشيخة تسمع وتهز رأسها، والابتسامة الباهتة المطبوعة على شفتيها كما هى، لا تنقص ولا تزيد.

وأبو المكارم يشاركها الاستماع، والنظر، والابتسامة الباهتة الحيرى.

لكنهم على كل حال، أحسوا أن اللعبة مكشوفة، وأنها لا تنطلى، لا على الشيخة، ولا على "أبو المكارم". حتى "أبو عوف" الصغير - وهو يتعلق بكف أمه - كان يبتسم،: كأنما فهم هو الآخر سر الارتباك الظاهر على هؤلاء الرجال.

وقال واحد من الرجال:

- اننا قادمون لزيارة صديق قديم لنا وعزيز علينا فى القرية المجاورة. لكن كان لابد من المرور على سيدنا الشيخ نزور أولاً.

ولم ترد الشيخة، ولم تعقب، ولم تسأل، وظلت تنظر إليه نظراتها الطويلة العميقة الصامتة.

وكاد الرجل يشعر أنها اخترقت طيات نفسه إلى أعماقه، وبدأت تقلب أسراره.

وشعر أن خيطاً حاداً يخرج من عينيها ليخترق الحجب إليه. وأحس أن هذا الخيط يتبعه كظله حتى ليكاد يدفعه لينكفىء على وجهه.

وارتبك وتلعثم، وترنحت ألفاظه على شفتيه:

- انه صديق عزيز جداً، وقديم جداً.

- صحيح والله العظيم صديق. صديقنا كلنا.

- واسمه عيسى. ألا تعرفينه؟ ألا تسمعين عليه؟

- يمكن لا تسمعين عنه، لأنه من قرية أخرى. لكنها قرية قريبة لا تبعد عن هنا إلا مسيرة بسيطة. ساعة! يمكن أكثر قليلاً، لكنها مسيرة بسيطة على كل حال.

- انه محام شاب. محام صغير جداً.

وأخذ ينظر إلى زملائه، كأنما يستغيث بهم أن يتدخلوا لينقذوه. يتحدثون بدلاً عنه. يحملون بعض العبء الذى وقع على كتفيه فشل لسانه. لكنهم جميعاً كانوا مثله، انسحبت الألفاظ فى أفواههم فلم تعرف طريقها إلى شفاههم.

وضحكت الشيخة لتخفف من الموقف، وقالت للرجل فى تلطف:

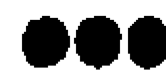
- وأنتم ذاهبون لزيارته؟

قال:

- نعم. مشتاقون إليه. وهو أيضاً دعانا لهذه الزيارة.

قالت:

- حصلت البركة على كل حال. نورتم هذه الناحية.



وما أن انصرفوا يتعثرون فى خيالاتهم حتى أسرعت تقول "لأبو المكارم":

- سبيلة الغجرية يا عم أبو المكارم، هى الوحيدة القادرة على أن تنبه عيسى. أسرع إليها يا عم أبو المكارم لتذهب إليه حالاً. ألا تعرف؟ ألم تلاحظ. بسرعة يا عمى، بسرعة وحياة جلال.

وأسرع أبو المكارم إلى سبيلة مخترقاً الحقول لاختصار الطريق.

وأخذت الشيخة تذهب وتجىء حول الضريح فى عصبية واضطراب، ثم لم تجد حلاً، إلا أن تدخل الضريح لتستعين بالبركة على ما هى فيه من هم وقلق.

وجنب ضريح سيدى الذكيرى، جلست وأسندت رأسها إليه، والصغير أبو عوف، إلى جوارها يغفو حيناً ويصحو حيناً، وهو على الدوام قابع فى حجرها، يحتمى به مما حوله من القبور والحقول والرجال الغامضين الذين انصرفوا منذ قليل.

ولولا أن الست راضية جاءتها تزور، وجلست معها تتحدث عن أشياء مختلفة وتداعب "أبو عوف" الصغير مداعبات طيبة رقيقة، وتستعيد معها بعض الذكريات القديمة الحبيبة، وتروى لها عن مرزوق ابنها الحكايات والروايات، وكيف شغلته عزبة الخواجة عن كل شىء، حتى لم تعد تستطيع أن تراه، وكيف يطلب منها أن تذهب لتعيش معه هناك، لكنها لا تستطيع أن تترك الشيخ مختار وحده، وهو محتاج إليها، حتى يستطيع أن ينصرف إلى خدمة الجامع.

– انه بيت الله يا ست الشيخة، ولابد أن أساعده على خدمته، فلا ينشغل عن خدمته بشىء. هذا هو الباقى يا ست الشيخة. والله لا أولاد، ولا عزبة، ولا شىء باق إلا هذا. الجامع أحق بى وبالشيخ مختار من مرزوق. "خلاص، مش بقى راجل؟ يعرف شغله ".

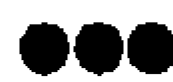
وتعقب الشيخة قائلة:

– "وإلا يشوف له عروسة تريحه".

وتضحك الست راضية سعيدة بأنها أنجبت ولداً، وأن الولد كبر، وأنه وصل إلى سن الزواج.

ولولا هذه الزيارة، لما مر الوقت على الشيخة، بهذه السرعة وهذه البساطة، لكن ربنا أرسلها فى الوقت المناسب لتخفف عنها.

وعندما انصرفت الست راضية، كانت الشيخة تفيدة قد استعادت هدوء نفسها، فأخذت تستعيد منظر الرجال الذين أقبلوا هذا الصباح، وكلامهم الخائب الخبيث، وحركاتهم المريبة، ونظراتهم الجوفاء، ثم تمنت أن تكون سبيلة الغجرية قد سبقتهم إلى الأستاذ عيسى، و إلا الله وحده يعلم ماذا يحدث لو سبقوها هم إليه.



ولكى تقطع الشك باليقين همت بأن تذهب إلى "أبو المكارم" تسأله ماذا حدث. هل ذهب إلى سبيلة؟ وهل وجدها؟ وهل أسرعت إلى الأستاذ عيسى؟

لكنها ما أن تخطو خطوات فى طريق الساقية، حتى تراه قادماً نحوها متهلل الوجه يشير إلى الناحية القبلية حيث كانت سبيلة تشق الطريق عائدة بما تنتظره الشيخة من أخبار.

وتسمرت الشيخة فى مكانها، لتستقبل "أبو المكارم" القادم من عند الساقية، وسبيلة العائدة من عند الأستاذ عيسى.

وبغير كلام، ألقت سبيلة أمام الشيخة بشىء كانت تحمله.

وحملقت الشيخة مذعورة، وقد تملكتها دهشة بالغة، وأخذت تقرأ ما أمامها من أوراق، فلما فرغت صاحت تقول "لأبى المكارم":

- أخفها... أخفها يا عمى عن كل العيون.

ثم سألت سبيلة فى سرعة:

- من أعطاك هذه الأوراق؟

قالت سبيلة فى سذاجة:

- هو. عيسى افندى. أنا أعرفه. قال اذهبى بهذه الأوراق بعيداً قبل أن يحضروا. إياك أن يراها أحد. ماذا فيها يا ست الشيخة؟

قالت الشيخة:

- أولاً قولى لى. هل قلت له من أرسلك؟

قالت سبيلة:

- أبداً يا ست الشيخة وهو لم يسألنى. لقد وجدته وحده فى الدوار، فقلت له ان رجالاً من البندر يسألون عنك سألوا عنك الفلاحين فى الحقول، وهم الآن فى الطريق

إليك. عندئذ أسرع إلى الداخل، وأحضر هذه الأوراق وقال أسرعى بها، إلى مكان آمن. إياك أن يراها أحد.

قالت الشيخة:

- ولم يسألك من أرسلك؟

قالت سبيلة:

- أبداً ... هذا كل ما حدث.

قالت الشيخة:

- ولم يسألك من تكونين؟

قالت سبيلة:

- لكنه يعرف من أكون، وأهلى يخفرون لهم حقولهم يا ست الشيخة.

والتفتت الشيخة إلى "أبو المكارم" وهى تقول فى حدة:

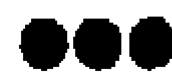
- ألا تزال تنتظر يا عمى؟ أرجوك. ان حرية الرجل ومصيره مرتبطان بهذه الأوراق. أخفها وإلا فالله وحده يعلم ما يصيبه بسببها.

وأسرع أبو المكارم والأوراق فى حضنه، يبحث لها عن مكان آمن وأمين.

بينما الشيخة تحدث نفسها بأنها لم تكن تتصور أن الأستاذ عيسى على هذا القدر من الدهاء، أو أنه على هذه الدرجة من المشاركة الوطنية.

وقالت لنفسها:

- والله عال.. لأ البلد بخير. والله بخير.



وعندما حل المساء، وسرت فى الجو نسمة رقيقة هادئة، واهتزت فروع الشجر تتهادى أو تتدلل، واتصل سرب فتيات جميلات حاملات من الموردة إلى مدخل البلد، وعلى

رءوسهن الجرار الفخار، تتثنى فى لين، تارة عن يمين وتارة عن يسار، وشباب عطشان قابع بين الحقول، يطل هنا وهناك على الجرار وحاملات الجرار.

عندما حل المساء، وقرص الشمس قد ترك فى الأفق، مثلما تترك القبلة على الوجنات من الخجل القانى، والحقول الخضر قد خلت من الناس، وأخذت تستبدل حلة النهار الصاخبة، بحلة الليل الواسعة... لتنام.

عندما حل المساء، وضريح سيدى الذكيرى يبدو كأنه يتحرك فى تؤدة رزينة كمن يذكر الله، تعبداً وقربى، وشفاعة لمن التفوا حوله، من الذين ذهبوا يلتمسون رحمة الله.

عندما حل المساء، والساقية تدور، والثوران يدوران حولها، وصوت متصل رتيب يكمل اللوحة البديعة هنا، فتدركها كل الحواس، وتتذوق أسرارها كل المشاعر.

عندما حل المساء، وأبو المكارم الأخرس قابع فى خميلته الرائعة، يتنقل بين أجزائها، مرة وراء الثورين اللذين يدوران، ومرة ثانية على حافة الساقية شارد عما حوله من كائنات، ومرة ثالثة تحت فروع الجميزة العريقة، لكنه دائماً عند بطن الصفصافة يتحسس فردة الشراب الأحمر.

عندما حل المساء، والشيخة تفيدة تتأمل ما حولها من كائنات، وتتنهد لعلها تخرج ما فى قلبها من الحنين المخزون، الذى يفيض بها ومنها، خاصة فى هذه اللحظات الحلوة من المساء.

عندئذ ارتفعت أصوات قادمة من بعيد. وكانت أصواتا جافة غليظة، تتداخل حتى لتصبح أقرب إلى الصياح والعراك غير المفهوم.

وتلفتت الشيخة ترى، فلم تصلها إلا أطراف هذه الأصوات، وقد أخذت تقترب رويداً رويداً، حتى كادت تصبح واضحة لها تماماً.

هم هم، الرجال الكالحون الذين مروا من هنا هذا الصباح، وهم عائدون من الرحلة التعسة التى بدأوها بحثاً عن أشياء مختفية فى منزل الأستاذ عيسى. لكنهم تكاثروا عما كانوا.

وأخذت الشيخة ترقب الطريق، لترى ماذا حدث.

وبدأ الرجال يظهرون من بين الحقول، واحداً بعد واحد.

لقد انضم إليهم عدد من الغفر، وعدد من الأهالى، وبينهم شاب صغير يسير فى عزة وكبرياء، رافعاً قامته فى غير اهتمام.

ولم تستطع الشيخة أن تجد وقتاً للتفسير.

انها لم تر هؤلاء الرجال من قبل، ولا الخفراء، ولا الفتى الوسيم.

هل هم من البلد القريبة التى كانت مقصدهم، والفتى بينهم؟ هل هو عيسى.. الأستاذ عيسى، المحامى الصغير؟

كانت المفاجأة سريعة، فلم تترك لها أن تؤول أو تفسر أو تترجم ما تراه. من هؤلاء؟ ومن يكونون؟ ومن الفتى الرقيق الشامخ الذى يحيطون به؟

وجاءتها الاجابة مما يدور بين الرجال من أحاديث.

- ماذا فعل لكم الأستاذ عيسى؟

- انه أشهم واحد فى بلدنا. يترافع عن المظلوم، ويدفع رسوم القضايا للمحتاج.

- يا اخوانا لا داعى لهذا الكلام.

- لماذا يا أستاذ عيسى؟ يجب أن يعرفوك على حقيقتك. يقبضون عليك كأنك لص، وأنت المحامى الشهم الكريم؟ والله الدنيا لم يعد فيها خير يا أولاد! ماذا تركوا للصوص والسفاحين، هؤلاء الناس؟

- وما ذنب هؤلاء؟ انهم مكلفون بشىء، وعليهم أن ينفذوه. لا تلومهم فالذنب ليس ذنبهم.

- عليك نور والله يا أستاذ عيسى. قل لهم ليفهموا. كلنا عبد المأمور. ماذا نفعل؟

– أنتم الذين تأخذونه منا! الرجل جاء فى أجازة لزيارة أهله وأقاربه. هل صارت الدنيا بلا أمان؟ ماذا فعل؟

– يا ناس، هل هو ذاهب إلى السجن أو المشنقة؟ تحريات! انها تحريات بسيطة ثم يعود.

– يا سلام! وكرامة الناس أهى سهلة هكذا؟! تأخذون من تشاءون تحريات!! وتتركون من تشاءون تحريات!! وباسم التحريات ترتكبون أى شىء؟!!

وأدركت مديحة من مكانها هذا الجليل، فى هذا الوقت الساحر من المساء، كل شىء. وراعها أن يأخذوا الأستاذ عيسى على هذه الصورة الكريهة، وأن يسيروا به من بلده إلى محطة السكة الحديد، مخترقين الحقول والمزارع والأجران، مارين بناس يحرثون، أو يحصدون أو يغنون، أو يتصايحون.

وأخذت تستعيد ما قرأته فى الأوراق التى سلمها للغجرية، وكان الكلام حلواً كالسكر، لذيذاً كالترمس، مسكراً كالخمر! أى والله، وكان شجاعاً جريئاً لا يعرف الخوف أو التردد.

وبينما مديحة تردد لنفسها بعض عباراته، إذا هى تلمح من بعيد سبيلة الغجرية تسير على حافة الرياح، وحولها عدد من أهلها الغجر.

وكانت تبدو هذه المرة فى هيئة تأهب واستعداد، كالنمرة.

ولم تعرف الشيخة لذلك سبباً، وقالت فى نفسها: لعلها ضرورات الحراسة، أو لعل أهلها قد تلقوا أنباء عن نوايا شريرة تدبر سرقة بعض الحقول فى هذه الناحية.

لكن ذلك كله لم يلبث أن تبدد، عندما أخذ الغجر يمطرون الجمع وابلاً من رصاص بنادقهم، يمر من فوق الرءوس فيكون له أزيز مخيف مرعب.

وتفرق الجمع. حتى الرجال الكالحون لم يستطيعوا أن يصمدوا، فهربوا بحياتهم، وأخذوا يتسابقون بين الحقول، وقد طأطأوا رءوسهم خشية الوابل الطائر من الرصاص.

واحد فقط هو الذى ظل فى مكانه بلا حراك.

المحامى اليافع الرقيق، الذى ساقوه... تحريات!! الأستاذ عيسى.

انه وحده الذى ظل فى مكانه لا يتزحزح.

بينما الرجال جميعاً قد هربوا.

حتى الخفراء هربوا، وكان لابد من أن يهربوا، فهم قبل أن يكونوا خفراء من أهل بلدته، وقد يكونون له أصهاراً أو أقارب.

وكأنما أراد الغجر أن يهيئوا فرصة للأستاذ عيسى، ليهرب بنفسه، وبحريته، ويعود أدراجه إلى أهله، يستمتع معهم بأيام هنيئة.

لكن الأستاذ عيسى ظل حيث كان لا يتحرك، فلما سكتت أصوات الطلقات، وساد الهدوء الرهيب الذى يعقب العاصفة، ابتسم الأستاذ عيسى، كأنما يشكر بابتسامته الذين أرادوا أن يمكنوه من الهرب.

ثم قال فى هدوء:

- لكن ذلك كله شىء لا داعى له. لماذا؟ وهل هذا حل؟ وفيم الهرب، وأنا برىء، والله العظيم برىء. لن ينالوا منى شيئاً. هم الذين سيتعبون. نعم هم، أما أنا، فإنها تسلية لطيفة.

ونظر حواليه يقول:

- تعالوا يا رجال. تعالوا نستأنف المسير. تعالوا نذهب معاً... تحريات!!

ولم يقبل أحد، فظل ينتظر حتى بدءوا يقبلون عليه، ثم استأنف الرحلة إلى نقطة البوليس.

لقد كانت اللحظات مثيرة سريعة، مرت كالومض، ولم يكد هذا الموقف ينتهى، ولم تكد الشيخة تستعيد ما مر حولها من الرؤى، حتى وجدت أمامها سبيلة الغجرية تقول:

– قولى لى يا ست الشيخة. ليس عيسى أفندى ما هرب؟

قالت الشيخة:

– لا أدرى. لكنه قال أنه برىء، وأنه لا يريد الهرب.

قالت:

– يمكن خاف يعرفوا مكانه. والله لو كان هرب وجانا، ما كان الجن عرف مكانه.

قالت الشيخة:

– ياه...ولا الحكومة؟

قالت الغجرية:

– قلت ولا الجن. وهل الحكومة أشطر من الجن؟

قالت الشيخة:

– وهلا تخافين؟ هلا يخاف أهلك؟ ما هذا الرصاص كله؟

قالت سبيلة:

– "الخوف ما بيطول عمر، وما بيزيد على المقدر شىء" المكتوب مكتوب، ونحن الغجر نؤمن بالله، ولا نخاف الناس، الحكومة ناس يا ست الشيخة. هل الحكومة شىء أكثر من ناس؟ ناس بتحكم ناس، وناس بتخاف ناس، ولا دول أحسن من دول، ولا دول أوحش من دول، والمسألة كلها أن كل موهوم فى الثانى وخايف منه. الحكومة تخاف من الأهالى، والأهالى يخافون الحكومة، والحقيقة وين؟ وصاحب القوة الحقيقية وين، لا أحد يدرى. أما نحن الغجر ففى واد آخر. لا يهمنا هؤلاء ولا أولئك.

قالت الشيخة، وقد فغرت فاها فى دهشة:

– الله. انك صاحبة فلسفة يا سبيلة، ولابد أنك فيلسوفة. من علمك هذا يا بنت؟

قالت سبيلة الغجرية:

- الزمن يا ست الشيخة، وأهلى الغجر، الذين لا يعرفون معنى للخوف. وممن يخافون؟ وعلام يخافون؟ الحياة؟! الطين؟! الملك؟! نحن لا نملك شيئاً. لا شىء نخاف منه، أو عليه.

قالت الشيخة:

- لكن هل مسكم أحد بشىء؟

قالت سبيلة:

- يا ندامتى يا ست الشيخة. وهل الذى يمس عيسى أفندى لا يمسنا؟ انه يمسنا كلنا يا ست الشيخة. يوم أن يعملوا هذا فى عيسى أفندى، فلا أمان يا ست، أبداً، نحن نطلب منه الأمان، فإن فقده هو، فهل نستطيعه نحن لأنفسنا أو للآخرين؟ اننا ندافع عن عيسى أفندى وعن أنفسنا، لكنه لا يريد. إياك يكون خائفاً علينا!! إياك أراد أن يضحى بنفسه من أجلنا!! تبقى مصيبة، فنحن قادرون على أن نحمى أنفسنا، وعليه هو أن يلتفت لنفسه. يا ليته هرب، كانت الحكومة عرفت أن الله حق.

وقبل أن تتم سبيلة كلامها، كان أبو المكارم قد وصل إليهما عند ضريح سيدى الذكيرى، وهو يلهث من تعبه.

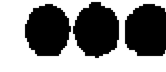
وأشار أنهم الآن فى النقطة، وأن ضابط النقطة قد استقبل الأستاذ عيسى بكل ما يملكه من الثورة عليه، وأنه صاح فيه يقول: ستخرب بيتى. أنت ستخرب بيتى، وأنه أودعه التخشيبة حتى يرحله صباح غد إلى المديرية.

وهزت الشيخة رأسها تعجب، وهزت سبيلة رأسها تستنكر، ثم

قالت:

- ماذا فعل يا عمى أبو المكارم؟ ولماذا يحملون عليه؟ لماذا أخذوه؟

وهز أبو المكارم رأسه، ثم انصرف عنها بغير أن يجيب. وقبل أن ينصرف تبادل مع الشيخة نظرة صامتة، لكنها نطقت بكثير من التعبير عما لا يستطيعان أن يبوحا به لأحد.



المعلمة وردة النقرزان كانت هى التى لمحت المنظر، وهو قادم، يتحرك فوق جسر الرياح. كانت تشم الهواء الرطب الرقيق، عند جسر الرياح عند المحطة، عندما رأت الجسر قد صار كتلة بشرية تتحرك، قادمة نحوها.

وكان معها المعلم مبروك وعدد من الرجال والفتيان.

أبو اليزيد الحمار، الذى يحب دعابتها، ويترنح من فرط ما تضحكه.

محروس بن الشحات، الفتى البكر لخضرة السمراء الشهية، زوجة المعلم بيومى.

مرزوق بن الشيخ مختار، من الست راضية بنت الشيخ مرزوق الكبير الذى ذهب إلى الحجاز مع "أبو سريع" ليحج، فعاد أبو سريع، وظل الشيخ هناك فى ثرى الحجاز الطاهر الزكى.

دياب بائع الصحف الذى يجمع قروش كل يوم ليحملها إلى أمه تسد بها رمق أخوته الصغار.

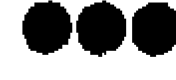
جلال الصغير ابن المعلم بيومى، من خضرة، وقد تعلق بذراع أخيه محروس.

شبل الصياد الصغير، الذى ذاق الطرد من بلده، وعاش مع جده وجدته وإخوته كدود الأرض، يدفعون الضريبة التى فرضها أبو سريع، كفارة عن زواج عمته سالمة من جلال ابن تفيدة، النجس كأمه!

كل هؤلاء وغيرهم كانوا معها، ورأوا مثلما رأت جسر الرياح وقد تحول إلى كتلة لحم بشرية قادمة نحوهم.

ولما مرت بها هذه الكتلة البشرية، ابتسمت فى رقة وحنو، فابتسم لها فى ثقة وتفاؤل.

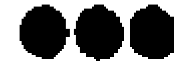
ولم تقل المعلمة شيئاً، ولم تسمع ما قيل حولها، فقد كانت تفكر فى شىء آخر ملك عليها كيانها كله.



وبعد همس سريع، صبته فى أذن المعلم مبروك صباً، عادت إلى مكانها فى القهوة، بينما استأذن منها المعلم مبروك، لارتباطه بعمل هام، واستقل سيارة الجوهرى ومضت به كالسهم.

واتخذت المعلمة مجلسها من القهوة، وفى فمها المبسم الكهرمان، ودخان الشيشة يتصاعد، فيخفى وجهها خلف غلالة رقيقة من دخان أبيض، وأكواب الشاى وفناجين القهوة تروح وتجىء فى شبه انتظام.

وناس حولها قد اتخذوا مجلسهم منها غير بعيد، معجبين بما وهبها الله من القوة والصلابة والجمال. انها تتخفى وراء زى الرجال، لكن الأنوثة تطل منها رغم كل ما تبذله من جهود.



لكن المعلمة كانت تبدو هذه الليلة عصبية، ومتناقضة.

فهى تضحك من قلبها، وتبحث عن وسائل لمزيد من الضحك. لكنها مع ذلك تقسو فى تقريع جرسونات القهوة، إذا تباطئوا أو أبطئوا. وهى بين الحين والحين تسأل أقرب شخص إليها: "ساعتك كام" وتنسى أنها سألت، فتسأل مرة أخرى، كمن يريد أن يتثبت من شىء مشغول به، أو قلق عليه.

وكان وجهها يكتسى أحياناً بالعرق، فتمسحه ضيقة به مستاءة منه، وتتنهد بعدها وهى تقول: "يوه... الدنيا مالها"، يا ساتر!!

وفجأة سمعت أصواتاً ترتفع فتبدد الصمت والظلام، فى وقت السحر.

وأنصتت لتتبين ما يقال، ولتتعرف على أصحاب هذه الأصوات.

وعندما تأكد لها أن أهل الأستاذ عيسى عائدون به، بعد أن أطلق سراحه، كادت تطير من فرحتها، فهبت تثب، كأنها وردة تفتحت أوراقها تحت قطر الندى منذ حين، واستبدت بها فرحة التفتح، فحرصت على أن تطل على الطبيعة، والوقت بعد، شروق.

ووقفت فى طريق الموكب العائد، تبارك لهم ما ثبت من براءة الأستاذ عيسى، وترجو ألا يصادفهم بعد ذلك إلا الخير.

وشكرها الناس من أعماقهم. أما الأستاذ عيسى فقد اتصلت نظراته بنظراتها فى لقاء هادىء متزن، ومد يده يصافحها، فمدت ذراعيها تعانقة، فهمس يقول لها: هكذا سريعاً؟ فردت الهمس بالهمس: طبعاً. البركة فى عبد الرحمن. لابد أن "مبروك" ذهب إليه.

وكان الجهد قد أنهك المعلمة، والسهر بها قد طال، فذهبت إلى دارها، لتنام، وتحلم بأشياء جميلة رقيقة، لا تراها أبداً فى حياة اليقظة.

وعندما سألتها خضرة فى اليوم التالى عن زوجها، قالت لها تداعبها:

- هل اشتقت له... جداً؟

قالت خضرة فى شوق وحنين: جداً... أى والله جداً يا معلمة.

قالت المعلمة: يا بت. هلا يفترق الأزواج عند اللزوم؟

قالت خضرة: والفراق دائماً صعب، خصوصاً...

وأسرعت المعلمة تقول: بين العشاق.

قالت خضرة: الله يا معلمة؟ أهكذا "تكسفينى؟ ".

قالت المعلمة: فات الكثير ما بقى إلا القليل.

ونظرت خضرة إلى الأرض وهى تقول لها: أمرك. أمرك يا معلمة.

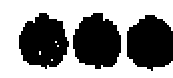
وعندما همت خضرة بالانصراف، أخذتها المعلمة بين ذراعيها، وأخذت تقبلها، وهى تمسح على رأسها تارة، وتربت على خدها تارة، وتعبث بشعرها تارة، وخضرة مرتاحة إلى هذا الحنين متأثرة به، حتى لقد غلبتها دموعها، فقالت لها المعلمة تنسيها همها: المعلم مبروك عنده حق. كل مرة أطلب منه السفر، يحاول يفلت منى... عنده حق. يلقى كل هذا.. أين؟ يا بخته!

ولم تتركها إلا بعد أن تبسمت فى اطمئنان وأمل.

ولم تمض أيام حتى جاء المعلم مبروك فى زيارة خاطفة ثم عاد، بعد أن اختلى بالمعلمة، وتهامسا بأشياء كثيرة، حملت المعلمة على الاهتمام وعمق التفكير والانشغال.

وأخذت المعلمة تصحو بعد ذلك مبكرة، وتطلب أول ما تطلب، صحف الصباح. لا تفطر، ولا تشرب الشاى أو القهوة، ولكنها تطلب الصحف، وتقلب فيها بسرعة، ثم تطلب واحداً من الذين يقرأون لها ليتلو عليها ما فى صحف الصباح، بصوت مسموع.

كانت تستعين بمحروس أو بمرزوق أو بواحد من الرجال الذين صاروا الآن يكتبون ويقرءون فى سرعة وطلاقة.



وهناك عند ضريح سيدى الذكيرى، دخل المعلم بيومى فى الجبة والقفطان فغدا الشيخ عبد الرءوف. كان عليه أن يتعرف على رأى مديحة، وأن يستهدى بخبرتها. وكانت الصحف قد نشرت تصريحات رسمية أعلنها رئيس الحكومة فى البرلمان، سب فيها الاستعمار، وهدد الانجليز بالشر المستطير.

قالت مديحة: هذا شىء جديد ومفاجىء.

قال ممدوح: وتصدقين؟ وتنخدعين؟

قالت مديحة: المسألة ليست مسألتى، فأنا على علم بهذا، ولن يخدعنى، لكن الناس. ماذا سيظن الناس؟

قال ممدوح: وهذا هو القصد الحقيقى. يسيرون مع التيار، ثم يجرون الناس إلى خرابة مظلمة ليتخبطوا فيها، ويتوهوا بين الجن والنداهات!

قالت مديحة: من أجل هذا، فإن الخطة التى توضع، يجب أن تفترض فيهم الوطنية الجارفة. نجرهم نحن إلى هاوية لا يفيقون منها أبداً.

قال ممدوح: أنت أنت، وستظلين أنت، حتى لو وضعوا على رأسك عمامة الشيخ عبد الرءوف!

وافترقا على تدبير.

وبدأت المظاهرات، وامتلأت صفحات الصحف بأنباء مفصلة عن غضبة الشعب على الاستعمار.

وكانت المعلمة وردة تكاد أن تستقبل بنفسها قطار الصباح، لتقرأ ما فيه من أخبار المظاهرات وتسمع إلى محروس يتلوها عليها فى صوت منغم كأنه خطيب. وقد تستبدل "محروس" بمرزوق، أو برجل من رجالها الكثيرين.

- العنوان يا معلمة: مظاهرات الشعب تؤيد رئيس الوزراء. الهتافات تدوى بخروج قوات الاحتلال لتنفيذ قرار الحكومة الرشيدة.

وابتسمت المعلمة وردة من قلبها، وكادت تصفق بيديها لما تسمعه من أنباء.

وفى داخلها شعرت بالاعتزاز بالرجال الذين يتحركون هناك فى ذكاء.

لابد أن المعلم مبروك قد نشر صبيانه فى كل مكان، يبيعون الصحف، وينقلون الرسائل بين المجاهدين، كالحمام الزاجل.

ولابد أن ممدوح - وهو يتخفى فى زى الطالب بيومى جمعة الصايت - يتنقل كالعصفور فى كل مكان، ينقر على الزجاج ليستيقظ النيام.

والدكتور اسماعيل والضابط عبد الرحمن، وعدد لا يحصى من الرجال والنساء يعلمون فى مختلف العمال، لكنهم يتجمعون حول الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

لابد أنهم لا ينامون، ولا يأكلون ولا يشربون... لتأييد الحكومة! وتأييد بيان رئيس الحكومة!!

وصاحت تقهقه من أعماقها، وهى تكاد تنادى مع المنادين بحياة حكومة الخونة، طالما أنها تستعير كلام الوطنين!

وتقول المعلمة لمن يقرأ لها الأخبار:

- إيه؟ هيا. أكمل... اقرأ.

ويمضى الصوت بين أنهار الصحف يتلو على مسامع المعلمة ومن يكونون حولها فى هذا الوقت المبكر من الصباح:

- لقد تجمع آلاف من الطلبة والعمال والمحامين والأطباء ورجال الأعمال حول ثكنات قصر النيل، حيث يقبع جنود الاحتلال. والحق أن الحكومة لم تتدخل، وما كان لها أن تتدخل، ولا يزال صوت رئيس الوزراء فى مجلس النواب يتردد صداه فى كل مكان، مطالباً بالجلاء عن كل شبر من أرض مصر. لكن قيادة قوات الاحتلال فى ثكنات قصر النيل وفى ميدان الاسماعيلية فى مواجهة الجامعة الامريكية، قد أصدرت أوامرها إلى الجنود بالتأهب والدفاع عن الثكنات واطلاق النار على المتظاهرين إذا هاجموا الثكنات.

لكن الشعب لم يخف من مظاهر الاستعداد والتأهب.

ولد صغير. طفل لم يكد شب عن الطوق إلا أمس، قد أخذ يلاعب جنود الإمبراطورية، كما يلاعب القط الفار... وهم من هم، وفى أيديهم بنادق محشوة بالرصاص، يتحصنون وراء الأسلاك الشائكة والأسوار العالية، وهو أعزل لا يملك إلا ما عليه من جلباب من قماش رقيق مخطط، وطاقية بيضاء، وصندل كوتش، وقلب من حديد، ودعابة رائعة.

اختار معسكر ميدان الاسماعيلية، وكانت أسواره من خشب.

وبينما المظاهرات تهتف بحياة مصر، وتطالب بجلاء الانجليز، أخذ هو يحرق أسوار المعسكر بطريقة ذكية ومدهشة! كان يسير بحذاء السور تماماً وفى يده جريدة ملفوفة كالقرطاس

الكبير، وجيبة منفوخ بنشارة خشب خفيفة وسريعة الاشتعال، وعلبة كبريت فى يده. وعندما يستقر رأيه على مكان، كان يجلس ويضع النشارة إلى جوار السور، ويشعل الجريدة بالكبريت، ويضعها فوق النشارة فتشتعل، ثم تمتد من النشارة إلى السور الخشب. ويترك المكان ليعود فى حذاء السور كأنه جزء منه، وابتسامة عريضة على شفتيه، ويداه تتحركان فى مدار مرسوم مع رقصات مرحة يعود بها تملؤه البهجة، ويستبد به الفرح.

والناس ترى هذا وتصفق له فيطرب طرباً شديداً جداً، ويتوقف ليرد التحية بأحسن منها، وهو يضحك ملء شدقية. ثم يعود إلى رحلته تلك، فى ذهاب وإياب، لا ييأس.

والعساكر يحاولون أن يتصيدوه، دون جدوى.

انه ملاصق للسور، ومن المستحيل أن ينالوه!

لكن الناس كانوا خائفين عليه، وكانوا يرقبونه ويرقبون العساكر وهم يحاولون ضربه بالرصاص، فيصيحون يحذرونه، وهو غير عابىء. واكتفى الناس بأن وضعوا قلوبهم مع كل خطوة يخطوها، داعين له بالنجاة من هؤلاء. أما جنود المعسكر فكانوا فى حالة شديدة من العصبية. كانوا يتبادلون اللوم والاتهام، ويتناول كل واحد المهمة وهو يصر على قتل هذا الطفل الوقح الذى يحرق جلد المعسكر ليعريه! لكن أحداً لم ينجح فى قتله، فأخذ يحرق السور قطعة قطعة حتى كاد يأتى عليه كله.

وأخيراً، وبعد أن كاد النهار ينتصف، اتصل المعسكر بحكمدارية القاهرة، لتتصرف مع هذا الغلام. وصدرت تعليمات صريحة بضربة بالرصاص من خارج المعسكر. نعم لابد من قتله حتى لا يتجرأ على المعسكر سواه. ووضعت خطة محكمة. تبدأ قوات الأمن تفرق المظاهرات، ثم تدخل مع المتظاهرين فى صراع، ثم تستعمل الرصاص للتهديد، ثم تطيش واحدة تستقر فى قلب الغلام.

وقبل أن تنفذ الخطة بلحظات، جاء من يسر بها فى أحد الآذان، فطار إلى المعسكر، وتربص للغلام فى آخر السور، فلما عاد إلى حيث يملأ جيبه بالنشارة، ويحصل على

جريدة، أمسك به مجهول وجره معه إلى بعيد، وأخفاه عن العيون تماماً. وجاء البوليس، فلما لم يجد الغلام سخر من تبليغ المعسكر، ووقف أفراد القوة ينتظرون تعليمات أخرى!!

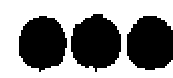
وفتى آخر أكبر، صعد إلى سطح الجامعة الأمريكية دون أن يراه أحد، ولم يكن معه إلا نبلة صغيرة من نبل الأطفال وبضعة زلطات. وبينما كان حرس المعسكر يمسكون بنادقهم فى تأهب، ويحتلون أماكن دفاعية فوق أسوار المعسكر إذا بالفتى يصوب نبلته نحو أحدهم، ويرميه بزلطة، فتصطدم بالخوذة الحديدية فوق رأسه، وتحدث دوياً كأنه الانفجار. ويصيح الجندى من الرعب، وهو يتصور أن قنبلة قد انفجرت فى رأسه، وأنه مات!! أما الآخرون من زملائه الحراس، فيطلقون الرصاص فى الهواء من الذعر. ويختفى الفتى وراء سور الجامعة. فما أن تهدأ الحال، حتى يعود إلى نبلته ليصوبها فى خوذة جندى آخر، ليصيح فى هلع، ويضرب زملاؤه النار من الوهم، وجماهير الشعب تضحك!

وكاد الفتى ينكشف، فاقتحم مجهول الجامعة الأمريكية، وقفز درج السلم مسرعاً، وجرى نحو الفتى، وكان على وشك أن يهب ليصوب حصوة أخرى إلى خوذة أخرى، فجره إليه ومنعه، فى نفس اللحظة التى كانت تنتظره رصاصة أحد الحراس، ممن كشفوه بعد أن عذبهم بالحصاد والزلط والوهم!!

وآخرون، وآخرون كثيرون كانت لهم مواقف رائعة.

باعة الصحف. كمسارية الترام. رجال الاسعاف.

حتى عساكر البوليس كانوا ضد الانجليز. انهم يرتدون الخوذات ويحملون العصى، لكنهم مع المتظاهرين. ولكم حملوا إليهم الأنباء، ونبهوهم إلى الخطر حتى لا يقعوا فيه.



وصاحت المعلمة وردة من فرحتها تقول:

هذه واحدة.

وهبت تقبل القارىء الصغير وتشده من شعره، من فرط ما أصابها من الفرح، ثم عادت إلى مجلسها، لتشد نفساً عميقاً من خلال المبسم الكهرمان، وهى تقول:

هيه.. أكمل.. كلام حلو كالسكر. هيا اقرأ.

ومضى الصوت يردد الوصف:

– والأدهى ما حدث أمام ثكنات قصر النيل.

المتظاهرون اعتلوا الأسطح المجاورة، فى العمارات وفى وزارة الخارجية، وانهالوا على الثكنات يقذفونها بالطوب.

وأطلق الحراس النار، فلم يصيبوا أحدا أول الأمر، ثم بدأت الطلقات تصيب. أصابوا سيدة فقيرة مسكينة من البائعات الجائلات فاهتزت المظاهرات بالثورة، ثم أصابوا تلميذاً صغيراً يحمل كتبه على ظهره، فخر على الشارع عند كوبرى قصر النيل شهيداً.

ولم يطق المتظاهرون على هذا صبراً، فهجموا على الثكنات ليحطموها على رءوسهم، أو يلقوا مصيرهم كزملائهم، وعندما شعر حرس الثكنات بخطورة الهجوم انطلقت الدبابات تقتحم الميدان، وتتعقب المتظاهرين، وتسير خلفهم حتى أول شارع سليمان باشا، ثم فى الشارع نفسه، حتى كلوب محمد على.

ولم يسكت المتظاهرون فأخذوا يقذفون الدبابات بالحجارة، ثم بالرصاص.

وردت الدبابات على طلقات الرصاص بطلقات أشد.

ووقع على أرض شارع سليمان باشا شهداء.

وتصادف أن كان رئيس الوزراء فى كلوب محمد على، فشاهد الجريمة بعينيه، وقرر أن يكون شاهد اثبات عليها.

ووقفت المعلمة من دهشتها، واستوقفت القارىء لتستوضحه الأمر، واستعادته ما قرأ مرة أخرى، ثم انصرفت وهى تردد لنفسها فى همس مهموم:

- "الله.. حنلعب على بعض؟ دول يستعبطوا على دول، ودول يشدوا الحبل من دول، والبلد هى اللى فى الآخر منصابة. وبعدين؟ يا ربى إيه آخرتها؟

وقبل أن تمر من باب مسكنها لتهجع قليلاً تستريح من انفعالاتها، جاءتها الاجابة كالحلم:

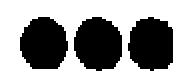
- آخرتها خير ان شاء الله. النصر فى الآخر للناس وللبلد، وللحق لا تخافى.

وظنت أنها تتوهم، وأن الحديث الذى تسمعة ليس أكثر من طنين كطنين الناموس، فقررت أن تبعده عن أذنها. لكن الصوت تكرر فى أذنها:

- لاتخافى. لا تخافى يا معلمة.

ونظرت خلفها فوجدت المعلم مبروك بلحمه وشحمه، جاء يطمئنها، ويهجع فى حضن زوجته الفاتنة، حتى يحين الحين.

وبدأت الصحف تنشر أخباراً عن مفاوضات قادمة.



وهز المعلم بيومى رأسه، وهو يشد شباكه، والسمك يتلألأ تحت أشعة الشمس فى ومض جميل متقطع، ثم قال لمحروس:

- مفاوضات.. مفاوضات قادمة. ولحست الحكومة كلامها فى مجلس النواب. ولحس رئيس الحكومة شهادته ضد الدبابات التى سفكت دماء الوطنيين. "يا بلد يا بلد. غمضوك يا بلد. كتفوك يا بلد، حيغرقوك يا بلد. فوقى يا بلد. اصحى يا بلد.. فتحى يا بلد..

وظل المعلم يردد هذا الكلام وهو يتحرك به كمن يرقص، ومحروس الفتى، لا يدرى ماذا يعنيه عمه المعلم بيومى، وماذا يقصده بهذا الكلام.

وهناك عند ضريح سيدى الذكيرى جلس المعلم بيومى يتبرك بالمقام الطاهر، ويسمع إلى الشيخة وهى تخاطبه.

قالت الشيخة:

- محاولة جديدة ذكية. جلاء. الانجليز خارجون يا معلم!!

قال المعلم بيومى:

- وتسليح الجيش المصرى. وحل مشكلة السودان. لا خلاف!!

قالت الشيخة:

- وحلت القضية الوطنية! وعلى أية أيدى؟! أحياناً يكون للقدر مزاح ثقيل!

قال المعلم، وهو يتلفت حوله فى حرص:

- سينكشفون.

قالت الشيخة وهى تضم ابنها إلى صدرها:

- تبقى مصيبة إذا لم ينكشفوا. آهو! ربنا موجود.



لا الشيخ عبد الرءوف، ولا المعلم بيومى، ولا هذه الساحة الطيبة حول سيدى الذكيرى والساقية، ولا محطة السكة الحديد وحلقة السمك والقهوة والدكاكين، ولا عزبة الخواجة، أصبحت تجدى. لم يعد شىء من ذلك كله قادراً على أن يطفىء اللهب فى قلب ممدوح. كان يجر الشباك، فتصطدم بما فى قلبه من مخاوف. كان يجلس فى القهوة فيشعر أن الكرسى الذى يجلس عليه قد صار من الجمر. كان يحمل "جلال" ابنه، فتكاد صيحاته الطفلة الساذجة أن تتحول فى أذنيه إلى قصف مدافع!!

وهرب من كل ذلك.

هرب من جبة الشيخ عبد الرءوف، شيخ الضريح.

وهرب من شباك المعلم بيومى صياد السمك.

وهرب من الساحة المباركة ومحطة السكة الحديد المزدحمة بالناس والتجارة والعمل.

هرب من نفسه.

هرب من أسمائه جميعاً، وعاد إلى القاهرة بغير اسم على الاطلاق.

حتى ممدوح أصبح بغيضاً إليه، ولم يعد يطيقه.

ومضى كالسر فى طريق مجهول لا يدرى إلى أين يقوده، وكيف ينتهى فيه مصيره.

وصاح لنفسه، بينه وبين نفسه:

- عمر ضائع! عمرى هذا ضائع! أعمار أخرى كثيرة ضائعة من عمرى الضائع! يا لخيبة ما فعلنا! ويا لسوء هذا المصير!!

ما هذا الذى نحن فيه؟

ما هذا الخداع الزائف؟

نحن خادعون ومخدوعون. كلنا زيف فى زيف، وليس فينا حقيقة واحدة.

مديحة زيف.

حتى جلال كان زيفاً.

المعلمة زيف. الضابط عبد الرحمن، الدكتور إسماعيل. آلاف الطلاب فى الجامعة كل ذلك زيف. والحقيقة الوحيدة الواحدة، هى الآخرون. الوجه الآخر لهذا الصراخ الطائش، هو الحقيقة. نعم والحقيقة هى القوة، والقوة فى أيدى الخونة، والخونة هم الحاكمون، وهم المتحكمون. ثم من أدرانا؟ من الذى حكم عليهم بأنهم خونة، وحكم لنا بأننا شرفاء ووطنيون؟ من؟ اننا نحن الذين أقمنا من أنفسنا قضاة وجلادين!! ولسنا قضاة ولا جلادين! نحن مخدوعون!

وها نحن أولاء متفرجون، والآخرون يتصرفون. ثم هم يتصرفون فيحققون الآمال العريضة التى ذهب من أجلها شهداء، وسقط جرحى. انهم يحققون الاستقلال! ويخرجون جنود الاحتلال، وسيعودون من حيث يتفاوضون أبطالاً تحملهم الجموع على الأعناق! لكن لماذا تصاب هكذا بذهول، أنت يا صعلوك؟ ماذا يهمك؟ ألا يهمك أن يخرجوا أم لابد ألا يخرجوا إلا بك؟ يا أنانى يا مغرور!! يا نهار أسود، وتضيع كل دماء الشهداء عبثاً! ويضيع عمرى وتضيع أعمار كل الذين بذلوا أغلى التضحيات هباء!! أفما كان أجدى إذن أن نلتفت لأنفسنا، ولمصالحنا، ولمستقبلنا نهيء لحياتنا انسب الظروف وأحلاها، لمستقبل هادىء مستقر؟ أفما كان أجدى أن أسير فى دراستى على النهج الذى بدأته، وأكون الآن قد تخرجت فى كلية الحقوق، والتحقت بوظيفة مناسبة، وتدرجت فى سلم الترقى حتى صرت شخصاً له شأن؟ ومن يدرى، ربما كنت الآن قاضياً أو رئيس نيابة أو أى شىء هام. أفما كان ذلك كله أجدى؟ أفما كان أجدى وأحب أن أكون الآن ومديحة زوجين هادئين سعيدين؟ لكنه قدرنا قد خدعنا عن حقيقة الحياة! نعم وصور لنا الزيف حقيقة، فجرفنا إلى داخل البحر تتقاذفنا الأمواج، وندور حول أنفسنا فى دوامة بلا قرار. الموج عال وقاس وغدار. دفعنى إلى المعتقل، ودفع مديحة إلى خرابة النداهة. ثم ها نحن أولاء صرعى وتائهون. يا ربى. لماذا؟ ولماذا تفعل بنا كل هذا؟ الذين تعطيهم كل شىء، قادرون على الاستغناء عن كل شىء، والذين تمنع عنهم كل شىء، محتاجون إلى كل شىء!! لكنك ربنا، نحن لسنا إلا عبيدا. لكن لماذا لا تأخذهم إليك؟ أنقذهم يا ربى وخذهم. آه. أنت مسئول عنهم وأنت كفيل بهم. أنت خالق البسمة على شفاههم، والدموع بين جفونهم.

وطفرت من عينى ممدوح الدموع، وكان قد وصل إلى كوبرى كفر الزيات، دون أن يدرى أنه سار على قدميه عشرة كيلومترات، لم يشعر بها، كما لم يشعر بالزمن الذى مر عليه وهو سائر يحلم ويثور على نفسه وعلى وحظه وعلى نصيبه.

عندئذ وصل إلى أذنيه نداء غريب:

- البلاغ.. البلاغ. المفاوضات. الدفاع المشترك. الاتفاق على الدفاع المشترك. اقرأ البلاغ..البلاغ...البلاغ.

ولم يصدق ممدوح أن ما يسمعه حقيقة. إنه يحلم. لكن الحلم لا يلح هكذا على النائم. وأنت لست نائماً يا ولد. انك تسير على قدميك، وهذا كوبرى من حديد تستطيع أن تمسكه بيديك. أهذا كله حلم؟

ومضى الصوت:

- البلاغ. اقرأ البلاغ. الدفاع المشترك.

وأفاق. وذهب إلى بائع الصحف وسحب منه صحيفة ومد له يده بثمنها، وأخفى بين صفحاتها عينيه.

وقرأ وهو يسير، ثم وقف ليقرأ على مهل، ثم كاد يصيح من دهشته:

- الدفاع المشترك.. الدفاع المشترك. أى دفاع مشترك هذا؟ هذا تزوير. هذا ضحك على الذقون. آه يا عملاء يا أذناب. ابعد أن أصبحت القوات البريطانية فى أرض مصر عاجزة عن البقاء، تجدون المبرر لبقائها؟! تساعدونها على امتداد هذا البقاء تحت رايه جديدة، وباسم جديد؟!

وأنتم أيها الانجليز.. هذا هو المبرر الجديد لبقائكم الكريه.

دخلتم مصر بمبرر! لتدافعوا عن الخديوى!

واصبح الخديوى سلطاناً، ثم ملكاً... ولا تزالون حيث أنتم تحتلون!

فلما استحال عليكم أن تستمروا، اخترعتم مبرراً جديداً. الفراغ فى المنطقة والخطر الذى يهدد أمنها لو خرجتم. ووجودكم أيها السادة، الا يهدد أمنها؟ ألا يغرى أعداءكم بضربها؟ ألم تهاجمكم قوات النازى فى أرضنا؟ ألم تكن على وشك أن تدخل الإسكندرية وتحتل بلاده، بسببكم؟

واستعاد ممدوح كل قواه فاندفع نحو محطة كفر الزيات، واستقل القطار إلى القاهرة.

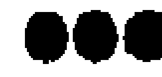
وبدأ على الفور عمله بين صفوف الطلبة والعمال.



وهبت موجة عاتية من المظاهرات فى الجامعات والمعاهد والمدارس، ثم امتدت إلى النقابات، وأصيبت المرافق العامة بشلل. كل شىء وقف وتجمد.

وهب الشيوخ والنواب يوجهون عشرات الأسئلة والاستجوابات للحكومة، ونشطت الأحزاب لتسقط الحكومة، وكل حزب يتصور أنه وحده الوريث الطبيعى لهذه الحكومة.

وظنت الحكومة أن كل هذا لعب عيال لا يهم!! انما المهم هو أن تسيطر الحكومة على أجهزة الأمن، لتوجهها كما تشاء وقتما تشاء. والحكومة تعرف أن لحظات الغليان تحتم فتح الغطاء قليلاً حتى يتسرب البخار، ثم تعود تغلق الزجاجة على ما فيها بأحكام.



وكان البخار قد انتشر هذه المرة فى كل مكان.

امتد إلى معسكرات الانجليز فى القاهرة، وفى الإسكندرية وفى المدن وخارج العمران. المعسكر الواقع فى طرف ميدان الإسماعيلية فى مواجهة الجامعة الأمريكية، كان يهتز طول ساعات الليل بالصراخ!! إن الذين فيه قد أصيبوا بانهيارات عصبية. كذلك معسكر باب الحديد المواجه لمحطة مصر، وكذلك معسكرات القلعة. إن نكنات قصر النيل العريقة نفسها قد أصبحت مصدراً من مصادر الخوف والفزع.

وبدأ نوع من حرب الحيوانات.

قطة يربطون فى ذيلها قطعة طويلة من قماش منقوع فى الجاز، ثم يشعلون القماش ويطلقون القطة من باب المعسكر. عندئذ تجرى القطة من نارها هنا وهناك، فتثير

الرعب فى المعسكر بصورة لا يقدر أحد على مواجهتها، ويصرخ الجنود مذعورين، ويهتز المعسكر بالصياح والعويل.

والكلاب وحيوانات أخرى كالعرسة.

ثم الزواحف يلقون بها فى أماكن متفرقة من أطراف المعسكرات، فيزحف بعضها إلى الخيام والعنابر، فتثير الرعب بين العساكر والضباط.

حتى هذا لم يعد يكفى. بدأت حملة خطف الأسلحة والمعدات.

اختفت بنادق ومدافع. بل اختفت سيارات. ولم تستطع الحكومة أن تعرف أين اختفت.

ثم بدأت عمليات خطف بالجملة. خطف قطار كله ذخيرة. وآخر كله بن وثالث كله سجائر، ورابع كله علب محفوظة. أى شىء بدأ يختفى بكميات كبيرة وبالجملة. ولم تستطع الحكومة أن تمنع هذا، أو تعرف مرتكبيه.

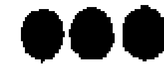
ومع هذا فقد ظلت الحكومة على اعتقادها أن هذا كله لعب عيال!

وهى فى مواجهة الانجليز تستعمل "البعبع" الذى ترتعد منه فرائص بريطانيا. إن بريطانيا خرجت من الحرب منتصرة على النازى. إنها لم تعد تخاف الألمان لكنها تخلصت من "بعبع" لتواجه "بعبعاً" ألعن. الشيوعية هى "البعبع" الجديد!! ثم هى حليفة لا تزال!! ويجب أن تتعاون معها، ولو من الظاهر!! لكن من الباطن فإن هدف بريطانيا القضاء على الكابوس الجديد. إذن تصنع ا لحكومة هذا الكابوس. نعم تصنعه وتجرى وراءه، ووراءها بريطانيا العظمى، صاحبة الأملاك التى لا تغرب عنها الشمس!!

وباسم هذا "البعبع" تضطهد الأحرار، وتملأ السجون بالمتهمين ممن يروجون للمبادىء الهدامة، وتملأ المعتقلات بالذين تدور حولهم الشبهات. وتبقى آخر الأمر على الكراسى السحرية، تحكم وتتحكم فى رقاب الناس.

وفجأة اهتزت القاهرة بنبأ جديد.

قتل وزير سابق، من أشد المؤمنين بالانجليز! الوزير الذى أعلن فى جرأة أن الرابطة بين مصر وبريطانيا كزواج الكاثوليك! وهو نفسه الذى دفع لبريطانيا دينها القديم بفوائده وملحقاته ذهباً، بينما الديون التى لمصر تنتظر حتى تنتهى الحرب ويفرجها ربنا.



وهناك فى القرية الطيبة، عند محطة السكة الحديد، كانت المعلمة وردة على القهوة تسمع ما يتلى عليها من أخبار.

ولما سمعت خبر مقتل الوزير السابق، ألقت من فمها المبسم الكهرمان وأخذت تصفق بيديها، وهى تضحك من قلبها وتصيح:

- "اثنين.. بقوا اثنين... الله! واحد اثنين.. واحد اثنين. المرة اللى فاتت قلنا واحد ودلوقتى.. اثنين. واحد اثنين. واحد اثنين".

ثم تمضى تطالب القارىء أن يكمل بقية ما فى الجريدة من أخبار:

- هيا، أكمل. هكذا الأخبار، و إلا فلا.



الشيخة تفيدة هى الأخرى كانت حريصة على أن تقف على الأخبار أولاً بأول، وما كادت تقف على مقتل الوزير السابق حتى شعرت أن المسألة بدأت تتطور تطوراً حاداً سريعاً.

وقالت الشيخة وهى تروى ما قرأته لعمها "أبو المكارم":

- ربنا يستر يا عم أبو المكارم. هذه أيام صعبة، لكن لا حيلة لأحد فيها. آه لو أنه حى.

ونظر أبو المكارم إلى قبر جلال، وهو يومىء برأسه معبراً بصمته، عن كل ما يدور بنفسه.

وامتلأت الصحف كل يوم بأنباء الحادث، والمتهمين.

ونشرت الصحف صوراً عديدة للمتهم الأول وزملائه. كانوا جميعاً صغاراً، فى أعمار الورود. وقالت المعلمة وردة لمن حولها من الرجال:

- "يا سلام يا رجالة. شايفين. دول لسه كتاكيت. شوفوا. باين عليهم ولاد ناس كويسين. لكن ما كل الولاد ولاد ناس كويسين. مش ولاد مصر؟".

وما كادت تمر أيام حتى فوجئت المعلمة فى الصحف بخبر جديد:

محاولة قتل الشاهد الأول. ثلاثة حاولوا قتل الشاهد الأول بينهم فتاة.

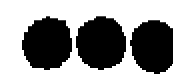
قالت تعد عندما تلى عليها الخبر، وهى تصفق بيديها:

- "ثلاثة. الثالثة ثابتة يا أولاد"

ثم قطعت حاجبيها وهى تسمع بقية الخبر وكيف تدخل القدر فى آخر لحظة فنجا الشاهد الأول، وصاحت تقول:

- "يا نهار زى بعضة يا أولاد. ليه؟ خسارة".

وذهبت إلى مسكنها لتسترح، وقد ملأ الغيظ جوانحها.



الأيام التى مرت بعد ذلك كانت عصيبة ومشحونة بالانفعالات.

حكومة تسقط وحكومة تجيء.

الحكومة تخرج خصومها من صفوفها لتستعيد قوتها.

الحكومة تؤكد أنها ستسهر على الأمن ولن تسمح لأحد بالخروج عليه.

الحكومة أصدرت التعليمات لرجال الأمن بإطلاق الرصاص على أية محاولة للتظاهر و الإخلال بالأمن.

وزارة الداخلية تتخذ أشد الإجراءات لوقف أعمال التخريب التى تدبرها العناصر الهدامة.

لكن ذلك كله لم يجد.

إن التيار كان شديد الاندفاع فجرف كل هذه الإجراءات واكتسحها، واقتلع الحكومة، لتحتل مكانها حكومة أخرى جديدة.

وتربص الوطنيون ينتظرون.

الطالب بيومى جمعة الصايت يقول لزملائه:

- ليس تغيير الحكومات هدفنا، ولكن هدفنا هو الاستقلال وجلاء قوات الاحتلال عن أرضنا لنعود سادة فى بلادنا، ندبر أمورنا بأيدينا ولأنفسنا ولأبنائنا.

وإذا كانت حكومة ما قد سقطت فلأنها فشلت فى تحقيق هذا الأمل، وإذا كانت حكومة جديدة قد اقبلت فعلينا أن ننتظر لنرى ماذا سنفعل بقضايانا. فإن مضت معنا فى طريق الكفاح الجاد لتحقيق هذا الهدف، فنحن معها وإلا فنحن عليها.

ولم تمض ساعات، حتى نادت الحكومة أبناء الشعب ليكونوا عليها.

وأصيب الناس بخيبة أمل، وهم يسمعون أن الحكومة ستعلن الحرب مع الحلفاء.

مع الحلفاء! مصيبة! هذى مصيبة!

ودماء الشهداء، وتاريخ طويل مرير من الكفاح. وأصوات عالية ارتفعت تطالب بالجلاء. كل هذا لا قيمة له، لأن حكومة جاءت بنظرية جديدة، تزعم فيها إنه إعلان شكلى، لأن الحرب فى الحقيقة إنتهت، وأن اعلانها الحرب يعطيها الحق فى المطالبة بمكاسب النصر، ويؤكد حقها فى الجلاء! هذا كذب وتحايل وتزوير!

وكان لابد من حركة سريعة فهبت المظاهرات تطالب بوقف هذه الجريمة فى حق الوطن.

لكن الحكومة لم تعبأ بكل ذلك ومضت تنفذ سياستها.

وبينما كان رئيس الحكومة يلقى بيانه فى مجلس النواب ويعلن الحرب على المحور، كان هناك فى البهو، فتى يجلس فى هدوء ينصت إلى البيان فى صمت، وإلى التصفيق يدوى فى غير حياء.

وهز رأسه وهو يردد لنفسه:

- تصفقون يا عبيد!!

تصفقون لدخول مصر الحرب مع الحلفاء!!

السيد والعبد فى طابور واحد!!

وهم! إنه وهم! إذا كنتم تظنون أنكم ستورطونهم لتشاركوهم فى الميراث فهذا وهم! انهم لصوص محترفون! إنهم قراصنة! كل ماستكسبونه هو أن تسلموا بلادكم لهم. من قبل كانوا مغتصبين، ومن اليوم سيصبحون شركاء! ومن يدرى ماذا سيفعلون. قد يجرونكم إلى اتفاقيات ومعاهدات لمزيد من النفوذ!!

وتصفقون!

وتهللون!

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!

ووضع الفتى يده فى جيبه يتحسس مسدسه، ويرقب باب البهو، ورأى طابور المنافقين يتقدم رئيس الوزراء، وناساً يسبقون وفى أيديهم آلات التصوير، وومضات تضىء كلما التقطوا له صورة.

وقال فى نفسه: أسرعوا. التقطوا آخر مشاهد له.

وأقبل رئيس الوزراء، يثب على الأرض من فرحته، ومن التصفيق الذى يطن فى أذنيه. الدنيا لا تسمعه بعد أن ألقى بيانه فى مجلس النواب، فكان له هذا الصدى الهائل.

قال الفتى فى نفسه: زيف. كله زيف. كلهم يعارضونك، لكنهم يخدعونك! المسألة بالحساب. تأخذ وتعطى. ولن يعطوك إلا إذا ضمنوا أنهم سيأخذون أضعاف ما يعطونك! وأنت تعرف وهم يعرفون، أن المسألة غش فى غش وخداع فى خداع.

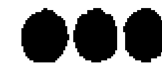
وعندما أصبح رئيس الوزراء وجها لوجه، استقبله بفوهة المسدس، فأرداه فى البهو الفرعونى قتيلاً.

ممدوح كان هناك يسمع بيان الحكومة فى البرلمان، وقد سمع الطلقة، فأسرع إلى مصدر النور فقطعه، ليعطى الفتى فرصة الهرب. لكن البوليس كان أسرع منهما فأمسك بالفتى متلبساً.

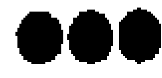
وفوجىء به ممدوح، فكاد من دهشته ينكشف، لولا أنهما تماسكا، فساد بينهما الصمت، ونظرات عميقة معبرة، ثم انصرف كل منهما.

الأول إلى المشنقة!

والثانى إلى طريق طويل شاق لا ينتهى!



وعندما ذاع أن القاتل محام صغير ناشىء، أمسكت الشيخة تفيدة بقلبها حتى لا يثب من بين جوانحها، كما أمسكت المعلمة وردة برأسها حتى لا تطير. لكنه كان ماتوقعت كل منهما أن يكون.



عيسى!! عيسى هو عيسى؟! فتى هذه الناحية، الحى الصامت الخجول، والذى لاتزال المنشورات التى كانت لديه فى جذع الصفصافة، فى حماية الرجل الأخرس.

ولم يستطع أصدقاء عيسى أن يحزنوا عليه! لم يملكوا أن يعزوا فيه! مسكين أيها الصديق، لقد ذهبت فى صمت كما كنت تعمل فى صمت، لكن صمتك كان أعلى من الضجيج.

ممدوح ومديحة والمعلمة والمعلم والضابط عبد الرحمن، والدكتور إسماعيل وعدد كبير من الوطنيين بكوا عليه دماً، لكن فى صمت، وفى الخفاء.

أهل هذه الناحية اضطروا إلى أن يستنكروا الحادث، وأن يهاجموا الفاعل على صفحات الصحف، لكنهم كانوا كلما خلوا إلى أنفسهم، أو تجمعوا فى الجامع بعيداً عن

العيون، تبادلوا العزاء فى المصاب الفادح، ودموعهم تجرى على خدودهم كأنها قطع من الجمر!

على أن البكاء كاد يصبح عويلاً عندما نشرت الصحف لحظاته الأخيرة وهو يواجه المشنقة. ما بكا. ما شكا. ما انحنى يتلمس الصفح.

أبداً، لكنه نظر إلى الصحفيين طويلاً ثم قال: أنى ذاهب. سأصبح بعد لحظات تاريخاً يروى، فارحموا التاريخ. بعد لحظات لن أملك وسيلة أصحح بها ما قد يقال عنى. نعم ولن أكون قادراً على الرد على أحد. ثم ماذا تكسبون بالهجوم على ميت؟! أمامكم كثيرون أحياء خونة هاجموهم واتركونى. أنى ذاهب أما هم فباقون. أنا الماضى، أما هم فحاضر أليم مزعج. أنا التاريخ، والتاريخ شئ مضئ. لا تقلقوا نومتى فى قبرى، بما قد تذيعون عنى من أنباء.

وصعد عيسى إلى المشنقة شاهقاً كالجبل، رافع الرأس وضاء الجبين، ثابت الخطا، هادئ النفس، مبتسماً. ونظر إلى جلاده وقرأه السلام، فأحنى الجلاد رأسه خجلاً منه. قال عيسى فى هدوء: هيا. نفذ الحكم. ولم يصدق الجلاد عينيه! أهذا محكوم عليه بالإعدام؟! أهكذا يودع الناس الحياة؟! وأين الفزع والهلع والدمع المنهمر، والصراخ والاستغاثة، وقامة تنحنى أمام قسوة الموت، وصوت يرتفع بأنه مظلوم، وأن الله سينتقم من الظالم مهما طال به العمر؟! أين ذلك كله، والرجل الذى يواجهه، ثابت الفؤاد، يواجه الموت، بإرداة أقوى من الموت!

وأحس عيسى بما يدور بخلد الجلاد، فقال له فى همس عميق:

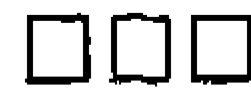
وماذا أكون أنا يا صاحبى؟ أنا واحد أذهب، لكن سيبقى ملايين. نحن فى نهاية الحرب، لكن من يدرى. ألا يمكن أن تتجدد الحرب؟ ألا يمكن أن يختلف الحلفاء فيتحاربوا؟ ألا يمكن أن يتنازع الانجليز والروس فيتقاتلون؟ عندئذ نساق لنسد فوهات المدافع دفاعاً عن حلفائنا! نموت لينتصر السادة الانجليز! أليست هذه هى الحرب؟ لكن هذا إنتهى. لم يعد واحد فى هذه البلد قادراً على مثل هذه المغامرة، انتهى هذا الكلام،

ولن تدخل هذه البلاد حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، فذلك شئ لم يعد موضع مناقشة. ألا يستحق هذا أن يذهب منا واحد، ليبقى ملايين؟ فإن ذهب واحد، فهلا يذهب هانئاً، مرتاح البال مطمئن النفس؟! يا صاحبى لا تبتئس ونفذ فى الحكم. إن هذا حكم الله وأنا راض به سعيد.

قال الجلاد فى حياء: وهلا تريد شيئاً.

قال عيسى فى كبرياء: سلامتك. تفضل.

ولم تمض ثوان حتى كان عيسى قد عبر جسر الحياة، كبيراً جليلاً رائعاً، إلى عالم آخر.



٥

المعلم مبروك كان ينظر إليها، ولا يراها!

والمعلمة وردة كانت تنظر إليه، ولا تراه!

والمعلم بيومى كان ينظر إلى الاثنين، ثم تنكفىء نظراته على خديه، تهرب منهما، ثم تهرب من نفسها!

كان عيسى أمامهم جميعاً، يرونه حتى فى أنفسهم.

وكلماته التى كان يطلقها فى هدوء، كانت لا تزال تملأ أسماعهم وابتسامته الرقيقة كانت تشع بالأمل، وتتفجر بالتفاؤل، وهو يتحدث، ويناقش، ويسمع إلى كل حرف يقال فى فهم ووعى وتبصر.

وتستحضره المعلمة، فى أناقته وبساطته ورقة لفظه، فتخبط كفا بكف، وهى لا تدرى كيف استطاعت أنامله أن تمسك بمسدس، لتطلقه طلقة يهتز لها التاريخ، ويصحو عليها النيام كأنها طلقة المدفع يوقظ الناس ليتناولوا السحور قبل أن يتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر.

وتستعيد المعلمة هدوءه، ونظراته الحالمة، ومظهره الشاعرى، وعنايته الشديدة باختيار ألفاظه، فتهل واقفة وتترك مجلسها فى صدر القهوة، لتذرع المكان جيئة وذهابا، وهى لا تدرى كيف اخترق هذا الفتى هذه الحجب جميعاً، إلى العنف المسلح، ورصاص يدوى فى البهو الفرعونى، ليخط مصير الأمة كلها.

كل هذا لا يهم.

أهم من هذا جميعاً هو: الأستاذ عيسى نفسه.

كأنما كل ذلك، لم يكن فى حياته الإحلماً.

أى والله. بل هو الحلم لم يستغرق الالحظة، استفاق بعدها ليستأنف حياته، هادئاً، وقوراً، متزناً، رقيق اللفظ، أنيق المظهر، حالم النظرات، كالشاعر يشرد فى معانيه، وخيال خصب فسيح، أوسع من الدنيا والكائنات جميعاً.

كان فى سجنه، لطيفاً مهذباً، حتى لقد كسب احترام سجانيه.

وكان فى التحقيق، صادقاً أميناً، لم يقل كلمة واحدة كذباً.

وكان فى اعترافاته رجلاً شهماً شجاعاً، لم يوقع بأحد، ولم يتهرب من المسئولية على أى حساب، حتى لقد كاد المحققون أن يحنوا رءوسهم تقديراً له.

وكان فى محاكمته حيياً خجولاً متواضعاً، وعلى شفتيه دائماً إبتسامة.

وكان على أبواب الموت، أقوى من الموت، فلم تهزه أيام الوداع، ولم تعصف به خطواته الأخيرة إلى المشنقة. أقبل على الموت، كما كان يقبل على الحياة، بنفس القدر من الهدوء والثقة والتفاؤل، حتى كأنما كانت الحياة والموت عنده سواء!

حياته كلها هكذا. نعم كانت كلها هكذا كالسحاب، لم تخترقها الالحظة عابرة، اضطربت بالبرق والرعد، وتساقط منها سيل من المطر، أغرق كل شىء، ثم سكتت، لتسير بعد ذلك سيرها الطبيعى، فوق رءوس البشر رقيقة شفافة رائعة.

لو انتزعنا منها هذه اللحظة لما كانت الإقصة حب تتردد على شفاه العشاق! أو قصيدة شعر ترقص على نغماتها أحلام نشوى!

المعلمة تذكر هذا، والمعلم يذكر هذا، وبيومى الصياد يرى فى عيونهما جلال الذكرى، فلا يجد نفسه القدرة على أن يواجههما بغير الهرب منهما، ومن نفسه...

إلى شباك الصيد فى الرياح، وسمك كثير يتراقص تحت أشعة الشمس، وناس كثيرين، وصيادين وفلاحين يتطلعون إليه فرحين بما يصيد، وهو عن كل ذلك بعيد، غارق فى ذكريات لا تنسى.

لم يكن قد رآه الالماماً، وفى أيامه الأخيرة، لكنه كان يعرفه من الشيخة، والمعلمة وسبيلة، والمنشورات المختفية لا تزال، فى بطن الصفصافة.

لكن.. يقتل! لا!

يمسك بمسدس، ويطلق الرصاص! لا!

يحاسب رئيس الحكومة هذا الحساب الحاسم! لا!

لكنه هو. هو ذا واقف هناك.

وفجأة تحركت فيه عاطفة المناضل القديم، فشعر أن عليه نحو هذا المناضل الجديد ديناً يستحق الأداء. لابد من أن يساعده إذا استطاع.

ووثب فى سرعة نحو مصدر تيار الكهرباء فقطعه، وفتح نافذة تطل على الفناء كأنما يدعوه إلى الفرار، لولا أن رجال البوليس كانوا أسرع، فأمسكوا بالفاعل، وهو متلبس بما يفعل.

وعندما عاد تيار الكهرباء، سرت مع التيار نظرة عميقة صامتة، بين الأستاذ عيسى، والطالب بيومى جمعة الصايت، أو ممدوح، أو المعلم بيومى، ترجمت ما فى نفس كل منهما نحو الآخر.

الأستاذ عيسى كان يشكر هذا الصنيع على كل حال.

والطالب بيومى كان يبكى المصير الذى آل إليه الأستاذ عيسى.

وفى ثانية انتقلت عدسات الكاميرات من رئيس الوزراء، إلى قاتل رئيس الوزراء، فبدأ هذا الوجه الهادىء يقع تحت أضواء متقطعة ملهوفة، تحاول أن تسجل عنه كل شىء، فى هذه اللحظة التاريخية.

وكان جليلاً هذا الفتى.

ما نطق الا بالحق، ما انحرف، وما التوى، وما خاف من المصير.

- من حرضك؟

- لا أحد. ولست محتاجاً إلى تحريض.

- من شاركك؟

- لا أحد. وهل لابد من شريك؟

- من أغراك بارتكاب الجريمة؟

- ليست جريمة. بل الجريمة أن نسكت على جريمة.

- من ضللك؟

- لا أحد. ولست محتاجاً إلى تضليل.

- ولم تشاور أحداً؟

- أبداً.

- ولم تتحدث بذلك إلى أحد؟

- أبداً.

- وتعرف ـ وأنت محام ـ مصيرك؟

- طبعاً.

- وتدرك أن مصيرك إلى المشنقة؟

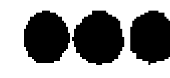
- طبعاً.

- ولا تخاف من شيء؟

- إطلاقاً.

– هذه حيلة تنفى بها مسئولية شركائك.

– لأنكم عاجزون عن أن تفهموا أن إلا فتتاع الشخصى أقوى من كل شىء.



حتى العذاب يا فتى ما أضعفك!

حتى الألم ما أخافك!

حتى الأنين ـ حتى الدموع، حتى الجراح.

حتى السلاح.

حتى الضنا... ما بدَّلك أو غيَّرك!

وظللت تروى فى ابتسام قصتك:

لا تتعبوا نفوسكم.

أو تجهدوا عقولكم.

فالأمر سهل وبسيط.

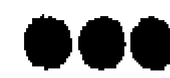
وأنا كالأمر فلاح...

فقير وبسيط.

فى قريتى مثلى كثير.

ولست فيهم غير واحد.

يجاهد، ويجالد..ويعاند!



فلاح.. فلاح أنا.

لست غير فلاح بسيط.

علّموه فتعلم.

كتّبوه فكتب.

غرّبوه فتغرب.

أدخلوه المدرسة.

أدخلوه البنطلون.

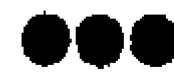
طربشوا رأسه الصغير.

هيأوه.. لمّعوه...

كأنه مملوك صغير..

يتأهب.. أو يستعد.

ليتعلم ويتحكم!



لكنه فلاح..

من طين أرض الساقية،

يشتاق للماء، والراء والياء،

وخضرة الحياة اليانعة، الرائعة.

يردها لهؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء.

ويقول أهلى.. كلهم أهلى وناسى.

وصحاب فى صباى،

وصحاب فى مصيرى،

وسمائى أو سعيرى،

ونداء فى ضميرى.

لا يفرقنا كتاب،

أو طعام أو شراب،

أو طموح المدرسة،

أو طموح البنطلون،

أو طموح كالجنون،

كابليس اللعين

وحديث كالخناجر،

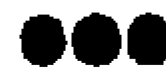
وكلام كالصياح،

وصياح كالنباح،

موحش كالنواح... كالمقابر!!

لا تساوى أن يقول الناس يوماً

أفسدته المدرسة.



لا تساوى أن يظن الناس يوماً:

أنه قد باع أهله،

وصحاباً فى الذهاب و الإياب،

والعذاب،

لم يصيروا مثله فى البنطلون

يقرأون أو يكتبون،

ليحكموا، فيحكمون!

●●●

لا تساوى أن يقول الناس يوماً:

أنه مملوك،

أو صار مملوكاً يتحكم.

لا تساوى أن يظن الناس يوماً

أنه كرباج

أو صار كرباجاً

لا يحس، ولا يشعر،

لا يتألم،

●●●

لا تساوى أن يقول الناس يوماً:

وأين أيام الصبا عند الضريح؟

وفى أذنيه صوت الساقية؟

لا تساوى أن يظن الناس يوماً

إنه للتراب قد تنكر،

ونفاق الراكعين ألهاه،

عن أنين الساقية.

●●●

إنما الشىء الذى يسوى...

أن نرد للدائن حقه...

فى تراب الأرض،

وماء الساقية،

وصدور تتنفس،

فى انشراح..

فى المساء والصباح.

وعقول تتحرر،

من مماليك القرون الغابرة،

القادرة، الغادرة، القاهرة.

ونفوس تتفتح

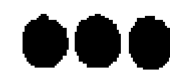
كالزهور،

تتنقل..

كالطيور،

تتثنى فى دلال،

كالعروس الغالية.



إنما الشىء الذى يسوى...

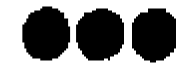
أن تقدم ثمرات التجربة،

والدروس المستفادة،

فى المدرسة،

أو فى الليالى التعسة،

المظلمة والعتمة والقارسة،



إنما الشىء الذى يسوى...

أن نموت

إذا لم يكن بد أن نموت

ليحيا الوطن،

لينجو الوطن،

من الخراب والمحن،

وليال حالكة،

ونذير الموت فوق رءوس خائفة

ومشفقة

بين طيات نفوس قلقة،

مذعورة، مضطربة،

تصيح من هولها فزعة،

تبحث عن مأمن من خوفها،

فى لهيب المعركة

وليتها معركة.. لنفسها

لكنها للآخرين

الناهبين رزقها

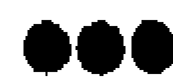
الآكلين حقها

الناكرين مالها

إذن نموت...

نموت نموت

ويحيا الوطن.



وقال بيومى لنفسه وشباك السمك بين يديه:

كفى يا ولد. هذا شعر. كفاك شعراً. لقد ذهب من ذهب، وبقيت أنت للألم وللذكريات... ومن يدرى!

ومن قال أنه ذهب...

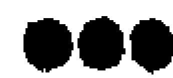
وفى العيون.. صورته؟

وفى المسامع.. نبرته؟

وفى القلوب دمع عليه لا يجف

ولا يخف

من رهبته وقسوته؟!



والعسكر المحموم والموهوم...

فى فرحة عليه شامتة،

لم يبق منه شىء إلا أعدموه

قيدوه بالسلاسل،

كبلوه بالعذاب،

خوفوه بالظلام،

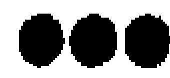
باللئام.

قوضوه بالمعاول.

بينما هو.. كالسر،

يتخفى بين طيات السرائر،

فى الضمائر.



يوقظ الدنيا على صوت حزين

بالنواح والصياح، والأنين

وخيال الناس منه يتحرك،

نحو آفاق فسيحة.

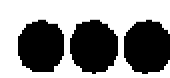
تملأ الكون ضياء وسنا،

ومنى،

وهو فيها رافع الرأس أبى الخطوات،

مطمئن النفس رصين الكلمات،

رائع النظرة مشرق، كالبسمات،



يا سمى الرسل.. يا تابعاً عيسى النبى

ومثل عيسى، جئت بالحق الصريح الطيب

تعلنه فى كبرياء مضاد.. كالقضاء،

أو كالشهب

تمضى ولا تمضى،

تمضى لتقضى،

وقضاء الله فينا أن تصير

محمداً أو أحمداً أو مصطفى

نبياً ونبياً حتى صفى الأنبياء، النبى،

وتصير فينا أنشودة فيها صفاء،

وكبرياء،

فيها نداء، كالغناء...

يا سعد غن أو تغن بالسلام

يا سعد قل، ليقول الناس بعدك.. فى انسجام.

يا سعد أرسل غناءك فى الظلام

تهدى به السارى،

لا يضل طريقه بين الحطام

والركام

إن الغناء، كالنداء، كالدعاء

مصيره ـ يا سعد ـ باب السماء

ويهز المعلم بيومى رأسه ينكر أن تتدخل حواسه على هذا النحو الغريب.

إن ذلك كله لم يكن إلا خيالا، وهذا الشعر كله، منحوت داخل نفسه، لا يظهر خارجها، ولا أثر له بين طيات نفسه الباكية الحزينة.

لكنه يسمع شيئاً شبيهاً له. نعم يسمعه، ويلح على أذنيه الإثنين، فى طريق مهموس، لكنه متصل، وحوله ناس يرددون بعض مقاطعة، وكأنهم يبكون!

ويتسمر حيث هو من شباك الصيد.

ويتأمل الماء والشبك، والصيد الكثير الذى يلمع تحت وهج الشمس، ويكاد أن يشك فى نفسه، وفى عقله!

الله!! أيكون مصدره هذا الماء؟ ومن داخل الماء يغنى ويتغنى؟ جنيات الماء؟ لابد أنها جنيات الماء!! وماذا تعرف الجنيات عنه: الأستاذ عيسى؟

أو ربما أنه السمك! لكن السمك، هل السمك يعرفه؟!

يا ولد جنت! والله جننت يا ولد!! وهل للسمك لغة، وهل يعرف السمك لغتنا هذه؟ وهل يغنى بها ويتغنى على هذا النحو الذى يصل أذنيك؟

ويرتبك المعلم بيومى فيتطلع حواليه يسأل صبيانه الصغار: "محروس وشبل وتوفيق" أبناءه. نعم أبناؤه. أليسوا أبناء الشحات؟ أليسوا أبناء خضرة زوجته؟ و"جلال" أليس أخا لسالمة؟ وجلال الطفل الصغير ابنه.

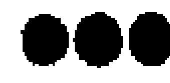
هل سمعتم غناء يا أولاد؟

ويهزون له رءوسهم، فيدير رأسه معهم يبحث عن مصدر الصوت.

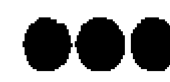
ويجدون هناك. سعد. الغفير سعد يجمع حوله عدداً من أهل القرية، على جسر الرياح، قريباً من الضريح، تحت الجميزة العتيقة عند الساقية.

إنه يغنى لهم، وهم يغنون معه.

الاسم عيسى والنقب قالوا مين؟
منسوب لأبوه، لكن أبوه كان مين؟
واحد وهب نفسه لبلاده، يبقى أبوه مين؟
دا حتة م الأرض، وم الساقية،
من سيدى الذكيرى، هو الذكيرى مين؟
الأولياء ميموتوش، لكنهم عايشين،
يسبحوا لله ويحرسوا التايهين،
وينوروا السكة للرايحين وللجايين،
ويجمدوا قلوب الحيارى بالإيمان،
يا عيسى هل هلال، دا إحنا موش ناسيين.



وننسى إيه يا فتى الفتيان، يا قلب حديد؟
وإن كنا ننسى، أنت ما تنسى الذل والتهديد،
والسجن والضلمه والجوع والتشريد،
و إلا الإهانة والخيانة، وناس قلوبها جيوبها،
لكنك أنت الأمل، والله الأمل له عيد.



شايفين! أهو، هناك بيستنى،
وبسمته منورة غيطنا وبستانا،
بيقول تعالوا متخافوش، دا وهم يا اخوانا

وإن حد قال غير كده يبقى بيتجنى،

هيه البطولة إيه... فوقوا يا رجاله،

دول كلمتين جد، يصونوا بيوتنا وعيالنا.

الحر فينا مش لازم يطاطى لحد،

ربنا إداله كرامة من غير حد،

وقال له دى نعمتى اياك تسيبها لحد،

دى نعمة لكنها نقمة ولعنة.. بجد،

زى الصلاة والعبادة والعيلة والساقية.

إن صنتها تصونك وإن خنتها تهدك.. هد.

شفتم؟ مش قلت لكم دى حاجة بسيطة؟

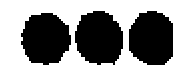
مش عايزه علما ولا مدرسة ولا زيطة

ولا طربوش ولا بنطلون ولا معيط ولا معيطه

ولا إنجليزى أو فرنساوى أو شنطة وشنيطة

دى مسألة ظاهرة زى الشمس فى الضهرية،

يا يرحم الناس، يا رحمة ربنا تساع الدنيا والزيطة.



يا سبيلة بيقولوا برية غجرية،

ويخافوا منك ومن كلامك بحرية،

وتغنى وترقص، وإنت رايحة وجاية،

كأن الدنيا لا تسوى ولا صلدية،

وإن حد ساءك يا ويله منك ومن أهلك،

تبقى المصيبة مصيبة، فى الليل وفى الصبحية.

يا عيسى نام، واحنا وراك صاحيين،

لا تخاف علينا، ولا إحنا عليك خايفين،

يكفاك يا عيسى إنك قلت للنايمين،

الشمس طلعت يا مصطفى يا محمد يا ياسين،

اللص عمره ما يسرق الصاحى،

ولا يهوب للرجالة، للأبطال، للأحرار،

لمين أو مين أو مين:

دا الإسم عيسى، والنقيب قالوا مين؟

ويتلفت المعلم بيومى حواليه، فيشعر أن الطبيعة تتطلع إليه، ويرى فى نظراتها عتباً عليه.

لماذا اليأس يا معلم بيومى، والحياة أطول وأبقى من أعمار الناس؟ إن كان واحد قد ذهب، فقد ذهب من قبله كثيرون، وسيذهب من بعده كثيرون، والباقى هو الوطن، والزمن، وهذه الحياة الحلوة التى لا تبلى. هذى الحقول، هذه الساحة الفسيحة الخضراء، وجداول الماء، والرياح، والنسيم الرطب المنعش، وناس يروحون ويجيئون بالأمانى والأمل، وأغانى الحب تتردد على شفاه العشاق، ومظاهرات الطلبة تخرج مرة محمومة، ومرة مهمومة، وعمال يضربون، وآخرون يتزوجون، ووزراء يحكمون، وآخرون ينتظرون، وأطفال ونساء وصبية وصبايا يرقصون، ثم يشيخون، ثم يموتون ليأتى بعدهم آخرون. ودول تستقل وأخرى تستذل، ولا شىء يبقى على حاله، وإنما التغيير يشمل كل شىء، فى رعونة حيناً وإتزان حيناً.

نعم يا معلم بيومى، التغيير. إنها حكمة ربنا. هذا التغيير من حكم المولى جل جلاله، حتى لا يبقى شىء على حاله، و إلا ضاق الناس، وضجوا، وضجروا، وحطموا كل شىء فى غمضة عين. الناس هكذا لا يستطيعون الصبر طويلاً، ويغريهم التغيير، طالما أن هذا شىء يريح أعصابهم المكودة المرهقة. جبابرة والله الناس! فراعنة! أى والله فراعنة!

على كل حال يا معلم، طول بالك فمن يدرى ماذا سيكون فى غد. لقد ذهب عيسى، وقد يكون بدلاً من عيسى، من هم أهم من عيسى، وأكثر قدرة على استيعاب أمانى الناس، والتعبير عن آمالهم، فى الحق وفى الحرية.

نعم، وقد يكون للخلف الجديد أضعاف ما كان لعيسى من المهمة والقوة والقدرة. وقد يحقق للناس أضعاف ما حققه عيسى.

نعم من يدرى!!

وبينما المعلم بيومى يقول لنفسه هذا الكلام الطويل، كان صبيانه الصغار يشدون الشباك، ليخرجوا منها سمكاً كثيراً، وليضعوا السمك فى الزكائب، ويتصايحون فرحين وهم يقولون للمعلم: رزق كثير يا معلم. رزق كثير يا عمى بيومى. لابد أنه خير. سيأتينا اليوم خير كثير إن شاء الله. أليس كذلك يا عمى؟

ويربت المعلم على رءوسهم فى حنو بالغ، وهو يقول لهم: دائماً خير يا أولادى. إن شاء الله سيكون خيراً دائماً. إن شاء الله.

ويسمع من بعيد أحاديث قادمة فلا يلتفت لها أول الأمر، حتى إذا اقتربت سمع فيها صوت مرزوق، وهو يتحدث مع شخص معه.

وشعر بيومى أن هذا الصوت ليس غريباً عليه. لقد سمعه من قبل، ولا يزال له فى أذنيه رنين. من يكون؟

وتلفت بيومى، ليجد نفسه ومرزوق الصغير وفرج النمس وجهاً لوجه. وعجب بيومى مما يرى، وترددت مشاعره بين احتمالات أن يكون الأمر خيراً، أو أن يكون شراً. إن فرج

النمس، هذا الطويل الفارغ، قد يكون كشجر الحور، طويلاً طويلاً، لكنه "هايف"، تكسره الريح. لكنه مع هذا طويل والسلام، قد يتمايل مع الهواء، فيكون له حفيف لطيف، وقد يتلوى مع العاصفة، ويصبح كالثعبان يتحرك فى مكر ودهاء!

وسكت بيومى، فإنه يعرفه ولا يعرفه! وانشغل عنه بالتطلع إلى حماره الحديد، وهو يجره بيده.

آه يعرفه بصفته ممدوح، وبصفته الشيخ عبد الرءوف. يعرفه من جانب واحد. لكنه الآن المعلم بيومى، صياد السمك والقائم على حلقة السمك،ومفروض ألا يعرفه.

وكسر مرزوق هذا السكوت حينما قال:

- هذا يا عم، المعلم بيومى. تحب نستشيره؟

قال فرج النمس:

- آه بكل سرور، على الرغم من أن المسألة ظاهرة وواضحة.

قال مرزوق:

- ما خاب من استشار يا سى فرج. نستشير.

قال فرج فى غير مبالاة:

- نستشير.

قال مرزوق:

- المسألة يا عمى بيومى أن فرج النمس يريد أن يؤجر عزبة الخواجة، وهو يقول أنه بهذا سيعرف كيف يخدمها الخدمة الواجبة، ويخرج منها ذهباً، وأنه سيكفل لى مكسباً كبيراً جداً.

ويقاطعه فرج النمس قائلا:

- "أنت أفندى، هو أنت فلاح؟ إدى العيش لخبازينه. أنت مش لك مكسب؟ حتكسب. حتكسب كثير".

وفهم بيومى كل شىء، لكنه فضل الا يقول شيئاً، تاركاً "مرزوق" يقول له ما يريد.

- هل يخلصك هذا يا عمى بيومى؟ أنا افندى؟ لم أعد فلاحاً، لأنى ذهبت لمدرسة الزراعة وأخذت الدبلوم؟ هل تركت البلد يوماً واحداً؟ لقد كنت أذهب كل يوم بالقطار. أصحو مع الفجر وأعود فى بعض الأيام بعد صلاة العشاء، ولم أترك البلد يوماً. حتى لم اكن أستطيع أن اتركها. لم أكن أقدر على حياة البندر. هل أصبح بعد هذا أفندياً لا علاقة لى بالفلاحة؟ ثم هل أنا أسعى لأكسب قرشين والسلام؟ وماذا أعمل؟ وهل أنا مالك الأرض؟ إذا كنت أنوى تركها، فسأتركها لصاحبها، وللمعلمة التى تتولاها. أما أن أصبح سمساراً، فهل هذا يرضيك يا عمى بيومى؟ والناس الذين يعملون معى؟ أهل البلد الذين جئت بهم ليعملوا معى. أتركهم؟

وصاح فرج النمس قائلاً:

- أنت لا تعرف كيف تشغلهم ولا هم يسمعون كلامك. اتركهم لى، وسأريهم أنا النجوم فى عز الظهر.

قال مرزوق:

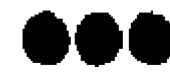
- طيب ولماذا يرون النجوم الظهر أو العصر أو المغرب، ما داموا يعملون؟ الله! هى المسألة أن نريهم النجوم الظهر والسلام؟ يا سى فرج...

وقبل أن يتم صاح فيه فرج:

- "وهيه يعنى أرضك؟ دا اللى يسمع كده يقول دا وارثها اتكلم على قدك".

قال مرزوق فى ضيق:

- طيب. حاضر. ماذا أقول لك؟ إذا كنت تريد الأرض، اطلبها من المعلمة وردة.



قال فرج:

- على كل حال، سيأتى يوم، ترجونى فيه أن أزرعها، وساعتها يفرجها ربنا.

وانصرف فرج. وثب فوق ظهر الحمار الحديد، وانصرف فى اتجاه محطة السكة الحديد، بينما أخذ مرزوق يشرح موضوع فرج النمس للمعلم بيومى.



وهناك عند الضريح، التقى المعلم بيومى بالشيخة تفيدة.

كان لابد من هذا اللقاء السريع، فلقد شعر المعلم بيومى أن مرزوق يتعرض لخطر! إن فرج النمس لا شك يختزن له شيئاً! لم يتب هذا الشرير! كل الذى فعله، وأدى إلى طرده من القرية، ليعمل مع الأنفار فى رش الجسر، يخرج من النجمة على ظهر حماره الحديد، ولا يعود إلا المغرب. كل هذا لم يؤدبه، وظل كما هو الشرير الغادر المستبد.

ما معنى أن يأتى يوم، يرجوه فيه مرزوق أن يزرع عزبة الخواجة له؟

تهديد! هذا تهديد! ألا يزال فيك نفس يا نمس الكلب أنت؟!

قالت الشيخة تفيدة، وهى تستعيد الحكاية مرة ومرة ومرات:

- وماذا تظنه ينوى أن يفعل؟

قال المعلم بيومى:

- وماذا تظنين؟أنه ينوى به الشر، ليحمله على أن يترك الأرض ويهرب بجلده من المتاعب والخسائر والمسئوليات. لا بد أن هذا قصده، و إلا فماذا يعنى؟

قالت فى هدوء:

- يحرق الزرع؟

قال فى الهدوء نفسه:

- مثلاً.

قالت فى استنكار:

- ويسمم البهائم؟

قال فى شرود:

- مثلاً.

قالت:

- وماذا ايضاً؟

قال فى ضيق وتبرم:

- ويخطف وينهب ومن يدرى؟! قد يقتل ليثير الذعر فى قلوب الفلاحين، ويحملهم على الهرب من العزبة، فيعجز مرزوق عن زراعتها.

وتنهدت الشيخة أو مديحة وهى تقول له:

- وحضرتك؟ ماذا تنوى أن تفعل؟ تتركه؟ تتركه يعيث فى الأرض فساداً؟ تترك مرزوق الصغير اللين المسكين المسالم، يواجه هذا وحده؟ أنت تعلم ألا سند له إلا الله. لا عصبية ولا أهل ولا...

وأتم ما تريده:

- ولا سند يسند ظهره، ضد هذا الوحش الشرير.

لكنه استطرد يقول:

- لكن لا تخافى. إن وراءه المعلمة وردة النقرزان، وهى أرجل من الرجال.

قالت الشيخة:

- لا يكفى. لا تعتمد على هذا وتتركه للمعلمة.

قال:

- ووراءه الناس يا مديحة. الله؟ ماذا تظنين؟ كل هؤلاء الفلاحين ممن أخذهم معه، ليزرعوا ويقلعوا معه. أليس كل هؤلاء وراءه؟!

قالت:

- وربنا فوق هؤلاء جميعاً.

قال:

- سبحانه وتعالى. نعم بالله.

قالت:

- على أن هذا لا يعنى أن تتركه وحده. إنها مسئوليتك يا ممدوح مرزوق هذا مسئوليتك. أتفهم؟ مرزوق مسئوليتك. مسئوليتك.

وظلت هذه العبارة فى أذنيه، كلما خرج للصيد، أو عاد إلى البيت، أو ركن إلى أهله، أو التقى بالصيادين زملائه، أو عكف على قراءاته، أو جلس على القهوة يدير مع أصدقائه بعض الأحاديث الفارغة.

مرزوق هذا مسئوليتك. أتفهم؟ مرزوق مسئوليتك. مسئوليتك.

وكم كان يفزع من نومه، ويكاد يعدو نحو العزبة ليطمئن عليه! وكم كان يقع فريسة أحلام مزعجة يرى فيها "مرزوق" مهدداً! أو واقعاً فى ورطة! أو محاصراً بأشرار! وكم كان يصحو مضطرباً كأنه يختنق، فيجد نفسه على الصدر الأسمر الحنون، وزوجته الحلوة تسمى عليه وتصلى على النبى، ليزول عنه تأثير الكابوس!

وكثيراً ما كان يخرج جنح الظلام ليتجه نحو العزبة، وفى يده سلاحه، ليدور حولها فى سكون، يتبين حالها، ويطمئن على أمنها.

يدور حول حقولها مرة، وحول بيوتها مرة، وحول جرنها مرة، وحول حظائر البهائم ومخازن المحصول فى كل مرة.

وفى مرة من المرات شعر أن عينا تراقبه، فلم يحاول أن يبطىء أو يتلكأ أو يغير من خطوه. إنه مدرب على هذا، وهو يعرف من تجاربه أن عليه أن يتجاهل ما عساه أن يكون حوله، ليغرى من يراقبه باطمئنان أكثر، فلا يحذر أو يتنبه أن يستعد.



وسار ممدوح، وأصبعه على زناد مسدسه، وفى كل جزء من جسمه عين وأذن، يحاول أن يتبين من هناك.

وأخذ يدور حول حقول القرية، والرقيب يدور حوله، يكاد أن يتبع كل خطوة من خطاه، بخطوه أخرى ملحة وسمجة. إنه يستثقل الخطو الذى يتبعه، غير أنه كان سعيداً به لأنه لم ييأس منه، ولم يقف ليتركه يسير وحده. كريم هذا الخطو وشهم!! لا يريد أن يتركه وحده! إنه يؤنس وحشته ووحدته، فى هذا الظلام الدامس!

وفجأة وثب ممدوح كالنمر، ليستدير خلفه يتبين من يكون هذا الذى يتبعه فى الحاح واصرار. نعم كان لابد من هذا، ليحدد ماذا هو فاعل به.

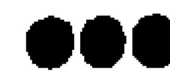
وأخذ الشخص الذى يتبعه بالمفاجأة، فلم يستطع اللحاق به، وبدا أنه ارتبك وفقد القدرة على ملاحقته، فوقف حيث كان لا يدرى أى اتجاه يتجه. ومكنت وقفته لممدوح أن يعرف من يكون.

ومن مخبئه بين أعواد الذرة، كاد يستلقى على قفاه من فرط ما استبد به الضحك المكتوم. نعم، فإنه لم يشأ أن يكشف نفسه، حتى لمرزوق، الأفندى المتعلم الرقيق، المتوكل على الله، المسلم أمره له سبحانه.

هو ذا هناك، وفى يده سلاح، يحمى العزبة والزرع والمحصول والبهائم وأرواح الآمنين فى بيوت العزبة، من الغدر!

ومضى ممدوح، وهو يهز رأسه متعجباً ومعجباً، وهو يقول فى نفسه:

الحمد لله. إن مرزوق أفندى ليس ساذجاً على كل حال.



لكنك يا ولد لا تستطيع أن تطمئن عليه تماماً.

مرزوق أفندى لا يزال غضاً طرى العود. صحيح أنه يحاول أن يحمى نفسه بيديه، وأن يدافع عن العزبة وعن الناس بكل ما يملكه من شجاعة، لكنه يشعر أنه محتاج إليه! أليس مسئوليته؟ ألم تعتبره مديحة الغالية مسئولية؟

ومرة ثانية تسلل فى جنح الظلام يرى ماذا هناك. كان يتوقع أن يجد خطواً يتبعه، وأنة يؤنس هذا الخطو وحشته. ومضى وحواسه كلها فى أذنيه، بتسمع دبيب النمل. لكنه لم يجد من يتبعه هذه المرة.

وكاد يقول: "كده كده يا مرزوق! " أهكذا سريعاً؟ تطمئن هكذا سريعاً؟! أم تراك ركنت إلى بعض الدعة، بعد أن تبين لك ألا شىء هناك؟!

لكنه ما أن يخطو بضع خطوات، حتى يسمع همساً يسرى كالحفيف! ويتصل الهمس حيناً ويتقطع حيناً، وهو بين الإتصال والإنقطاع، يلتهب بحرارة تتوهج، لتبدد كثافة الليل البهيم، بحزمة من النور الصافى.

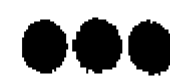
ويتحول المعلم أو الشيخ أو الطالب، أو المغامر، إلى آذان ويعشر أن قلبه مشدود إلى هذا الهمس الرائع الدافىء. ويسترق السمع فى شغف لذيذ، ويقبع لا يريد أكثر من أن ينصت. إن التسمع إلى هذا الهمس يكفيه عن النظر واللمس، والشم جميعاً.

ما أبدع أن يتناجى عاشقان فى هذا الجو الحالم!

ما أمتع أن يتخفيا بين أعواد الذرة، ليطفئا فى رطوبة الحقل، ما تجمع فى قلبيهما من نار الهجر!

ما أروع أن يتهامسا اليوم بما تهامسا به أمس وبما سيتهامسان به فى غد، فى حلقة متصلة لا تنقطع، تتردد وتتجدد!

لكن المعلم بيومى يكاد لا يصدق أذنيه.



هذا صوت يعرفه، برغم أنه همس!

وهذا صوت آخر يذكره، يقابل الهمس بهمس أرق!

يا ربى من؟ لا لا. وماذا أتى بهما الآن إلى هنا؟ وماذا يفعلان وحدهما فى هذا الوقت المتأخر من الليل هنا؟

لكنه صوته، وهذا صوتها.

سعد، الغفير سعد. وسبيلة، سبيلة الغجرية.

وإن النجوى بينهما لتطول، فيشعر أن وجوده كاد يصبح اعتداء على حرمه الحب وقداسته، وأن عليه أن يتركهما وحدهما يعبران عن حبهما وحدهما ومعهما الليل والحقل وخضرة مبسوطة، وأشجار عالية، وأمل قديم وجديد معاً.

ويهم المعلم بيومى بالانصراف، وقد كاد أن ينسى نفسه وما جاء من أجله، فيخونه حرصه، ويكون لانصرافه صوت مسموع!

عندئذ يخلى الهوى المشبوب مكانه، ويختفى الهمس الرقيق.ويسرع كل منهما إلى سلاحه ليستعد لمواجهة الموقف.

ويتحرك سعد خلف الخطوات، وهو يحاول أن يحدد مكانها فى الحقل ليكون له معها شأن.

وسيلة لا تتركه وحده، لكنها تسير معه، وإلى جواره، يشغلها ما يشغله، وتثقل المفاجأة خيالها وشعورها، فتنقلها من حالة التراخى إلى حالة ترقب واستعداد.

وتنبه بيومى أنه أخطأ، وخانه ذكاؤه هذه المرة.

وخاف إن هو لم يأخذ الأمر بالحيطة والحذر، فقد يودى هذا الموقف بحياته! وممن؟ من أحبائه وأصدقائه وأنصاره!!

ووقف المعلم فى ركن من الحقل لا يتحرك أبداً.

وسمعهما فى حديث هامس:

- أيش هذا يا سعد؟

- لا أدرى يا سبيلة. هس، لا ترفعى صوتك.

- لص.. يريد سرقة المحصول؟

- ربما.. من يدرى!

- أو واحد منهم، يريد.. كما تعرف.

- يا شيخة! لا يبدو هذا عليه.

- ليش... وكيف تعرف؟

- وهل يكون واحداً؟ واحد فقط؟

- هل تشك أن يكونوا كثيرين؟

- من يعرف؟ إن كان واحداً منهم، فلا بد أن يكون معه أعوان...

- لكن صوت رجليه لا يدل على أنهم كثيرون.

- ينتظرونه على الجسر أو فى أى مكان يتفقون عليه.

- ونحن إثنان. يغلبوننا يا سعد.

- لا تخافى... هذه فيها البركة.

- ها ها...ى! هذى بندقة لا بندقية. حافظ عليها واحفظها للعيد إن شاء الله.

- يا شيخة! سلاح الحكومة!

- شىء لله يا حكومة! من أجل هذا هى بندقة!...

- طيب اسكتى.. هل تسمعين شيئاً؟

- أبداً. صلى على النبى يا شيخ.

- اللهم صلى عليك يا بنى. هيا بنا نتمم على الحدود قبل أن أعود.

- تعود!! وتتركنى وحدى؟

- أنا غفير نظامى، ولى درك فى القرية، ولو ضبطونى هنا على بعد خمسة كيلو تبقى وقعة.

- من يضبطك؟ شيخ الغفر؟أنه يعلم.

- بل وعليه ليلة حراسة هنا مرة كل أسبوعين.

- طيب. إذن من يضبطك؟

- النقطة. ضابط النقطة.

- يا خى!! وماذا يعمل؟

- يحقق معى.

- ثم ماذا؟

- يوقفنى.

- يقدر؟

- طبعاً يقدر.

- فيه أكبر منه، يوقفه هو.

- يا سلام. من أجل غفير مثلى؟! من أنا يا غجرية؟

- أنت.. أنت سعد. ألا يكفى هذا. سعد زينة الناحية وكروانها. سعد الغفير النظامى.

- فيه فى البلد مليون سعد.

- لكن سعدى أنا واحد.. واحد فقط.

- يا سبيلة!! وألم أكن واحداً عندما تزوجت.. أقول.

- الكلب أبو سريع. أنت تعلم لماذا تزوجته. والله لا لك على يمين، أنا ما تزوجته إلا خوفاً عليك.

- يا سبيلة؟!!

- يا سعد!!

- يا سبيلة.

- اسمع.. ماذا؟ ألا تسمع؟

- هس. لا تتكلمى. أصوات كثيرة قادمة.

- منهم؟... خذ الحذر.

- لا تخافى... ربنا موجود.

- تطلق عليهم الرصاص، إذا وجدتهم..

- الله ماذا تظنين سأفعل.

- تنسى وتغنى!!

- الله يسامحك. طيب هس.



وسمع المعلم بيومى من مكانه هذا الهادىء أصوات الرجال القادمين، وأنصت إلى مناقشاتهم، وعرف أن شيخ الخفر مدبولى قادم ليطمئن بنفسه على الحراسة، وكان معه إثنان من الخفر. عندئذ فر الخفير سعد وتسلل بين عيدان الذرة تاركاً سبيلة وحدها.

وعندما اقتربوا من سبيلة، دارت بينها وبينهم بضعة أحاديث.

وأكدت سبيلة أنها سمعت وقع أقدام، لكنها اختفت عندما تبعتها.

وسألها شيخ الخفر: هل تخافين من الحقل الموحش فى هذا الليل البهيم، فتكفل بالرد عليه واحد من أعمامها، فأكد لشيخ الخفر أنها غجرية، والغجر لا يخافون شيئاً، ولو خافت سبيلة لما استحقت أن تنتسب إلى الغجر، أهلها.

وضحك شيخ الخفر، وهو يقول أن قصده أن الليل طويل وظلام، فأكد الغجر أنه طويل وموحش على الفلاحين، لا على الغجر.

وانصرف شيخ الخفر، وترك سبيلة مع أحد أقاربها الفجر، وعاد هو من حيث أتى.

قالت سبيلة:

- وغداً ورديتك. هل ورديتك غداً يا عم؟

- قال الفجرى:

- لا.. غداً وردية العمدة.

قالت سبيلة:

- لا لا.. قل كلاماً آخر. العمدة!

قال الفجرى:

- صدقى أو لا تصدقى. العمدة كذلك له وردية. ليلة كل أسبوعين.

قالت سبيلة:

- وحده. هل الوردية له وحده؟

قال الفجرى:

- آه وحده. هل هو صغير على وحده هذه؟

قالت:

- لا.. ليس صغيراً، لكنه عمدة.

قال الفجرى:

- ومن قبل كان شيخ الخفر، ومن قبل كان خفيراً، وابن ليل كالجن.

قالت:

- لكنه الآن عمدة. عمدة! ألا تعرف ماذا يعنى أنه عمدة؟

قال:

- أعرف ماذا تعنى، لكنها تعنى قبل كل شىء أنه رئيس البلد، ورئيس البلد هو أشجع أهل البلد. قائدهم. شيخهم. ويجب أن يكون على رأس البلد فى الخير والشر معاً. إنما يتعاظم على الناس فحسب.. لا. يتعالى على خلق الله فقط.. لا. الشيخ والرئيس، يتحمل أكبر التضحية كما ينال أكبر الجزاء يعطى أكثر مما يأخذ، وإلا فهو رئيس فى النعمة،فإن أتت نقمة، فيجب ألا تلحق به هو.. أبداً! يا سلام! فى الخير يجرون ملهوفين، وفى الشر يهربون مذعورين.. لا لا.. عمدتنا شىء تانى. آه، شىء ثانى! ثم هو عباس العفريت الجن. طيب. آه طيب، لكنه أيضاً نمس.. أكثر من فرج النمس.

وضحك الرجل وضحكت هى، ثم غادرها الغجرى وهو يقول:

- كلامك مسلى يا بنت أخى، لكن الزراعات التى فى رقبتى! على أن أذهب الآن، وإلا...

قالت الغجرية:

- لا تخف يا عمى. ربنا سيسترها.

قال:

- إن شاء الله يسترها.

قالت:

- لكن هل تحتاج فرج النمس لكل هذه الحراسة؟ إنه"هلفوت" لا هنا ولا هناك، فلماذا كل هذه الترتيبات و الاستعدادات؟

قال:

- يا سبيلة يا بنتى، نقطة واحدة نجسة، تنجس ترعة بحالها. كذلك واحد أعوج، يزعج كل الناس.

قالت:

- لكن هذا كثير. من أجل من؟ فرج النمس الجبان؟

قال:

- آه... ونظل نحن رهن ارادته، إن شاء كدر أمزجتنا بمناورة يقوم بها، وإن شاء تركنا. بيده هو مفتاح الموقف.

قالت فى سخط:

- هذا الصعلوك!

قال:

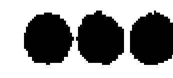
- وكلهم صعاليك. لا يمكن لهؤلاء، إلا أن يكونوا صعاليك. لكنا لا نستطيع اهمالهم من أجل الناس الطيبين. كل السيئات يا سبيلة يا بنتى من الصعاليك. قلة عاصية متمردة، لكنها كالنقطة الواحدة النجسة، تنجس بلداً بكل ما فيها من ناس وحيوانات وبهائم وأشجار ومحاصيل.

قالت:

-عندك حق يا عمى. المسألة أنى أستكثر على فرج النمس كل هذا الاهتمام.

قال:

- هل هو فرج النمس وحده؟ أم أن معه أشقياء آخرين، ومغامرين؟ وعلى كل حال إن نظام النوبات هذه يسهل الأمر، فكل واحد عليه ليلة، وكل أسبوع أو أسبوعين ليس كثيراً. هذا الواجب ليس كثيراً ليطمئن الناس، ولا ينال هذا الغدار غرضه.



وشعر بيومى من مكانه الصامت بنوع من الارتياح. إن القرية كلها تتعاون لحراسة العزبة. إن "مرزوق" ليس مسئوليتك وحدك يا ممدوح إنها مسئولية العمدة وشيخ الخفر، والخفر والغجر، وسبيلة.

وبينما هو هكذا غارق فى أفكاره، سعيد يحرص القرية على ورديات الحراسة إذا بشىء كالصاروخ يخترق هذا السكون كالرصاصة الطائشة.

"وماسرقكم... والله سرقكم. بس رايحين جايين والبندق على أكتافكم!!. هيه!! سرقكم!! خد البهائم وراح.. "

ووثب كل منهم من مكانه بغير تحفظ أو احتياط.

لم تعد سبيلة قادرة على التربص للخطوات الغريبة، ولا صاحب الخطوات الغريبة أصبح قادراً على التخفى عن سبيلة وقريبها الغجرى.

إن الصاروخ الذى انطلق أنسى كلاً منهم كل شىء، إلا هذا الشىء المسروق.

وتجمعوا حول المجنون.

سيد المجنون كان يهيم على وجهه بين الحقول، يعلن السرقة على هذا النحو المفاجىء. لكن المجنون قد يحمل فى بعض الأحيان أخباراً ليست مجنونة.

وعندما تجمعوا حوله، لم ينظر أحدهم للآخر، فقد كانوا مشغولين عن أنفسهم بهذا الشىء الجديد. سبيلة والغجرى والمعلم بيومى، ولحق بهم على التو، مرزوق الصغير، وهو فزع مما سمع، برغم أن النعاس كان لا يزال يغمض عينيه. وحول هؤلاء عدد من أهل العزبة من الفلاحين الأجراء البسطاء أو من المؤاجرين الصغار. وعدد من الأرامل أتى مرزوق بهم ليعملن فى العزبة وتربين أبناءهن اليتامى، فزعن للصوت وللنبأ، فأسرعن كما أسرع الآخرون.

لكن المجنون لم يستمر طويلاً.

لقد ألقى بالسهم... ومضى، وهو يضحك من أعماقه:

وترك هذا الجمع مضطرباً ينظر كل منهم إلى الآخر دون حراك.

قال مرزوق: هيا بنا نرى حظيرة البهائم. هيا...

وكان بيومى قد أسرع إلى حيث رأى الحظيرة خاوية خالية، فلم يضع وقته فى عجب أو تعجب أو ندم، لكنه أسرع كالبرق ليحاول أن يلحق بالسارق، أو يقف على أثر من أثاره.

وعندما وصل إلى المحطة، أسرع إلى بيت الجوهرى فأيقظه. وإلى أبو اليزيد الحمار، وإلى الصيادين، وطلب من كل منهم عملاً.

الجوهرى يسرع بسيارته على الطريق البحرى.

أبو اليزيد يسرع بحميره على الطريق القبلى.

الصيادون ينتشرون بين الحقول على القنوات.

وهو - المعلم بيومى - كان عليه أن يدور هنا وهناك يحاول أن يجد أى أثر للسرقة والسارق، قبل أن يفر بما سرق.

وأخذ المعلم بيومى يعجب أشد العجب، لجرأة السارق، الذى تسلل - برغم كل هذه الورديات - إلى حظائر البهايم، فسحبها فى هدوء، إلى حيث اختفى بها عن كل هؤلاء الحراس.

الله!.. أيكون قد انتهز فرصة الغرام المشبوب، فأفلت بالبهائم، بينما الحارس والحارسة محتاجان إلى من يحرس هواهما من الرقباء؟

ما أتعس عاشقين محرومين، قضيا العمر الذى فات فى نار العذاب. سرق مستبد حبهما وسخر من عواطفهما، ليتمتع بما كان من حق سواه. هل كثير يا ربى عليهما أن يتبادلا النجوى؟! ألا يسرق السارق إلا فى وردية الغجرية المحرومة، وكروان الناحية، سعد المسكين؟

صحيح قالوها أهل زمان "جت اليتيمة تفرح، مالقتلهاش مطرح"!

مسكينة يا غجرية، مكتوب عليك هذا يا غجرية!!

وبينما كان بيومى يسرع من هنا إلى هنا إلى هناك، كان عقله أيضاً يسرع معه من فكرة إلى فكرة إلى فكرة.

ربما.. آه ألم يفعل هذا هو نفسه عشرات المرات؟!

حكاية يرددونها وهم يمزحون، قبل أن يقوموا بعميلة من عمليات التخريب، أو حرق معسكر من معسكرات قوات الإحتلال، أو خطف ضابط من ضباطهم، أو الإستيلاء على سيارة من سياراتهم.

يقولون وهم يمزحون:

– زعموا أن شخصاً ذكيا وجريئاً، ذهب فى عز الظهر إلى ميدان الأوبرا، وكان يحمل معه سلما وحقيبة بها عدته. وأمام كل الناس، وفى وسط الزحام الكثيف وعلى مرأى من عساكر المرور، نصب السلم، على برج الساعة فى الميدان، وصعد عليه ومعه عدته، ثم فك الساعة الكبيرة، وحملها وانصرف، دون يتعرض له أحد!

وعندما تبينوا السرقة الذكية، شدوا شعورهم من هذه الجرأة الخارقة!

كانوا يرددون هذه الحكاية، ليتواصوا بأن نجاح عملياتهم رهن بمدى مايستطيعون أن يظهروا به من مظهر طبيعى بسيط، لا يفلت نظر أحد.

ويقول بيومى لنفسه: هل السارق واحد من..!!

ويهز رأسه وهو يبعد هذه الخواطر عن نفسه،فإن هذه الحكاية ليست حكراً على جماعته من الشباب الوطنى، ولا بد أنها معروفة للوطنين واللصوص والنشالين، وفرج النمس كذلك!!

لكنه يعود فيسأل نفسه:

أم أن نظام الورديات هذه فاشل؟ ان كل واحد عليه ليله، وهو يؤديها دون أن يستفيد من دروس الليإلى السابقة، ودون أن يفيد من تجربته حارس الليالى القادمة. إن هذا معناه أن كل ليلة تقوم بنفسها، وهذا خطأ.. هذا خطأ. وتصور أنه مع جماعته يناقش قضيته، فاخذ يصيح: قلت هذا خطأ وعلينا أن نصحح هذا خطأ.. نعم. يجب أن تصحح الخطأ. إن عدونا يستفيد من أخطائنا، وواجبنا ألا نمكنه من الإستفادة من أى شىء،

خطأ كان أو صواباً. إننا إذا لم نصحح أخطاءنا فكأنما نعنى أن نساعد عدونا. ان الخطأ فى هذا يصبح وهو والخيانة شيئاً واحداً، إيها الزملاء.

وفجأة تصل إلى سمعه أصوات مختلفة ومتداخلة.

ما هذا؟ ما هذه الأصوات؟

ويشعر أن عليه أن يجرى نحو مصدر هذه الأصوات.

ويجرى المعلم بيومى، ويجرى ويجرى. يذرع الحقول والزراعات، لا يهمه أن يصل إلى مصدر هذه الأصوات، ليرى ماذا هناك.

أصوات ماشية!! هى الماشية المسروقة، فليس من المألوف أن تكون ماشية خارج حظائرها فى هذا الوقت من الليل.

ووصل المعلم بيومى، فوجد ماشية العزبة. هى هى الماشية المسروقة. لكنها كانت وحدها، بلا أحد، يسحبها أو يجرها أو يدفعها!!

وأدرك على الفور أن الحركة السريعة التى أتخذها، وسيارة الجوهرى وهى تقطع الجسر بحثاً عن اللصوص، وتسلط أنوارها على الحقول لتفضح سرهم. وأبو اليزيد وأولاده وأقاربه، وقد أخذوا يجرون بحميرهم فى كل اتجاه. والصيادون وقد انتشروا يبحثون. هذه الحركة السريعة أكدت لهم أنهم لا شك واقعون. ولا بد أنهم فروا بأنفسهم، وتركوا البهائم بين الحقول، واختفوا هم عن الأنظار.

ووقف المعلم بيومى أمام البهائم يتميز غيظاً!

أهكذا يفلتون؟! سيعاودون الكرة هؤلاء الكلاب، ولن يريحونا من هجماتهم كلما سنحت لهم فرصة قنص!! لكن كيف الطريق إلى القبض عليهم متلبسين؟!إنه يعلم أنه فرج النمس، وعدد من أقاربه وأصهاره يعاونهم أشقياء الناحية من الأولاد المتعطلين المساطيل.

ونادى المعلم بيومى بعض الصيادين، فاقبلوا على ندائه، وعجبوا مما رأوا.

الله! بهائم العزبة! أين وجدتها يا معلم بيومى؟

ولم يرد. لقد اكتفى بأن أشار إليهم بأن يعودوا بها إلى العزبة، وانصرف هو يحاول ملاحقة اللصوص.

لا بد أنهم هنا لا يزالون. لا يمكن أن يكونوا قد تركوا هذه الناحية. إنهم هنا غير بعيد. ألا يستطيعون أن يسرعوا أو أن يهربوا. إن الإسراع ليس فى صالحهم. إنه يلفت النظر إليهم، وهم ليسوا مغفلين. إن الذى يتسلل بين هذه الورديات المنتظمة، وبين اهتمام العمدة وشيخ الخفر، والخفر والغجر، والمعلمة وردة النقرزان ورجالها، لا يمكن أن يكون مغفلاً.

إذن الأمر محتاج إلى ذكاء لضبط هؤلاء. الأمر محتاج إلى التأنى لمطاردة هذا الصنف من الأشقياء واللصوص.

وظن المعلم بيومى أنهم قد يكونون قابعين فى أى مكان هنا. وتردد قليلاً وهو يتوغل داخل الزراعات. أيمكن أن يقتلوه؟! طبعاً هم مسلحون، وقتله بقرش! برصاصة واحدة بقرش، ويتخلصون منه بعد أن يضع عليهم سرقة كبيرة كهذه. لكنه عاد يسخر من نفسه، وهو يتساءل، لكن لماذا؟ لماذا يقتلونك ياغبى؟ وماذا يكسبون من قتلك؟ إنهم يريدون السرقة، وسيعاودون المحاولة لاشك، وقتلك يقطع الطريق عليهم، لأنه سينبه البوليس إلى هذه الناحية، وستفرض عليها حراسة خاصة ويأتى رجال الهجانة، وعندئذ لا يستطيعون تنفيذ خطتهم وتحقيق مآربهم. ومضى غير هياب، يجرب حظه معهم.

وأخذ المعلم بيومى يمارس تجارب عمره كله، ويحاول - برغم خطواته العرجاء - أن يلاحق هؤلاء اللصوص. وقبع يتسمع. لم يضايقه طول الإنتظار، فهو يعلم أنهم يتنقلون فى حذر كحذره هذا. بل وهم أكبر حذراً منه. لا بد أن يكونوا.

أليسوا لصوصاً؟ ألا يهربون من المطاردة؟ أما هو فهو ليس لصاً، وهو الذى يطارد.

وسمع حركة، فركز انتباهه كله ليرى ماذا تكون.

وتكررت الحركة، فتبعها بأذنيه.

فلما أيقن أنها تقترب منه، تسلل فى خفة نحوها، ثم أخذ يثب ناحيتها وثبات متقطعة كالهرة فى حرصها، لا تريد أن يتبنه لها الفأر قبل أن تنقض عليه.

وفجأة سمع حركة أخرى.

إنها تأتيه هذه المرة من خلف.

واحدة من أمام، وواحدة من خلف!

ودارت رأسه، وزاغت عيناه، وقبع حيث كان لا يتحرك، بينما الحركة من أمام تلح عليه تدعوه إليها! والحركة من خلف تمضى كأنها تسخر منه!

إيهما هى المطلوبة؟ التى أمام أم التى خلف؟

أم هما معاً؟..على إتفاق أن يعبثا به، بعد أن تأكد لهما أنه يريدهما؟! ويشعر بحركة أخرى عن يمين.

ثم بحركة أخرى عن يسار.

وأيقن أنهم كشفوه قبل أن يكشفهم، فوزعوا أنفسهم حوله على هذه الصورة ليوزعوا جهده، ويشلوا حركته، ويهربوا منه.

كسبتم! هذه المرة كسبتم يا أولاد الـ...!!

ولم يتحرك حتى اطمأن أنهم مضوا عنه هاربين منه!

وكان يتميز منهم غيظاً. نعم كان يتميز غيظاً وهو يشعر أنهم أرغموه على هذا الشلل، وهربوا تحت سمعه! لكنه مع هذا حمد الله أن البهائم لم تهرب معهم.

وعندما طلع الفجر، كان فى طريقة إلى الحلقة وهو يعزى نفسه:

يعنى. الواحد لا بد أن يقنع بشىء! أو لا بد من كل شىء؟!

ووجدها سهرانة تنتظره، المعلمة وردة النقرزان.

قالت له:

- تعبت يا ملعم بيومى. لكنك رجل شهم. نتعب لك فى الأفراح إن شاء الله.

ولم يرد، فمضت تقول:

- تظن أنها حكاية ومرت؟ لا يا معلم. سيأتون. "خلاص رجليهم أخذت علينا. حيشطبونا يا معلم. لازم نقطع رجليهم قطع".

ولم يرد، فقد كان الارهاق قد بلغ به مبلغاً كبيراً.

أما هى فأتمت حديثها وقد تملكها الغضب:

- هذه المرة البهائم، ثم القهوة، ثم الدكاكين، ثم الحلقة، ثم أنا وأنت وكل الناس، نصبح عرضة لنهبهم. أبداً. مستحيل.

وفى عصبية شديدة قالت المعلمة:

يعنى أيام الخواجة، لم يجرؤ كلب منهم على هذا، واليوم بعد أن ذهب الخواجة، جاءوا بشجاعتهم يسرقون. يعنى مرزوق الجدار الواطىء؟! اختشوا حتى من والده الشيخ مختار. اختشوا من أمه الست راضية! راعوا ذكرى جده الشيخ مرزوق، شيخكم وفقيهكم وقاضيكم، يا أبالسة يا أولاد الأبالسة.

وصاحت المعلمة تقول:

لكن لأ.. والله لأرينكم يا كلاب. نام أنت يا معلم بيومى. اذهب أنت إلى دارك الآن، واسترح قليلاً، وسيكون لنا بعد ذلك كلام طويل.

وسار المعلم بيومى، يجر رجليه، فى ضنا وتثاقل، حيث ألقى برأسه على صدر زوجته الحسناء، وراح فى سبات عميق لم تتخلله حتى تلك الأصوات التى هربت منه فى الظلام.

المعلمة وردة هى التى لم تر النوم، ولم تستطيع أن تغمض جفنيها، فأخذت تطوف هنا وهناك، وتدور حول العزبة، لترى مسالك الطرق من ناحية الجسر، أو الترعة، أو القنوات أو الغيطان المجاورة.

ولما استبد بها القلق، سارت إلى المحطة، حيث وثبت فوق حمار من حمير "أبو اليزيد الحمار" ومضت إلى سيدى الذكيرى.

ولم تحتج المعلمة لكلام طويل، فقد سبقتها الأخبار إلى الشيخة تفيدة، وإلى "عم أبو المكارم"، بل إلى الصغير "أبو عوف" الذى أخذ يتساءل تساؤلات طفلة وضعى إلى ما يسمع من إجابات فى اهتمام بالغ.

قالت الشيخة:

- وماذا تنوين أن تفعلى يا معلمة؟

قالت المعلمة فى انفعال:

- لا بد من أن أقطع رقبة من يفكر فى السطو علينا. طبعاً، و إلا ضاعت هيبتنا هنا، ونحن ناس غرباء، لو ضعنا أكلونا أكلاً.

قالت الشيخة:

- ما غريب إلا الشيطان. أنا أيضاً غريبة مثلك، لكنا فى أرض الله، وهى واسعة، وفى رحمته سبحانه وتعإلى، وهى أوسع.

وكانت المعلمة وردة منفعله، فأخذتها الشيخة فى حضنها، وأخذت تربت على خديها، وتمسح لها شعرها، وتقرأ لها الفاتحة، سائلة الله أن يعيد إليها السكينة والهدوء.

قالت الشيخة:

- ما أظن أنك الآن محتاجة إلى شىء، بقدر ما أنت محتاجة إلى الراحة لتستعيدى نفسك، ولتفكرى فى الأمر دون أن يصرفك الغضب عن الصواب، إن أعدى أعداء الإنسان، هو غضبه.

وهزت المعلمة رأسها، والدموع فى عينيها.

قالت الشيخة:

- لا يا معلمة. لا داعى للدموع. أنت تريدين أن تعرفى من وراء هذا، ولن تستطيعى ذلك وأنت غضبى. إن الدموع تملأ عينيك غشاوة فلا ترين من خلالها شيئاً. ابتسمى ابتسمى. امسحى عينيك وابتسمى، وسيتضح لك كل شىء على حقيقته ثم إذا كان لى أن أنصح بشىء، هو ألا تفقدى أعصابك أبداً. لا تغضبى. وهؤلاء الذين أساءوا إليك يستحقون رحمتك. إنهم أكثر حاجة إلى الرحمة منهم إلى الثأر و الانتقام. وثقى يا معلمة وردة أنك بالاشفاق عليهم، تصلين منهم إلى أضعاف ما تصلين إليه بالقسوة والشدة. ثم عليك بالحيلة. إن العناد وركوب الرأس قد يفقدك كل شىء وأنت امرأة ذكية وقادرة ولو لجأت إلى الحيلة لعرفت من يكون هؤلاء ولغيرتهم وأصلحت من شأنهم.

وعادت المعلمة إلى المحطة مرتاحة، فهجعت تستريح، فلما استيقظت أخذت مكانها فى صدر القهوة، وكانت قد أرسلت تدعو المعلم مبروك الحنطور، فأسرع إليها وجلس إلى جوارها، وحولهما عدد من الرجال.

وحكت المعلمة ما كان من قصة السرقة، وما كان من حديث بينها وبين الشيخة تفيدة، فلما انتهت من روايتها، سألت الرجال ماذا يرون.

قال المعلم مبروك الحنطور:

- الشيخة عندها حق.

وقال المعلم بيومى:

- الشيخة عندها حق.

وقال الرجال نفس ما قاله المعلم مبروك والمعلم بيومى.

وجذبت المعلمة نفساً طويلاً من المبسم الكهرمان ثم قالت:

- وأنا معكم مع الشيخة. المهم تقولون لى كيف نأخذ الأمر بالحيلة. كيف نتحايل؟ أريد كلاماً مقنعاً. أريد حيلة لا تمس كرامتنا، ولا تظهرنا بمظهر الضعف. حيلة لا تفقدها هيبتنا ولا تؤثر فى وحدتنا. حيلة رجال، لا حيلة ضعيفة مهلهلة تمزق صفوفنا. ماذا ترون؟

قال بيومى:

- الذين يسرقون البهائم هل يسرقونها ليحتفظوا بها، أو ليخزنوها؟

قالوا فى نفس واحد:

- طبعاً لا.

قال بيومى:

- والذين يسرقون البهائم، هل يربونها حتى تكبر أو حتى تسمن؟

قالوا جميعاً فى نفس واحد:

- طبعاً لا.

قال بيومى:

- والذين يسرقون البهائم، هل يسرقونها ليستغلوها فى حقولهم وأعمالهم؟

قالوا جميعاً فى نفس واحد:

- طبعاً لا.

قال بيومى:

- إذن لماذا يسرقونها؟

قالت المعلمة وردة:

- ليبيعوها ويستفيدوا من ثمنها.

وقال المعلم مبروك الحنطور:

- ولينتقموا من أصحابها أيضاً.

قال بيومى:

- ومن الطبيعى أن يتخلصوا منها بأسرع ما يمكن.

قالوا:

- طبعاً!

قال بيومى:

- ولن يشتريها منهم أحد من الناحية حتى لا يسىء إلى نفسه أو تسوء علاقاته بالناس.

قالوا:

- طبعاً!

قال بيومى:

- هم يسرقون البهائم. هذه واحدة! وهم يحبون أن يتخلصوا منها على وجه السرعة. هذه ثانية! وهم لا يستطيعون التخلص منها فى الناحية هذه ثالثة! ثم الذين يشترونها منهم، لابد أن يتخلصوا بدورهم منها اخفاء للجريمة. هذه رابعة!

قالت المعلمة وهى تضحك، وترتفع ضحكاتها فى مرح، وتصفق بيديها مؤكدة أنها فهمت ما ينوى أن يقوله، بينما المعلم بيومى ساكت يرقب المعلمة، وإبتسامة رقيقة تعلو وجهه.

قالت المعلمة:

- خلاص. نفتح محل جزارة. "بس فين؟ مش كده يا معلم؟! ".

وعادت تضحك من قلبها.

قال بيومى:

كثير هذا يا معلمة. أبداً. استتاجك فى محلة تماماً. لكن نفتح دكان جزارة؟ لأ. وأين؟ وهل يتجهون إلينا بما يسرقون من بهائم أم لا؟ كلها مسائل غير مضمونة يا معلمة. إنما الأجدى أن يعمل واحد منا سمساراً.

قال المعلم مبروك وهو يصفق بيديه:

- هو هذا. سمسار يشترى لحساب الجزارين. يشترى بهائم مسروقة رخيصة، ليصرفها بأسرع ما يستطيع لجزار، يذبحها بأسرع ما يستطيع، وتتحول السرقة إلى لحم طازج يشتريه الناس بالرطل أو بالأقة. المهم يا معلم أن يستطيع السمسار أن يكسب هؤلاء الأشقياء. كيف لا أدرى!

وهزت المعلمة رأسها وهى تقول:

- "مفيش غيرك يا معلم بيومى" هيا استعد.

قال بيومى:

- لأ.. أنا؟!

وشرد إلى نفسه، ليقول لنفسه:

- كان ناقصنا! سمسار؟! إنك لم تعد تدرى من تكون؟ شيخ ضريح أو طالب حقوق أو صياد سمك، أو سمسار بهائم!! "ولسه"!!



واتجه إلى الضريح.

طبعاً يجب أن يزور سيدى الذكيرى ويطلب منه البركة والستر.

إنه سيعمل سمسار بهائم. وسيصرف جهده للحصول على البهائم المسروقة! أرخص. البهائم المسروقة أرخص! الذين سرقوها يريدون أن يتخلصوا منها، والذين يشترونها

أصناف: صنف يريد الابقاء عليها للحقل وللخير الذى يأخذهمنها، وهذا الصنف لا يبحث عن البهائم المسروقة حتى لا يقع فى المحظور، وصنف لا يهمه كل ذلك، لأنها فى النهاية ذبيحة شهية يبيع لحمها للناس، وكلما كانت أرخص كلما كان مكسبها أكثر. مسروقة أو غير مسروقة، لا يهم! المهم أن يكسب! حلال أو حرام لا يهم! يشترى من لصوص أو شرفاء لا يهم! ولا شك أن اللصوص يفضلون هذا الصنف.

وأنت لا تمانع فيما يفضله اللصوص يا ولد، فالذى يهمك اللصوص، لا البهائم!

أنت لا تريد أن تصبح سمساراً بحق وحقيق، حتى تحافظ على اسمك وعلى شرفك وعلى سمعتك. إنها مهمة لن تطول بأذن الله، وتعود أدراجك، المعلم بيومى فى حلقة السمك، والشيخ عبد الرءوف فى حضرات سيدى الذكيرى، وبيومى جمعة الصايت فى كلية الحقوق،فإن تجردت من كل ذلك فأنت ممدوح، ممدوح المجرد من كل شىء، إلا جلدك الذى ولدتك به أمك.

لكن هل تعود أدراجك بهذه السهولة وهذا اليسر؟

ستتعامل مع لصوص ومجرمين ومغامرين. والذين يسرقون بقرة أو جاموسة، لا يهمهم أن يسرقوا حياة الناس، ولو شكوا لحظة فيمن يتعامل معهم، أن يسرقوا حياة الناس، ولو شكوا لحظة فيمن يتعامل معهم، فلا تفاهم إلا بالدم! يا نهار أسود! وآخرتها؟ وإلى متى تعيش فى أخطار؟ كل خطر يسلمك إلى خطر، إلى خطر... بغير نهاية!.

يا سيدى أحمد يا ذكيرى بركاتك! هل يرضيك أن يتعرض خادم ضريحك للسوء؟ هل يرضيك أن يذهب خادم ضريحك فى شربة ماء؟ وهل يفلت من الإنجليز، ومن رصاص المدافع السريعة الطلقات، ومن المؤامرات البريطانية، ليقع فريسة فرج النمس، وعدد من حثالة الأشقياء؟

إن فرج النمس قد حرم من الميراث. أبوه الحاج عبد الوارث كتب أرضه للجامع. وفرج النمس يعمل فى رش الجسر. يركب الحمار الحديد كل صباح ويعود مع الغروب. لكنه لم يقنع بهذا إلا مضطراً .أنه يريد أرضاً. يريد أن يزرع ويقلع "ويشخط" فى الناس كما

يريد. أى نعم، هذه الشغلة تدر عليه أربعة جنيهات كل شهر، ولا تكلفه شيئاً، ولا يزال أبوه يرسل إليه حاجات بيته مضطراً. لكن الأرض عز. الأرض شىء آخر! وأين الأرض يا فرج؟ ميراثك ضاع وأصبح وقفاً على الجامع، والبلد كلها تتعاون فى زراعته تطوعاً، قربى إلى الله، وقد طرح الله فيها البركة، فأصبح الفدان فيها بثلاثة. والشيخ مختار انتهز الفرصة وأخذ يصلح المسجد، ويوسعه، ويهندسه، ويزيد عليه، ويلحق به كتاباً ومدرسة لتحفيظ القرآن، ويفرشه بالحصير الجديد، ويرعى فيه اليتامى المحتاجين، حتى يلتحقوا بالأزهر وتصرف لهم جراية منتظمة.

إذاً ميراثك طار، والعودة فيه مستحيلة، وأهل البلد كلهم صاروا أصحابه، ولن تستطيع أن تغلبهم ومعهم العمدة وشيخ الخفر، والخفر، والغجر أيضاً.

هى إذاً عزبة الخواجة: جورج بسطوروس خرايللو البحرواى.

ايجار. عزبة ايجار. أجرها الخواجة للمعلمة، والمعلمة تركتها للأفندى الصغير مرزوق، بحجة أنه دارس زراعة!!

وهل الزراعة درس؟! هل الزراعة دبلوم؟ الزراعة شغل وتجارب، وهؤلاء التلاميذ لا يعرفون عنها شيئاً.

ثم يعنى أبوك يأخذ الميراث للجامع، وأنت تأخذ العزبة لنفسك؟!

لا لا.. والله أبداً. "النص بالنص" أنتم أخذتم الميراث وأنا أخذ العزبة، إنما تأخذون الاثنين.. لأ.. أبداً.

هكذا يفكر فرج النمس، بكل ما يختزنه من الحقد والسخط والكراهية.

وهذا هو زبونك الأول يا سمسار الهنا!!

إيه. بركاتك يا سيدى الذكيرى. ها أنذا فى الطريق إليك، وسأضع عند عتباتك كل همومى.

وكان عليه أن يتحدث مع مديحة، زميلة طفولته وكفاحه، والبسمة الطيبة التى لا تزال تضىء دنياه.

نعم وستستمر. إنها شىء عميق فى حياته، لا يمكن اقتلاعها منها. أخته؟ أقرب. أمه؟ أحن. صديقته؟ أصدق. هى كل هؤلاء وسواهن كذلك.إنها الحياة والأمل. إنها النور الذى لا يخبو، والنبض الذى لا يقف.

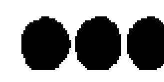
بل وكان عليه أخيراً أن يلتقى بعمه "أبو المكارم"، عمه وعم جلال ومديحة، والبئر الذى يحفظ أسرارهم فلا تذيع. أن لسانه الأخرس، هو حصن النجاة لهم ولزملائهم من المكافحين، والفدائيين الأبطال.

وهناك عند الضريح جلس المعلم بيومى، وعيناه شاردتان.

وكانت أمامه مديحة، فى طرحتها البيضاء، والمسبحة الطويلة تتدلى من بين أصابعها، ودخان المبخرة يتصاعد فى تعاريج التأنى، ليملأ المكان بعبق طيب طاهر.

وكان أمامه كذلك الوجه الصبوح الكتوم، صاحب اللسان العف عن الكلام، المتعالى عن اللفظ يكشف به ما يعتمل داخل نفسه من الحقيقة. عم أبو المكارم. وكان ينظر إليه كأنما يشعر مقدماً بما ينوى أن يقوله له.

وعلى قيد خطوة منه، كان أبو عوف الصغير، يلعب هنا وهناك، حول الضريح، وعلى مقربة من قبر أبيه.



وروى المعلم بيومى ما كان من سرقة البهائم.

وروى كذلك كيف سيضيف إلى صفاته، صفة جديدة لم تخطر له يوماً على بال. سيصبح سمسار بهائم مسروقة!

وضحك أبو المكارم ضحكاً طويلاً متصلاً، وهو يسمع حكاية السمسار، ثم سأله فى تعجب:

ولماذا مسروقة؟

وأخذ المعلم بيومى يشرح فى إفاضة وفصاحة! كمن يريد أن يزيح عن قلبه كابوساً، أو يسرى عن نفسه بحديث طويل!

وما أن انتهى، حتى كان عم أبو المكارم قد قرر أن يهيئه لصفته الجديدة على التو.

ياه!! طيب انتظر قليلاً يا عم أبو المكارم. لماذا الاستعجال؟ راجع مخزنك أولاً، فقد لا تجد المطلوب.

وأجاب أبو المكارم على طريقته، إن كل شىء موجود. ضابط عندى! شحات عندى! خواجة عندى! حرامى عندى! ثم ألم أهيئك لتصلح بوابير جاز؟ ألم أجعل منك شحاذاً عبيطاً؟

قالت الشيخة:

- وهل ستكون وحدك؟

قال المعلم بيومى:

- أظن هذا. سأكون سمساراً. نعم وحدى. لماذا؟

قالت:

- ربما احتجت لمساعدة مع هؤلاء.

قال:

- ربنا يا ستى موجود.

قالت:

- على كل حال سأدبر الأمر من ناحية أخرى، لأطمئن عليك. وسأخطرك عندما أصل إلى شىء.

قال:

- اتركيها على الله.

قالت:

- كله على الله.



وبدأت رحلة المخاطر مع الجزارين وأشقياء الناحية.

كان لا بد له من زبائن من اللصوص ومن الجزارين، ليصل ما يسرقه هؤلاء لأولئك لكن بأيهم يبدأ؟

لو بدأ باللصوص، فسيسألونه عن الجزارين. ولو بدأ بالجزارين، فسيسألونه عن البهائم المسروقة!

وابتكر طريقة فريدة فى التعرف على الفريقين فى آن واحد. اشترى عجلاً وخروفين.

وأراد أن يكسب ثقة زعيم أشقياء الناحية. واحد من أولاد الأعيان الذين انحرفوا تحت ضغط المخدر وتكاليفه. فترك البهائم خارج القرية، وذهب إليه حيث كان يقيم فى مندرة مهجورة. وكاد الشقى أن يقتله عندما رآه مقبلاً عليه تحت جنح الظلام، لولا أنه ناداه باسمه واستغاث بشهامته، وأكد له أنه قدم إليه ليقع فى عرضه، ما تركه حياً يرزق.

قال له:

- أنا مثلك يا درش، من بيت عز، لكن الزمان علينا جار، ولم أعد أستطيع أن أعيش إلا بالتحايل. مرة أسمسر ومرة أتاجر.

قال درش:

- "وان ما أمكنش، تسرق"؟

قال:

- مكتوب يا درش. مكتوب.

قال درش:

- وما اسمك؟

قال:

- محسوبك العترة.

قال فى سخرية:

- "لا والله باين".

وحكى العترة مشكلته، وأن معه عجلاً وخروفين، لا يدرى كيف يحتفظ بها يومين اثنين حتى يجد لها "صرفة"، أضاف أن الدنيا ضاقت فى وجهه فلم يجد باباً إلا هذا الباب. وختم كلامه قائلاً:

- "أنا وقعت فى عرضك". تطردنى؟ استرنى ربنا يستر سرك.

قال درش:

- وأين البهائم؟

قال العترة:

- ربطتها فى شجرة سنط فى أول البلد.

قال درش:

- بحرى البلد؟

قال العترة:

- نعم بحرى.

قال درش:

- اتركها إذن واذهب أنت لحالك.

قال العترة:

- ربما...

وصاح فيه درش:

- قلت اتركها... "مش عاجبك خدها وانجر".

وعاد العترة يتملقه وينافقه ويعتذر له عن محاولته أن يتدارك الموقف وينبهه لأى احتمال.

- لكن بلا انتقاص لقدرك. أى والله!

- وبلا شك فى قدراتك الهائلة. أى والله!

- وبلا توجس أن يجرؤ أحد على شىء فى ذمتك. أى والله!



وانصرف العترة ليبحث عن جزار يشترى منه هذه المسروقات، "بتراب الفلوس"!!

طبعاً لا بد له من جزار "ضلالى"، خرب الذمة، يقبل البهائم المسروقة، ليصبح زبونة، ويبيع له البهائم المسروقة.

وتنهد العترة، وهو يمنى نفسه أن يستطيع عن قريب أن يمسك بمن يسرق بهائم العزبة متلبساً بسرقته!

إن الذى سرق البهائم أول مرة، سيعود ليسرقها بعد أن تهدأ الحالة، ويهجع الحراس.

وآه له ساعتها! يا ويله مما سيحدث له!

طبعاً. لا والله تترك العزبة نهباً لهذه الحثالة من الناس! لييأس مرزوق، وييأس معه الفلاحون المساكين، ويصبح الخواجة مضطراً لتأجيرها لواحد مثل فرج النمس ومن معه من الأشقياء!

ويمضى العترة فى بحثه عن الجزار المنشود.

لكن أين يجده؟ أين يستحسن أن يجده؟

هل يختاره فى طنطا؟ لكنها بعيدة، وسيصبح عليه أن يعبر بالمسروقات كوبرى كفر الزيات، وقد يعرضه هذا الخطر.

هل إيتاى البارود تصلح؟ آه تصلح، لكنها أقرب إلى القرية، واستهلاك اللحوم فيها محدود، فإذا كثرت السرقات، فسيتعذر عليه تصريفها.

إذن دمنهور.

واستقر رأيه على دمنهور.

وعندما ذهب، أخذ يسأل الناس على طريقته ليتعرف بالجزار المنشود.

وأخذ يفكر فى طريقة يتعرف بها إليه.

وبينما هو كذلك سمع صياح الصبية فى الطريق ينادى باسم المعلم على فايد! إنهم يتجمعون فى شبه مظاهرة، حول عجلين جامحين، يمسك مقود كل منهما رجل قوى والرجلان يبذلان كل جهدهما حتى لا يغلبانهما ويجريان منهما أو يجرانهما خلفهما ليضحك منهما الناس. وهما فى الوقت نفسه يصيحان ليصيح بعدهما الصبية:

"من دا بكرة. من دا بكرة"

"عند على فايد. من دا بكرة"

"الورقة ببريزة. من دا بكرة"

"عند على فايد. من دا بكرة"

"ياللا يا زباين. من دا بكرة "

"يالا يا أكيلة. من دا بكرة"

"عند على فايد. من دا بكرة"

ووجد فى هذا الصباح فرصته،فانضم إلى الصبية، حول العجلين يشجعهم على الصباح، ويغريهم بأنه سيكافئهم مكافأة سخية إذا هم رفعوا عقائرهم بالنداء. وكان لا

بد من أن يرحب به الرجلان اللذان يمسكان بالعجلين. وكان الترحيب صامتا، لكنه كان حاراً. ولقد استغل العترة فرصة، فأمسك هو بمقود أحد العجلين، وصار على رأس الموكب، حتى ذهب إلى الدكان حيث كان المعلم فى الانتظار، يصفق مع الصبية فى مرح، وهو يقول معهم:

"من دا بكرة. عند على فايد. من دا بكرة".

وأخذ يوزع على الصبيان "الأرواح"، ويعطى كلا منهم مليمين. وبغير أن يتبين العترة مد يده إليه بقطعة بمليمين فأخذها منه وهو يقول:

من إيدك تقبل يا معلم على.

ونظر إليه فلما وجده رجلاً بشارب كشوارب الصقر قال:

الله.. من؟ من أنت؟

قال على الفور:

العترة. المعلم العترة.

وعانقه فى ود، وأخذ يربت على كتفه فى ترحاب ثم أقسم ليشربن معه الشاى، ويشاركه "الجوزة الحمى المعتبرة".

وجلسا يحتسيان الشاى، ويمصانه مصاً منغماً عالياً، ويتبادلان الجوزة ليشد كل منهما منها نفساً عميقاً، ثم يسعل، ثم يشفط من الشاى شفطة يسلك بها حلقه، ثم يشد نفساً من الجوزة ليسعل... وهكذا.

وفى أثناء ذلك كله يتبادلان الأحاديث، حتى يصبحا صديقين.

- وعندك بهائم؟

- لوز... لوز والله يا معلم على.

- عترة زيك كده؟

- الله يخليك. هذا من ظرفك.

- وغالية؟

- الغالى يرخص لك يا معلم.

- بالتسعيرة؟ تسعيرة زمان... يعنى!

- وبأقل.. لأجل عيونك يا معلم.

- سلمت عيونك يا معلم عترة. طيب اتفقنا.

- من عنيه... عاوزهم أمتى؟

- إن شاء الله دلوقتى حالا...

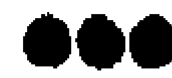
- طيب بكرة.

- بكرة بكرة. اتفقنا.

ووضع المعلم على فايد يده فى جيبه، وأخرج خمسة جنيهات عربوناً وحاول المعلم العترة ألا يأخذ منه عربوناً فأقسم بالطلاق من زوجاته الأربع، أن يأخذ العربون.

- عيب. أنت برضه بتتكلف! مش بتقول أقل من التسعيرة. احنا فاهمين بعض يا عترة. هى الحاجات دى ببلاش؟!.

وضحك ضحكة صاخبة، وهو يصافحه مودعاً.



وعاد العترة إلى حيث ترك البهائم وديعة عند صديقه درش.

وجلسا يحتسيان الشاى، فقال العترة:

- يا سلام على الرجالة. من غيرك مش عارف كنت عملت إيه؟

- يا راجل اختشى. هو إحنا عملنا إيه يعنى؟

- ياه... ودا شوية يا درش؟!

- آ... شوية.

- مش عارف أجزيك بإيه.

ووضع العترة يده فى جيبه وأخرج جنيهين وقال له:

- "يكفيك دول؟".

ونظر درش إلى المبلغ، ثم ضرب بيده على يد العترة وهو يقول:

- شيل... شيل اختشى. حطهم فى جيبك".

قال العترة:

- الله. حقك. هذا حقك يا درش.

قال درش:

- "والله وبقينا بنتاجر؟! عيب. هذا عيب".

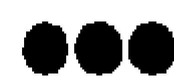
قال العترة:

- "والنبى تاخذهم...هم يعنى إيه؟ ".

قال درش:

- "عشان ما يبقاش لنا عندك حاجة! لأ ..خليهم. عاوز تجامل بصحيح، إبق صرف لنا حاجاتنا. ياما بهائم جاية ".

وضحك العترة ودرش للنكتة ضحكات عالية متصلة.



وبدأ العترة يرتبط بصداقة متينة بالمعلم على فايد، وبدرش الشقى الرهيب الذى يعيش على النهب والسرقة والاغتصاب.

كان يبيع للمعلم على فايد البهائم بنصف الثمن، فكان المعلم يرحب به أشد ترحيب، وفى كل مرة يدعوه لشرب الشاى وتدخين الجوزة، وكثيراً ما كان يقسم بالطلاق ألا يغادره قبل أن يتغدى معه أو يتعشى، وفى بعض الأحيان كان يتحفه بهدية غالية! شال كشمير! جلباب صوف! حرام وبر جمل عمولة! أى شىء من هذا النوع.

وكان يشترى من درش بأكثر مما يبيع للمعلم على فايد، فكان درش سعيدا به، حفياً بمقدمه، لا يتركه إلا إذا قضى الليلة عنده، وإلا إذا شاركه الأصناف التى يحصل عليها من البندر، وأكل معه من طيبات ما رزقناكم.

- يا أخى هذا كلام ربنا. كلوا من طيبات ما رزقناكم. ألا تسمع كلام ربنا؟

- ونعم بالله يا درش. غايته أنا مشغول.

- لا ... تأكل أولاً ثم تذهب.

ونمت صداقة العترة بالطرفين، حتى أصبح درش يعتمد عليه فى كل ما تحصل عليه يداه، هو والأشقياء زملاؤه، كما أصبح المعلم على فايد يذبح بعض ما يحصل عليه ويتاجر فى الباقى.

ومع الأيام حكى درش للعترةعن كل الأشقياء زملائه، وكان بينهم فرج النمس.

وتحايل العترة بمختلف الطرق، حتى علم أن فرج النمس لم ينضم إليه إلا بعد أن طردوه من البلد.

ناس ظلمة ومجرمون! يطردون الولد من بلده! يأخذون أرضه! يحرمونه من ميراثه! قلوب من غير رحمة، بعيد عنك!

وتظاهر العترة بالإستغراب، واستنكر أن تصل القسوة بالناس إلى هذا الحد، فيدفعون الولد إلى هذا الطريق.

- معذور والله. ماذا يعمل المسكين! لكن هذا الطريق أحسن وأسهل وأضمن.

قال درش:

- بكثير.

كانت المعلمة جالسة كعادتها فى ركنها المفضل من القهوة، والمبسم الكهرمان فى فمها لا يغادره إلا ليعود إليه. وأكواب الشاى المحزمة بالخطوط الذهبية تأتى ملآنة، وتعود فارغة. ونظرت عميقة نفاذة، من عينين كحيلتين حالمتين تدور فى أركان القهوة تفحص كل شىء وتطمئن على كل شىء. والجلباب الرجالى المخطط يتمايل مع حركاتها، وهى مرة بطيئة فى هدوء، ومرة سريعة فى عصبية! والمنديل الأسود الحرير، ينحسر من أمام عن جبهة عريضة ذكية ومنابت شعر أسود فاحم يتوجها. لكن المنديل يحبسه، فيطل من خلف فى ضفائر مجدولة فى عناية، تروح وتجىء، تارة على الصدر الناهد المتخفى فى ثوب رجل! وتارة على الكتفين المثقلين بأعباء الدنيا والدين! وتارة ثالثة على الظهر تتدلى حتى تكاد تلامس التراب!

كانت تنتظر العترة! كانت مشغولة على العترة، فقد طالت غيبته هذه المرة، ولم يكن ذلك فى الحسبان، ولا هى تدرى أين قادته قدماه.

وإنها لترد على خضرة كلما سألتها عنه:

- "ده دى. ما قلنا راح مشوار. بكرة يا أختى يجيلك وتشبعى منه".

لكنها بينها وبين نفسها كانت قلقة عليه، فقد حمل معه فى المرة الأخيرة مبلغاً يطمع اللصوص فيه. كان يريد الفرق بين ما يشترى به وما يبيع به.أنه يشترى بأكثر مما يبيع ليغرى الشارى والبائع معاً، ويحملهما على ألا يتعاملا إلا معه، لا البائع يبيع لسواه، ولا الشارى يشترى من سواه، وكلاهما لص يسرق وينهب ويغش.

لكن العترة لا يعود، والمعلمة لا تستريح، وخضرة الزوجة لا تفتأ تسأل عنه.

والشيخة تفيدة كانت هى الأخرى تنتظر عودته لتطمئن عليه. وكلما طالت غيبته ساورها قلق شديد وحدثتها نفسها بكثير من الهواجس، لكنها سريعاً ما كانت تعود فتنكرها، داعية له بسلامة العودة إلى بيته وزوجته وابنه، وإلى ضريح سيدى الذكيرى، وحلقة السمك، وكلية الحقوق، وكثيرين من الشباب علقوا آمالهم عليه.

ولما استبد القلق بالشيخة، نادت سبيلة الغجرية، وحدثتها بالأمر، وطلبت منها أن تبلغ المأمور ناجى سلطان، فقد يكون له رأى مفيد.

ولم تكتف الشيخة بهذا، لكنها أرسلت فى طلب الست قمر، لتشاورها وتشاركها هذا القلق الذى تعانيه.

وفى مكتب مأمور إيتاى البارود، كانت الغجرية واقفة فى أدب تشكو للمأمور أن واحدا ثقيلاً خطف محفظتها بعد أن باعت ما حملته من قريتها من بيض وجبن وزبد. وأخذت الغجرية تبكى وتولول والمأمور يحاول أن يهدئها، تارة بالحيلة وتارة أخرى بالأمر، لكنها ظلت مع هذا تبكى حظها التعس والمحفظة التى كانت مليئة بثمن ما باعت.

- يا نصيبتى يا نصيبتى! وأقول لأصحاب الحاجة أيش؟

- اسمعى إنت يا غجرية. هل تعرفين شكله؟

- أبداً والنبى يا سيدى. لكن أبداً ليش؟ طويل يا سيدى كالنخلة!

- أسمر أو أبيض؟

- لا أعرف يا سيدى. لكن لا أعرف ليش؟ أسمر يا سيدى كالبلح الأمهات!

- سمين أو رفيع؟

- لا أذكر يا سيدى. لكن لا أذكر ليش؟ رفيع يا سيدى كالسنارة!

وأخذ المأمور يحاورها ويداورها، وهى هى لا تتغير، تقول كلاماً غامضاً غير مفهوم، ويحاول نائب المأمور وضابط المباحث و"البلوكامين" أن يقفوا منها على شىء، لكن دون جدوى. ويحاولون أن ينهروها فيتدخل حضرة المأمور لحمايتها. وعندما ييأس منها الجميع يقول المأمور فى صرامة:

- انتظرى فى ركن هناك حتى أفرغ من عملى.

وتقبع فى ركن بعيد من حجرته، حتى إذا ما انصرف الناس، وأصبح المأمور وحده، وأغلق باب المكتب عليه وعليها، فقفزت هى إليه تضحك ملء شدقيها وهى تقول:

– شربوها... هيه.. شربوها! "وقال إيه؟ أشىء مباحث، وأشى عسكر... عسكر وحرامية"!!

– ياه! طويل كالنخلة، وأسمر كالبلح الأمهات، ورفيع كالسنارة!! يا بنت!!

– أعمل إيش؟ كان من الضرورى أقابلك حالا.

– خيرإن شاء الله.

– المعلم العترة...

– يا فتاح يا عليم! ومن هذا العترة أيضاً؟

– طيب المعلم بيومى.

– واحد تانى؟!

– طيب الشيخ عبد الرءوف.

– أيضاً؟!

– طيب الطالب بيومى جمعة الصايت.

– كل هؤلاء.

– لا أولئك ولا هؤلاء. ممدوح. ألا تعرفه؟

– أبداً، عمرى ما سمعت عنه.

– الرجل المعفرت أبو ستين وش. ومرة شيخ مع الشيخة تفيدة، ومرة معلم مع المعلمة وردة، ومرة تلميذ مع التلاميذ فى الجامعة، وهذه المرة...

– سمسار بهائم مسروقة.

– إيه؟! هل تعرفه؟

– "مش شغلك" المهم هو بخير.

- لكنه لم يعد، والست الشيخة قلبت عليه الدنيا.

- "قولى لها تطمئن، وكفى هذا الاهتمام. كثرة السؤال والبحث ستضر.

- كيف هذا يا سى ناجى؟

- كما أقول لك. أنا على اتصال به، ومتفق معه على خطة معينة، وهذا يكفى الآن. مفهوم. عودى إليها حالا وطمئنيها.

- طيب والمعلمة وردة.

- سيصلها ما يطمئنها ويطمئن زوجته عليه. هو فى أمان.

وانصرفت سبيلة الغجرية من مكتب المأمور، وهى تدعو الله على ابن الحرام الذى خطف محفظتها، وتطيل لسانها بكلام لاذع، وإن يكن مبهماً عن المأمور والبوليس والحكومة، لأن كل هؤلاء لا يستطيعون أن يجدوا محفظتها! وتتعرض فى طريقها لتحذير العساكر، لكنها تمضى عائدة إلى قريتها.

وعندما عاد المأمور إلى بيته وجد والدته الست قمر تتأهب للخروج.

قال لها وهو يخفى عنها إبتسامة:

- إلى أين يا ست الستات؟

- زيارة يابنى. أزور بعض أقاربنا.

- وقد تمتد الزيارة إلى الليل؟

- جائز يابنى.

- وقد تبيتين عند أحد الأقارب؟

- جائز يا بنى. لكن كيف تعلم كل هذا يا ناجى؟

- أنا مأمور المركز يا ست قمر.

- إيه؟ وتظن أن هذا يخيفنى؟!

ـ أبداً .. أبداً . أستغفر الله العظيم. كل ما أطلبه أن تطمئنى أقاربنا علينا .

ونظرت إليـه طويلاً وهى تدير كلماته فى نفسـهـا، وتحـاول أن تتبـين مـا يقـصـده من ورائها، ثم قالت له فى سخرية:

ـ حاضر. أطمئنهم. حاضر يا حضرة المأمور.

وانصـرفت وقـد أدركت أنه يعـرف أين هى ذاهبـة. لكنها قـالت فى نفسـهـا: يعلم أو لا يعلم. هذا شىء لا يعفينى من مشاركة هؤلاء الناس ما يواجهونه من ظروف.

ومضت إلى سيدى الذكيرى، لتقضى مع الشيخة ليلة تؤنس وحشتها وتصرف عنها ما عسى أن يكون قد تسرب إلى نفسها من الهم والوجيعة لكل ما يدور حولها.

واستقبلت الشيـخـة الست قمر بشوق شـديد وجلسـتا تتحـدثان، وعم أبو المكارم هناك عند السـاقيـة يدور مع الثورين حول السـاقية حيناً، ويجلس على حافتهـا حيناً آخـر وهو يستعيد ذكرياته الطويلة، ويذهب إلى شجرة الصفصاف حيث خطاب غـرامـه الوحيـد، فردة الشراب الأحمر.

وفجأة وصل إلى الضريح عدد من الرجال الغرباء.

وزاروا وصلوا المغرب، ثم جلسوا ينتظرون صلاة العشاء.

ومنهم من أخـذ يقـرأ القـرآن، ومنهم من أخـذ يسـبح الله، ومنهم من أخـذ يردد الدعوات. لكن الشيـخة شـعرت أن فيهم شيئاً غـريباً . وأرسلت "أبو عـوف" الصغيـر إلى عمـها أبو المكارم، فـأسرع إليها، فلمـا وجد الرجال داخل الضريح، تأمل وجوههم، ثم دار حول الضريح دورة، عاد بعدها وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة.

ولم تكن الشيـخة تستطيع أن تتحـدث عنهم بشىء، وهم منهـا غيـر بعيد، لكنها كانت تستطيع أن تتحدث بذات نفسها إلى عمها أبو المكارم، بغير صوت ولا ألفاظ. وفهم عنها أنها مرتابة فيهم خائفة منهم، لكن نظراته إليها طمأنتها وأبعدت مخاوفها. وعندما عاد أبو المكارم إلى السـاقيـة تأكـد لها أن "البـر أمـان" و إلا مـا تـركها مع الست قـمـر وطفل صغير، مع هؤلاء الرجال.

لكن من هؤلاء؟ من يكونون؟

إنهم يتحدثون لغة غير مفهومة كالرموز، ويقولون كلاماً أقرب إلى الإشارات منه إلى الكلام الواضح الصريح.

وتعلو أصواتهم حيناً، ثم تعود تخفت، ثم تعلو، ثم تخفت.

وما هذا الحديث عن الفلوس؟ جنيهات كثيرة تتردد فى أحاديثهم، وأيمانات كثيرة تتردد على ألسنتهم، وهذا يقسم أن الثمن بخس، والثانى يسخر، والثالث يتوسط ليقرب كلا منهما من الآخر. وهكذا دار الحديث.

تجار؟ هل هم تجار؟ وماذا أتى بالتجار هكذا فى المساء، وأسواق الناحية كلها فى الصباح، وقلما تمتد إلى العصر؟

وتلتقط الشيخة والست قمر من مناقشات الرجال إنهم جماعة من التجار، يرتبون أمورهم.

وارتفع صوت يقول:

- اتفقنا..هيا بنا ننصرف.

لكن صوتاً أجابه فى عتاب:

- يا رجل. ألا نصلى العشاء الأول؟

قال الرجل:

- الله! هل نضحك على بعض؟! "عشاء إيه وبتاع إيه"؟!

وصاح صاحبه:

- هس..اياك. هذا ضريح سيدى الذكيرى، وهناك الست شيخة الضريح، ماذا تظن بنا لو انصرفنا قبل صلاة العشاء؟

قال فى صوت خافت:

- والله أنا لم أتوضأ. أنا صليت والسلام. مغرب ظهر. أهو والنهاية!

قال صاحبه:

- إذن تكمل كما أنت. المهم ألا تفضح نفسك وتفضحنا.

ونظرت السيدتان كل منهما إلى الأخرى، ولم تنبسا بحرف حتى أذنت العشاء، وصلى الرجال، ثم انصرفوا.

عندئذ قالت مديحة:

- سمعت يا ست قمر؟

قالت الست قمر؟

- شىء غريب. من هؤلاء؟

قالت مديحة:

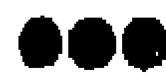
- إن فيهم سراً يا ست قمر:

قالت الست قمر:

- طبعاً فيهم سر. والله يا قلبك! وكيف تقعدين هنا وهناك وحدك؟!

قالت مديحة:

- عم أبو المكارم مطمئن، وإلا ما انصرف وهم هنا. سليمة أن شاء الله. يا ستى، وهل الحذر يمنع القدر يا ست قمر؟ أبداً.



وفى احدى أمسيات الساقية، كانت الشمس فى مغيبها القانى تصبغ هذه الساحة بحمره تخضب وجنتيها، كأنها فتاة من فتيات الموردة، تتسمع إلى غزل الحبيب يخترق أعواد الذرة أو سنابل القمح إلى أذنيها!

وصوت الساقية الرتيب يتردد فيما يشبه النداء، ولا تنفصل حلقاته إلا لتعود تتصل لتستكمل لوحة الغروب الفاتنة بصوت كأنه الشجو الحزين.

وأطراف الجميزة القديمة تتداخل مع أطراف شجرة التوت، لتكون خميلة رائعة بديعة.

وعلى صفحة الرياح تتدلى أغصان الصفصافة فى حنو يتحرك مع حركة النسيم، كما تتحرك أصابع الأم تمسح وجه ابنها بحنانها.

وعلى مرمى النظر تطل قبة سيدى الذكيرى بيضاء كعمامة، ناصعة كالحقيقة، رائعة كالأمل.

كأنما كل ذلك يغرى خيال شاعر، ويسحب صفحات الذكرى من القلب الحزين، ليغسلها بعد ذلك بالدموع.

كأنما كل ذلك دواء! لكل من فى قلبه جرح، أو عينه فرحة، أو فى حلقه غصة، أو فى أذنيه وقرا!

نعم وكأنما كل ذلك دعاء! يخرج من أجمل ساحة يستجيب فيها الله الدعاء!

وفجأة اخترق هذه الساحة صوت دخيل يصبح:

"هوه اللى حيخلص عليهم"

"هوه اللى حيفرجكم عليهم"

"هوه اللى حيقضى لكم عليهم"

"هوه اللى فات واللى جى"

"هوه إيه؟ الله حى.. الله حى"

"السعد جى، والسعد أهو جى!"

ووثبت الشيخة من مكانها، وهى تتابع الصوت المجنون، يخترق هذه الحقول إليها.

مجنون!! لا، ليس دائماً. هذا الصوت المجنون، والمجنون قد يكون فى بعض الأحيان ملهماً. نعم وقد كان الشيخ سيد ملهماً فى بعض الأحيان.

غريبة. هذا رجل فقد عقله، وأخذ يهيم على وجهه بين الحقول، بعد أن يئس أهله منه، وهو يهذى بكلام، لكن الكلام يشير إلى أشياء تحدث فى أغلب الأحيان! إيه؟ مرفوع عنه الحجاب؟! مجذوب؟! ولى من أولياء الله الصالحين؟ هذا أمر عجب.. لكن ما بالك أنت يا بنت بهذه الفلسفة؟ يكفيك أنه يقول كلاماً، وأن بعض هذا الكلام يحدث فى بعض الأحيان.

من يا ترى هؤلاء؟

ومن هو الذى "سيخلص" عليهم؟

هل يكون هو المعلم بيومى؟ أو؟ أو؟. أو باختصار ممدوح؟

إن شاء الله.إن شاء الله "يخلص" عليهم، بعد أن يضبطهم متلبسين.

لكن متى...متى؟

وشردت الشيخة تتخيل "ممدوح" فى عمله الجديد، سمسار بهائم، يتعامل مع اللصوص، ويضع نفسه فى خدمة الجزارين، ومن يدرى، ربما يكون على وشك أن يصبح جزاراً مثلهم يغش الناس، ويطفف لهم فى الميزان، وضحك عليهم بكلام معسول!!

ولم تكن الشيخة مسرفة فى هذا الخيال على كل حال.

إن المعلم العترة كسب ثقة الجزارين فى دمنهور. حتى لقد كانوا يعتمدون عليه اعتماداً كبيراً، إن تأخر سألوا عليه، وإن غاب أرسلوا فى طلبه، وأى شىء يطلبه مجاب.

طبعاً. مكسبهم كله منه. هو يبيعهم الذبائح بأرخص الأسعار، وهم يبيعونها بأغلى الأسعار، وبالغش والميزان الحرام، فتتضاعف أرباحهم من ورائه.

وكما كان كذلك مع الجزارين، فقد كان كذلك مع اللصوص. مع درش وأشقياء الناحية. يرسلون إليه يستقدمونه كلما احتاجوا إليه، وكثيراً ما كانوا يطلبونه ليتعشى

معهم ويقضى معهم بعض السهرات. صديق. هو صديق. بل ولقد أصبح أعز أصدقاء درش والأشقياء.

وفى ليلة أصر الأشقياء على أن يحضر إليهم من دمنهور. وقال الرسول الذى ذهب إليه، أن عشاء اليلة دسم... دسم للغاية.

وفهم العترة ماذا يريد، لكنه آثر أن يتظاهر بالغباء، فقال له:

- ليس لى فى الدسم.

قال الرسول:

- يا رجل، إن عشاء فرج النمس لا يرد.

قال وهو يتغابى:

- من فرج النمس هذا؟ وما شأنى به؟

قال الرسول:

- من أجل هذا قلت لك أن العشاء دسم للغاية. إنه يعد لك وقعة، لكن لا قبلها ولا بعدها.

قال العترة متسائلاً:

- "إيه؟ قد إيه؟".

قال الرسول:

- عزبة. مواشى عزبة كاملة، ويمكن طيور أيضاً.

وقال العترة لنفسه:

- هذه وقعتك أنت يا فرج يا نمس.

لكنه عاد فشعر بأنه مأخوذ. هل تمر الحكاية بسلام هذه المرة أيضاً؟ أم أن الخطر يكتنفها من هنا وهناك؟

وأى خطر يا ممدوح؟ وهل صرت تخاف الخطر يا ولد؟ لقد ولدت معه فى يوم واحد، فهل تخافه؟

شىء خفى راوده.

وطيف حبيب مر به.

وصوت شجى ملأ سمعه.

لكنه نسى البيت والزواج والولد، وقال لنفسه: ألم تهب نفسك لواجب آخر. هذا جزء منه.

وعاد يدير الأمر فى رأسه.

هل يذهب إلى المعلمة ويطلب منها أن تتأهب بدورها للوقعة السودة؟ حتى لا يواجهها بمفرده؟! هل يذهب إلى مديحة، لتتصل بعض زملائه وأصدقائه ليكونوا إلى جواره فى هذه الناحية؟!

لكنه عاد واستصغر نفسه.

ما هذا؟ وحكاية أدهم وأم الشحات. ألم تكن أصعب؟ وحكاية الخواجة والمعلمة. ألم تكن أشد؟ وواقعة العزبة. ألم تكن أخطر؟ أم أنك صرت زوجاً، والزواج والبيت كما يقولون مجبنة ومبخلة؟! لا لا يا ولد. عيب! هذا عيب!

ثم نسيت اتفاقك مع مأمور إيتاى البارود؟

وتذكر ممدوح ذلك الصباح، فى سوق الثلاثاء، عندما أخذ يشترى بعض الماشية، من مختلف الأصناف. كان متخفياً فى زى سمسار، وكان معه صبيان صغيران لكنه كان يستشيرهما قبل أن يقطع برأى.

وبعد أن اشترى ما يريده من ماشية، وسار بها إلى دمنهور، وترك صبياً منهما فى منتصف الطريق، وطلب منه أن يذهب بالماشية إلى المعلم على فايد فى دمنهور وسيلحق به فى المساء.

بينما عرج هو والصبى الآخر على طريق جانبى على حافة احدى الترع، وسارا فى حذاء الترعة حتى شجرة جميز تقابل احدى القرافات حيث وقف يتحدث مع صبيه الفتى:

- وهل أنت متأكد أنه سيقبل؟

- نعم يا عمى سيقبل.

- وما أدراك؟

- لقد عشنا هنا سنوات يا عمى، وهو يحبنى ويحب جدى واخوتى. لا تخف.

- لكنه قد يشك فىّ يا جلال.

- يا عمى أبداً. لماذا تخاف إلى هذا الحد؟ "هو أحنا بنسرق"؟

- "آه بنسرق". أليست ماشية مسروقة؟

- لكن لسنا نحن الذين سرقناها.

- وإنما نحن الذين اشتريناها ممن سرقها.

- لنحافظ عليها لأصحابها.

- هذا ما أعرفه أنا وأنت، أما الناس، فهم لا يعرفون إلا أنها سرقة.

- سيعرفون فى غد.

- فإذا لم نعش لغد أو حدث لنا شيء قبل أن يأتى هذا الغد، فما نحن إلا شركاء يا جلال.

- لكن يا عمى...

- لا لكن ولا يحزنون. على كل حال، هذا لا يعنى التراجع هيا. وذهب الفتى إلى خفير القرافة. كان يعيش فى خص من البوص، وأمامه فناء مهجور واسع. كان وحيداً لا يشاركه حياته أحد. كان أشعث الشعر، مهلهل الملبس، على وجهه تراب، كأنهم عفروه!

وشعر ممدوح كأنما هذا الرجل مبعوث.. كان فى قبر من هذه القبور، ثم بعث. وساءه أن يكون البعث على هذه الصورة التعسة... لكنه قال لنفسه: ما جئت لتحاسب الناس على الحياة التى يحيونها.

وكانت مفاجأة للرجل المهجور، عندما رأى "جلال" فحمله بين ذراعيه فى فرحة غامرة، وأخذ يقبله ويسأل عن جده وجدته وأختيه.

وأحس ممدوح أنه أساء إلى الرجل بخياله السقيم.إنه إنسان. هذا الرجل إنسان رقيق. لا بد أنه كان إنساناً مع أهل سالمة، عندما لم يجدوا من أرض الله مكاناً يأويهم إلا جيرة هذا الرجل المهجور.

وبعد أن فرغ الرجل من المقابلة والتحيات والسلامات، قال له ممدوح:

- هل تحب "جلال" هذا؟

قال الرجل فى صوت أجش:

- إنه ابنى.. ليس لى أبناء. هو أعز من ابنى.

قال ممدوح:

- فإن طلب منك شيئاً، تفعله له؟

قال الرجل:

- لو طلب روحى، لقدمتها له.

وحكى له ممدوح أنه لا يريد منه شيئاً إلا أن يحفظ عنده بعض الماشية وسيدفع تكاليفها.

قال الرجل بلا تردد:

- هاتها، وسأحفظها فى عينى.

قال ممدوح:

- فإن كثرت؟

قال الرجل:

- لا يهم. هذا فناء واسع ومهجور كما ترى.

قال ممدوح:

- فإن سالك عنها أحد؟

قال الرجل:

- هذا شانى يا أخى. وأنت مالك!! المهم ستكون ماشيتك فى الحفظ والصون.

قال ممدوح لجلال:

- وتبقى أنت معه يا جلال، تساعده فى المحافظة على الماشية.

وعندما عاد ممدوح أو المعلم العترة بالماشية ليودعها عند خفير القرافة وقبل أن يصل إلى القرافة بقليل، مفاجأة ضابط مباحث إيتاى البارود مفاجأة لم تكن على بال، وكان معه عدد من المخبرين المسلحين الذين أمسكوا بالماشية وبه.

- وقعت يا عترة. دوختنا الله يدوخك.

وعجب ممدوح، ولم يصدق أن اللعبة انطلت حتى على المباحث. هل صحيح هو المعلم العترة؟ هل أصبح فى نظر المباحث المعلم العترة؟ شىء غريب!!

لكن الضابط مضى يقول:

- أخذنا نراقبك من مدة، وأنت تنتقل كالقط من هنا لهنا لهنا، تسرق بهائم الناس وتختفى كالشعرة فى العجين، لكنا طولنا بالنا عليك حتى وقعت. ما رأيك يا بطل؟ أين بقية الماشية التى سرقتها من أصحابها؟ تعترف أو...

وظل ممدوح يقلب عينيه بين الضابط والمخبرين، وهو لا يدرى أحلم هذا أم علم!! هو - المعلم العترة - سارق الماشية!! والله إن كان هذا هو آخر جهد المباحث، فاسرقوا يا

لصوص، ولا تحسبوا لأحد حساباً، وخذوا ما تشاءون، ممن تشاءون، حتى فى وضح النهار!!

ولم يتكلم. لم يقل شيئاً.

واستمر الضابط يقول فى حدة:

- أين بقية سرقاتك؟ أين أخفيتها؟ نحن نعلم أنك نبيعها للجزارين. ذكى جداً. سيادتك ذكى جداً. الجزار جزار، يذبح الماشية، وثانى يوم تكون قد بيعت، وثالث يوم تكون قد أكلت، و"اللى راح راح". أذكى طريقة لأخفاء السرقات، فى بطون الناس، لكن السرقات الأخيرة لم تظهر بعد. أين هى؟ تكلم أحسن لك.

وتملكته الدهشة، حتى عقدت لسانه، فلم يستطع أن يجيب، وأغرى هذا الضابط فمضى يحتد عليه:

- ثم من شركاؤك؟ من هم؟ قل من هم؟ وأين هم؟

وساقه ضابط المباحث عائداً به إلى البندر.

وفجأة انشقت الأرض عن شاب أنيق مبتسم، يلبس ملابس ضابط بوليس، عظمه الجميع بما فيهم ضابط المباحث.

وسمع العترة الجميع يهمسون بأنه حضرة المأمور.

وطلب المأمور أن يتركوه مع المعلم العترة.

وجلس معه تحت شجرة الجميز، فى المكان الذى أوى عائلة سالمة بضع سنوات.

قال المأمور:

- اسمع يا معلم. أقول لك العترة ولا بيومى؟

قال بيومى:

- كما ترى. كما تريد.

قال المأمور:

- أنا عارف مهمتك تماماً، وعارف قصدك أيضاً . وأحسن لك ولنا أن نتعاون، لتصل إلى غرضك ونصل إلى أغراضنا .

قال بيومى:

- اتفقنا . ماذا تريد؟

قال المأمور:

- أنت لست لصاً . أنت رجل شريف. أنا أراقبك منذ بدأت تعمل على ضبط اللصوص الذين يهددون العزبة. ونحن معك حريصون على ضبطهم، لكن لا أنت وحدك بقادر عليهم، ولا نحن وحدنا بقادرين على كشفهم. افهمنى. استمر فى عملك معهم كما أنت، وسنحميك منهم بكل الطريق. أنا أعرف أنك لا تريد أن تبيع الماشية المسروقة، وأنك تشترى بدلها ماشية أخرى تبيعها بسعر المسروقة للجزار، والمعلمة تتحمل الفرق. كله مردود لها إن شاء الله. أنت متهم بماشية العزبة، ولا بأس أن نشاركك هذا الإهتمام، فإنها ستدلنا على لصوص الماشية فى الناحية كلها، وسنتمكن من ضبطهم متلبسين والقضاء عليهم. المهم تكون على اتصال بنا أولاً بأول، وسيضع ضابط المباحث النظام الواجب الذى يحقق الغرض، دون أن يثير الريب. متفقون؟

قال بيومى:

- مائة فى المائة.

قال المأمور:

- اذهب أنت إلى ما كنت تنوى عمله.



المعلم العترة ذكر هذا كله، وهو يتلقى الدعوة للعشاء الدسم عند فرج النمس.

بل وذكر الملعم كذلك عم "أبو المكارم"، وكيف يتعرف عليه فى كل مرة يمر بها بالضريح أو بالساقية، مع أشقياء الناحية، وكيف يتبادل معه نظرات معبرة عن كل ما يريد كل منهما أن يعرفه من الآخر وعنه. وضحك من نفسه عندما ذهب إلى ضريح الذكيرى للزيارة والصلاة ومعه بعض الأشقياء، وكيف خافت الشيخة فدعت عم "أبو المكارم" لكنه عرفه وابتسم له وانصرف، بينما الشيخة فى حيرة من أمرها هى وضيفتها الست قمر.

وكان عليه أن يرسل رسولاً إلى ضابط المباحث حتى يكون على علم بكل شئ.

وذهب المعلم العترة إلى العشاء، فى دوار فرج النمس.

كان هناك درش وأشقياء الناحية جميعاً، وبعض التابعين.

وبدأ الطعام الدسم، وكان دسماً بالفعل، فأكلوا وشربوا حتى ثملوا. ثم بدأت الجوزة تلف عليهم واحداً بعد واحد.

وعندما دارت رءوسهم، بدءوا يتحدثون بغير تحفظ ولا احتياط.

قال النمس:

– "أنا يطردونى؟! أنا فرج النمس يطردونى؟! وأسيب بلدى علشان أرش الجسر!! يا سلام يا أولاد!!

وسحب فرج النمس نفساً طويلاً من الجوزة ثم قال:

– "وأبويه النعجة يضحكوا عليه ويوقف الأرض للجامع. شئ لله يا جامع. هو ده اللى حيدخله الجنة؟! والله أبداً حتروح النار يا آبه! جامع ما جامعش رايح النار رايح النار".

وبعد أن مرت موجة الضحك، عاد النمس يقول:

– "والأدهى أن ولد مفعوص طرى زى مرزوق، يدوله العزبة. أنا ياخدوا منى أرضى ويدوها للجامع ومرزوق ياخذو له عزبة الخواجة، علشان يدوها له مقشرة!! دا كلام يا ناس؟".

ويستمر النمس فى روايته:

- "قلت يا واد اتفاهم معاه، ورحت له. رحت له بنفسى أأجرها وإلا أشاركه و إلا أزرعها له. أى حاجة. المهم تبقى عندى أرض بعد ما أخذوا أرضى... ومع هذا يرفض ويقول روح للمعلمة. طب دى راجل. هى دى معلمة. دا معلم".

ويسحب نفساً آخر طويلاً ثم يقول:

- "لكن برضه آدى احنا رعبناهم. سرقنا البهائم ورعبناهم. لا والله كنا نسيبهم!! إنما هو الراجل ده اللى اسمه بيومى. هوه اللى جرى وفضح الدنيا. قلت للرجالة سيبوها المرة دى. لكن والله ماحعتقها.أهى كبرت دلوقتى وكترت وبقت تستاهل. لازم أخليه يسبب الأرض. هى أرض أبوه الفقى؟ ولا أرض جده؟ يسيب الأرض للى يعرفوا قيمتها. هيه إيه؟ كتّاب؟!".

وطلب فرج النمس من درش وجماعته أن يقوموا معه بسرقة ماشية العزية كلها، وخزينها، والقيام بحملة فزع ليهرب منها الفلاحون والمؤاجرون.

قال درش:

- وجب يا فرج. تحت أمرك. وحلاوتنا؟

قال فرج:

- البهائم بالنص.

قال درش:

- "وبس؟".

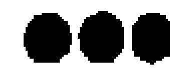
قال فرج:

- ويوم أن أحصل على العزية بالإيجار، ستصير عزبتكم، وأكثر.واتفقوا على كل شىء، وسيكون المعلم العترة جاهزاً لأخذ الماشية الجزار فى دمنهور، ولم يشترط المعلم العترة

إلا شرطاً واحداً أن يتسلم الماشية من فرج النمس شخصياً فى إيتاى البارود، خشية اللبس أو سوء التفاهم.

وكانت اجابة فرج النمس:

- "بسيطة. حاضر يا سيدى. يعنى جيت فى جمل".



وذهل المعلم العترة وهم يطلبون منه مبلغاً كبيراً.

كان يتصور أن ماشية العزبة لا تعدو ثورين وجاموستين وبقرتين وبضعة عجول، وثلاثة بغال، وزوجين من الحمير، وعدداً من الأغنام والماعز.

العزبة صغيرة، وهذه الماشية تكفيها. تكفى الأعمال التى يحتاج إليها الحقل، ويحتاج إليها أهل العزبة فى معيشتهم.

لكن فرج سخر من هذه المعلومات وقال له إن هذا نصف العدد. بل ربما أقل من النصف. وتنبه النمس إلى أن المعلم العترة يعد الماشية كمن يعرفها فسأله سؤالا سريعاً وخبيثاً: لكن من أين لك بهذه المعلومات؟

وهز المعلم العترة رأسه فى غير اكتراث وهو يقول له:

- أو تظن أن لصوص الماشية تائهون عن شىء؟ قبلك فكر آخرون فى سرقة العزبة. لصوص الماشية هم أهلى وأصدقائى، وأنا الذى أشترى منهم وأحاسبهم على كل رأس يسرقونها. هل هذا شىء غريب يا فرج يا نمس؟

وخجل فرج من سؤاله، لكنه عقب عليه قائلاً:

- يبدو أن هذه المعلومات كانت أيام الخواجة. الخواجة يا معلم كان مشغولاً بأشياء أخرى. كانت عنده خمارة وقهوة ودكاكين. كان يتاجر فى كل شىء حتى الكحل. وفى الحرب "عقبال عندك" كان عمده بضائع بريطانيا العظمى كلها وجنود الحلفاء كانوا سماسرته، "مش أنت"!!

وهز رأسه وبدا أن الغيرة تأكل قلبه ثم قال فرج النمس:

- أما الآن، فالأمر مختلف. كل من فى العزبة لا عمل لهم إلا العزبة. الزراعة والفلاحة وتربية الماشية. والمعلمة وردة بنك، تدفع سلفاً لمن يريد، والفلاح عينه فارغة وطماع، وكلما امتدت له يد بحسنة، طلب حسنة أخرى. طبعه! ربنا خلقه هكذا!!

قال المعلم العترة:

- يعنى فيه حسبة ثلاثين رأساً؟

قال فرج:

- لا أقل من خمسين يا معلم.

قال المعلم العترة:

- "يا راجل" هل هذا معقول.

قال فرج:

- والله ويجوز أكثر. صحيح.

قال المعلم:

- طيب يا سيدى. ندفع العربون.ورقة بخمسة عن كل رأس. ماشى؟

وسكت فرج قليلاً، وهو يتبادل مع درش النظرات، ثم قال:

- شوية يا معلم.

قال المعلم العترة:

- طيب. والله وما لك على يمين، أنا قلت ورقة بخمسة لأتفادى هذا الكلام. اسأل درش صديقك وصاحبك. لقد صرت منكم يا ناس.

قال درش:

- لأ. كويس كده يا نمس.

وقال النمس:

- طيب ماشى. حلال عليك.

وبينما العتر يخرج محفظته من جيبه، ويعد له مبلغ مائتين وخمسين جنيها، وكان الحديث بينهما متصلاً على النحو التالى:

- ومن سيكون معك؟ لا يمكن تقدر عليها وحدك.

- طبعاً سأحضر بعض أقاربى وأصهارى.

- وضامنهم؟

- إلا ضامنهم!! طبعاً، وكله بثمنه.

- هذا هو المهم.

- وهو يعنى لما صاحبنا يمشى من العزبة، "مش حيعود عليهم"؟

- هناك ناس قصار النظر.

- صحيح. "لكن دول.. لأ"!

- "المهم تاخد بالك وتفتح عينيك. ابن الحرام يابنى ما خلاش لابن الحلال حاجة"!!

وبينما المعلم العترة على وشك أن ينتهى من العد، سأله فرج النمس:

- الفلوس حلوة يا معلم "بس إيه العلامة دى؟".

- ناس عقولها فارغة بعيد عنك. "يحبوا يمضوا على الفلوس. تقولش بتاعة أبوهم"!!

- غريبة. "لازم كلها كانت مع واحد. الإمضاء واحدة عليها كلها".

- "شروة خلصت النهاردة الصبح. ووالله خسران فيها علشان أجيب الفلوس دى النهاردة عربون لبهايمك. عارف أنك حتكون محتاجهم. قلت معلش أخسر قرشين، وأكسب رجالة. كلها كانت مع تاجر واحد. لازم هوه".

وقبل أن تمضى المناقشة إلى أبعد من هذا قال المعلم العترة:

- خلاص يا عم حيفضل معاية اثنين جنيه.

- لأ والنبى يا معلم خليهم معاك. الجيب واحد.

- يا سيدى الفلوس بتروح وتيجى. بكرة مين عارف.

- خلى لغاية ما تجيلك.

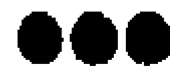
والله أنا ما برتاح إلا إذا دفعت اللى عليه. دا لسه ياما لك.

- تفتكر حتجيب سعر كويس.

- على الأقل كمان قدهم مرتين. رزقك. بس إتجدعن انت.

- "حتشوف".

-إن شاء الله.



وعندما عاد المعلم العترة أدراجه، كان يبتسم لنفسه وهو يقول:

- آه لو دقق فى التوقيعات! لكن من أين يعرف هذا الطور؟! سيسرع بها إلى فجوة خفية فى دولاب من دواليب البيت، ويخفيها عن الأنظار، ليعود إليها فيما بعد. "زمانه نسى الآن"!!

وفكر المعلم العترة أن يمر بضريح سيدى الذكيرى، ويزور ويقرأ الفاتحة، لكنه قال:

- تزعج الشيخة فى هذا الوقت المتأخر، وتفزع "أبو عوف" الصغير. لا داعى. لا داعى لهذا الآن، تمر بالساقية، فعم أبو المكارم لا ينام، فإن نام فقلبه دائماً يقظان، ومن ساحة الساقية يكتفى بفاتحة لسيدى الذكيرى.

وعاد المعلم العترة فقال لنفسه:

- أنت مجنون. من يدريك أنهم لا يراقبونك الآن. ليعرفوا اتجاهك وهل لك معرفة بأحد هنا أم أنك صحيح غريب تعمل سمسار بهائم مسروقة؟! صحيح عم أبو المكارم وحشك، لكن المصلحة فوق هذا، والحرص أهم من وحشة عمك "أبو المكارم"

ومضى إلى المحطة.

وقاوم رغبته فى أن يعرج على القهوة، أو الحلقة. بل وقاوم قلبه وهو يهفو نحو بيته، وزوجته، وابنه.

لا بد أنها الآن نائمة تتقلب على هواك، تنتظر عودتك لتطفىء فى حضنك لهيب الفراق. ولا بد أنه ينتظرك، لتحمله بين ذراعيك فى حنو، وتقلبه فى حنان.

نامى يا خضرة نوم العوافى حتى أعود.

وأنت يا جلال، سأعود إليك عما قريب بكثير من اللعب والقبل.

وكان قطار الفجر قد جاء فاستقبله متجهاً إلى إيتاى البارود.



وقبل الموعد بقليل كان المعلم العترة مستعداً.

الصبيان الصغيران: محروس وجلال، استبدلهما بثلاثة رجال آخرين، كل منهم ذى شوارب كثيفة، وكرش منفوخ، وعينين جاحظتين! وفى يد كل منهم حبل وعصا، الحبل يصلح مقوداً لبعض الماشية، والعصا لمن عصا منها، وفى جيب كل منهم مسدس محشو بالرصاص مستعد لأى احتمال.

وإلى جوار هؤلاء، كان المعلم العترة، قد أعد عدداً من الصبيان الصغار، كهؤلاء الذين يصيحون خلف الذبائح: "من دا بكرة" ليكونوا على استعداد لتسلم الماشية وحراستها، وتوصيلها إلى حيث يكون مندوب عن المعلم على فايد موجودا فى محطة إيتاى البارود ليتسلمها ويشحنها إلى دمنهور ويدفع بقية الحساب لفرج النمس، وينتهى الموضوع.

وجلس المعلم العترة والرجال على المقهى المتفق عليها يشربون الشاى ويديرون الأحاديث المختلفة:

-إن شاء الله يكون كل شىء قد تم على ما يرام.

-إن شاء الله.

- يا خوفى يفشل النمس أمام الحراسة.

- يا خى!! يعنى حراسة حربية!!

- يمكن تكون المعلمة قد اهتمت اهتماماً خاصاً.

- ثم ماذا؟ تعرف أن رجال القانون يعرفونه تعريفاً ساخراً فيقولون أنه القاعدة التى توضع وتصلح للخروج عليها؟! كذلك الحراسة! وعلى الأخص حراسة العزبة. أتصدق يا أخى أن هناك حراسة تمنع شيئاً؟

- الله... طبعاً.

- يا شيخ الحارس هو الله.

- يعنى الناس يتركون بيوتهم مفتوحة ليسرقها من يشاء لأن الحارس هو الله؟! يعنى نفرط ونقول الحارس هو الله؟!

- آ... الحارس هو الله.

- يا أخى أنت رجل متعلم.

- ولأنى متعلم أقول هذا.

- غريبة. هذا كلام غريب.

- ما غريب إلا الشيطان. اسمع الحراسة الحقيقية من الله، ومن المجتمع.

- يعنى إيه؟

- يعنى المجتمع الناضج المستقر الراقى يحرس نفسه، بما فيه من يقظة.

– وجرائم شيكاغو، وكسر خزائن البنوك، و الاعتداءات المسلحة على المنشآت والمصانع، فى هذه المجتمعات الراقية؟!

– ومن قال ان هذه مجتمعات راقية؟ إنها مجتمعات غنية، لكنها مجتمعات شريرة متأخرة وعنيفة، ومحتاجة إلى وقت وثقافة لتتضج.

– إذن أين هو المجتمع الذى تقصده؟

– المجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام وفى عصوره الزاهية، حيث استقر الحكم بالعدل و الإيمان و الإستقامة والحرية.

– آ... هذا شىء آخر. على كل حال لنعد إلى ما كنا فيه. كان واجباً أن نتفق مع المعلمة وردة لتسهل الأمر.

– لا لا. بل كان لا بد من ترك الأمور على حالها، بلا تحذير ولا ترتيب.

–فإن فشلت العملية؟

– ننتظر محاولة أخرى. "خلاص مش قبض العربون؟".

وكان وقت انتظار النمس بالقافلة الطويلة من الماشية يمر بطيئاً ثقيلاً، كأن الحياة قد جمدت وتجمدت، ولا تريد أن تتحرك.

لكنه ظهر أخيراً، أمام مظاهرة صاخبة من الماشية، يمسك بها عدد من أقربائه وفلاحيه. كان يبدو فخوراً، لكنه كان يبدو خائفاً كذلك، يتلفت حواليه فى حذر.

ولم يدر لماذا خطر بباله ما كان يقوله المجنون سيد عنه: واحد من بهائم ربنا. كلكم بهائم ربنا! لقد شب على قدميه يستقبله، بعد أن طال به الإنتظار، وعلى شفتيه إبتسامة عريضة وهو يراه بالفعل واحداً من بهائم ربنا.

صدق المجنون: ما فرق بينك وبينهم يا فرج يا نمس؟ هى بهائم وأنت بهيمة مثلها. أنت واحد منها يا فرج يا نمس.

على أنه ظن أنه رجع الصدى. لكن هل يصل رجع الصدى إلى هذه الدرجة من الوضوح. ثم هل يعكس رجع الصدى ما يدور فى نفسه من أفكار؟ شىء غريب.

وتلفت المعلم العترة حواليه.

وكان الصدى لا يزال يتردد.

أهو الصدى؟ أهذا صدى؟

لكنه وجده يشق الحقول إليه، وفى يده نبوت غليظ وهو يضحك ملء شدقيه ويصيح: هو دا بهيمة ربنا على راس بهائم ربنا. هذه البهائم أفيد، والله وأعقل ياللا يا مخلص خلص.

هو! إنه هو سيد المجنون.

أين كان ومن أين جاء؟

لا بد أنه راقبهم وهم يسرقون، وتخفى منهم وهم يتسللون، ورافقهم من بعيد وهم قادمون، وها هو ذا يعلن فى فرحة وصولهم.

ونادى: شيخ سيد. يا شيخ سيد. يا شيخ البلد.

لكن الشيخ سيد كان كأنه فص ملح وذاب.

استدار على عقبيه، وعاد أدراجه يعدو ويثب وفى يده عصاه.

ولم يكد المجنون يختفى عن نظر المعلم العترة، حتى كانت القافلة قد وصلت.

ورحب بفرج النمس وأهله وأصدقائه وفلاحيه، وأقسم ليشربن جميعاً الشاى ويستريحوا، ثم يتسلمون بقية الثمن ويعودون.

كان معه واحد يرتعد وكان النمس يهدىء من اضطرابه بالنظرات والتحيات وتقديمه للمعلم العترة فى احترام وتعظيم. لكن العترة لم يهتم به كثيراً واكتفى بأن دعاه مع من دعاء من الرجال.

وجلسوا يتحدثون ويتندرون ويمزحون، وعدد ضخم من الماشية أمامهم، يكاد أن يشاركهم جلستهم هذه.

واحد فقط ظل فى دنياه بعيداً عن هذا الصخب والمزاح، ولولا أن النمس كان يناديه ما عرف العتر أن اسمه فتوح الحاج قنديل.

لكن "فتوح" هذا لم يمنع أصوات البهائم من أن ترتفع بالنهيق والصهيل والمأماة وما إلى ذلك من أصوات حتى غطت على أصوات الجالسين على القهوة يشربون الشاى، أو اختلطت بها.

وطلب المعلم العترة من صبيان القهوة أن "يخدموا على البهائم" أيضاً. أليست نعمة ربنا؟

وأسرع الصبيان يضعون أمامها جرادل ماء وحزم برسيم.

وأخرج المعلم العترة محفظته فتطلعت إليه العيون، وعد ثلاثين ورقة كل منها من ذات العشرة جنيهات، ووضعها فى يد فرج النمس.

قال النمس:

- "كام دول؟ كام ورقة؟".

قال العترة:

- ثلاثين ورقة.

قال النمس:

- "شوية. شوية قوى يعنى. دا إحنا لسه بعيد.... بعيد خالص".

قال العترة:

- "لا يا شيخ. كلفوك إيه؟ مش سارقهم؟!".

قال النمس:

- "أى نعم سارقهم، لكن هية السرقة بلاش؟ السرقة بتكلف أكثر من القنية".

قال العترة:

- يا شيخ. "طب خد".

ودس يده فى جيبه، ثم أخرجها بحزمة ورق وضعها فى يده، وأطبقها عليها.

وأخذ النمس يعد الحزمة، وما كاد يفرغ من العد، حتى وجد نفسه محاطاً بعدد من الرجال المسلحين، وعلى رأسهم ضابط بوليس ولما أراد أن يستنجد برجاله وجدهم جميعاً فى حال أسوأ من حاله.

وأدرك على الفور أنه انتهى.

ونظر إلى العترة وصاح فيه:

- "عملتها؟ معلهش. أنا استاهل".

بينما فزع فتوح الحاج قنديل هذا كأنه يواجه الموت، وارتج عليه فلم يعرف ماذا يقول، واكتفى بصياح كأنه آذان الديكة!!

□□□

٦

غريبة هذه الكتلة السوداء!

جامدة لا تتحرك، راكدة لا تسير!

كأنها نصف كرة مستندة إلى أرض الفناء، كإناء مقلوب!

ولولا أن صوتاً متصلاً يصدر عنها، ومن جوانبها الثلاثة بقدر متساو لكانت شيئاً ميتاً بلا حياة. لكن الصوت المتصل كأنه زجاج مشروخ، يجعل للكتلة الجامدة السوداء بعض حياة.

وتتأكد هذه الحياة، كلما انفتح الباب. عندئذ تتحرك هذه الكتلة السوداء من ثلاث نقط منثورة بانتظام فى قمتها، وتظهر ثلاثة وجوه شاحبة، ترى من الداخل، ثم تتكفىء على قاعدتها السوداء، كما كانت، والصوت المتصل الذى يصدر عنها لا ينقطع أبداً!

لكن الكتلة تزيد، كلما فتح الباب، ودخلت واحدة فى ملابس سوداء، وجلست إلى الكتلة المتداخلة، وانكفأت مع المنكفئات، تدارى وجهها الشاحب فى الكتلة الصماء، وتضيف صوتها المشروخ، مع الصوت المتصل الذى لا ينقطع.

وتكاد الكتلة، وهى تتسع وتتسع أن تصبح الفناء كله، أو يكاد الفناء كله أن يدخل فى نطاق الكتلة السوداء.

ولولا أن دخلت درة زمانها زوجة العمدة عباس، لامتدت هذه الكتلة السوداء، من الفناء، إلى الطريق!

لكن درة زمانها نظرت إلى الكتلة السوداء المتحجرة، وأنصتت إلى الصوت المنبعث منها، ثم صاحت تقول:

الله!! ما تصلوا على النبى. هل أنتن الوحيدات اللائى حدث لهن هذا؟ الحمد لله على ما حدث. هل هذا أحسن، أم الموت لا قدر الله؟ على الأقل أنتن تعرفن أين هم، وتستطعن زيارتهم، وكل آت قريب بإذن الله والمهم الصحة وطول العمر. هيا هيا، تحركن وتحدثن مع الناس لتخففن أحزانكن. هيا هيا.

وتطلعت إليها: ست الناس أختها، والغندورة زوجة النمس، وست أبوها زوجة فتوح، وعدد من القريبات والجارات ممن انضممن إلى الكتلة السوداء.

قالت درة زمانها لأختها ست الناس:

- وأنت أيضاً يا ست الناس؟ أبدلاً من أن تعقليهما؟!

وصاحت الغندورة:

- إنها هى السبب! إنها تعرف أنهما السبب، ولهذا تبكى. إنها لا تبكى من أجلنا، ولكن على نفسها!

وأخذت درة زمانها تنهرها، والغندورة مندفعة تقول:

- لولا حكاية غرامها هى ومدبولى، ما كان جرى لفرج هذا كله. المسألة بدأت بحكايتها، والحكاية خلقت حكاية، ثم حكاية، لغاية ما جرته إلى السجن. وهى... والله العظيم هى السبب.

وقالت ست أبوها:

- أين كان لنا هذا كله؟! أين كان مختفياً عنا؟ ها نحن الإثنتان ترملنا من غير ترمل؟! أفرحى يا أمه واتحنى... تزوجى الآن كما تشاءين. السكة راقت يا أمه!!

ولم ترد ست الناس بحرف.

لكن درة زمانها تكلفت بالرد:

- اختشى يا بنت أنت وهى. من هى السبب؟ أمكما ليست السبب.

تسرقون الماشية وتقولون أنها السبب؟! تنهبون الناس وتقولون أنها هى السبب؟! قبل أن تتهموا أحداً تأملوا ماذا فعل أزواجكن.

وتركت البنتان أمهما وتلفتتا نحو خالتهما درة زمانها.

وبدأ شجار عنيف، البنتان فيه طرف، وطرفه الثانى الخالة زوجة العمدة عباس واختلطت الأمور كل منها بالآخر، واتسع مجال السباب، وتفتقت المناظرة عن نبش أشياء كثيرة قديمة:

- طبعاً حرم العمدة. جوز خالتى المسطول.

- أخرسى يا بنت قطع لسانك من جذره. سيدك وسيد البلد.

- سيدك أنت يا خالة. إنما البلد لأ. الله يرحمك يا آبه، لو كنت عايش يا آبه.

- كان سرق لكم من غير ما حد يمسكه. مش كده يا غندورة؟ مسكين الله يرحمه مالحقش يعلم جوز بنته!!

- والنبى يا خالة إنت اتجننت. كنت تقدرى تقولى كده قدامه! الله يرحمك يا آبه.

- الله يرحمه يا أختى ويتجاوز عن سيئاته، وفراغة عينه وقلة آدبه.

- كان راجل ملو هدومه. مش زى اللى إنت عارفاه.

- حرامى ونصاب، وربنا وراه.

- وراء إيه يا خالة؟ لحد ما مات وجزمته كانت فوق رأس أكبرها واحد.

- بالافتراء والظلم.

- افترى عليك بآيه يا خالة؟

- بأرض أبويه اللى لطشها ولكن الغلبانة كسبانة. أو ربنا عوضنا.

- عقبالنا يا عمد!! عقبالنا.

- وانتو تطولوا!! كفاية دعوات الناس لينا. كفاية إنهم كتبوا لنا النصاب، مش لطشناه!!

- طب أما نشوف يا خالة. والنبى لتشوفى يا خالة. بكرة يطلعوه من السجن وييتوكوا من العصر زى الأرانب.

- بس يطلعوا. هما الحرامية النصابين بيطلعوا؟

- حيطلعوا...

- عيش يا حمار..!!

ولم تجد محاولات النسوة اللائى تجمعن فى فناء بيت أبى سريع، لتخفيف حدة هذا السباب. أبداً وإنما زاد السباب بدخول نبوية الصغيرة أرملة أدهم بن أبو سريع، فقد انضمت إلى الفندورة و"ست أبوها" وأخذت تسب وتشتم قبر الحاجة زهرة والجرن وحكايات عباس مع الحاج سلطان.

- هو انت فاكرة الناس نسيت؟ شوفى إيه عملتوه فى الجرن؟ الدوار يا عمد مين بناهولكم؟!

- حتى أنت يا مفعوصة بتردى؟ والنبى عال! دا بدل ما تدارى خيبتك يا نبوية؟! شوفى أبوك عمل إيه. مش هو اللى قتل جوزك يا بت؟ ربنا أصله كبير، فضحكم كلكم. اللى مات واللى إتجن، واللى قتلت أمها، واللى قتل جوز بنته، وأخواته، واللى سرق البهائم... لكن أهم فى السجن. عقبالكم لما تحصلوهم.

وحاولت بعض النسوة التوسط بينهن لوقف هذا الشجار.

السيدة أرملة العمدة غضبان حاولت ففشلت.

عطية الله أرملة ممتاز لم تستطع هى الأخرى أن تفض المولد.

وتدخلت نعمت زوجة شيخ البلد، وأم نبوية أرملة أدهم بن "أبو سريع" فسحبت بنتها إلى صدرها وأخذت تربت على خديها فى حنو، حتى هدأت.

ومرت لحظة صمت بليغة، ثم قالت ست الناس لأختها:

- تهون عليك أختك يا درة؟

وانكفأت درة زمانها على كفيها تبكى. هى هكذا عبيطة كما يقولون عنها، دمعتها قريبة، تنسى الإساءة بكلمة، وتذكرها أيضاً بكلمة!

وعندما بكت زوجة العمدة بكت ست الناس فى صمت، وبكت معها الغندورة و"ست أبوها" كما بكت نبوية أرملة أدهم، وبكت الأخريات. وانقلب فناء منزل "أبو سريع" إلى دموع ونحيب، وواحدة تشهق من حسرتها، وواحدة تتأوه من وجيعتها، وواحدة تتأفف من نارها.

وشردت درة زمانها فى أيام زمان، عندما كان أبوها شخشيخة فى يد "أبو سريع" وعندما كان أبو سريع وحشاً تخاف منه الناحية كلها، وعندما كان مستبداً متغطرساً يكلم الناس بطرف لسانه.

آه يا "أبو سريع"!

وكم قتلت! وكم سفكت الدماء! وكم ظلمت الأبرياء! كنت تجلد من يعصى أمرك! وعند الحساب يا وحش الحساب، كنت تجبى من الناس أجرة الرى وأجرة الجرن، مع ديون كثيرة، وفوائد أكثر، ثم تتركهم على لحم بطونهم، يضجون من الجوع والعرى والحاجة.

وكم هتكت من أعراض! وكم فضحت من ولايا!!

حتى حماك لم ينج من طمعك. كنت تراود زوجته عن نفسها يا شيخ الخفر؟! هل كنت تدرى أن كل ذلك قاعد لك؟!

هل كنت تدرى أن من يقدم السبت يلقى الأحد قدامه؟

كله يا شيخ الخفر سلف ودين! آ... سلف ودين!

لقد أخذت. لقد اغتصبت. لقد أرغمت الناس على أن يسمعوا ويطيعوا. لقد أذللت الرقاب.

والآن عليك أن تدفع!

هذا أوان الدفع يا شيخ الخفر!

اللهم لا شماتة!

أين أدهم ابنك الوحيد؟ شربته لبن حمير ليصبح دماغه أنشف من دماغ الحمار، وأكلته كبد الذئب ليصبح أشد جسارة من الذئب! هل نفع؟ هل هذا كله نفع؟ لقد ذهب فى شربة ماء! قتله خاله وحماه، خطأ!! وهذه بنتك الغندورة زوجتها للنمس، وكنت تباهى به طوب الأرض، وتقول عنه أنه طالع لك، وأنه سيربى البلد كلها عند اللزوم، وها هو ذا فى السجن، وسيبقى فى السجن عشر سنوات! حتى الثانى المسكين فتوح بن الحاج قنديل، سمع كلامه، فحكم عليه بالسجن معه! وبنتاك صارتا أرملتين، بلا ترمل!

ربنا "يا أبو سريع" لا يهمل. أبداً لا يهمل!.

قلنا لك حاسب من ربنا فلم تسمع كلام أحد!

قلنا لك اتق الله فى حرمتك وأولادك فلم تنصت لأحد!

هذه نتيجة أعمالك يا شيخ الخفر.

أنت ظلمت البنية تفيدة، ورميتها فى الرياح، فأرسل الله لك من رماك رميتها فى الرياح، وفى المكان نفسه.

حتى جثتها لم تهتموا بأن تسألوا عنها، وتحضروها لتدفنوها!

ضحكتم على الناس وقلتم أنكم وجدتم الجثة بحرى البلد قرب إيتاى البارود، والحقيقة أنكم لم تهتموا بالضحية المسكينة حتى وهى غريقة!

هل تذكر يا "أبو سريع" عندما قلت: أين جثتها؟

هل تذكر أنك صحت فى صيحة غضب هزت البيت كله، منكرا أن أسألك، مؤكداً أنك أوصيت رجالك أن يغسلوها ويكفنوها ويحضروا بها جاهزة للدفن، وكنت أعلم أنك

تكذب وكنت قد استرقت السمع إليك وأنت تنبه على الخفر أن يتصرفوا مع النقطة. ومع طبيب المركز، ويحصلوا على تصريح دفن والسلام! آ... يا "أبو سريع" أنا سمعتك تقول هذا، وكنت وحدى الذى كشف لعبتك، ولما وجدتنى، وأدركت أنى سمعتك، أمسكت شاربك وأقسمت أنك ستقتل "عباس"، لو كررت هذا الكلام لأحد. وخفت منك يا شيخ الخفر، خفت على زوجى منك فسكت، ولم أفتح فمى بحرف، عندما وصل النعش جاهزاً للدفن، وعندما سارت الجنازة ـ والله وحده يعلم أين جثة الغريقة ـ كنت أضحك وأبكى فى آن واحد.

لقد أخذت أفكر ـ أنا العبيطة ـ فى سبب واحد لهذا التصرف، وكنت أسأل نفسى "طيب يا بنت ما خلاص موتوها. جثتها بيخافوا منها ليه ".

لكن عقلى العبيط قال لى أن "أبو سريع" لا يخاف إلا من الجثة!! لا بد أن بها شيئاً. لا بد أن بها آثاراً، لو كشف عنها الطبيب لعرف ما حدث. لا بد أنها ـ ياحبة عينى ـ قاومت. الحياة حلوة، والإنسان يتمسك بها ويدافع عنها بكل ما يستطيع. آه يا وحوش! لا بد أنكم خنقتم البنت، أو كتمتم نفسها، أو ضربتموها ضرباً شديداً مبرحاً! لا بد أنكم تركتم فيها آثاراً واضحة! لهذا تصرفت يا شيخ الخفر! لكن ربنا! ربنا يترك هذا كله، ويسامحك بعد كل هذا؟ لا يمكن! هذه هى النتيجة! هذه هى النتيجة يا سبع الليل. ربنا خلصه كله، فيك، وفى ابنك، وفى إمرأتك، وفى بنتك! اللهم لا شماتة ولا اعتراض! آمنت بك يا رب!

إن ذلك اليوم يلح عليك يا درة، حتى أنك كلما حاولت أن تنسيه، زاد إصرارا على أن يعود إليك أشد تأثيراً عليك مما كان. لكن لماذا يعود إليك الآن، وفى هذه اللحظات؟



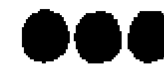
هل لأن صوته كان يجلجل هنا فى هذا الفناء، منذراً ومهدداً ومتوعداً؟.

هل لأنه كان هناك، خلف هذا الباب المغلق يصيح صيحاته المجنونة؟.

نعم كان هناك، خلف هذا الباب، لحظة كنت تبحثين عنه يا درة زمانها. كنت أول من سمع بأن "أبو عوف" عاد من جسر الرياح يحمل ابن بنته على يده، وفى عينيه دموع لا تتوقف!! وظننت يا درة أن هذا خبر جديد على "أبو سريع"، وأنه ربما يهمه أن يعرفه. لم تخبرى أحداً. أبوك كان فى القاهرة لأعماله. الست قمر كانت فى زيارة لأهلها، وقد صحبت معها أولادها، وذهب الأخرس معها ليكون فى خدمتها. أخوك غضبان كان فى دوار العمدة، وأخوك سيد كان معه، ولم يكن فى البيت إلا ممتاز الطرى، وكان كالعادة فى حجرته يأكل، وينام، ويغازل إمرأته عطية الله! أمك كانت فى عز النوم، والست نبوية صحبت ست الناس لزيارة بعض الأقارب. حتى عباس زوجك كان قد خرج. وهكذا كان البيت ذو الأربع زوجات، والخدم والحشم والخفر، خالياً إلا منك يا درة زمانها.

وعندما سمعت الخبر، شعرت أن أول من يجب أن يعرفه هو شيخ الخفر، أبو سريع. ولما بحثت عنه لم تجديه، فاسرعت إليه فى داره.

كان الباب مفتوحاً. ناديت على أختك فلم يرد أحد. دفعت الباب فاندفع. ودخلت تبحثين عن أحد. لست غريبة يا بنت. هذا بيت أختك.



لكن أصوات الرجال اخترقت هذا الباب، هذا الباب الذى يواجهك، إلى أذنيك. وكان صوت "أبو سريع" كالعادة، يجلجل بين هذه الأصوات.

كان يقول فى عصبية:

- قولوا لى كل شىء. لا تخفوا شيئاً يا نعاج. هل أنتم رجال؟ أنتم كلاب!

وكان صوت يرد عليه:

- لقد نفذنا كل شىء، كما رسمته يا سبع الليل، على قدر ما استطعنا.

وكان صوت "أبو سريع" يقطع عليه الكلام صائحاً فيه:

- اخرس يا كلب. تترك الرضيع!! هذا هو الهدف الحقيقى! هى لا تهم، إنما المهم هو هذا الرضيع! خلاص لبسناه يا أولاد ...!! قعد لنا كالعمل الردى. ومن يدرى ماذا يجرى منه بعد ذلك! أنا أستاهل لأنى اخترت نعجتين، لا رجلين.

ويعود الصوت يجلجل:

- احك. قل ما حدث. هل أنا نيابة لتتكر منى؟ قل.

وقال الرجل:

- طلبنا منه أن يدفعها إلى الماء، حسب تعليماتك، حتى إذا شرحت الجثة، أو كشف عليها، وجدوا آثاره هو على ملابسها أو أجزاء جسمها، لكن الرجل أبى واستقتل.

صاح أبو سريع فى غضب:

- يا سلام!! خلاص لم يعد هناك حل. والله كان أسهل تغرقوه معها. هو وهى والولد، وتخلصونا منهم جميعاً!! لكن بهائم. كمّل.

قال الرجل:

- أمسكت البندقية، وهددته بالقتل، وكان زميلى يضربه بكعب البندقية ضربات شديدة والرجل يتألم، لكنه ظل يرفض ما طلبناه منه. عندئذ حاولت بنته أن تحميه. كان الولد على يديها فلم تتمكن فأخذت تصيح بنا لنتركه.

قال أبو سريع فى حدة:

- كمل يا جبان. كمل.

قال الرجل:

- أبعدناها عنه، وظللنا نضغط عليه بالضرب والتهديد، والبنت أسرعت فوضعت ابنها على الشاطىء وجاءت تنقذه من أيدينا . هجمت كأنها وحش مفترس، وأخذت تدافع عن "أبو عوف" بيديها ورجليها وأسنانها.

قال أبو سريع ساخراً:

- عضتك يا امرأة!!

ولم يرد الرجل. فمضى أبو سريع يصيح:

- وبعد هذا، ماذا حدث؟ احك كل شيء. كل شيء، والا والله قطعت رقبتك. أريد أن أعرف حتى أتصرف يا غجر.

قال الرجل:

- نعم عضتني وعضت زميلي، ولم تهمها البنادق ولا الرصاص ولا التهديد، وأخذت تصيح بنا أن نترك أباها وتقول: ماذا فعل أبي؟ هذا رجل مسكين ومريض. ألا يكفي أنكم أرغمتموه على زواج لا يريده؟

ألا يكفي أنكم خطفتم بنته منه؟ ألا يكفي أنكم تمنعونه عن رؤيتي أو الاتصال بي؟ ألا يكفي أنه يعيش في فزع من استبدادكم؟

قال أبو سريع:

- يا..ه!! خفت أنا!! خلاص خفت!

قال الرجل:

- أبداً والله يا سبع الليل. اننا لم نخف، لكن كان لا بد من أن ننفذ أوامرك. لو تركناها على تلك الحال لفسد كل شيء، لهذا تصرفنا.

قال في حدة:

- ازاي؟

قال الرجل:

- على الفور، وقبل أن يضيع الوقت، أمسكت بها ولويت ذراعها، ثم أطبقت على رقبتها بيدي، حتى كادت تختنق، بينما زميلي يمنع أباها من الاقتراب منها، أو انقاذها

من بين يدى، ثم نزلت عليها ضرباً مبرحاً، حتى فقدت القدرة على المقاومة، وبهذا سنحت الفرصة، فألقيتها فى الرياح، وكانت المياه عالية والتيار جارفاً، فراحت فى غمضة عين. هى غطسة أو غطستان، ونادت خلالهما: "يا آبه... الحقنى يا آبه... الحقنى يا آبه..." ثم غاصت تحت الماء إلى الأبد، تنفيذاً لتعليماتك.

وجلجل صوت أبو سريع يقول:

- تعليماتى يا أولاد البهائم أن ترغموا أباها على أن يلقى بها فى الرياح، تدفعوه دفعاً ليلقى بها فى الرياح، بالتهديد، بكل وسيلة. الآن ضيعتم على كل شىء. سعادتك يا حيوان خنقتَها. يعنى تركت آثاراً على رقبتها. ثم ضربتها. يعنى تركت كدمات فى جسمها. كل هذا يظهر فى التشريح. كل هذا سيفضحنا. الله يخرب بيوتكم!!

وسكت أبو سريع قليلاً ثم صاح:

- وبعدين؟

قال الرجل:

- أخذنا نبحث عن الولد لنرميه وراءها، لكنها وضعته بعيداً عن الشاطىء، أو ربما نكون قد ابتعدنا عنه نتيجة الشجار الذى حدث، والشد والجذب. وقبل أن نعثر عليه سمعنا أصوات عدد من الرجال قادمين نحونا. ربما يكونون قد سمعونا، فأقبلوا يتبينون الخبر. إذن...

وقبل أن يتم، كان صوت "قلم" من كف "أبو سريع" قد رن على وجهه، ثم صاح:

- جريتم!! "آه يا نسوان"!!

ومرت لحظات صمت ثم ارتفع صوت "أبو سريع" متخاذلاً يقول:

- لا بد من أن نتصرف.

- لا بد من صدور تصريح الدفن من غير كشف ولا يحزنون. لا بد من اهمال الجثة. إن شاء الله ترموها للكلاب. المهم تختفى ولا بد من الدفن، مع هذا!!

وهذا معناه أن يتم كل شيء فى إيتاى البارود، وتأتى البضاعة بعد أن تغسل هناك، وتكفن هناك، وتوضع فى النعش هناك. يعنى هنا يصلون عليها، من غير أن يكشف غطاؤها. أمها لا تراها. أختها لا تراها. مفهوم؟

قال الرجل:

- ياشيخ الخفر أنت تقول الجثة تختفى. وتقول يتم كل شيء فى إيتاى البارود. يعنى إيه يا شيخ الخفر؟

وصاح فيه شيخ الخفر:

- حمار! طول عمرك حمار! نقول للناس هذا يا حمار.

وعاد يقول فى تؤدة، ولكن فى وحشية:

- اسمعوا مرة ثانية:

- تختفى الجثة، لأن الكشف عليها يكشفنا كلنا.

"يطلع تصريح الدفن شفوى"!

"تتوضب الحكاية، ويجيلنا نعش جاهز للدفن!

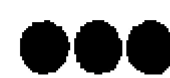
"محدش يهوب ناحية النعش حتى يتم الدفن!

"النعش فيه إيه؟ فيه مين؟!

"هوه ده اللى يتوضب يا بهائم!

"مفهوم؟؟".

وارتفعت صيحات الرجال، فى أعقاب رنين بعض "الأقلام" على الوجوه أو الأقفية، وزئير شيخ الخفر يملأ البيت غضباً.



وعندما فتح الباب، كنت يا بنت قد صرت قطعة من خشب.

ولما رآك شيخ الخفر، أقبل نحوك، ثم أمسك بذراعك فشعرت أنه سيخلعه فى يده.

قال فى حدة:

- منذ متى؟

ولم تردى. قال:

- سمعتنا يا بنت...؟

ولم تردى. قال:

- كلمة واحدة، فيها حياة عباس. فاهمة؟

ولم تردى. لكن الوحش ظل ممسكاً بذراعك، وعيناه تبرقان بالشر والغدر والوحشية، ثم قال:

قلت إيه؟ عباس والا تسكتى.

ولم تكونى قادرة على الرد، فهززت رأسك فى ذلة فقال:

- تختفين يومين لا تظهرين، حتى يتم كل شىء. وقسماً برب العزة لأكون قاضياً على عباس فى ثانية، لو فتحت فمك بحرف، لأمك، أو لعباس أو لنفسك، أو للهواء. عارفة الهواء. "حسك عينك تقولى، آدى أنت عارفة".

وفجأة دفعك من أمامه، فوقعت فى هذا المكان الذى تجلسين فيه الآن، وكأنك سقطت من سطح البيت!

ولم تقولى لأحد. لا لأمك، ولا لعباس، ولا للهواء، كما طلب!

كنت تخافين من أن تستعيدى هذه الذكرى!

هل تذكرين يا درة؟! هل لا تزالين تذكرين؟!

عندما بدأ الخبر يذيع فى القرية وبين الناس.

وعندما بدءوا يقولون ان "أبو عوف" أباها، هو قاتلها! وعندما قبضوا على الرجل المسكين المغلوب على أمره، ونسبوا إليه التهمة ظلماً.

وعندما جاءوا بنعش مزور، ليمثلوا به دور الجنازة. يصلون عليه فى تقوى، ويحملونه على الأعناق فى أسف، ويسير الناس وراءه منكسى الرءوس، ويمضون به قبلى البلد، ثم يتجهون إلى قرافة سيدى الذكيرى بين الحقول، ثم يضعونه فى قبر جديد، أقيم خصيصا للضحية الغالية التى ذهبت نتيجة ظلم أبيها!!

أو تذكرين العزاء الذى أقيم، والمعزين الذين وفدوا ليجاملوا أباك الحاج سلطان فيمن فقد!؟

والتحقيق وضباط بوليس قادمون، وآخرون ذاهبون، والدنيا كلها مقلوبة، ولا أحد يدرى أن كل شىء مزور، كالنعش المزور!

ويحكم على "أبو عوف" المسكين، وتختفى زوجته أم الهنا وبنته مفيدة، وتضيع معالم الجريمة، ولا يبقى للأسرة المغلوبة من أثر إلا الخص المهجور القابع فى طرف الحديقة.

وأنت يا بنت ترين كل ذلك، وتسمعين ما يدور، وتهزين رأسك فى أسى، ثم تذرفين الدموع، على من؟ حتى هذا لم تكونى قادرة على أن تقوليه!

أبو سريع كان يراقبك كالصقر.

كان ينصت إليك إذا بدأت تتكلمين، فكانت كلماتك تقف فى حلقك من الرعب! حتى لو كانت كلماتك عن أشياء بعيدة جداً عن الحادثة والغريقة!

وكنت تحدثين نفسك فى بعض الأحيان بأن من الواجب أن تقولى، لتكشفى هذه اللعبة المفضوحة، وكنت تتصورين أنك بسكوتك ترتكبين جريمة أبشع، هى أن يظل أبوك وزوجك وأخوتك وكل الناس مضللين مغشوشين.

وكنت تقولين لنفسك:

ـ هل يقدر على قتل عباس لو كشفته؟

لكنك كنت تعودين تقولين لنفسك:

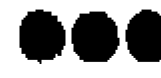
– سيقول عبيطة، تعيش فى أوهام، وسيقيم الف دليل على كذبى، وسيأتى بالغفر الذين سأستشهد بهم ليكذبونى!! وسينتصر هو، وأفقد أنا كل شىء وعلى الأقل سأفقد "عباس".

وكنت أسكت. لكن كان بينى وبين "أبو سريع" كلام من نوع خاص. بالنظر. آ...كنا متفاهمين بالنظرات!

كنت أنظر إليه فيفهم ماذا أريد، وكان ينظر إلى متحدياً ومذكراً، فأرد عنه نظراتى.

كنت فاجراً يا "أبو سريع"! وما كانت فيك ذرة واحد من حياء! كنت مكشوف الوجه لا تستحى "تعملها وتخيل"!!

يقولون تقتل القتيل وتمشى فى جنازته؟ لأ، أنت تفعل ما هو أكثر، فأنت تقتل القتيل، وتزور له جنازة "على كيفك"! يا سبع الليل!

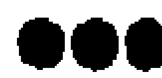


وتهز درة زمانها رأسها، وهى فى فناء بيت "أبو سريع"، وهى تقول لنفسها: كل هذا ليس كثيراً يا "أبو سريع". كل هذا أنت تستحقه، بل وتستحق أكثر منه! ذنوب الدنيا كلها فى رقبتك، وإذا كان لا بد من كفارة، فإن كل ذلك لا يكفى.

لكن ما ذنب ست الناس؟

والأبرياء أولاده. ما ذنبهم؟

وتفيق درة زمانها من خواطرها وأحلامها وذكرياتها، لتترك المكان عائدة إلى بيتها، ودموع الأسى فى عينيها، والألفاظ فى حلقها مكتومة، كأنما لا تزال تخاف أن تتحدث، حتى بعد أن ذهب الوحش، وواروه أمامها التراب!



وبينما النسوة على هذا الحال التعسة، فى بيت "أبو سريع"، كان الرجال فى الجامع يصلون العصر. وكان الشيخ مختار فى حالة انفعال شديد. كان مشغولاً على أهل البلد ان تصرفهم مصالحهم عن طاعة الله. ان النعمة تكون أحياناً والنقمة سواء.

وكان صوته وهو يؤم الناس للصلاة يتهدج، كأنما يحبس بين جفونه دموعاً تريد أن تنطلق! وما كان الناس يتصورون لذلك سببا. ان الله قد فتح عليه فنجح ابنه مرزوق فى الامتحان، ثم وفقة الله فبعث إليه بثروة من عند الله وجعل ابنه عليها أمينا وقيماً. ولما أراد الأشرار به ضراً، ودبروا سرقة الماشية من القرية، أوقعهم الله فى شر أعمالهم، فدخلوا السجن، ليكفروا فيه عن جريمتهم!

والجامع: هذا الجامع ـ وكان يدار من المسينية التى يرتبها له الفلاحون كل عام، من صدقات أهل الخير ـ أصبح له وقف معلوم. وقد وضع الله سره فى أرض الوقف، فاصبحت تغل أضعاف ما تغله الأراضى الأخرى.

انها تزرع تبرعاً وقربى لله جل جلاله. نعم فكل فلاح يتقرب لله ببعض عزقة للأرض، وكل فلاح عنده ماشية، يتقرب لله بتخصيصها للأرض مرة كل موسم، وقد انتظم هذا التبرع واتفق الناس عليه، حتى صارت الجهود التى تبذل فى الأرض، والسماد الذى يوضع فيها، والماء الذى تخرجه الساقية لريها، موفوراً.

بل لقد كان الجامع هو الحل الوحيد الذى أنقذ عائلة سلطان من التنازع فيما بينهم، عندما لم يجدوا أمامهم من سبيل لحل مشكلة الساقية، إلا أن يضيفوها إلى وقف الجامع.

- آ... الجامع أولى!

- لكن، وصية الواقف؟

- سقطت يا أولاد.

- كيف تسقط وصية الواقف؟

- عندما لا يكون هناك من يستحقها، ماذا يكون مصيرها؟

- وكيف لا يكون هناك من يستحقها؟

- اسمعوا يا أولاد. سلطان الكبير أراد أن يؤمن مستقبل ابنه الكبير، فميز أكبر أبنائه بخمسة أفدنة زيادة، وهذه الساقية بالحديقة التى أقيمت على راسها. وأوصى بأن يكون هذا الامتياز لأكبر الأبناء الذكور، جيلاً بعد جيل.

- إذن يئول لأكبر الموجودين.

- لأ ليس هذا قصده. لقد آلت لأكبر أبنائه، محمد سلطان، ثم آلت لأكبر ابناء محمد، لا لأكبر ابناء أسرة سلطان، وكان الحاج سلطان، وبعد الحاج سلطان، آلت لآبنه الأكبر العمدة غضبان، وكان من الطبيعى أن تئول لأكبر أبناء العمدة غضبان.

- لا، ليس هذا مهماً. المهم أكبر أبناء عائلة سطان.

- لا بالتدريج المعروف، وبغير اجتهاد.

- فإذا لم يكن لواحد ولد، كالحال بالنسبة للعمدة غضبان.

- سقطت الوصية.

- ولا توزع على بنات العمدة غضبان!.

- آ... هذا هو الأمر الواقع.

- لا يمكن...

كان هذا الاميتاز ممنوحاً للذكور، لحكمة أرادها جدنا.

- طبعاً ليتولى الولد الأكبر مسئوليات العائلة ويحافظ على اسمها.

- ويفتح الدار ويصرف فى المناسبات.

- لكن ربنا أراد ألا يكون للعمدة غضبان ولد.

- هل معنى هذا أن توزع الوصية على بنات العمدة غضبان؟

- فى الغالب لا. ومع هذا نسأل رجال الشرع.

- لا .. لا يمكن. ولماذا يتميزون على أولادنا؟

- ننتظر فتوى.

- فتوى!! لا فتوى ولا مفتى، لا نحن ولا هم.

- يعنى نترك الأرض بائرة؟

- لا ندرى. المهم لا يمتاز أحد على الآخرين.

- فإن رأى أهل الشرع غير هذا.

- والله لنجعلها بوراً بالفعل.سنقلع زرعها. سنغرقها بالماء، سنحولها إلى وحل.

- والساقية؟

- سنسمم البهائم التى تديرها. سنحولها إلى قطع صفيح!

- يا أولاد. هذا حرام.

- وحلال هذا الامتياز؟! كلنا واحد، معلهش لو كان فيه ولد، وأصبح عمدة مثلا واحتاج لمصاريف؟ آ... إنما بنات يصبحن أحسن حتى من بقية صبيان العائلة! ويتزوج البنات وتخرج أرض سلطان للعرسان!!

- لماذا؟. ان كانت هذه هى الوصية...

- شىء لله يا وصية!!

- لكن!!. شىء من الصبر.

- لا صبر ولا يحزنون.

- والحل؟ الحل يا أولاد.

- صرفونا أنتم، والا قلبناهم عليهم نكداً بلا نهاية.

- لا حل إلا أن تتفقوا على شىء.

- شيء؟ مثل ماذا؟

- مثل أن تحولوا الوقف إلى مرفق عام.

- إيه؟ أى مرفق؟..

- الجامع مثلاً.

- متفقون. نحن متفقون على هذا. لا لنا ولا لهم.

- يعنى الجامع...؟

- آ.. الجامع أولى. "يا فيها يا نخفيها"!!

وانتهى الخلاف بين أولاد عائلة سلطان على أن توقف الخمسة الأفدنة الزيادة والساقية والحديقة الملحقة بها، على الجامع.

لكن "عباس" العمدة اقترح حلاً وسطاً، فتئول الساقية والحديقة للجامع وتوزع الخمسة أفدنة على الورثة، على اعتبار أن الوصية سقطت، وأن أغلبية الورثة بنات مكسورات الخاطر!

وبعد أن تم هذا الاتفاق، أسرع أولاد أسرة سلطان بتسجيله، حتى لا يثور بعد ذلك بينهم خلاف.

قال أبناء القرية ممن يدرسون فى الأزهر الشريف، ان هذه هى ارادة الله. صحيح للبيت رب يحميه، وقد شاء الله أن يزيد من موارد الجامع. هذا خير، ولولا جهل عائلة سلطان وأحقادهم لوجدوا حلاً آخر غير وقف الساقية والحديقة على الجامع.

أما أبناء عائلة سلطان فكانوا سعداء بهذا الحل، مرتاحين لهذه المساواة وأخذوا يتطاولون بالوقف الذى ارتضوه، على أنهم "بتوع ربنا"!! وأن ربنا معهم دائماً، يوفقهم إلى الخير والاحسان.

أما الجامع، فقد زاده من عنده.

فرج النمس كان بسلوكه سبباً فى أن يصبح للجامع وقف.

وها قد أصبح الوقف وقفين. الساقية نفسها أصبحت من حق الجامع. وأبو المكارم نفسه صار تابعاً للجامع، والحديقة وخص أبو عوف، آل كذلك إلى الجامع.

وقال الكبار من أهل القرية:

- طول عمرنا ونحن لا نعرف الساقية إلا "بأبو المكارم".

- وطول عمرنا ونحن لا نعرف "أبو المكارم" إلا بالساقية.

ومنذ أيام الحاج سلطان، والساقية وأبو المكارم شىء واحد. "أبو المكارم" هو الذى يتولاها ويشغلها، ويعلق فيها الثورين، ويحكم القناة التى توصل ماءها بالحقول. الحاج سلطان كان يقبض، وأبو سريع كان يستعملها فى عقوبة من يريد عقوبتهم. إنما الذى الذى كان يريدها بالفعل، فهو أبو المكارم. إذن يدبرها لحساب الجامع، هو قادر على هذا وهو يعرف كيف يوزع الدور على الفلاحين، وهو الذى يعرف أجرها، وهو متفرغ لها، لا يهمل تحصيل أجرتها ويؤديها للجامع. للشيخ مختار شيخ الجامع.

وعندما قالوا هذا "لأبو المكارم"، بكى تأثراً.

ذكر تاريخ الساقية الطويل فبكى.

ذكر يوم قادته قدماه إلى هذه القرية، بعد ما فعله الانجليز بقريته، بعد أن قتلوا أباه وأمه واخوته أمام عينيه ففقد القدرة على النطق، ولم يعد قادراً على شىء، إلا أن يجرى، ويجرى، ويجرى، هارباً من هذا الكابوس الثقيل، حتى وصل إلى هذه القرية، ليلة مولد سيدى الذكيرى.

وعندما أضافوه إلى ممتلكات الحاج سلطان، انكر أن يتحول إلى شىء يمكن أن يتملك. انه انسان لا يجوز أن يملكه أحد. لكنه وجد العزاء عن هذا التملك فى الخص البسيط على قمة حديقة الحاج سلطان، فى مرمى بصره وهو واقف على جسر الرياح عند الساقية.

تفيدة كانت هذا العزاء.

تفيدة الحلوة الرقيقة وشرابها الأحمر، عوضته عن المحنة التى يمر بها والعذاب الذى يعانيه.

لكن تفيدة ذهبت عنه. اختطفها الصقر بأظافره، فلم يستطع أن يقاومه.

وعندما فكر فى أن يجرى من مكانه عند الساقية إلى مكان آخر أرحم به وبمحنته، استغاثت به تفيدة، وطلبت أن يبقى إلى جوارها. ستذهب إلى عش الصقر وحدها، ولن يسمح لأهلها بأن يزورها. هو وحده الذى سيكون أهلها هناك.

ويقى أبو المكارم إلى جوارها يحترق بحبها وهجرها.

ولما وضعت ابنها "جلال" ذهبت هى، لتترك له "جلال" قطعة لحم حمراء يحتاج إلى من يرعاه، ويحنو عليه، ويحميه من الوحوش.

ولما كبر جلال أصبح فى أشد الحاجة إليه ليتخفى عنده، وهو يؤدى دوره العظيم فى سبيل العدل والحق والحرية.

لكن جلال ذهب هو الآخر، بعد أن ترك له مديحة "وأبو عوف".

وذكر أبو المكارم "أبو عوف" الكبير المسكين، وذكر أم الهنا، وذكر مفيدة.

ذكر سالمة وأهلها، والرصاصات التى استقرت فى قلبها وهى فى أسعد لحظات حياتها.

ذكر "عباس" والأشقياء، وهم يحنون قاماتهم لفتى صغير عرف كيف يفرض عليهم احترامه.

وذكر الست قمر والشهامة التى تميزت بها، والقوة الخارقة التى كانت تواجهه بها الحاج سلطان والأسرة كلها.

وتلك القديمة التى لا تفتأ تقول عن نفسها أنها "تحلى ولو كانت وحلى" الحاجة زهرة، صاحبة الجرن، وحماة المسطول عباس.

وبنت العمدة، وأخت العمدة، وأم شيخ البلد الذى صار عمدة، عجوز النحس، وغراب البين، ونذير الشؤم الست نبوية.

وهذا الشىء الممسوخ المفترى الشيخ أبو طاقية، وعمليات الضحك على الذقون التى مارسها على كل الأعيان من سادة وسيدات، فانصاعوا له فى طاعة بليدة مخدرة عمياء!

والشيخ "مرزوق" والست أم راضية، وراضية والشيخ مختار. و "أبو سريع" وكرباجه السودانى، واستبداده وظلمه. وغضبان الكبير وغرامه من أم الشحات.

وغضبان الصغير والملحن التى مر بها، حتى انتهى أمره بأن قتله أخوه.

وآدهم وثأر أبيه!

وست الناس وثأر ابنها!

وسبيلة وكايداهم، وسعد وفرحات.

شريط طويل جداً من الأحداث والحوادث والناس.

وأرض شراقى مشفقة كل شق منها يبلغ رجلاً، وأرض مروية، خضراء، تأتى للناس بالخير والبركة.

وفرج النمس يحاول أن يكون "أبو سريع" من جديد، لكن ينسى أنه لا يصلح ليكون "أبو سريع" ولا الناس تقبل أن تعود الحياة القهقرى، ليتحكم فيها كرباج سودانى طويل يلفه حول أجسادهم، فلا يتعرضون، ولكن يطيعون!

والجامع يصبح له وقف ينفق عليه، فيتسع، ويبنى فيه الشيخ مختار مدرسة لتحفيظ القرآن، بدلاً من الكتاب القديم، وتلحق به ميضة مجهزة تجهيزاً طيباً، ويفرش بالحصير الجديد، ويقام به منبر عال فيه سيف يمسك به الخطيب فى أيام الجمع كما كان يفعل الخلفاء الراشدون. وكثير من الحاجات تقضى من وقف الجامع. المحتاج يجد حاجته من فائض الوقف، قرضاً حسناً يرد عند الميسرة، وفى السر، لا يعرفه أحد، والمعوز يجد ما يسد عوزه من وقف الجامع، فى ستر كريم. وفى المولد والأعياد يضاء الجامع ويشعر

الناس بأن الحياة تدب فيه، حيث تلقى الدروس والمواعظ، ويتجمع الفلاحون يصلون ويسمعون إلى القرآن يرتل ويفسر، وإلى أحاديث النبى تروى، وإلى حضرات الذكر تقام.

وها أنت ذا، وهذه الساقية، والخص تئولون للجامع!

ولم يقل أبو المكارم شيئاً. ما كان كذلك يستطيع أن يقول.

لقد تحدرت على خديه الدموع، وترك محدثيه ومضى إلى سيدى الذكيرى، وهناك زار الضريح، وقرأ الفاتحة، ثم وقف عند الضريح جلال وهو الضريح الذى يقولون عنه فى الناحية كلها انه ضريح الشيخ "أبو عوف". وكاد يمرغ خديه عليه، وفيه!

ليتك حى يا ابنى يا جلال!

ليتك الآن ترى عمك "أبو المكارم" وقد تحول من ملكية عائلة سلطان، إلى ملكية الله، خالق الناس والأشياء جميعاً. أليس الجامع بيت الله؟

ليتك الآن حى لترى عمك... بل أباك، كما كنت تقول، وقد تركوا له الساقية يديرها لصالح الناس والجامع، بعد أن كان فيها كالثورين المغمضى العيون، اللذين يديرانها، دون أن يعرفا ماذا يفعلان، ولا لمن!!

انى محتاج إليك الآن يا جلال، أكثر مما كنت محتاجاً إليك فى أى وقت مضى، لكنك ذهبت يا جلال، وتركتنى وحدى.

وتلفت حواليه ثم قال لنفسه: بل لست وحدك. هذه هى نصفه الثانى.

وذهب إليها وقبل يديها، ووجنتيها، ودموعه لا تزال على خديه.

وخافت أن يكون قد أصابه مكروه، فوقفت تتحسسه، قلقة عليه.

لكنه طمأنها وحكى لها حكاية الساقية والحديقة والخص.

وابتسمت له ابتسامة راضية، ثم ربتت على خده تبارك له هذه الخطوة.

وسألها عن الصغير "أبو عوف"

متى يعرف كيف يفك الخط، ومتى يعرف قواعد الحساب؟

وأجابته مديحة بأنه يذهب للمدرسة، لكنه صغير لا يزال.

قال لها: وحتى يكبر هل تتركينه معى، ليساعدنى؟

وأشارت إلى عينيها الاثنتين، فأمسك كفها وقبله شاكراً لها هذا الجميل.

وسألها: ألا تريد أن تنتقل إلى الخص المهجور؟ ألا تريد أن تعيش حيث ولد زوجها جلال؟ ألا تريد أن تتسمع صوته، وهو وليد، وهو فتى، ثم وهو شاب جرىء شجاع؟ ألا تريد أن تستعيد ذكريات طفولته وشبابه، فى مكان الطفولة والشباب؟

قالت: عندما يكبر أبو عوف، أما الآن، فلا أظن أن الوقت مناسب يا عم "أبو المكارم". عندما يصبح أبو عوف قادراً على خدمة الحديقة كجده، نذهب إلى الخص، هو يخدم الحديقة وأنا أخدم الضريح، أما الآن فالبركة فيك.

واقتنع أبو المكارم، وقنع بأن "أبو عوف"، سيكون إلى جواره، عند الساقية أغلب ساعات النهار.

الشيخ مختار هو الوحيد بين أهل البلد، الذى كان يخاف مما قد يصيب الناس من الغرور والبطر! كان يقول للناس فى الجامع: انى أخاف أن تنسيكم النعمة شىءون دينكم. أخاف أن تغتروا فتعيثوا فى الأرض فساداً، فتنزل عليكم نقمة الله، لتقضى عليكم! وتدمركم تدميراً! انتم فرحون بما أوتيتم وتنسون أن كل ذلك جاءكم نتيجة قضاء من الله عادل. وهذه الأفراح التى تقيمونها قد تلهيكم عن واجبكم نحو أهل لنا وعشيرة، تربطنا بهم أواصر قديمة طيبة. فرج النمس أخطأ. فرج النمس أساء. فنال جزاءه وحكم علية بالسجن عشر سنوات.

لكن والد فرج النمس، الحاج عبد الوراث، قد وقف كل ميراثه لكم. لجامع البلد. فهلا تجاملون الرجل العجوز المريض، فلا تنسوه فى غمرة أفراحكم؟ ان النعمة قد تصبح والنقمة سواء! أى والله يا اخوانى، النعمة التى تفقد صاحبها واجباته نحو أهله

وناسه، فلا يهتمون بعواطفهم ولا يراعون شعورهم، تصبح هى كالنقمة! هذه تجرح وتلك تجرح! لا يهم الجرح لمن، ولا ممن، لكنه جرح والسلام، وآداب الاسلام يا اخواتى تراعى نفوس الناس وتحترم مشاعرهم، ولا أظنكم تريدون أن تؤذوا الرجل فى آخر أيامه. انه هو الذى وقف أملاكه على جامعكم. الا يستحق منكم تصرفاً كريماً طيباً، وهو فى آخر عمره؟!

وسكتوا جميعاً، وهم يسمعون هذا الكلام.

وزاد صمتهم وهو يحدثهم عن رجل آخر مجروح: الحاج قنديل

ماذا فعل هذا الرجل؟ هل آذى أحدكم؟ هل أساء إلى حد؟ ان كان ابنه فتوح قد انساق مع الأشرار، فانزلق مرة، فهل يستحق الرجل منكم كل هذا؟

قال الرجل:

- كنا نظن أنك أكثرنا فرحاً. ألم تكن السرقة موجهة ضد ابنك مرزوق أفندى؟

قال:

- وهل أنسى آداب الدين الحنيف من أجل ابنى؟ وهل يرضى الله أن يفقدنى الحرص على مصالح ابنى حق أهل البلد على؟!

قالوا:

- لكن المعلمة فى المحطة أقامت احتفالات وذبحت ذبائح!

قال:

- اعرف هذا، وقد كلمتها فيه فاستاءت أشد الاستياء لأنها لم تكن تقدر هذه الظروف وسترون ماذا هى فاعلة.

- عندك حق.. وماذا تريدنا أن نفعل؟ كيف نتصرف؟ أنت أمامنا فبصّرنا.

قال الشيخ مختار:

- نتوجه إلى الحاج عبد الوارث نطيب خاطره، ونسترضيه.

قالوا:

- ونحن معك.

قال:

- ثم نتوجه إلى الحاج قنديل نبسط له الأمر، ونؤكد له أننا معه بدلاً عن ابنه الذى غاب، وسيعود بالسلامة عن قريب.

قالوا:

- ونحن معك.



وهناك فى بيت الحاج عبد الوارث، تجمع أهل البلد، وعلى رأسهم العمدة عباس، والشيخ مختار، وشيخ الخفر مدبولى.وشعر الرجل المريض العجوز أن كل واحد من أهل البلد ابنه، وأن الله قد أعطاه بدلاً من ابن واحد فاسد ضال شرير، مئات الأبناء البررة.

قال الشيخ مختار:

- يا عم الحاج عبد الوارث. اتفقنا جميعاً، أهل البلد جميعاً، على أن تعود إليك أرضك. ان للبيت رباً يحميه، أما أنت فكفاك أنك وهبت الأرض هذه السنين.

وقد استطعنا فى خلالها أن نجدد الجامع ونوسعه، وقد أصبح الآن جامعاً كبيراً ألحقت به فصول لتحفيظ القرآن، ومكتبة دينية طيبة، وهذا يكفى. أنت الآن فى حاجة إلى مصاريف، خصوصاً فى وحدتك هذه.

وابتسم الحاج عبد الوارث، ثم قال:

- يابنى ربنا يخليك ويطول عمرك. أنا اليوم أكثر تمسكاً بالوقفية من أى وقت مضى. تصدق بالله. أن رزقى زاد بعد الوقفية، وبدأ الله يرزقنى من حيث لا أعلم. كانت لى قطعة أرض قرب كفر الزيات. بضعة قراريط اشتريتها منذ سنوات طويلة، والله

نسيتها. تركتها لصاحبها القديم يزرعها لحسابه، ولصالح اسرته. لم تكن لى بها حاجة، ولم أشترها إلا لضمان صديق، ولم تكن تتجاوز ستة قراريط. لكن الستة قراريط صارت اليوم كنزاً. وصلها العمران، ودخلها النور والمياه والمجارى، فأصبحت صقعاً!! وجاءنى صاحبها القديم يبشرنى. ويقول لى انها الآن تباع بالمتر. قلت بعها ولك فيها النصيب الذى ترضاه. ثروة هبطت على من حيث لا أحتسب. بركة الوقفية والجامع. أنا يابنى وحيد كما ترى. زوجتى ماتت وابنى الوحيد، آهو... كما تعلمون!! وليته مات! ولست فى حاجة إلا إلى القوت وهو مكفول للناس جميعاً. وما من دابة فى الأرض، إلا على الله رزقها.

وأخذ الناس يكبرون ويهللون ويشكرون لله صنيعه ورحمته.

قال العمدة عباس:

- شوف. يا آبه الحاج عبد الوارث. نحن أولادك. كلنا أولادك، وكل أرض هذه البلد أرضك. أنت تأمر ونحن نطيع. لو شعرت فى يوم من الأيام أنك محتاج لشىء، والنبى تعتبرنا أولادك، بل خدامك. أطلب يا آبه الحاج، وكلنا سنلبى اشارتك.

وابتسم الرجل فى رضا. ثم ترقرقت بين مأقيه بعض الدموع.

وأمسك بيد العمدة فى كف، ويد الشيخ مختار فى كف، وأخذ يقول فى صوت عميق:

كنت أريد أن أراه رجلاً. كنت أريد أن أجده فى شيخوختى واحة يتضوع فى جنباتها أريج عطر، يملأ أيامى بهجة وأملاً، لكن صحبة الأشرار قد أفسدته والقدوة السيئة قد أضلته، لقد كان يحذو حذوه، ويريد أن يصبح مثله.

وذكر الناس "أبو سريع" وكيف كان يقول ان فرج النمس هو خليفته، وأنه هو الذى سيؤدب أهل القرية، ويضعهم فى مكانهم الصحيح!

ها هو ذا يا شيخ الخفر، قد جنى ثمرة تعاليمك!!

ها هو ذا يا "أبو سريع"، قد أدب أهل القرية، ووضعهم فى مكانهم الصحيح!!

وغادر أهل القرية منزل الحاج عبد الوارث بوصية واحدة، أن يرعوا الإنسانة الوحيدة التى ظلت إلى جواره طول أيام عمره، تخدمه وتسهر على راحته.

قالوا له: نفيسة أختنا وأمنا وخالتنا. ستكون فى أعيننا يا حاج. وفى منزل الحاج قنديل، جلس العمدة والشيخ مختار وشيخ الخفر والرجال يواسون الرجل فى هذه المحنة التى يمر بها.

كان الحاج قنديل متأثراً جداً بما حدث. كان مضطرباً، يكتم دموعه، ويبدو أنه مخنوق. الدم محبوس فى عروقه، ويكاد يمزق خدوده وعينيه.

قال العمدة:

- صلى على النبى يا حاج. ربنا كبير.

قال الحاج قنديل:

- أنا ابنى "يطلع حرامى!! يخلصك يا عمدة؟!".

قال العمدة:

- لو اطلعتم على الغيب، لاخترتم الواقع. وقضاء أخف من قدر، وأنت رجل عاقل يا حاج. أنت رجل مؤمن. أين إذاً حجتك وزيارتك لقبر رسول الله؟

قال الحاج قنديل:

- أنا واثق أنه خدع. النمس الشرير الغادر خدعه، لكن أليس فى رأسه عقل؟ أليس مسئولاً عما يفعل؟ لماذا يمشى وراء النمس أو وراء غيره من الناس؟! آه يا عمدة! أنا أموت يا عمدة! والله حاسس أنى انتهيت. قلبى سيقف مرة واحدة. أنا لا أنام يا عمدة وأصحو مفزوعاً كأن شيطاناً قد أطبق على رقبتى!! ماذا أفعل؟ كل شىء فعلته له. الأرض حرمت نفسى لأشتريها له، البيت جوعت نفسى لأبنيه له. المال قترت على نفسى لأوفره له. كل شىء وضعته فى خدمته، وقلت: ليشب شبعان وعينه ملآنة! لكن ها هو ذا فى السجن.

كانت كلماته مليئة بالحسرة والألم.

كان يتكلم كمن يبكى.

وأمسك العمدة بيديه، وصاح يقول له:

- اسمع يا حاج قنديل، فتوح ولد طيب ومستقيم ويعرف ربنا. فتوح ولد مصلى وقلبه نظيف، ويعطف على الفقير والمحتاج. لا تظلمه يا حاج. أنت تعرف أن النمس جره معه، وهو لا لص، ولا مصلحة له، ولا يقر هذه التصرفات. لكنه انسان مجامل وخجول، لم يرفض طلب عديله، خاصة والنمس وقح وشرير وعنيد. أنسيت يوم بهائم شيخ الخفر. هل يرضى فتوح أن يسم بهائم مدبولى؟ هل يفكر فى هذا؟ لكن ماذا يقول للنمس؟ ذهب معه والسلام!!

وسكت الحاج قنديل.

وتحدث الشيخ مختار، وتحدث مدبولى، وتحدث الفلاحون. الجميع أكدوا أنهم يحترمونه، ويشفقون على فتوح، وسيخرج فتوح بعد شهور وسيعود إلى بلده وأهله، وسنفتح له قلوبنا، ليغسل فيها همه. لا تخف عليه يا حاج. ان الله لن يتخلى عنه، ولا عنك.

المهم يا حاج أنت. أنت أهم عنصر فى حياته، وعليك سيتوقف سلوكه بعد أن يعود. والنبى يا حاج ساعده على أن ينظف ثوبه، ويعود نقياً طاهراً كما كان. لو شعر منك العطف والحب، فسيعالج هذا، نفسه القلقة، والا فقد يتعقد ويضل.

وشعر الحاج قنديل أنه وجد نفسه فى هذا الحديث، وأن أهل البلد قادرون على أن يخففوا ما فى قلبه، الناس هم الدواء. الناس هم الشفاء. الناس هم العزاء.

ولم يتمالك نفسه من أن يرتمى على صدر العمدة، وينظف ما فى قلبه بالبكاء.

وخرجوا جميعاً، وبينهم الحاج قنديل ليصلوا المغرب جماعة، وليزوروا ضريح سيدى الذكيرى ويسلموا على الشيخة تفيدة والشيخ عبد الرءوف تبركاً وقربى.

وهناك عند الضريح، كان الشيخ عبد الرءوف، يصافح الوافدين لزيارة سيدى الذكيرى، وهو يكافح نفسه حتى لا ينكشف!

آه لو عرفتم من هذا الشيخ، الذى تتبركون به؟!

وآه لو عرفتم الليالى الطويلة التى عاشها مع الخطر، يواجه احتمال الغدر فى أيه لحظة؟!

وكان الشيخ يرقب الشيخة تفيدة، فى طرحتها البيضاء ومسبحتها الطويلة وعينيها المسبلتين، وابتسامة خافتة ذكية ترتسم على وجهها.

كان يدرك أنها تعلم ما يدور فى داخله من عوامل!

وكانت الشيخة بدورها تدور بعينيها حوله.

وكانت تجول بخاطرها ذكريات شتى قديمة.

وتداخلت فى عينيها الصور، حتى صارت تراه هو...

هو هو: جلال!

فى خرابة النداهة يقيم حضرات الذكر، ويرتب المولد،ويبارك المريدين، حتى إذا خلا إلى نفسه، أو خلا إلى زملائه، تحدث لغة أخرى، وسلك سلوكاً آخر. ان العينين المسبلتين فى تلسيم تعرفان كيف تتحكمان فى البندقية لتصيب الهدف من غير خطأ. وهاتان اليدان اللتان تصفقان فى تؤدة ورتابة تصفيقاً حبيباً متواضعاً، ينظم الذكر فى حلقات الذكر، تعرفان كيف تمسكان بخناق من يتعرض لهما أو يتعرض الطريق. نعم وتضربان عند اللزوم وتعتديان فى قسوة عند الحاجة. والساقان اللتان تتحركان بمقدار، ولا تعرفان معنى للسرعة أو الاستعجال. ولماذا، والعجلة من الشيطان؟ انهما قادرتان على القفز الوثوب والهرب قبل أن يتهيأ رجال البوليس. والقلب الطيب الكريم المتسامح، الذى يتسع لمشكلات الناس ولمحن الناس، للمريض حتى يعود، والمحتاج حتى تقضى حاجته.

هذا القلب الساذج المغلق على العبادة والدعوات، يعرف متى يصبح من حديد، لا يهاب، لا يخاف، لا يتردد.

هو هو: جلال!

بذقنه هذه البيضاء، كأنها اللبن الحليب!

وعمامته هذه الخضراء، كأنها جزء من كسوة سيدى الذكيرى، فيها بركة وفيها نقاء!

ومسبحته الطويلة تتدلى من يسراه، وتلف من حبات المسبحة، وهى تتوالى بين أصابعه فى حركة دائمة لا تعرف الوقوف.

ويمناه دائماً ممدودة للناس بالبركة والدعاء.

هو هو: جلال!

يوم مولد الشيخ العبيط، وهو يرتب كل شىء من وراء حجاب. ثم يسير فى آخر الموكب، وحوله البخور، ورجال يذكرون الله، ونساء يزغردن، كلويات تملأ شارع قصر العينى بالبركة، وعربات ترام تتوقف عن المسير، لتخلى الطريق فى أدب وتواضع لموكب الذاكرين، ورجال بوليس، ضابطاً أو عساكر، يحرسون، ويتمتمون بالدعاء وهم يحرسون.

حتى إذا ما وقعت الواقعة، انقلب الشيخ إلى أسد يعدو هنا وهناك يطلق الرصاص على قوات الاحتلال، ويعطل مرورهم من الشارع ليجد ممدوح فرصة الهرب من قبضة أيديهم ومن نوايا الغدر التى يبيتونها له. لا عمامة ولا ذقن ولا مسبحة ولا بخور، ولكن عمل سريع كالومض.

هو هو: جلال!

بسرعة بديهته وقوة احتماله وذكائه وشهامته، يواجه المفاجأة عندما سقط ممدوح على أرض شارع قصر العينى، وبدا أنه قتل، فينصح أصدقاءه بما يعملون ليفلتوا من رقابة البوليس وسلطات الاحتلال، ثم يسرع إلى قسم البوليس، يشكو رجال البوليس الذين تهاونوا فأفسدوا نظام الموكب وفوتوا فرصة اقامة مولد سيدى الشيخ العبيط، ثم

يعود هادىء الأعصاب إلى خرابة النداهة ليفاجأ به الناس وهو يسأل عن المريدين، ليطمئن إلى أن أحداً منهم لم يصب بسوء!

هو هو: جلال!

عندما استبد به حبه، فطواه فى قلبه، عفاً شريفاً هادئاً، لا يستغل الفرصة ولا الظروف، ولا ما يظهر به معها أمام الناس، على أنها زوجته، وإنما غض عنها البصر فى احترام واحتشام، وأخفى حبه عنها وعن نفسه، وتحكم فى عواطفه فلم يسمح لها بأن تظهر، احتراماً لنفسه ولصديقه ولها، حتى أخلى الزمن ما بينهما، وشاءت الظروف أن يصبحا وحيدين لا ثالث لهمان وخاف على نفسه وعليها من الوحدة والفتنة والحرمان، فأراد أن تكون علاقتهما حلالاً، لا يهددها اغراء الشباب.

هو هو: جلال!

فى نظرات المحروم، وخلجات الخائف.

وفى ومضات الحب، واندفاع العاشق.

هو هو: جلال!

عندما عاد إلى الساقية وهذه القبة المبروكة، على مرمى البصر من الخص المهجور حيث ولد، فأخذ يتنفس الهواء، ويعانق الفضاء، ويصبح ويجرى ويثب فوق الشجر وعلى مدار الساقية، ويغنى لنفسه مع نفسه، ويقبل عمه الأخرس: "أبو المكارم".

هو هو: جلال!

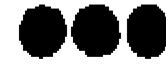
قدرات على التخفى لا تحد. مرة فتى وسيم، يتحدث فى أناقة واغراء. ومرة شيخ جليل، تهتز كلماته بالبركة، وتفوح من دعواته النفحات. ومرة مكوجى، ومرة بوسطجى، ومرة عسكرى بوليس، أو جندى مقاتل من جنود الاحتلال، لكنه على الدوام جلال صاحب القلب الشجاع الذى لا يتردد ولا يهاب.

هو هو: جلال!

بكل ما فيه من دهاء، وذكاء.

يكون مع الناس، وهو عنهم بعيد تشغله أمورهم عنهم.

ويتغابى عن كثير مما يعرف، ليحصل على كثير مما لا يعرف.



لكن الصور كما تتداخل فى خيال مديحة، فإنها تتباعد فى الحقيقة الملموسة.

وتراه "ممدوح". ممدوح لا جلال.

هذا ممدوح يا مديحة، يرتدى زى الشيخ عبد الرءوف، ليستقبل أهل القرية الطيبين، ويباركهم، ويبارك بيوتهم وحقولهم ومحاصيلهم قد وقف معهم عندما تعرضت عزبة الخواجة لغدر الطامعين، فضبطت السرقات، وأودع اللصوص السجن. وعزبة الخواجة الآن عزبتهم. عزبة مرزوق، وأم الفرح، وسبيلة الغجرية، وسعد الخفير، شاعر الربابة والمغنى، وكل الأرامل واليتامى والتملية من المستضعفين. عزبة الخواجة ووقف الجامع والساقية وحديقة الساقية والخص المهجور صارت للناس، تضمد جراحهم، وتدارى عوراتهم.

لكن أهل القرية الطيبين لا يعرفون أنه كان حتى أمس "المعلم العترة" سمسار البهائم المسروقة، والوسيط بين لصوص الماشية والجزارين. نعم لا يعرفون أنه يتحايل حتى أودع اللصوص السجن، وخلص هذه الناحية من الخوف والفزع والغدر. بل ولقد أعاد كل المواشى المسروقة إلى أصحابها. الأشياء المسروقة كان يودعها فى فناء مهجور عند المقابر فى قرية بعيدة فى أطراف الدنيا، ويشترى بدلاً منها ذبائح يبيعها للجزارين على أنها مسروقة. ولا أحد يدرى أن ذلك هو جزءاً من عمل المعلم العترة. الناس ظنت أن ذلك من صنع رجال البوليس. حتى المعلم العترة نفسه كاد ينسى هذا الدور، ولولا أنه احتاج لفروق الأسعار، ما أبلغ عن ذلك أحداً. لكنه اضطر إلى الاستعانة بالمعلمة وردة، فلم تبخل عليه بما طلب. المعلمة وردة هكذا فيها شهامة الرجال.

هو ذا يبدو سعيداً بما فعل، كما يبدو سعيداً بوجود الحاج قنديل بين الرجال.

لقد كان ينصت إلى رواية عم "أبو المكارم" عن زيارة أهل القرية للحاج عبد الوارث، وللحاج قنديل، وهو يبتسم فى ارتياح. كان يسأل فى الحاح، وينصت فى شغف، ويتابع الرواية الخرساء، وهو يهز رأسه فى قناعة ورضا.

وكان يقول لمديحة بين حين وآخر:

- بركاتك أنت يا سيدنا الشيخ عبد الرءوف. أنت خادم الضريح رجعت، والقرية باسم الله ما شاء الله تلم جروحها حتى لا يكون فيها قلب غاضب أو حاقد أو يختزن السوء.

وكانت مديحة ترد عليه مازحة:

- بركاتك. هذه بركاتك يا ست الشيخة. النمس طار، والبهائم وشيخ الحضرة، وصاحب البركات والدعوات. ربنا يجعلنا من بركاتك.

وكان عم "أبو المكارم" يضحك عليهما ثم يستأنف الرواية والحديث.

وعندما أقبل الرجال، كانت القصة لا تزال تطرق سمعهما.

وبعد أن زار الرجال سيدى الذكيرى وسلموا على الشيخ والشيخة، خرجوا أمام الضريح ليجلسوا فى حلقة الذكر، وكانت الدنيا صيفاً، والجو لطيفاً، والمساء طرياً رقيقاً.

وبدأت الحضرة، وارتفعت أصوات الرجال تذكر الله فى تقوى وخشوع، وتضرع إليه سبحانه أن يحفظ القرية من كل سوء.

وفى أثناء الذكر، أقبل عدد من الرجال الغرباء عن القرية فلاحون مارون بالضريح، رأوا الحضرة وسمعوا الذكر فأقبلوا يشاركون.

لا ضير. ذكر الله ليس حكراً على أحد. ذكر الله من حق الناس جميعاً، بل واجبهم. والفلاحون معتادون على هذا النوع من المفاجأة. انهم يسرون لها ويرحبون بها على كل حال.

واحد فقط زاغت نظراته وهو يراهم.

الشيخ عبد الرءوف لم يصدق عينيه وجدهم قادمين، وعندما انضموا إلى حضرة الذكر، نظر إليهم طويلاً، فنظروا إليه متوجسين وكان عليه أن يسكت وأن يمضى فيما هو فيه لا يهتم بشىء.

لكن عينيه ظلتا مع هذا مفتوحتين عليهم، يرقب تصرفاتهم.

انهم لا يشاركون فى ذكر الله، إلا بقدر ما يلقى فى نفوس أهل القرية من الطمأنينة والأمن، لكنهم مع هذا يبدون قلقين، كأنما ينتظرون شيئاً، أو يترقبون أحداً.

والشيخ عبد الرءوف رجل مدرب وحساس هيأته التجربة فاصبح يشعر بالخطر القادم، وهو لا يزال فى دمنهور أو طنطا! وصلقته المحنة فإذا هم يشم المخبرين وعساكر البوليس ورجال المباحث، مهما تفننوا فى التخفى!

لكن لماذا هم هنا؟ لماذا جاءوا إلى الحضرة؟

البوليس أيضاً!! اما أنكم اهتديتم أو..!!

وعندها كان يسكت! أو.. ماذا؟

نحن.. هل هم وراءنا نحن؟ وراء من؟ ورائى أو وراء الشيخة أو وراء عم "أبو المكارم"؟

وقيعة؟ شكوى من مجهول؟

أولاد الحرام كثير يا سى الشيخ. من يدرى؟ ربما وصلهم كلام عنا!

لكن أى كلام؟

هؤلاء تصلهم حقيقة! أبداً! يا ليت! لكن الذى يحركهم هو الادعاء، والكذب والافتراء؟ هل هم هنا ليتعقبوا الفدائيين؟ جائز! لكن حكاية الفدائيين هذه لا تحرك مباحث دمنهور أو إيتاى البارود، إلا إذا كان وراءها شىء، كتلقى أوامر البوليس السياسى فى القاهرة! آه، كما حدث مع الأستاذ عيسى! وماذا فعلوا مع الأستاذ عيسى؟ وماذا ضبطوا

والمنشورات لا تزال فى بطن الصفصافة؟ ان بوليس الأرياف يبحث عن أمور أخرى، كحياة الأرياف، وكطعام الأرياف. ان المنشورات، والفدائيين، لا يزالون معتبرين فى نظر السلطة بضاعة بنادر!

ولكن هل يكون أحد قد وشى بأننا هنا، نهرب حشيشاً مثلاً؟

أن نسمسر فى البهائم المسروقة؟

أو أننا نخفى عندنا أفراد منسر أشقياء، يحرقون الحقول، ويغرقون الأرض بالماء، ويقتلون ويخطفون؟!

يا نهار أسود يا أولاد؟!

يا نهار أسود يا أولاد؟!

ظلم. هذا ظلم. هذه خسة كذلك وتجنٍّ!!

وفى مقام الشيخ، وعند الضريح، وفى القرافة؟!!

ونجرؤ؟!. ونلوث هذه الساحة؟!

يا خى!! طيب واخفاء السلاح والمنشورات والذخيرة وملابس التهرب من البوليس، وأدوات التنكر! كل هذا ماذا؟

لا.. هذه ليست جرائم. حتى لو اعتبرت جرائم ضد السلطة فى وقت ما، فهى جرائم لا تخل بالشرف، وهى فى وقت آخر عمل مشورع جرائم سياسية هذه، وهدف هذه الجرائم شريف.

شريف عندك أنت يا سيدنا الشيخ. لكن الحكومة، ماذا تعتبرها؟ تعتبرها أو لا تعتبرها، أن كل شىء يقاس بالغاية منه. ونحن ماذا نريد؟

نريد اسقاط الحكومة.

بل نريد اخراج الاحتلال، حتى لو استمرت الحكومة.لايهم.

لكن خروج الاحتلال، واسقاط الحكومة شيء واحد.

عندئذ تكون الحكومة كالاحتلال يجب أن تزول.

غريب.. غريب هذا الصراع الخفى، بين النظام والثورة. انه صراع فوق الأرض وتحت الأرض، فى النور وفى الظلام، فى الخفاء والعلن. النظام يحاول أن يستقر، وهو لا يستقر بالقانون وحده، ولا بالقوة التى تسند القانون وحدها، ولكنه محتاج إلى القانون والقوة، واقتناع الناس به. والثورة عليه تهزه مرة من فروعه الظاهرة، ومرة من جذوره تحت الأرض، لتقتلع اقتناع الناس به، ليصبح سهلاً عليها بعد ذلك حملهم على التمرد عليه، ثم زعزعة الثقة فيه، فإذا اختلت القوة التى يستند إليها، لم يعد القانون وحده كافياً للبقاء!

وهز الشيخ عبد الرءوف رأسه، وهو يتحرك فى وسط الحلقة، عندما قال لنفسه: أن تصل للسلطة، فذلك شيء لا يكفى، كما لا يكفى أن تصل لقمة الشجرة. ان المهم هو أن تبقى فى قمة الشجرة، ماسكاً بناصيتها لا تهزك الأعاصير! صعب! هذا دور صعب. وما أسهل أن تقذف طوبة على الشجر وتجرى. قد تصيب الطوبة ثمرة. قد تسقط مع الطوبة ثمرة. قد تصيب غصناً جميلاً، وقد يسقط معها الغصن الجميل. وقد يكشفونك، وقد تخدعهم عنك قدرتك على الجرى أو التخفى أو تضليل أصحاب الشجرة. صعب! صعب على الذين فى أعلى الشجرة، أن ينزلوا. دائماً يحرسون الثمر من الغاصبين أو الطامعين أو اللاعبين أو العابرين، مجرد لاعبين عابرين!! صعب، لكن ضرورى، إذا أراد أصحاب الشجرة أن يحتفظوا بالشجرة سليمة مثمرة. مساكين يا أصحاب الشجرة! قد يتخفى لكم واحد فى الظلام لينقض على الشجرة يحرقها إذا استطاع، فإذا لم يستطع، فأشد ما يصاب به من خيبة الأمل أن ينصرف دون أن تواتيه فرصة الحريق. أما أنتم فإن خسارتكم - إذا استطاع - هى الشجرة كلها!!

هذه الخواطر كلها كانت تمر بالشيخ، جملة وتفصيلاً، وهو وسط حلقة الذكر، يسبل عينيه فى تقوى، وهو فاتح قلبه لكل حركة من حركات الرجال الغرباء الذاكرين، أو الذين يتظاهرون بأنهم ذاكرون.

وأخذ الشيخ يسأل نفسه:

ما أغرب هذا الصراع بين النظام وبين الثورة أو الفوضى!

كله يتم فى الظلام، ولا يظهر إلا بعد أن يكتمل، أو لا تظهر إلا آثاره. النظام يرتب لضبط الثورة أو الفوضى. يستعد فى السر، ويراقب فى السر، ويتحرى فى السر، ويحاول أن يضبط وقائع مؤكدة فى السر. كله فى الظلام. كالعسكر والحرامية فإذا تحقق من شىء، عندئذ تظهر النتائج فى محاكمات ونشرات ومرافعات واتهامات. والثورة أو الفوضى هى الأخرى ترتب وتنظم وتهاجم وتناور وتتجمع وتذيع الأخبار وتتلقى الأسرار. كل ذلك فى الظلام، فإن أفلتت من الأسوار والأسلاك الشائكة وعقبات الطريق والموانع، ظهرت النتائج فى تخريب أو نسف أو تجمعات أو مؤتمرات أو مظاهرات تنبش ما فات، وتطالب باصلاح ما هو آت!!

صراع الظلام!! هذا هو صراع الظلام!!

مظلوم يا ظلام!! يغطون بك العورات يا ظلام!!

السرقة فيك، والاغتصاب فيك، والتآمر فيك!

حتى النظام يرتب للانقضاض على الفوضى فيك!!

ما أوسع ساحتك.. يا ظلام. تتسع لتنهدات العشاق، وصيحات المعذبين، وفيك دائماً مكان لنزوات الطيش، وللحسنات توزع فى الكتمان!

صراع رهيب هذا: صراع الظلام، وصراع الذكاء، وصراع السلطة، يصل إليها من يتقن اللعبة أكثر من سواه!

والناس موضوع هذا الصراع ومادته، ينظرون فى بلاهة وغباء. كأنهم فى سيرك أو حلبة يتفرجون على صراع بين الديكة، ويصفقون للغالب، ويسخرون من المغلوب!

آه لو تعرفون أن الصراع لا يعنى سواكم، وأنكم هدفه ومادته! هل كنتم بعد هذا تصفقون؟

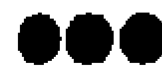
وآه لو أضاءوا الأنوار!

إذن ينتقل الصراع من تحت الأرض إلى السطح، ويستغنى النظام عن الظلام، ويستريح.

من يدرى، هل يقنع الثوار أم هل يثورون على الأنوار!!

وقد يثورون على أنفسهم، إذا لم يجدوا ما يثورون عليه!!

شىء محير يا ثوار ويا رجال النظام، هذا الخيار، بين النور والظلام!



وبينما هو كذلك، شارد عن الحضرة وعن الدنيا فى أفكاره وهواجسه، لاحظ أن عم "أبو المكارم" يدور حول الحضرة فى قلق، ويروح ويجىء، كأنما يريد أن يلفت نظر الشيخ إلى شىء.

ومرت به عيناه، فلم تلحظ شيئاً أول الأمر.

لكنه رآه يتجه نحو الشيخة فى مكانها الدائم خلف الحضرة، ويسر فى أذنها شيئاً، فتميل عليه فى اهتمام، فيميل عليها يشير بيديه إشارات سريعة وعصبية.

وخيل إليه أن صوت الساقية لا يسير بانتظام، وأن شيئاً غريباً غير مألوف يصدر عنها. وكلما كان يرهف السمع، كلما كان شعوره بغرابة ما يسمعه يتزايد.

ولم يطق الشيخ صبراً على ما يسمعه، فأسرع فختم الحضرة. وترك الشيخ مختار أن يتمها بقراءة بعض الأوراد والتسبيح بحمد الله سبحانه، والتوجه إليه بالدعوات، والصلاة على نبيه ورسوله صلوات الله عليه.

أما هو فقد استأذن بعذر طارىء، ثم تسلل بعد أن تخفف من زيه ولحيته، وعندما أخذ يعدو فى اتجاه الساقية، وجد عمه "أبو المكارم" فى رجليه.

لم يسأله ما الخبر؟ ما سر قلقة؟ ما هذا الصوت الغريب الذى يسمعه؟ ماذا جرى للساقية؟ حتى "أبو المكارم" لم يعبأ بأن يروى له شيئاً.

شىء ما هناك يقتضى الإسراع إلى الساقية، والمسدس فى يمينه متأهب للعمل، وأبو المكارم إلى جواره متأهب لمساعدته إذا احتاج إليه.

وخطوة خطوة ثم خطوة، وأوشك أن يكون هناك، فى ساحة الساقية.

على أنه بادر فأزاح عم "أبو المكارم" من جواره، ليخلوا له الجو، ويصبح قادراً على الحركة وحده. ان خوفه على عم "أبو المكارم" قد يعوق حركته.

وتريص المعلم بيومى، أو ممدوح، وتقدم نحو الساقية بحذر.

جمع كل حواسه فى عينيه، انه يريد أن يرى ماذا هناك. ومن هناك.

ما هذا؟ وكاد - لولا خطر الموقف يضحك!!

نعم ما هذا؟ ساقية تدور وحدها!! غريبة هذه المسألة!! هل صحيح؟ هل يمكن أن تدور الساقية وحدها؟ يديرها من؟ الجن إذن!! بسم الله الرحمن الرحيم!!

وحملق فى الساقية، فوجدها تدور.

لكن الصوت الصادر عنها، لا يزال غريباً عليه. ثم ان دوراتها ليست منتظمة، ومرة أخرى كاد - لولا غرابة ما يرى - يضحك!!

إذا كان الثوران لا يتعبان، ولا يتوقفان، فهل يتعب الجن؟ هل تتعب الشياطين؟ والا فما سر هذا الصوت المتقطع غير المتصل؟!

واقترب ممدوح، وخلفه كان عمه أبو المكارم يتبعه كظله.

واقترب، ثم اقترب، حتى فاجأته مفاجأة لم تخطر له على بال.ومرة ثالثة كاد - لولا توجسه مما يرى - يضحك!!

ناس! هؤلاء ناس! رجال يدورون فى الساقية!

رجلان - لا ثوران - يديران الساقية!

ورجلان - بلا عم "أبو المكارم" - يقفان حول مدار الساقية يحرسانهما!

وعجب!. ولكنه بسرعة أدرك أن وراء هذا سراً. وسحب عمه "أبو المكارم" إلى حديقة الساقية، وعرف منه، ما دار بهواجسه عندما رآهم يدورون بالساقية بدلاً من الثورين.

لكن من يكونون؟

هل لصوص عاديون وجدوا صيدة ثمينة، فلم يتركوها؟

لا يمكن، لصوص عاديون لا يمكن أن يقدموا على هذا العمل الجرىء. ان ثورين معلقين فى ساقية معناه أن هناك من يحرسهما غير بعيد من الساقية. ومعناه أن هناك من يرقب ماء الساقية ليروى به أرضه، ومعناه أن أصحاب الساقية أنفسهم يضعون واحداً يرقب الدور حتى لا يجور واحد على دور واحد سواه. كل هذه الظروف لا يجهلها اللصوص العاديون، أبداً. الذى فعلها واحد يألف هذه الناحية، ويعرف تفصيلات المكان وكيف تدار الساقية ومتى، ومن يكون هنا، ومتى يتغيب عم "أبو المكارم"، وأين يذهب، وفى الغالب يكونون قد تربصوا له حتى ذهب إلى الخص لبعض أمره، ثم عملوا "عملتهم" وعلقوا الرجلين بدلاً من الثورين. ويبدو أن تقديراتهم أخطأت فجاء عمى أبو المكارم قبل أن تنتهى المهمة تماماً.

من يا ترى؟ من فى هذه البلد صاحب مصلحة فى هذا؟

أى لص، هو صاحب مصلحة فيما يسرق.

لكن رائحة هذا العمل مختلفة!!

آ... هذه ليست مجرد سرقة. أبداً هناك أسباب غير سرقة الثورين.

وأسرع يسأل عم "أبو المكارم":

بهائم من؟ من صاحب الثورين؟ دور من اليوم للرى؟

وأدرك ممدوح كل شىء، عندما قال له عم أبو المكارم:

هى بهائم شيخ الخفر مدبولى! وشيخ الخفر مدبولى هو صاحب الثورين، ودور رى الأرض اليوم، هو دور مدبولى!

لقد سرقوا الثورين. كان فى الساقية ثوران، لكن الرجال سرقوا الثورين، وعلقوا بدلاً منهما رجلين ليخدعوا الغفر والغجر حتى يهربوا بهما. وطالما أن صوت الساقية يحمل الناس على الاطمئنان إلى أن كل شىء على ما يرام. إذن، لتستمر الساقية دائرة، وليستمر صوتها موصولاً غير مقطوع، إلى أن يهرب الرجال بالثورين إلى مسافة يستحيل على أحد أن يصل إليها ليضبطهم متلبسين، ثم يتركون الساقية، ولينكشف بعد ذلك الأمر، وليعرف من يريد أن يعرف!!

وأخذ ممدوح يفكر بسرعة: ماذا يفعل؟

هل يمسك بالرجال الذين يديرون الساقية؟

وخشى أن يتهربوا من الاتهام بصورة أو بأخرى. ما الدليل على صلتهم بالحادث؟ قد يدعون أنهم اضطروا. نعم أرغموهم على هذا ارغاماً. كلام سخيف غير مقبول؟ نعم، لكنه احتمال.

المهم الآخرون.

المهم الثوران، والذين يمسكون بمقوديهما، هاربين بهما. هذا هو الدليل الملموس. لكن كيف السبيل إليهم، وأين يكونون؟ أى اتجاه سلكوا؟ هل يجرى هنا وهناك؟ هذا تخبط. يا ربى!.. ماذا أفعل؟.. بركاتك يا سيدى يا ذكيرى؟.. أسرقة فى ساحتك؟ أسرقة فى غربتك؟ آ.. هذه غزبتك، وأنت مسئول عنها يا سيدى يا ذكيرى!

ولم يدر ممدوح ماذا يفعل، وأصابته حالة عصبية، فأخذ ينظر إلى يمين و إلى يسار، ويدفع عمه "أبو المكارم" من أمامه، ثم يعود يمسك بيديه ويسير به على حافة القناة المحاذية للحديقة. ثم جلس على حافة القناة يفكر.

ما الحكاية يا عبقرى!؟

سرقوك يا شاطر الشطار!؟

وهنا!؟ عند الساقية!؟

وضحك ممدوح من نفسه وهو يقول لنفسه على مسمع من عمه "أبو المكارم":

- كان لا بد من توجيه هذا السؤال من أول الأمر. لكن فاتتنى. هذه فاتتنى.

وجلس يقول لنفسه:

- مدبولى يعنى فرج النمس. لكن فرج النمس فى السجن، وقد جر معه فتوح الحاج قنديل، وعدداً من أشقياء الناحية، وكيف إذن يتسنى لفرج النمس أن يتصرف وهو فى سجنه؟

لكنه عاد يضحك من نفسه وهو ذكر حكايات الأشقياء فى هذه الناحية وغيرها من النواحى. عندما يمسك شقى بتهمة السرقة مثلاً، فإن زملاءه يسرقون الناحية كلها، ليقيموا الدليل على أن مسكه لا يعنى شيئاً، أو أنه برىء. وكثيراً ما نجحت هذه اللعبة فأطلق سراح أشقياء كثيرين. سذاجة من رجال البوليس، أو تخابث منهم، ليخففوا سيل السرقات بصورة أو بأخرى. إن كل ما يهمهم أن تخف الجرائم فى المراكز التى يتولونها، فى مدة عملهم بها. تنتقل الجرائم إلى الجيران لا يهم! تنتظر حتى ينقلوا إلى مركز آخر لا يهم! المهم أن يظهروا بمظهر الأبطال، والسلام!! وحكاية الشقى الذى أنجب غلاماً وهو فى السجن، ولم يداروا فعلتهم أو يستحوا فكتبوا شهادة ميلاد الغلام بينما كان الشقى نزيل أحد السجون!

يستطيع فرج النمس إذن أن يسرق بهائم مدبولى وهو فى السجن، كما استطاع سواه أن يعيش "فى التبات والنبات وأن ينجب صبيان وبنات"، وهو فى السجن!

لكن لا بد أن له أعواناً.

طبعاً لا بد أن يكون له أعوان.

بقية الأشقياء. لا بد أن يكونوا بقية الأشقياء، ممن لم يقعوا فى الفخ بعد، أو افلتوا لعدم ثبوت التهمة عليهم.

جائز، وجائز آخرون!!

وأخذ ممدوح يجهد فكره، يحاول أن يصل إلى أرجح احتمال.

قال ممدوح لعمه "أبو المكارم":

.. اسمع يا عم "أبو المكارم". الرجال الغرباء جاءوا الحضرة، تذكرهم؟ هل تذكر وجوههم؟ لا أظنك تذكر شيئاً، فقد أسرعت إلى لتخطرنى بما رأيته هنا عند الساقية. لم تلاحظ شيئاً عند الضريح. طبعاً، وما كان لك أن تلاحظ شيئاً، فقد أسرعت إلى لتخطرنى بما رأيته هنا عند الساقية. على كل حال هناك فى الحضرة رجال غرباء وفدوا علينا ونحن نذكر. هم بوليس. آ... بوليس! أنا عارف أنهم بوليس. أنا متخصص فى معرفتهم. أنا أشمهم يا عم "أبو المكارم"، هؤلاء أتوا.. لماذا؟ طبعاً لم يأتوا ليذكروا الله. لا يمكن! لم يأتوا ليشاركوا القرية الظروف التى تمر بها. طبعاً هذا شىء لا يهمهم! هم أتوا لشىء يتصل بهم، لا بد أنه شىء يتصل بجريمة من الجرائم. سرقة أو قتل... ألا ترى معى هذا؟ دعنا من التخمين. لنكن واقعين يا عم "أبو المكارم". هذه هى الجريمة أيكونون قد أتوا من أجلها؟ وماذا سواها؟ يا سلام!! وهم هناك فى الحضرة يذكرون، وآذانهم هنا عند الساقية. سرقوا البهائم وذهبوا بها بعيداً عنكم، وأنتم نائمون على آذانكم يا بوليس!! الله الله يا بوليس!! وأظن أنهم لا يزالون نائمين على آذانهم يا عمى! طالما أن صوت الساقية متصل، وطالما أنهم يسمعون الصوت، فكل شىء على ما يرام. الثوران، فى مكانهما، معصوبا العيون! والساقية تدور، وأبو المكارم الأخرس يدور خلفها. انتظروا حتى الصباح، وستجدون الثورين فى طنطا أو دمنهور، وأنتم هنا تنتظرون! يا بوليس!! صلاة النبى يا بوليس!! جل جلالك يا بوليس!! على كل حال يا عم "أبو المكارم" نستفيد نحن من وجودهم. كيف؟ أقول لك أنا كيف. تذهب إلى مديحة. فاهم؟ قل لها الموضوع كله، بصورة فيها اضطراب. صح. آ.. صح بكل ما فيك من قوة، ثم اتركها واجر نحو الساقية. سيجرون وراءك دون أى حساب. بوليس! طبعاً! عندئذ يمسكون هؤلاء الرجال، الذين يدورون بالساقية كالثورين، والذين يحرسونهم. كل هذا حتى لا يفلتوا، وإلا فإنهم سيفلتون، وتضيع كل معالم الجريمة. من يدرى ربما يعترفون بأسماء الآخرين،

إذا ضغط عليهم البوليس، ربما! فإذا لم يعترفوا فلن نخسر شيئاً يا عمى "أبو المكارم". ماذا سنخسر! أنا من جانبى، سأحاول أن أعثر على اللصوص متلبسين، أو على شىء آخر يفيد فى العثور عليهم. المهم لا يفلت هؤلاء. والله إن نجحت، يبقى الخير خيرين، فإن فشلت، فلا أقل من أن تمسكوا أنتم بهولاء الرجال فقد تكون هناك فائدة من وراء ذلك. أيه؟ أذهب أنا وأتركك فى رعاية الله؟ أم تريدنى أن أبقى إلى جوارك؟ أنا خائف على الوقت.الوقت يجرى، وقد تفلت منا كل الفرص، لكنى مستعد مع هذا أن أبقى معك. طمئن مديحة. إياك أن تضطرب أو تخاف. على كل حال إن كثيرين من رجال البلد سيجرون وراءك ووراء البوليس، وسيعرفون كل شىء، وسيشتركون فى القبض على الرجال. عندئذ يمكن أن يستمر خفير أو اثنان عند الضريح هذه الليلة. قل لها هذا حتى لا تخاف، أو تذهب هى وأبو عوف للمبيت مع الست راضية. هذا شأنها. هيه؟

أذهب أنا يا عمى "أبو المكارم"، سلام عليكم.

وذهب عم "أبو المكارم". كان يسرع الخطا، حتى يلحق بالحضرة قبل أن تنفض، وحتى يستثير فضول الرجال الغرباء، فيسرعون إلى الساقية، حيث يقبضون على الرجال الذين حلوا محل الثورين، ومحله هو فى الدوران حول الساقية.

وعندما وصل كان صوت الشيخ مختار يرتفع فى تقوى وبراءة، وهو يتجه إلى الله بالدعاء:

اللهم يا مغيث المستضعفين، أغثنا.

اللهم يا مجير المحتاجين، أجرنا.

اللهم يا ناصر المساكين، انصرنا.

اللهم يا رازق الخلق، ارزقنا.

اللهم يا هادى الضالين، اهدنا.

اللهم يا مجيب الدعاء، أجبنا إلى ما نرجوه منك

كان الصوت عميقاً، وكان يتهدج فى ضراعة، وكان يخترق شغاف القلوب، فتردد الشفاه وراءه مؤمنة على ما يقول، وخشى أبو المكارم أن يعكر صفو هذه الجماعة المؤمنة، فانتظر حتى فرغ الشيخ مختار من دعواته، وقبل أن يهب واقفاً يصافح الناس، انطلق الأخرس نحو الشيخة يصيح، ويشير إليها بروايته عن الساقية، وكيف اختفى الثوران فجأة، وهو فى الخص، وكيف حل رجلان محل الثورين، ووقف رجلان آخران لا يدرى إن كانا مسلحين أو مجردين من السلاح، حول مدار الساقية يحرسان.

وارتفعت صيحاته حتى صارت كأنها عواء الذئب.

وأخذ يقفز فى ارتباك وهلع، والشيخة تحاول أن تهدىء من روعه فلا يهدأ، وتحاول أن تستوضحه، فيردد الإشارات الغامضة عند أغلب الناس، ثم يقفز ويعدو حول الضريح كمن يستغيث.

وانزعج الرجال الغرباء، بل كانوا أول من انزعج. هبوا واقفين وأسرعوا إلى الشيخة يستوضحونها ماذا يقول الأخرس.

قالت الشيخة:

- إنه يحكى حكاية لا تصدق، ولولا أنى أثق به ثقة عمياء ما صدقته. أن ثورى الساقية اختفيا، وحل محلهما رجلان يديران الساقية!

وبينما كانت الشيخة تروى الرواية، كان أبو المكارم قد جرى نحو الساقية، فلحق به الرجال الغرباء، وأخذوا يجرون خلفه. لقد تملكتهم حالة من الفزع لما سمعوا، فأسرعوا خلف "أبو المكارم" ليروا ماذا حدث عند الساقية.

لكن "أبو المكارم" أشار إليهم أن يهدأوا حتى يضبطوا الواقعة، فلا يهرب الرجال، إذا شعروا بأنهم ضبطوا.

ومد "أبو المكارم" رجله خطوة، فمد الرجال أرجلهم خلفه، خطوة.

وبعد الخطوة، خطوة، وخطوة، حتى كاد المنظر يصبح أقرب إلى لعبة من لعب الأطفال!

ثم أطبق الرجال على مدار الساقية، وقبضوا على الرجال، من كان منهم يلف بالساقية، ومن كان منهم يحرسها. وكانت المفاجأة أنهم لم يقاوموا. لم يتهربوا، حتى الاحتجاج لم يكن له وجود بينهم! وزادت المفاجأة عندما وجدوهم يضحكون!! بل يقهقهون!!

وكان عباس العمدة، ومدبولى شيخ الخفر قد لحقوا بالرجال، وخلفهم الخفر وأهل القرية.

وأخذ عباس يتطلع إليهم، يحاول أن يتعرف عليهم.

كذلك فعل مدبولى.

لكن تطلع العمدة أو شيخ الخفر لم يجد فى معرفة من هؤلاء. إنهم غرباء ليسوا من أهل البلد. بل هم ليسوا كذلك من أهل الناحية. أشكالهم كانت مخيفة ومزعجة. كل شىء فى وجوههم كان ينطق بادانتهم. فاجرون! هؤلاء فاجرون، اعتادوا على أن يؤجروا لأى شىء، حسب التسعيرة. لا مانع عندهم من القتل، طالما أنه بثمن، ولا مانع من السرقة، ولا مانع من النصب. كل شىء مباح، بالثمن!! وهز عباس رأسه.

- أين البهائم؟ أين ذهبت البهائم؟ أين ذهبتم بالبهائم "يا بهائم"؟ لكن أحداً منهم لم يجب بحرف. فتقدم نحو أحدهم وأمسكه من كتفيه، وأخذ يهزه فى عنف وفى عصبية وهو يقول:

- انطق، أين البهائم؟ أين ذهبت؟ تكلم يا كلب.

وأصيب الجميع باضطراب شديد.

ومر على خاطر كل منهم هذا السؤال:

- لكن أين البهائم؟ البهائم أهم من مسك هؤلاء. البهائم يجب أن تعود. يجب أن نعثر عليها، ولن يجدى مسك هؤلاء فى اعادتها إلى الساقية. لكن ماذا نفعل وكيف نتصرف؟

نفس الخاطر كان يمر بالعمدة، لكنه عاد يسأل فى حدة:

- من أنتم؟ من تكونون؟ من أى داهية؟ تكلموا . أجيبوا .

وانشغل الناس عن الناس الغرباء الذين جاءوا إلى الحضرة، ثم أسرعوا معهم إلى الساقية، ثم أمسكوا بالرجال حتى لا يفروا. لم يعد أحد يفكر فى شىء عنهم.. إنهم ناس والسلام، وليس الوقت مناسباً لسؤال أو لفضول.

العمدة كان كالفرخة المذبوحة، يروح ويجىء حول الساقية، يريد أن يجد وسيلة يهتدى بها إلى البهائم. أين تكون؟ إن السكوت عليها يعطى السارق فرصة أوسع للفرار بها . إن ترك الأمر على هذه الصورة يزيد من احتمالات فقدها إلى غير رجعة.

هذه مصيبة!! والله مصيبة!!

بهائم شيخ الخفر تسرق من الساقية هكذا!! ونحن هنا، نذكر الله عند الضريح!! ماذا ينقص بعد هذا؟ أن يحملونا نحن إلى حيث يريدون!! أن يسرقو نساءنا!؟ أن يدخلوا بيوتنا يعبثون كما يريدون!!

وذكر منظر الرجلين اللذين كانا يدوران بالساقية فأمسك بواحد منهما من ذراعه فى شدة وصاح فيه:

- أنت يا بهيم، يا ثور. أين الثور الذى أخذت مكانه؟ تكلم يا ندل. أين الثور؟

ولم يرد الرجل الثور!

فاتجه إلى زميله، الثور الثانى! وصاح فيه:

- وأنت؟ أين الثور الثانى؟

لكنه أمام هذا الصمت عاد يضرب كفا بكف وهو يقول:

- أيه؟ نسيتم الكلام؟! خرستم؟! أو صرتم بهائم؟! طبعاً تحلون محل الثورين، ولا تصبحان مثلهما؟ والله الثوران أحسن.. بكثير!

وأصابته حالة عصبية فأخذ يزجرهما ويدفعهما ويصيح:

- أنا عمدة البلد، ولا بد أن تعود البهائم، سأحبسكم يا كلاب. سأجلدكم. سأكوى جلودكم بالنار، لكن لا بد من عودة البهائم. هل تستهينون بى لأنى رجل متساهل؟ هل لا بد لكم من سلطان وغضبان و"أبو سريع".

هل لا بد من كرباج يشوى جلودكم؟ حاضر! أستطيع هذا .هذا سهل يا بهائم.

وتردد صوت يجلجل بين الحقول، هائم على وجهه بين المزارع، كأنه صدى قادم من بعيد.

بهائم ربنا... أتعلمون! إنهم بهائم ربنا.

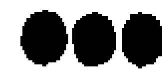
وساد الصمت، ليفسح المجال للصوت القادم من بعيد:

- "وليه خايفين؟.. بهائم!! بهائم ربنا!! سترجع بهائم ربنا.. يا بهائم ربنا..!! اطمئن.. يا عمدة.. يا عباس. أنت أيضاً منهم.. من بهائم ربنا!!

وترددت ضحكات المجنون.. شيخ البلد المجنون، وهو يعدو بين الحقول ويضرب أعواد الزرع بعصاه!!

ونظر كل إلى الأخر.

العمدة تسمر فى مكانه، وشيخ الخفر جمد لا يتحرك، والفلاحون لم ينبسوا ببنت شفة، والناس الغرباء الذين جاءوا لذكر الله، عجبوا وتبادلوا النظرات وهم لا يدرون من مصدر الصوت، ولا من يكون، لكنهم وجدوا الجمع المحتشد يستقبل هذا الكلام ساكتاً صامتاً، فلم يجدوا مبرراً لأن يشذوا عنهم.



كانت الأمسية جميلة. النسيم رقيق وعذب، ومياه الرياح تسير فى رفق تداعبها وريقات الصفصافة، فيكون لذلك حفيف كالمناجاة أو كأنه آهة عذاب لذيذ!

وكان ممدوح وحده متخفياً هناك عند الصفصافة لا يراه أحد.

كان يكتم أنفاسه حتى لا يشعر به أحد، وكان يرقب كل شىء ويرى كل شىء، ويقول لنفسه:

أهذا وقته؟ أهذا وقت الشعر يا شاعر النحس أنت؟! صحيح الدنيا جميلة، والطبيعة الآن رائعة.

إنها تكاد من روعتها أن تتكلم. إنها تكاد من رقتها أن تطير. بل أنها لتكاد مما فيها من ابداع وامتاع أن تصبح نوعاً من الطعام له مذاق.

لكن هل لا بد من أن يلوثها هؤلاء... البهائم؟!

أكان لا بد من مثل هذا الزحام حول الساقية، وهذه السرقة للثورين؟ وهذا التحرى عمن يكون السارق؟!

أفما كان أبدع أن يسود الآن هذه الساحة صمت رائع، أبلغ من كل هذا الهراء؟!

أفما كان أروع أن يسرى فى أوصال هذه الطبيعة الساحرة نوع من الخدر يجعلها حلماً؟!

يا ربى.. لماذا؟

لماذا يفسد الناس ما خلقته أنت؟

أنت أقمت هذه الطبيعة هنا، ونسقت الماء والخضرة والشجر والساقية، وأصوات العصافير، وانحناءات فروع الصفصافة على صفحة الرياح.

أنت أبدعت هذا كله، لينعم به الناس، لكنهم بدلاً من أن يتذوقوه، أفسدوه! هذه الأصوات العالية تتنافى مع سحر الصمت الذى يتخلله حفيف. وهذا الشجار وهذا الحوار يلوث قدسية المكان الرقيق!!

الناس يا رب يرثون الأرض، ليشعلوا فيها النار!!

لكن.. سامحنى. سامحنى إن قلت لك فى ذلة العبد المطيع الذى يتملكه الولاء: الناس أيضاً من صنعك يا ربى!! أنت صنعت الناس. أنت أقمت مع الطبيعة الناس. أكان لا بد من ناس؟!

ويقول ممدوح لنفسه يراجع نفسه:

- يا ولد استح!! عيب هذا الهراء!! والغباء!! اتق الله واستح! وشعر ممدوح أنه يعانى حالة تناقض فى داخل نفسه، تمزق نفسه.

وشعر أنه محتاج إلى بضع دموع ترطب النار فى قلبه.

وقال لنفسه وهو يمسح الدموع من فوق خديه:

- أنتهى من هذه المهمة، وأذهب إليها: خضرة الحلوة... فهى وحدها التى تتسع لهواى ونزقى. هى التى أنسى فى ومض عينيها ولهب عواطفهما همسى وعذابى. هى الحب والحمق، والعقل والطيش. هى الهوى بكل ما فى الهوى من اندفاع.

أنتهى من هذه المهمة، وأذهب إليه: جلال الرائع... ابنى وسر وجودى، فهو وحده الذى يملك أن يستعبدنى ويستبد بى. هى سيدى وآمرى ومالك أمرى.

وقبل أن يختتم هذا الحديث مع نفسه، متمنياً أن يفرغ ذات يوم، من هذا الهم الثقيل، ليعيش كما يعيش سائر الناس، يأكل ويشرب ويلبس، وينجب الأولاد، ويزرع ويقلع ويتمتع بالحياة، بلا متاعب أو مشكلات.. بلا شيخة أو ضريح، وبلا كلية حقوق وقهوة المنيرة وخرابة النداهة.. بلا انجليز ومتعقلات وبوليس سياسى ومحكمة وضرب رصاص فى الفاضى والمليان.

قبل أن يختتم الحديث بهذا بدأ يسمع ما توقع.

إن "ممدوح" قد أرسل عمه "أبو المكارم" برسالة إلى الشيخة تفيدة عند الضريح، والحضرة هناك لا تزال قائمة، يقودها الشيخ مختار.

ممدوح قال لعمه "أبو المكارم" أنه ذاهب ليرى كيف السبيل إلى القبض على اللصوص، متلبسين بسرقة ثورى شيخ الخفر.

لكن ممدوح كان ينوى شيئاً آخر. لم يكن بنيته أن يذهب هنا أو هناك وإنما قال لنفسه:

- اسمع يا ولد. المجرم عادة يطوف حول مكان جريمته. إن شيئاً ما يربطه بهذا المكان. وهو دائماً حريص على أن يعرف ماذا يجرى فيه.

وهؤلاء: الرجلان الثوران! والرجلان اللذان يحرسان.

هؤلاء بهائم، كالثورين المشدودين إلى الساقية، وأخرسان كعم "أبو المكارم".

وهم ليسوا الفاعلين الحقيقيين. هم بهائم كما قال شيخ البلد، استعملهم الفاعل الحقيقى، ليضلل بهم الناس، وينال فرصة واسعة للهرب بما أخذ.

لكن من يا ترى يكون هذا اللص؟

طبعاً لا يمكن أن يكون مجرد لص ما يقع فى يديه.

إن سارق الثورين له هدف أبعد من السرقة. إنه يريد أن يغيظ القرية كلها، ويغيظ شيخ الخفر مدبولى على الخصوص.

وفرج النمس هو الوحيد صاحب المصلحة فى هذا.

لكن فرج النمس سجين. فرج النمس إذن له أعوان يريدون أن يؤكدوا للناس أن يديه لا تزالان قادرتين على هزء من القرية، وسرقة مواشى أكبر رأس فيها أو ثانى رأس أو ثالث رأس. المهم أنه رأس كبيرة وقادرة ولها قوة واحترام.

ماذا يا ممدوح؟ هل يكون السارق واحداً من رجال النمس؟ واحداً من أشقياء الناحية ممن تعاملوا من النمس ولم يقعوا معه؟ واحداً ممن أفتلوا من العقاب، أو واحداً من الذين يعطفون على النمس دون أن يكون شريكاً أو شقياً أو لصاً؟

وقال ممدوح لنفسه:

– على كل حال، وأياً كان هذا الفاعل فسيعود إلى الساقية ليطمئن على أعوانه ورجاله، وليتصل بالمكان الذى كان مسرحاً لجريمته.

نعم سيعود.. لا بد أنه سيعود.

لكن متى يعود؟ قد لا يعود الآن، وقد لا يعود غداً، وقد تتأخر عودته أياماً. هل سيظل معلقاً حتى يعود، إذا عاد؟

فإن حدث شىء لأعوانه، أو إن تصور أن شيئاً حدث لهم، فهلا يعود، ليطمئن عليهم؟

لكن من أدراك أنه قريب من هنا، يعرف ما يحدث لهم؟

وقال لنفسه إن لهؤلاء الأشقياء آذاناً تتسمع كل ما يدور، ولا بد أن أى شىء يحدث لهؤلاء سيبلغ إليه حيث يكون.

لكن هل يجىء؟

فى الغالب يجىء.

فإن لم يجىء هو ويعث بآخرين عنه.

وهذا أيضاً شىء له أهميته. أن نضع أيدينا على أعوانه، شىء هام... جداً.

فإن جاء مع آخرين. أو بعث آخرين كثيرين قادرين على أن يلحقوا الأذى بك، وأنت هنا وحدك.

لكن الرجال. كل رجال القرية سيكونون هنا. العمدة وشيخ الخفر وكل الناس. حتى الرجال الغرباء سيكونون هم أيضاً هنا غير بعيد.

واستقر رأى ممدوح على أن يستعين بأحد.

وسأل نفسه:

– أى أحد؟

هل يبلغ المعلمة؟

هل يترك المكان، ليبلغ الصيادين عند المحطة؟

وقال لنفسه:

- أسرع الحلول الآن أن يبلغ سبيلة الغجرية بصورة أو بأخرى، ويطلب منها أن تبلغ أهلها الغجر.

وعندما مضى فى ناحية توقع أن يجدها فيها، فى آخر زمام القرية، حيث تكون هى وأهلها فى حراسة المحاصيل.

وقبل أن يقطع إليها مسافة طويلة وجدها. وجدها أقرب إليه مما توقع.

ولم يجدها هذه المرة مع سعد، ولا مع أحد من أهلها الغجر.

أبداً، لكنه وجدها مع شاب صغير جميل يافع. وكان يقف خلف الشاب عدد من الفلاحين.

وعجب لما رأى.

واستبعد أن تكون سبيلة الغجرية تخون حبيب عمرها "سعد"، لكنه هز رأسه فى حيرة وانتظر يسمع ما يقال.

ولم يكن ما يقال سهلاً. لم يعرف منه شيئاً.

- أنت تنتظر هنا، إياك تبعد عن هنا.

- والرجال؟

- وزعهم فى هذه الناحية، واحد هنا وواحد هنا وواحد هنا.

- وأنت؟

- وأنا سأذهب إلى الخص، وسأراك هناك بعد قليل.

- فى الخص؟

- آ.. الخص مهجور. عم "أبو المكارم" لا يستعمله إلا نادراً.

- لكنه قد يعود.

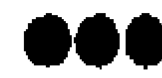
- فإن عاد، فهو أخرس.

- وماذا بعد ذلك؟

- يفرجها ربنا.

- لكن لا بد أن أعرف. إن معى رجالاً آخرين، وقد اتفقت معهم أن يتصرفوا. إنهم يدرسون المكان وسيكونون مستعدين قريباً من الساقية.

- شوف... سأتركك فى الخص وأتسلل أنا لأرى ماذا هناك، وإن وجدت شيئاً، سأصرخ... إذا سمعت صراخى، فأسرع إلى.



ولم يفهم ممدوح شيئاً محدداً، لكنه شعر أن سبيلة تعلم ماذا حدث عند الساقية، أو كانت تعلم أن شيئاً سيدير عندها.

لكن من هذا الفتى الجميل؟

إنه يذكر صوته. ان وجهه لا يتضح له تماماً. إنه يرتدى ملابس فلاح من أهل هذه الناحية.

وقطع ممدوح أفكاره وعاد سريعاً إلى مكانه من الصفصافة يرقب ماذا يريد هناك. كان لا يزال فى جبة الشيخ وقفطانه، وإن كان قد خلع ذقنه وشاربه.

وعندما وصل إلى الساقية، وأحس أن شيئاً ما لن يكسر صمت الرجال، وأن كل عصبية العمدة عباس تذهب سدى.

عندئذ قال لنفسه:

- لا بد من شىء يثير الفاعل الحقيقى أو أعوانه، ليسرعوا إلى هذا المكان. لا بد من عمل، لابد من أن يشعر الفاعل الأصلى أن أعوانه قد صاروا فى خطر.

وعاد يهز كتفيه فقد يكون كل ذلك عبثاً.

وبدلاً من أن يستمر يأخذ ويعطى، ويتحدث إلى نفسه هذا الحديث، أطلق ممدوح الرصاص من عدة اتجاهات، فوق رءوس الرجال.

كان يريد أن يثير لدى الذين دفعوا الرجلين الثورين! إلى هذا العمل، أنهم فى خطر، وأنهما معرضين لأن يقتلا. من يدرى قد يسرعون إليهما لنجدتهما. قد يهرعون إليهما لانقاذهما من الخطر.

وصح ما توقعه ممدوح.

لقد سمع على اثر اطلاق الرصاص، وقع أقدام تسرع نحو المكان. لم يكن وقع قدمى رجل واحد، ولا رجلين، لكنه كان وقع أقدام رجال مسرعين إلى هذا المكان.

وقال ممدوح لنفسه:

تبقى مصيبة لو أنها سبيلة ومن معها من الرجال. ان هؤلاء ليسوا مطلبى. ووثب إلى مكان مظلم عند جذع الجميزة وأخذ يطل هنا وهناك.

وكانت سبيلة فى مكان آخر ترقب مثله، فاختفى بعيداً عنها، وأخذ فى اطلاق الرصاص من هنا وهناك، فوق رءوس الرجال.

وأخذ يرقب...

ووجد الرجال الذين ينتظرهم قادمين ملهوفين، وفى أيديهم بنادق، وفى عيونهم شر وشرر.

وكان يتقدمهم سلطان بن الحاج غضبان، كبير أسرة آل سلطان!!

وفى اللحظة نفسها، ظهرت سبيلة، ومعها الشاب الفلاح وفى يده مسدس سريع الطلقات.

وأطل ممدوح فعرفه، وكاد يسقط من هول المفاجأة.

إنه الضابط محمود محجوب، وحوله عدد من العساكر فى ملابس فلاحين وهذا الواقف أمامه سلطان بن غضبان.

الضابط والمتهم متقابلان!

وبين غشاوة الدوار الذى أصابه، نظر فوجد عم "أبو المكارم" يمد يده إليه.

قال له ممدوح: أتراهما؟

فهز له رأسه.

قال له ممدوح: وتعرف من يكونان؟

فهز له رأسه.

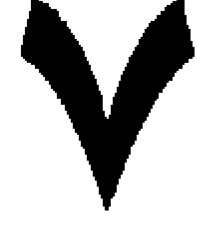
فهز ممدوح له رأسه هو الآخر... وفقد القدرة على الكلام!

وتاه فى تصورات بلا حدود عن الحاج غضبان وأم الشحات، والزوجة البندرية الحلوة التى أنجب منها هذا الضابط محمود محجوب، وعن وثيقة الميراث التى كانت فى أوراق الشيخة تفيدة حتى سرقها شيخ البلد المجنون، وكشفها العمدة عباس.

وكاد يصحو من شروده ليصيح فى العمدة عباس كما يصيح فيه شيخ البلد المجنون:

- أنت أيضاً من بهائم ربنا.

□□□



لم يكن واحد منهم قادراً على الحركة، ولا على الكلام!

وبدت هذه القطعة من الدنيا تكتم أنفاسها من الرهبة!

حتى الشجر لم يعد يهتز أو يتمايل!

حتى الطيور، لم تعد تصدح، أو تغنى، أو تبتهل!

حتى مياه الرياح، لم تعد تتحرك، ولا خدها تركته للمسات النسيم!

نعم وبدا أن الحياة وقفت هنا، بلا حركة ولا كلام.

وسرى فى الجمع شعور بهيبة الطبيعة. الموقف الجليل هذا، الجم الألسنة وكتم الشفاه، والروعة الصامتة هذه شحنت كل شيء بالترقب والانتظار.

وأخذ ممدوح كعادته يحدث نفسه، وهو لا يزال بعد تائهاً لا يعرف رأسه من قدميه :

- هذا جمود، بلا حراك. موت. هذا موت.

- بل حياة، كأخصب ما تكون الحياة!

- وهذا السكون؟

- حياة.

- وهذا الصمت؟

- حياة.

- لكن الحياة حركة دءوب لا تهدأ.

- والسكون جزء من الحركة، فأنت لا تعرف الحركة إلا من السكون.

- والحياة أحاديث ومعانى لا تسكت، ولا تصمت.

- والسكوت والصمت جزء لا يتجزأ من الحديث، وبغير الصمت لا حديث.

- كالأبيض والأسود؟

- والخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

- وماذا أيضاً؟

- وأشياء كثيرة، كثيرة جداً. بل ككل الأشياء تتكامل فى كيان كبير هو الحياة.

- فلسفة.

- بل واقع ملموس.

- الواقع هو أن السكون سكون، والحركة حركة.

- وأن الكلام كلام، والصمت صمت.

- هذا هو الواقع.

- هل ترى من هنا هذه الغصون الذابلة؟

- نعم وهى لا شك تثقل حمل الجميزة العتيقة.

- أنت قد ترى أن سقوطها يخفف حملها عنها.

- بل ويعطى الجميزة فرصة استقبال غصون أخرى يافعة ورائعة وخضراء.

- بل ستبقى لتزيد من نضرة الجميزة ومن روعتها.

- حينئذ لا تكون الجميزة جميزة.

- ماذا تكون إذن؟

- شئ آخر مرسوم. ميت!!

- ميت!! ما هذا؟ عندما تزيد نضرتها تموت؟!

- لأنها لا تكون هى، وإنما تكون شيئاً آخر.

- هذا ما لا أفهمه.

- يا بنى الجميزة هى هكذا. غصن أخضر، وغصن جاف. فرع جديد فتى، يخترق الفضاء إلى السماء، وفرع آخر ذابل ضعيف، يتوكأ على الجذع العتيق، كما يتوكأ العجوز على عصاه. هى هكذا. يسقط الغصن الذابل الأصفر العجوز، فيحل محله فى الذبول والاصفرار والعجز، غصن أخضر من تلك الأغصان الفتية، بعد أن تكون قد بلغ منها التعب مبلغه، وهدت رحلة العمر قواها. أما أن تصبح الجميزة كلها غصوناً خضراء رائعة، فذلك مستحيل، كما أنه مستحيل كذلك أن تصبح الجميزة كلها غصوناً ذابلة مجهدة، تتقطع أنفاسها!

- لا أزال أقول أنها فلسفة!...

- بل واقع.. دع الجميزة. أترى؟ ماذا هناك؟

- قبة سيدى الذكيرى.

- وقبور كثيرة منثورة هنا وهناك. ألا ترى قبر جلال. حتى هذا لا تراه!!

- أستغفر الله. بل هو ملء عينى وقلبى دائماً.

- هل هذه القبور جزء من هذه القرية؟

- بل هى جزء من الحياة الأخرى.

- وجزء من الحياة الدنيا كذلك.

- ما هذا؟. وهذا أيضاً غصن ذابل؟

- بل غصن وقع. ذبل وجف ووقع. ومع هذا...

- ومع هذا فهو جزء من حياة القرية!

- لا تسخر. بل من أعز حياتها.

- الحياة والموت يجتمعان!

- ويتصارعان، ويتصالحان، ويتنافران، ويتعاونان.

- وقد يتصاهران! آ... لم لا؟

- اسمع. من صنع هذا الصراع الذى تراه؟

- الناس. هؤلاء الناس. سلطان هذا الأحمق وجماعته.

- وسلطان هذا الأحمق، من أين له هذا التعصب الأحمق؟

- من نزفه وطيشه وتعصبه...

- تعصبه لماذا؟

- لأسرته وأقاربه وأصهاره.

- ولعظم التربة.

- آ.. جائز.

- بل قطعاً يا ممدوح. إنه يتعصب لتاريخه ويعتز بأصل أسرته.

- ثم ماذا؟

- ثم يندفع دفاعاً عن هذا التاريخ، وتعبيراً عن السر الخفى الذى يربطه به.

- وتكون النتيجة... هذا؟!

- نعم هذا الصراع. الذى يحرك هذا الصراع هناك.

- فى "الترب"؟!

- آ... فى "الترب"!

- غريبة... هذه أمور غريبة.

- التسامح أيضاً من "الترب".

- تعنى التساهل... والتفريط.

- لا لا. بل هو تساهل. إنهم يأخذون العظة من "الترب".

- من الذين ذهبوا فى سلام.

- نعم وذهبت معهم المطامع.

- ولم يصلوا من صراعهم إلى شىء.

- إلا هذه "الترب" الصغيرة حول ضريح سيدى الذكيرى.

- وهم لا ينسونهم أبداً. لا ينسون هذه "الترب" كذلك.

- حتى وهم يفرحون، لا ينسون.

- فى العيد أو المواسم لهم فى أعناقهم زيارات لا تنقطع.

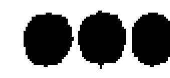
- بل وفى الأفراح، يكونون أول من يزار.

- وهذا معناه أن هذه "الترب" جزء من حياة القرية.

- من وجود القرية. وهى جزء عزيز جدا، يحرك المشاعر.

- أكثر مما يحركها الأحياء.

-.. بكثير!!



وعلى عكس هذا الجمود، كانت القرية، عندما عرفت بما هناك عند الساقية.

ارتفع صياح النسوة، وتعالى نحيبهن، كأنهن فى مأتم.

مـسكينة أنت يا ست الناس بينهن. كلهن أهلك وقـريبـاتك، وهذا النواح الذى يطلقنه موجه بعضه إليك!!

لكن الله أنزل سكينتـه عليك، فـأخذت تتطلعين إليـهن فى هدوء، وتشـيحين بوجـهك السمح عن وجوههن المحتقنة الغبية.

هذه "بالوظة"، جميلة البـالوظة، تتحـرك كأنها تتدحـرج! منفوخة كـأنها كيس قطن مسروق! وتصيح فتخرج صيحاتها عريضة كرقبتها! صوتها خافت كأنها تهمس، لا لأنها تهمس، ولكن لأن الدهن حول رقبتها يمنع صيـاحها من الانطلاق. بطة "مـزغطة"، هذه المرأة!

إنهـا زوجة عـمك يا بنت. تحـمليهـا. تحـملى هذا الفـحيح السام، تنفخـه ثم تبلعـه، وعيناها المنتفختان تكادان من الاحتقان أن تقفزا مع الفحيح السام!

قالوا لها: سلطان، ابنها الوحيد سلطان.

فلم تسـأل مـاذا عن سلطان!! انهم لا يقـولون لهـا اسـمـه، إلا إذا كـان ذلك شـراً. لا بد أنهم أمسكوه، أو ضـربوه، أو قتلوه! يا سنـة سودة! سلطان يا حبيبى. سلطـان يابنى وحبة عينى. سلطان، أين أخذوك يا سلطان؟ ومـالك أنت يا وحيـدى يـا بنى. دعـهـا تتـزوج أو تتجنز ولا تضح من أجلها شبـابك. أنا محـتاجة إليك يا بنى، إمـرأتك وأولادك أحق بك يا حبيبى.

لكنك يـا ست الناس لم تهـتمى بما تسـمـعين، وتظاهـرت بأنهـا لا تعنيك بهـذا الكلام الفارغ.

لكن هذه الأخرى، عيوشة. ماذا دهاها؟

إن صوتها يخرج رفيعاً حاداً، من رقبة ممطوطة، كأنها الأرغول المكسور!

البالوظة صوتها مكبوس، وهذه صوتها طويل "وهـايفـ"!!

إنها تنطلق هى الأخرى فى صياح كأنه أذان الديكة الجائعة! وتولول مع ضرتها البالوظة، ليتكون منهما معاً نداء المتسولين أمام مسجد قديم مهجور! وعندما ذكروا سلطان شردت هى فى بنتها نعمت، وبرغم أن بنتها أمام عينيها إلا أنها أخذت تندب مع ضرتها، وتبكى "سلطان ونعمت" معاً. لا هى تعرف لماذا تبكى ضرتها، ولا هى تريد أن تعرف، إن ضرتها بكت فبكت معها، وندبت فندبت معها، وولولت معها، وخافت على غضبان، فخافت على نعمت معها!!

وهى الأخرى تنظر نظراتها الخبيثة إلى ست الناس، لكن ست الناس لا تعيرها اهتماماً.

طولى بالك يا بنت. هى أيضاً زوجة عمك، وإن تكن ذكراً!!

لكن... حتى أنت يا نعمت يا بنت عمى، يا زوجة أخى المجنون!!

حتى أنت يا حماة ابنى المرحوم أدهم، ضحية زوجك وأخى سيد!!

حتى أنت تنضمين إليهما!!

لماذا يا نعمت؟ إنك كالخزين المسوس، فارغة من الداخل!! شكل!! صورة!! أما حقيقتك فلا شىء!!

والله الأرملة أحسن منك. أنا أحسن منك. أنا على الأقل أرملة. زوجى مات وأصبحت وحيدة، وعارفة أنى وحيدة، بلا رجل ولا مسئولية. لكنك أنت مسكينة. الرجل أمامك، موجود. وغير موجود! زوجة وأرملة! كأنك نداهة!! يا نداهة آدم يا مسكينة وناشفة، كالأرض الشراقى!

أخوك. سلطان أخوك. سمعنا وأطعنا.

ألم تعرفى ذلك إلا الآن. طول عمرك تكرهينه، وطول عمرك تتمنين له الموت، والآن أصبح نور عينك، وروح قلبك، وحياتك؟ جائز! من يعرف؟ أنا أيضاً كنت مثلك!!

يا ست الناس اصبرى. كونى أعقل منها.

وهذه الصغيرة!! هى أيضاً قادرة على هذا الكلام؟

والله لولا أنك زوجة ابنى، أو أرملة ابنى، لكنت مسحت بك أرض البيت. لكنى أكرمك من أجله. من أجل عظم التربة يا ملعونة. يا ست الناس. إنها كبنتك.

بل هى كأمى! لم يكذبوا لما سموها نبوية، وصارت نبوية!

لكن أنا أستاهل كل هذا. أنا اخترتك لأدهم، لتكونى زوجة لابنى، ولتكونى كذلك بنتى. يا خسارة. الولد ضاع، وبقيت أنت! م إلى أنا! هل أنا التى أخذته؟ ربنا أخذه، وأبوك قتله، ثم تكرهيننى أنا؟ اكرهى أباك. اكرهى القاتل يا بنت قاتل زوجك يا مسكينة. لكنه أبوك! أين تصرفين حقدك؟ فى أنا!!

اصبرى عليها يا ست الناس، من أجل أدهم وابنه "أبو سريع" الصغير، ثم هى، كأنها الغندورة بنتك.

بل هذه هى الغندورة بنتى. إنها جنت هى الأخرى. إنها تصيح وتولول وتبكى وتندب، وتصب على غضبها كله.

يا بنتى هل أنا التى طلبت من زوجك أن يسرق ماشية العزبة؟

لكن الغندورة تنسى كل شىء، ولا تذكر إلا أنهم أخذوه منها، وأنها أصبحت وحيدة مهجورة، كأنها أرملة.

كنا مرتاحى البال، طوال وجودك فى السراى الصفرة.

ليتك ما جئت. جئت بالنحس والتعاسة والبؤس.

ارجعى يا أمه، ارجعى!!

ارجعى يا مجنونة إلى المورستان، فقد تعود إلينا سعادتنا.

لكنك يا ست الناس لم تردى، ولم تعيرى هذا الكلام التفاتاً. كنت تتمزقين وأنت تسمعين هذا، لكنك كنت تتجاوزين عن هذا الصغار، وتصمتين فى هدوء وكبرياء.

أى هدوء وأى كبرياء؟

والله لولا أن أختك درة زمانها جاءتك، وانتزعتك من هذه العصابة المجنونة ما كنت قادرة على أن تحافظى على هدوئك أكثر مما فعلت.

لقد ذهبت إليها بعض نساء القرية وقلن لها:

أختك يا ست. يا امرأة العمدة. أختك محتاجة إليك.

ولم تستطع درة زمانها، برغم ما تراه من بنتيها الغندورة و"ست أبوها" أن تقاوم قلبها، فأسرعت إليها، وأخذتها فى حضنها، وعادت بها إلى دوار العمدة بين شتائم لا تنتهى وسباب لا يتوقف، وسخرية رخيصة حانقة.

لكن الأختين تحملتا ذلك، ولم تهتما به، وإن كانت الألفاظ التى التقطتها آذانهما، وهما تغادران بيت "أبو سريع"، كانت جارحة ومهينة:

- "حاسبى اللى وقع منك".

- إلى أين؟ تحتميان فى دوار "البيه"؟!

- "السكة اللى تودى أوسع ماللى تجيب".

- خديها للعريس، يمكن "ينوبك منه حاجة"!

- آه يا أولاد سلطان، يا فجرة، يا كفرة.

- هو اللى احنا فيه من مين؟ مهو قعد لنا منكم!!

- قتلت أمك! هو احنا أغلى من أمك؟!

- لازم تخلص علينا. واحد واحد!! وواحدة واحدة!!

لكن ذلك كله مر. ست الناس نزلت عليها السكينة، فلم تحرك لهذا كله ساكناً، لكن درة زمانها هى التى كانت تغلى. كانت تريد أن تدخل معهن فى عراك، لتفهم كل منهن مقامها.

حتى هذه الناقة، عيوشة أبليس!!

أو تلك "الكبة"، بالوظة الماسخة!!

وأنت يا بنت عمى، الشايب أبو عين فارغة!!

أو أنت يا أرملة يا بنت المجنون!!

اسم الله على الشريف الرضى "أبو سريع"، أبوك يا غندورة النحس، يا أم لسان برىء منك!! لن يعود لك. النمس أخذوه. حبسوه. استرحى وأريحينا!!

لكن درة زمانها أمسكت لسانها، ولم تقل شيئاً.

وعندما وصلت الأختان إلى دوار العمدة، وجدتا هناك جمعاً من نساء القرية فى انتظارهما. الست السيدة بنت العمدة القديم وأرملة العمدة غضبان كانت هناك. أم الشحات كانت هناك. حتى عطية الله أرملة ممتاز بن سلطان الذى ذهب خطأ فى شربة ماء أسرعت لتطمئن على عمتيها.

لكن السكينة التى كانت قد نزلت على ست الناس زالت فجأة. وفجأة انهارت، فأخذت تبكى فى حرقة، وتندب هذا الحظ التعس الذى لازمها!

وحاولت أختها أن تهدئها، لكن الأسى كان أقوى من أختها.

حتى فرحتى كانت مصنوعة! حتى بسمتى كانت زيفاً! كذلك كانت مسروقة!! ما كان أتعس لحظات سعادتى!! فى الظلام، والرعب، والخوف من أن يفاجئنى أحد!! واللحظات المشروعة فى حياتى. سعادتى الشرعية كانت أليمة، لى وله على سواء. وكانوا يحسدوننى عليه، شيخ خفر بشوارب كالحديد! الناس أمامه ضفادع، لكنه أمامى كان قرداً. كنت أعلم أنى لست له إلا مركزاً وعصبية. كذلك هو لم يكن لى إلا ستراً لعورة!!

ومضت ست الناس تبكى ماضيها وحاضرها ومستقبلها جميعاً. الذكريات فى حلقها كالعلقم، والحاضر فى فمها كالجمر، والمستقبل أمام عينيها كالغيب!! وهذا زوجها الذى حسدوها عليه كان كابوسا يكتم أنفاسها، وهو بعد أن رحل ترك لها النحس، فذهب

الولد فيه، وبقيت البنتان، لتحركا فيها هذا التاريخ البغيض الثقيل! آه يا ست الناس! بنتاك هما عدوتاك!! كل أم تسعد بينتها، وتعتبرها حبيبة أمها، إلا أنت. بدلاً من البنت لك بنتان، حبيبتان، بالمقلوب! لماذا؟ لماذا يا غندورة، والناس كلها تقول أنك ورثت أمك، فى شكلها وطبعها وحلاوتها؟ أمك لم تكن عدوة أمها. أمك مسكينة قاست كثيراً. حتى زواجها كان قاسياً! حتى حبها كان محرماً وحراماً!!

وبينما هى كذلك تبكى وتنتحب أخذت بعض النسوة يتبادلن الرأى، فأستقر رأيهن على ضرورة احضار بنتيها لها:

- طبعاً. ولم لا؟ الدم لا يصير ماء.

- إنها لن تهدأ إلا وبنتاها إلى جوارها تطيبان خاطرها.

- صحيح لقد كانتا قليلتى الأدب، لكنهما بنتاها!

- فإن زادتا؟..

- لا يمكن. هنا دوار العمدة.

- لكنهما لا تهتمان بهذا.

- لا لا. ستكونان هنا غيرهما هناك.

- إذن نحاول احضارهما. ست الناس تقتل نفسها.

- ومن يحضرهما؟ من تقدر على احضارهما؟

- امرأة خالهما العمدة القديم. الست السيدة.

وقبل أن تتحدث النساء إلى الست السيدة، شعرت أرملة العمدة غضبان بيد تمتد إليها، فلما تلفتت وجدت البنت كايداهم خادمة ست الناس تشير لها نحو الباب، فلما أطلت، مادت بها الأرض وكادت تسقط من المفاجأة.

لقد كان وجه سمح يطل إليها، فى عينيه بريق غريب. الجوهرى! كان الجوهرى زعيم الناحية، وصاحب السيارة التى تسبق الريح، هو الذى بالباب يطل إليها. كان فى عينيه نداء غريب، وكان يبدو كأن شيئاً هاماً على شفتيه، يريد أن يقوله لها.

لكن النساء. هؤلاء النساء. ماذا يقلن؟

يا مصيبتى!! سيعلمن كل شىء، سيلاحظن!

يا مسكينة يا ست السيدة، يكاد المريب يقول خذونى تظنين أن أحداً هنا يعلم شيئاً! كلهن - ككلهم - من بهائم ربنا!!

وقبل أن تزداد الست السيدة ارتباكاً، وقبل أن يزيد الموقف تعقيداً، قال الجوهرى ليقطع فضول النسوة، ويقضى على تخوف الست السيدة:

- رسالة يا ست السيدة من محكمة إيتاى البارود. كنت هناك فأعطونى لك هذه الرسالة. ربما هى جلسة للمجلس الحسبى.

وانتشلها الجوهرى من الخوف والرعب الذى كانت فيه، فقصدت إليه، فناولها ورقة مطوية، لكنه أسر فى أذنها بضع كلمات:

- ابعدى أنت عن الغندورة وسلطان. سأحكى لك فيما بعد. ابعدى.

وعجبت لما سمعت، لكنها شعرت بأنه يصدقها النصح. إنها تشعر أنه يحبها، وأنه لا يكذب عليها أبداً.

لكنها أخذت تفكر فيما قال: الغندورة وسلطان؟

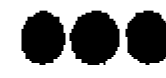
ما هذا؟ ماذا هناك؟

واعتذرت عن المهمة بأنها متعبة، لكن ذلك لم يعالج قلقها. لم تنم، ولم تهدأ، وظلت تفكر فيما قاله الجوهرى. لقد جاء إليها ليقول لها هذا. الورقة المطلوبة كانت ورقة بيضاء، ولا بد أن حكاية محكمة إيتاى البارود كانت كذلك كالورقة بيضاء! ما هذا الذى يقصده الجوهرى؟ لا بد أن تعلم. لا بد أن تعرف.

ـ يا بنت أنت يا قـادرة! أهى حكاية الغندورة وسلطان، أم حكايتك أنت؟ حكاية السيدة والجوهرى! فرصة!

وقالت لنفسها:

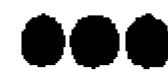
ـ على كل حال، هذه الورقة المطلوبة لا يعرف أحد مـاذا فيها. ليظن الناس أنها ورقة من المجلس الحسبى. إذن يجب أن تذهبى يا بنت. وفى الرحلة مع الجوهرى تعرفين كل شىء. اصحبى معك مرافقة عجوزاً لا تسمع.



وفى طريق العودة من إيتاى البارود كالعادة، أغفت العجوز، فمالت السيارة إلى جانب الطريق بحذاء الرياح، ووقفت تستريح، وحولها طبيعة ساحرة ممتعة تتثاءب بعد الغروب، لتنام، ولتتحرر بعد أن تنام من قيود النهار، فتمضى كما تشاء، تعبر البحار، وتعتلى الجبال، وتتسلق الأشجار، وتغنى وترقص وتتعرى من ملابس النهار، فى أحلام.

وعندما فتح الجوهرى باب السيارة، لتخرج الست السيدة إلى الهواء، مدت يدها فمد يده، وسحبها فاندفعت نحوه لتلمس صدره الفتى بصدرها المحروم، ثم تسير إلى جواره يسندها فتستند إليه، وبين حين وحين تترنح فيطوق خصرها بيديه مرة، ويضغط على ذراعيها بقبضته مرة، وفى كل مرة تعبر عيناه عن حب عميق.

وعلى حافة الرياح جلسا وأخذ يحكى لها القصة من أولها.



– طبعاً عجبت، لكن كان لا بد من أن تعرفى. مالك أنت وهذه المشكلة. المسألة ببساطة أن "سلطان" هذا يحب بنت عمته، الغندورة.

وعجبت الست السيدة، لكنه قال لها:

– لا تعجبى. النمس زوج، لكن سلطان حبيب.

وهزت رأسها تطلب مزيداً من التفسير. قال الجوهرى:

- هذه نقرة، وهذه نقرة. أعلم أنك تعجبين، لأنها فقدت عقلها عندما حبسوه. آ.. فقدت عقلها. إنه زوجها! لقد شعرت باهانة لشخصها! الفضيحة لصقت بها. السمعة أصابتها. الاتهام والحكم عليه أدانها! كانت تصيح فى الناس: يعنى النمس لص؟ ولمن كان يسرق؟ لى أنا؟! يعنى عيشتى حرام؟ يعنى أنا أعيش على السرقة؟! يا ناس!!

قالت الست السيدة:

- والنمس وسلطان يعرفان؟

قال الجوهرى:

- يعرفان.. ماذا؟

قالت:

- يعرفان هذه الحكاية؟

قال فى سخرية:

- أما أن "سلطان" يعرف أن النمس زوجها، فهذا يعرفه حق المعرفة! وأما أن النمس يعرف أن "سلطان" ابن عم حماته، فهذا يعرفه حق المعرفة! أما أن النمس يعرف ما بينه وبين إمرأته، فلا طبعاً! ولماذا يعرف؟

قالت الست السيدة:

- لكن سلطان كان صديق النمس.

قال الجوهرى:

- أعز الصداقة!! واحد تزوج له، ألا يحبه؟!. ألا يوطد به علاقته؟ شىء جاهز يقدمه له من غير ارتباط، ولا تكاليف!! هلا يشكره عليه ويصادقه أعز صداقة من أجله؟!

قالت:

- الله. أهكذا؟ لكنها استفادة إذن، لا حب.

قال:

- استفادة! حب! كله يستوى. أليسا قانعين؟ هى تغير وتبدل وتتمتع على هواها، وهو يعطيها ما تريد من وراء ستار..سمى هذا حباً أو استفادة، أو ما تشاءين. لكنه واقع للأسف.

قالت:

- ولا تخاف، ولا يخاف!!

قال:

- ربنا غفور وستار.

قالت:

- هذا شىء غير معقول. ما هذه الجرأة؟

قال فى تخابث:

- الهوى يا ست السيدة. الهوى شىء خطير، يهد الجبال.

وسكت قليلاً ثم قال:

- ألم تجربيه؟ ألم تذوقيه... أبداً؟

قالت فى حياء:

- على هذا الوضع.. أبداً.

قال فى قلق:

- على أى وضع إذن؟

قالت فى خجل:

- على طريقة الأولاد الصغار، قبل الزواج.

قال فى رقة:

- وبعدها؟ ألم يحدث؟

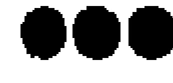
قالت وعيناها فى مياه الرياح:

- حدث... لأكون صادقة حدث.

قال فى سرعة:

- مع من؟.. قولى من فضلك، مع من؟

ولم ترد. عيناها الذابلتان ردتا، أبلغ مما يرد الكلام.



- لكن كيف عرفت ما بينهما يا جوهرى؟

- أنا الجوهرى. لماذا يهتف الناس للجوهرى؟ انهم لا يهتفون للترومبيل، ولكنهم يهتفون لى، لأنى جن أعرف كل شىء. على كل حال، فالمسألة جاءت مصادفة.

كان النمس فى دمنهور، وكنت هناك لبعض أمرى، ووجدت من الذوق أن أسأله هل يريد شيئاً. قال أنه باق لبضعة أيام فى دمنهور، وطلب من أن أبلغ أهله ذلك.

ولما عدت حرصت على أن أبلغ ذلك للخولى الذى يعمل عنده، لكن شيئاً حدثنى أن الخولى قد لا يخبر إمرأته، فقلت أذهب بنفسى أبلغها. وعندما ذهبت إلى بيت النمس، كان الوقت نهاراً، فناديت فلم يرد أحد. حاولت أن أجد أحداً أسأله، جاراً أو جارة أو عابراً من أهل القرية، فلم أجد أحداً. عندئذ دفعت الباب فاندفع، وأصبحت فى موقف عصيب. الباب مفتوح، ولا يجوز أن أتركه على هذا الوضع، فقد يقتحمه لص مثلاً، كذلك لا أستطيع أن أظل فى حراسته ولدى عمل متواصل ولم أجد بداً من الدخول، فإذا كل شىء متروك ومهمل. الأبواب الداخلية مفتوحة والملابس والمفروشات مبعثرة. وعجبت. ظننت أن يداً غريبة عبثت بالبيت وما فيه. وزدت حيرة ماذا أفعل؟ هل أترك البيت على حاله، أم أن من الأمانة أن أقوم عليه حتى يعود أصحابه. لكنى خفت أن

أحاط على الأقل بالريب والشبهات. وقلت لنفسى: ها أنت ذا قد وقعت فى شر أعمالك. هل كان لا بد من المجىء؟! لكن. لكن كل ذلك لم يجد.

وسمعت همساً ملهوفاً وحركة محمومة.

ما هذا؟! وأرهفت السمع، ثم تبعت مصدر الصوت، حتى وجدت نفسى أصعد السلم، وكلما صعدت درجة زاد وضوح الهمس وزاد فهمى للحركة.

وسمعتهما يتناجيان.

وسمعتهما يتغازلان.

كذلك رأيتهما، غارقين فى بحر من النزق، وقد نسيا كل شىء، حتى الباب المفتوح، يدفعه من يشاء، إذا شاء.

وألفاظ الحب كانت كالنار، تكاد تشعل الحطب فوق السطح.

والحركة المحمومة كانت كالحمى، تكاد أن تنشر العدوى فى الأجسام الخاملة.

وقالت الغندورة:

- لعله يغيب شهراً.

وقال سلطان بن الحاج غضبان:

- وتشبعين منى فى شهر؟

قالت الغندورة:

- لن أشبع منك عمرى كله.

قال سلطان:

- ولا أنا يا غندورة.

قالت الغندورة:

- أتظن كنا نسعد أكثر لو تزوجنا؟

قال سلطان:

- هكذا ... نسعد أكثر.

قالت الغندورة:

- فإن تزوجت أنت؟

قال سلطان:

- نبقى خالصين.

قالت الغندورة:

- وتصبح لى فيك شريكة؟

قال سلطان:

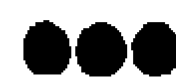
- كالشريك الذى لى فيك.

قالت الغندورة:

- هذا شىء ثان.

قال سلطان:

- وسيكون هذا أيضاً - إن حدث - شيئاً ثانياً.



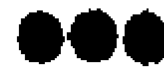
قالت الست السيدة:

- هذا شىء غريب يا جوهرى. هذا سمعته بنفسك؟

قال الجوهرى:

- عيب. ولماذا أكذب؟ والله لولا أنهم كانوا ينوون ارسالك فى مهمة إلى الغندورة و"ست أبوها" ما حكيت لك عن شىء. أنا خفت عليك، فأردت أن أبعدك.

وارتاحت الست السيدة إلى خوفه عليها، فمدت إليه يدها، فامسك بها فى حنو، ثم وضعها على قلبه، لتسمع دقاته، ثم وضعها على خده وأغمض جفنيه، فلما خافت الست السيدة أن تصحو مرافقتها وتراها على هذا الوضع، سحبت كفها من فوق خده، وهى كارهة، ففتح عينيه، ووقف يسندها إلى السيارة، وهى بين الحين والحين، تميل عليه، أو تلقى بنفسها إليه، أو تتعمد أن تلامسه، مرة خداً بخد، أو صدراً بصدر، والعيون الذابلة تربط ذلك كله بشعاع لا يخبو.



هناك عند الساقية كان الموقف غريباً كذلك، بلا ست الناس أو درة زمانها أو الست السيدة والجوهرى، أو الغندورة! لم تكن إلا إمرأتان، واحدة على رأسها طرحة بيضاء، وفى يدها مسبحة طويلة معطرة، وعيناها على ابنها الصغير، أو قبر زوجها الراحل، أو هذا الجمع الصامت عند الساقية، والثانية على رأسها طرحه سوداء، ومن أنفها تتدلى حلقات من نحاس، وفى أقدامها شياطين المنطقة كلها، تبرق عيناها بالغيظ والذكاء. أما بقية من هناك فرجال.

أهل القرية على رأسهم العمدة عباس وشيخ الخفر المسروق، مدبولى.

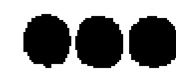
وأهل البندر من رجال البوليس على رأسهم ضابط صغير شاب يواجه الموقف فى ثقة وثبات. وممدوح خلف الجميزة يفرك كفيه بعد أن أخفى المسدس بين طيات ملابسه. طبعاً، ولماذا يظل يمسكه فى عصبية، وقد جاء من أعفاه؟ وكما كان يفرك كفيه، فقد كان كذلك يفرك وجهه فى ابتسامات سعيدة راضية.

تماماً كما توقع. يطلق الرصاص فى الهواء، ليوهم صاحب المصلحة بأن الرجال الذين أرسلهم يواجهون الخطر، وأنهم صاروا موضع اعتداء، وأن من النذالة أن يتركهم وحدهم بلا سند. هذا رأيه طبعاً! والكرامة والسلطة والنفوذ! لو عرف عنه أنه لا يحمى رجاله، فلن يجد رجالاً يعملون معه، ويأتمرون بأمره. كان ممدوح يعلم أن السارق لا بد أنه ابتعد عن المكان بما سرق، لكن وراء السارق. من وراء السارق؟ هذه الرأس المدبرة، أو هذا

النفوذ الذى يحرك هؤلاء اللصوص هو المطلوب، فإن وقع، فقد انكشف كل شىء. ولن يقع إلا باغراء شديد. لهذا كانت طلقات الرصاص، وكان إيهام المغفل بالخطر المحدق برجاله.

وأخذ ممدوح ينظر من خلال فروع الشجر، وكثافة الظلام وهو يبتسم لنفسه ويقول: وقعت! والله وقعت يا بطل. لكن من كان يتوقع أن تكون أنت؟ أنا لن أحسب حسابك أبداً يا سلطان يا بن الحاج غضبان، يا بنك القرية. لكن هذا هو أنت تواجه مصيرك.

وعاد ممدوح إلى ملابس الشيخ، ومال إلى طريق القرافة، ثم سار فى هدوء إلى الجمع الصامت هناك عند الساقية، ليرى ماذا أصاب الرجال.



- من أنت؟

ولم يرد. سلطان لم يرد!

واستأنف الضابط كلامه.

- ما خطر بذهنى أن تكون أنت.

وسكت سلطان، ولم يرد!

وعاد الضابط يقول:

- لكن لماذا أستبعد هذا عليك؟ أنت مثلهم.

وظل صامتاً كجماد، لا يرد!

وأكمل الضابط حديثه فقال:

- على أنى كنت أتصور أنك أكبر.. قليلاً!

وهز الضابط رأسه وهو يقول:

- لكنكم جميعاً واحد.

وسكت الضابط قليلاً، ثم اقترب من سلطان فى خطاً بطيئة، وهو يوجه نحوه نظرات عميقة ثابتة، وكلما كان يخطو خطوة، كانت أنفاس الناس تضطرب مع خطواته، وصدر سلطان يعلو وينخفض فى انفعال. ولما أصبح منه كظله وقف يواجهه.

وجهه يقابل وجهه. عيناه تواجهان عينيه، وأنفه يكاد يلتقى بأنفه. وهذان فمه وفمه كأنما كل منهما للآخر مرآة!!

وفى هذه اللحظات كان الشيخ عبد الرءوف قد وصل إلى ساحة الساقية، وكانت الشيخة بدورها قد وصلت وفى يدها ابنها أبو عوف. لم تستطع أن تصبر، وأن تنتظر، والدنيا كلها هناك مقلوبة، وساحة الساقية أصبحت لغزاً غامضاً يحتاج إلى حل.

وعندما رآها الشيخ، ذهب إليها، ليتصور أهل القرية أنه والشيخة جاءا معاً، ليطمئنا على المريدين الطيبين، وعلى الثورين المسروقين.

وفوجئت الشيخة بالمنظر.

رجلان فى مقتبل العمر، يواجه كل منهما الآخر.

لكن لماذا يجمدان على هذا الوضع الغريب كأنهما تمثالان؟

الله!! وهما متشابهان، كأنهما توأمان!

قالت الشيخة تسأل: هذا سلطان، والثانى من؟

قال الشيخ: لم أره من قبل.

قالت: لا تعرفه؟

قال: لا أعرفه.

قالت: بوليس؟

قال: لازم.

قالت: شبهه تمام.

قال: طبق الأصل.

قالت: والاثنان شبه من؟

قال: الله.. إذن. لا بد أن سبيلة.. الله!!

قالت: مالها سبيلة؟؟

قال: كان معها، عند الخص، لدرجة أنى شككت فيهما.

قالت: المأمور ناجى هو الذى أرسله.

قال: ماذا كان اسمه؟

قالت: محمود...

قال: محمود... "إيه"؟

قالت: محمود محجوب.

قال: والوصية؟

قالت: سرقها شيخ البلد.

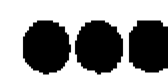
قال: المجنون؟.

قالت: نعم... لكنها الآن عند العمدة.

قال: عباس؟

قالت: نعم.. لكن لماذا تسأل؟

قال: احتياط.



وهزت الشيخة رأسها وهى تتأمل تصرفات القدر، وتسأل نفسها أسئلة لا جواب لها.

أكنت تتوقع هذا يا حاج غضبان؟ أكنت تتوقع أن يلتقى عند الساقية ولداك: الولد

الرسمى الذى أعلنت عنه، والولد الخفى الذى أنجبته سراً، وتحت جنح الظلام؟ يا حاج غضبان: والأغرب أن يتلاقيا حيث كان لقاؤك مع هواك. مع أم الشحات الحلوة التى طلبت أن تتزوجها فى آخر عمرك، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

هذه الساحة يا حاج غضبان لا تزال تحمل رائحتك، وهذا النسيم لا يزال فيه منك تنهدات المحروم.

نعم يا حاج غضبان. هذان ولداك، من عرقك ودمك، يواجه كل منهما الآخر بالحقد والغل والكراهية!! حتى التعارف عز عليهما، فتقابلا غريبين، بل خصمين يناصب كل واحد منهما الآخر العداء! أتراهما يا حاج غضبان؟ إنهما غير بعيدين منك حيث استقرت بك النهاية. لو شببت قليلا من قبرك لوجدتهما هنا عند مدارج هواك. ستعرف أنت أن هذا سلطان الابن المكتوب الوارث، ابن البالوظة إمرأتك، وستعرف أن الآخر محمود، ابن صباح الحلوة، التى دخلت حياتك، بملابس ملفوفة فى صحيفة قديمة، وخرجت من رحمتك، يتحرك فى أحشائها جنين لا يدرى إلا الله ماذا يكون. هو ذا كان. الجنين هو هذ الذى تراه وسيماً حلواً، يواجه أخاه فى تحد!!

أتراهما؟ أتراهما وقد أحاطت بهما القرية تتأمل المنظر الغريب؟

واحد أقبل يحمى لصوص الساقية.

والآخر جاء يتعقب لصوص الساقية.

والنظرات تشتعل بالغضب، وهى من هذا لذاك تعالى الأحمق المغرور، ومن ذاك لهذا، نداء القانون، لصالح الجماعة والناس.

انظر يا حاج لترى خلف الأعيان! الذى حملتموه فى اعتزاز، وأنتم تسجلونه فى مواليد القرية، فى قفص الاتهام!! والمسكين الذى أنكرتموه، ورفضتم أن يكون لكم فى شهادة الميلاد، فى مكان الشرف، يحمى النظام!!

وهزت الشيخة رأسها وهى تقول لنفسها:

- عدالة السماء. هذه عدالة السماء.

وتلفتت الشيخة حولها، لتهز رأسها للشيخ عبد الرءوف، فإذا هى تجد فى امتداد عينيها، أم الشحات، وقد أسرعت بدورها لترى.

واتجهت نحوها دون أن تشعر.

وبعد أن قطعت إليها بضع خطوات، تدبرت أمرها، فتوقفت ولم تكن منها غير بعيد.

يكفى هنا يا ست الشيخة، وإلا فإنك تكونين كمن يتطوع بإذاعة السر.

لكن أم الشحات أسرعت نحوها تسلم عليها، وقد تملكها الأسى لهذا المنظر الذى تراه.

- بلدنا لم تكن هكذا أبداً يا ست الشيخة.

- هذا نحس أصاب بلدنا يا ست الشيخة.

- والنبى تدعين الله أن يعفى البلد وأهلها من هذا كله.

- والنبى يا ست الشيخة.. نفسك معنا يا ست الشيخة.

قالت الشيخة، وهى تسبح الله:

- ربنا موجود يا ست أم الشحات.

- ربنا كريم، وهو لا يترك عباده المخلصين.

- ربنا كبير، وهو رءوف بعباده غفور رحيم.

- من يدرى يا ست أم الشحات. قضاء أخف من قدر.

لكنها لاحظت أن الست أم الشحات تعانى من نفسها. إنها تتطلع إلى المنظر، وهى فى حالة انفعال شديد. هل تحسين يا ست أم الشحات، أن هذا الفتى الصغير الذى يواجه الناس فى قوة وثبات، هو ابن غضبان الثانى، من البندرية الحلوة؟ هذا هو الولد الذى اغتصب له حقه من الحاج غضبان قبل أن يخر صريع الحب والحمق والأنانية جميعاً. هذا هو الفتى محمود الذى كتب له الوصية، تنفيذاً للشرط، وفى نيته أن يلغيها بعد أن

ينالك، فلما طار منه كل شىء، وما نال، لا عنب الشام ولا بلح اليمن، عندئذ هوى فاقد النطق حتى مات! هل كنت تتوقعين أن يكون على هذه الصورة؟ أو أن يكون القدر على هذه الدرجة من الغرابة فيجمع الأخوين فى هذا الموقف؟

وعادت الشيخة تسأل نفسها:

- لكن من أدراك أنه هو. ربما لا يكون هو.

- بل هو. لا بد أنه هو. هذه هى السن التى لا بد أن يكون قد وصلها.

- لكن لن يكون الوحيد فى هذه السن.

- طبعاً. لكنه كذلك ضابط البوليس.

- ولن يكون الضابط الوحيد.

- طبعاً، ولكن هذا الشبه الغريب.

- يجعل من الشبه أربعين.

- نعم ولكن الشيخ عبد الرءوف يعرفه، وقد رآه فى السجن.

- ليس هذا فحسب، ولكنه كان رسول الآخرين إليه.

وأرادت الشيخة أن تقطع الشك بيقين، فتطلعت حواليها فوجدت الشيخ عبد الرءوف منها غير بعيد، فأومأت إليه، فاقترب منها، فأشارت تستوضح منه فهز رأسه مؤكداً أنه هو، فعادت تتطلع إلى أم الشحات، وهى تكاد تحدثها بما فى نفسها.

- هو.. انه هو يا ست أم الشحات. أنت لا تعرفين أنه هو، وربما لا يعرف هو أنه هو!!

- هو لا يعرف إلا أنه الضابط محمود محجوب، ابن الأسطى محجوب الرجل الطيب المسكين، الذى وفر من قوته ليربيه، وليصرف عليه فى كل مراحل التعليم، ليصبح ضابط بوليس.

وبينما الشيخة فى أفكارها هذه، كانت القرية تتابع المنظر جامدة أو كالجامدة.

لكنها كانت جامدة من الظاهر. سطحها كان جامداً، أما من الداخل فكانت تغلى. كانت تموج بالحركة. عقلها كان دائم الحركة. قلبها كذلك كان دائم الخفق بما يعتمل فى داخلها.

العمدة عباس كان يستعيد أيامه مع الحاج غضبان، ومع سلطان هذا عندما كان صغيراً. كان الولد الوحيد من ظهر غضبان الكبير، وغضبان أبوه كان بنك القرية يعطى من يشاء ويحرم من يشاء. حتى الحاج سلطان كان يخافه ويخشاه! المال، المال معه، ومن يملك المال يملك كل شىء. هكذا كان الحاج سلطان يقول.

أخوك سلطان وابنك سلطان يا حاج! هل لأنك كنت تحبه إلى هذا القدر سميت ابنك على اسمه؟ يا شيخ!! ويوم تزوج الحلوة الصغيرة تفيدة كنت تحبه، أم كنت تغار منه وتحقد عليه وتعارض الزواج باسم الأسرة، وأنت فى الواقع تتمنى لو أنك قادر على أن تفوز بها أنت!! وحكاية الساقية والسماد والسلف التى كنت تعطيها بالفايظ، وكيف كان سلطان ينتزع منها ما يشاء، ويتركك أنت لترتب أمورك وتسوى حساباتك كما تشاء. أنسيت؟ كنت تغلى وأنت تصيح فيه أمام اخوتك: شىء من العدل يا سلطان! ألا تشبع؟ خذ لكن دعنا نأخذ معك! كل واتركنا نأكل معك! أما أن تأكل أنت أولاً حتى تشبع، ثم تتركنا نجوع، فهذا حرام عليك. لكنه كان يرد عليك فى سخرية: يجوعون!! والله ظاهر عليكم الجوع. يا.. ه! أنتم مساكين ومحتاجون. يا رجل استح. أنت من غيرى لا تساوى شيئاً. الناس يأكلونك بدونى. احمد ربنا أنى لا آخذ كل شىء، ولو فعلت، لكان هذا حقى! يا غجر! هل كنت تحبه من قلبك لتسمى هذا الولد باسمه؟ لا هو كان يحبك، ولا أنت كنت تحبه، ولكنها كانت مصلحة. كان لا بد من هذا، وإلا ضعتم جميعاً فى الناحية وبين الناس.

مدبولى شيخ الخفر كان بدوره شارد الذهن فى مسالك أخرى من ذكرياته. لكن ذكريات مدبولى مبتلة بالدموع! كان نادماً! كان يتحسر على نفسه، وعلى الأيام التى

ضاعت من عمره سدى. كان يدور بعينيه ليتفادى أن ينظر إلى أم الشحات! هذه هى لا تزال حية، بلحمها وشحمها. الحمد لله أنها لا تزال بين الأحياء. هب أن أدهم عملها وقتلها، ماذا كنت تكسب من وراء ذلك؟ المبلغ؟! ارضاء شيخ البلد سيد؟ وتزهق روحاً من خلق الله، بريئة مظلومة؟! آه يا نذل. ماضيك الملطخ لن يتركك، ولن يفارقك. أنت وهذا الماضى ستظلان متلازمين. هو يأتيك بالنحس، وأنت تستقبله بالدموع. ادفع الآن ما انتزعته بالأمس. هاأنت ذا تواجه الحقد والكراهية والبغضاء. يحاولون أن يسمموا بهائمك، ويسرقوا ثوريك، ويتبعوك بالأذى حيث تكون. هذا نصيبك العادل جزاء ما فعلت. أو تذكر أيام شقوتك وشقاوتك؟ أيام كانت أموال الناس حلالاً مباحاً لك و "لأبو سريع" ولعصابات الأشقياء؟ أيام كانت عواطف الناس مادة لمزاحكم الرخيص؟ أيام كانت أعراض الناس نهباً لمن يستطيع؟ أيام كانت أرواح الناس عرضة لأى اعتداء؟ أو تذكر؟.. هذا أيضاً كان حراماً. كان صادقاً، لكنه كان حراماً. حبك وهواك، وأنت وهى تتلاقيان تحت السقف الذى آواك وأتمنك!! كان هو حيث كان يولغ فى الحرمات، وكنت أنت فى مكانه من بيته، تأخذ بثأر الناس! لكنك كنت صادقاً فى حبك. والله كنت صادقاً فى حبك. ألا يشفع لك هذا الصدق يا ولد كل الخطايا والأخطاء؟! ست الناس كانت حياتى ولا تزال. ما ذنبى إن كانت ظروفها وظروفى قد وضعتنا فى هذا المكان؟ فى مهب الريح؟! هل ذنبى أنها كانت متزوجة؟ وهل كنت تحبها لو لم تكن متزوجة؟ قطعاً كنت أحبها! يا أخى! وكيف كنت تجرؤ أو تستطيع؟! كيف كان من الممكن أن تقترب منها يا صعلوك يا شحات؟ إن حبك قد عاش فى ظل الفرصة التى تهيأت لك وأنت ترتدى زى الغفر، وفى يدك بندقية، وعلى رأسك هذه اللبدة الطويلة السوداء! حتى هذا لم يكن كافياً. إن قسوة "أبو سريع" وعينه الفارغة، والغلظة والقسوة والاستهتار، قد هيأت الفرصة للحب الحرام لينمو ويترعرع!! لكن ظلم. هذا ظلم. هذا الحب لم يكن حراماً الحب الصادق ليس حراماً.. يا ولد! لو كنت أحببت وقاسيت وصنت حبك من الانزلاق إلى مهاوى الشهوة، إذن كنت تقول هذا. أما وقد كان زواجاً بلا وثيقة، ومكرراً،

فهذا ..ماذا؟ حلال!! يا شيخ الخفر عيب!! لقد حولتم ست الناس إلى رجل، وأبحتم لها أن تتزوج اثنين! أى شرع هذا يا شيخ الخفر؟

وأغمض شيخ الخفر عينيه ليبعد عن نفسه هذه الهواجس، واكتفى بأن أخذ يقول لنفسه: على كل حال، ربنا غفور رحيم وغفور تواب. ونحن أولاد اليوم. أنترك الأمس، ونفكر فى اليوم. أنا لا أزال أحبها حتى اليوم، وسأظل أحبها حتى أموت. وهذا الحرمان كله كفارة عما فعلت. كفارة منى ومنها. هى أيضا مسكينة، دفعت ثمناً باهظاً. والله مسكينة.

أم الشحات كذلك كانت شاردة تفكر فى الشريط الطويل الذى بدأ بمحاولات الحاج غضبان أن ينالها، ثم بطرده لها هى وابنها من البلد، ثم بمرض ابنها الشحات وعودتها به ليموت فى بلده، ويدفن إلى جوار أبيه، ثم بإصرار الحاج غضبان على أن يتزوجها، ثم بإتصال شيخ البلد بها، وما رسمه لها من تصرفات ليفسد خطة الزواج، ثم قصة الوصية، ثم الجلسة التى شهدتها القرية عند الضريح وكيف انتهت بأن سقط الحاج غضبان مشلولاً، واستمر بلا حراك حتى مات.

آه منك أنت يا عم "أبو المكارم"! أو تذكر هذا الولد سلطان، عندما وقع تحت صراع الموت؟ أو تذكره وهو فى قبضة يد المجنون أدهم، كان ينوى أن يلقى بك يا ولد فى الرياح، لولا أن لك عمراً. ألم تتعظ بذلك يا سلطان الكلب. هل يرضيك هذا الموقف الذى أنت فيه؟

وأنت يا ست الشيخة... يا ويلك من ذكرياتك. ان كل شىء أمامك الآن، يمر سريعاً كالبرق.

وأنت يا سيدنا الشيخ عبد الرءوف، تبتسم! أو تعرف النائم عندما ترد عليه أحلامه؟ إنه يبتسم، كأنما الحلم حقيقة. ترى هل أنت الآن فى حلم أو فى علم؟!

وبينما الجمع كذلك ارتفع الصوت الذى اعتادت القرية أن تسمعه بين الحين والحين، يشق أجواز الفضاء إلى أذنيها.

وحدوه.. وحده.. ها أنتم أولاء، وها هو ذا.

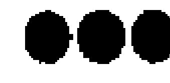
احمدوه.. احمدوه.. أرسله إليكم بقدميه.

سلطان ولا سلطان.

السلطان لله... لله وحده.. لله.

ونظر كل إلى صاحبه، ونظر الضابط إليهم جميعاً يحاول أن يتبين هذا الصوت. من صاحبه؟ ومن أين جاء؟

لكن الصوت اختفى كما جاء.



وأمسك الضابط بكتف سلطان وقال:

- أين الثوران؟

لكن سلطان هز كتفه فى استعلاء، ثم أشاح بوجهه عنه دون كلام.

قال الضابط فى صوت حليم:

- قلت أين الثوران؟ من مصلحتك أن تتكلم. لا تظن أن سكوتك سيعفيك من المسئولية. تكلم. أين الثوران؟ أين ذهبوا بهما؟

وظل سلطان فى صمته يصطنع التعالى والكبرياء.

وصاح فيه الضابط فى صوت حاد منفعل حاسم:

- تكلم يا لص. أين ذهب رجالك بالثورين؟ تكلم يا جبان.

ولم يستطع سلطان أن يحتفظ بصمته فصاح بدوره يقول:

- لست لصاً، ولست جباناً يا حضرة. ألا تعرف من أكون؟

قال الضابط فى سخرية:

- من تكون؟ سفاح ممن يعيشون على القتل وسفك الدماء والسرقة. من تكون؟ "بلطجى" لا هنا ولا هناك! من تكون؟ قل لى من تكون؟ شيخ الاسلام! المفتى! من تكون؟

وتقدم العمدة عباس من سلطان، وقال له فى هدوء:

- أهكذا يا سلطان يا بنى! تقف هذا الموقف الغريب، وأنت ابن الحاج غضبان!! يا أخى كان من الواجب أن تراعى عظم التربة! طيب دعك منا نحن. أبوك وعمك وكل أهلك. الناس المدفونون هنا عند الذكيرى. ما ذنبهم تقلق الآن نومتهم بما فعلت؟

صاح سلطان فى العمدة:

- أنا لم أفعل شيئاً. أنت أيضاً يا عباس؟!

ورد الضابط فى قسوة:

- وتتكر أيضاً يا كذاب؟! من الممكن أن تكون لصاً، لكن رجل. أما أن تفقد الشرف والرجولة كذلك، فهذه كارثة!!

ولم يدع الضابط لسلطان فرصة حديث فإنطلق يصيح فيه:

- هل تستطيع أن تفسر لى وجودك هكذا والسلاح فى يدك، هنا حول الساقية فى هذا الوقت من الليل؟ لماذا أنت هنا، وماذا يهمك حتى تسرع إلى هذا المكان؟ ولماذا تأتى مسلحاً فى وقت لا داعى فيه للسلاح؟! أنت لا خفير ولا شيخ خفر، فلماذا السلاح، ولماذا اللهفة على المجئ، ولماذا الجرى إلى هنا بمجرد سماع بضع طلقات؟ بل لماذا أطلقت رصاصك رداً على رصاصنا؟ أم ستدعى أنها مصادفة، أو أنك لم تكن ترد على الطلقات بالطلقات!؟ يا جبان يا كذاب!؟

وصاح سلطان:

- أنا لم أطلق رصاصات.

قال الضابط فى شدة:

- كفى كذباً يا نذل يا لص يا أفاق. وهؤلاء حولك. ما شاء الله. عصبية هائلة يا "أبو زيد الهلالى" يا شجاع؟! أم الزناتى خليفة أنت؟!

وكاد الشيخ يضع أصبعه فى فمه من الدهشة.

ولو تركوه لنفسه لصاح يوضح للضابط:

- أبداً. أنا الذى أطلقت الرصاص. لم تكن رصاصات سلطان. مظلوم والله يا سلطان. صحيح أنت كلب ومفترى وجبان. وصحيح أنت كلب ومفترى وجبان. وصحيح أنت مدير السرقة، لكنك لم تطلق هذه الرصاصات. أنا يا حضرة الضابط الذى أطلقت الرصاص، لأجر رجل الفاعل الذى يقف وراء هذه السرقة. صدقنى أنه أنا، ولو أعطيتك مسدس لشممت فيه رائحة البارود. إن حرارة البارود لا تزال تنبعث من فوهته. إنى أستطيع أن أتحسسه بين ملابسى لأشعر بحرارة الطلقات. على كل حال، ليس كل الظلم سيئاً. هذا الظلم حلال.

وأخذ سلطان يصيح:

- أنا سمعت طلق الرصاص فأتيت أتبين الخبر.

قال الضابط مستنكراً:

- وأتيت مسلحاً، وحولك عصابة مسلحة من الصوص!

وسكت الضابط قليلاً وهو يطيل النظر إلى الخصم الواقف أمامه ثم قال:

- الآن خير لك أن تعترف. أين الثوران؟

وعندما وجده صامتاً لا يرد، أخذ يدور حول الساقية، يطيل النظر فى عيون الرجال، ممن كانوا يجرون الساقية فى مكان الثورين، وممن كانوا يحرسون الساقية، وممن أقبلوا مع سلطان.

وبين حين وحين كان الضابط يقف أمام واحد منهم ليسخر وليحاول حمله على الكلام:

- وأنت جعلك ثوراً .. وقبلت! كم دفع لك؟ كم؟ تكلم!

- ما شاء الله. وأنت الثور الثانى؟! يا ثور، يا بهيم. فى المرة القادمة تصبح كلباً. بل الكلب أحسن. المهم، تتعلم كيف تنبح!

- أو تظن أنك بهذا التجهم ستخيف الحكومة؟ هذا الوجه الكالح سينال جزاءه. سترى.

- اطمئن يا حضرة، ضللوك وأفهموك أن البحر طحينة، وأن كل شىء هنا سايب. تسرقون كما تشاءون، ولا من يدرى ولا من علم. اعلم أن المنطقة الآن محاصرة من كل ناحية. وستنكشف اللعبة.

- عندما تعود البهائم، ستستمرون أنتم البهائم، والبهائم ستراقب عملكم!!

- تظن النقطة والمركز والدنيا كلها نائمة؟! كنا نعلم مقدماً ماذا تنوون عمله. كنا وراءكم خطوة خطوة، حتى وقعتم يا غجر يا وحوش يا لصوص.

- وأنت يا أخ. ألا تخجل؟ رجل مثلك؟ "زى الفلق" يسرق! اشتغل بدلاً من السرقة.

ومع هذا فقد ظل الموقف جامداً. سلطان لا يتكلم، والذين معه لا يتكلمون.

قال الضابط يسأل العمدة:

- هؤلاء من البلد؟

قال العمدة عباس:

- سلطان فقط من البلد.

وهز الضابط رأسه وهو يسأل:

- وهذا؟

قال العمدة:

- لا.

قال الضابط:

- وهذا؟

قال العمدة:

- لا.

قال الضابط:

- وهذا؟

قال العمدة:

- أبداً.

قال الضابط فى ثقة:

- أنا أحكى لك من أين. هؤلاء أنا أعرفهم وأعرف بلدهم واحداً واحداً.

وأخذ الضابط يقدم كل واحد منهم ويعرف أهل القرية المتجمعين حول الساقية به وبالقرية التى ينتسب إليها، ثم يضحك فى صوت مرتفع وهو يسأل كل واحد بعد أن يسرد معلوماته عنه: صحيح؟ فيرد قائلاً: صحيح... فيزهو أمام الجمع، والجمع يرقبه باكبار شديد.

وكان خفيف الظل عندما كان يضفى على معلوماته عنهم جواً لطيفاً يرسم على هذه الوجوه الضامرة، ابتسامات باهتة تتفق والموقف الحزين، وهذا الكلام المرح.

- عريس لا يزال. أخونا هذا عريس. دخل الدنيا من أسبوع، لكنه ضاق بالدنيا، فأخذ يجد فى البحث عن الآخرة. على كل حال، لقد وصل إلى السلم، وسنرى.

- وصاحبنا "بياع"! يبيع البخت للناس!! طريقة بديعة للوقوف على أسرارهم، لا من البخت، ولكن من المحيطين بهم. يا "ريتك" عرفت بختك، كنت ارتحت وأرحت!

- وأنت يا "بتاع الحنا" آه. تضحكون! يبيع الحناء، بل ويحنى العرائس والعجائز وكل واحدة تحكى له حكايتها، ومن الحكايات تظهر أسرار، ويستعمل الأسرار فى السرقات والنصب والاحتيال.

وهكذا مضى الضابط يمرح وهو يقدم هؤلاء الأشقياء إلى أهل القرية المتجمعين. على أنه لم يترك "سلطان" بلا تقديم فقال فى سخرية:

- أما هذا فهو سلطان! تعرفون سلطان بن غضبان بن محمد بن سلطان! لا تظنوا أنكم وحدكم الذين تعرفون. أنا أعرف مثلما تعرفون، بل أكثر مما تعرفون. وسكت الضابط ثم صاح فى سلطان:

- قل لى الآن، أين الثوران؟ أين ذهب الثوران؟

وظل سلطان مصراً على أنه لا علم له بالثورين، ولا من أخذهما، ولا يعرف الرجال الذين كانوا عند الساقية، سواء منهم من كان يجر الساقية، أو يخفرها.

قال الضابط:

- ستندم يا سلطان. الثوران سيعودان. سيضبطان. وعندئذ ستكون فى موقف أشد. اعترف الآن خيراً من أن تعترف مضطراً. ستعترف أردت أو لم ترد. باللين ستعترف، بالقوة ستعترف، بالدليل ستعترف. بدلاً من أن تعترف والدليل أمامك، يخرق عينيك، اعترف الآن بكرامتك.

قال سلطان:

- لا أعرف شيئاً عن الثورين، ولا عن هؤلاء الرجال.

قال الضابط:

- يعنى جئت هنا وحدك؟

قال سلطان:

- نعم جئت وحدى.

قال الضابط:

- ولا علاقة لهم بك؟

قال سلطان:

- أعرفهم. لكن لا شأن لى بهم، ولا بسرقة الثورين!

قال الضابط:

- يا سلطان بن غضبان. لا تكذب.

قال سلطان فى كبرياء:

- قلت أنا لا أكذب.

قال الضابط:

- بل تكذب. أنت تعرفهم. وأنت تعرف سرقاتهم. وأنت تعرف أنهم سرقوا ثورى شيخ الخفر. تعرف من السارق، وأين ذهب.

قال سلطان:

- ليس هكذا تماماً.

قال الضابط:

- إذن ما هو التمام؟

قال سلطان:

- ليس هذا.

قال الضابط:

- سؤال آخر. بترتيب من جاءوا؟ فى حمى من؟ فى ظل من؟

ولم يرد سلطان، فقال الضابط:

- سكت. طبعاً لا كلام. يا أخ، المتستر على السرقة سارق.

قال سلطان:

- لا أبداً. لا يمكن. هذا شئ، وهذا شئ.

قال الضابط:

- إذن أنت متستر!!

وقبل أن يجيب سلطان عاد الصوت الذى كان قد اقتحم الفضاء إلى هذا الجمع منذ قليل، يرتفع بكلمات مقتضبة:

هل هلالك.. يا نقرزان.

أنت مرة ملاك ومرة شيطان.

هل أنت واحد أو ثوران؟

ثوران.. ثوران.. ثوران!!

وتلفت الناس خلفهم فوجدوا الثورين.

هما الثوران المسروقان. ثورا الساقية. ثورا شيخ الخفر.

وسرت بين الجموع همهمة غامضة، وتطاولت الأعناق، لتطل على الثورين القادمين.

ولم يدر الناس شيئاً مما يرون. اختلطت عليهم الأحداث السريعة، فلم يعودوا قادرين على ملاحقتها. ساقية تدار بلا ثورين. وثوران اختفيا من مدار الساقية ورجلان حلا محل الثورين، أخذا يدوران كأنما هما ثوران ورجلان آخران يخفران الرجلين.. الثورين! وطلقات رصاص تنطلق من هنا ومن هناك، ثم رجال يطبقون على دفعتين، دفعة يقودها سلطان بن الحاج غضبان، ودفعة يقودها ضابط بوليس شاب، يتخفى فى ملابس ريفية. سلسلة متلاحقة من أحداث هبت كأنها رياح الخماسين، أفقدت أهل القرية، الذين أسرعوا إلى هذا المكان من سيدى الذكيرى القدرة على التفكير. حتى شيخ الخفر فقد معهم عقله! كان قد فقد ثوريه، فعاد الثوران، وذهب عقله.

لقد جمد الناس فى أماكنهم، ولم يستطيعوا أن يتحركوا نحو الثورين القادمين. حتى الذين كانوا يجرون الثورين، لم يلتفت إليهم أحد!!

أما الثوران، فقد أخذا يتقدمان خطوة خطوة، كأنهما عريسان!

والناس جامدون، والناس شاردون. لا أحد يهتم بأن يتبين من حولهما!

وسار موكب الثورين حتى مدار الساقية، وبغير طلب وسع الناس من بين صفوفهم مكانا ليسير الثوران إلى مكانهما من الساقية.

ولما أخذ الثوران يدوران حول الساقية، ولما بدأت مياه الساقية تنحدر فى القناة إلى الحقول، أخذ أبو المكارم يدور خلفهما فى حب. لقد عادت إليه حياته. هذه الساقية هى حياته، والساقية والثوران وهذه الساحة، والخص البوص فى قمة الحديقة، وضريح سيدى الذكيرى، كل ذلك شىء واحد. شىء منها يغيب، يفسد المنظر كله ويصبح شيئاً آخر.

ورويداً رويداً بدأ الناس يتبينون الجو المحيط بهم.

تماماً كمن صحا من نومه، يحتاج إلى وقت لتعتاد عيناه اليقظة، أو كمن قضى ساعات فى حجرة ظلام، ثم أضىء النور، فغشيت عيناه، ولم يستطع أن يستعيد الابصار إلا بعد أن تعتاد على النور عيناه.

وذهلت القرية مما رأت.

هذه المعلمة وردة النقرزان. هى هى حقيقة!

غريبة! كأنما المجنون لا يرى إلا الحقيقة!!

الله! وكأنما العقل لا يرى هذه الحقيقة!!

هل لأن العقل يحجب الحقيقة؟ والخروج على العقل يحرر الناس من القيود والسلاسل، فيرون ما لا يرونه وهم مكبلون، بالقيود والسلاسل.. والعقل!؟

شيخ البلد سيد المجنون، كان يردد اسمها منذ قليل. هل رآها رؤيا العين، أم رآها بقلبه؟ هل شاهدها ببصره، أم أنه شعر بها ببصيرته؟!

هى ذى هنا على رأس زفة الثورين العائدين!

لكنها ليست وحدها على كل حال. ان معها مرزوق أفندى. معها كذلك محروس. ومعها أيضاً "جلال"، ابن الأخ الوحيد لسالمة، العاشقة المظلومة، التى فتك بها رصاص رجال البوليس، لتلقى حتفها على صدر جلال.

لا يهم بعد ذلك العدد الكبير من الصيادين والباعة وعمال القهوة والحمّارة، ممن شاركوا المعلمة فى زفة الثورين!

الفتيان الثلاثة كانوا هم الذين تعلقت بهم العيون.

الشيخة تفيدة، والشيخ عبد الرءوف، وأم الشحات، أخذوا ينظرون إليهم، وهم لا يدرون ماذا حدث، وكيف حدث.

وسرت فى خاطر كل منهم ذكرى.

أم الشحات، ذكرت زوجها وابنها، وهى ترى حفيدها فى الركب العائد من المحطة بثورى شيخ الخفر. والشيخ عبد الرءوف ذكر ما يعرفه عن الشيخ مرزوق الجد الوقور الطيب، الذى ذهب ليحج مع "أبو سريع"، فعاد أبو سريع ولم يعد هو حتى اليوم! والشيخة تفيدة ذكرت سالمة، وخافت أن تغار من ضحية، لكنها لم تستطع أن تستبعد بعض ظلال الغيرة على كل حال.

ثلاثة خرجوا من بين أكوام الظلم، وعاشوا يواجهون العذاب، تحت تهديد الأسى والحرمان. لكنهم سلموا أمورهم لله، والله دائماً قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه.

قال الضابط بعد أن استقر الثوران فى مكانهما من الساقية:

- اقبضوا عليه، وعليهم جميعاً.

ثم سكت قليلاً، ونظر إلى المعلمة وقال:

- أما أنت فمطلوبة للشهادة.

قالت له:

- أولاً، احكى لك كيف وجدتهما.

قال لها فى مرح:

- أعرف يا ستى. أعرف كيف وجدتهما يا معلمة.

قالت غير مصدقة:

- تعرف!! ماذا تعرف يا بنى؟

قال لها:

- جاءتك بنت غجرية. أليس كذلك؟

قالت:

- نعم... جاءتنى.

قال:

- وطلبت منك أن تسرعى إلى كفر الزيات. أليس كذلك؟

قالت:

- صحيح... وأسرعت.

قال:

- لتقابلى الخواجة، فإنه محتاج إليك فى أمر عاجل.

قالت:

- الله... ثم ماذا؟

قال:

- ولم تكن هناك من وسيلة إلا حمير أبو اليزيد الحمار. أليس كذلك.

قالت:

- صحيح... وأخذتها.

قال:

- وبعد أن قطعت بعض الطريق، طلبت الغجرية من الصيادين أن يلحقوا بك.. أليس كذلك؟

قالت:

- وجاءونى على الفور.

قال:

- لأنهم علموا أن اللصوص قد يلحقون بك الأذى خشية أن تدلى عليهم، ووصفوا لهم اللصوص والثورين، حتى لا ينصرفوا إلى شىء آخر.

قالت:

- وهل كان الطريق الذى يسلكه اللصوص هو طريقى؟

قال:

- نعم بل وكانوا قد حذروا من واحد منهم أنك قد تتعرضين لهم انتقاماً من النمس.

قالت:

- يا نهار أسود. يعنى كان من الممكن أن يعتدوا على. لكن كيف وصلتم إلى هذا الحد؟

قال الضابط:

- سهلة.. بسيطة على كل حال كنا مستعدين لهم.

قالت:

- ولهذا هربوا. تركوا الثورين وهربوا.

قال:

- انتظرى قليلاً. لماذا تتعجلين رزقك؟

وسكت قليلاً، ثم استدار إلى الخلف، وأشار قائلاً لها:

- هل هم هؤلاء؟

وصاحت المعلمة وهى تصفق بيديها:

- هم. نعم هم. وقعتم. "عفارم عليكم عفارم عليكم".

وذهلت القرية وهى ترى عدداً من أشقياء الناحية، قد سيق إلى ساحة الساقية، وقد تطاير من عيونهم الشرر، لكنهم كانوا مستسلمين لما آلت إليه مصائرهم.

وضحك الضابط وهو يراقب المعلمة وقد استبدت بها الفرحة. ثم قال يسألها.

- وتريدين أن تعرفى الغجرية؟

قالت:

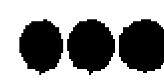
- طبعاً، أين هى؟

وأشار إلى ما وراء شجرة الجميزة، وقال:

- هى ذى يا ستى.

وظهرت سبيلة الغجرية تضحك من قلبها، فأخذتها المعلمة فى حضنها، وأخذت تضمها إليها، فى حب وفرح، بينما كان الخفير سعد قد تاه فى بحر من أفكاره لا يدرى من أمره وأمر سبيلة الغجرية شيئاً.

وبينما كان عساكر البوليس يسوقون سلطان والرجال إلى النقطة، كان أهل القرية يعودون إلى دورهم، بلا كلام.



لكن ذهن القرية ظل مشغولاً بهذا الحادث طيلة الأيام التالية، وكان الناس حزانى لما حدث.

- لكن لماذا نحزن؟

- لأن الذى حدث شىء شىء.

- ومالنا نحن؟

- أليس منا؟

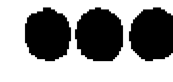
- سلطان بن غضبان منا؟

- من بلدنا.

- لا هو منا، ولا نحن منه. هو ابن عائلة سلطان، ونحن ناس على قد حالنا.

- أيضاً هناك ما يربطنا به.

- يا عم "خليها على الله"!



- يا عينى على أمه، الست جميلة البالوظة.

- آه يا عينى، ليل نهار بكاء عليه.

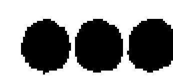
- والبكاء ما يفيد؟

- يفيد أو لا يفيد. قلب الأم.

- ذنبه على جنبه. هى الذى فعلها.

- شىء محزن.

- قسمتنا. قسمة بلدنا ونصيبها.



هكذا كان الرجال والنساء حزانى، وبرغم أن كثيرين كانوا يستكثرون على لص كسلطان أن يحظى بعطف القرية، إلا أن التسامح كان أكبر. القرية بلا ذاكرة. نسيت

السرقة، ونسيت الثورين، ونسيت الرجال الذين جروا الساقية بدلا من الثورين، ولم تعد تذكر إلا دموع الست جميلة البالوظة، وإلا أحزان نساء أسرة سلطان، خصوصاً أخته زوجة شيخ البلد المجنون، وبنت أخته أرملة أدهم بن "ابو سريع".

الشيخ عبد الرءوف كذلك كان حزيناً، فقد لمح بين الرجال الذين ساقوهم بعضاً ممن يعرف فى أثناء قيامه بدور المعلم العترة. لصوص وأشقياء، فروا من الشرك الأول، عندما وقع النمس وعدد من الأشقياء. لكنه كان يقول للمعلمة أنهم وقعوا أخيراً والسلام.

ولكنه كان يعود فيقول: المصيبة أن القرى ملآنة بكثيرين غيرهم من اللصوص والأشقياء.

وكانت مديحة تقول له: على كل حال هذا شىء. وشىء خير من لا شىء.

وكان ممدوح يرد عليها قائلاً: نعم هذا صحيح، لكنه ليس أسوأ، وليس أفضل. هو واقع والسلام. على أن ذلك كله ليس حلاً. ما معنى أن يقبض على عدد من الأشقياء، فيظهر عدد آخر أخطر؟! المهم أن ينتهوا نهاية طبيعية عادية سليمة.

وعندما كانت مديحة تقول له ان نهايتهم لا تكون دفعة واحدة، كان ممدوح يرد عليها بأنه لا يتم كذلك بهذه الطريقة.

كانت مديحة تسأله عن الطريقة التى رآها كفيلة بهذا، فكان ممدوح يرد بأن الأساس يجب أن يتغير. هؤلاء الناس يسرقون وينهبون وقد يقتلون.. لماذا؟ علينا أن نعرف أولاً الجواب، لنقتلع الأسباب من حياة الناس، والا فسنظل نقلم الأظافر، لتطول الأظافر، ثم نعود نقلمها، لتطول فنقلمها! وهكذا بلا نهاية، طالما أن فى أصابعنا أظافر، وأن من طبيعة هذه الأظافر أن تطول.

وسألته مديحة: والحل؟

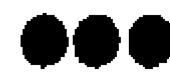
قال: نخلع الأظافر من منابتها.

قالت: وكيف تعيش الأظافر؟

قال: كأنما تسألين عن كيف تعيش الجراثيم!!

قالت: قد تجد لها مكاناً آخر تثبت فيه.

قال: يصبح على المكان الآخر أن يحمى نفسه منها.



وبينما كان ممدوح ومديحة أو الشيخ والشيخة يتبادلان هذه الأفكار عند الضريح، عقب الحادث، وبينما صوت الساقية يصل إليهما كأنه نواح، وأصوات العصافير تملأ آذانهما بما يشبه بكاء الأطفال بلا دموع.

بينما الدنيا هنا فى هذا الإطار الواجم.

إذا بعدد من الأتباع يصل إلى ضريح سيدى الذكيرى.

يا ربى؟! كأنهم منهم! من رجال البوليس! ماذا جرى لهذه الساحة من الدنيا؟ لقد بدأت أقدامهم تأخذ على المكان، وتجرى إليه فى حرية! أم أن رجال البوليس قد اهتدوا وصاروا من الأتباع والمريدين!! يا سيدى يا ذكيرى كرامة منك تقف هؤلاء عند حدهم.

لكن الأتباع الوافدين لم يكتفوا بأن يزوروا قبر سيدى الذكيرى. لقد خرجوا إلى القبور، يفتشون بعيونهم لعلهم واجدوه. وجدوه: قبر جلال. ذهبوا إليه، وطافوا حوله وكان كبيرهم يضع يده عليه كمن يريد أن يتحسس من فيه! أو كأنما يريد أن يقبض عليه!!

وكادت الشيخة تصيح: اتركوه! كفاه ما قد رآه.

غريبة هؤلاء. انهم لا يزالون يفتشون.

وقفوا لحظة عند كل قبر.

الحاج غضبان كان له منهم نصيب.

كذلك أبو سريع سبع الليل المخيف. ولقد دفن هو وابنه أدهم فى قبر واحد، فهز الزوار رءوسهم، ومضوا عن القبر متجهمين. وقد علت أفواههم ابتسامات حيية.

وعند قبر الحاجة زهرة كانت لهم وقفة قصيرة، ثم وقفة أقصر عند قبر الست نبوية.

وعند حافة القرافة وقفوا يتأملون القبر الصغير المتواضع.

هذا قبرها. هذا قبر تفيدة المظلومة، التى أغرقوها فى الرياح.

وترددت نظراتهم بين هذا القبر البعيد المهجور، وقبر جلال الفارع الذى يحتل الصدارة فى القرافة، ويطل على الأموات فى ثقة وكبرياء.

وبينما هم كذلك كانت الشيخة تتوجس خفية، وكان الشيخ يطيل النظر إليهم يفحص وجوههم، ليعد نفسه ليواجههم قبل أن يواجهوه.

ولم تمض لحظات حتى أقبلوا على الشيخ عبد الرءوف، وجلسوا إلى جواره وهم يقولون: نجلس هنا مع سيدنا الشيخ. لعل عندك شيئاً تدعونا إليه يا عم الشيخ عبد الرءوف.

وعجب الشيخ أشد العجب، وعجبت معه الشيخة: كيف تأتى لهم معرفة اسمه بهذه البساطة.

قال الشيخ فى ترحاب:

أهلاً بكم يا أولاد. من عينى. تشربون شاياً؟

قالوا: كما تريد.

وبينما هو ينصرف إلى خلوة يعد فيها الشاى، كانوا ينادون الصبى الطفل "أبو عوف" ليلاعبوه، ويداعبوه، ويقبلوه فى حنان.

واسترق ممدوح السمع من جانب. ومن الجانب الآخر تحت شجرة السنط، كانت مديحة تسترق بدورها السمع، وكلمات ابنها "أبو عوف" الطفلة تطرق سمعها وقلبها جميعاً.

على أن المناقشة التى دارت بين الرجال والصبى الصغير، كانت مذهلة لمدوح الذى اختفى خلف الحائط، ولمديحة التى تكومت تحت السنطة غير مصدقة لما تسمع:

- ما اسمك يا شاطر؟

- "أبو عوف" اسمى أبو عوف.

- ولماذا سموك "أبو عوف". هل لأنه اسم أحد قريب منك؟

- نعم هو اسم أبى، الله يرحمه؟

- واسم من آخر من أقربائك؟

- اسم جدى كذلك.

- والد والدتك أو والد أبيك؟

- والد والدتى.

- أبداً، بل والد جدتك يا عبيط.

- جدتى... آه جدتى من؟ جدتى من أبى؟

- جدتك تفيدة. هو والد جدتك تفيدة.

وكادت مديحة تقفز من مكانها من المفاجأة! كيف يعرفون؟ هؤلاء غرباء عن هنا، ولم يسبق لها أن رأتهم أو لمحت أحداً منهم، فكيف إذن يعرفون بهذه الدقة؟ يعرفون قرابة "أبو عوف" الكبير، المرحوم "أبو عوف" بالطفل الصغير، سميه. بل ويعرفون اسم جدته الغريقة التى راحت ضحية الظلم والغدر!

وقبل أن تمضى فى كل هذا الحوار، وهى تعجب لما تسمعه، طريق أذنيها بقية الحديث.

- ووالدك... حى أم ميت؟

- ميت الله يرحمه ويحسن إليه.

- وأين "تربته"؟ هنا؟

- هى هذه... هذه تربة أبى.

- ياه!!. أكبر تربة فى القرافة. من بناها؟ أبوه؟

- أبوه؟ أبوه من؟ أبو أبى؟

- نعم...

- لا، أبى ليس له أب.

- كيف هذا يا عبيط. هل هناك أحد ليس له أب.

- أقصد أن أباه كان قد مات. أنا لا أعرف أباه على كل حال.

- وهل تعرف اسمه؟

- اسم من؟ اسم جدى؟ أبو أبى؟

- آ... ألا تعرف اسمه؟

- لأ... لا أعرف.

- يمكن "أبو عوف" أيضاً.

- أبو عوف. أنا "أبو عوف"، وأبى أبو عوف، وجدى أبو عوف.. كلهم أبو عوف.. لغاية من؟

- لغاية سابع جد. لغاية سيدنا آدم.

- لأ. لأ. لأ.

وشعر الصبى برغبة شديدة فى الضحك، فأخذ يضحك من قلبه، وهو يصفق بيديه، ويستغرب أن يكون كل آبائه وأجداده "أبو عوف"!! بينما أمه، مديحة تحت السنطة تفرك كفيها، وتتلصص على ابنها الصغير، تحاول أن تطمئن إلى أن هذه المناقشات لم تؤثر فيه ولم تحمله على الخوف أو الفزع.

وشارك الرجال الغرباء الصبى ضحكه، ثم عادوا يتحدثون معه:

– إذن من الذى بنى هذه التربة العظيمة؟

– يقولون الإنجليز.

– الإنجليز يبنون الترب للناس؟

– لا.. لا للناس، لكن لأبى.

– ولماذا؟ لماذا أبوك بالذات؟

وسكت الصبى قليلاً، ثم قال فى صوت متهدج، تتخلله دموع.

– لأنهم قتلوه.

– قتلوا أباك؟ الإنجليز قتلوا أباك؟

– آ... قتلوه قرب السويس.

– من أجل هذا بنوا له هذه التربة؟

– نعم.

وشعرت مديحة من مكانها تحت السنطة أن الرجال يتبادلون النظرات، كأن كلام "أبو عوف" الصغير، لا يقنعهم، ولا يدخل عقولهم.

وأحست أنهم يعرفون أشياء كثيرة جداً، هؤلاء الغرباء.

وفى لحظة واحدة، أدركت كل شىء، عندما أحاط أحدهم "أبو عوف" بذراعيه، وضمه إلى حضنه فى حنان غريب، وأخذ يقبله مرات، وهو يقول فى غير خفاء:

– يا حبيبى يا بنى. قتلوه! البركة فيك. أنت بدل عنه. أنت مثله تماماً. أنت شبهه. أنت جميل ورقيق كما كان. الله يرحمه. وحشتنى يا أخى. وحشتنى. وحشتنا كلنا.. يا جلال!

قال الصبى:

- جلال!. من جلال؟ من جلال؟

وغمر الرجل وجنتى الصبى بالقبل، وهو يقول له:

- لا شىء. لا شىء.

كان صوته يتموج بالبكاء، وكانت كلماته دامعة كعينيه.

وكان الشيخ عبد الرءوف قد عاد بالشاى.

لكن نظرة واحدة إليه، دلته عليه!

هذا الوجه أعرفه. لا شك أنى أعرفه.

وهذا الصوت أيضاً أعرفه. سمعته وأنصت إليه.

لكن من؟ ومتى؟ وماذا كان الحديث؟

أتراه هو الآخر يعرفك يا ولد يا ممدوح؟ أو يا شيخ عبد الرءوف؟ أو يا معلم بيومى؟ أو يا معلم عترة؟ أو يا بيومى جمعة الصايت؟

إنك تطيل النظر إليه، وهو كذلك يطيل النظر إليك. أنت تترقب فرصة ينشغل فيها، لتطل على هذه السحنة، تحاول أن تتبينها، وهو كذلك ينتهز فرصة انشغالك، ليطل عليك ويتأكد منك.

وظللت تصب الشاى وتتلصص عليه.

وظل هو يحتسى الشاى ويتلصص عليك.

لعبة لطيفة وطلية، هذه.

لكن ألا تلاحظ أن الصغير "أبو عوف" قد تعلق به، ودنا منه، وبدا عليه أن شيئاً خفياً لا يرى يربطه به. هل لأنه كان أكثر هؤلاء حديثاً معه؟ أم لأنه كان أكثرهم عطفاً عليه؟ أم أن هناك شعوراً خفياً لا يعرفه أحد، هو الذى يربط كلاً منهم بالآخر؟

وفجأة تذكر الشيخ. كاد كوب من أكواب الشاى يقع من يده، وهو يتلفت نحوه فى سرعة. إن الفكرة فاجأته فلم يستطع أن ينتظر، فتلفت على هذا النحو فى لهفة.

قال له الشخص الذى تلفت نحوه متعجباً مما حدث: خير؟ ماذا؟

وأراد أن يدارى فكرته، فقال يسأله: خذ كوباً آخر من الشاى.

قال الرجل وهو يبتسم فى خبث: وهذا!!

ونظر الشيخ عبد الرءوف فوجد كوب الشاى فى يده لا يزال مملوءا حتى فوهته.

عندئذ عادت نظراته تتكسر وهى تتخفى فى إبريق الشاى، بينما يسأل نفسه عن سر هذه النظرات الخبيثة، وماذا تعنى! هل عرفه هو الآخر، وهل ذكره؟ ولماذا يتردد فى التعرف عليه، إن يكن هو حقيقة المأمور ناجى سلطان.

طبعاً هو. ومن سواه؟

من سواه يعرف "جلال" بالاسم؟ من سواه يضم "أبو عوف" إليه بهذا الحنان، وهو يناجى ذكرى والده، ويقرر أنه أوحشه، وأوحشهم جميعاً. ومن يكون "جميعاً"؟ لابد أنهم أهله: أمه وأخوه واخته؟

لكن كيف يفاتحه فيما عرف؟ كيف يقول له؟ إن يكن كل منهما على هذا الوضع من التحفظ، فكيف يستطيع أن يحدثه فيما يحرص على إخفائه؟

وخطر بذهنه أن يذهب إلى الشيخة تحت السنطة، ليحكى لها عنه.

لكن تدبيراً من الله كان أحكم. أقبل عم "أبو المكارم"، تسبقه ابتسامته الطيبة، فسلم على مديحة، وهو يتلفت نحو الرجال الغرباء.

وفجأة قفز إليه يقبله فى حب: الرجل الغريب الذى يتوسط الناس الغرباء عند الضريح وسحبه من يده وذهب به إلى الشيخة، وبدأ يقدمه إليها بطريقته الخاصة، ويضحك فى مرح، ويربت على كتفه، ويمسح على رأسه، وقد تملكه الانفعال بما يرى.

وعرفت مديحة أن هذا ناجى. المأمور ناجى سلطان، مأمور إيتاى البارود، أخو جلال، وعم "أبو عوف" الصغير.

قال لها عم "أبو المكارم" ان هذا المأمور يتردد عليه، بين الحين والحين، سيعرف منه كل شىء يحدث هنا، وأنه حرص طوال المدة السابقة على ألا يعرف أحد عن زياراته له شيئاً.

وأشار عن "أبو المكارم" له أن مديحة شىء آخر. كذلك ممدوح.

وبعد لحظات، تفاهموا: ناجى ومديحة وممدوح وعم "أبو المكارم".

قال ناجى يضحك: وأنت يا معلم عترة، لا سرقات الآن؟

قال ممدوح: كله موجود، حسب الأحوال.

قال لمديحة: كان سمساراً ممتازاً، هذا الشيخ.

قالت مديحة: "ايش رماك على المر"؟

قال ناجى: آ.. "اللى أمر منه! ".

وأخذ ناجى يتطلع حواليه، ويدور حول المقابر، ويقف هنا وهناك، وقد تملكته المشاعر المتناقضة.

هذا قبر أبيه، الحاج سلطان. وقف ناجى عنده، وقد طأطأ راسه فى أسى. هذه أول مرة يزوره فيها ويقف عنده، ويعيش لحظات تأمل صامتة.

هأنذا يا أبتاه عند قبرك. طردتنا من رحمتك وأنت حى، لكنك لا تستطيع أن تطردنا من رحمة الله، وأنت ميت! ظلمتنا يا أبتاه! صدقت ما قالوه لك، فظلمت سامى وظلمتنى، أتظن أننا كنا نستطيع أن نخونك؟ نحن يا أبى نخونك، فى زوجتك الصغيرة! لعلك تكون قد عرفت الآن، وأنت فى عالم الحقيقة أنك أخطأت. أخطأت فى حق أمى وحق سامى وحقى وحق وردة. طردتنا ونحن منك، وأنكرتنا ولم ننكرك. ما كان أغناك

عن هذا كله يا حاج سلطان، لو أنك تدبرت أمرك وتحريت الحقيقة. لكنهم خدعوك يا أبتاه، ولعبوا بعواطفك.

ومضى ناجى يدور على القبور، فوقف يتأمل قبر الولد وأبيه. هذا أنت زوج أختى يا سبع الليل، يا "أبو سريع" يا جبار. هل كنت تظن أن حياتك ستنتهى بك هنا فى هذا القبر الضيق؟ كنت تتحدى الموت. كنت تظن أنك قوى من الموت، لكن ها أنت ذا ميت، مدفون فى قبر، وبجوارك ابنك، لا فرق بينك وبين "الشحات"، ولا فرق بينك وبين تفيدة! الموت سوى بينك وبينهم يا شيخ الخفر. هنا لا كرباج سودانى، ولا بندقية، ولا غفر، ولا حشم، ولا شىء، إلا أنت والقبر والظلام والملائكة والحساب!! اليوم لا تستطيع أن تخيف إلا نفسك! اليوم تدفع.. تدفع بالتى هى أحسن. تدفع ما أخذته كله مضاعفا!

وهز ناجى رأسه وهو يمر بقبور بقية أفراد أسرته. زوجات أبيه وأعمامه، لكن قبراً آخر من بين هذه القبور هى الذى وقف عنده يتأمله.

حتى قبرك مثلك مظلوم يا امرأة أبى الصغيرة الحلوة؟ كأنما أنت فى قبرك، كما كنت فى حياتك، بعيدة عن البيت وعن الضرائر القاسيات، وعن الفتن والمؤامرات. أو تذكرين يا إمرأة أبى؟ أو تذكرين حجرتك، وكيف كانت بعيدة عن الناس وعن البيت، مغلقة عليك، لا ترين أحداً ولا يراك أحد؟ لم تكونى تطمئنين إلا لأمى ولنا. لكنهم استغلوا ذلك واستغفلوا أبى، فوضعوك فى مواضع التهم يا تفيدة يا امرأة أبى يا مظلومة... قتلوك يا امرأة أبى وطردونا من رحمتهم. كلانا استراح، أنت فى الجنة، ونحن بعيداً عن شرورهم ونواياهم ومؤامراتهم!

وخشى أن تستبد به عواطفه فسار يجر رجليه إلى قبر أخيه.

وذكره، بكل ما كان يتمتع به من رجولة وشهامة وجرأة. كلماته التى كانت أبداً كأنها الطلقات، وابتساماته التى كانت كإشراق الصباح، وحماسته ووسامته، والمتناقضات التى كانت تتجمع فيه: قسوته ورقته! حنانه وغلظته! غموضه وبساطته!

والتاريخ الطويل من الشقاء والعذاب الذى عبرته إلى آخرتك.

حياة السجون والمعتقلات، ومواقف شجاعة نادرة، ما كان يستطيعها سواك يا جلال. أنت يا جلال والإنجليز بكل ما لهم من أساطيل وجيوش ودبابات. أنت والسراى بكل ما لها من قوة ونفوذ. أنت والأحزاب بكل ما لديها من ثراء وغنى. أنت وهؤلاء، وأولئك، لا تخاف، ولا تتردد. تواجه المؤامرات ضدك بابتسامة راضية قانعة. وتقابل الخطر الذى يدبرونه لك بالتعالى والكبرياء. تتخفى عن العيون لتحقق آمالك الكبار يا جلال، أو يا شبل، أو يا شيخ "أبو عوف" أو يا كل من تخفيت فى شخصه، لتضلل عنك أمثالى من رجال البوليس، ومن رجال السلطة المحتلين. كم تعذبت يا أخى. وكم دفعت من ثمن! حتى حبك لم يتركوه لك! حبك الأول قتلوه، بما أطلقوه من الرصاص، فماتت سالمة وهى تستند إلى صدرك! وحبك الثانى، هو هذا. ما أن بدأت تستمتع به يا جلال، حتى استكثرته الدنيا عليك فسلبته منك. ظهر ممدوح فشعرت أنك اعتديت عليه وأخذت منه حبه. عندئذ تركته له.. ثم تركت الحياة كلها فى شهامة وكرامة وكبرياء.

وهنا انزلقت من عينيه دموع ساخنة، لم يوقفها إلا صوت الصبى الصغير أبو عوف يسأله: لماذا تبكى؟ لماذا تبكى.. يا عمى؟

وحمله بين ذراعيه وهو ينتحب ويقول له:

كيف تعرف أنى عمك؟ يا حبيبى. يا بنى.



وبعد أن أفاق من انفعاله جلس مع مديحة و "أبو عوف" وممدوح وعم "أبو المكارم"، يتحدثون.

قال ناجى يسأل مديحة:

- أين ذهبت وصية عمى؟

قالت وهى تحمل ابنها على رجليها:

- أخذها أخوك، يوم حادثة أدهم.

قال المأمور:

- ولا تزال عنده؟

قالت:

- لقد أخذها أدهم، فلما وقع الحادث، وقتل أدهم، أخذها عباس.

قال:

- لكنها ليست عند عباس.

قالت:

- كيف عرفت؟

قال:

- بوسيلتى الخاصة. أو تظنين أنى أعدم الوسيلة لأعرف؟

قالت:

- لكن هذا غريب جداً. أين تكون إذن؟

قال:

- شيء من اثنين، اما أن صاحب مصلحة حصل عليها وأخفاها، أو أنها تكون قد فقدت من عباس المسطول، نتيجة اهمال.

قالت:

- فإن تكن الأولى، فمن؟

قال:

- من صاحب المصلحة فى أن تختفى!

قالت:

- سلطان ابن عمك.

قال:

- إذن...

قالت:

- لكن كيف... ربما يكون شخصاً آخر.

قال:

- جائز. شخص صاحب مصلحة أيضاً. يحتفظ بها ليستغلها ضده، أو يبتز بها ما يريد من مغانم. يستعملها لتهديد سلطان عند الحاجة.

قالت:

أولاً هل تأكد لك أن عباس فقدها؟

قال:

- ماذا أقول لك! قد لا تصدقين أنى فتشت بيته شبراً شبراً، فلم أعثر لها على أثر.

قالت فى ضيق:

- الله "يخيبه" هذا المسطول. كيف يضيع منه شىء هام كهذا؟

قال:

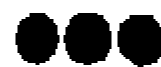
- على كل حال، يجب أن نعرف الآن أين هى.

قالت:

- أو ليست مسجلة؟

قال:

- آ... مسجلة، لكن وجودها أسهل، أما ضياعها فسيتعبنا حتى نصل إلى صورة منها.



وبدأ المأمور ناجى يحاول الوصول إلى هذه الوصية.

لكن كيف؟ إنه يريد الا يورط الشيخة فى علاقات قد تسىء إليها، ولا يريد أن يحول الشيخ عبد الرءوف إلى مخبر من مخبريه. حتى لا يفقد صفته أمام الناس. وعم أبو المكارم رجل قليل الذهاب إلى القرية، ومقره فى الخص البوص، الذى كان سكناً "لأبو عوف" وأسرته، وتردده على القرية، وعلى بيت العمدة، يجب أن يكون بمقدار، بعد أن استقر فى الخص تحت أقدام الحديقة والساقية يخدمها بقلبه حباً فى الجامع، بعد أن أصبح ذلك وقفاً عليه.

إذن لا بد من عناصر معينة للوصول إلى هذه الوصية.

من؟... من يا ولد من؟ يا حضرة المأمور من؟

واستعان المأمور ناجى بسبيلة الغجرية، فنصحته بأن يتروى، وأنها ستحاول أن تجد أى دليل على الوصية، وأين تكون.

ومن سبيلة الغجرية، انتقل الأمر إلى الخفير سعد.

وبدأ سعد يحاول أن يكتشف الأمر.

أين الوصية؟ هل سرقت من العمدة؟ هل ضاعت؟ هل أخفاها العمدة عن الناس جميعاً؟

وأخذ سعد يتحرى ويتقصى.

فى جلسة هادئة عند الساقية، جلس سعد يشرب الشاى مع شيخ الخفر، ويتغنى بأناشيد الحب، وشيخ الخفر يسمع فى نشوة. وفجأة توقف قائلاً:

- ماذا جرى لبلدنا يا شيخ الخفر؟

- لا شىء. خير يا ولد. ماذا جرى؟

- من يوم حكاية تفيدة، والبلد فى نحس.

- لماذا؟ وأى نحس.

- بعدها قتلوا "أبو سريع"، ثم أدهم.

- آه... صحيح سلسلة حزينة طويلة.

- هل تذكر يوم حكاية الخص وأدهم؟

- آ... أذكره.

- وهل تذكر الوصية التى قرأها العمدة عباس؟

- آه... أذكرها تماماً.

- يا ترى هل لا تزال عنده؟..

- طبيعى، وأين ستذهب؟..

- والله تسأله يا شيخ الخفر.

- لماذا؟ وما الداعى لسؤاله؟

- نعرف أين هى.

- ولماذا نعرف؟

- يا شيخ الخفر، واحد يحرض على سرقة بهائمك، وتتركه؟

- وما علاقة هذا بالوصية؟

- يا سلام يا شيخ الخفر، "ينهد"!!

- والوصية تهده؟

- طبعاً يا شيخ الخفر. أرض تنتزع منه، ولا تهده. خصوصاً هذه العائلة!

- يا سيدى... يهده ربنا.

- يا شيخ الخفر، والنبى تسأل العمدة. نعرف!..

- اسكت يا ولد. أنت تغنى "كفاية تغنى".

- والنبى يا شيخ الخفر.

ومضى يرجوه ويتوسل إليه، وشيخ الخفر يرفض أن يسمع لهذا الرجاء.

لكن الرجاء ترك بعض الأثر فى نفس شيخ الخفر.

حاول أن ينساه، فاستمر يلح عليه، وكلما كان يبعده عن نفسه، كان يعود إليه.

وأخيراً فاتح العمدة وسأله عن هذه الوصية، أين هى.

وفوجىء العمدة عباس بالسؤال مفاجأة لم يكن ينتظرها. وشعر شيخ الخفر أن العمدة قد ارتج عليه، ولم يستطع أن يجيب اجابة صريحة أو مباشرة.

وكان الخفير سعد غير بعيد منهما، بل وكان يرقب الاجابة بكل حواسه، يريد أن يعرف مكان الوصية.

ولم تكن اجابة العمدة مقنعة، لا لشيخ الخفر، ولا للأذنين المفتوحتين تترقبان: اذنى الخفير سعد، مغنى القرية ومطربها.

- آ... ماذا جرى لها؟ موجودة... ولماذا تسأل؟ تقصد الوصية.. وصية الحاج غضبان، طبعاً.. أين ستكون؟ أنا محتفظ بها. تريدها؟

وشعر شيخ الخفر، وشعر الخفير سعد أن شيئاً قد حدث للوصية هل فقدت؟ هل سرقت؟

على أن عباس العمدة قد أنهى الحديث بصورة ملحوظة معتذراً بأن عنده موعداً هاماً، وأنه سيرى شيخ الخفر فيما بعد.

وأسرع العمدة إلى الدوار.

وتبعه الخفير سعد كظله، وكان قد رتب الأمر، بحيث تكون كايداهم وفرحات موجودين تحت الطلب، إذا احتاج إليهما. وعندما رأته كايداهم يتبع العمدة غمزت إليه

بعينها، فأدرك أنها فهمت، وأن الأحسن أن يترك لها هى أن تتبع العمدة، فهى بنت، تعمل فى البيت، ولن يلفت وجودها نظر العمدة، ولا نظر أحد سواه.

ودخل العمدة الدوار، واختفى فى حجرة صغيرة ملحقة بالمندرة، ثم نظر هنا وهناك ليطمئن إلى أن أحداً لا يراه.

وكانت كايداهم مختفية وراء أحد الأبواب، فلما اطمأن إلى عدم وجود أحد، دخل العمدة، وفتح أحد الصناديق، وأخرج عدداً من اللفات، وأخذ يفتحها لفة لفة، حتى انتهى منها جميعاً، ثم يفتحها ثم يلفها، وقد غرق فى عرق غزير.

وبعد عدة محاولات صاح يقول لنفسه:

- يا نهار أسود. أين ذهبت؟ ضاعت! أين ضاعت؟ سرقت؟! من سرقها؟! شيخ الخفر عنده حق. أين ذهبت؟

وضاق العمدة بالموقف، ولطم على خده وهو يقول:

- أهكذا يا غبى!! أهكذا ضيعت حق الولد المسكين المظلوم؟ يا ليتك تركتها مع سيد المجنون. سيد كان أقدر منك على المحافظة عليها يا غبى.

وخرج العمدة عن وعيه، فأخذ يصيح طالباً درة زمانها، فلما جاءت ثار فى وجهها ثورة عاصفة، وأخذ يصيح فيها صيحات عالية:

- أنت. أنت خربت بيتى، وضيعت أوراقى. ماذا أعمل لك؟ أذبحك! أقتلك! قولى لى ماذا أعمل؟

وقالت هى فى براءة:

- لماذا؟ العمدة جن يا أولاد. تذبحنى؟! تقتلنى؟! يا سلام!! من أنا يا حضرة العمدة؟ أنا لا أزال بنت الحاج سلطان، أم تراك نسيت. بسيتى ونسيت نفسك!!

وظل الموقف بينهما متوتراً، وظلت صيحاته وصيحاتها تختلط فلا يبين منها شىء، حتى أقبلت ست الناس، لتهدىء الموقف بينهما.

قال العمدة:

- لولا أن أختك ضيفة عندك لكنت قطعت رقبتك.

قالت ست الناس:

- قل لى أنا. ماذا حدث؟

قال:

- ورق كنت وضعته هنا. ورق هام جداً، ضاع. من الذى يفتح هذا الصندوق؟ إما أنا وإما هى. قولى لى الآن، ممن ضاع؟

قالت درة زمانها:

- يا رجل استح. المصاغ عندك فى الصندوق، رجل محدث عينه فارغة.

قال:

- المصاغ لا يهمنى. المصاغ فى داهية. المهم الورق.

قالت:

- ورق؟ أى ورق؟

قال:

- كان هنا لفه وحدها.

قالت:

- آ.. كان هنا لفة ورق أبيض، ملفوفة كأنها محفظة.

قال:

- هى هذه. أين هى؟

قالت:

- وما أهمية هذه اللفة حتى تجن يا رجل؟

قال:

- أرجوك. أين هى؟

قالت:

- يا شيخ. هل أنت عاقل؟ ورقة كهذه تقيمك وتقعدك بهذا الشكل؟

قال متبرماً:

- وأكثر. أين هى؟

قالت:

- أخذتها الغندورة.

قال:

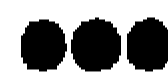
- يا نهار أسود!

قالت:

- عيب يا رجل. كانت تعبث بالأشياء التى فى الصندوق. تأخذها أم تأخذ الذهب والمصاغ.

صاح وقد فقد شعوره:

- ليتها أخذتك أنت. هذه الورقة أهم منك، ومن أهلك.



وتهالك العمدة عباس، وشعر أن الدنيا كلها تدور أمام عينيه، وأن كل شىء قد أخذ يلف، كالدوامة! بينما أخذت درة زمانها تبكى حظها التعس، مع واحد مثل عباس لا يعرف قيمتها ولا قدر أهلها، وينسى ـ لأنه صار عمدة ـ أنه لا يساوى شيئاً لولاها.

وأخذت ست الناس تخفف من هذا التوتر، وتمسح على صدر العمدة، وهى تصلى على النبى وتسأل الله سبحانه وتعالى أن يتداركه برحمته.

بينمـا كان صـوت شـيخ البلد المجنون يرتفع وهو يضـحك ضـحكاته العاليـة المجنونة، ويقول:

ربنا موجود.. موجود.. موجود.

صلى على النبى واتكل على الله... يا عبـد الله. يا عبد الله. يا عبـاس. يا عبـد الله. أصلك واحد من بهائم ربنا.

وهمس عباس لنفسه:

صـحـيح أنا من بهـائم ربنا. عـرفت الآن أنك يا شيخ البلـد، على حق. وأنى من بهـائم ربنا.

وأخذ العمدة يقول لنفسه:

- من بهـائم ربنا، من بهـائم ربنا. لكنك مع هذا عـبـد الله. أنت عـبـد الله. عـبـاس عبدالله.

□□□

٨

وراح عباس فى غفوة أعادت إليه جزءاً حزيناً من حياته.

ورأى العمدة فيما يرى النائم المنظر اللعين الكريه الذى لا ينساه أبداً، عندما كادت خيوط الجريمة أن تفلت من بين يديه، وكان وقتها شيخ خفر مسئولاً عن أمن القرية. لكنه على كل حال أسرع إلى الخص البوص المنحوس، عند أقدام حديقه الحاج سلطان، حيث رأى بعينيه الدم ينزف من أدهم وخاله القاتل فى ذهول مخيف.

هل هذا الخص البوص منحوس؟!! لكم شهد من حوادث وأحداث، غطت على أيام سعيدة، مرت به وتخللت حياته الطويلة، حتى لم يعد أحد فى القرية يذكرها، ولم يبق منك للقرية أيها الخص إلا الدمع والأسى والعذاب.

وهذه الحديقة التى ارتبطت بك هل هى منحوسة مثلك؟!! لقد شهدت حب الحاج سلطان، عندما استبد به هواه، فأخذ يتردد عليها يصطنع الأسباب ليعدو وراء الغزال النافر الشارد، يلمس مرة كفها ويتحسس مرة خدها وفى كل مرة تنهش النار عظمه العجوز، من فرط الرغبة.

وفى هذا الخص البوص نفسه، ولد جلال فكان السبب الذى دبروا من أجله جريمتهم، ليقضوا على الضحية المسكينة وعليه، فتخلوا لهم الدنيا، بلا شريك!

ومن هذا الخص البوص خرجت عائلة "أبو عوف" تجر رجليها، من الحزن والألم والخوف، لتلحق بالرجل المظلوم الذى اتهموه بقتل ابنته، فحبس سره فى صدره لا ينطق به حتى مات.

وشهد هذا الخص دموعك يا جلال، وأنت بعد رضيع، وسمع صيحاتك عندما كان أبو سريع يقسو عليك بلا رحمة ولا شفقة. نعم، ولولا أن "أبو المكارم" هذا الرجل الأخرس، كان يبعدك عنه، لما تردد فى أن يقضى عليك.

لكنه بعد أن مشيت عنه يا جلال إلى دمنهور، ظل مهجوراً، يخاف الناس أن يدخلوه. كانوا يتصورون أن به جناً، أو أنه مسكون بالشياطين. إن الخص والرعب، وكرباج "أبو سريع" والظلام، وفوهة مفتوحة فى الرياح لجثث الصبايا، والتحقيق والفاعل الأخرس الذى قتل بنته، والقرية المظلومة، كل ذلك شىء واحد، يطل من باب الخص المظلم المهجور. المعلمة وردة النقرزان قالت عنه ذات يوم "كأنه خرابة النداهة". كانت تنظر إلى المعلم مبروك فى أسى وتقول: تذكر خرابة النداهة؟ مثلها. هذا الخص مثلها! من يدرى؟ قد تكون النداهة "عزلت"، وجاءت إلى هنا. وهزت المعلمة رأسها ومضت.

لكن هذا الخص مع هذا قد شهد وجوهاً أخرى، وأنصت إلى بعض الهمسات.

عشاق صغار، لم يجدوا لهم ملجأ إلا فيه. الناس تخاف، لكن الحب لا يخاف. وفيه دفنوا همومهم وأشواقهم، وتخلصوا من الحرمان الطويل الذى أرق لياليهم. وفيه تهامسوا بالنجوى وتواعدوا على الوفاء، ومنهم من بر، ومنهم من نسى ما قال.

ولصوص، وأفاقون، وغرباء عابرون، هجعوا فى الخص المهجور، فى الليالى الحالكة يحتمون به من البرد والظلام، والرقباء والخطر، وأعداء الداء يفتحون عليهم ألف عين وعين.

وجلال كان يهرع إليك أيها الخص المهجور. كان يحن إليك برغم ما فيك من فزع. كان يقول أن حياته قد بدأت منك، وأن خيطاً رفيعاً خفيا يربطه بك. وكان يقول عنك أنك أحب إليه من أى مكان آخر فى هذا الوجود. رائحة أمك كانت تتضوع فى جنباتك. وأنفاس جده الخائفة الفزعة كانت تتردد بين أعواده. أتنسى عندما كان يذهب إليك، وكيف كان التأثر يتملكه، فيكاد يبكى؟ وفى أحيان أخرى كان يخف حتى ليكاد يرقص من

فرحة! مسكين يا جلال، ذهبت والدنيا محتاجة إليك، يا بطل يا شهم، ويا قلبا من حديد.

يا خص النحس، لقد ذهبت بجلال، وبقيت أنت.

لكنك يا خص، قد شهدت لقائى بها، فى السر وتحت جنح الظلام، كأننا عشاق نختفى فيك عن العيون.

هل كنت تسخر منى يا خص البوص، وتضحك علىّ؟!

هل كنت تعجب منى وأنا مضلل ومخدوع؟ لكن ما ذنبى؟ لقد كنت أشعر بشىء غامض! كنت أحس أنها هى، لكنى كنت أعود أكذب نفسى. طبعاً كان لا بد من أن أكذب نفسى. كيف يعود الميت؟! هى قتلوها ودفنوها وأقاموا لها سرادق عزاء. كيف إذن تعود؟ كيف يعود الموتى؟

واستعاد عباس فى غفوته تلك ما كان بينه وبين الست قمر من أحاديث، ولم يكن يدرى أنها هى الست قمر، حتى كشفها الله لك، يا عمدة.

آه يا خص البوص، أو يا خص النحس!

كم رأيت من ناس ومن أحداث!

الحاج سلطان، و"أبو عوف"، و"أبو سريع"، ومفيدة، والبلانة، والست قمر وجلال، وغفراً، وغجراً، ولصوصا عابرين، وأشقياء سفاحين، وعشاقاً، ونساكاً، وتجار مخدرات.

كل هؤلاء مروا بك!

كذلك كم شهدت يا خص!

صلوات العباد، وهمسات العشاق، ومؤامرات الأشقياء، ومخاصمات اللصوص، ومنازعات، وسرقات، ودعوات، وأسلحة المكافحين من الوطنيين، ومناقشات الشباب المناضل للتخلص من الاحتلال.

كل ذلك وسواه كان له فيك يا خص نصيب، إلى أن انتهى بك حظك بأن صرت قطعة من وقف الجامع، واستقر فيك الأخرس أبو المكارم.

إيه يا خص، كم أنت قديم وجديد! ألا ترانى الآن؟ لقد شهدت يا خص فيما شهدت وصية الحاج غضبان، وسمعتنى أقرأها على الناس. لكن الوصية ضاعت أيها الخص. أخذتها الغندروة!

وشعر العمدة بشىء كأنه الكابوس يكتم أنفاسه. لكنه رأى فى غفوته ناساً يتحركون كأنهم أشباح:

"كايداهم".. البنت كايداهم طارت عندما سمعت حكاية الوصية والغندورة.

وخرج الخبر من كايداهم إلى فرحات، فطار فرحات عندما سمع هذا الكلام.

وخرج الخبر من فرحات إلى سبيلة الغجرية، فطارت سبيلة عندما سمعت هذا الكلام.

وخرج الخبر من سبيلة الغجرية إلى سعد، فطار الخفير سعد عندما سمع هذا الكلام.

وخرج الخبر من الخفير سعد إلى شيخ الخفر مدبولى، فلم يدر مدبولى ماذا يفعل!!

وشعر العمدة فى غفوته، أنه محتاج إلى أن يهب على قدميه، ليهز مدبولى هزاً عنيفاً ليستفيق، وليصيح فيه: ما هذا يا رجل؟ ما هذا الموقف يا شيخ الخفر؟ أنت مسئول عن القرية والناس والمحاصيل ووصية الحاج غضبان. إما أن تتولى مسئولياتك، أو أنك لا تصلح شيخ خفر.

لكن العمدة رأى فى منامه ما شغله عن هذا الخاطر.

لقد ارتد الخبر من مدبولى إلى سعد، وارتد من سعد إلى سبيلة، فلم تصبر سبيلة عليه ولم تطق الانتظار.

وفجأة، وبغير أن تتردد، ذهبت إلى بيت فرج النمس، لترى الغندورة، وتحاول أن تجد عندها الوصية.

وكانت الغندورة فى أقصى درجات الحدة والغضب. كانت تسب وتشتم، وتلعن سخطاً بغير حد على الدنيا والناس. كانت وحدها فى هذا البيت الواسع، مع الوحدة والأرق والقلق والغضب والحرمان.

وما أن رأت الغجرية حتى صارت تقول:

- والنبى يا غجرية قولى لى. هل تستحق الدنيا أن يعيشها الناس؟

قالت الغجرية:

- صلى على النبى يا غندورة. أنت مؤمنة بالله، وحرام هذا الذى تقولينه.

صاحت الغندورة فى رعونة:

- حرام حرام. الدنيا لم يعد فيها خير. الناس جنت يا غجرية.

قالت الغجرية تحاول أن تعيدها إلى هدوئها. بكل ما فيها من ذكاء:

- هل قال لك أحد أنك تزدادين جمالاً وفتنة، كلما ازددت غضباً؟ والنبى يا غندورة أنت تصبحين قطعة من الشهد، كلما غضبت.

وهدأت حدة الغندورة، بينما الغجرية تقول:

- اغضبى يا غندورة. والنبى تغضبين. اغضبى لأتمتع بفتنتك وجمالك. يا ستى تصورى أنى أنا فرج النمس! أم لا أصلح أن أحتل مكانه؟!

وهزت الغندورة كتفيها، وهى تتثنى فى دلال.

وشعرت سبيلة أن هذا الكلام لا يعجبها، ودفعها الفضول إلى أن تتحسس ما فى دخيلة نفسها. ونسيت الوصية أمام الرغبة فى أن تعرف ما يدور بنفس هذه الغندورة الغامضة. قالت الغجرية فى تخابث:

- والنبى يا غندورة أنت ما كان لك زواج الآن. أنت لا تزالين وردة لم تتفتح أوراقها بعد. قطفوك ووضعوك أمام النمس. أفما كان أولى أن يتركوك تختارين؟!

وبدأت الغجرية تشعر أن الغندورة أخذت ترق، وأن الصيحات التى كانت تطلقها، أصبحت تنهدات تمتد إلى داخل نفسها.

ولم تشأ أن تترك الفرصة فقالت لها:

- من كنت تختارين؟ طبعاً هو...

وصاحت الغندورة تقول:

- من هو؟

قالت الغجرية:

- ومن سواه، حبيب القلب ومنى النفس، ونور العين؟

قالت الغندورة فى لهفة:

- أبداً... ليس هو.

قالت الغجرية:

- بل هو.. هو، بغير منازع.

قالت فى استسلام:

- يا شيخة حرام عليك. أما كفاه ما هو فيه؟

قالت الغجرية فى ذكائها الفطرى:

- لا تخافى عليه. سيعود إليك إن شاء الله.

قالت:

- أنا نحس يا غجرية على الرجال. كلما عرفت واحداً أخذوه

وعادت الغجرية تقول:

- يا شيخة حرام عليك. من يسمعك تقولين هذا يظنهم مائة.

قالت الغندورة فى مرارة:

- "اثنين"، واحد وراء الثانى، المنحوس والمتعوس، ولم يبق إلا خائب الرجا.

قالت الغجرية:

- سيعودان إليك إن شاء الله.

قالت:

- واحد يكفى. إن شاء الله يعود واحد.النمس أنا رامية طوبته.

قالت الغجرية تختبر ذكاءها وقدرتها على الاستنتاج:

- إن شاء الله يرجع سلطان... سلطان أيضاً!

قالت الغندورة فى سرعة:

- إن شاء الله يا بنت يا غجرية إن شاء الله.

وأصبح الشك يقيناً، وفهمت الغجرية ما بين الغندورة وسلطان.

الله الله الله... إذن، فالمسألة لم تكن عبثاً. الغندورة يا درة زمانها لم تكن تعبث، أو تلعب، أو تضيع الوقت. لقد كانت تبحث عن الوصية، لتعطيها لسلطان، صاحب المصلحة الأول فى اخفائها لتضيع معالمها، وتضيع معها ما تحويه من حقوق. إذن، أنت التى أخذتها يا بنت "أبو سريع"، وأنت التى قدمتها لصديقك سلطان بن الحاج غضبان عربوناً لحبك، واثباتاً لاخلاصك. وليضيع حق صاحب الحق!؟ ولا يكفيه ما لقيه منذ ولد. ذاق الحرمان، وهو بعد جنين فى بطن أمه عندما استكثر عليه أبوه البيت والأمن والاستقرار، فطرده عقوبه له على ذنب لم يقترفه، وبدلاً من أن يستعد لاستقباله بما يستقبل به الآباء أبناءهم من لهفة وشوق، وملابس جديدة، وترتيبات الولادة والسبوع، طرده إلى عرض الطريق وكان معرضاً للتشرد، والضياع لولا ذلك التاجر الكريم الذى أواه.

وهزت سبيلة الغجرية رأسها وهى تقول لنفسها إن الوصية عند سلطان. لا بد أنها أعطتها لسلطان، ولا بد أن "سلطان" أخفاها فى مكان لا يعرفه أحد.

وأخذت تفكر فى وسيلة تعرف بها أين تكون. هل تسأل الغندورة؟ هل تسكت ولا تسألها، حتى لا يثير فيها السؤال الحرص والحيطة؟

لكن كيف تعرف مكان الوصية؟

وقالت لنفسها: هناك شخص آخر صاحب مصلحة فى الوصية. سيد شيخ البلد المجنون. لكن سيد شارد عن الدنيا، هائم على وجهه، بغير قرار. أين يكون قد تركها. لدى إمرأته؟ لدى بنته؟ لدى أخته؟

– من أين يا غجرية تبدأين؟

لكن الغندورة عادت تحدث نفسها أول الأمر:

– ماذا قلت يا بنت لها؟ هل وقعت ولا تدرين؟

ثم قالت للغجرية:

– إياك أن تظنى أن بينى وبين سلطان شيئاً. إنه قريبى، كأخى. ليس بينى وبينه شىء. والله. لا شىء بينى وبينه.

وتخابثت الغجرية فقالت:

– وهل ظننت شيئاً يا ستى؟ أنا ـ لا سمح الله ـ لا أعرف شيئاً.

وأخذت الغندورة تقول فى اضطراب:

– لا تعرفين ماذا؟ ليس هناك ما تعرفين. وماذا تعرفين؟

وشعرت الغجرية أن هذا الجو من الاضطراب والخوف والانزعاج، هو الجو الوحيد الكفيل بإزاحة الستار عن السر. هذه الرياح العاصفة قادرة على أن تكشف الستار الخفيف أو الكثيف الذى تخفيه به. ولو هدأت الريح لضاعت الفرصة، ولفات الأوان، ولما أصبح ممكناً أن ينكشف السر، إلا إذا هبت الريح مرة أخرى، إذا هبت!

قالت الغجرية:

- يا ستى يا غندورة اطمئنى. نحن سيدتان. أنا مثلك، لى عاطفة وقلب ومشاعر، ومزاج فى بعض الأحيان!! لا تخافى منى.

صاحت الغندورة وقد تملكها الفزع:

- أخاف.. مم أخاف؟! أنا لا أخاف شيئاً. وهل هناك ما أخافه أو أخشاه؟!

قالت الغجرية فى حنان:

- أبداً. تخافين منى أنا؟! وكيف تخافين منى؟ قلت لك أنا مثلك. هل تخافين من واحدة مثلك؟! سرك يا غندورة هو سرى ودمعك هو دمعى وشقاؤك هو شقائى. هل أقول لك عن نفسى. هل أحكى لك ماذا أعانيه من همى؟ يا غندورة ثقى بى.

ولم تستطع الغندورة أن تسكت. انفجرت تبكى، وهى تقول فى صوت يتهدج:

- أنا!! أثق!! ماذا جرى لى؟! لا شىء. ليس فى حياتى شىء.

قالت الغجرية:

- طبعاً ليس فى حياتك شىء. وهل هذا شىء؟ الله يقطع "الرجالة" كلهم!! وهل هناك شىء يفسد حياتنا إلا هم. هل كان لا بد من أن يخلقهم الله معنا على سطح هذه الأرض؟ كان خلقنا بالدور. هم أولاً، أو نحن أولاً، لا يهم. المهم أن لا نتلاقى! أو كان خلقنا كل صنف فى ناحية. هم فى الشرق، ونحن فى الغرب، أو العكس، لا يهم. المهم ألا نتلاقى! لكن هكذا وجهاً لوجه.. ظلم. نحن ضعاف يا رب، والرجال يعرفون فينا هذا الضعف، يأخذون منا ما يشاءون، ولا يشبعون ولا يشبعون. لا يشبعون. كالنار إذا بدأت فإنها لا تقف.. أبداً.

وصاحت الغندورة فى انفعال:

- يا ساتر يا رب!! أى والله. لكن يجب أن تقف.

قالت الغجرية:

- لن تقف حتى تأكل كل شيء.

قالت وهى تصيح كالمجنونة:

- لم يعد هناك شيء. أخذ كل ما أملك.. حتى ما لا أملك أخذه.

قالت الغجرية فى خبث وحياء:

- هذا إذن حرام.. حرام عليك! ما تملكينه أنت حرة فيه. أما ما لا تملكينه فحرام عليك.

قالت الغندورة:

- عندك حق، لكن كان لا بد.

قالت الغجرية:

- كان لا بد لك أن ترفضى.

قالت الغندورة:

- يهجرنى، ويجننى!!

قالت الغجرية:

- يطالبك بما لا تملكين؟! هذا فجر!

قالت الغندورة فى استسلام:

- كان هذا أهم عنده مما أملك.

قالت الغجرية:

- ياه!! أهم من كل هذا الجمال... وهذا السحر!! مجنون والله مجنون!

قالت الغندورة فى تخاذل:

- أليس كذلك؟! والله مجنون. لكن أرضه وميراثه. الوصية كانت ستضيع منه أرضه وميراثه.

قالت الغجرية:

- وأخذها... أخذها؟

قالت الغندورة:

- لا. هل أنا مجنونة. وكيف أمسكه؟ بأى شىء أمسكه؟

قالت الغجرية:

- يا سلام! "أهو كده! " كنت أظنك بنت حلوة، فقط حلوة، فقط حلوة. لكنك ذكية وحريصة. لا والله واعية. واعية تماماً يا غندورة.

وعادت إلى الغندورة حيويتها، وجفت الدموع من مآقيها، ثم انطلقت تقول:

- كان يريد أن يستغفلنى. لكن "هو مين"؟! رآها بعينيه، ثم أخفيتها عنه، ليصبح فى قبضة يدى، بدلاً من أن يضعنى فى قبضته هو.

قالت الغجرية:

- "أهو كده". ويا ترى سمع الكلام؟

قالت الغندورة، وعلى فمها ابتسامة خفيفة:

- طبعاً. صار مثل العجينة.

قالت الغجرية:

- "يعنى طرى"!

قالت الغندورة فى تدلل:

- فقط فى يدى! لكن فى غير هذا كان.. كان ماذا؟ كان ماذا يا بنت؟ وضحكت وهى تقول: "كان ياما كان"!

قالت الغجرية:

- هنيالك" يا ستى. من قدك؟! طبعاً! عقبى لنا!

قالت الغندورة فى زهو:

- والله يا غجرية. الحب لذيذ يا بنت. وبحاره واسعة. لا له شاطىء ولا بر.

قالت الغجرية:

- وأحياناً يصبح كالنار يلسع، ويكوى.

قالت الغندورة:

- ولو. لكن لذيذ. ينسى الهم، ويطيل العمر. يا شيخة. هى مرة. مرة واحدة نعيشها، إذن لماذا لا نعيشها بحق وحقيق؟! لماذا لا نعيشها فى عز وفرح وهنا؟ هل لا بد من النكد؟ أنا أعطيته كل شىء. كل شىء.

قالت الغجرية:

- إلا الوصية.. ناس مجانين! "وصية إيه وبتاع إيه"!!

قالت الغندورة:

- عاقله!! كان يخاف أن يذهب ميراثه لواحد ثانى.

قالت الغجرية:

- "وإيش عرفه"؟ يمكن تكون الوصية إشاعة!

قالت الغندورة:

- إشاعة!! الناس كلها سمعتها يوم الخص. العمدة قرأها بأعلى صوته.

قالت الغجرية:

- طيب. إياك أن تضيع منك.

- قالت فى استنكار:

- تضيع منى؟! تبقى مصيبة! لا تخافى على.

قالت الغجرية:

- لا والله أخاف ونص! كل شىء جائز!

قالت الغندورة فى قلق:

- جائز!! تضيع!! لأ لأ. لا يمكن. ولا الجن يعرف أين هى.

قالت الغجرية تستفزها:

- هذا ما تظنين. لكن هل كل ما تظنينه حقيقة؟!

قالت الغندورة:

- يا نهار أسود!! تضيع!! لأ لأ. لا يمكن!

قالت الغجرية:

- المهم تحافظين عليها! فاهمة؟ وإن ضاعت.. ماذا تعملين؟

قالت فى انزعاج:

- أموت نفسى. آ.. أموت نفسى!

قالت الغجرية:

- يا شيخة صلى على النبى. ليش؟ ورقة "لا راحت ولا جت"، تموتى نفسك من أجلها.

قالت الغندورة:

- أبقى أنا مت!! لو ضاعت أبقى أنا مت!! خلاص... ماذا يبقى لى؟

قالت الغجرية:

- أنت خسارة يا بنت. واحد يحبك من أجل وصية، تموتى نفسك من أجله!! يا شيخة عيب. لو كان يستحق.. آ!! لو كان يحبك من أجل عيونك الحلوة، آ..! لكن من أجل وصية وميراث، لأ!! ثم هل يضحى من أجلك كما تضحين من أجله؟ أبداً!! يا بنت يا غندورة اعقلى. أنا مثل أمك. ثم انهم لو أخذوه، هل تعرفين متى يعود؟ أو هل يعود؟

وسكتت الغندورة، ولم ترد.

ومضت الغجرية، تملأ رأسها:

- لا بد للواحدة منا أن تحذر الرجال. لا أمان يا بنتى للرجال. إنهم وحوش يمصون دم الواحدة، حتى تصبح جلداً على عظم، وعندئذ يرمونها ليبحثوا عن واحدة ثانية. ونحن مسكينات، نصدقهم ونثق بهم ونذهب إليهم بأقدامنا. "ولايا ومساكين". "أى والنبى ولايا". اعقلى وفكرى فى مستقبلك. هل سينفعك "سى سلطان بتاعك"؟! أخذك وعصرك ومص دمك، ومن يدرى.. ربما أخذ الوصية أيضاً.

وصاحت الغندورة تقول:

- أبداً... أبداً. الوصية أنا أخفيتها حتى عن الجن الأزرق. الوصية بعيدة ولا يمكن أن أحداً سيصل إليها. آ.. آ.. الوصية.. لأ لأ.. لم يأخذها.

وأصيبت بحالة عصبية، وهى تردد هذا الكلام.

وشعرت الغجرية أن عليها أن تتركها الآن لهذه الانفعالات، فأخذتها فى حضنها تهدئها، ثم قبلتها وخرجت.

لكنها لم تغلق الباب خلفها.

فما هى إلا لحظة، ثم عادت تفتح الباب فى حذر شديد جداً.

وصح ما توقعته! لقد وجدتها قد أسرعت لتطمئن إلى أن الوصية لا تزال حيث تركتها. وثبت إلى السطح، فأسرعت الغجرية تصعد السلم، لترى أين ذهبت. وهناك فى

غرفة بالسطح وجدتها قد اختفت، وظل الباب وراءها مفتوحاً. آه يا غندورة، فقدت السيطرة على نفسك! لم تستطيعى تقدرين على التفكير فى شىء إلا أن تجدى الوصية.

وعلى طرف السلم وقفت الغجرية ترقب الغندورة، وهى تبحث فى صندوق خشب قديم، ملىء بأشياء كثيرة مختلفة: عقود وحلى وملابس وهدايا.

لكن الوقت طال، وحركة الغندورة زادت.

ورأت الغجرية من خلال الباب أنها انهمكت أكثر مما يجب، تبحث وتقلب كل شىء لتجد الوصية. لقد تركت الصندوق الخشب إلى دولاب فى الحائط، وأخذت تقلب ما فيه، حتى السلاح أخرجته. بندقيتان وبضعة مسدسات أخرجتها، وقذفت بها فى عصبية، لتبحث عن الوصية. آه يا غندورة، ألا تخافين أن يكون سلاح منها معمراً، فينطلق فيك!! احذرى يا بنت.

ومضت الغندورة من الدولاب إلى طاقة خفية فلما لم تجد مفتاحها كسرتها بيديها لتبحث عما فيها، لكنها ارتدت إلى الصندوق، ثم إلى الدولاب، ثم رفعت دكة من خشب فى ركن الحجرة.حتى المرتبة مزقتها لترى ماذا فى داخلها.

وفجأة ارتفع صوت الغندورة تستغيث.

عندئذ أسرعت الغجرية إليها، فوجدتها فى حالة إعياء شديد، تترنح فى الغرفة التى تبعثر فيها كل شىء، الأوراق والملابس والحلى والسلاح والهدايا. كل شىء كان مبعثراً. حتى أنت يا غندورة قد صرت مبعثرة. ملابسك اكتست بالتراب. شعرك تناثر حتى كاد يخفى عينيك. صدرك أطل عارياً من ثوبك! عيناك انتفختا بالكباء! أنفك صار كالقربة المنفوخة! كل شىء فيك تغير يا غندورة!

ولم يثر دخول سبيلة الغجرية فضولاً لديها. كانت فى حالة لا تسمح لها بالفضول. على العكس. لقد ارتمت على صدرها، وأخذت تبكى فى حرقة والغجرية تطلب منها ألا تصرخ أو تستغيث.

- مـاذا يقـولون؟ ومـاذا تقـولين للناس إذا دخلوا عليك وأنت على هـذا الوضع؟ اسكتى أحسن لك. اسكتى يا غندورة.

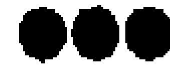
لكن الغندورة كانت قد فقدت القدرة على السكوت، فأخذت تصيح وتولول وتستغيث.

ولم تجد الغجرية من وسيلة إلا أن تسحبها سحباً إلى الدور الأسفل حتى لا يرى أحد الحجرة العليا على هذا الوضع.

وعندما أقبلت بعض الجارات تستوضحن الخبر، قالت الغجرية:

- مسكينـة!! إنه زوجها يا ناس. طبعاً. هل الواحدة منا لها غير زوجها؟ شديد عليها أن يذهب زوجها عنها، وهى لا تزال طفلة. "هيه دى كان لسه لها جواز؟ "!!

وشعـرت الغندورة وهى تسمع هذا الكلام أن الغجـرية قد انتشلتها من جوف البئـر، وأنقذتها من فضيحة ما كانت لتستطيع أن تخرج منها.. وحدها!



الغجرية شعرت أن عليها أن تسرع إلى سعد.

لكن مـاذا يستطيع سـعـد أن يعمل؟ إنه غـفـيـر باللبس واللبـدة والشـريط الأحـمـر والبندقيـة، ثم لا شىء!! إنه يغنى وتتجمع النـاس حوله ليطربوا بما يقوله، والبندقية فى يده، كأنها ربابة أو أرغول!! أو صفارة غاب صوتها متكسر وحزين!!

أقول لسعد!! سيسمع، ثم يعجب، ثم يتأثر، ثم يغنى!

وطاف خياله الرقيق العذب بين ناظريها، وكأنما يعاتبها، وذكرت ما اعتاد أن يقوله لها كلما أثيرت حكاية الخفير المغنى، أو المغنى الخفير.

- يعنى أنا لا أصلح؟

- أنت سيد الرجال يا سعد.

- كنت إذن تثقين بى!

- فى المغنى، أى نعم! فى الحب، أى نعم! لكن هذا لا هو مغنى ولا هو حب، هذا حرب!

- والحرب من غير حب تبقى أيش يا غجرية؟

- حرب... هى هى حرب.

- لا يا غجرية. لا شىء فى الدنيا فى غنى عن الحب.

- حتى الحرب؟

- حتى الحرب!

- الحب أيضاً فى الحرب؟

- والحرب أيضاً فى الحب.

- لا أعرف، لا أفهم.

- من غير حب، تصبح الحرب سطو عصابات، كلها سرقة وتحايل وسفك دم ونصب!

- غريبة. هذه غريبة.

- أبداً يا غجرية. الإنسان يحارب فى سبيل من يحب وما يحب. يحمى ناساً يحبهم ويحبونه، ويذود عن أماكن يحبها ويقدسها. إنما يحارب والسلام، أو يحارب ليعبر عن الكراهية والسخط والحقد، فهذا انتقام، والانتقام نقمة.

- ما فكرت أبداً فى هذا.

- كذلك الحب لا يعيش ويأمن ويستقر إلا بالحرب. الواحد منا فى حرب دائمة ومستمرة ليصون الحب. يحارب نفسه ليقتل الملل والسأم واليأس والخيانة. يحارب غيره ليستقر حبه فى أمن وآمان، لا يهدده شىء. حبه لنفسه يدفعه إلى الحرب ليحتفظ بحريته وكرامته ولقمة عيشه. حبه لأسرته يدفعه إلى الحرب ليؤمن لها حياتها. حبه لوطنه يدفعه إلى الحرب فى سبيل الوطن.

- يا سلام يا سعد. أنت والله أستاذ، مثل القاضى!

- والذين يحاربون من غير حب يكونون اما وحوشاً بلا قلوب، يقتلون بلا رحمة، أو جبناء يفزعون من الهواجس ويخافون من الأشباح.

- والذين يحبون.. مثلنا؟

- يشعرون بكبرياء الحب، فلا يقسون ولا يهربون.

- يعنى تقدر عليه يا سعد؟

- إذا حاربته لحب، أو بحب.

وأضاف سعد وهو يهز رأسه:

- آه يا غجرية لو تفهمين. الحب يا غجرية شىء عزيز ونادر وغال. والحصول عليه صعب وشاق.

- الا تحبنى؟

- أكثر مما أحب آدم حواء.

- وأنا أيضاً أحبك أكثر مما أحبت حواء آدم.

- أنا أكثر.

- بل أنا أكثر.

- جاهلة. غجرية جاهلة.

- أعط إذن من حبك شيئاً للحرب.

- قلت جاهلة. أنت جاهلة يا غجرية. الحب لا يدخر، ولا يتحول من شىء لشىء. كل حب له كيانه، ومكانه، فإن كثر فلنفسه، وأن ذبل أو جف، فلنفسه! قد يكون الحب جارفاً كالفيضان فى مكان، ومكان آخر ملاصق له جاف كالأرض "الشراقى".

- قلت لك، كأنك القاضى.

- القاضى من؟

- القاضى. ألا تعرفه؟ القاضى الذى سيزوجنى ويزوجك إن شاء الله.

- آ... فهمت، فهمت.

ومضت الغجرية وخياله لا يزال بين ناظريها. لكنها مع هذا أخذت تسأل نفسها: هل تذهب إليه؟ أو تذهب إلى مدبولى؟ أو تذهب إلى العمدة؟ أو تتجاهل كل هؤلاء، وتتجه إلى المأمور؟

يا بنت سعد منك وأنت منه.

آ.. لكنه مغن.. لذيذ..! وأنا محتاجة لخفير كالوحش.

وما عيبه المغنى؟! هل يستقر الأمن بغير أغانى؟

الأمن؟ حتى الأمن! إذن يجب أن يكون سعد هو العمدة، يغنى فيطرب الناس، ويستقر الأمن! أو يغنى فيخدر الناس، فلا يقدرون على تعكير الأمن! أو يغنى فيتحاب الناس، وينشغلون بالحب عن الأمن!!

وبينما سبيلة الغجرية تضرب أخماساً فى أسداس، وتروح وتجىء مترددة تسلى نفسها بهذه الهواجس والوساوس وأحاديث النفس، إذا هى مفاجأة لا تخطر لها على بال. لقد كانت تريد أن تسبق سلطان بن الحاج غضبان، لتبحث فى غيبته عن الوصية.

لكنها تجد نفسها أمامه وجهاً لوجه!

هو هو: سلطان بن الحاج غضبان!



هو بشحمه ولحمه، يشق الحقول فى انتباه، ويتنقل على القنوات كالنمس، خفيف الخطو، سريع الحركة، يتلفت حوله وخلفه فى حذر!

الله! تركوه؟! أما حكومة. لا لا... ليست هذه حكومة، التى تترك "سلطان"، قبل أن تبحثى يا بنت عن الوصية، فى حرية وأمان. هذه حكومة "مساطيل"! لا تعرف رأسها من رجليها!!

وانقطع تفكيرها تماماً. لم تعد تفكر فى سعد، ولا فى الحب، ولا فى الحرب ولا فى الأمن، ولا فى الأغانى، وإنما انحصر تفكيرها كله فى شىء واحد: هذا الشبح الذى تراه، يتنقل فى خفة وسرعة وحذر!

ماذا دهاه؟ ماذا يريد؟ إلى أين يسير؟

وشعرت أن كل ما كانت تفكر فيه، اختلف. كل شىء اختلف، وأصبح عليها أن تتبعه فى خفة كخفته، وسرعة كسرعته، وحذر أشد ذكاء من حذره.

نعم، وإلا رآها. فإن رآها، فقد يحدث أى شىء. قد يعتدى عليها، قد يقتلها! لكن لماذا؟ هل فعلت شيئاً؟ هل ارتكبت شيئاً ضده؟ إنه يظلمها لو قتلها. سيعرف أنه ظلمها.

وكادت تضحك من سذاجتها، وهى تسأل نفسها سؤالا أشد سذاجة منها:

متى يعرف أنه ظلمها؟ قبل أن يقتلها أو بعد أن تسيل دماؤها بين هذه الحقول الخضراء؟!

فإن عرف، فهل يعيدها إلى الحياة؟ ستكون قد ماتت وشبعت موتاً!

لكن عرف ماذا؟ لو عرف أنها تريد الوصية، فإنه لن يندم على قتلها!

آه.. سيقتلها إذن، ولم يندم! فإن ندم، فهل الندم يعيدها؟

واتجهت أفكارها إلى سعد الخفير المغنى، وكادت تربت على خده تعزيه فى نفسها!!

أصبحت وحدك يا سعد، بلا سبيلة الفجرية!! محكوم عليك أن تكون دائماً وحدك!

يا مسكين يا سعد، لن ترانى بعد الآن. متى كان آخر لقاء لنا؟ وماذا قلت لى، وماذا قلت لك؟ يا سعد يا خفير يا فلاح، ستظل البندقية فى يدك، كأنها عود من الغاب، لا

تنفع ولا تشفع! يا ترى هل ستسليك بندقيتك عن سبيلة الغجرية؟ هل تظل إلى جوارك جامدة لا تتحرك، أم تطلقها لتنتقم وتأخذ بالثأر؟!

وكان سلطان ينتقل من مكان إلى مكان، ومن حقل إلى حقل، وهو يتلفت حواليه.

وحاولت الغجرية ألا يفلت منها، لكنها وجدت نفسها فى لحظة بعيدة عنه، اختفى سلطان! يا مصيبتك يا غجرية! ضاعت منك الفرصة يا غجرية!

وأخذت تتلفت حواليها، تنظر مرة هنا ومرة هناك، وهى تكتم أنفاسها. لكن ذلك كله قد ذهب هباء. لقد تاه منها سلطان. ولم تجد أمامها إلا أن تجلس لتستريح، فاسندت رأسها على جذع شجرة جميز عتيقة، وراحت فى سبات عميق.كانت تريد أن تنسى نفسها بعد هذه الخيبة التى منيت بها. من يدرى، قد تكون الأحلام مسلية لها عن الواقع الذى صدمها. ورأت الغجرية فيما يرى النائم أنها عثرت على سلطان، وأن سلطان أعطاها الوصية لتحافظ عليها وتحتفظ بها حتى يخرج من السجن، لكنها فقدت الوصية! فقدت الوصية! فقدت الوصية!

آه... أين الوصية؟ أين الوصية؟.. أين الوصية؟

وأخذت تصيح صيحات فزعة مضطربة، حتى وجدت نفسها تفتح عينيها، فتجد عينين تطلان فى عينيها، من فوق رأسها.

وتسمرت عيناها، وتسمرت نظراتها، وجمدت فى مكانها لا تتحرك ولا بالصياح.

قال لها فى همس:

– لا تفتحى فمك، وإلا عرفوا مكانى. سأنسى فعلتك الدنيئة مع المعلمة حتى أختبرك.

ولم ترد. لقد أصابها الخرس، فلم ترد.

واستأنف سلطان.. آ.. سلطان بن الحاج غضبان، الذى تاه منها منذ قليل.

استأنف الكلام:

- أنا هربت منهم. انهم سذج وأغبياء. عندى مسألة مهمة، قلت لنفسى أنتهى منها، ثم ربنا يفرجها. لو قلت لهم، يبقى عليك العوض، فاهمة؟ كلمة واحدة تدفعى حياتك. حتى لو مسكونى، فثقى أن ورائى رجالاً أشد منى. أمامك فرج النمس، حبسوه لكن رجاله ـ كما ترين - يثأرون له فى كل مكان. سيخربون بيت مدبولى القذر، وسترين.

وحاولت أن ترد فقال:

- أنا أعرف أن الغجر فيهم شهامة ومروءة، وسأجريك يا غجرية.

هل أثق بك؟ قولى أثق بك؟ أنا لست المعلمة وردة تضحكين علىّ! قولى أثق أو لا؟

وهزت رأسها مرات، فقد كان لسانها معقوداً لا يتحرك.

قال لها فى شدة:

- لكن كيف أثق بك؟ فسرى لى أولاً حكايتك مع الضابط والمعلمة. قولى وإلا قتلتك.

وشعرت أنها تواجه الموت فعلاً، فأسرعت تقول:

- رسالة كلفنى بها إليها، وما على الرسول إلا البلاغ.

ونظر إليها مرتاباً فيما تقول، لكنه هز رأسه وهو ينوى أن يعطيها فرصة أخرى ولم يكن أمامه كذلك إلا هى ليلجأ إليها.

قال سلطان من مكانه من الجميزة:

سأعطيك شيئاً تحتفظين به حتى أعود. إياك أن تفتحيه أو تفرطى فيه. أمانة عندك، تحافظين عليها بعينيك حتى أستردها منك، أو أسترد بدلها حياتك.

وهزت رأسها تؤمن على كلامه.

قال يهمس لها:

ـ انتظرى قليلاً حتى أطمئن، ثم أسلمك الأمانة. لو اتصلت بهم فترحمى على نفسك!

كان سلطان مستلقياً على شجرة الجميز، فى تعريشة خشب تطل على الحقول، تختفى بين فروع الجميزة كالسر المكتوم. الخفر والفجر يعرفون هذه التعريشة، ففيها يقبعون لا يراهم أحد، ويرون هم كل الناس. الحقول أمامهم مكشوفة، بينما هم فى أمان لا يكشفهم أحد. ولولا التعريشة لطالت الليالى الحالكة، وأيام الهجير. وفى أيام الحصاد تصبح التعريشة بيتاً، يعيش فيه الخفر أو الفجر. وفى بعض الأحيان تصبح سكناً شرعياً تتلاقى فيه الأسر، أو عش غرام يتلاقى فيه العشاق.

فى بساطة الحقول هذه التعريشة. بضعة فروع جافه من شجر السنط أو التوت تتراص متجاورة، ثم تكسوها كمية من قش الأرز أو حطب القطن أو البوص، وفوق ذلك قطعة حصير، والقلة على جنب منها، وعلى الجنب الثانى براد الشاى، والسكر، واستلقاء المجهدين المتعبين، مرة يغمضون عيونهم، ومرة يفتحون عيونهم، والسلاح "عمران" جاهز ومستعد. وطلقة فى هذا الفضاء تحذر المتربصين، لكنها من ناحية أخرى، تدل على مكان التعريشة، فتنصب لها الشبكة والمصيدة!

دنيا غريبة هنا فى هذا الريف!

الأحلام والخضرة وقطرات الندى، وطلقات البنادق، ولصوص الماشية، وناس يحرسون من التعريشة، وآخرون يحيطون بالتعريشة. وهمسات عشق، وفحيح أفاعى، ولدغات بعوض، وأسرار فى قلوب العذارى، وأحقاد فى نفوس البشر.

وسلطان هنا، يتربع فوق التعريشة يختفى، ويتربص!

وسبيلة الغجرية ملتصقة إلى جذع الجميزة، تخاف أن تتحرك، حتى لا تنطلق فى أثرها رصاصة ترديها قتيلة!

وفجأة تشعر أن ناساً قادمين، يتسللون بين الحقول.

لكنها تشعر أن "سلطان" يراهم.

وتراقب حركات سلطان، لتعرف من يكونون.

حركاته لا تطمئن. إنه يبدو كمن يتأهب لقتال. إنه يمسك مسدسه بيد، ويكشف عليه بيد، ثم يضع إصبعه على الزناد فى استعداد.

إذن هؤلاء القادمون ليسوا من رجاله.

ولا بد أن يكونوا أعداءه، أو يتعقبونه.

وهو يراهم من التعريشة، وهم مساكين، لا يرونه، ولا يشعرون به، إن حركاتهم متصلة، لم تنقطع. لم يخطر ببالهم أنه هنا، أو أن أحداً لا يمكن أن يكون هنا! هم إذن ليسوا من هنا! من يا ترى يكونون؟!

وخافت سبيلة عليهم.

إنه فى موقف الأقوى، وهو فوق الشجرة، وفى يده مسدس، يراهم ولا يرونه.

هل يطلق عليهم الرصاص؟ لقد أدركت سبيلة أنهم أكثر من واحد، من أصواتهم الهامسة، وحركاتهم بين المزارع.

لكن لماذا يطلق عليم الرصاص؟ قد لا تكون بينه وبينهم صلة على الاطلاق.

وهذا التأهب، وهذا الاستعداد؟

من يدرى؟ قد يكون للحيطة والحذر!

ونظرت سبيلة ناحية قبة سيدى الذكيرى، وأخذت تقرأ الفاتحة فى سرها، لينجو هؤلاء الناس من شره. إنها لا تعرفهم، لكنها لا تريدهم أن يذهبوا فى غمضة عين، من جهنم هذه المفتوحة عليهم.

وأخذت الحركة تخف، وتبعد، وتتوارى، حتى اختفت عن سمعها.

ولم تدرى ماذا حدث، إلا عندما سمعت سلطان يقول لها:

– انظرى. إنهم هناك. على الجسر. لم يجدونى أولاد الأبالسة.

قالت الغجرية:

- من هؤلاء؟ يا سى سلطان؟

قال سلطان وهو يهزأ منهم:

- المباحث يا بنت يا غجرية. لكن مباحث ورق، كلعب الأطفال!

وفى لحظة كان تحت الجميزة، يقف أمامها.

قال لها:

- اسمعى يا غجرية. انتظرينى.. تنتظرين أين؟.. أين يا ولد؟

عند الساقية. سآتى لك بعد دقائق لأترك معك أمانة، وإياك أن تفرطى فيها، والله أقطع رقبتك ورقبة أهلك لو ضاعت منك. فاهمة يا غجرية؟ لن أتأخر، فأنا أريد أن أعود حتى لا يظنوا أنى هربت. سأقول لهم أى شىء. إنهم أغبياء، حتى ضابطهم غبى. اذهبى أنت، وانتظرى هناك. أنا أبقى لك منهم يا غجرية.

وسكت قليلاً، ثم أمسك بوجهها بين كفيه وقال:

- الله الله. أنت حلوة يا بنت يا غجرية. كيف لم أتنبه لهذا الجمال من قبل؟ وأقول عنهم أغبياء؟! أنا الغبى. غبى وأعمى! على كل حال سيكون هناك وقت، بعد أن أعود.

وقرصها فى خدها، وهو يؤكد عليها ألا تغيب.

لكنها ظلت جامدة فى مكانها، وهى تنظر إليه نظرات غامضة.

لم تنطق بحرف، لكنها نطقت لنفسها. قالت كلاماً كثيراً عنه:

- حتى أنت يا لص!! يا جبان!! ومن أدراك أن سيكون هناك وقت بعد أن تعود؟ وهل تعود؟ هل يتركونك تعود؟ فإن عدت، فستكون عائداً من السجن يا مجرم!! ولم تكتشف جمالى إلا الآن يا غبى؟ وهبك اكتشفته من زمن، ماذا كنت تظن أنك فاعل به يا إبليس؟ هل لأن أهلى الغجر سلموا "لأبو سريع" مرة، يسلمون فى كل مرة؟ هى مرة ولن تعود أو

تتكرر يا جحش!! لكن ماذا أقول يا سلطان يا ابن غضبان؟ اعتدتم على هذا! لا شيء يقف فى وجوهكم! لا شيء يحول بينكم وبين ما تريدون! كل شيء لكم مباح! لكنك نسيت أننا غجر، لا لنا ولا علينا. ماذا يهمنا؟ لا شيء لأننا لا نملك شيئاً. الحمارة والمعز والخيمة. كلها. أحرقها. "بلها وأشرب ميتها"! لكن نسلم لك، لأ! نخاف منك، لأ!

وما أن اختفى من بين عينيها، حتى أسرعت خلفه. لم تذهب إلى الساقية كما قال لها، ولكنها أسرعت خلفه فى خفة.

قالت فى نفسها:

- هى الوصية. لاشيء يهمه قدر ما تهمه الوصية. لقد هرب من أجل الوصية، وسيضعها عندها أمانة حتى يفرجها الله.

لكنها عادت تقول:

- فرصة وجاءتك حتى بابك. أنت وراء الوصية بالباع والذراع، فجاءتك حتى دارك. سيعطيك الوصية بيديه، من غير جهد ولا تعب. هل تعطينها لسعد أو لعباس، أو للمأمور ناجى؟

ووقف تفكيرها يؤنبها:

- يا نهار أسود يا غجرية. أمانة تسرقينها؟ آ.. هو سارقها، لكن تسرقينها أنت منه؟ تصبحين مثله!!

- الله!! لكن تتركينها له، وأنت تعرفين أنها شيء هام لعباس ولسعد، وللمأمور؟!

- لأ، خونى الأمانة.

- هذه ليست خيانة. هذه وصية تعيد الحق لأصحابه.

- الحق لا يعود لأصحابه بخيانة الأمانة.

- الحق يجب أن يعود بأى شكل.

- لا يا بنت يا غجرية. الحق يصبح باطلاً لو استعمل طريق الباطل.

– وبعد يا بنت يا سبيلة يا غجرية؟! ماذا أنت فاعلة. آ.. لا تذهبين إليه عند الساقية. لا تبرى بوعدك. على كل حال أنت لم تعدى بشىء. هو الذى قال هذا ومضى. هذا ليس وعداً ولا تعهداً. لا تذهبى إليه تتبعيه لتعرفى ماذا هو فاعل. أنت لست خائنة. أنت لا تخونين حتى الخونة. إذن تجنبيه حتى لا تقعى فى محظوره.

– طيب إذا ضبطك خلفه. ماذا تقولين؟ قد يؤذيك يا غجرية.

– سأقول.. ماذا سأقول؟ آ.. سأقول المباحث رأتك، فسبقتهم إليك يا سى سلطان، لتعمل حسابك منهم.

– وهل ستطلى الحيلة عليه؟

– وعلى المرحوم والده أيضاً.

ومضت الغجرية خلفه كالقطة الخائفة، ومضى هو يسبقها لا يلتفت عن يمين أو عن يسار. لم يكن يريد أن يلفت إليه الأنظار، فمضى كأنه السهم. وعند رأس أحد الحقول، عرج على ترعة، وتلفت حواليه، ثم نزل إلى حافتها، ومد يده خلف أحد المبانى التى تقام ليسندوا عليها الطمبور، فيسهل أن يدار ليغترف الماء من الترعة، وأخرج من خلف المبنى علبة من الصفيح، سحبها بسرعة، ثم وضعها بين طيات ملابسه وعاد مسرعاً من حيث أتى.

وعرج على الساقية وأخذ يطيل النظر هنا وهناك.

وصعد على جسر الرياح ليطل عن يمين ويسار.

ثم هبط على القناة المحاذية للحديقة، وأخذ يطل على المزارع.

وأصابته حالة عصبية، وتلفت وتوقف، ومضى إلى جذع الجميزة، حيث أخذ يفتش فى ارتباك، ثم نبش حفرة فى مدار الساقية، تعمد أن تكون فى مكان ظاهر، ووضع العلبة الصفيح ومضى إلى النقطة.

وضحكت سبيلة حيث كانت تختفى وراء الصفصافة، فلما مضى، واختفى عن المكان، ولم يعد هناك احتمال أن يعود، ظهرت من مخبئها، وبينما هى تتجه نحو المكان الذى أخفى فيه الوصية، وجدت الرجال الذين كانوا يتبعونه، وقال لها عنهم أنهم مباحث، يتقدمون نحو الحفرة، وينبشونها ليخرجوا منها العلبة الصفيح، وهم يتندرون عليه:

- كان يظن أننا مغفلون، وأنه خدعنا.

- وهو المغفل الحقيقى.

- هرب.. منا.

- وهربناه!

- واختفى منا.

- وأخفيناه!

- وجاء بالوصية من حيث كانت.

- ومكناه.

- ودفنها عند الساقية.

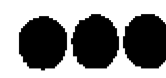
- فعزيناه!!

وتبادلوا الضحك الطويل العميق، وهم يقولون: أفما كان أجدى أن يدفنها فى الذكيرى، ويقرأ عليها الفاتحة.

- إلى جوار أبيه!

- ويزورها فى المواسم والأعياد!

وعضت سبيلة على شفتها، كمن كانت على وشك أن تقضمها غيظاً من هؤلاء الرجال "المباحث". ومن حظها!



وعندما ذهبت إلى المأمور ناجى سلطان، دخلت عليه غاضبة، محتقنة الوجه عالية الصوت، تقول فى حدة:

- ليش تطلبها منى، طالما أنك أرسلت غيرى؟!

وضحك طويلاً وهو يسألها:

- ماذا؟ طلبت ماذا؟

قالت:

- المحروقة الوصية. دخت وراء سلطان، وكان من الجائز يقتلنى، ورجالك "المباحث" هناك ينافسوننى. يا شيخ حرام عليك. ألا تثق فىّ. إذن تطلب منى هذه الخدمات؟ هل هذا هو العهد الذى بيننا يا مأمور؟

وظل المأمور يضحك، ثم التفت إليها وقال:

- أنا طلبت منك أن تتبعيه! وهل أنا مجنون حتى أطلب هذا؟ أرسل غجرية مثلك وراء واحد مجنون و"سايب"؟! اعقلى! أنت غالية عندى يا غجرية، وعيب أعرضك للخطر! أنا مأمور بوليس، لكنى حريص عليك، كما أنا حريص على عملى. أنت أيضاً جزء من عملى يا مجنونة. يا غجرية يا مجنونة. مهمتك كانت أن تعرفى أين ذهبت من بيت عباس.

وصاحت فيه:

- لكنى لم أخبرك بمكان الوصية. كيف عرفت، وممن؟

وضحك طويلاً وهو يقول لها:

- من مصادرى يا غجرية. مصادر-مهمة مثلك.

وأخذت تعجب من هذا المأمور-الشيطان، بينما اعتدل لها وقال فى أسى:

- على كل حال الوصية لا تزال فى مكان مجهول.

وهبت تقول:

- الوصية أخذها رجالك "المباحث".

قال فى بطء:

- أبداً. هم عادوا إلى بالعلبة الصفيح، لكن الوصية لم تكن فيها.

قالت:

- كانت فيها.

قال:

- لم تكن فيها.

قالت:

- ماذا كان فيها إذن؟

قال:

- الغطاء. العلبة الصفيح كانت أنظف من الصينى بعد غسيله، أما الوصية نفسها، فقد اختفت! ذهبت مع الريح!

ودبت بقدمها على أرض المكتب وهى تقول:

- نذل. إنه نذل ابن نذل صحيح.

قال فى هدوء:

- لا تتسرعى بالحكم، فقد يكون مخدوعاً مثلنا. قد يكون مغفلاً مثلى.

وصعب عليها الموقف، فأمسكت بيديه وهى تقول له:

- لا تهتم. لا تحزن. لا تبتئس يا مأمور.

قال فى استسلام:

– وضاعت كل الترتيبات هباء.هربته. أمرت الرجال بأن يتركوه يهرب، فقد كنت على ثقة من أن اهتمامه كله بالوصية، وأنه إذا هرب، فستكون وجهته هذه الوصية أو المكان الذى أخفاها فيه. وطلبت من الرجال "المباحث" كما تقولين أن يتبعوه كظله، ليعرفوا أين الوصية. كل هذا ضاع. هرب وخرج وأحضر علبة من الصفيح ودفنها عند الساقية. علبة صفيح! كل هذا الجهد، من أجل علبة صفيح!

وكانت كفاه لا تزالان فى كفيها، فقالت الغجرية:

– اسمع يا مأمور. وحياة رأس أبى، ورأس سعد، ورأسك لأبحثن عن الوصية حتى أجدها.

قال المأمور:

– فإن كانت قد حرقت مثلاً:

قالت فى عصبية:

– أحرقه. أنا أحرقه.

قال لها:

– على كل حال، سأبدأ أبحث فى السجلات عن شىء يدلنى عليها. يمكن أجد شيئاً فى المساحة، فاستخرج صورة وأخلص، وأخلصك. شىء أحسن من لا شىء. آه لو كنت وجدتها عنده، كانت أفادتنا فى تهمته.

فقالت له فى سذاجة:

– كيف هذا يا مأمور؟

قال يبسط لها الأمر:

– الوصية مسروقة. هو سرقها من عباس. ضغط على الغندورة فسرقتها، ثم سرقها من الغندورة. هو صاحب مصلحة طبعاً. ومن شريكه فى المصلحة؟ أخته زوجة شيخ البلد المجنون، وميراث أخته سيذهب لمن؟ لنبوية، أرملة أدهم بن "أبو سريع". لكن أرملة أدهم

تعيش مع حماتها ست الناس، وست الناس هى السيدة وهى التى تدير مصالح ابنها وأرملته وابنه. مصير أى نصيب يئول إليها سيخضع لست الناس. وست الناس واقعة تحت تأثير مدبولى. لفة طويلة، لكنها فى النهاية تضع مدبولى موضع خصومة من هذا المجنون. عندئذ يتلاقيان هو والنمس فى كراهيته.

وضحكت وهى تهز رأسها وقالت له:

- أما حكاية!! والله يا بنت يا غجرية ستعيشين حمارة وتموتين حمارة. هل كان يمكن أن يخطر هذا كله بذهنك؟ صحيح المأمور مأمور.

ونظرت إليه وهى تضيف:

- على كل حال سلطان والنمس يتلاقيان فى شىء آخر. أنا هنا أفوقك يا مأمور. على الأقل أعرف شيئاً لا تعرفه.

قال لها فى سرعة:

- الغندورة.

وصاحت متعجبة:

- وهذا تعرفه؟

قال:

- وإلا فلا أصلح مأموراً!

قالت:

- أنت تصلح كذلك عمدة، وشيخ غفر.

قال يمزح:

- وغفير مغنى؟

قالت:

- لأ... ألا هذا يا مأمور.

وصحا العمدة عباس على نداء بأن يتوجه إلى النقطة.

وفى النقطة، فى ذلك الصباح، والهدوء يلف المكان، بلون أخضر مبتل بقطر الندى، وهمس القرية، محبوس فى حلوق الناس، وحكاية الوصية لم تنتشر بعد بين الفلاحين. العمدة عباس لا يزال غافياً من دهشته، لا يدرى كيف ضاعت الوصية من الصندوق، وسبيلة الغجرية سكتت عن البحث، كالقطة عندما تتربص للفئران، لا تتحرك ولا تتنفس، ولكن تتطلع هنا وهناك تريد أن تأمن الفئران لتنقض عليها دون استئذان! وكايداهم وفرحات ينظران فى بلاهة، لا يدريان شيئاً مما يدور، ودرة زمانها وست الناس صامتتان، الأولى عاتبة على زوجها الذى يتهمها بالباطل، والثانية لا تدرى سبباً لكل هذا الخلاف على هذه الورقة التى يهتم بها عباس هذا الاهتمام!

ولم يكن للأختين حديث إلا عن هذه الورقة:

- يمكن قسيمة!

- يا درة عيب. منذ متى تشكين فى زوجك؟

- لا يمكن رجل يتصرف هكذا كالمجنون من أجل ورقة قذرة لا تساوى شيئاً.

- يمكن عقد.

- عقد! أى عقد؟

- اشترى أرضاً مثلاً؟

- يا شيخة. إنه فقر من يومه!

- لا تظلميه يا درة. الرجل عمل المستحيل حتى اشترى النصاب. ليعيد الأرض لأصحابها، ولولا هذا، والله ما كان عمل شيئاً.

- طيب، واليوم عنده النصاب؟

- وماذا أخذناه من النصاب؟ الحالة هى الحالة.

- "أهو عمدة برضه" وأنت حرم العمدة.

- عمدة لروحه يا أختى. إنما لى، فقد رأيت بعينيك. لقد جن. ركبه عفريت. ورقة! شىء لله يا ورقة!

- يا درة يا أختى لا بد أنها ورقة هامة.

- من أجل هذا، فهمى قسيمة...

- حرام عليك.

- وأنا لا أهتم. "يتجوز يتجنز" لا أهتم.

- والله أنت مجنونة.

- ومجنونة!! هل هذا أصبح يهمه؟ البركة فى الثانية!

- ثانية من يا درة؟

- وثالثة ورابعة!! أليس هذا حق الرجل؟ أبوك، ألم يتزوج أربعة؟

- هو شىء، وأبوك شىء.

- سيقول لى هذا. أقدر أفتح فمى. سيقول كما فعل أبوك، أفعل أنا!!

- عمرى عباس ما قال هذا.

- يقول... لم لا؟ ماذا أقول؟ ألعنك يا حاج سلطان. لأ!!

- وهل كان وحده فى هذا؟ عمك، وأقاربك؟ كلهم كانوا مثله؟

- آ... قولى له أيضاً، ليجد حجة أكبر.

- يا شيخة أنا أقول لك أنت.

- طبعاً يا ست الناس. أنت زوجك مات واسترحت.

- يعنى! كلهم سواء.

- لأ لأ لأ. أبو سريع، "كانت عينيه زائغة"، لكنه لم يتزوج عليك.

- طيب. هذا أحسن. أحسن لك لا تعرفين شيئاً.

- أعرف؟! أعرف ماذا يا أختى؟! لأ، لا تظلميه. آ... كان يعنى! لكن زواج لأ.

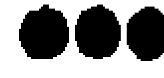
- والزواج. أليس أفضل من هذا؟ والله الزواج أشرف.

- اللعب ينتهى، لكن الزواج بلوى، وأولاد، وشبكة!!

- فإن تجمع الاثنان فى واحد؟

- يا مصيبتى!! من؟ من يستطع؟ أبو سريع؟

- على كل حال، لا داعى للكلام عن الموتى. دعينا مع الأحياء.



فى النقطة كان العمدة مطلوباً للشهادة.

وكان يقول لنفسه طول الطريق: أية شهادة؟ أشهد على صهر من أصهارى؟ هذه لعنة، وغضب من الله.

لكنه كان يعود يردد قوله تعالى: يأيها الذين آمنوا لا تنكروا الشهادة.

كما كان يستعيد الحديث الشريف: قل الحق ولو على نفسك. ويتابع حديثه مع نفسه، وهو صامت: صهرك. أخوك. لا يهم. المهم الحقيقة. تظهر الحقيقة.

وتبخر هذا عندما وجد عباس أن الضابط استدعى المتهم سلطان غضبان، فدخل متغطرساً، أنفه فى السماء، واثقاً من نفسه إلى درجة الغرور.

وعندما سأله ضابط النقطة عن اللصوص الذين ضبطوا بالثورين قال فى تعال: ومالى أنا؟ لا أعرفهم. لا أعرف منهم أحداً.

وسأله الضابط عن الرجلين "الثورين!"، فنظر إليه فى تكبر وهو يقول: وهل أنا الذى أمسكت بهما، ووضعتهما تحت عامود الساقية، وقلت لهما كونا ثورين؟! ناس لا أعرفهم.

وبنفس التعالى أجاب على طلقات الرصاص، فأنكر فى إصرار أنه أطلق الرصاص، وأصر أنه سمع طلق الرصاص فأتى ليرى ماذا جرى عند الساقية.

وفجاة وجه إليه الضابط اتهاماً سريعاً، ألقاه فى وجهه كأنه طلق نارى:

- أنت يا سلطان يا ابن غضبان متهم بتدبير سرقة الثورين لحزازات بينك وبين شيخ الخفر مدبولى.

لم يفده أنه قال: مدبولى! حزازات بينى وبين مدبولى؟! من يكون مدبولى، ومن أكون؟ الحزازات تكون بين أنداد، أما نحن، فأين هو، وأين أنا؟

هذا كله لم يفد بشىء، فقد صاح فيه الضابط يقول:

- بل هناك ما هو أسوأ من الحزازات. مصالحك يا سلطان، وميراثك عن والدك. أنت تتوهم أن مدبولى يهددك فى هذا الميراث.

وسكت كأنما أصابه الطلق فجأة.

ومضى الضابط يقول:

- تريد أن تعرف تفصيلات الحكاية. اسمع يا سلطان.

وبدأ يحكى الحكاية، ولم يدع له الضابط فرصة التهرب، فقال له أنت تتوهم أن مدبولى سيكون هو الوحيد القادر على انتزاع ميراثك منك، أو على الأقل ادارته والاستفادة منه. أنت وارث وأختك وارثة، ولم تنجب أختك إلا نبوية أرملة أدهم بن "أبو سريع"، وهى تعيش مع حماتها وعمتها ست الناس، ولا تستطيع الخروج عليها، ويوم أن يتزوج مدبولى من ست الناس قد يطالبك بالميراث، ميراث أختك، ليديره لبنتها. ومن يدرى. قد يقنع أمها ببيع الميراث لبنتها حتى لا تشاركها أنت، وعندئذ تفقد أنت ما تطمع

فيه. أجب يا سلطان. أليس هذا هدفك من السرقة؟ هذه هى الحزازات التى بينك وبينه. بل هى مصالح أيضاً، فلا تحاول أن تنكر.

وسكت الضابط قليلاً ثم قال:

- على أنك تنسى أنه كما أن بينك وبينه هذا الخلاف، فكذلك بينك وبينه اتفاق. هلا تعرفه؟ أنت تعرفه، ومدبولى يعرفه، لكنه لا يفكر فيه.

قال سلطان فى حدة:

- ما هذا الاتفاق؟

قال الضابط:

- الوصية! الوصية التى سرقتها يا سلطان. هذه الوصية تهددك كما تهدده. لو فرضنا أن مدبولى يطمع فى الميراث الذى سيئول إلى أرملة ابن زوجته عن أمها، فلابد أن يكون صاحب مصلحة فى التخلص من الوصية. فاهم؟ الوصية التى سرقتها، وأخفيتها فى الحقل، ثم هربت من هنا لتطمئن عليها، وضعتها فى مدار الساقية.

وذهل سلطان، واصفر وجهه، وبدا العرق يقطر على خديه، وقد تملكه شىء غير قليل من الاضطراب.

لكنه لم يرد.

وأراد الضابط أن يقيم عليه الدليل فأطلق الطلق الأخير.

قال له:

- ومع هذا فإن العلبة الصفيح فارغة، بلا وصية!

وفجأة صاح سلطان فى عصبية:

- لا يمكن. لا يمكن. هذا كذب. ادعاء. غير صحيح.

وسكت الضابط. اكتفى بأن يتفرج عليه، وهو فى هذه الحالة العصبية الثائرة، فقد كانت هى الدليل الدامغ على أنه سرق الوصية.

وقد جرته هذه الحالة إلى اعتراف صريح بما فعل.

وكان عباس خلال ذلك، يدير رأسه مرة إلى حضرة الضابط، ومرة إلى سلطان وهو لا يفهم مما يدور شيئاً! إنه كلام كالرمز، يحتاج إلى منجمين وسحرة وأولياء قادرين على الكشف.

الله. لماذا سرقت الغندورة الوصية؟ هذا واضح. لتعطيها للنمس، والنمس لا ذمة له ولا ضمير، وهو مستعد لأن يبيعها لمن يدفع. هذا شىء يفهمه عباس.

لكن، أن تنتقل الوصية إلى سلطان، فذلك أيضاً يفهه، فهو صاحب مصلحة فى الحصول على الوصية وحرقها لو استطاع.

أما كيف انتقلت من الغندورة إلى سلطان، فهذا ما كان العمدة يسمعه فيطير عقله من رأسه. لو أن النمس أخذها وأعطاها له، إذن لجاز هذا. لو أن سلطان أغرى النمس بسرقتها من الغندورة، إذن لاستطاع أن يعقل هذا.

لكن يا ولد يا عباس. أنت فاهم أن الغندورة كانت تلعب فى أوراق فى الصندوق، فأخذت هذه الورقة لتلعب بها. أنت فاهم أنها لم تكن تدرى أنها وصية، أو أنها شىء مهم.

لكن تأخذها وهى تعلم قيمتها، فهذا ما لا تفهمه!

ثم يسرقها منها سلطان، فهذا هو المحير فى الموضوع!

يسرقها... كيف؟ يدخل بيتها ليسرقها؟! وأين النمس؟ أم يغافلها ويغافل النمس ويسرقها؟ أم يغافلها وحدها ويسرقها؟ وأين هى الفرصة؟

هل سلطان عنده هذه الفرصة؟

يا نهـار أسـود!! يعنى سلطان يدخل عند الغندورة ويخـرج من عند الغندورة بهـذه الحرية، حتى أنه يستطيع أن يسرق منها هذه الورقة الهامة، ولا تكتشفها؟!

إيه!!. ما هذا يا عمدة؟ وأنت نائم فى العسل يا عمدة؟!

وأخذ عباس يهز رأسـه، وهو يتطلع نحو سلطان ليقيسـه من تحت لفوق، ومن فوق لتحت، ليرى ماذا يغرى فى هذا الحيوان الأعجم!

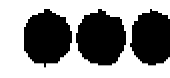
لكن ماذا أقول؟ ناقصات! إنهن ناقصات عقل ودين!

وزاد عباس غيضاً، وهو يستعيد اهمال إمرأته. إنه يعلم أنها طيبة إلى درجة البلاهة، لكن هذه هى النتيجة. ضاعت الوصية، ولم يعد أحد قادراً على أن يعرف أين هى.

لكن العمدة شعر بـأن المسألة لم تعد مسألة درة زمانها زوجته، ولا أنها مستاءة منه أو راضية عنه، ولا أن الغندورة وسلطان يتقابلان فى الظلام أو لا يتقابلان.

يا عمدة المسألة هى مسألة الوصية. إذا كنت عمدة بحق، فهات الوصية. ابحث عنها من تحت الأرض، وإلا فإنك لا تصلح عمدة، ولا شيخ خفر، ولا خفير.

ونفخ عباس هواء حاراً من خياشيمه، وقرر فى نفسه أمراً.



وعندما عاد إلى القرية، لم يتجه إلى داره، ولم يعبأ بأن يتناول شيئاً من الطعام. أبداً، وإنما اتجه على الفور إلى الجامع، حيث التقى بالشيخ مختار، وجلس إليه يشكو محنته.

أنت تعلم يا شيخ مختار، أنك لست مجرد شيخ للجامع تؤم الناس للصلاة وتخطب الجمعة، وتبصر الناس بأمور دينهم. لا، ولا أنت مجرد "فقى كتاب"، يتردد عليك الأولاد لتحفظهم القرآن، وتعلمهم بعض قواعد القراءة والحساب. أنت يا شيخ مختار شىء آخر. أنت ابن القرية وزوج بنت الشيخ مرزوق. أنت تعرف مكانة الشيخ مرزوق.

الشيخ مرزوق لا يزال حتى الآن يأتى للناس فى المنام ينصحهم ويهدىء نفوسهم، ويحل مشلكلاتهم، ويخفف أزماتهم. الشيخ مرزوق قلب هذه القرية. الشيخ مرزوق روح

تسرى فوق رءوسنا بالنعمة والبركة. الشيخ مرزوق والشيخ أبو عوف والشيخة تفيدة، وعلى رأسهم شيخنا الجليل سيدى أحمد الذكيرى. هؤلاء هم حراس بلدنا. دعك منى. أنا العمدة، لكنى لا شىء. دعك من مدبولى. هو شيخ الخفر، لكنه لا شىء. كل الخفر لا شىء. كلنا فى حمى أولياء بلدنا. كلنا فى حراستهم.

قال الشيخ مختار، وقد ملكه التأثر:

- رضى الله عنهم جميعاً. وماذا نساوى نحن بدونهم؟ هل نساوى شيئاً لولاهم؟ انى أذكرهم فى كل صلاة، وأقرأ لهم جميعاً فاتحة الكتاب، وأصلى على النبى الكريم، فهم منه وهو منهم، وأشعر، بعد كل صلاة وتلاوة الفواتح لهم، أن صدرى قد ارتاح. لا شىء يبقى فى صدرى بعد ذلك أبداً. أنا أتركهم، وأترك معهم قلبى. أى والله. وهم كفيلون بأن يمسحوا منه الجفوة، ويزيلوا منه النقمة وينيروه بنور الله سبحانه.

وسكت الشيخ مختار قليلاً وهو يسأل العمدة:

- لكن قل لى. هل هناك شىء يقلقك؟

قال العمدة فى صراحة:

- آ.. هناك هم فى قلبى لا أعرف كيف أتخلص منه. أنا لم أعد أصلح عمدة يا شيخ مختار. أنا قادم إليك لأطلب منك وأنت أحكم أهل بلدنا وأكثرهم بركة أن تبحثوا لكم عن واحد أصلح منى. يظهر أن العمدة يجب أن يكون فظاً وغليظ القلب ليخاف منه الناس ويعملوا له ألف حساب. وأنا كما تعرفنى رجل فى حالى، ودمعتى على خدى!

قال الشيخ مختار:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. تريد لنا عمدة كغضبان مثلا! تريد أن تعود بلدنا إلى الوراء تتلقى كل يوم أصوات الكرابيج؟! لا تتكلم، ولا تتنفس، ولا تتحرك، إلا باستئذان! تريد للناس أن يعيشوا فى رعب، وفى ظلام، يخافون أن يتخطفهم آل سلطان والعمدة القديم؟! يا عمدة فكر فى الناس لا فى نفسك. ربما ربما تكون متعباً مجهداً

مكدوداً. ربما تكون تكاليف المركز كثيرة عليك، لكنا كلنا معك. على استعداد لأى شىء تأمر به. الناس يا عمدة مستعدون أن يدفعوا أقواتهم، بل وأولادهم، ولا يعودون إلى حياة الخوف أبداً. الناس مستعدون أن يجوعوا، لكن يتنفسون بحرية. الحرية يا عمدة غالية وعزيزة! يا سلام يا عمدة. كم هو مريح أن يخرج أهل البلد إلى الحقول، وهم يعرفون أنهم سيعودون مع الغروب، ليتعشوا مع أولادهم، بعد صلاة العشاء، ويستريحون بلا مخاوف! كم هو جميل أن تجرى أحاديث الناس، وهم لا يخافون من الآذان التى تمتد نحوهم تلتقط كلامهم لتعاقب على زلة اللسان، أو عثرة الكلام! يا عمدة. حرام عليك. هؤلاء أهلك وناسك. هل أنت من الأعيان السادة، الذين لا يهتمون بهذا كله؟! هل أنت ممن يعتبرون الناس هنا خدماً وحشماً وعبيداً؟ أنت يا عمدة واحد من أهل القرية. أنت من الناس، وحرية الناس تهمك يا عمدة.

وسكت الشيخ مختار قليلاً ثم قال:

– ألا ترى الجامع كيف اتسع، ونظف، وتغطى بالفرش؟ ألا ترى الفصول الملحقة به لتعليم الأولاد؟ ألا ترى أماكن الترحيب بالضيوف، من العابرين بالقرية، بلا مأوى؟ والساقية والحديقة ووقف الشيخ عبد الوارث، وأنا وإمرأتى وابنى مرزوق "وأبو المكارم" والشيخة تفيدة، والقرافة؟ كل هذا يذهب لمن؟ يئول لمن؟ لواحد منهم، من الذين يضيقون بالناس، ويفضلون أن تعود الحياة ليستبدوا بالناس؟ أنت تعلم أن كلامهم كله أن الحرية جعلت الناس يتطاولون عليهم، وأنها طمعت فيهم خلق الله، وأن أولاد الأصول نزلوا، وأولاد الرعاع طلعوا، وأن القيامة ستقوم! ألا تسمع منهم هذا كله؟ إذن تترك الموضوع لهم!! يا عمدة. لا يا عمدة.

ودمعت عينا العمدة عباس متأثراً من هذا الحديث الرقيق المخلص، وقال فى صدق:

– لكن أنا لم أضبط أمن البلد يا شيخ مختار. فى عهدى سرقت محاصيل، وبهائم، وحرقت زراعة شيخ الخفر! فى عهدى سحبت ثوران من الساقية، ووضعوا بدلهما رجلين. هذا كله تم فى عهدى. فى عهدى تمرد ولد مثل فرج النمس على، وعصى أمرى. فى عهدى بدأت البلد ترتج بالحوادث. أنتظر؟ أنتظر ماذا؟ حتى يذبح الناس بعضهم

بعضاً! أنتظر حتى يخطف الناس بعضهم بعضاً!! أنتظر حتى يختل الأمن، وتستعبد الناس الفوضى!!

وأمسك الشيخ مختار بيديه، ونظر إليه طويلاً، ثم قال له:

- اسمع يا عمدة. حتى هذا الذى تقوله ردى عليه.. آ.. تبقى يا عمدة. حرية الناس أغلى من الأمن، ومن النظام، فإن الناس وهم أحرار أقدم على الدفاع عن أنفسهم وعن عيالهم وعن أمنهم. العبيد يا عمدة ضعاف. العبيد لا يتصرفون فى شىء. يخافون أن يتصرفوا، إنما الأحرار أحرار. يتصرفون ويخطئون. جائز. لكنهم يتصرفون. ثم أيهما أفضل الاستعباد القديم، وناس مذعورة، وطرق ظلام، وأبو سريع يذهب ويجىء والبندقية فوق كتفه والكرباج السودانى بين يديه، وهو يصيح فتهتز الجدران، وجرائم أبشع ترتكب، لكن لا نعرفها، لأننا لا نستطيع أن نعرفها، ولا نستطيع أن نتحدث عنها، أم الأفضل حرية وناس يتنفسون، وأولاد يلعبون بلا خوف، وجرائم تظهر هنا وهناك ويتحدث عنها الناس، منكرين لها أشد الانكار؟ أيهما أحسن؟ يا عمدة. اتق الله واصرف عنك الشيطان.

وقال الشيخ مختار العمدة بعد هذا:

- لكن قل وحياة سيدى الذكيرى. ما سبب هذا التفكير؟

قال العمدة فى براءة:

- الوصية. ضاعت الوصية، وكانت معى.

وحكى العمدة للشيخ مختار الحكاية من أولها، وكيف طار عقله عندما علم بما حدث، وكيف لم يعد قادراً على تحمل الموقف.

وهدأه الشيخ مختار، وطيب خاطره، وأكد له أن المؤمن مصاب، وأنه ليس معنى أن يصاب المؤمن، أن تجره الاصابة إلى الكفر.

واتفق العمدة والشيخ مختار على أن يفكر كل منهما فيما يجب عمله لتظهر الوصية.

قال الشيخ مختار:

– وقد يكون من الأجدى أن نشرك معنا أهل البلد جميعاً.

وقال العمدة:

– آ... انها مسئولية البلد كلها. إنها ليست بلدى وحدى، هى بلد كل من يعيش فيها، فإذا سرقت منها ورقة هامة على هذا النحو الغامض، فيجب أن يتحمل الناس المسئولية.

وبعد المغرب، وبعد أن ختم الناس الصلاة، وفرغوا من الدعوات، بدأ الشيخ مختار يتحدث إليهم.

وكان الحديث حلواً ونورانياً، امتلأ بالحكمة، وجمع فيه الشيخ مختار بين أحوال البلد وحياتها وبين أحكام الدين الحنيف. وكان العمدة يسمع، لا كما يفعل فى كثير من الأيام، لكنه هذه المرة كان يسمع، وهو ينظر إلى الشيخ مختار متوقعاً فى كل لحظة أن يدخل فى حكاية الوصية.

لكن شيئاً ما خطر على باله، فتمنى من صميم قلبه ألا يطرق الشيخ حديث الوصية الآن. لم يكن يدرى لماذا، لكن شعوره أخذ ينمو مع كل جملة قالها حتى أصبح شديد الرغبة فى أن ينسى الشيخ حديث الوصية، ولا يذكر إلا المواعظ التى يقولها، وأحاديث الجنة والنار والحض على العبادة وتقوى الله.

وخيل إليه أن الشيخ مختار "يفهم عنه"، وأنه قد نسى فعلاً هذا الحديث... أو تناساه!

وبينما الشيخ ماض فى مواعظه، والعمدة ماض فى تمنياته، جاء خفير من الخفراء فأسر فى إذن العمدة شيئاً ثم انصرف. وبدا على العمدة القلق لما سمع.

ولما لم يستطع أن يغالب قلقه خرج ليرى ماذا هناك.

ووجد "فرحات" على باب المسجد ينتظر العمدة ليقول له أن بيت الحاج غضبان قد اشتعل بالحريق. ولما صاح يسأل وهو فى أشد حالات الانزعاج قال فرحات: حريق بين الحريم. آ... حريق شديد جداً.

ومضى مسرعاً إلى بيت الحاج غضبان، وهو يتبادل مع فرحات والخفير الذى أسر إليه بالأخبار معلومات سريعة ليكون على بينة مما يدور.

- طبعاً "عيوشة" ماسكاها الزغطة؟!

- عليك نور يا سيدى العمدة.

- والبالوظة "مبحوحة كأنها وزة مزغطة"!!

- تمام يا حضرة العمدة.

- واحدة صوتها محبوس فى نافوخها والثانية محتار وهو يلف فى رقبتها!

- مضبوط يا حضرة العمدة.

- والموضوع.. ماذا؟ لا شىء!! جنتا والنبى. المرأتان جنتا.

- يمكن لأن سى سلطان.. يعنى!

- ومن قال لسى سلطان يسرق؟!

وكلمة من هنا، وكلمة من هناك، ووصل العمدة إلى بيت الحاج غضبان. كان السباب والشجار، يصل إلى سمعه قبل أن يدخل. وتقدمته إلى المنزل صيحات: العمدة. حضرة العمدة. وصل حضرة العمدة. حضرة العمدة وصل.

لكن المرأتين لم تهتما بهذه الصيحات، فواصلتا السباب والشجار، ولم يوقفهما عن ذلك إلا صوت العمدة يقول فى ضيق:

- كفى. كفى يا ست بلوظة! ما هذا؟ اسكتى يا ست عيوشه. ماذا جرى؟ ماذا تريدان؟ لم يسمع لكما صوت منذ مات الحاج غضبان، فماذا حدث لكما؟ اسكتا وقولا ماذا حدث.

ولم يستطع العمدة أن يمنعهما من الكلام فى نفس واحد. هذه تقول وتلك تقول! وهذه تصيح وتلك تصيح! وهذه تبكى، وتلك تبكى! وهو بين الاثنين حائر لا يعرف ماذا تقوله كل منهما، ولا يدرى كيف يقف هذا السيل من الصراخ والبكاء والشجار

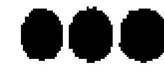
لكنهما بعد قليل سكتتا. تعبتا فسكتتا.

وما أن استعادت كل منهما نفسها، حتى عادتا إلى ما كانتا عليه، من بكاء وصراخ وشتائم، والعمدة بينهما عاجز عن ملاحقة ما تقولان.

وبعد قليل سكتتا. تعبتا فسكتتا.

وبعد قليل عادتا إلى ما كانتا عليه، من صياح وبكاء، والعمدة يدير بينهما رأسه فى عجب.

وهكذا ظل هذا المنظر يتكرر بين الصمت والضجيج، حتى ملت الزوجتان، فجلستا تستريحان. وسحب العمدة احدى خادمات البيت إلى المندرة، حيث سمع منها القصة من أولها.

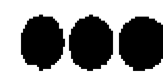


الست عيوشة كانت ترى ما آل إليه مصير ابنتها نعمت، فتفتك بها الآلام وتعتصر الأحزان دموعها من مآقيها.

نعم يا بنتى، لقد انتقاك الحظ لتكونى أنت، من بين سائر فتيات الأسرة، فى هذا الوضع الغريب. زوجة ولا زوجة. زوجة كأنك أرملة! أرملة مكتوفة اليدين برجل. يا ليتك كنت أرملة، لكنك أرملة فى الواقع، وزوجة ترتبط بزوج مجنون! كيف يا بنتى يكون حالك، عندما تصيرين معه فى حجرة واحدة؟ كيف تشعرين نحوه وأنت تعلمين أنه مجنون؟ كيف تتصرفين؟ هلا تخافين؟

وسألت الست عيوشة كل الناس عما تفعله لبنتها نعمت. زارت الأولياء. وكنست مقاصيرهم، وأشعلت الشموع فى أركانها، وبخرتها، ونذرت النذور. لكن ذلك كله لم يجد.

وقالت بعض صاحباتها لها: يمكن عمل! يجوز يكون قد عمل لها عمل يا عيوشة.



عمل؟! يا مصيبتى.. لكن ماذا؟ نحن لم نؤذ أحداً، فلماذا العمل؟

ولم ترد صاحباتها عليها بشىء، واكتفين بأن أوصينها بأن تستشير أصحاب العلم، فقد يستطيع أحدهم أن يدلها على هذا العمل، الذى أفسد حياة بنتها على هذه الصورة.

- والعمل يا أختى يعمل كل هذا؟!

- وأكثر يا ست عيوشة.

- العمل يقدر يجنن الرجل ويفقده عقله؟

- وأكثر يا ست عيوشة.

- وقبل هذا يقدر العمل يدفعه على قتل ابن أخته؟

- وأكثر يا ست عيوشة.

- يا خيبتك يا بنتى! وكيف أنجيك من هذا العمل؟

وسألت الست عيوشة: وهل يفسد العمل يا ناس؟ دلونى كيف يفسد؟

وقيل لها أن الذين يقدرون على معرفة العمل، يقدرون على إفساده.

وتصورت الست عيوشة أن إفساد العمل سيؤدى إلى أن يعود شيخ البلد إلى عقله، ويعود إلى بيته و إلى نعمت إمرأته، ولن يظل على حاله، هائماً على وجهه بين الحقول وعلى جسر الرياح، وعلى القنوات، يخاطب الماشية، ويأنس إلى البهائم، ويعدو وراء العصافير، ويسابق الريح، ويقول كلاماً كالألغاز، ويضحك، ويجرى، ويبكى، ثم يصيح، دون أن يدرى من ذلك كله شيئاً . كل هذا سيزول يا عيوشة إذا استطاع أحد أن يفسد العمل.

كل هذا سينتهى يا عيوشة، وتنتهى معه متاعب ابنتك، ويزول هذا الحرمان الذى يمزق كيانها، وهذا الذبول الذى يطفىء النور من عينيها. نعم ويحل محل الشحوب الذى كاد يطمس فى أنوثتها بريق الحياة والحب.

وبدأت عيوشة تبحث عمن يدلها على العمل، وكلما كانت تسمع عن أحد، كانت تسرع إليه حيث يكون. فى إيتاى البارود أو كفر الزيات أو اسكندرية لا يهم. المهم أن تحاول أن تعيد إلى بنتها نعمت السعادة التى طارت من بين يديها.

الذين يفتحون المندل. والذين يقرءون الكف، والذين يضربون الودع، والذين يسحرون ويآخون الجن، والذين يخاطبون الأرواح. كل هؤلاء قد عرفتهم وترددت عليهم وكتبوا لها الأحجبة، وأوصوها بالأدعية، وطلبوا منها أن تذبح الذبائح تقرباً وزلفى!!

لكن ذلك كله لم يكشف لها العمل أو يفسده.

وكانوا يوصونها بأن ترش ماء ورد على فرش بنتها، أو تضع حصوة ملح فى طريق زوج بنتها وهو يخطو باليمين داخلاً أو خارجاً، أو تدفعه إلى أن يشرب على الريق كوبا من الماء، قرئت عليه التعاويذ.

أو تقرأ زوجته على رأسه وهو نائم ـ إذا نام ـ بعض الأدعية. هذا غير الأحجبة التى يعثر عليها فى جيوبة، فيمزقها أو يقذف بها فى الرياح وهو يضحك!

لكن ذلك كله لم يجد.

ظل شيخ البلد المجنون مجنوناً، يهيم على وجهه وفى يده عصاه، يهش بها على غنمة! وإنه ليسميها بهائم ربنا. إن الناس والشجر والماعز الفئران كلها بهائم ربنا! حتى العمدة من بهائم ربنا!

وظلت نعمت تعانى من هذا الترمل المستور، والمغلف فى زوج مجنون!

والست عيوشة تبكى حظ ابنتها ليل ونهار، تمزقها الحسرة على هذا المصير.

وجاءتها واحدة ممن تتعامل معهن لكشف العمل. جاءت من بلد بعيد، فاستضافتها وأكرمتها وتوسلت إليها أن تشير عليها بما تفعل.

قالت لها الشيخة كلاماً غريباً جداً، حاولت أن تنكره أول الأمر، لكنها تحت الالحاح المتصل، بدأت تصدقه، ثم تنكره، ثم تصدقه.

يا نهار أسود! إن العمل موجود فى مكان لا يعرفه إلا "سلطان"! بل سلطان هو الذى دبره، وأخفاه؟!

سلطان بنفسه؟! سلطان سلطان؟! أم انها أمه؟!

المهم العمل موجود. هذه واحدة!

وأن الذى عمله سلطان. هذه ثانية!

وأنه أخفاه فى مكان لا يعرفه سواه. هذه ثالثة!

يا ناس يا عالم! وانفجرت عيوشة تبكى. إنها حسرة جديدة تضاف إلى حسرتها على بنتها! لماذا يا سلطان تعملها؟ أختك. نعمت هذه أختك. هل تستحق منك أن تعمل هذا لها؟ نعمت تحبك، ولا بد أن تحبك. من لها الآن سواك يا سلطان؟ هل هذا جزاؤها منك؟! هل يرضيك أن ترى أختك الحلوة، وهى تذبل؟! هل يسعدك أن تشاهدها وهى تسير فى نحول كالشمعة وهى تحترق؟! حرام عليك يا سلطان!

وبدأت عيوشة تتصور أن هذا العمل هو الذى دفع زوج بنتها إلى هذه المأساة التى يحياها. هو العمل الذى جعله يقتل ابن أخته!! هو العمل الذى قاده إلى المورستان! هو العمل الذى يخيل إليه تصورات لا وجود لها! هو العمل الذى يجعله يهيم على وجهه على هذه الصورة الغريبة! يا ربى! أين أنت يا ربى؟ كل هذا منك يا سلطان؟ وأختك، ألا تصعب عليك؟ حالها هذا، لا يصعب عليك؟ تراها يا عينى تذبل وتتساقط كأنها ميتة، ولا تصعب عليك؟

- لكن لماذا يا ست الشيخة؟ لماذا يعملها؟ لماذا؟ ألا تعرفين؟

قالت الشيخة فى دهاء: وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً. كيف لى أن أعرف يا سيدتى؟

قالت عيوشة فى الحاح: والنبى! والنبى! ألا تحبين لى الخير؟ حاولى!

قالت الشيخة: أليس بينكم شىء؟

قالت عيوشة: شىء!.. مثل ماذا؟

قالت الشيخة: خلاف مثلاً؟!

قالت عيوشة: خلاف؟! يا ساتر استر! أى خلاف؟

قالت الشيخة: اللهم سامحنى. ميراث مثلاً. خلاف حول الميراث!

قالت عيوشة: ميراث!! وهل طالبه أحد بميراث؟ لا أنا ولا بنتى طالبناه بميراث. هو رجل البيت، وقد حل محل أبيه، وهو يزرع ويقلع، ويعطينا حاجتنا والحمد لله. أى ميراث؟

قالت الشيخة: الشيطان شاطر يا ست عيوشة. لقد أخرج آدم من الجنة. أبونا آدم أخرجه الشيطان من الجنة!

وذهلت الست عيوشة، وأخذت تضرب كفاً بكف، وهى لا تدرى هل تصدق أم تكذب!

لكن الشيخة لم تدعها وهواجسها فقالت فى صوتها الخافت المؤثر:

المهم، يظهر العمل. لا بد أن يظهر العمل. لا يمكن أن يفسد إلا إذا ظهر.

قالت الست عيوشة منزعجة:

- وهلا تعرفين أين يكون؟

قالت الشيخة:

- كيف أعلم؟ هذا واجبكم أنتم. إذا كنت تحبين بنتك، فاعرفى أين العمل. أين وضعه سلطان؟

قالت عيوشة:

- وهل سأتركه؟ بنتى! إنها بنتى! ستكون رجلى على رجله، ولن أتركه إلا إذا عرفت.

قالت الشيخة:

- على أن تحذرى. إياك أن يعرف أنك وراءه؟ الذى يخفى شيئاً يحرص على أن يظل سراً عن الناس، خاصة أنت.

وصاحت فيها تقول:

- لماذا؟ وماذا بينى وبينه؟ إنى أعتبره ابنى. أنا لم أنجب أولاداً، وهو ابنى.

واتفقت الشيخة وعيوشة على طريقة تعرفان بها سر العمل ومكانه.

وبدأت عيوشة تراقب "سلطان". كل تصرفاته يجب أن تراقب. فى البيت وخارج البيت. وكلفت عيوشة فتاة من قريباتها لتسير وراء سلطان كظله، لا تغفل عنه أبداً! إذا ذهب إلى الحقل، فيجب أن تكون وراءه، وبين قدميه، وإذا توارى هنا أو هناك، فعليها أن تكون خلفه لا تتركه أبداً! وأوصت عيوشة قريبتها أن تكون ذكية، وألا تدعه يتنبه لها. إن عليها أن تكون معه ولا تكون معه!

وعادت الفتاة بعد فترة من الرقابة المتصلة، لتروى لقريبتها وللشيخة ماذا وجدته فى رحلتها خلف سلطان. لقد صارت تعرف كل شىء عنه. متى يأكل؟ وماذا يأكل؟ متى ينام؟ متى يصحو؟ متى يذهب إلى الحقل؟ من يقابل؟ من يصادق؟ من يزور؟ ماذا يفعل مع الناس وماذا يقول لهم؟

شىء واحد لا تعرفه، هو زياراته اليومية لذلك البناء البسيط على الترعة، والذى أقيم ليستند إليه الطنبور، وحرصه على أن يدور حوله ويطيل النظر خلفه، ثم يعود منشرح الصدر.

وصاحت الشيخة:

- العمل. هذا هو العمل. يطمئن. أنه يطمئن على العمل.

وقالت عيوشة:

- والنبى؟! تظنين هذا يا ست الشيخة؟

قالت الشيخة تؤكد:

- إذن ماذا يكون؟ وهذا الاهتمام كله. ماذا يكون؟ العمل! والله هو هو العمل! لا بد أنه العمل!

وفتحت عيوشة فمها مبهورة ومذعورة. إن هذا الكلام فوق تصورها. إن "سلطان" كان فى نظرها دائماً رجل البيت، الذى حل محل أبيه، له حق الطاعة على كل من فى البيت! هى إمرأة أبيه، لكن هذا لا يهم. إنه مسئول عنها، وعن معاشها، وعن ابنتها. هذا عرف القرية لا تخرج عنه أبداً. لكن رجل البيت عمل عملاً لبنتها! وأدى هذا العمل إلى جنون زوجها، و إلى ضياع عقله، و إلى خراب بيته! رجل البيت قد أخفى العمل عن الناس جميعاً، فى مكان بعيد من الترعة عند مكان الطنبور!!

وقالت عيوشة لنفسها:

- هذه مصيبة! والله مصيبة. عندما يتحول رجل البيت إلى شيطان، فهذه مصيبة. إنها دعوة وجازت فيك يا بنت الحاج غضبان.

ونظرت الست عيوشة إلى الشيخة تنتظر أن تجد لديها تصرفاً يضع حداً لما أصابها من ذعر وقلق. لكن الشيخة بادلتها النظرات دون كلام.

وصاحت عيوشة:

- وماذا نعمل؟ بما تنصحيننى يا ست الشيخة؟ أنا "ولية" وبنتى "ولية" وبنتها "ولية". كلنا "ولايا" لا رجل لنا. قولى ماذا نعمل؟

قالت الشيخة فى تؤدة:

- العمل عمل ربنا، لكن نتأكد أولاً من العمل.

ونظرت إلى الفتاة قريبة الست عيوشة وقالت لها:

- لا بد من رؤية العمل بنفسك. هذا المكان الذى يذهب إليه بين الحين والحين، والذى يدور حوله فى اهتمام، لا بد من رؤيته. ماذا يخفى فيه؟ هذا ضرورى يا شاطرة. لا بد من أن تعرفى السر الذى أخفاه فيه. لا بد من أن تمسكينه بيدك، وتتحسسيه. لكن احذرى، فالعمل يا بنتى له سر، وربنا يحفظك منه. إذا انقلب، فمن الجائز أن ينقلب عليك.

وصاحت عيوشة:

- يا مصيبتى!! وبدلاً من واحدة، تصبحان اثنتين!!

قالت الشيخة:

- لا تخافى، المهم أن تحرص هى. آ... لا بد من الحرص، وربنا موجود.

وانفضت الجلسة على اتفاق، أن تذهب الفتاة لتعود إليها بالنبأ الصحيح عن سر سلطان، والشىء الذى أخفاه عند مسند الطنبور.

ولم يطل غيابها عنهما، ففى اليوم التالى جاءت ترتعد وهى تقول:

- عرفته. عرفته يا عمتى عيوشة. عرفته. السر عرفته. أنا والله أمسكته بيدى هذه. تحسسته. شىء صلب وأملس، موضوع فى مكان لا يعرفه الجن.

وتلقت الفتاة تساؤلات كثيرة مختلفة:

- ما شكله؟

- لا أعرف. فى مكان رطب جداً. تغمره مياه الترعة عندما يدور الطنبور، وهو على الدوام فى حالة رشح ورطوبة. استطعت أن ألمسه بين الرطوبة والرشح وخفت!..

- كيف؟ هل فيه ما يخيف؟

- عمل. أن خفت على نفسى ينقلب العمل علىّ!! أنا لا أزال صغيرة وأمامى مستقبل. أترمل؟! لأ!!! الرجل الذى أتزوجه يقتل؟ لأ!!! يجن؟ لأ!!! خفت.

- وأمسكته بيدك؟

- آ... يدى هذه. يدى لا تزال ترتعد.

- ودرت حوله بيدك؟

- مرة واحدة، وشعرت أن فيها ناراً!! عمل. إنه عمل يا عمتى! لكن الشيخة بدأت تطمئنها إلى أن شيئاً ما لن يصيبها، ولو أنها كانت معرضة للعمل، لانقلب عليها حتى قبل أن تلمسه.

– وكل عمل يا بنتى له سره، ولا بد أن هذا العمل مربوط على الشخص المعمول له! مسكينة نعمت. هذا العمل مربوط عليها. لا تخافى.

ولم يكن سهلاً أن تصدق الفتاة هذا الكلام، فقد أخذت ترتعد، وترفض أن تكلف بشىء آخر بعد هذا، حتى قالت لها الست عيوشة ودموعها على خديها:

– "كتر خيرك" على كل حال. كفاك هذا. تموت بنتى نعمت، طالما أن هذا حظها. لا بد من أن تموت وتدفن وهى على قيد الحياة! أنت لا تريدين أن تخدميها، وأخوها سلطان يعمل لها هذا العمل، وأنا واحدة ست عجوزة، لا أستطيع أن أتردد على الحقل بسهولة، وليس سهلاً أن أتبع "سلطان". تموت نعمت بين أيدينا ونحن نراها، ولا نرضى حتى بأن نتشهد عليها!!

وبينما هى تبكى، أخذت الفتاة قريبتها تبكى معها، وهى تقول لها:

– أنا لا أتأخر عنك يا عمة عيوشة. أنا فداك وفداء خالتى نعمت. لكن هل يرضيك أن أذهب أنا الأخرى فى "داهية"؟! هل هذا يرضيك؟ أنا أيضاً بنتك، أو بنت بنتك. أنا أهمك كما تهمك نعمت.

وتدخلت الشيخة، واتفق رأى المرأتين، على أن تذهب الست عيوشة بنفسها إلى مكان العمل، وتخرجه من الجحر الذى أخفاه سلطان فيه. المهم أن الفتاة قريبتها تصحبها إلى مسند الطنبور، وترقب لها الطريق حتى لا يراها أحد.

– والناس؟ ماذا يقول الناس؟

– مريضة وتريدين أن تشمى الهواء.

– لكنهم لم يتعتادوا على أن يرونى أخرج إلى الحقل.

– لكن فى المساء، بعد أن يهجع الناس.

– وتكونين معنا.

– وأنا ما دخلى؟ أنا غريبة.

- لا . ما غريب إلا الشيطان. لا بد أن تكونى معى، و إلى جانبى واتفقتا على هذا .

وفى أمسية من أمسيات القرية الهادئة، أطل القمر على الحقول وعلى الكائنات، فنشر عليها ألويته الرقيقة الساحرة. وأضفى على هذا الجو نوعاً من الفتنة تنفذ إلى أعماق الناس.

فى تلك الأمسية، خرجت ثلاثة أشباح ملفوفة فى ثياب سود.

عيوشة، والشيخة ضيفتها، والفتاة قريبتها، وسر مكتوم يحرك خطواتهن نحو الحقل، ثم الترعة، ثم مكان معين من الترعة، هو مسند الطنبور.

وعندما مرت الثلاثة الأشباح بالخص البوص، نظر أبو المكارم من خلال البوص، وعجب لمرآهن. ماذا دهاها الست عيوشة؟ ومن تلك التى معها؟ وهذه الفتاة قريبتها، ما سر مسيرتهن فى هذا الوقت من المساء؟ ولم يتركهن، لكنه لم يشأ أن يزعجهن، فمضى من بعيد، لعل سراً جديداً فى الطريق إليه.

ووصلت النساء الثلاث إلى مسند الطنبور من الترعة، فخطفت البنت إلى حرف الترعة، ثم نزلت بقدميها فى الطين، لتدور حول مبنى المسند، وتشير إلى مكان فيه.

وقالت فى همس: هنا.

ونزلت الست عيوشة وراءها، والمرأة الضيفة تسندها.

وعند الجحر الذى أشارت إليه، ركزت نظرها، وشعرت بالخوف.

لكن الشيخة شجعتها، فمدت يدها، تتحسس العمل.

تماماً كما تقول الفتاة. جسم ناعم أملس. صلب ولكنه ناعم أملس.

وسحبت هذا الشىء الناعم الأملس وهى تسمى باسم الله الرحمن الرحيم، وتستعيذ به سبحانه من كل شيطان رجيم.

كانت علبة من الصفيح مغلقة باحكام.

وصاحت الشيخة فى صوت متهدج ومكبوت:

- العمل. هذا هو العمل.

قالت عيوشة:

لكنها علبة. علبة صفيح.

قالت الشيخة:

- يا "عبيطة".. افتحيها وسترين العمل.

وفتحتها وهى لا تزال واقفة فى الطين، مسنودة على مسند الطنبور، فوجدت داخلها لفة أخرى من ورق، ملفوفة فى احكام شديد.

قالت عيوشة:

- لفة أخرى. لفة ورق.

قالت الشيخة:

- هذا هو العمل يا ست عيوشة. صدقت؟ صدقت كلامى؟

قالت عيوشة وهى ترتعد:

- وماذا أعمل؟

قالت الشيخة:

- اسمعى. حتى يظل سلطان مخدوعاً، أعيدى العلبة الصفيح إلى مكانها. أعيديها فارغة. هاتى العمل وأعيدى العلبة.

وتساءلت عيوشة:

- لماذا؟ يمكن تكون العلبة هامة!

قالت الشيخة:

- أبداً .المهم هو هذا العمل. دعيه يتوهم أن السر لم ينكشف، هذا قد يفيد فى إبطال مفعول العمل. اسمعى الكلام.

وسمعت عيوشة الكلام. أعادت العلبة الصفيح فارغة حيث كانت، وسحبتها ساقيها من طين الترعة، وخرجت وهى تجذب أنفاسها فى عمق.

وعلى حافة الترعة جلست قليلاً لتستريح ولتتأمل العمل الذى أودى بسعادة ابنتها، وحطم حياتها، وأفقد زوجها عقله.

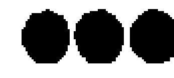
وأخذت تقول والعمل الخبيث فى يدها:

- أهكذا؟ أهكذا؟ يا سلطان؟ تعملها فى أختك يا سلطان؟ هذا هو فى النهاية بين يدى. عملك الردىء الخبيث بيد يدى. سأمزقه الآن ليفسد، ومن يدرى قد ينقلب كله عليك يا ابن البالوظة "المبططة"!!

وكادت تهم بفتح اللفة الورق، لتمزقها، فصاحت الشيخة فيها:

- إياك. إن إفساد العمل أهم من العمل نفسه. إياك.

وعادت النسوة الثلاث، بعد أن كشفن السر، وأبو المكارم يودعهن بنظراته، بعد أن رأى كل شىء من بعيد.



لكن العمدة "عباس" ـ مع هذا. لم يصل إلى سبب الحريق.

إن "سلطان" لا يزال فى النقطة، تحت التحقيق، والبلد صامتة حزينة حائرة، لا تدرى هل تحزن عليه أم تحزن على نفسها! والغموض يسرى فى نفسه هو، فيخيل إليه أن كل شىء غامض، وأن كل الناس مشغولون مثله بالوصية المفقودة.

وهذا الحديث الطويل عن "العمل" لم يكشف له شيئاً. أبداً لم يكشف له شيئاً.

وقال فى نفسه: اللهم طولك يا روح.

وذهب إلى خادمة البالوظة. هذه هى الجبهة الثانية، ولا بد له من الاستماع إليها.

وسحب الخادمة من يدها، وانتحى بها جانباً، لتروى له بدورها جزءاً آخر من القصة:

– أبداً يا سيدى العمدة.

لا تصدق كلام أحد، عن "العمل" الذى كان معمولاً.

والحقيقة، فى الحقيقة، أن العمل الذى كان معمولاً، كان مربوطاً على "سى سلطان"، لا على الست نعمت، اسم النبى حارسك.

وأخذ العمدة يفرك عينيه ليفيق:

– "العمل" كان معمولاً لسلطان؟ كيف هذا يا بنت؟

– سى سلطان ـ اسم الله عليك ـ أصبح رجلا "ملو هدومه".

وهو مستور والحمد لله. أرض؟ عنده أرض. نقود؟ عنده نقود.

عائلة؟ اسم النبى حارسك العائلة تعرفها أنت. طيب ماذا ينقصه؟ لا شىء. لماذا لا يتزوج؟ أمه تريد أن تراه عريساً، وتدفع عيناً من عينيها. لكنه لا يريد. يهز رأسه كلما فوتح فى هذا ويمضى رافضاً ومنكراً. لماذا يا سى العمدة؟ يا سى عباس أنت كلك نظر. أمه "ياولدى"، لم تجد وسيلة إلا أن تسأل الناس، وتزور الأولياء، وتستعين عليه بالمشايخ. وكم من مرة كنست له سيدى الذكيرى. والنبى سافرت من أجله إلى دسوق وكنست سيدى ابراهيم الدسوقى. سافرت طنطا من أجل السيد البدوى، وأيضاً سافرت مصر وزارت الحسين وأم هاشم. ومع هذا استمر سلطان أعزب، لا يتزوج. لو كان ابنك، تسكت؟! أمه داخت سبع دوخات، حتى جاءتها واحدة مبروكة وتقية وتعرف كثيراً عن هذه المسائل، وكشفت لها الحقيقة.

– وماذا كانت الحقيقة؟

– سأحكى لك كل شىء. لا تستعجلنى يا عمدة.

- إياك يكون "عمل".

- عليك نور يا عمدة. "عمدة". آ.. "عمل"! الله يقطع أولاد الحرام يا شيخ.

- وطبعاً صدقت البالوظة.

- الله!! وهل يستطيع أحد أن ينكر؟! هل ينكر الشمس وهى طالعة؟ هل ينكر الحقيقة وهى أمامه؟ "العمل" كان واضحاً يا عمدة. الولد يا عينى كان زاهداً فى الزواج، وفى الدنيا. "العمل سد نفسه" "العمل كسر نفسه".

- يا ...ه! هكذا؟

- آ.. لو ابنك تتركه، بعد أن عرفت أنه واقع تحت تأثير "عمل"؟! لا يمكن يا عمدة.

وحكت الخادمة كيف سارت الأمور بعد ذلك، بين البالوظة والشيخة المبروكة التى نزلت عندها مكرمة معززة، تعينها على فك عقدة الولد. إنه وحيد. ولد وحيد! تتركه؟!

قال العمدة:

- وماذا قالت للناس عن الضيفة؟

قالت الخادمة:

- يوه. بسيطة. هذه بسيطة. قريبة من البندر.

ونظرت حواليها لتسر للعمدة بسر آخر، فلما اطمأنت إلى أن أحداً لا يسمعها قالت له:

- مثلما قيل عن واحدة مثلها، كانت تنزل عند الست عيوشة.

وضحكت الخادمة، عندما وجدت العمدة يفتح عينيه فى دهشة وعجب!

ثم استأنفت روايتها عن البالوظة والشيخة.

- لقد عجبت البالوظة من "العمل"، وأخذت تعجب منه:

- لكن لماذا؟ ماذا بيننا وبين الناس؟ ماذا فعلنا للناس؟ وهذا الولد المسكين ماذا فعل؟ البلد ملآنة شباباً مثله، والعائلة مزدحمة بكثيرين على شاكلته. وكلهم، كلهم يتزوجون

ويسعدون، مرة واثنين، وينجبون أولاداً، ويملأون الأسرة ذرية. لماذا ابنى وحده، هو الذى يقع فى حبائل "العمل"؟!

وسألتها الشيخة:

- يمكن فيه خصومة بينكم وبين ناس آخرين.

وأنكرت البالوظة أن هناك شيئاً كهذا.

قالت الشيخة:

- أو خلاف على شىء.

وأنكرت البالوظة، فقالت الشيخة:

- أو ميراث مثلاً.

وأنكرت البالوظة، وهى تقول:

- ميراث!! أى ميراث؟ الرجل مات، والولد هو الرجل بعده، والأرض كما هى لم تقسم، وهو يزرعها ويصرف علينا كما يفعل أبوه. لا أنا ولا عيوشة نعرف شيئاً، ولا يهمنا أن نعرف. إن لنا حاجاتنا تأتينا، وهى بالفعل تأتينا، فلماذا تتدخل فيما لا يعنينا؟

قالت الشيخة:

- يظهر أنك طيبة جداً يا ست بلوظة. أنت طيبة أكثر من اللازم الأولى اسألى نفسك: من شريكه فى الميراث؟

قالت البالوظة:

- من؟ لا أحد. أنا وضرتى وأخته.

قالت الشيخة فى هدوء:

- ولو تزوج، سيصرف على بيته أولاً، ثم يوزع الباقى على الورثة.

قالت البالوظة:

- أبداً. سيصرف علينا كلنا.

قالت الشيخة:

- يا ست بالوظة كفاك طيبة. لا أنت، ولا إمرأة أبيه ولا أخته ستكون فى معزة إمرأته، وعندما يصبح عنده أولاد، سيذهب كل شىء لإمرأته وأولاده... ثم الورثة.

قالت البالوظة فى صوتها المبحوح المحشرج:

- يعنى يمنعونه من الزواج.

قالت الشيخ:

- ليبقى لهم خيره، بلا نقصان.

وصاحت وهى تلطم خديها، فيترجرجان تحت لطماتها:

- يا نهار أسود.. يعنى يربطون ابنى من أجل مصالحهم. ابنى يعيش أعزب. ويموت أعزب، من أجل أطماعهم! عملوا له "عمل". عندك حق. عملوا له "عمل" يا ست الشيخة. الكلاب الطماعون عملوا له "عمل".

وأخذت البالوظة تبكى وتنتحب والشيخة تحاول أن تعيد إليها هدوءها.

قالت الشيخة:

- هكذا تفضحين نفسك! هكذا تفقدين ابنك!

وصاحت البالوظة:

- افقد ابنى! أيضاً أفقده؟ كيف هذا؟

قالت الشيخة:

- إذا كنت تريدين أن تفسدى "العمل"، فالطريق الوحيد هو أن تهدئى كأن لم يحدث شىء. "العمل" لا بد أن يظهر، حتى يفسد. إنما تظنين أن "العمل" يفسد من بعيد لبعيد،

فهذا غير صحيح. ولكى تصلى إلى "العمل" لا بد لك من التأنى والصبر والهدوء، والا ضاع منك كل شىء، وحرص الذين عملوه على اخفائه، وطالما هو مخفى، فسيظل سحره على الولد كما هو.

- يعنى أسكت؟ لا أتكلم؟

قالت الشيخة:

- طبعاً تسكتين. تسكتين سكوت القبور. لا تغيرى شيئاً من معاملتك، لا مع ضرتك، ولا مع بنتها. أوهميها أنك لا تعرفين شيئاً، وراقبيها. إن الذى يخفى شيئاً يحرص على ألا يعرفه أحد. ولكى يطمئن إلى أن أحداً لا يعرف مكانه يتردد على المكان الذى أخفاه فيه، ليتأكد أنه حيث تركه، وأن يداً لم تمتد إليه.

قالت البالوظة فى سذاجة:

- أى والله. تمام والله.

قالت الشيخة:

- المسألة محتاجة إلى حرص شديد وحذر. فاهمة وإلا.. لأ؟

واتفقت الشيخة مع البالوظة على أن تكف احدى قريباتها من الفتيات لتسير خلف نعمت وامها أو أى رسول منهما يشتم أنها مكلفة منهما بشىء، لترى أين تذهبن، وماذا تفعلن، ومن تقابلن.

قالت الشيخة:

- واحدة تكون ناصحة جداً. لا بد من اختيار واحدة ناصحة جداً. اختارى قريبة من دمك أنت، حتى لا تخدعك. إن الوصول إلى "العمل" سيتوقف على التى تختاريها.

ولم تضع البالوظة فرصة، فاختارت بنتاً من قريباتها، وتركت الشيخة تشرح لها مهمتها تماماً، وتحذرها من أى اضطراب قد يكشفها للطرف الثانى.

وكانت البنت التى اختارتها البالوظة على درجة من الذكاء، وخفة الدم، والشقاوة، فلم تضع وقتها، وبدأت تفتح عينيها وأذنيها تراقب ضرة قريبتها والمحيطين بها.

ولاحظت البنت الحلوة الشقية، أن ضرة قريبتها، أحضرت هى الأخرى واحدة من قريباتها، وأن البنت الأخرى تحضر لقريبتها كل يوم، وأنها تختفى معها فى حجرتها عدة مرات فى اليوم، وأن واحدة فقط تدخل معها الحجرة، تقول عنها ضيفة من قريباتها فى البندر.

وضحكت البنت الشقية من الموقف كله وهى تقول لنفسها:

- نحن أيضاً عندنا ضيفة من البندر، قريبة لخالتى بالوظة "ما حدش أحسن من حد"!

وبدأت تنفذ ما اتفقت عليه مع قريباتها. إن البنت الأخرى، قريبة "الست عيوشة"، قد أصبحت هدفها، وشعرت أن مهمتها أن " تنكد عليها عيشتها"! لا ترتاح منها أبداً!

كانت تحاول أن تفلت منها، وكانت تتركها تفلت منها، عن عمد، فإذا توهمت أنها أفلتت، وجدتها فى وجهها تضحك فى سخرية خبيثة وشقية!

وكانت تعرف وجهتها، فتنتظرها هناك فى مكان خفى لا تراه عين، فإذا وصلت وجدتها قبلها تتظاهر بأنها فوجئت مفاجأة لم تكن تخطر لها على بال.

وكم من مرة خدعتها. اتجهت إلى الناحية القبلية، لكنها كانت تدور من حول الساقية، لتقابلها وجهاً لوجه وهى متجهة إلى بحرى البلد، تتلفت خلفها حتى تطمئن إلى أنها لا تتبعها!!

وكم من مرة، إدعت أنها ذاهبة إلى الساقية لترى أحد اقاربها، بينما كانت تثب من خلال أعواد الذرة إلى مكان آخر تنتظر صاحبتها فيه.

وشعرت البنت الأخرى أنها كالجن موجودة فى كل مكان، فى النور وفى الظلام، وبين الشجر، وتحت الأرض، وعلى سطح الماء. وكاد مخها أن يطير من الخوف من أن تفاجئها من حيث لا تحتسب.

وعندما اختلت بقريبتها وبالشيخة الضيفة كانت سعيدة جداً بهذه المطاردة حتى لقد تمنت ألا تنتهى. وكانت الست جميلة البالوظة ضيقة بهذه الشقاوة، تتعجل النتيجة والعثور على "العمل" انقاذاً لابنها، لكن البنت كانت خفيفة الظل إلى درجة كانت تنسى الست بالوظة همها.

قالت البنت:

– لا تخافى يا خالة جميلة. أنا وراءها والزمن طويل. تعمل ما تشاء، وراءها! تموت...

وسكتت ثم قالت وهى تتصنع الخوف:

– لأ لأ لأ، فى هذه الحالة، تموت وحدها!

وحكت لقريبتها وللشيخة الضيفة الرحلة اليومية للبنت الثانية، وكيف تتبع "سلطان" كأنها ظلة، ولا تتركه يفلت من تحت عينيها أبداً.

وصاحت البالوظة فى صوت كأنه حشرجة الموتى: يمكن يؤذونه!

– يا مصيبتى يا مصيبتى. مالها به هذه البنت..يا عينى يا بنى!

قالت الشيخة:

– هل تستطيع بنت صغيرة كهذه أن تؤذيه. أبداً. إنها مكلفة من ضرتك أن تطمئن على "العمل". لا بد من المحافظة عليه يا ست بالوظة. اطمئنى.

قالت البالوظة:

– يعنى هذه البنت تذهب كل يوم "للعمل"؟

قالت الشيخة:

– طبعاً. وأنا أختم وأبصم على هذا.

قالت البالوظة:

– إذن هانت المسألة. وراءها يا بنت، لتعرفى أين "العمل".

وسكتت البالوظة ثم قالت فى صوتها المبحوح:

- لكن بنت المجنونة هذه، تتبع "سلطان"!! لماذا؟

قالت الشيخة:

- لا تعرف، لكنا سنعرف. المهم أنت يا شاطرة. لا تغفلى عنها أبداً. إياك.

قالت البنت "

- هل توصيننى يا خالة؟ أنا وراءها لآخر الدنيا.

لكن المفاجأة التى لم تستطع الفتاة الشقية أن تقابلها بالسخرية، أنها وجدت نفسها ذات مساء، أمام ثلاثة نساء يسرن على شاطىء الترعة، متجهات خارج القرية، إلى الحقول.

وعرفتهن، فذهلت!

الست عيوشة وضيفتها والفتاة الصغيرة عدوتها، يسرن فى تؤدة إلى الحقول! ولم تعرف الصغيرة ماذا تعمل؟ هل تتركهن وتذهب لتستشير قريبتها الست جميلة البالوظة؟ فإن ضاعت منها الفرصة، فماذا تعمل بعدها؟

وشعرت الصغيرة أن عليها أن تتخفى وراءهن، وتسير معهن، دون أن تدعهن يشعرن بشىء. ولما أحست أن "أبو المكارم" هو الآخر قد بدأ يسير خلفهن ارتاحت، فقد كانت تخشى أن يكشفنها، لكن وجود "أبو المكارم" صار نوعاً من الغطاء لها. وهو غطاء يؤنس وحدتها فى هذا السكون الموحش.

وسرن، وسارت خلفهن.

وعند احدى المنحنيات، درن مع الترعة إلى يمين، ثم درن إلى يسار، ثم وقفن عند مسند الطنبور، ثم نزلت الفتاة الصغيرة إلى حافة الترعة، ثم تبعتها الست عيوشة، دون أن تعبأ بالطين ولا بالوحل، والضيفة الغريبة تسندها.

وكادت الشقية الحلوة تجن.

إن شيئاً يحدث هناك، وهو شيء يعنيها. لا بد أنه "العمل"، لا بد أن الست عيوشة أرادت أن تطمئن عليه بنفسها.

لكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً، فقبعت إلى جوار شجرة في الطريق، وقد تحولت البسمات المرحة على شفتيها إلى دموع. لقد ضاع منها كل شيء، هكذا في ثانية!

استسلمت الفتاة لقضائها، وبدت كأنما هي قطة جائعة تتلمس الهدوء والدفء في جذع الشجرة. لم تتحرك. حتى أنفاسها كادت تتوقف.

وعندما مررن بها سمعت ما كن يقلن، ففتحت أذنيها في تحفز.

– انتهت المسألة يا ست عيوشة "العمل" في يدك. مذا تريدين؟

– وتظنين أن كل شيء انتهى، بالعثور عليه؟

– طبعاً. سأحضر واحداً من العالمين بهذه الأمور ليعمل اللازم، أو تذهب إليه.

– لكن العلبة الصفيح التي تركناها. هل فيها شيء؟

– الشيء معك في يدك، وعنده العلبة فارغة، "يبلها ويشرب ميتها".

وشعرت الفتاة من مكانها في جذع الشجرة أن اللازم هذا لا بد أن يكون شيئاً مخيفاً. لا بد أنهم سيأخذون العمل إلى واحد يزيده قوة لكن أية قوة يا بنت؟ يفتكون بسلطان؟ يقتلونه؟ يدفعونه للجنون؟ يا مصيبتك يا خالة بالوظة!!

ولم تدر ماذا تفعل.

لكنها قررت على كل حال، أن تختفي من حياة قريبتها، فإنها مقبلة على أيام عصيبة جداً.

وعندما أرادت أن تفر من أزمتها، وجدت نفسها "وأبو المكارم" وجهاً لوجه.

صاحت خائفة، فأخذها في حضنة وقبلها في حنان.

قالت له: خائفة! ماذا أعمل؟

وأشار إليها أن تسير وراءهن.

قالت: وإذا كشفننى؟

وأشار إليها ألا تخاف، وألا تهتم، وأن تحكى له ما يحدث بعد ذلك.

وشعرت الصغيرة بثقة فسارت لا تعبأ بشىء، فلما دخلن المنزل، دارت من بعيد ودخلت وراءهن. لقد صارت فى أمان. هذا المنزل فيه قريبتها، وليس دخولها إليه أو خروجها منه مما يلفت النظر، أو يثير الاهتمام. لكنها وجدتهن قد وقفن واجمات تتهامسن.

ولم يتنبهن إليها، فوقفت تنتظر فى ركن مظلم.

قالت الضيفة: يحسن أن تحافظى عليه بعينيك.

قالت الست عيوشة: لهذا فلا بد من أن أخفيه فى المقعد فوق السطوح.

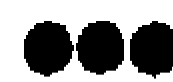
قالت الضيفة: وماذا تنتظرين؟ هيا. هيا.

وبغير أن ترد، صعدت الست عيوشة السلم فى الظلام، فصعدت الصغيرة وراءها، بينما انصرفت إلى حجرتها، وقد أمسكت بيديها الفتاة الأخرى وهى تؤكد لها أنها قدمت خدمة لعمتها لا تنكر، وأنها صبرت على الخوف والرعب، لكن ربنا عوض صبرها خيراً.

أما الصغيرة الحلوة الشقية، فقد وقفت خارج المقعد، ترقب الست عيوشة، وهى تفتح دولاباً، ثم تضع فى الدولاب "العمل".

وعندما استدارت الست عيوشة لتهبط السلم كانت تقول لنفسها:

- الحمد لله. الحمد لله. غداً كل شىء يعود كما كان. يا فرحتك يا بنتى عندما تعلمين. ستنالين أنت كل شىء يا بنتى. وساعتها تذكرين أن أمك فعلت هذا لك يا نور عيون أمك.



وعندما نقلت الصغيرة هذه الرواية لخالتها البالوظة، على مسمع من الشيخة الضيفة، هاجت خالتها هياجاً شديداً وهى تصيح:

- ستنال كل شىء. ستنال كل شىء. وفقدت أنت كل شىء يا سلطان يا بنى؟ هذه مصيبة. ومن سيزرع ويقلع ويطعمك يا ست عيوشة، يا نحس النحس، أنت وبنتك؟

لكن الشيخة الضيفة هدأتها، ونصحتها ألا ترفع صوتها.

المسألة محتاجة لهدوء. إنك لو فقدت أعصابك، فإنهم سينالون منك ما يريدون. اهدئى يا ست بالوظة. أين الحكمة وبعد النظر؟ هل تريدين أن تقضى على ابنك؟ هذا "العمل" مربوط على ابنك، ولا بد لك من الحصول عليه ولن تحصلى عليه بهذه الطريقة. لو أحسوا أنك تعرفين، فسيختفى "العمل"، واضربى أنت رأسك فى الحيط. لأ.. لأ.. اصبرى يا ست جميلة، وربنا موجود.

إن الحوادث كانت أسرع من أى تدبير.

سلطان وقع! قبض عليه بعد حادث الساقية.

وجنت أمه، وهى تتصور أن "العمل" هو سبب ذلك كله، بينما تصورت إمرأة أبيه أن "العمل" قد بدأ ينقلب عليه.

متى ينفع البنت؟ متى؟

قالت لها الشيخة ضيفتها: اصبرى.

تماما كما قالت شيخة بالوظة لها: اصبرى.

واتفق رأى الشيخة وبالوظة على أن تعمل الفتاة قريبتها المستحيل لتحصل على "العمل". بأى شكل، وبأى ثمن، وعلى أية صورة. يجب أن تحصل على "العمل".

وسألت البالوظة قريبتها:

- تقدرى يا بنت؟ من أجلى أنا! من أجل خالتك حبيبتك!

قالت الفتاة دون تردد:

- من عينى يا خالة. والله العظيم لآتينك به.

وبدأت الفتاة تتردد على السطوح، وعلى المقعد العلوى، وتتقرب من الست عيوشة، وتضاحكها وتمزح معها، وتدخل على قلبها البهجة.

وكانت الست عيوشة عصبية متوترة، تقابل ذلك كله بوجوم.

وذات صباح بينما هى تعد نفسها لزيارة السيدة زينب فى مصر، كما قالت لضرتها ولبنتها، فى صحبة الشيخة ضيفتها.

وبينما هى فى المقعد ترتب حاجياتها، والدولاب إياه مفتوح على مصراعيه، و"العمل" لا يزال ينتظرها لتضعه فى مكانه من صدرها، حتى لا تمتد إليه يد غيرها.

بينما هى كذلك، إذ ببنتها تناديها فى لهفة لتنزل إليها. كانت تستغيث بها وتصيح بأعلى صوتها: إنه كاد يقتلنى يا أمه. ضربنى حتى كاد يقتلنى.

ونزلت على عجل، وتركت الدولاب على مصراعيه.

وامتدت أصابع الصغيرة الشقية، فأخذت العمل وأخفته فى طيات ثوبها، ونزلت تعدو إلى فناء الدار.

وفى الفناء وجدت الأسرة قد تجمعت وقد تملكها الاضطراب.

إن المجنون قد جاء وراء إمرأته، وعصاه فى يده. إنه يريد أن يؤدبها. كيف تجرؤ على أن تجرى من أمامه، وهو يضربها.

وكانت نعمت تجرى منه بين حجرات المنزل، وهو يجرى خلفها ليلحق بها، وأمها والضيفة وكل أفراد الأسرة يحاولون أن يمنعوه.

وخافت الفتاة على "العمل" فخرجت وهو فى جيبها.

ماذا تفعل به؟ إنه لا يعنيها. إنه يعنى خالتها جميلة. إنه قد ينقلب عليها! إن الجن قد يركبونها هى! وارتعدت من تصوراتها، فجرت على غير هدى إلى حيث لم تكن تدرى. كانت تريد أن تتخلص من "العمل" بسرعة، قبل أن يصيبها النحس.

وعندما هدأ المجنون وانصرف، ذكرت الست عيوشة أنها تركت الدولاب مفتوحاً وفيه "العمل".

وجرت تصعد السلم إلى المقعد، ونظرت فى الدولاب، فلم تجد "العمل"!!

تعبها كله ضاع فى ثانية، وبنتها ستستمر على حياتها هذه التعسة، مع زوج مجنون يعتدى عليها اعتداءاته الوحشية. وبينما كانت على وشك العلاج، ضاع كل شىء! وفقدت الست عيوشة أعصابها، وتصورت أن ضرتها هى التى أخذت "العمل" سرقته منها لتزداد بنتها تعاسة!!

ولم تفكر، ولم تتردد، وهجمت على ضرتها فى جنون!!

– أنت تريدين أن تقتلى بنتى!

– بل أنت تريدين أن تقضى على ابنى.

– أنت عملت "عمل" خرب لها بيتها!

– بل أنت التى عملت لابنى "عمل" دفع به إلى النقطة.

– أنت مجرمة.

– أنت قلبك أسود.

– سأنتزع منك "العمل" الذى سرقته.

– بل أنا التى ستفسد لك "العمل" الذى دبرته.

– يا عيوشة إبليس.

- يا بالوظة حمضانة.

واشتعل بيت الحاج غضبان بالحريق.

وجاءوا بالعمدة ليطفيء الحريق، لكن العمدة ظل صامتاً يقول لنفسه: هل فهمت؟ يا عمدة النحس، هل فهمت؟

لكن هل لابد من أن تفهم؟

□□□

٩

راسى صارت كالدوامة! لم أعد أشعر بما حولى! الشجر يجرى معى، وجسر الترعة طويل، طويل لا ينتهى! وهذه الأصوات تطن فى أذنى، كأن الشياطين قد تجمعت حولى، تتشاجر أو تتآمر علىّ! ضعت، أنا ضعت! لم يعد لى مستقبل. أصحاب "العمل" ركبونى أنا ليحرسوا "العمل" الذى أحمله!

لو رميته هنا أو هناك، هل ينزلون من فوق راسى، ليحرسوه حيث أتركه؟ أم أنهم سينتقمون منى؟ انهم قد لا يرضون بأن أرميه على الأرض، أو فى الماء! هل أحتفظ به؟ وهذه الدوامة التى فى رأسى، وهذه الأشباح التى فى عينى، وهذه الأصوات التى فى سمعى!! يا ربى وكيف أعيش؟ أنا والأسياد فى جلباب واحد!! أية حياة؟!

ودارت الفتاة الصغيرة الحلوة حول الخص، فوجدت "أبو المكارم" رابضاً فيه عيناه تبرقان، وهو يتأملها فزعة خائفة تجرى هنا وهناك.

وتركت الخص وأخذت تجرى على حافة قناة الحديقة، حتى وصلت إلى الساقية فلم تجد هناك أحداً. لم تكن الساقية تدور ولم يكن يصدر عنها ذلك الصوت المتصل، كأنه العويل أو الأنين!

أين تضعينه يا بنت؟ أين تتخلصين منه؟

وشعرت أن أقداماً خفت نحوها، فارادت أن تهرب، فوثبت إلى جسر الرياح، لكن الأقدام مضت خلفها، كأنما تتعقبها.

واستبد بها الخوف، من "العمل" الذى تمسكه فى قبضتها، والقادم الذى تسمع وقع أقدامه بأذنيها.

ولم تستطع إلا أن تتجه نحو الصفصافة، لتجد جذعها مفتوحاً يرحب بها، ليطويها، فدخلت فيه تتخفى من خوفها، وسحبت "العمل" من جيبها، ووضعته فى بطنها، فشعرت أنها تخففت من ثقل كان يؤرقها ويهوى بها إلى القاع، من هواجسها.

وخرجت تتلفت حولها.

هل رآها أحد؟ لا تظن. وتنفست الصعداء، وهى تعود إلى بيتها.

لكنها شعرت برغبة ملحة فى أن تمر بسيدى الذكيرى، لتقرأ له الفاتحة. لابد أنه هو الذى ساعدها، لتتخلص من محنتها. إن أهلها يذبحون له ذبيحة كل عام، ويفرقونها على المحتاجين فى مولده، وهى تشعر أنه ـ من أجل هذا ـ يحب عائلتها ويقف إلى جوارها. لا بد أنه هو الذى هداها إلى هذا المكان فى بطن الصـفـصـافـة! من يصدق أن فى الصفصافة مكاناً كهذا؟ هى نفسها لم تكن تعرف هذا المكان، برغم أنها كثيراً ما لعبت حولها وتسلقتها. إنها لا تظن أن أحداً غيرها يعرف هذا المكان.

وقالت لنفسها إن سيدى الذكيرى دبر هذا المكان لها. بل والمؤكد أنه دبره لها هذه المرة فقط. يا.ه! كراماتك يا سيدى يا ذكيرى، يا "أبو احمد". ومن يدرى، ربما تكون الصفصافة انشقت هذه المرة، لتلتقط "العمل" ثم تنطوى عليه، لتحتفظ به بين طياتها سراً لا يعلمه أحد؟ يا خبر!! أنت بطل يا سيدى يا ذكيرى. حتى الشجرة شققتها لى؟! ما أكرمك!

وتساءلت: هل تعود لترى مصير هذا الشق فى بطن الصـفـصـافـة؟ وارتعدت من الفكرة! خافت من الهواجس، وشعرت أن مساً قد بدأ يلامسها، فأخذت تعدو وهى تؤكد لنفسها أنها لن تعود. لا.. لن تعود!! ولماذا تعود؟ هذه وديعة وضعتها فى المكان الذى انفتح لها من غير احتساب، وانتهى أمرها. آه.. انتهى. لن يخطر على بالها شىء عنها.

وقبل أن تصل إلى مقام الشيخ، كانت صورة المحموم فى ذهنها.

الشجار، والسباب، وألفاظ تخرج من الأظافر حادة، وأخرى ترتطم بدوائر حلزونية فتضل الطريق إلى الأسماع، وأيد تمتد بالإعتداء، وأكف تطرق الوجوه فى غير حياء، وأصابع تقرص، وأسنان تعض، وعويل، وصراخ، وبكاء!

والعمدة لا يدرى ماذا يفعل.

يقولون له "العمل"، وهو مشغول بالوصية.

"العمل" ضاع قبل أن يفسد!

والوصية ضاعت قبل أن تنفذ!

"العمل" والوصية يا عمدة، وأنت بينهما لم تعد تدرى رأسك من رجليك!

أبو المكارم كان الوحيد الذى رآها.

تماماً كما كان الوحيد الذى رآها يوم أن كانت تسير خلف عيوشة وضيفتها وقريبتها، والفزع يرتسم على وجهها.

وبعد أن انصرفت من بطن الصفصافة، دخل هو.

هذا مكانه الذى عاش فيه ردحاً طويلاً من عمره، وسمع زفراته، أنصت إلى آهاته، وشاركه فى كثير من الأيام اللهفة والدمع. وفيه أعز ذكرياته: فردة الشراب الأحمر.وعندما أمسكها فى قبضته، عادت إليه الصفحات الغالية التى انطوت من عمره.

وبكل ما فيها من مرح ونقاء وسذاجة وعاطفة خلت من الهم، عادت إليه، فى اشراقة الصبح، وخفة العصفور، وشفافية الدعاء، وجمال تفيدة، الضحية المظلومة.

وعاش لحظات وفردة الشراب الأحمر فى يده، وتفيدة بين عينيه، لم تزد عن أمس إلا أصبعاً! ابتسامتها المرحة الطروب، وخفتها، ورشاقتها، وبشرة كالشمع ترى من تحته مسرى الدم فى جسمها، وقامة كالكبرياء مترفعة!

وتلعب معه، وتتقاذف مع فردة الشراب الأحمر، قلبه الأخرس، كلسانه.

آه يا تفيدة! وذهبت إلى داره، ومن داره إلى الآخرة. من النار إلى الجنة. هذا حقك. الجنة أقيمت لك، بعد العذاب الذى رأيته. لكنى أخدع نفسى يا تفيدة. الجنة!! ثم ماذا؟ ثم أنا والوحدة والعذاب!! ماذا أخذت من الجنة؟ بل ماذا أخذت أنت منها؟ تركت كل شىء، حتى ابنك! يا ربى! لا اعتراض!

وابتلت عيناه بالدموع، وهو يقلب بين حاجياته ليرى ماذا وضعت الصغيرة الخائفة.

وأمسك بلفة الورق، وأخذ يقلبها، وهو يضحك!

هذا "عمل"؟! هذا يقلب كيان الناس، ويحطم حياتهم؟! هذا شىء تحرسه الأسياد، وتتجمع له الشياطين؟! غريبة؟ غير معقول!! حزمة ورق ملفوفة فى أوراق قديمة. لا يمكن أن يكون هذا هو "العمل". لكنه هز رأسه فى عدم مبالاة، وهو يقول فى نفسه: من يدرى! ربما!

وذهب إلى سيدى الذكيرى.

واستقبله أبو عوف فرحاً به، معاتباً له، فقد طالت عنه غيبته.

- "ساعتين يا عم "أبو المكارم"، غبت ساعتين!" أين كنت؟

وضحك أبو المكارم، وحمله بين ذراعيه، وأخذ يداعبه، ويلاعبه، ويقبله. وعندما سار به نحو الضريح سمع أصواتا تخترق الهدوء إليه.

وأشار إليه هل وصلت، فهز الولد رأسه أنها وصلت.

وأسرع إليها، يصافحها فى شوق.

قالت الست قمر بعد أن سألته عن صحته وأحواله:

- والبلد؟ كيف حال البلد؟ وماذا يجرى فيها؟

قال لها وهو يشير فى يأس:

- كما هى. لم يفتحها الله عليها بعد.

وضحكت الست قمر وهى تسأله أن يحكى لها آخر الأخبار.

وأخذ أبو المكارم يروى لها قصة "العمل"، والصراع الرهيب بين عيوشة وجميلة البالوظة، والحريق الذى اشتعل فى بيت الحاج غضبان، نتيجة "العمل" الذى ضاع.

وضحكت الست قمر وهى تسأله:

- عمل؟ شىء لله يا عمل! لمن! أو ضد من؟

لكن "أبو المكارم" لم يكن يعرف. كل الذى يعرفه أن عيوشة تعتقد أن "سلطان" هو صاحب العمل، وأنه ضد أخته نعمت، بينما البالوظة تعتقد أن عيوشة هى التى عملت "العمل" ضد ابنها. وعيوشة تريد العمل لتفسده، فتنصلح حال بنتها، والبالوظة تريد "العمل" لتفسده، فتنفك عقدة ابنها، ويتزوج، ويملأ البيت أولاداً!

وأدهى من هذا أن العمل كشف عن سر محير، فما أن ظهر حتى وقع سلطان، وأخذوه إلى النقطة. لكن نعمت لا تزال كما هى، تقاسى من زوجها المجنون. كيف يفسد العمل، ومن يفسده؟

- لكن "العمل" وجدوه؟

- آ.. وجدوه.

- أين وجدوه؟

- عند مسند من مساند الطنبور على الترعة أمام حقل الحاج غضبان.

- ومن وضعه هناك؟

- الله أعلم. وجدوه هناك والسلام.

- وألم تفسده المياه؟ الرشح والرطوبة، ألم تفسده؟ مكتوب على "إيه"؟

- على ورق.

- والورق لا تفسده المياه والرشح؟

- لا .. عندك حق. لا بد انه كان موجوداً فى شىء.

- وهذا الشىء ألا يزال هناك، أم أنهم أخذوه؟

- لا أدرى.

- إذن يجب أن تدرى.

- ولماذا أدرى؟ محروق هذا أو تلك. مالى أنا؟

- لعبة لا بأس بها . ثم من يدرى. جائز نحتاج إليه.

- ماذا؟ "العمل"؟

- لأ .. اللعبة..

- غريبة أنت يا ست قمر.

- أنت تذهب إلى هناك لترى كيف كانت الأوراق موضوعة.

- وكيف تظنينها كانت موضوعة؟

- فى علبة فى الغالب.

- وتظنين أنهم تركوا العلبة؟

- سنعرف لو ذهبت.

- فإن ضبطونى؟

- من؟

- الذين وضعوها؟

- إذا كان سلطان، فهو فى الحبس.

- وإن تكن عيوشة؟

- تكون قد أخذتها، ولن تجد شيئاً.

- فإذا لم أجدها، تكون عيوشة صاحبتها إذن.

- لأ. لأ يا "أبو المكارم". ساعتها تفرج.

ولما ذهب أبو المكارم، لم يلبث حتى عاد، وهو يضرب كفاً بكف، فإنه لم يجد شيئاً هناك. مدار الطنبور خالى تماماً من أى شىء. فى المدار جحر، لكن لا شىء فيه.

وحكى أبو المكارم حكاية المطاردة بين عيوشة والبالوظة.

والحكاية بدأت صامتة، كل منهما تطارد الأخرى، ومعها شيخة تفتى لها!

عيوشة تريد العمل الذى عمله سلطان لبنتها فجن زوجها! وترملت من غير أوان! ولا بد لها من الصمت، تتذرع به لتصل إلى غايتها. هكذا قالت الشيخة التى استضافتها!

والبالوظة تريد العمل الذى عملته عيوشة لتربط ابنها سلطان، وتفسد حياته، ويظل أعزب كالأرض البور، أو خرابات الجن، ويظل كثور الساقية يدور لها ولبنتها، وهو أعمى!

وكما كان الصمت مفروضاً على عيوشة، فقد كان مفروضاً عليها كذلك لتصل إلى غايتها. هكذا قالت الشيخة التى استقدمتها من البندر!

وكما كان لهذه شيخة ولتلك شيخة، فقد كان لهذه قريبة تتبع "سلطان" لتعرف أين "العمل"، ولتلك قريبة، تتبع القريبة الأخرى لتعرف أين وضعت عيوشة "العمل".

وكانت عيوشة أسبق، فذهبت وأخذت "العمل"، وتركت العلبة.

لكن المطاردة الصامتة لم تتركها تنعم بها، فكشفت البالوظة اللعبة، وعرفت أن "العمل" قد استقر فى دولاب، فى المقعد العالى، فوق السطوح.

وتحرك "العمل"! أصحاب "العمل" حركوه!

هم هكذا، بسم الله الرحمن الرحيم!

لا يحبون للعمل الذى يحيطون به أن يتحرك من حيث يستقر.

إن هذا يقلقهم ويزعج نومتهم، فإن صحوا فالويل. لمن؟ هذا سرهم، والله يحفظنا منهم، ويجعلنا من بركاتهم.

- سلطان كان ضحية العمل الذى تحرك من مكانه، فقبض عليه.

- لكن سلطان ارتكب حوادث، وتستر على اللصوص.

- آ..! العمل هو الذى دفعه إلى هذا.

- "العمل" يدفعه إلى السرقة؟

- لم لا؟ "قلل عقله"، ودفعه إلى هذا النزق.

- السرقة ليست نزقاً. إنها جريمة.

- حتى هذا. "العمل" يستطيعه ويقدر عليه.

- هكذا؟ هكذا تصل قوته وسره؟!

- أكثر!!

لكن هذه الهواجس التى خطرت ببال "أبو المكارم"، لم تمسح الابتسامة من فوق شفتيه. لم يكن خائفاً منها، ولا مهتماً بها. لقد سمعها تتردد على ألسنة الناس.

- والناس عرفوا؟!

- كل شىء عرفوه.

- وهكذا بسرعة!

- وهل فى القرية سر؟ شجار بالليل فى بيت الحاج غضبان، بين الأرملتين العجوزين عيوشة والبالوظة، وضرب وعض وقرص، والعمدة يذهب فلا يستطيع أن يتبين شيئاً إلا من الخدم. والقرية تهب للنجدة، وللمعرفة أيضاً. عرفت كل شىء عن "العمل"، وكيف اختفى من الدولاب، ففقدت عيوشة أعصابها، ولم تستطع أن تصير، بعد أن فعلت فى سبيل العثور عليه هل شىء.

وقال الناس:

- أفما كانتا تنتظران الصباح؟ أفما كان أنسب أن ننتظر الست عيوشة قطار الصباح؟

لكن الناس اعتادوا على أن ستات الأعيان لا يخرجن فى العادة بالنهار إلا مضطرات، أما خروجهن لزيارة أو لعزاء فهو بالليل. حتى سفرهن ففى قطار الليل. طبعاً حتى لا يراهن أحد . الليل سترة، وعيون الفلاحين فارغة.

شئ آخر رددته النساء.

- "العمل". لا بد أن الست عيوشة أرادت أن تتستر بالليل من أجل "العمل".

- يعنى الأسياد أمروها بهذا؟

- جائز. كل شئ جائز. كل عمل ووراءه سر وأسياد.

- البالوظة إذن على حق. تترك ابنها؟

- وعيوشة أيضاً على حق. تترك بنتها؟

وتنبه أهل القرية إلى وجود الضيفتين، وتحققوا من أنهما من المشتغلات بالسحر "والعمل" وكتابة الأحجبة.

وعندما اشتد وطيس الشجار، وارتفع الصياح، وامتدت الأيدى، حاولتا أن تهدئا الحالة، فى أول الأمر، لكنهما لم تستطيعا، وبدأ رجال الأسرة، ومن أقربائهما، يسرعون، فلما فشلوا فى فض النزاع، بدءوا بدورهم يتشاتمون، ويتطاول كل فريق على الآخر، وعندئذ شعرت الضيفتان بأنه لم يصبح لهما مكان فى هذا البيت "المسكون"، فتسللتا فى الظلام، لتحلقا قطار المساء. القطار الذى كانت عيوشة تزمع السفر فيه.

- وكأنهما صديقتان!

- إنهما تسيران متجاورتين تتحدثان!

- لكنهما كانت عدوتين، تعمل كل منهما على كشف الأخرى!

- وجدتا أن مصلحتهما فى الهرب معاً، فهربتا معاً!

- وحينما كانت مصلحتهما فى النزاع، تنازعتا، وتخاصمتا!

- مصالح! هذه مصالح!

بعض نساء القرية لم يتفهمن هذا، فارتفعت صيحاتهن خلفهما تطالب بعودتهما، فقد يكون وراءهما سر، أو سرقة. لا بد أنهما السبب فى هذه الوقيعة. لا بد أنهما هما اللتان أشعلتا النار. إن عيوشة والبالوظة لم تتشاجرا أبداً. ماذا حدث؟

ولكن الشجار كان يزيد، والرجال من أقاربهما كانوا يتجمعون، ونذر الشر كانت تطل من العيون!

ومع هذا فقد تبع الضيفتين بعض الفتيات، تبحثن عنهما.

ولم تجدا مكاناً تختفيان فيه إلا القبور، فقبعتا خلف الضريح، ولم يكن فى تقديرهما أن أحداً هناك.

وفجأة تقدمت منهما الست قمر، فوجدتهما قد جلستا مكورتين، تستند كل منهما على الأخرى، وقد كتمتا أنفاسهما واخفيتا رأسيهما فى ملابسهما، فلم يظهر منهما شىء.

وصعب على الست قمر أن تزعجهما، فتركتهما حتى هدأت الأصوات، فلما أنستا إلى أن الخطر قد زال، وقفتا تتأهبان لا ستئناف الرحلة.

عندئذ رأتا الشيخة والست قمر و"أبو المكارم" والصغير "أبو عوف".

وارتبكتا، واضطربت أطرافها، وأرتج عليهما، فلم تستطيعا النطق.

لكن الست قمر ابتسمت لهما، لتزيل عنهما هذه المخاوف.

- نحن غرباء مثلكما. لا تخافا. هذه شيخة الضريح، وكلها بركة.

- والنبى يا ستى ما فعلنا شيئاً.

- و"العمل"؟

- يا ستى. هل تصدقين؟ العمل عمل ربنا.

- وماذا كنتما تعملان عندهما؟

- "نسترزق"! ألم تسمعى المثل: "رزق الهبل على المجانين".

- يعنى لا عمل، ولا يحزنون.

- ناس مجانين!

- وأنتما. أنت وهى. تعرفان بعضكما من قبل؟

- ماذا تظنين؟

- مشتبهة!

- أولاً احلفى أنك لست من هنا.

- والله العظيم أنا لست من هنا، لست من هذه البلد أو الناحية.

- الله يطمئنك. اسمعى يا ستى. نحن أختان.

- يا نهار..!!

- ألم أقل لك: "رزق الهبل على المجانين؟ ".

- ولهذا هربتما.

- سيبدأون الضرب والشجار وهم فلاحون شرهم، نعوذ بالله! ونحن مسكينتان، ولنا أولاد وتحتاج إلينا أسرنا.

- لكن هل تعرفان فى "العمل"؟

- يا ستى قلت لك العمل عمل ربنا.

- افرضى أن الشجار لم يقم.

- كنا نستمر معهما.

- والشيخ الذى كانت ستذهب إليه؟

- واحد من أقاربنا.

- والمسألة من أولها لآخرها ضحك على الذقون.

- لا لا يا ستى. انها أكل عيش! "أكل العيش يعوز كده"!



وسكتت الست قمر قليلاً، ثم قالت لهما:

- من منكما كانت مع الست عيوشة؟

ولما أجابت احداهما سألتها:

- هل كان العمل فى مسند الطنبور، فى علبة، أم ماذا؟

- كان فى علبة صفيح يا ستى.

- متأكدة؟!

- طبعاً يا ستى. الست عيوشة أرتنى العلبة، فلما فتحتها وجدت "العمل" داخلها، ونصحتها أن تأخذ العمل وتعيد العلبة فى مكانها.

- لماذا؟ لماذا نصحتها بهذا؟

- لا أدرى، لكن الورق خفيف، ويمكن إخفاؤه. أما العلبة..

- هل كنت خائفة من شىء؟

- كل شىء جائز، وأنا غريبة. وأيضاً أردت أن أترك العلبة فى مكانها لتضليل من وضعها.

- تضليله؟

- طبعاً. الذى يضع شيئاً كهذا فى مكان بعيد، وفى الخلاء، كهذا "المكان"، لا بد من أن يعود إليه بين الحين والحين والآخر ليطمئن إلى أنه حيث هو.

- وطبعاً لن يفتح العلبة كل مرة ليطمئن.

- عليك نور. سيتحسسها، فإذا وجدها كما هى انصرف مطمئناً.

- لكن من وضعها.

- عيوشة قالت سلطان.

- وسلطان فى السجن. تركتها لمن إذن؟

- وهل من فى السجن، لا يخرج؟ سيخرج ذات يوم.

- على رأيك.

- وحتى وهو فى السجن. لا بد أن له ناساً. أنت لا تعرفين هؤلاء.

ونظرت الست قمر إلى "أبو المكارم"، فوجدته قد تاه عنها فى ملكوت. إن الكلام الذى يسمعه يحيره. العلبة كانت هناك. الست عيوشة تركتها هناك. ولا يمكن أن تكون العلبة قد اختفت من نفسها. هى لا تخفى نفسها. إذن أخفاها أحد. شخص مد إليها يده وأخفاها. والذى فعل هذا لا يمكن أن يكون قصده العلبة الفارغة. أبداً، لكنه فعل هذا تحت تأثير أنها ملآنة. بماذا؟ بالعمل؟ بشىء آخر غير العمل؟

إذن أين العلبة؟

وهذه الأوراق التى وضعتها البنت فى بطن الصفصافة، هل هى "العمل" الذى كان فى العبلة؟ هل هى الأوراق التى كانت فى العلبة الصفيح؟ من يدرى؟ المسألة كلها نصب فى نصب، والأمور كلها غامضة.

هذه الشيخة ليست شيخة، ولا يحزنون.

والشيخة الثانية أختها، وطبعاً هى التى أغرتها على الحضور، لتتقاسمها الأرملتين البائستين. إنهما عرفتا كيف تتجران فيهما!

والشيخ الذى كانت ستذهب إليه الست عيوشة، قريبهما!

والمسألة أكل عيش، لا أكثر ولا أقل، ورزق الهبل على المجانين كما قالت.

طيب. من أدراك بعد هذا أن الورق عمل؟

ومن أدراك أن العلبة كان فيها ورق أصلاً؟

وهل هذا الورق هو نفسه الورق الذى يقبع الآن فى بطن الصفصافة؟ وما الدليل؟ وهب أنه هو، فهل كان فى العلبة، أم كان فى العلبة شىء آخر ضاع ووضعوا بدلاً منه هذا الورق؟

كان أبو المكارم تائهاً بين هذه الهواجس جميعاً.

وشعر، كما يشعر فى كثير من الأحيان، أنه محتاج إلى الصفصافة! إلى بطن الصفصافة يقبع فيه، ويغفو عن الدنيا وعن الناس.

ولم يقل شيئاً. لقد صحب الولد الصغير "أبو عوف" ومضى به إلى الساقية. إن "أبو عوف" لا يسأل، ولا الشيخة تسأل، ولا الست قمر تسأل. لقد ساد الصمت بينهم. لم يعرف أحد شيئاً. هذا الغموض غريب عليهم جميعاً.

وقال "أبو المكارم" فى نفسه وهو يمسك بكف الصغير:

هذا الولد قد بدأ يقرأ ويكتب. البركة فى الشيخ مختار. إنه يحفظه القرآن الكريم، ويعلمه القراءة والكتابة والحساب.

وخطرت بذهنه فكرة.

لماذا لا يفتح الأوراق التى فى بطن الصفصافة، ويطلب من الصغير "أبو عوف" أن يقرأها له. إنها ستكشف بعض الغموض. ان كان "العمل" فسيعرفه، وان يكن شيئاً آخر، فسينكشف له.

لكن أى شىء آخر؟

وهبه "عملاً". ألا يؤذى الصغير الغالى؟!

إنه يضحى بنفسه، ولا يضحى "بأبو عوف". لقد كان دائماً يعتبر "جلال" ابنه. جلال نفسه كان يقول له انه أبوه، أو كان يجب أن يكون أباه. وهذا الصغير ابن جلال.

حفيده. إذن هو حفيده، والمثل يقول، أعز الولد، ولد الولد. وهذا "ولد الولد. عزيز وغالى" ولا يمكن أن يقبل التفريط فيه.

وبين هذه الهواجس، وصل إلى الساقية فجلس على حافتها، وانطلق يفكر فى ملكوت الله، الذى يخلق الناس، ومع كل منهم ما قدره له من نصيب.

وأخذ يشرد عن هذا الملكوت الواسع، وعيناه على الصغير الذى يلعب حوله.

وفجأة شعر بيديها فوق كتفيه.

كانت تضحك فى سعادة غامرة، كأنما هذه الدنيا كلها لا تسعها.

ولما وجدها أمامه، ظل صامتاً يتأملها أول الأمر، فلما مضت فى ضحكها هذا المتصل، أخذ يضحك معها، ثم وقف واسند يديه على كتفيها، والضحك الغامر يملأ المكان.

قالت الغجرية:

– ستفرج. ستفرج يا عم "أبو المكارم".

لم يفهم منها شيئاً. إن هذا كلام مبهم لا يعنى شيئاً، ولا يوضح له شيئاً.

ولما لم يجب قالت له:

– البلد كلها لا حديث لها إلا "العمل"! تصور يا عم "أبو المكارم"؟! ولم يفهم ماذا تعنيه هذه الغجرية بكلامها هذا. وضحكت الغجرية وهى تقول له:

– يا بلد يا بلد!! عيوشة والبالوظة يا بلد!! وسلطان ونعمت "والعمل" الذى بينهما، ومن عمل "العمل"، وعمله لمن!! وتنسين يا بلد أن "سلطان" سرق الوصية وأخفاها!! هل الوصية أهم أم "العمل"؟ لو ركب "سلطان" مائة جن، فلن يؤثر هذا فى البلد. لو جن

"سلطان" ومات، فلن تخسر البلد إلا واحداً من أشرارها يذهب فى "ستين داهية"! لكن الوصية... أين الوصية يا بلد؟ الوصية ستكشف "سلطان". ستكشف نوايا سلطان. ستكشف أشياء يا عم "أبو المكارم". آ.. ه، يا عم "أبو المكارم". أنا غجرية ومجنونة! "خذنى على قد عقلى "!!

وأخذ عم أبو المكارم يستمع إليها، وقد جلست إلى جواره تحكى:

- الوصية كانت عند العمدة واختفت! أين ذهبت؟ سرقتها الغندورة.

وقبل أن يتصايح "أبو المكارم" متعجباً، قالت الغجرية:

- لا تشهق. لولا أنك أخرس ما قلت لك. أنا أيضاً "ولية" ولا أحب أن يتكلم عنى الناس. لكن الغندورة يا عم أنت، سرقت الوصية لسلطان، لا لزوجها! لأ، لسلطان! افهم أنت!!

وبعد أن أخذت نفساً طويلاً قالت:

- هل سلطان حصل على الوصية "بالساهل"؟ أبداً! داخ حتى حصل عليها. سرقها! لكن سلطان وقع، وكان قد أخفى الوصية فى مكان لا يعرفه الجن. أى والله الجن لا يصل إليه!

وضحكت من قلبها، وهى تقول له فى زهو!

- لكن أنا الغجرية المسكينة التى تراها أمامك، عرفت هذا المكان. ولولا أنك أخرس، ولن تقول لأحد عنه، ما قلت لك. تعرف أين؟

وهز رأسه يسألها: أين؟

قالت وهى تنتفض من المرح المزهو بما فعل:

- فى مسند طنبور هناك عند رأس الغيط البحرى. هناك يمكن مائة مسند للطنابير. اختار هو واحداً منها، وفى حجر داخل الترعة، وضع الوصية فى علبة صفيح، كعلب العقود.

وضحكت وهى تقول:

- أشياء نسمع عنها. نحن لا عندنا عقود ولا أرض. عندنا خيمة وبعض الماعز والجمال، ورزقنا فى فمنا، ينتهى نبحث عن رزق يوم جديد، ويوم بيوم، وربنا كريم.

وعادت تستأنف الحكاية. قالت له وهى تهز رأسها فى خفة:

- طيب أنا عرفت كيف؟ سؤال، لا بد تسأله. أقول لك يا عم يا أخرس.

أنا الوحيدة فى هذه البلد، التى وقفت على سر غريب جداً. لا أنت ولا الجن يعرفه. سلطان يا سيدى هرب من النقطة. هرب وجاء إلى هنا فى السر. لكن بينى وبينك هم الذين هربوه! انهم ناصحون.. ناصحون بشكل!! هربوه ليعرفوا طريقه. أين سيذهب، وماذا سيفعل. والذى توقعوه حدث. لقد أسرع إلى مسند الطنبور، وهناك أخذ الوصية.كان يريد أن يسلمها لى. كان يريد أن يستغفلنى، لكنى هربت منه.. آ.. هربت منه، فلماذا لم يجدنى، وكان هارباً، ويعلم تماماً أنهم قادرون على ضبطه واعادته، قال "أعملها بجميلة" وأعود أنا إليهم. عندئذ دفن الوصية هنا. أنا كنت أرقبة من بعيد. قلت: "جاءت إليك من حيث تحتسبين يا بنت يا غجرية. لكن المباحث كانت وراءه، فوضع هو الوصية هنا، وأخذوها هم من هنا! وأنا أتفرج!!

وسكتت الغجرية وهى تقول:

- ليتنى أخذتها منه. كان يريد أن يسلمنى الوصية.

وشعرت أن الرجل الأخرس يرتاب فيها فصاحت تقول له:

- والنبى لا تنظر إلى هكذا. أنا ما بينى وبينه شىء! أبداً. كنت خارجة من بيت الفندورة، وحالى حال، بعد أن علمت أن "سلطان" سرق الوصية، وكنت أحدث نفسى عمن أطلب منه أن يبحث عنها. سعد أم أن "سعد" ليس له فى هذه الأعمال، فوجدته أمامى. سلطان ابن الحاج غضبان المحبوس كان أمامى. ولم أصدق عينى، إلا عندما كلمنى هو بنفسه وهددنى. كان يشك فى من يوم سرقة الثورين.لكنى كذبت عليه وأنكرت

أى صلة بينى وبين أحد، لا بوليس ولا عمدة ولا المعلمة وردة، ولا أحد. لا أحد على الاطلاق. وفجأة صارحنى بأنه يريد أن يودع عندى أمانة حتى يخرج. لماذا هكذا فجأة! ربما لأنه لم يجد غيرى. أين كان يترك الوصية. لقد ظن أنها ضائعة ضائعة، فقال أجريها، ربما تحافظ عليها حتى أخرج. وطبعاً غازلنى وتغزل فى جمالى لأرضى بالمهمة. لكن والله ما كان بينى وبينه شىء.

وظل الأخرس ينظر إليها، وقد دارت رأسه فى كل مكان.

- الله. هذه الأوراق التى عنده، فى بطن الصفصافة. هل هى الوصية؟

العلبة الصفيح كانت هنا. كانت مدفونة هنا!

"والعمل" كان فى مسند الطنبور، فى علبة صفيح!

ما هذا؟ هل "العمل" هو نفسه الوصية؟

هل فهمت عيوشة أن الوصية هى "العمل"، فأخذتها على أنها "العمل" والمجنونة الثانية، نافستها عليه، فسرقتها منها على أنها "العمل"؟!

ثم استقرت هنا فى بطن الصفصافة؟

الوصية هنا فى بطن الصفصافة؟!

وأنت جالس هنا على بعد خطوتين منها، ولا تدرى!! يا أخرس، يا ساذج، يا مسكين!

وكاد يجن! عيناه دارتا فى كل مكان!

لكن الغجرية استمرت تحكى، كأنما كانت تريد أن تخفف شيئاً داخل نفسها. حكت له عن حبها، وعن سعد، وعن الحرمان الطويل الذى تعرضت له فى حياتها.

وشعر أبو المكارم أنها تريد أن تضيع الوقت!

وأحس أنها تخفى عنه شيئاً! هل تنتظر شيئاً؟ هل تنتظر أحداً؟ لم يعرف على وجه التحديد قصدها. لكنه كان قلقاً. كان يريدها أن تذهب، ليدخل هو إلى بطن الصفصافة

يرى الأوراق التى تركتها الفتاة الصغيرة، ويتعرف عليها إن الولد الصغير "أبو عوف" يستطيع أن يدله على ما فيها.

لكنها مع هذا استمرت تحكى.

وصح ما توقعه "أبو المكارم"، فقد انشقت الأرض عن شخصين غريبين على سحنة كل منهما غضب من عند الله.

وتقدم واحد منهما من "أبو المكارم" وأمسك بذراعه وقال فى حدة:

- أنت من؟ قل.. من أنت؟

ولم يجب. "أبو المكارم" لا يجيب!

وصاح فيه الرجل:

- اسمع، حتى الآن أنا قتلت مثلك مائة على الاقل. تريدهم يصبحون مائة وواحداً؟ لا بأس. انطلق.

ولم ينطق. "أبو المكارم" لا ينطق!

وتلفت الرجل حواليه فوجد سبيلة الغجرية، فقال:

- مائة وواحداً وواحدة أيضاً.. من أنت؟

قالت فى سرعة:

- أنا!. أنا واحدة مسكينة قادمة من السوق.

وصاح فى حدة:

- أى سوق؟ لا سوق اليوم؟

قالت فى اضطراب:

- سوق كفر الزيات.

وفكر الرجل قليلاً ثم قال لزميله:

- هيه! هل سوق كفر الزيات اليوم؟ جائز!

وحمدت الغجرية الله، وتنفست الصعداء.

وعاد الرجل إلى "أبو المكارم" يصيح:

- وأنت. كنت فى السوق أنت الآخر؟ قل!

وفى هذه اللحظة كان الصغير أبو عوف، قد عاد إلى عم " أبو المكارم". كان يلعب حول الجميزة، فعاد إليه يقول فى سذاجة:

- من هؤلاء يا عم " أبو المكارم"؟

ولم يجبه عمه أبو المكارم بطبيعة الحال، ولكنه سحبه إليه فى خوف، وضمه إلى حضنه يحميه. ومضى الصغير فى تساؤله، ومضى عمه فى صمته، ومضى الرجل فى شراسته.

قال فى صوت فظ غليظ:

- أنت؟ هل أنت أخرس.

كان يمسك فى يده مسدساً، وعيناه تبرقان بالغدر.

وصاح الصغير:

- من أنت؟ وكيف تكلم عمى "أبو المكارم" هكذا؟ ماذا عمل لك؟!

وأمسك الرجل بذراع الصغير وصاح فيه:

- وأنت من؟ من تكون؟

وسحب الولد ذراعه من يده، وقال:

- الله! أنا أبو عوف.

قال الرجل:

- سمعت عنك. أنت ابن الشيخة، وابن الشيخ "أبو عوف"؟

قال الصغير:

- نعم أنا ابن الشيخة وابن الشيخ، وهذا عم " أبو المكارم" .

قال الرجل الغريب:

- الرجل الأخرس. حارس الساقية.

قال الصغير فى غضب:

- إيه؟ خلقة ربنا . مالك أنت وخلقه ربنا؟!

وسكت الرجل، ثم نظر إلى زميله فى خبث، ومضى به إلى جانب من الساقية، وأسر فى أذنه بعض العبارات، ثم عاد، وجلس على حافة الساقية، وأخذ ينظر هنا وهناك، كأنه يتعرف على المكان، بينما حمل "أبو المكارم" الصغير بين يديه، وابتعد به ثم أنزله، وأمسك بيده بين يديه فى حرص وحنان، وهما يعجبان مما يجرى، وينظران إلى الرجل الغريب فى صمت.

قال الرجل:

- أنتم هنا بخلاء..! "اعملوا لنا شاى"!

شىء ما كان يحدث "أبو المكارم" أن وراء الشاى سراً! لكن أى سر! ولماذا يطلب الرجل شاياً؟ هل يريد أن يبعده عن الساقية؟ لكن لماذا؟

وسأل "أبو المكارم" نفسه: هل يعصاه؟ وهل يقدر أن يعصاه؟

وكانت فوهة المسدس تطل على "أبو المكارم"! صحيح أنه يضحك، ولكنها ضحكات غير طبيعية، كأنها طلقات!! ضحكات لا تخرج من فمه، ولكنها تخرج من فوهة مسدسه!

ونظر "أبو المكارم" إلى الفجرية.

ثم نظر إلى الصغير الذى أمسك بيده ووقف إلى جواره.

واتجه إلى الصفصافة. إن بطن الصفصافة يحوى حاجاته: الشاى والسكر والكبريت، وأشياء أخرى. وابتسم وهو يذكر ضمن هذه الاشياء فردة الشراب الأحمر، لكنه عاد فقطب جبينه وهو يتصور رزمة الأوراق التى وضعتها البنت الصغيرة هنا. وسأل نفسه: أهى الوصية، أم هو "العمل"؟ لكنه كان مشغولاً عن كل ذلك بالرجلين الغريبين، خاصة ذلك الجالس على حافة الساقية، وفى يده مسدسه، وفى عينيه شرر غادر، يتابع خطواته، ليرى ماذا هو فاعل! ماذا يريده هذا الرجل؟ إن يكن الشاى، فها هو ذا قد خف إليه، وإن يكن يريد شيئاً آخر، فماذا عسى أن يكون هذا الشىء؟

وعندما أخذ أبو المكارم يقلب فى بطن الصفصافة، سمع صياحاً مفاجئاً. صوت الغجرية! هذا صوت الغجرية! وتلفت ليرى. ترك كل شىء وتلفت ليرى.

كانت الغجرية تصرخ، وتستغيث.

وكان الرجل الذى يحمل مسدساً يهددها لتسكت.

والرجل الآخر اختفى عن نظره، لكن أصوات أقدامه كانت واضحة. كان يبدو أنه يجرى هنا وهناك، ويحاول أن يلحق بأحد.

وكان أسرع شىء طرأ على "أبو المكارم": "أبو عوف"! أين الصغير "أبو عوف"؟

لكن "أبو عوف" تاه من بين عينيه.

وفقد الأخرس أعصابه، فأخذ يجرى يبحث هنا وهناك، فلم يعثر له على أثر.

وعاد يجرى إلى الرجل الذى يحمل مسدساً، وأمسك بخناقة، وأخذ يهزه دون أن يأبه بالمسدس الذى معه، وهو يصيح يسأله عن "أبو عوف". أين الصغير؟ أين "أبو عوف"؟ أين ذهب "أبو عوف"؟

وأشارت سبيلة إلى حيث كان، فاندفع أبو المكارم إلى حيث أشارت، وأخذ يصيح صيحات متتالية كأنما يعوى! كان يريده أن يسمع صوته.

وارتفعت صيحات الصغير من بين الحقول، فاخترق الزراعات إليه كالسهم.

ووجد الرجل الآخر يتبعه، يريد أن يلحق به، فأمسك بتلابيبه، وألقاه ارضاً، وأخذ يكيل له الضربات بغير حساب.

لقد انقلب الرجل الأخرس الطيب إلى وحش!

ما أن رآه يريد أن يمسك بالصغير، حتى فقد أعصابه، ولم يفكر فى شىء. الشىء الوحيد الذى ملأ عليه نفسه، هو أن هذا كلب مسعور، يريد بالصغير سوءاً، فاستحق القتل. آه! حتى القتل عليه قليل!

الغجرية مضت تصيح، والرجل يهددها لتسكت.

ولم تذهب صيحاتها سدى فأسرع إليها بعض من أهلها الغجر، بالبنادق والعصى، ولم يستطع الشقى أن يفلت، فوثب إلى الجميزة ليحتمى بها، ويهدد الغجر بمسدسه، ليفلت من هذا الحصار.

قالت سبيلة:

- هؤلاء الرجال أهلى. أرنى ماذا تفعل إن كنت رجلاً؟!

ولم يرد، فمضت تقول:

- كنت تظن ألا رجال؟! لكن لا! أنا كنت عارفة كل شىء. فاهم؟ ولم يرد، فأخذت تسخر منه وهى تقول:

- قلت لهم لا يبعدون عن هنا، ليسرعوا لنجدتى إذا طلبتهم، فاهم؟ ولم يرد! كان غائباً عن رشده، وهو يجد نفسه قد وقع! زميله أيضاً وقع! إنه هناك فى الحقل، يتلقى ضربات الأخرس، ولا يعرف كيف يخلص نفسه منه.

وشرد وهو يفكر فيمن كان السبب.



الله يلعنك يا سلطان! كانت صحبة نحس! لكنه نصيبى أن ألقاك وأن أجتمع بك فى النقطة. ظننتك شيئاً، فظهرت لى الآن على حقيقتك! خدعتنى يا سلطان وضللتنى. من يسمعك وأنت فى تخشيبة النقطة تقسم بأغلظ الأيمان، لتثأرن ممن أوقعوا بك، ومن الحكومة نفسها، وتروى حكايات شبل، وكيف سرق ذات يوم سلاح هذه النقطة، وأنت من، وشبل من؟ شبل هذا لا شىء بالنسبة لك! من يسمعك تقول هذا يظنك ولداً رضع من ثدى أمه، لكنك فى الحقيقة "لا رحت ولا جيت!" وها نحن أولاء نرى كذبك يا سلطان!! صدقتك يا ابن الحاج غضبان، وظننت أنك رجل لك عصبية ولك رجال، فإذا بنا تقع كالفراخ! تعال يا أخ تأمل! تعال لتتمتع بالمنظر! أخذت تقول اذهبوا إلى مدار الساقية، وستجدون هناك ولداً صغيراً يتردد على الساقية وحارس الساقية الأخرس. اخطفوه ولا تتركوه إلا إذا ظهرت الوصية. هذا هو الولد الصغير. أوصافه هى هى. ابن الشيخ "أبو عوف" والشيخة تفيدة، واسمه أبو عوف وهو يلعب عند الساقية، وحارس الساقية. حارس الساقية "بالأمارة" أخرس. لكنه أخرس شرس فاقد العقل! إنه لا يزال يضرب الرجل بصورة وحشية لا تطاق! ها نحن حاولنا أن نخطفه، طلعت لنا الغجرية، تصيح وتصرخ وتستغيث، وعلى الفور أطل علينا هؤلاء الرجال، ليصيدونا كالفئران! سعيد؟ هل أنت سعيد؟ افرح يا سلطان. افرح. "افرح فينا"، لأننا صدقناك ووثقنا فيك!! هذه هى الوصية. لا والله لقد حصلنا عليها، وصارت فى جيبنا!! "آل إيه"؟ الولد الصغير هو الرهن الوحيد الذى سيظهر الوصية. أنت وضعتها فى علبتها الصفيح فى مدار الساقية، لكن العلبة ظهرت بلا وصية. إذن الوصية ضاعت. أخذها أحد. من؟ واحد من البلد. أو يجوز الولد الصغير كان يلعب هناك فوجدها، فأخذها لأمه الشيخة، وهى تعرفها، لأنها كانت أمانة عندها وسرقت منها. لا بد أنها أعادتها إلى مكانها بين الأمانات التى تحتفظ بها. الولد الصغير أعز شىء عندها، فلو خطفتموه فإنها على استعداد لتقديم حياتها لتفتديه. اطلبوا شيئاً بسيطاً: الوصية. لا نريد حياتها. نريد فقط الوصية. ألم يكن هذا كلامك يا زميل النحس؟ وعندما قلنا لك فإن لم يكن الولد هو الذى عثر عليها وأعادها لأمه، فما جدوى أن نخطفه؟ عندئذ كنت تقول ان هذا

الصغير عزيز جداً على القرية كلها، ولو عرف الذى أخذ الوصية إنه باعادتها سيفتدى بها الصغير، فسيقدمها فى الحال. وها نحن أولاء خطفناه!! الا ترى أننا خطفناه؟!! أم أنهم هم الذين خطفونا؟ وصية!! شىء لله يا وصية!! وما قيمة الوصية؟ أتذكر أنك كنت تقول: صحيح أنا سأستفيد، لكن أهم من هذا الا أظهر أمام أهل البلد بهذا المظهر. تضيع منى الوصية؟! شىء غير معقول! هل تذكر يابن الأكابر؟ ثم كم كنت تنوى أن تدفع؟ كلام فارغ لا يستحق هذا كله. كفى هذا الموقف! كفى هذه الوقفة!

وأخذ الرجل ينظر إلى الغجرية ويعجب:

– كيف عرفت يا بنت الشياطين أنت ماذا كنا ننوية؟ ألم تقولى أنك كنت عارفة كل شىء؟! لم يكن معنا أحد. كنا ثلاثة أو أربعة رجال فى التخشيبة ولم يكن معنا أحد. سلطان لا يزال فى التخشيبة، ولم يخرج منها إلا رجلان، أنا وهذا المضروب هناك. تبقين "جنية"! أو ربما "مخاوية"! أما غير هذا، فلا.

قالت الغجرية، وكأنما كانت فى داخل نفسه:

– أقول لك الحكاية. أنا عندى عصفورة صغيرة صغيرة "قد البندقية". قالت لى كل ما اتفقتم عليه. هل العصفورة كذابة؟ أبداً. العصفورة لا تكذب!

وضحكت منهما وهى تبتلع الحقيقة، وكيف أن المأمور ناجى أوصى ضابط النقطة أن يكشف نوايا سلطان حتى لا يعكر الأمن، على طريقة أشرار الريف. يكونون داخل السجن، وأعمال الشر ترتكب أقسى مما لو كانوا خارج السجن! طريقتهم هكذا، ليقيموا الدليل على براءتهم، وليستمر الخوف منهم يخلع قلوب الناس!

وسمع رجال النقطة أحاديث سلطان مع الأشقياء، وأدركوا أن "سلطان" يدبر خطف الصغير للحصول على الوصية.

عندئذ بلغت سبيلة الغجرية، فلم ترفع عينيها عن الصغير، فى القرافة أو الكتاب أو الساقية. أو حول الجرن القبلى، أو فى خص "أبو المكارم".

كانت تعلم أن مثل هذه المسائل تتم دون إبطاء، وإلا فقدت قيمتها.

وهى رأت "سلطان" يضع الوصية عند الساقية، وهى رأت المباحث يأخذونها إلى النقطة، وهى عرفت أن العلبة كانت فارغة، بلا وصية، وهى تعلم الآن أن "سلطان" أوصى اثنين من أشقياء الناحية بخطف الصغير، حتى تظهر الوصية!

مالها هى وعيوشة والبالوظة، والخلاف بينهما حول" العمل".

إنها مهتمة بشىء آخر أهم.

الولد الذى يريدون أن يخطفوه والوصية التى يريدون أن يجدوها.

وعندما وجدت الصغير قادماً إلى الساقية فى صحبة "أبو المكارم" هذا المساء، والليل يلفهما، خافت على الصغير. إن هذا هو أنسب وقت يخطفونه فيه.

نعم ظلام، وبعيد عن القرية، والساقية لا تدور، والبلد كلها مشغولة بالشجار والسباب بين الأرملتين العجوزين بسبب "عمل"، كل منهما تتهم الأخرى به، وكل منهما تريده لنفسها لتفسده، والعمدة هناك يفض النزاع، وشيخ الخفر تحت إمرة العمدة، والخفر وراء شيخ الخفر، وآل سلطان كلهم هناك، منقسمون على أنفسهم، بعضهم مع عيوشة، والبعض الآخر مع البالوظة، والأعصاب ثائرة ومتوترة، والغلط على أطراف الألسنة، والاتهامات تكال من يمين ويسار، والتطاول والتفاخر، والسب لا يتوقف. وأهل البلد، من الفلاحين الأجراء يتفرجون على الأعيان، وهو لا يعرفون مما يدور حولهم إلا قليلا.

هذه هى أنسب فرصة.

وقالت سبيلة لنفسها: لكنها لن تكون!

وبينما هى كذلك أقبل سعد. الخفير سعد كان هذه المرة عابس الوجه، متجهماً، يحمل سلاحه فى اعتزاز.

قال فى صوت جهورى:

– ماذا جرى هنا؟ ما هذا الذى يدور عند الساقية؟

وكادت سبيلة تضحك وهى تراه على هذه الصورة الجديدة وقالت فى نفسها:

- هذى ليست غنوة يا "أبو السعود"! هذى حادثة.

لكنه مضى يصيح ويزمجر!

ولم تصدق أذنيها! سبيلة لم تصدق ما تسمعه!

ماذا حدث للخفير سعد؟ لقد تغير الشاعر المغنى، وصار شيئاً آخر! وكادت تزغرد له.

وكادت تحضنه وتقول له:

- هكذا يا شيخ الخفر! "عفارم عليك". هكذا صرت بدوياً من الغجر، لا ذلك الفلاح الطرى الناعم، الطيب المسالم، الذى يتغنى بالحب والأرض والحصاد.

لكنها عادت تحدث نفسها:

- "ما داهية لتنسى مع هذا الحب؟!" أنت عاشق وشاعر ومغن، تطرب الناس بأناشيد الجوى وأغانى الصد والعذاب. ستنسى هذا كله! تبقى لا أنت سعد، ولا أنت أبو سريع.

وتنهدت وهى تتمنى أن يكون الأثنين معاً، ليبقى لها الشاعر، ويبقى لها الخفير الغجرى! هذا الخفير الغجرى! هذا ممكن! ولم لا؟! ممكن!! ممكن!!

ولما عرف الخفير سعد الحكاية صاح فى الرجلين:

تريدان خطف "أبو عوف"!! "والله عال!!" والحكومة والنقطة والقانون، وأنا؟! نسيتم كل هذا؟ فوضى؟ هل هى فوضى؟

وسكت قليلاً ثم قال:

- والبلد؟ بلدنا كلها تسكت على هذا. والله كانوا أكلوكما أكلاً! "أبو عوف"!! تعرفان من "أبو عوف"؟! إنه ابن الشيخ المبروك رضى الله عنه وأرضاه. أبوه شيخ وأمه شيخة

وست البلد، وبركة من سيدى الذكيرى. أما افتراء!! لا حياء!! "طيب اختشوا" واخطفوا واحداً سواه، إنما تخطفإن هذا الصغير. هذى مصيبة! والله مصيبة!! بأى وجه؟!

كانت سبيلة فخورة به وهو يصيح كالسبع:

- أمامى.. أمامى إلى دوار العمدة.

لكنه سكت قليلا وقال:

- لا إلى النقطة. إن العمدة مشغول الليلة، هيا أمامى إلى النقطة.

كان الغجر قد جردوهما من السلاح، فسارا أمامه صاغرين، وسبيلة تصلى على النبى، وهى ترى "سعد" يدفعهما أمامه بفوهة بندقيته.

وتلفتت خلفها، فوجدت "أبو المكارم" والصغير فى حضنه، خده على خده، ودموعه على دمعه، ولا حديث!

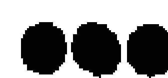
لقد نسى أبو المكارم الدنيا كلها، ولم يعد فى نفسه شىء، إلا أن الله نجا "أبو عوف" من الغدر.

واستعاد صورته وهو يجرى من الشقى، ويفلت من بين يديه، ويحاوره ويغافله، ويختفى منه هنا وهناك، حتى لحقه، فأنقذه من براثن الغول.

ذكى. أنت ذكى يا "أبو عوف". طبعاً، الولد لأبيه.

لكن هل يكون حظك كحظه؟ اللهم لا! كفى ما أصاب أباه!!

ومضى "أبو المكارم" بالصغير إلى أمه، فى جنح الظلام، غير عابىء بشىء!!



القرية هى التى كانت تعبأ بما نسيه أبو المكارم.

أيقظها الشجار من النوم، فتوترت أعصابها.

نعم وانقسمت على نفسها إلى فريقين موزعين بينهما: عيوشة والبالوظة. الفريق الذى مع عيوشة يردد محنتها:

- بنتها يا ناس. بنتها تعيش فى عذاب.

- ترملت وزوجها حى، وأورثت الترمل لبنتها الوحيدة.

- وزوجها المجنون يوقظها بالضرب والاهانة.

- ويمسيها بالسب واللعنات.

- إن "الولية" تموت موتاً بطيئاً.

- والدنيا تتفرج عليها!!

- هذا "عمل". والنبى "عمل"!

وآخرون مع جميلة البالوظة، يشفقون عليها:

- ابنها مربوط.

- الجن ركبوه، وزوجوه جنيه.

- لم يعد قادراً على أن يتزوج انسانة مثلنا.

- من يدرى، ربما يكون له أولاد تحت!

- من الجن؟!

- عفاريت وشياطين!

- ويساعدونه؟

- أو " يعفرتونه"!

- أمه عندها حق. ابنها يا ناس.

- وابن وحيد، لا بنت ولا ولد سواه.

- كله من "العمل".

- آ..! ماذا يجعله هكذا، إلا "عمل"؟

وتزيد عيوشة مطاً! إن الحزن يمطها أكثر مما هى ممطوطة! وجهها أيضاً يزيد جرياً! والبقع التى فى وجهها تزيد سواداً!! وتفاحة آدم فى فى رقبتها تكبر حتى لتكاد تقفز منها!! تتشاجر، فتنزلق ألفاظها على التفاحة فتنقطع فى إعياء، وتصبح كلماتها أقرب إلى الأنين!!

والبالوظة تزيد كبساً! شىء ثقيل جداً وضعوه عليها، فهبط بها إلى الأرض! زادت عرضاً! وتدلت رقائق دهن من صدغيها، وانتفخت أوداجها، واكتنزت رقبتها، وتفرقت كلماتها على هذه الكتلة من الشحم فخرجت "كالسمن السايح" لها رائحة. إنها تتشاجر وتصيح بأعلى صوت لها، لكن الصوت يهوى معها ليخرج من قدميها!

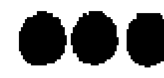
وأقارب هذه وأقارب تلك.

وقريبات هذه وقريبات تلك.

وخادمات هذه وخادمات تلك.

من هؤلاء تكون حزب، ومن أولئك تشكل فريق.

وبدأت الفتنة.



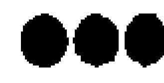
لم تعد فراخ البالوظة تبيض!

- ولا بيضة؟

- ولا بيضة!

- طبعاً، فإن حزب عيوشة، أطلق الأولاد الصغار يسرقون البيض حيث وجدوه. وأعطاهم حق أكله مقلياً أو مسلوقاً أو نيئاً، أو يكسر فى أسوأ الحالات.

المهم ألا تبيض الفراخ!! لا تبيض كخطوة أولى، ثم تصفى بعد ذلك واحدة وراء الثانية حتى تنقرض!



أرانب عيوشة أيضاً لم تعد تتناسل!

- من الخوف؟

- أو الجوع!

وبعد أن كانت هذه الأرانب تملأ البيت والفناء والزريبة، وتتسرب إلى الحقول المجاورة، أصبحت تخشى على نفسها، فلا تخرج، فإن خرجت لا تعود. ويوما بعد يوم، ذبلت وانهارت، ثم "مسكتها شوطة" كادت تقضى عليها.

وهكذا استطاع فريق البالوظة أن "ينكد عيشة" الأرانب، وصاحبة الأرانب!

حتى اللبن أخذوا يغشونه! يكملونه بالماء ليفسد، ولا ينتفع به أحد!

الطحين! طحين القمح كذلك وضعوا فيه الحصى!

أكل الديكة الرومى، وضعوا فيه السم!

ويقولون كلما ذهبت طيور: " الفريرة أخذتها! هل من يقدر على "الفريرة"؟! هكذا، وهم يخفون ابتسامات يسخرون بها من أنفسهم، ويسخر بها بعض من بعض!

وتحول بيت الحاج غضبان إلى "فريرة" تلتهم كل شىء، ويختفى فيها كل شىء.



الملابس تعرضت لهذا.

ملابس عيوشة بقعوها ـ كوجهها ـ بالحبر أو بالصبغة!

ملابس البالوظة قصوها من تحت أو من جنب، لتصبح، عندما تلبسها، كالقرد الممسوخ!

والطرح البيضاء صارت سوداء، أو معفرة بلون غريب!

والطرح السوداء صارت فاتحة، من الألوان التى تعرضت لها!

ومناديل الرأس صارت نصف مناديل، لا للمودة، لكن للفضائح التى ملأت هذا البيت أسى!



مصيبة! المصيبة أن هذه الصغائر كانت شغل القرية. حزب عيوشة وفريق البالوظة، لم يعد له هم إلا هى. وشىء يجر إلى شىء! وتصرف يؤدى إلى تصرف! وواحد يشد واحداً ! وواحدة تدفع واحدة. وهكذا أخذت الدائرة تتسع فتشمل القرية أو تكاد.

ثم تنتقل من عالم الفراخ والبط والأرانب واللبن، ومناديل الرأس، إلى البهائم، فيضبط عليق مسموم معد ليوضع فى "مدود" فريق، ويمسك الناس ولداً يحاول أن يحرق خزين فريق.

وينجرف الناس تحت ضغط التيار.

هذه المرة لا يكفى أن ينحصر التخريب فى حاجات عيوشة والبالوظة. إن فريق عيوشة يمد العداء إلى الذين تحتمى بهم البالوظة، وحزب البالوظة يمد العداء إلى الذين يقفون وراء عيوشة.

العمدة يمسك رأسه، وهو يقول لمدبولى، شيخ خفرائه:

- البلد ستخرب. وستخرب بيتى إن شاء الله.

ويرد مدبولى فى استسلام:

- إرادة الله يا عمدة. هذه إرادة الله.

ويقول العمدة وهو يضرب كفاً بكف.

– إرادة الله أن يكشفنى، ويفضح عورتى! لماذا يا رب؟ لماذا؟ أنا لم أطلب العمدية، ولا أصلح لها. أنت الذى دفعتنى إليها. دفعت الناس ليطالبونى بأن أقبلها، لكنك لا ترضى أن تكشف سترى. أنا رجل عشت عمرى مستوراً بين الناس، فلم ينكشف اليوم سترى؟!

وبينما العمدة يشكو محنته، وشيخ الخفر حائر لا يدرى أى حل يختار. إذا صوت الشيخ، سيد شيخ البلد المجنون، يرتفع كأنه صياح الديكة، غير واضح ولا مفهوم لكنه كان صوته. العمدة يعرف أنه صوته، وشيخ الخفر يعرف أنه صوته.

إنه يصيح: يا عمدة. يا غفر. يا بهائم ربنا.

وظنه العمدة يهذى، فلم يعبأ به.

لكن الصيحة تكررت، وبدأ إن الرجل يستغيث.

قال العمدة:

– لم يعد ينقصنا إلا أنت! وماذا تريد أنت الآخر؟

وظل الصوت متصلاً فى إصرار.

وقال شيخ الخفر:

– الذى لا يعرفه يظنه يستغيث! "دا أنت تخوف بلد"! تستغيث ممن؟

وقال العمدة مازحاً:

– من بهائم ربنا.

وضحك العمدة ضحكة فاترة تخللت محنته تلك، وضحك شيخ الخفر، بينما صوت شيخ البلد المجنون أخذ يرتفع وهو يصيح:

– يا عمدة. يا عباس. يا شيخ الخفر. يا أولاد الأبالسة جميعاً. ألا تسمعون؟ قلنا بهائم، لكن البهائم أيضاً تسمع.

قال العمدة:

– خف إليه يا شيخ الخفر. اذهب لترى.

وخرج شيخ الخفر إليه.

وشعر العمدة أن قلبه لا يطاوعه، فخرج وراءه ليرى بنفسه ماذا يدور.

وعند مدخل القرية من الشرق، فى الناحية التى تواجه الساقية والرياح، وجد شيخ البلد المجنون، يمسك عصاه فى يساره، ومسدساً ضخماً فى يمينه، وأمامه واحد من أشقياء الناحية، يتطاير الشرر من عينيه، ينظر إلى المجنون فى ضيق.

قال شيخ البلد عندما رأى شيخ الخفر يخف إليه، ثم العمدة:

- هذا ضبطته.

ولم ينطق أحد بحرف. إنهم يعرفونه، ويخشونه، فهو من الأشقياء الأشرار الذين يرهبون الناحية كلها.

ويمضى شيخ البلد وهو يضحك:

- كان يظن أن أحداً لم يراه، لكنى رأيته.

وضحك المجنون ضحكاً طويلاً، وهو يداعبه مرة بعصاه، ومرة بفوهة المسدس، وهو يقول:

- وهذا أيضاً أخذته منه.

وقال المجنون:

- "اللى مش قد لعبة، مايلعبهاش!".

وهز رأسه وهو يقول:

- صغار. لا تزالون صغاراً. كلكم صغار.

وبدأ الغفر يقبلون واحداً بعد واحد وبدأ أهل القرية يقتفون أثر الخفر، ويتجمعون حول العمدة والغفر. ونظر إليهم شيخ البلد وهو يصيح فيهم:

– جئتم يا بهائم. يا بهائم ربنا؟ كثرتم الآن. بسم الله الرحمن الرحيم.باسم الله ما شاء الله. هكذا تسدون عين الشمس، لما وقع. لكن وهو فى الحقول يدبر مصيبة لكم، كنتم جميعاً نائمين! ولم لا؟ تعملون طول النهار، وتتعبون. ناموا يا بهائم. يا بهائم ربنا.

ولم يكن أحد يعرف ماذا يقول.

الأمر غامض، وشيخ البلد يملأ الفراغ كله كلاماً وضحكاً. لم يترك لأحد فرصة، ولا للعمدة، ولا لشيخ الخفر، ولا لأقاربه ممن تجمعوا على الضجة.

قال شيخ البلد، وهو يستعرض الوجوه حوله:

– فيكم وفيكم. أى والله! ربنا أمر بالستر. كلكم الآن لا تعرفونه. لا أحد فيكم يعرف. عادة، عندما يقع واحد منهم لا يعرفه أحد. أما قبلها، فالكل أحبابه وأصحابه!! دنيا! الدنيا هكذا. لماذا تنظرون إلى هكذا؟ آ.. لماذا؟ أقول شيئاً خطأ؟ أهذى؟ لا والله، وخير ألا أتكلم. السر فى بئر يا أصحاب السر. لكن ماذا أقول. البئر أيضاً يجف. وإذا تبخر منه الماء، فعليه العوض، ومنه العوض. كل شىء ينكشف فى قاع البئر. طبعاً طالما الماء جف فالسر مكشوف. احذروا أن يجف الماء فى البئر، فيظهر السر. لا تلوموني إذا جف الماء. الماء يجف إذا زادت حرارة الشمس، والشمس "تحمى" وتزيد حرارتها، فى الصيف. والصيف حر، والحر تعب، والتعب من الناس. من الناس. والناس بهائم، بهائم ربنا!

وظل الصمت مخيماً على الناس، وشيخ البلد يقول:

– هذا البطل أمامكم من بهائم ربنا، مثلكم جميعاً. مثل كل الناس! آ.. ماذا يخيف فيه؟ لا شىء! هذا!!

وأمسك بالمسدس، وأخذ يشير به ويقول:

– هكذا، يصبح نعجة، كما ترون. والنعجة والخروف كلها بهائم. ها هو ذا لا ينقصه إلا ذيل، و "يمأما"!!

وتقدم نحوه، وهو ينظر إليه نظرات عميقة.

ومد إليه فوهة المسدس يداعبه، فلم يهتم الشرير به، فمد إليه العصا الطويلة التى يحملها فى يده دائماً.

ولم يتحرك الرجل، فأخذ "ينغزه" فى بطنه، فيتراجع قليلاً، ثم عاد "يغز" العصى فى ظهره، فيتقدم قليلاً، ثم يوجه إليه فوهة المسدس، وهو يتظاهر بالقسوة، فيتحرك أمامه، فيمضى وراءه، مرة بالعصا "يغزه" بها فى بطنه، أو فى ظهره أو فى جنبه، ومرة بالمسدس يواجهه به، والناس حولهما قد شكلوا حلقة لا منفذ فيها، وهما داخل الحلقة، المجنون يمد إليه عصاه مرة والمسدس مرة، فيتحرك أمامه فى خفة، وخوف، وضحكات المجنون تملأ المكان، وهو ينادى فى مرح:

- عليك نور. هنا. لا هنا. طيب هناك. يا ولد يا عفريت.

ويسكت قليلاً ثم يقول:

- يعنى تخاف!! أنت أيضاً تخاف!! يا عينى!!

ويصيح فى الناس قائلاً:

- ترون؟ هل ترون؟ إنه كذلك يخاف! انه مثلكم جبان يا خلق. لكن أى خلق؟ أنتم بهائم ربنا. البهائم أيضاً خلق مثلكم.

وتكاد الحلقة أن تصبح كحلقة الحاوى، لا ينقصها إلا أن يصبح الشقى الشرير قرداً، يتلقى الأمر من القرداتى فيطيع:

- قلد عجين الفلاحة.

- ومشية البندرية، على شط النيل فى "العصارى".

- وغسيل العروسة فى الصباحية.

- والمزين فى مندرة العمدة.

- والتربى على قرافة الذكيرى.

ويكاد الناس من الفرح بما يرونه والانفعال به أن يصفقوا طرباً مما يرون.

لكن المجنون يقف فجأة، ويصيح فيهم:

- تضحكون؟ هل البهائم أيضاً تضحك؟ عيب، اختشوا!! ماذا فعلتم لتضحكوا؟ الذين يضحكون، هم الذين يعلمون شيئاً!! أما أنتم يا بهائم. عملتم ماذا؟ قولوا عملتم ماذا!! لا شىء!! أنا أضحك آ!. لكن أنتم؟! شىء غريب.

ويدأ يغز عصاه فيهم وهو يقول:

- وأنت؟ ماذا حققته؟ منعته؟!

- أنت؟ ماذا فعلت؟ "مسكته"؟

- وأنت؟ ما دروك فى كل هذا؟!

ونظر إليهم جميعا وهو يقول فى سخرية:

- كلكم بهائم، ليس فيكم واحد إلا بهيم! حتى عباس العمدة، وزوج أختى درة زمانها، بهيم! ومدبولى شيخ الخفر بهيم! وهؤلاء الخفر، بكل هذا البنادق بهائم! والرجل هذا، الذى ترونه، وترتعدون منه بهيم.

وسكت قليلاً، ثم ضحك وقال:

- وأنا أيضاً كنت مثلكم بهيماً. لكن الآن، لأ. أنا الآن أراكم بهائم.

وقال صائحاً:

- هل تعرفون لماذا لم أعد بهيماً؟

ثم أجاب:

- ولا واحد فيكم يعرف. أنا أعرف. لأنى مجنون.

وصاح:

- طول ما أنتم عقلاء، ستستمرون بهائم.. يا بهائم.

وأمسك بالعمدة من كتفه، وهو يقول:

- هذا الرجل كان على وشك أن يحرق حقولكم كلها. كل محاصيلكم كانت معرضة للحريق، وأولادكم كانوا معرضين للجوع. اذهب إلى بحرى البلد، وسترى عند غيط القمح، بعد الحديقة، كل شىء. الجاز والكبريت، والمشاعل. كل شىء هناك جاهز وكان ينوى قتل من يتعرض له. ولو قامت شرارة واحدة فى هذه الناحية، فإن الحقول كلها كانت ستحترق، وتنتهى. فاهم يا عمدة. فتح عينيك.

وأخذ العمدة ينظر إلى المجنون، و إلى الرجل، وهو صامت.

وقال المجنون:

- اسألنى لماذا؟ إتعبنى بأسئلتك. دوخنى كالليمونة! لا أدرى. شىء واحد أدرية، أنى أنقذت المحصول، لتأكلوا يا غنم، يا بهائم! أما كيف. ولماذا. وسين وجيم... لأ يا عمدة، يا زوج أختى.

وتطلع المجنون إليهم، وشد قامته، وصاح:

- الآن أعود إلى حيث كنت. هذا المسدس لك يا شيخ الخفر. هذا لا يلزمنى. تكفينى هذه.

وأشار إلى عصاه، ثم انطلق يعدو إلى الحقول، وهويصيح:

- سلام عليكم،عليكم السلام. سلام عليكم،عليكم السلام.

وضحك طويلاً وهو يقول:

- ردوا. ردوا السلام! لكن كيف تردون. البهائم لا تعرف الكلام، ولا السلام، وأنتم بهائم. بهائم. بهائم.

ووصل صوته إلى الجمع من بعيد:

- بهائم.. بهائم ربنا. بهائم.

وهز العمدة رأسه، وهو يقول لشيخ خفرائه:

- صحيح بهائم. والله بهائم. هو فقط ليس من البهائم! ومع هذا، فهو عندنا مجنون، والله أنا احترت. من المجنون، هو، أم نحن؟

وقال لشيخ الخفر:

- هيا إلى الدوار، لنحقق معه.

وأخذ العمدة يضرب كفاً بكف وهو يقول:

- ماذا فعلنا له، حتى يخرب بيوتنا؟! ماذا كنا نأكل لو حرق محاصيلنا؟!

وبينما العمدة فى طريق عودته، وجد الشيخ مختار أمامه، فألقى بنفسه على صدره، وأخذ يقبله، وقد ابتلت عيناه بالدموع.

قال العمدة:

- عرفت؟ وسمعت؟

قال الشيخ مختار:

- نعم عرفت. سمعت كل شىء. لقد أتيت مع من أتى.

قال العمدة:

- يعجبك؟ هل هذا يعجبك؟

قال الشيخ مختار:

- صلى على النبى. التحقيق يحتاج لهدوء يا عمدة.

قال العمدة:

- قل يا نعجة، لا يا عمدة.

قال الشيخ مختار:

- يا عباس أنت رجل. لا تفقد الثقة بالله، ولا بنفسك.

قال العمدة:

– عن الله فحاشا له. كيف أفقد الثقة فيه سبحانه؟ لكن نفسى! لم تعد لى ثقة فى نفسى!

قال الشيخ مختار:

– أنت من الله. من عبده وصنعه، فإن فقدت الثقة فى نفسك، فقدت الثقة فيه.

وهز عباس رأسه، ومضى إلى الدوار، ومعه الشيخ مختار.

وانشغل العمدة بعض الوقت، بحكايات عيوشة والبالوظة، والبط المسروق! والأوز الذى رموه بماء يغلى! والخروف الذى حلقوا صوفه بالليل! والمعزة التى علقوها فوق جميزة! والديك الرومى الذى لونوا منقاره بلون أبيض!

ولم يدر العمدة هل يضحك أم يبكى!

وانشغل بعد ذلك بحكايات أخرى عن درة زمانها وشكواها الدائمة منه، وكلامها الخائب عنه، وكيف أن العمدة جن. أى والله جن! العمدة نسى أنا من! العمدة تبطر! العمدة صار عمدة!

وأخذ يسمع لما ترويه ست الناس. إن ست الناس تدافع عنه، وتحاول مع أختها أن تنصف العمدة. مظلوم معك. العمدة مظلوم معك. إنك تظلمينه يا درة زمانها. صحيح عباس ليس من طينتنا، لكنه من طينة أنظف. على الأقل، لم تتسخ يداه بالصورة التى اتسخت بها أيدينا كلنا.

– كيف تقولين هذا يا ست الناس؟ طول عمرنا "نضاف"!

– لا طول عمرنا فى الوحل. قولى الجد يا درة.

– يا نهارك أسود. تريدين عباس "يطلع فيها"؟!

– "يطلع فيها ما يطلعش"، الحق يجب أن يقال.

- يعنى أنت معه.

- مع الحق.

- وتبقين أختى! كيف؟

- يا شيخة حرام عليك.

وأخذ عباس يضحك فى فتور، وهو يسمع هذه الحكايات، ويفكر فى ست الناس ومدبولى، والأولاد الصغار الذين عكروا جو الحب بينهما وبين مدبولى، وخربوا البلد، وعرضوها لكل هذه المحنة.

ونظر إلى السماء، وهو يناجى ربه:

- لماذا؟ لماذا كل هذا؟ ناس تعيش فى حب، والحب أنت صنعته، أنت خلقت الناس لتتحاب. أنت خلقت الرجال والنساء، ليتحابوا جميعاً. بلا حب تصبح الحياة قفراً، وفقراً. الحب هو الذى يخفف ما فى الحياة من قسوة وما فى العيش من شظف. لماذا يرفض الناس الحب؟ لماذا يحاربون الحب؟ لماذا يكرهون الحب؟ هم أنفسهم خرجوا إلى الدنيا ثمرة حب، فلماذا يرفضون الحب؟ الناس ضلت يا ربى. اهدهم إلى صراطك المستقيم. لو أن الأولاد الصغار هؤلاء قبلوا حب مدبولى وست الناس، كنا الآن مرتاحين جميعاً، لا سرقات ولا حزازات، ولا بهائم يحاولون تسميمها، ولا ثيران يسرقونها، ولا رجال كالثيران يجرون الساقية، ولا سلطان فى التخشيبة،ولا أنت يا عمدة الهنا، فى هذه المحنة وهذا العذاب!! لكن حظى هكذا. أنا عباس بن الحاج عبد الباقى، لا بد أن أدفع نصيبى! طبعاً هذا شىء واجب. يجب أن أواجه النحس وجاً لوجه. طيب، والناس، وما ذنبها؟ هذه القرية ما ذنبها؟ أنا منحوس، وقبلت نصيبى. الناس ذنبها أنى عمدة بلدها؟

ونفخ العمدة هواء حاراً من أنفه، وهو يقول:

- يا رب. أنت موجود يا رب.

ونظر إلى الشيخ مختار، وكان معه فى الدوار وقال له:

- حاضر يا سيدنا الشيخ. حاضر. آمنا بالله، واتكلنا عليه.

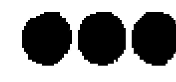
وانصرف الشيخ مختار، وهو يدعو للعمدة بالسكينة والتوفيق، وانصرف العمدة إلى بعض أعماله.

وقال الشيخ وهو ينصرف:

- وستصلى معنا الفجر إن شاء الله.

قال العمدة:

إذا رضى عنى الله، إن شاء الله، إن شاء الله.



ولم يستطع العمدة أن ينام. ان الشقى الذى أمسكه شيخ البلد، سيد المجنون، قد حاول الانكار أول الأمر، موهماً العمدة والخفر أن الرجل مجنون، ولا يعتد بشهادته. فلما أخذوه إلى الحقل، ورأى بعينيه ترتيبات الجريمة التى كان ينوى ارتكابها، ارتبك وسكت، ثم اضطر إلى الاعتراف.

- نعم كنت أنوى حرق محاصيلكم.

- لماذا؟ لماذا وأنت غريب عن البلد، وليست لك فيها مصلحة.

- هل لا بد من أن تكون المصلحة مصلحتى؟

- مصلحة من إذن؟

- واحد صاحبى. قريبى. صهرى.

- لا أقارب لك ولا أصهار هنا. أصحاب، جائز.

- إذن أصحابى.

- من؟ من أصحابك هنا؟

- ليسوا هنا.

- فى تخشيبة النقطة؟

ولم يرد. أدرك أنهم يعرفون أنه يعمل لحساب سلطان، فلم يرد.

قال له العمدة:

- وكم كان سيدفع لك؟

- يا حضرة العمدة عيب. ما بين الأصدقاء حساب!

- لا يا شيخ! "نقطة". هل تحرقها له "نقطة"؟!

- لا "نقطة" ولا شىء، لكن خدمة.

- ولماذا؟ لماذا يطلب هذه الخدمة؟ ماذا يستفيده منها؟

- لا أدرى. صحيح ماذا يستفيده منها؟

وسكت الشقى قليلاً ثم قال:

- فى الحقيقة أنا قبلت لما قال لى أن فرج النمس فى السجن، وأن هذا الحريق يرضى"فرج" ويشعره أن أصدقاءه لم ينسوه، ولم يخونوا عهده.

- وأنت تعرف فرج النمس؟

- حق المعرفة. نحن زملاء. زملاء شقاوة وليال.

- وسلطان كان زميلاً؟

لأ. سلطان ليس زميلاً. سلطان قريب فرج، لكنه ليس زميلاً. وهل هذا يصلح زميلاً؟ "دا خرع"!

وحكى الشقى نوادر وحكايات، وروى للعمدة كيف كان يجىء إلى هذا البلد تحت جنح الظلام، ليسهر ويأكل ويشرب. وذكر له بيوتاً إرتادها، وناساً قابلهم، ونساء سهرن معه. جىء بهن من البندر ليسهرن معه ومع الآخرين.

- هنا فى بلدنا؟!

- آ... ماذا فى هذا؟ لا تعرف؟!

- أعرف!! أعرف واسكت؟!

- وماذا تعمل؟

- يا خبر أسود. ماذا أعمل؟ أنت مجنون؟

- لماذا يا حضرة العمدة؟ أنت لا تحشش؟

- الآن لا. والله لا.

- طيب زمان؟

- آ... كنت.

- أين كنت تحشش؟

- فى أماكن مختلفة.

- هنا فى البلد؟

- وخارج البلد.

- لماذا أبحت لنفسك هذا، ولا تبيح...

- أبيح ماذا؟

- أن نأكل.

- كلوا كما تريدون.

- أن نشرب، حتى نسكر.

- اشربوا و " اطفحوا " كما تريدون.

- وأن نضحك.

- إن شاء الله " تطقوا " من الضحك. لا يهم.

- إذن ماذا يهم. النساء؟

- آ.. هذا زنا.

- الزنا الوحيد فى بلدكم؟

- "يعنى إيه؟".

- "يعنى خلى الطابق مستور".

- ماذا تعنى؟

- أعنى أننا حينما نجىء بنساء من البندر أحسن.

- أحسن من ماذا؟

- من أن تسهر مع نساء من هنا.

وهاج العمدة وأخذ يشتم ويسب ويلعن، ثم عاد إلى الجريمة التى كان ينوى أن يرتكبها، لما أتم التحقيق معه، قال لشيخ الخفر:

- تأخذه بعد هذا إلى النقطة.

قال الشقى فى فجر:

- سأنكر. فى النقطة سأنكر كل شىء.

قال العمدة فى غيظ:

- تبقى "ضلالى وكذاب".

قال الشقى فى هدوء:

- لا يهم. المهم ألا أسجن.

وكاد العمدة يفقد أعصابه، وهم بأن يصفعه على وجهه فقال الشقى:

- صلى على النبى يا عمدة. أنت تريد الجد، أم ابن عمه؟

قال العمدة فى سذاجة:

- الجد. طبعاً أريد الجد.

قال الشقى:

- نتفاهم عليه أحسن. ماذا تريد لقريتك هذه؟ الأمن طبعاً واستقرار الناس، والاطمئنان. المحاصيل لا تحرق، ولا تسرق، وترتاح أنت والغفر.

قال العمدة:

- هيه.. ثم ماذا؟ ماذا تريد أن تقوله؟

قال الشقى:

- لك هذا. أنا أضمن لك هذا.

قال العمدة:

- وتفلت من العقاب يا ماكر يا شرير.

قال الشقى:

- "خلاص أنا خلصت ذمتي". ذنبك على جنبك.

قال العمدة:

- تهددنى يا كلب؟

قال الشقى:

- بغير خناق ولا شتائم، نذهب للنقطة. حاضر يا عمدة. لكن بلا "زعل"، أنا سأنكر، وسأطلب الرجوع إلى ملف المجنون الذى قبض على فى مستشفى المجاذيب.

قال العمدة فى غيظ:

- يا مجرم. أنت مجرم.

قال الشقى:

- ولماذا الشتائم؟ ألم نتفق على الهدوء؟

قال العمدة:

- اعمل ما بدالك.

قال الشقى:

- وإذا جاءك بعدى ناس آخرون، مثلى، مثلاً، وفعلوا شيئاً آخر، فلا تضيق بهم أو بى!

وصاح العمدة فيه:

- والله أقتلهم وأقتلك. من أنت أو هم؟

قال الشقى:

- ولماذا تغضب؟ لا داعى للغضب. لو سمعت كلامى للآخر!

وسكت العمدة وهو يطل نحوه ينتظر منه أن يتمم الكلام. قال الشقى الشرير:

- لو اتفقنا من الآن، فأنا أضمن لك ألا تحدث حوادث فى البلد. سأكون مسئولاً أمامك... وأمام الله.

قال العمدة ساخراً:

- وتعرف الله يا نجس؟! أنت نجس!

قال الشقى:

- الله يسامحك.

وشرد العمدة فى موقفه، والحوادث التى حدثت فى البلد منذ تولاها، وكيف أصبح يشعر بمرارة، لأنه هو الذى أفسد البلد، وضيع الناس، وأدى إلى أن أحداً لم يعد آمناً على نفسه، ولا على عياله، ولا على ماله.

وأغراه هذا الضمان.

يستقر الأمن يا عمدة، ويرتاح الناس.

وتنتهى الحوادث، ولا تعود بلدنا تسمع بمحاصيل تحرق أو بهائم تسمم.

ويصبح عهدك فى البلد عهد سعد يا عباس.

راودته كل هذه الأفكار، وراقه أن يجلس فى الدوار، وحوله الناس يمتدحون عهده، والنظام الذى استقر، والأمن الذى استتب، والأموال والمحاصيل والبهائم التى ستصبح آمنة.

لكنه عاد يفكر فى أشياء أخرى كثيرة.

هذا المجرم سيأتى البلد بالليل، تحت جنح الظلام ليأكل ويشرب ويعربد مع رجال ونساء. ومن يدرى هل يجيء بنساء من البندر، أم يبحث عن نساء من البلد، يغريهن بالفسق والفساد.

ويقلب بلدنا ماخورا ابن الجنية!

ولا تستطيع أن تفتح فمك يا عمدة! ستكون فى جيبه، طالما أنه هو الذى يحفظ لك الأمن، ويدافع عن البلد وعنك!

وترضى؟ هذا ذل وهوان! وتقبل يا عمدة؟

والناس؟ الناس الذين انتخبوك وأيدوك، ونصبوك عليهم عمدة؟ الناس الذين تبرعوا لك بالنصاب، لتكتمل مؤهلات العمدية؟ تخونهم؟! تخون كل هؤلاء؟ أم أنهم يرضون مثلك أن يحرسهم لص وسفاح؟

هل تريد أن تتخلص من محنتك على حساب الناس؟

وهل يا ترى ستصارحهم بهذا، أم تلعب عليهم اللعبة سراً وفى الظلام؟ سيكونون مخدوعين فيك، وفى الأمن، وفى النظام! ستكون أنت فى نظرهم بطلاً مغواراً هماماً، تحرسهم وهم نيام، وتصون أموالهم، وهم مستريحون، وتحمى أراضيهم ومحاصيلهم،

وعرق كفاحهم، وهم غافلون يلعبون أو يتسامرون!! بينما أنت وهم، وأمن البلد، وكل هذه الأمور، ستلقى فى "عب" هذا اللص، يفعل بها ما يشاء.

إن أراد أن يصونها فعل، وإن أراد أن يبددها فعل!

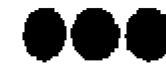
إن أراد للناس أمناً فعل، وإن أراد لهم ذعراً فعل!

سبحان الله! وهل يرضى عن هذا أحد؟ ربنا يرضى؟ الناس ترضى؟ الشيخ مختار صديقك وإمامك يرضى! الشيخة فى مقام سيدى الذكيرى ترضى؟ الشيخ عبد الرءوف يرضى " لن يرضى عن هذا أحد يا عمدة.

وشعر العمدة أنه أمام امتحان بين نفسه والبلد كلها. أيهما يختار؟

وفى ثانية واحدة، بل فى أقل من الثانية، نظر إلى مدبولى شيخ الخفر وصاح يقول:

إلى النقطة. خذه إلى النقطة.



وكان الوقت فجراً، والعمدة يتوضأ فى الدوار.

هذا الدوار الذى دفع حماه الحاج سلطان على أن يتزوج حماته الست زهرة، ولولاه ما تزوجها.

هذا الدوار الذى حوله الحاج سلطان إلى وسيلة للسخرة. وهو والساقية كانا فكى الرحى، يعصر بينهما الناس، ويمتص منهم كل قطرة دم تكون فى أبدانهم.

من ناحية الساقية، تدور بالماء، ليدفع الناس ثمن الماء، دماءهم!

ومن ناحية الجرن، تئول إليه المحاصيل، ليأخذ منها الحاج سلطان ما يشاء.

ومعه كرباج ساخن، يلفح به وجوه الناس: أبو سريع.

ومعه كذلك دفتر مزور، يسجل على الناس ديونا لم يسمعوا بها: أخوه غضبان.

استغفر الله واستح يا عمدة. الحاج غضبان!

آه يا بلد! وشعر وهو يتوضأ، أنه يجلس على لعنات الناس، فى هذا المكان.

لكنه صبر نفسه، ومسح أساه، وهو يقول وما ذنب المكان؟ من يدرى ماذا كان المكان الذى إقيمت فيه الكعبة نفسها؟! لكنها الآن كعبة!

يا خى!! وبهذا تقيس دوارك يا عمدة النحس؟!

على كل حال، لقد أصبح الجرن دواراً، وزالت عنه الرائحة العفنة القديمة.

منذ صار مدرسة، وكل شىء فيه تغير.

الأولاد صاروا يترددون عليه ليتعلموا، إلى أن بنت الحكومة لنفسها مدرسة، فتركت الدوار لأصحابه، فعاد الدوار دوراً.

تعنى عاد لزوجتك!

يو...ه! عاد والسلام.

يا سلام! عاد فى الوقت المناسب تماماً. لو عاد قبل ذلك بعام، لإحترت فيه، ولإحترت فى نفسك! ماذا كنت تفعل به، ولم تكن لك به حاجة؟ وكيف كانت تحصل على الستة الجنيهات كل شهر، الإيجار الذى تدفعه لك الحكومة؟

لكن الحكومة - "كتر خيرها" - ظلت محتفظة به حتى الوقت المناسب تماماً، لا قبله بيوم، ولا بعده بيوم. تركته وأنت عمدة، يجب أن يكون لك دوار يليق بك.

كريمة والله الحكومة. أنها بدأت تبنى لنفسها مدرسة، بعد إنتخابك عمدة.

ويوم انتهت من بناء مدرستها، كنت أنت قد انتهيت من ثمن النصاب الذى أعطته القرية لك، فذهبت إلى دوارك، بعد أن أعدت إلى الناس ديونهم.

ستر! هذا ستر من عند الله، والحمد لله.

وهكذا صار الدوار خيراً. أم لا يزال ماضية النجس يلوث حاضره.

وبينما كان يمسح أذنيه، ذكر أن الساقية أيضاً صارت خيراً. كانت شراً عندما كانوا يستعملونها ليستبدوا بالناس. أما الآن، فما هى؟ آلت للجامع. هى والحديقة آلت للجامع. كذلك أرض الحاج عبد الوارث، والد النمس، آلت إلى الجامع.

كل شىء استعمل ضدك يا بلدنا، عاد إليك، ليصبح فى خدمتك.

الساقية كانت تعصر عظامك، فعادت إليك.

الجرن كان يطحن كبدك، فعاد إليك.

الحديقة. حديقة الحاج سلطان! آه منك يا حديقة الحاج سلطان! أنت التى شهدت غرام الشيخ العجوز المتصابى. أنت التى قدمت له الغزال الجميل الفاتن تفيدة الحلوة. آ.. أنت! أنت أيضاً عدت للقرية لتكونى لها.

وأرض الحاج عبد الوارث، والنمس، وما فعله النمس بالناس. أنت كذلك عدت إلى الناس. صرت وقفاً على الجامع.

وشعر بالراحة عن نفسه، وهو يجفف وضوءه.

كل هذا تم فى عمديتك يا عمدة. هذه الأماكن التى شهدت عذاب الناس، أصبحت الآن فى خدمة الناس. وتضيق بنفسك؟ وتشعر بعجزك؟ وتريد أن تترك العمدية والبلد؟ أو تريد أن تكلها - فى لحظة ضعف - لأفاق، يعيش على الفسق والعربدة!!

وشعر العمدة بالرضا، وهو يسير فى هذا الوقت المبكر إلى الجامع ليصلى الفجر.

كانت فى ذهنة صورة الجامع ما بين ماضيه وحاضره.

كان حطاماً كالحاً، يخاف الناس أن يدخلوه، لولا أن بهم إيماناً أقوى من مخاوفهم. فصار الآن جامعاً بحق. أصلح المبنى، واتسع وفرش بالحصير، وبعضه فرش بالسجاد الأحمر. المنبر تغير، والمئذنة عليت، وكلف بنظافته إثنان خصصا لخدمته. وأعدت به المصاحف ودلائل الخيرات، وألحق به كتاب يتسع لعدد كبير من أطفال البلد، وألحقت به عدة منادر، ليبيت فيها ضيوف القرية والعابرون بها.

والشيخ مختار لا يتوانى عن تقديم الوجبات لكل من يلجأ إلى الجامع من الضيوف والعابرين.

كل هذا من أين؟ من الساقية والحديقة وأرض الحاج عبد الوارث.

كل هذا من الشر الذى لحق بالقرية، عندما تحول إلى خير!

وتم هذا كله على يدك يا عمدة! وخاف أن يصاب بغرور، فقال فى نفسه: استعذ به يا رجل واستح. والبلد فعلت هذا. لكنه عاد يحدث نفسه قائلاً أيضاً ربنا قال، (فأما بنعمة ربك فحدث). هذه نعمة من عند ربنا. اسأل نفسك يا عمدة. لو أن العمدة القديم عمدة كان هذا قد تم؟ لا!! طبعاً لا!! لو أن صهرك غضبان بن الحاج سلطان استمر عمدة، كان هذا قد تم؟ لا!! بل لو أن نفوذ أسرة سلطان كما هو، تتحكم فى البلد والناحية والعمدة، كان هذا قد تم؟ لا!! طبعاً لا!! إنما تم هذا عندما بدأت البلد تتنفس. عندما زال عنها الكابوس!

وكان قد وصل إلى الجامع، والمؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر.

وفى هذا الوقت النورانى، يشع كل شىء، وترق مشاعر الناس، وتهفو نفوسهم نحو الله، تبغى مرضاته.

وفى هذا الوقت النورانى، يحلو للنفوس أن تستحضر المثل الطيبة التى تحقق خير الناس، وترطب قلوبهم بالأمل والأمن.

والعمدة استحضر لنفسه، ودون أن يدرى لذلك سبباً، صورة حلوة كريمة، لا تزال تداعب خيال أهل القرية بين الحين والحين.

لقد خيل إليه أن الحاج مرزوق أمامه! وكأنما عاد الزمن القهقرى ليحمل للعمدة صوته، ونبرته، وطريقته فى أن يؤم الناس.

يا ربى؟ كأنى أسمعه هذا الصوت الذى يجلجل داخل المسجد أمام المحراب، صوته هو!

ودخل العمدة، وهو يبعد عن نفسه هذه الهواجس.

ووقف فى صف المصلين، وأخذ يصلى ركعتين لله، تحية للمسجد.

ولما بدأت صلاة الفجر انخرط مع الناس فى الصفوف، يصلى وراء الامام.

وعادت إليه هواجسه.

صوته..! إن الذى يسمعه، صوته!

شىء غريب لا يصدقه! إنه يعرف صوت الشيخ مختار، ولا يخطئه أبداً. وليس هذا صوت الشيخ مختار! هذا صوت الحاج مرزوق! هل عاد؟ وهل يعود الموتى؟ وهل يعدو الحاج مرزوق سراً دون أن يعرف الناس. لقد كان روح القرية. كان أباها وخفق قلبها، فهل يعود فى السر؟!

وحاول العمدة أن يبعد عن نفسه هواجسه، لكن واقعاً كان يطرق أذنيه يدفعه إلى الشعور بأنه هو. أنا أعرفه. إن صوته فريد، ومتميز، وهو هذا الذى يتردد أمام المحراب، ويؤم المصلين. إنه يعرف كل أصوات أئمة هذا المسجد، ولا يخطىء أحدهم أبداً. ليس مهماً أن يراه، لكن ما أن يسمعه حتى يعرفه. الحاج مرزوق أو الأفاق أبو طاقية، أو الشيخ مختار الثلاثة يعرف أصواتهم معرفة الواثق.

وعندما سلم الامام، كان أول شىء فكر فيه العمدة أن يحملق فيه.

مرزوق. إنه مرزوق. مرزوق أفندى، لا الحاج مرزوق. مرزوق الحفيد، لا مرزوق الجد، روح هذه القرية وبركتها.

قال العمدة: كأنك جدك. غريبة. لم أشك لحظة أنك هو.

لكنه أدرك على الفور أن شيئاً لا بد أن يكون قد منع أباه عن الحضور، فهو لا يتخلف عن هذا الواجب أبداً. فأسرع يسأل عنه.

قال مرزوق أفندى:

- بخير. إنه بخير، وسأحكى لك يا حضرة العمدة فيما بعد.

ولم يستطع العمدة أن يصبر. لكن كان عليه أن يصبر، حتى يختم الفتى الصلاة، فلما فرغ سحبه من يده وهو يقول له:

- ماذا جرى للشيخ مختار؟ أين هو؟

قال مرزوق:

- فى النقطة. إنما الرجاء ألا يعرف الناس حتى لا ينزعجوا.

وصاح العمدة:

- وعلى من ينزعج الناس، إذا لم ينزعجوا عليه. لماذا ذهب إلى النقطة؟

قال مرزوق:

- لا تخف يا عمدة. طلب للشهادة.

قال العمدة:

- هل بشأن اللص الأفاق الذى أمسكنا به أمس!!

قال مرزوق:

- بل بشأن أفاق آخر.

قال العمدة:

- أفاق آخر؟ فى بلدنا؟ كان يريد شراً ببلدنا؟

قال مرزوق:

- بالعزبة!.. هى أيضاً بلدنا يا عمدة.

- طبعاً بلدنا.. لكن كيف؟

وأخذ مرزوق يروى ما حدث، على مسمع من الناس.

فى الليل، والنسيم يداعب أجفان الناس، فيركنون إلى النعاس، بعد تعب اليوم،

ويكونون قد تناولوا العشاء، وسمروا مع أسرهم وعيالهم وجيرانهم، وعندئذ يحلو لأحد الأشرار، أن يعكر الصفو، فيسطو على أموال الناس، لينهب، ويسرق، وليحصل على ما ليس له، ممن تعب فيه، وبذل فيه جهده وعرقه.

ناس ذوو جلود سميكة يقبلون على أنفسهم وعلى كرامتهم أن يستحلوا حق الناس! ناس تعيش على "قفا" ناس!!

وقد ضبطنا لصوص المواشى، ومن يومها والحراسة على أشدها.

والحارس هو الله. صحيح علينا أن نسعى، لكن الاعتماد كله على الله. أليس كذلك؟

لكن هذا الصنف من الناس لا يهمه حراسة، ولا حلال وحرام، ولا شىء. يهمه النهب، وكلما زادت الحراسة أغراه هذا على التفنن فى السرقة!

فرج النمس وتخلصنا منه، وقلنا نستريح.

طلع لنا واحد ثانى!! أمس، ليلة أمس!!

بعد العشاء، وبعد أن انتهى الناس من سمرهم، وحديثهم، وهجعوا يستريحون، تسلل هذا اللص إلى حظيرة الماشية بطريقة شيطانية.

دخل بالنهار، والماشية فى الغيط. كانت الحظيرة خالية، بلا ماشية بطبيعة الحال، ودخول أى واحد أو خروجه لا يلفت نظر أحد. صاحبنا دخل، واختفى داخل الحظيرة. وعادت الماشية وربط كل منها فى مكانه، ووضع أمامها علف الليل، وانتهى كل شىء.

وفجأة بدأ صاحبنا يحلب بعض البقر والجاموس.

وبدأت أصوات البقر والجاموس ترتفع وهى تحلب لبنها.

بينما كانت بقية الماشية تسحب من الباب الخلفى.

ولما جاء الخفير المكلف بالحراسة سمع صوت الحليب، وأصوات البقر، والجاموس، فصاح فى ضيق: لا والله، يتركون اللبن فى ضرع كل واحدة!! كفى!! ونقل إلى بقية الغفر أن البهائم تحلب، وهذا صوتها وهى تحلب.

وعاد الغفر، فتجمعوا يتحدثون ويسمرون ويضحكون، بينما البهائم قد سحبت إلى خارج الحظيرة! هكذا بخفة وذكاء.

وصاح العمدة:

- لا بد كان معه أعوان.

قال مرزوق:

- طبعا يا آبه العمدة كان معه أعوان، يحلبون البقر والجاموس، ليغطوا فعلتهم، ويهيئوا فرصة لسحب بقية البهائم.

وصاح العمدة فى انزعاج:

- و سرقت البهائم؟ سرقت؟!

قال مرزوق:

- الله يستره ضابط النقطة، كان قد عمل حراسة خارجية، وكأنه كان ينتظر هذه السرقة، فامسكت باللص وأعوانه وهم خارجون.

قال العمدة فى فرح:

- الحمد لله.الحمد لله. الله يستره حضرة الضابط.

قال مرزوق:

- ويستر حضرة المأمور أيضاً.

قال العمدة متعجباً:

- حضرة المأمور.. لماذا؟ هل كان هناك أيضاً؟

قال مرزوق:

- آ.. كان هناك فى النقطة ينتظر.

قال العمدة:

- لا بد وصلته "أخباريه". هذا التدبير وراءه "أخبارية". "عفارم"!

قال مرزوق:

- أنت أدرى يا آبه العمدة.

قال العمدة:

- طيب أبوك. ما دخله؟ يشهد على ماذا؟

قال مرزوق:

- أبى يعرف اللص.

قال العمدة:

- أبوك؟ أبوك أنت؟ الشيخ مختار؟

قال مرزوق:

- نعم أبى. أبى يعرفه. لا تستغرب يا آبه العمدة.

قال العمدة:

- لا أستغرب! أنا لا أصدق. لا أصدق.

قال مرزوق:

- تعرف من هو اللص يا آبه العمدة.

قال العمدة فى لهفة:

- من؟ قل لى من؟

قال مرزوق:

- الشيخ ابو طاقية. هل تذكره؟

وصاح العمدة:

- ابن "الإيه.."! الشيخ أبو طاقية. لص ايضاً!!

قال مرزوق:

- ألم أقل لك أن أبى يعرفه. لقد كان متنكراً، وحاول اخفاء شخصيته، فطلب المأمور أبى ليتعرف عليه.

قال العمدة:

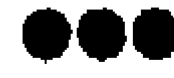
- آ... فهمت.. وأرسلك بدلاً عنه.

قال مرزوق:

- نعم أرسلنى بدلاً عنه. إن الجامع عنده، أهم منى.

قال العمدة:

- البركة فيك. أنت منه، ومن جدك الحاج مرزوق رحمه الله.



وذهب العمدة إلى النقطة. أخذ معه عدداً من الأعيان وشيخ الغفر، واتجه إلى النقطة، وهو يقول:

- لا يجوز أن نترك الشيخ مختار وحده. لا بد من أن نذهب إليه.

وبينما الجمع فى الطريق إلى النقطة مروا بضريح سيدى الذكيرى، فدخلوا يزورون، ويقرأون الفاتحة، ويتبركون بالضريح، ويسألون الشيخة تفيدة الدعوات.

وكانت الشيخة جالسة أمام الضريح تسبح الله.

كان وجهها مضيئاً كنور الصباح. وكانت الابتسامة الطيبة على شفتيها، توحى للناس بالثقة والرجاء.

ودخل العمدة ووراءه أهل القرية، فزاروا، ثم صافحوا الشيخة، وحكوا لها الحكاية.

قالت فى براءة:

- أعرف. أعرف يا حضرة العمدة. لقد مروا بى ليلة أمس. الشيخ مختار أصر على أن يمر بالضريح يزور سيدى الذكيرى ويزورنى.

قال العمدة:

- وماذا قال:

قالت الشيخة:

- قال أنه مدعو للنقطة لشهادة، وللتعرف على أحد الأشقياء. وكان يدعو الله أن يبعد أذى الناس عن الناس.

قال العمدة:

- ولم يضايقه أنهم أرسلوا يطلبونه؟

قالت الشيخة:

- أبداً، كان كالعادة راضياً مستبشراً.

قال العمدة:

- غريبة. لم يطلبوه من الدوار. لم يرسلوا إشارة بالتليفون يطلبونه فيها.

ورد شيخ الغفر:

- لا بد أنهم أرادوا ألا يزعجونا عليه. إنهم يعرفون مكانته عندنا.

قال العمدة:

- آه.. عندك حق. ولو طلب عن طريقنا، كانت البلد كلها خرجت وراءه.

قال شيخ الخفر:

- ولا بد أنهم أرادوا أن تتم المسألة فى الكتمان.

قال العمدة:

- ضروري. الحمد لله على كل حال.

ومضى العمدة يستأنف المسير إلى النقطة، وحوله عدد من الناس. وعندما وصلوا، كانت أشعة الشمس، قد بدأت تصافح الوجوه وكانت المعلمة وردة النقرزان جالسة على المقهى تشرب الشاى، وحولها عدد من الرجال على رأسهم المعلم بيومى.

ورحبت المعلمة بالعمدة وبالرجال، وأصرت على أن يشربوا جميعاً الشاى، فلما حاول العمدة الاعتذار قالت المعلمة:

- عيب يا حضرة العمدة. أنتم أهل كرم. تشربون الشاى ثم تتوكلون على الله.

لكن العمدة كان قلقاً ومتململاً، فقالت له:

- أنا عارفة أنك والرجال آتون تسألون عن الشيخ مختار. هو بخير والحمد لله. أنا أرسلت له الشاى والفطور. والمعلم بيومى كان هناك ورآه بعينيه.

وصاح العمدة فى لهفة، وقد اتجه إلى المعلم بيومى:

- والنبى؟! وكيف وجدته؟ بخير؟

قال المعلم بيومى:

- الله الله! ماذا جرى يا عمدة؟ الحمد لله هو بخير. الشهادة وقد أداها بما يرضى الله. وهو فى النقطة معزز مكرم، والضابط والمأمور والعساكر محتارون فيما يقدمونه له. القهوة تأتيه من بيت الضابط. العساكر يعملون له شايا. المأمور يسأله عن أى طلب يريده. والرجل قانع وراض، وابتسامته لا تفارقه أبداً.

قال العمدة:

- وهذه الشهادة التى طلب فيها. هل أداها وانتهى الأمر؟

قالت المعلمة:

- ومن يؤديها سواه يا عمدة؟

قال العمدة:

- وهذا الرجل الإبليس. هل صحيح ضبطوه؟

قالت المعلمة:

- من؟ كلهم أبالسة. من تقصد؟

قال العمدة:

- أبو طاقية. الشيخ أبو طاقية.

قالت:

- يوه..! رجل غريب جداً. أنا احترت. رجل عجوز ومكسر وحاله حال، ومع هذا عينه لا تزال "زايغة"! ماذا يريد من الدنيا هذا الرجل؟ ألا يترك السرقة لواحد أصغر؟

قال العمدة:

- أى والله. هو من سن الشيخ سيد الكبير، أين هذا من ذاك؟

قالت المعلمة وهى تسخر:

- "يظهر الشيطنة بتصغره يا عمدة"!! عجوز.. إنما!! لقد أمسكوه بعد محاورة لا يقوم بها شاب صغير!!

قال العمدة:

- غريبة!! يمكن العفاريت هى التى تساعده.

وقهقهت المعلمة من فرط الضحك، وكان العمدة قد انتهى من شرب الشاى، هو والرجال، فهم بأن يستأذن، وقبل أن يتجه نحو النقطة: صاحت المعلمة:

- هو ذا.. هذا هو الشيخ مختار يا سيدى. يا سلام على النور!

وأسرع إليه العمدة والرجال، يأخذونه بالحضن ويقبلونه، ويحمدون الله على سلامته، ويعبرون له عن الوحشة الكبيرة التى خلفها وراءه.

قال الشيخ مازحاً:

- "إيه؟ هو أنا لحقت؟ دا يا دوب سواد الليل".

قال العمدة:

- إن شاء الله ثانية واحدة. "برضه لك وحشة يا سيدنا".

وأصرت المعلمة على أن يستريحوا جميعاً على القهوة، خاصة بعد أن عاد الشيخ مختار.

- إذا لم يكن من أجل شىء، فمن أجل سيدنا الشيخ. إن معزّته عندنا لا تقل عن معزّته عندكم. اتفضلوا.

وقدمت المعلمة مقعدها للشيخ فجلس و إلى جواره العمدة والمعلمة وحولهم الرجال. وأخذ الشيخ يروى ليلته والشهادة التى أدلى بها، وكيف تعرف على الرجل النجس الشيخ أبو طاقية.

كان ينكر أنه هو. كان يدعى اسماً آخر وصفة أخرى.

الرجل الضلالى كان يحاول أن ينكر السرقة كلية. كان يقول أنه كان يمر بالصدفة من هنا، وأنه وجد هؤلاء الأولاد - وهو يعرفهم لأنهم من بلده - ولم يخطر بباله أنهم سرقوا هذه الماشية، فحياهم وفكر فى أن يكمل الطريق معهم يتسلى بدلاً من السير وحده فى الليل، وتحت جنح الظلام.

- وأين كان ذاهباً؟

- هو يدعى أنه كان فى طريقه لزيارة بعض أقاربه.

- ولماذا لا يذهب إليهم بالنهار؟

- هو يقول بالليل أو بالنهار، كله واحد. ما الفرق؟

- آه الضلالى الكذاب. والأولاد الذين يتحدث عنهم ألم يكذبوه؟

- أبداً. أمنوا على كلامه.

- ويضحون أنفسهم من أجله؟

- تأثيره عليهم غريب.. غريب!

- طبعاً كما كان تأثيره غريباً على الست نبوية و "أبو سريع".

- والعمدة وشيخ البلد.

- البركة فى العفاريت والأحجبة.

- لا والأدهى من هذا الزيت الذى يطيل الشعر، والدهان الذى يعيد الشباب.

- ابن الشياطين!! حتى اللصوص يقعون تحت تأثيره!!

- حتى يكشفوه.

- وكشفوه:

- بعد أن إنهار. بعد الشهادة التى سمعوها عنه.

- بعد أن عرفوا ماضيه.

- وتاريخه الأسود فى بلدنا.

- وقالوا.. ماذا؟ ماذا قالوا عنه بعد أن كشفوه؟

وأخذ الشيخ مختار يكمل الحكاية. روى كيف أن الرجل كان ينكر كل شىء، وكان يوهم الضابط والمأمور أنه برىء. وبكل وقاحة وجرأة كان يسأل.

- هل ضبطنى أحد؟ هل كنت أسحب بهيمة من البهائم؟ هل وجدتم شيئاً ثابتاً على؟ أبداً. أنا كنت سائراً ككل خلق الله على جسر الترعة. هل هذا محرم؟ هل هذا ممنوع؟ تجرون الناس بغير وجه حق، على هذه الصورة؟ لماذا؟!

- شىء غريب. هذا "فجر".

- لكن كل شىء انكشف، عندما واجهته. تقلصت عضلات وجهه وارتبك وفقد القدرة على الكلام. لم يكن قادراً على النظر إلى. وعندما قلت له هل هو أنت يا شيخ أبو طاقية، إنهار! حتى اسمه كان يحاول أن يتنصل منه وبدأت أعدد حوادثه وأذكره بأعماله، والأحجبة التى كان يكتبها للست نبوية، والبخور الذى كان يطلقه لتحضر الجن، والأموال التى نهبها من البلد، وكيف هرب بما نهب فراراً من سخط الناس. عندئذ صاح أعوانه فيه: يا ابن الأبالسة وتعلمها فينا أيضاً؟ وبدأوا يروون قصصاً أخرى خدعهم بها وضللهم وأوهمهم أن معه جيشاً من الجن يحميه، وأن لهذا الجن طلبات من يخالفها يدفع حياته ثمناً لها، وقد لا تكفى حياته، ولا حياة أولاده ولا حياة ذريته كلها. سيصابون بالعمى، وبالجنون. سيسعرون كالكلاب!

- وكانت هذه طلبات الجن؟ هذه الماشية كانت طلبات الجن؟

- وغيرها من الطلبات. المهم أن طلبات الجن لا تناقش. إذا قالوا اقتلوا نقتل، وهم يحرسوننا. إذا قالوا انهبوا ننهب، وهم يحمون خطواتنا. إن لكل شىء عندهم حكمة لا نعرفها، ولا ندرى عنها شيئاً. هم يأمرون ونحن نطيع، وإلا فعلينا أن نتحمل المسئولية فى أموالنا وحريمنا وأولادنا. فى كل شىء. كل شىء يمكن أن ينقلب علينا مصائب ونوائب وخراباً. "هل نحن قدهم؟! عفاريت!! إنهم عفاريت!! هذا العالم كله تحت تصرفهم! هم أصحابه، وهم سادته"!

- أما رجل فاجر.

- وأكثر من هذا والله. على كل حال. لقد انكشف، وواجهه الأولاد الذين كانوا معه بكل شىء، فصار نعجة.. أخذ يبكى كأنه امرأة، هذا المارد الشيطان!!

- وماذا كان قصده؟

- السرقة. ماذا غير هذا؟ اللص يريد ماذا؟ السرقة!

وفى الطريق إلى البلد، مر العمدة، والشيخ مختار والرجال بضريح سيدى الذكيرى، وبالشيخة تفيدة، فقرأوا الفاتحة، وطمأنوها على الشيخ مختار، وسألوها الدعوات.

وبينما هم يغادرون الضريح، سمعوه، الصوت الذى اعتاد على أن يشق إليهم الفضاء والخلاء، بكلام لا هو بالجد، ولا هو بالمزاح، لكنه يحملهم على التفكير على كل حال.

إنه صوت شيخ البلد المجنون يرتفع فى الفضاء، ويطرق آذانهم فى الحاح:

– هانت. إن شاء الله هانت. الطاقية طارت. والوصية معها طارت. طاقية. وصية كله راح.. راح!

ولم يفهم الناس معنى لهذا الكلام.

لكنهم مع هذا تبادلوا النظرات.

هانت وفهمناها!

الطاقية وفهمناها! تلميح للشيخ الذى وقع!

لكن الوصية؟! ماذا؟ أية وصية؟ وما العلاقة بين الطاقية والوصية؟!

عدد محدود من الرجال وقف عند هذا التلميح، وهو حائر.

العمدة شرد لا يدرى ماذا يقصده المجنون!

والشيخة تفيدة شردت لاتدرى ماذا يقصده هذا المشعوذ!

والأخرس. أبو المكارم الأخرس شرد هو الآخر فى بطن الصفصافة!

وبقية الناس سمعوا وعجبوا، لكنهم آخر الأمر ابتسموا فى فتور، ومضوا حول الشيخ مختار، فى الطريق إلى الجامع!

وظل العمدة شاردا، غائباً عن كل من حوله!

وظلت الشيخة تفيدة شاردة، تفكر فى الوصية، أين تكون!

أما أبو المكارم، فقد تسلل على عادته إلى الساقية، وكانت دائرة، وقد علق فيها ثوران، وحولها ناس، فما أن رأوه حتى أخذوا يتحدثون معه يداعبونه.

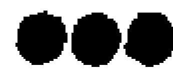
ثم ذكروا له قصة الشيخ مختار، ومواجهته للشيخ "أبو طاقية" وكيف أن الشيخ الذى كان يؤمهم ذات يوم لم يكن إلا لصاً!

وكان أبو المكارم يسمع لكن لا يعى شيئاً مما يسمع.

كان يريد أن يختلس الفرصة ليطمئن على الورق لذى فى بطن الصفصافة. هل هو الوصية أم "العمل"!

- وكيف ستعرف؟

- سآخذه إليه عند الضريح. أبو عوف يقرأه لى.



الأخرس المسكين، أصيب بخرس فوق خرسه! فقد القدرة حتى على أن يشهق! عندما مد يده إلى بطن الصفصافة، فوجدها خاوية، من رزمة الورق التى وضعتها الفتاة الصغيرة، شل لسانه عن الحركة. الحركة حتى بلا كلام!

الأوراق اختفت!

ابتعلتها الصفصافة! إلا هذه الأوراق!!

لماذا لم تبتلع شيئاً إلا الآن؟

لقد وضع فى بطن الصفصافة ملابس ونظارات ومسدسات ومفرقعات، ولا تزال بعض منشورات الأستاذ عيسى فيها حتى الآن، ولم يضع من ذلك شىء، فلماذا تضيع هذه الأوراق بالذات!

وكاد الأخرس يجن!

إنه "العمل" إذن! لا بد أنه "العمل"، وأن الجن أخفته عن الأنظار! الجن هى التى تصرفت فيه!

فإن تكن الوصية.

آه، تكون الطامة وبيلة!

طبعاً . كيف تضيع؟ لا يمكن إلا أن تكون قد سرقت.

يد امتدت إليها لتسرقها!

هل يا ترى يد تقى من أتقياء الله، أو ورع من الناس الورعين؟!

أم هى يد لص دنىء محترف سرقها... لكن لماذا سرقها يا ولد؟ صاحب مصلحة استردها! يعنى سلطان! سلطان سرقها وهو فى السجن لا يزال؟! آ... ولم لا؟ ألم يرسل رجالاً له بالأذى؟ يكون هو قد أرسل أحداً لسرقة الوصية. ومن أين يعرف هذا الأحد مكانها؟ بل من أين يعرف هذا المكان سلطان نفسه؟ إن آخر عهده بها حفرة فى مدار الساقية، ثم عرف فى النقطة أن العلبة كانت خالية من الوصية. إذن كيف يعرف!!

إنه ليس "سلطان"، ولا هو رجل من رجال سلطان الذى سرق الوصية! فأين ذهبت إذن؟ أين ذهبت الوصية؟

وإذا كان بطن الصفصافة قد تعرض للسرقة، فقد أصبحت آشياء أخرى كثيرة معرضة للسرقة! اليد التى سرقت الوصية ستسرق أى شىء آخر! لم يعد هناك سر فى بطن الصفصافة.

وأخذ يحدث نفسه، ثم يعود يراجع الأشياء التى كان قد وضعها فى بطن الصفصافة، ويهز رأسه ليفيق.

فردة الشراب الأحمر موجودة.

والمسدسات والطلقات موجودة.

والملابس المختلفة موجودة.

البن والشاى والكبريت، وبعض الخبز.. كل هذا موجود. شىء واحد هو الذى نقص.. هذه الأوراق.

ولم يقبل أبو المكارم هذا الوضع، ولم يتصور كيف حدث.

قال لنفسه:

هل تكون الطفلة الصغيرة التى وضعت الأوراق هنا، قد عادت فاستردتها؟ لكن لماذا؟ فإن تكن هى فهل فعلت ذلك من تلقاء نفسها؟ لا يمكن، فقد كانت خائفة، وكانت ترتعد. إذن وراءها أحد، حرضها على أن تعود بالأوراق. من يا ترى؟!

وقال الأخرس لنفسه:

تسألها. لماذا لا تسألها هى، لتعرف منها هى.

وذهب إليها. ظل يبحث عنها حتى وجدها، وأخذها بعيداً عن الناس، ثم سألها عن الورق، فلم تعرف شيئاً.

أشار إليها سائلاً هل أخذتها؟ هل استردت الأوراق؟

وصاحت الصغيرة:

- أبداً. هل اختفت؟ لا والنبى أبداً!

ثم تملكتها حالة من الفزع، فأخذت تصيح:

- لا بد أن الجن هى التى أخذتها. الجن يا عم "أبو المكارم". يا مصيبتى يا مصيبتى. هذه المرة أخذوا الورق، وفى المرة القادمة يأخذوننى أنا. ضعت يا عم "أبو المكارم". ماذا كان ذنبى؟

ستتفعنى هذه أو تلك؟ يا خسارتك يا بنت!! ضعت وانتهيت!

وأخذت الفتاة تصيح، وهى خائفة من المصير الذى ينتظرها، وأبو المكارم يطمئنها ويهدىء من روعها، ويؤكد لها أنها تثير العفاريت بصياحها هذا، ولن يرضوا عنها إذا مضت هكذا كالمجنونة تفضح أسرارهم.

وخافت البنت، فسكتت على التو، ومضت وهى تكتم عواطفها فى داخلها.

أبو المكارم هو الذى زادت حيرته، فمضى إلى الخص، وهو حائر.

وهناك ارتمى على الأرض عاجزاً عن التفكير، فغفا.

وبين النوم واليقظة، سمع صوت المجنون يرتفع كأنما يخاطبه: "العمل" عمل ربنا. "عمل" من غير أمل يا بهائم!!

وضحك المجنون طويلاً، ثم عاد يصيح:

كل شىء يرجع لأصله. البنى آدم يرجع أيضاً لأصله. أصله تراب ويعود للتراب! الوصية زى النبى آدم مخلوق مثله. إذن ترجع لأصلها. آ.. لأصلها. بهائم. كلكم بهائم. بهائم ربنا أيضاً بهائم.

وعاد يضحك ويضرب الأرض بعصاه.

وقام أبو المكارم من غفوته مفزوعا.

ما هذا الذى يقوله المجنون؟

ماذا يقصد؟ المسألة وراءها شىء.

وخرج إليه، فحاول أن يلحق به، فجرى منه. فجرى وراءه، فأخذ يحاوره ويضحك. يختفى منه وراء الشجر، فإن عثر عليه، عاد يجرى، فإذا لحق به أو كاد، مرق إلى ركن بين الحقول ليختفى، ثم يجرى.

وكانت مسابقة طريفة.

لكنها لم تخرج عن دائرة الساقية والخص والحديقة، ثم انتهت عند الضريح. وعندما وصل أبو المكارم كان يلهث. أنفاسه كانت تتقطع، والاعياء كان بادياً عليه.

صاحت الشيخة تفيدة:

- ماذا جرى لك؟ ماذا جرى يا عمى؟

ولم يرد.

صاحت:

- ولماذا تجرى؟ هل تجرى وراء أحد، أم تجرى خوفاً من أحد؟

هز كتفيه حائراً كأنما يقول لها:

- والله ما عدت أعرف. هل أجرى وراء أحد، أم أن الدنيا كلها قد أخذت تجرى ورائى!!

وخطر للأخرس خاطر.

ما معنى أن يقول كل شىء يعود لأصله؟

طيب والوصية تعود لأصلها.. كيف؟

الوصية يعنى ورق الوصية. أم ما فى الورق؟

أظن ورق الوصية. طيب، كيف يعود لأصله؟

ولم يضع وقتاً. ان الخاطر قد ألح عليه أن يدخل إلى حجرة الشيخة، ليلقى نظرة على المكان الذى تضع فيه الأمانات. الأوراق والحلى وكل أمانة تصلها تحفظها لصاحبها كما أودعها، حتى يعود يستردها.

وعندما وقعت عيناه على مكان الأمانات وجد رزمة الأوراق التى كانت الطفلة الصغيرة قد وضعتها فى بطن الصفصافة على سطح المكان.

وصاح فى خفة من فرحته، فأقبلت الشيخة عليه، فأعطاها الأوراق، وهو يقفز ويثب من فرط ما أصابه من الشعور بالراحة والثقة.

وما أن فتحت الشيخة رزمة الأوراق، حتى صاحت بدورها تقول:

- يا خبر يا عمى "أبو المكارم" إنها الوصية. الوصية.

أشار يستفسر:

- "العمل" أم الوصية.

قالت الشيخة:

- بل الوصية. وصية الحاج غضبان.

وقطع عليهما هذا الهدوء صوته. سيد المجنون كان يصيح:

- كل شيء يرجع لأصله. البنى آدم يرجع لأصله.أصله تراب ويعود للتراب!! الوصية كالنبى آدم ترجع لأصلها. بهائم. كلكم بهائم. بهائم ربنا أيضاً بهائم!!

□□□

١٠

وأحست الشيخة "تفيدة"، أنها لا تستطيع أن تستبقى الوصية معها. ستكون مصدر المتاعب لها ولابنها، ولم تنتظر مشورة أحد، ولم تناد - كعادتها - الست قمر أو الشيخ عبد الرءوف، لتشاورهما فى الأمر.

حتى عمها "أبو المكارم"، لم تسأله الرأى!

لماذا تستبقى هذه الوصية المشىءومة عندها؟

لقد سرقها شيخ البلد، ليخفى معالمها، فلا يشاركه أحد الميراث الذى سيئول إلى إمرأته من أبيها، عمه الحاج غضبان.

لكنها آلت إلى أدهم وهو يطارده.

ومن أدهم آلت إلى العمدة، بعد أن سقط أدهم قتيلاً فى الخص

ومن العمدة سرقها سلطان أرسل الغندورة فسرقتها، لتختفى معالمها إلى الأبد، ولا يهدده أحد فى الميراث.

لكنها اختفت من سلطان، وذهبت إلى إمرأة أبيه، التى ظنت أنها "عمل معمول" لبنتها!

واختفت من إمرأة أبيه، واستقرت فى بطن الصفصافة.

ثم اختفت من بطن الصفصافة وعادت إليها!!

رحلة طويلة مزعجة، وحولها دائماً المتاعب، والمصائب، وناس يتصارعون، وآخرون ينتظرون، وبهائم تسرق، وثيران تختفى، والمعلمة وردة، وسبيلة الغجرية، وشياطين يحاولن

خطف ابنها، وملائكة لا تراهم، يحرسونه من المكروه، وبنادق، ورصاص ومأمور، ومباحث، ومستقبل غامض لا يعرفه إلا الله!

لماذا؟ لماذا كل هذا؟

أبداً سأسلم الوصية إلى العمدة العمدة مسئول عن البلد وعن الناس، وعن الوصية العمدة عمدة من أجل هذا نادونى العمدة، والشيخ مختار.

ولم تنادونه؟ أنا أذهب إليه أذهب إلى الست راضية، وأسلم الوصية للشيخ مختار، لتصبح فى أمان، وأصبح أنا وابنى كذلك فى أمان.

هيا بنا يا عم "أبو المكارم" تعال معى إليه.

وسار أبو المكارم إلى جوارها، يمسك الصغير "أبو عوف" فى يده

لكن الصوت الذى اعتاد أن يخترق الحجب والخلاء إليها، ارتفع يصيح:

- الأمانة من الله.

لا عمدة ولا مشايخ فى أمان.

الأمان عنده هو، سبحان الله.

أمان أمان أمان!!

لواحد؟ لأ!.... لاثنين؟ لأ!

للناس لكل الناس!

من الله، لعبيد الله!

ووقفت الشيخة، وهى تسمع وجمدت خطواتها على الطريق إلى الست راضية، ونظرت إلى "أبو المكارم" وهى تتعجب أن الكلمات تتوقف على لسانها، فلم تعد قادرة على التعبير عن نفسها!

لكنها بعد قليل قالت وهى لا تزال واقفة فى مكانها من ضريح سيدى الذكيرى:

- هيه؟ ماذا تعملين؟

صحيح المجنون عنده حق الأمان!! تبحثين عن الأمان بين ناس خائفين؟! مذعورين؟! مهددين؟! أى أمان؟! لكن الوصية مع هذا ستظل مصدر متاعب لك وللصغير! صحيح، فأنت إذن تنقلين المتاعب منك إلى العمدة أو الشيخ مختار! آ.. وما عيب هذا؟ أنا واحدة غريبة وضعيفة، ومن حقى أن أبحث عن الحماية و الأمان! الآن! الآن فقط تبحثين عن الحماية والأمان!! يا شيخة تفيدة!! تعبت! أو خفت؟ تعبت وخفت! أليس هذا حقاً من حقوقى؟ ما ضير أن أتعب؟ وما ضير أن أخاف؟ من خاف سلم!

وبينما هى تحدث نفسها وجدت المأمور ناجى أمامها وجهاً لوجه، ومعه ضابط المباحث محمود محجوب وعجبت للمفاجأة.

- يا ربى! كيف بهذه السرعة؟

قال المأمور فى ود:

- كنت أعلم أنه سيودعها عندك.

قالت فى لهفة:

- من؟ من هو الذى سيودعها عندى؟

قال:

- شيخ البلد سيد شيخ البلد أخى شيخ البلد.

قالت:

- المجنون!!

قال:

- والله لم نعد ندرى، من العاقل ومن المجنون العقلاء يصيرون مجانين أحياناً، والمجانين قد يصبحون عقلاء ومن قال أن المجانين مجانين؟ إنهم العقلاء العقلاء

يشيعون هذا عن المجانين لكن من أدرانا ماذا يشيع المجانين عن العقلاء؟ ومن منهم الصادق؟ ومن منهم العاقل؟

وخفف هذا المنطق بعض ما كانت الشيخة تعانية فضحكت وهى تقول:

- لكن كيف عرفت؟

قال وهو يمزح:

- من الله يا ستى الشيخة، من الله.

وضحك المأمور وهو يقول: كأنى الشيخ أبو طاقية اللص!

بينما نظرت الشيخة إلى ضابط المباحث محمود محجوب، وهى تتأمل وجهه وتقاطيعه وتقول لنفسها: كأنه هو! أى والله الخالق الناطق هو! الحاج غضبان، بفرق واحد أن الرجل الذى ذهب كان كالحاً، وعلى وجهه لعنة، أما هذا فسمح، ورقيق المحيا

وبعد لحظات من الصمت والتأمل أخذت الشيخة المأمور ناجى وإنتحت به جانباً لتصارحه بما كانت تنوى أن تفعله.

- هذه الوصية مصدر خطر علىّ يا حضرة المأمور، ولهذا فإنى أريد التخلص منها سأعطيها لعباس العمدة.

- لقد كانت عند عباس! ألم تكن عنده؟

- آ.. ولكنه سيحتاط هذه المرة لا بد أنه سيحتاط.

- وكان محتاطاً فى المرة السابقة.

-إذن ماذا تتوقع؟

- الأمان هنا وهناك واحد.

- هو عمدة.

- وأنت شيخة

- لكن الوصية عنده أكثر أمناً.

- أبداً القادر على أن يسرقك قادر على أن يسرق العمدة.

- لكن كيف هذا؟

- السرقة، وقلة الذمة، والطمع، والنصب، والشيخ أبو طاقية، وعمتى نبوية، وأبو سريع، كل هذه أوبئة، والأوبئة لا تنتشر بمقدار إنها إذا جاءت عمت، لا يفلت منها أحد إلا بالصدفة

- والحل؟

- القضاء عليها، لترتاحى منها ويرتاح الناس جميعاً.

- لكنى إمرأة وحيدة هنا.

- تخافين؟

- آ.. أخاف

- ولا تخافين على الوصية؟

- ومالى أنا وهذه الوصية؟

- إنها أمانة أليست أمانة؟

- نعم، لكنى لست وحدى الأمينة عليها.

- من إذن سواك؟

- العمدة العمدة أقدر منى على المحافظة عليها.

- الموصى أودعها لديك.

- خطأ.

- وقبلته؟

- ذنبى؟!

- ليست المسألة مسألة ذنب، لكنها أمانة، والأمانة محتاجة إلى خلق.

- وعباس على خلق.

- أنا لا أطعن فى عباس لكن الأمانة أمانتك أنت.

- ومن يضمن أمنى أنا؟

- أنا، وربنا موجود.

- كيف؟

- اتركى لى هذا أنا مأمور.

وسكتت ثم نظرت ناحية ضابط المباحث محمود محجوب، فهالها أنه عند قبر زوجها، يقرأ الفاتحة، وقد ملأه التأثر عليه.

قالت للمأمور:

- هل يعرف "

قال وقد تملكه العجب مثلها:

- يعرف ماذا؟

- يعرفنا؟

- لا أظن.

- والوصية؟

- لا علم له بها.

- مسكين.

- لا أدرى كيف يعرف!

- والوصية أليست له؟

- طبعاً.

- وكل هذا الحرص، حرص على مصلحته؟

- طبعاً.

- والله أنا محتارة هل من العقل أن نعطيها له لينفذها هو؟

- إياك تبقى مصيبة.

- أعلم أنها قد تقضى عليه.

- إنه شديد التعلق بأمه، وبأبيه.

- تعنى "محجوب".

- آ.. وكذلك بأخيه حسين محجوب.

- وماذا يعمل حسين.

- فى الجيش ضابط فى الجيش.

- ما شاء الله.

- إنه سعيد بحياته وبأسرته، وأى إشارة للموضوع ستقع عليه كالكارثة!

- والوصية ألا تنفذ؟

- نتركها للظروف المهم نحافظ عليها.

- عندى؟

- أمال!!

- كله على دماغك يا مديحة "حتلاقيها منين و إلا منين"!؟

وضحك وهو يداعبها، فضحكت فى فتور، ثم قال لها:

- المهم الآن لقد جئنا نزور، ونسألك الدعوات.

- لكن لماذا؟ هل من مناسبة؟

- المناسبة أننا ذاهبون إلى القرين، مطلوبون يا ستى، أوامر.

- لكن يا ربى الوباء.

- هنا وباء وهناك وباء.

- لكن هذا خطير.

- سنترك الوباء هنا إلى الوباء هناك.

- لكن الوباء هناك حاد، وقاتل.

- وهنا أيضاً، بفرق بسيط أن القتل هنا بطىء.

- القرين؟! الكوليرا؟ والموت يخيم على الحياة، والقبور تفوح منها رائحة الوباء.

- ونحن رجال بوليس، لا نعصى يجب ألا نعصى.

- ربنا معك ومعه.

- وقد رأينا أن نزور، لنتبرك بسيدى الذكيرى، ونقرأ الفاتحة على روح أخى جلال الله يرحمه.

- وروح أبيك.

- وروح أبى، غفر الله له، وسامحه على ما فعل.

- أبوك هو أبوك.

- وقد يكون أكثر قبولاً عند الله حتى منى!!

- مقبول أو غير مقبول، فهو أبوك.

وأقبل الضابط محمود محجوب، على نداء المأمور له، فشعرت الشيخة أن عينيه مبتلتان بالدموع وعندما صافحته شعرت بأن كفه ترتعد وأن الحرارة تبعث منها كأنه محموم.

وأمسكت بكفيه بين كفيها، ولم تدر ماذا تفعل به.

خيل إليها أن تضمه إلى صدرها وأن تقبله، فقد تحول فى نظرها فى لحظة إلى ابن لها.

وشعرت أنه يعانى من شعور غامض.

وأحست أنه قد يكون خائفا أو فزعاً من المصير المجهول، فى القبر الكبير الذى نقلوه إليه!

وتمثلت لها صورة القرين، كهذه القرافة الممتدة حولها، ونظرت إلى القبور وكانت ترتعد هى الأخرى، فقد خشيت أن تنفتح، لتبتلع أشخاصاً جداً، أعزاء عليها.

لكنها تماسكت، واكتفت بأن أسبلت عينيها. وهى تردد الدعوات لله، أن يصونهما لشبابهما، وللذين ينتظرون عودتهما، من أمهات وزوجات.

ولم يتمالك الفتى نفسه، فتحدرت دموعه غزيرة على خديه، وسبق المأمور ناجى فى طريقه إلى المحطة.

كانت دموعه تمنعه من الرؤية، فلم يهتم بالسيارة التى كانت واقفة، ولا بالجوهرى الذى كان ينتظر، فأخذ الجوهرى ينظر إليه، وينظر إلى حضرة المأمور، دون أن يدرى ماذا يفعل.

وبينما كان الضابط الفتى ماضياً فى طريقه، كان المأمور ناجى يهز رأسه فى أسى وهو يقول للشيخة:

- غريب هذا الشاب لقد امتلأ فجأة بشحنة عاطفية عجيبة؛ إنه يتأثر حتى من سلطان لقد ودعه وداعاً غريباً كاد يبكى وهو يودعه، لولا أنه تماسك.

قالت الشيخة وهى تعجب:

- هل يكون قد شعر بشىء؟ هل يكون قد عرف أنه أخوه؟

قال المأمور:

- أبداً إنه خالى الذهن تماماً من هذه الأفكار.

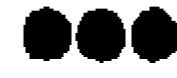
قالت الشيخة:

- وكيف سيعرف إذن؟ كيف ستقولون له؟ والله لقد صرت أحمل همه كأنه همى شىء غريب بدأ يربطنى به، هذا الشاب.

قال وهو لا يزال يهز رأسه، ويطيل النظر إليه وهو ماض فى طريق المحطة.

- يمكن الدم، إنه على كل حال أخونا، أو فى حكم الأخ.

ومضى المأمور، والشيخة تتطلع إليهما، وتتابعهما بدعواتها.



وامتلأت القرية بالحكايات.

حكايات الشيخ "أبو طاقية" من ناحية، أثارت الفلاحين، وذكرتهم بألاعيبه القديمة، وأساليبه فى الضحك على الناس.

وبدأت النساء يستعدن الوصفات التى ملأ بها البيوت، لتضمن كل إمرأة زوجها، أو حبيبها، أو ليعود إليها شبابها، فلا يملك الرجال إلا أن يركعوا أمامها.

وحكايات كثيرة عن آنية فارغة وملآنة، وألوان كثيرة تملأ زجاجات العطر والزينة، وشىء يرش كالرمل عل العتبة، وشىء يؤكل، وشىء يذبح ليرضى الأسياد.

بينما الرجل لص! لص وأفاق!

يابن الإيه!! وكنت تجبر بعض الزائغات من الفاتنات، على قراءة سور من القرآن مقلوبة! بل وكنت تضطرهن إلى أن يكتبن على اللبن! وكنت كذلك تصور لهن أن كبد

العصفور يعيد للواحدة عشر سنوات من العمر! يابن الايه!! وكنت تحيل النساء إلى سيدات لزجات، من فرط ما تضعنه على أجسامهن من الأصباغ! وكنت تلعب بعقولهن فيلبسن الطراطير ويضعن الشباشب على الرؤوس يا نجس يا منجوس!! ثم تسرق بهائم العزبة!!

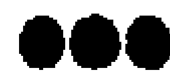
حتى العزبة لم تنج من شرورك!

وتنسى فضل هذه البلد عليك؟

عشت فيها سيداً مطاعاً، تقول فلا يستطيع أحد أن يعقب على ما تقول الأبيض أبيض، حتى لو كان فى نظر الدنيا كلها أسود!

والأعوج أعوج، حتى لو رآه كل الناس مستقيماً كالعصى الخيرزان! ثم البط والأوز والفراخ والموائد التى امتدت لك فى بيوت السادة الأعيان! والهمسات التى كانت تهمس بها فى آذان المحرومات، فيتهالكن عليك بالهدايا والأموال، والوعود التى كنت توزعها هنا وهناك، فتتساقط النساء، وينهار الرجال! كل هذا يا حيوان، ثم تسرق!!

وتسرق العزبة التى تأوى كل محتاج!!



الأرامل اللائى فقدن أزواجهن، والثكالى اللائى فقدن أبناءهن، واليتامى والمساكين وجدوا فى العزبة ملجأ يعصمهم من الحاجة والسؤال.

أنت كلب يا شيخ أبو طاقية! والكلاب هى التى تخطف الأكل من أمام الجياع! وتمضى القرية تردد عنه كيف حاول أن ينكر نفسه ينكر اسمه!! الشيخ أبو طاقية النصاب على النقطة، لولا الشيخ مختار.

أزمة يا أولاد!! الحمد لله على كل حال.

هكذا كان الشيخ مختار عندما كان يسأل وكان يضيف إلى هذا دعوات للشيخ أبو طاقية، ليهديه الله إلى الصراط المستقيم.

- والله ما يهتدى هذا اللص.

- حرام عليكم ربنا قادر على كل شىء.

- لكنه شيطان رجيم

- الشياطين أيضاً يهتدون!

وتشعر القرية أن الله يحرس العزبة أن عناية الله مع مرزوق أفندى، ولولا هذه العناية لخربت العزبة من زمان طويل النمس سرقها، لكن عناية الله كانت أقوى من النمس الشيخ أبو طاقية سرقها، لكن عين ربنا كانت ساهرة.

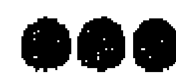
كل هذا لأن الشيخ مختار رجل مبروك، وبركة الحاج مرزوق تحرس حفيدة مرزوق أفندى.

ويقول الفلاحون فى ايمان:

- إن من يريد هذا البيت بسوء، فإن السوء سيقع عليه هو.

أين ذهب أبو سريع؟ أين ذهب الشيخ سيد الكبير الذى أفتى بارسال الشيخ مرزوق إلى الحجاز؟ أين ذهبت الست نبوية؟ كلهم طاروا كالعصافير! والشيخ أبو طاقية الذى أتوا به ليملأ مكان الشيخ مرزوق، فضح الله ستره وكشف أمره، حتى أدخله السجن لصاً دنيئاً يسطو على الآمنين فى الظلام! والنمس، ومن هو أكبر من النمس، كلهم ذهبوا، وبقى الشيخ مختار ومرزوق أفندى فى عناية الله.

وتبتل عيون الناس بالدموع وهم يذكرون هذا كله، ويحمدون الله عليه.



لكن أحاديث القرية لا تقف عند الشيخ أبو طاقية والعزبة.

القرية كانت هى الأخرى مجالاً واسعاً لأحاديث أهل القرية الطيبين، وعندما سمعوا أن المأمور وضابط المباحث قد نقلا إلى القرين عجبوا وهم يتساءلون.

– الله حتى المرض يرسلون إليه البوليس!!

– هل يخاف المرض من رجال البوليس؟!

– أم أرسلوا البوليس للمرضى؟!

– المرضى!! حتى الضعاف المساكين يضعون حولهم بوليس!!

– إيه؟! خائفون! مم؟ من المرض أم من المرضى!!

– حكمتك يا رب! أنت قادر عليهم المرضى مرضاك أنت.

– أنت أنزلت عليهم الوباء، وأنت تحميهم من البوليس.

– هل ذهبوا مسلحين؟!

– وهل معهم رصاص؟!

– وهل معهم كذلك مباحث؟!

– أم أنهم ذاهبون لحماية الأصحاء؟!

– يحمون الأصحاء ممن؟

– من المرضى!!

– من الذين يجرون أقدامهم إلى القبور!!

– أم ممن تقطعت أنفاسهم من قسوة المرضى!!

– أم من الذين فتك بهم الجوع!!

– إنهم مرضى لا جياع.

– والمرضى لا يعملون.

– والذين لا يعملون لا يأكلون!

– يا نهار أسود والحكومة؟

- تصرف الدواء.

- ولا تصرف الطعام؟!

- الحكومة تعالج.

- وليس الطعام علاجاً؟

- الطعام طعام.

- الجائع أليس كالمريض محتاج؟

- هذه ليست وظيفة الحكومة.

- آ.. بل وظيفتها أن ترسل رجال البوليس!

- إلى المرضى!

- والمحتاجين!

- لتحمى منهم الأصحاء!!

- أما حكومة!!

وينصرف الفلاحون إلى حديث القرين.

- هل هى فى مصر؟

- لا بد أنها فى مصر.

- أين يا أولاد؟ عند اسكندرية؟

- بل قرب السويس.

- على شاطىء القناة؟

- فى الشرقية.

- فى أرض عرابى!

- عرابى عرابى! وما دخل عرابى بهذا؟

- عرابى ألم يحارب الانجليز فى الشرقية؟

- فى التل الكبير.

- والتل الكبير فى الشرقية.

- والقرين هذه فى الشرقية؟

- طبعاً هناك قرب التل الكبير.

- وقد غزاها الموت على هذه الصورة؟

- للأسف نعم.

- لا بد أنهم الانجليز يثأرون من عرابى.

- عرابى مات من زمن طويل.

- مات!! لكن الانجليز لم يموتوا!

- يعنى هم الذين نشروا الوباء؟

- ومن سواهم؟

- ويجرؤن؟

- يريدون أن يدنسوا كل مكان خطا فيه عرابى!

- شىء غريب هذا شىء غريب جدا.

- ألم يأت الوباء مع جنودهم؟!

- وهل هم الذين وضعوه فى الجنود؟

-إذن من؟

- يا شيخ هذا شىء من الله.

وتظهر صورة القرين أمام الفلاحين حزينة دامعة، وبدا للناس أن القرين هذه ليست إلا قرافة كبيرة واسعة، مليئة بالحفر والتراب، وناس وجوههم معفرة وشعورهم شعثاء، يشيعون الموتى وهم أنفسهم ميتون! يعودون من القرافة، ليعودوا إليها بواحد منهم جديد! دنيا وآخرة اجتمعتا فى المكان نفسه! وأخذ الناس ينظرون إلى النخيل السامق فى الفضاء ويرتجفون يقولون البلح البلح هو الذى أتى للقرين بكل هذا المصير الحزين وكان عهد الناس بالنخيل أنه شجر مبروك، أكل منه الأنبياء والرسل وهو كذلك شجر جميل رائع، يتعالى على الناس بطوله وجماله والرطب الذى يشتهيه الناس والشعراء الذين تغنوا بك، والعشاق الذين اتخذوك عنواناً للدلال الجميل والتهادى مع نسمات الأصيل، وهذا الكبرياء الحلو، وسباطات حمراء أو صفراء أو خضراء أو سوداء تتدلى منك فى إغراء، وجريد يصلح لكثير من الأغراض، وخوص تلعب به البنات وتجدلنه ضفائر يلعبن بها، أو بضع أوان يذهبن بها إلى الأسواق كل هذا صار وباء؟! كل هذا أصبح والموت سواء؟! وما الحياة؟ ما هذى الحياة تكون، إن لم تكن فى النخيل الحلو، والبلح الحلو؟ حتى البلح صار كالجمر مخيفاً؟! حتى الرطب صار كالوحش مفترساً؟! وماذا بقى للناس!! أى أمن بقى للناس؟ إن كان الموت يتربص بين البلح والنوى، أو ربما فى نسيم النخيل، فماذا بقى للناس؟!

وضرب الناس كفاً بكف، يكادون ألا يصدقوا شيئاً مما يقال!

كل شىء فى الحياة يسير إذن فى طريق الفناء - حتى النخيل!

كل شىء فى الحياة يمضى بنا إلى القبور! حتى البلح!

هذه الحياة إذن، ليست إلا رحلة إلى الموت، أو ربما رحلة من مراحل الموت! وغلب على الناس نوع من الشؤم والتشاؤم، وهم يتلقون الأنباء كل يوم بموتى جدد، دفنوا تحت الثرى، فى انتظار موتى آخرين. صحف دياب تقول هذا، والمجلات التى يبيعها مليئة بالصور الحزينة عن جنازات دامعة، وإسعاف يذهب ويعود، وأطباء وممرضات، وكلام كثير عن نصائح وإجراءات، يجب أن تتبع حتى يقف الوباء.

- اغلسوا الخضروات حتى الفجل، بشىء اسمه برمنجانات!

- وما هذه البرمنجنات؟ شىء أنظف من ماء الترعة؟!

- الترعة!! إياكم وماء الترعة!!

- ماذا جرى يا خلق لماء الترعة؟ الماء الذى أرسله الله، والذى جعل منه كل شىء حى.

- حتى ماء الترعة أصيب!!

- الماء الجارى الذى عشنا نشرب منه، ونتطهر به، أصيب.

- ونسقى به حقولنا، وهو مريض!

- ونشرب به وهو ملوث!

- أم المطلوب أن نموت من العطش؟

- لكن صحف دياب تقول أن الماء يجب أن يطهر.

- بالبرمنجانات أيضاً؟

- لا بمواد أخرى أو يغلى.

- نشرب الماء مغلياً؟!

- يغلى، ثم يترك حتى يبرد!

وضاق الفلاحون بهذه الحياة التى لم تعد تطاق نأكل بالبرمنجانات! ونشرب بالكيمياء! ونتزوج بالبطاقة! وندخل بيوتنا نتلفت حولنا، وننظر إلى ماء الترع والرياح، ولا نمد إليه أيدينا!

الدنيا صارت مقبرة كبيرة يا أولاد.

بل المقبرة أرحم على الأقل المقبرة مقبرة، إنما الدنيا لا هى دنيا ولا هى مقبرة!

وذهبوا إلى العمدة يسألون.

- ما هذه البرمنجانات يا عمدة؟

- شيء مجروش فى حبات، يذيبونها فى الماء، لتجعل لونه أزرق غامقاً، ليطهروا به أيديهم والخضروات قبل أكلها.

- والعيش يا عمدة؟ نبلله بالبرمنجانات؟

- لا يا أولاد العيش طاهر.

- والخضروات نجسة؟!

- ملوثة لا نجسة.

- يا عمدة هذا آخر زمن آخر زمن.

ولم يستطع العمدة أن يعطى أو يأخذ معهم كثيراً. إنه هو نفسه كان ضيقاً بالحياة كل شيء من حوله أسود وتعس ومنحوس الحوادث التى تجرى فى البلد، "والعمل" "والوصية" وسلطان السجين، وأمه التى ستجن، والخناق الذى لا يخفت ثم تقولون القرين!! أيضاً القرين!! كأنما كان ينقصنا شيء اسمه القرين، لتكمل!!

وعندما لم يجد أهل القرية عند العمدة ما ينفع أو يشفع، ذهبوا إلى الشيخ مختار، فسمعوا منه، ودمعت عيونهم وهم ينصتون إليه.

لا يا أولادى، إن الله يقدر ويلطف، صحيح كله من عند الله لكن الإرشادات والنصائح أيضاً من عند الله الدواء والطبيب من خلق الله، ومن الكفر بنعمه ألا نستعمل ما خلقه أى والله كفر والوباء امتحان يمتحننا به المرض محنة يبتلى الله بها الناس هذا شيء يخففه أن الدواء موجود، والطب موجود، والبرمنجانات موجودة ما عيب أن نغسل بها أيدينا وأطعمتنا؟! هذه وقاية، والوقاية علاج، والعلاج تكريم للحياة، والتفريط فى الحياة كفر بالله صاحب الحياة، إنما المحافظة عليها تكريم لها، وهذا التكريم دليل على الايمان بالله، وعلى احترام ما خلقه الله كيف تشكر الله إن لم نحافظ على الحياة التى منحها لنا؟

وارتاح الناس، وبكوا من التأثر.

قال الشيخ مختار:

- المسجد اشترى لكم البرمنجانات. هذا من فضل الله ومن خيركم، كل من يريده سيجده هنا إن العبادة ليست الصلاة وحدها، ولا الصوم وحده العمل عبادة المحافظة على الحياة عبادة.

وظهرت للفلاحين بين غشاوة الدمع صورتان:

المأمور ناجى، وضابط المباحث محمود.

وشعر الفلاحون أنهم بدأوا يحبونهما. إنهم يخافون عليهما، لا يهم الآن أنهما بوليس، أو مباحث، أو ما يكونان المهم أنهما يواجهان المحنة، فى بلد المحنة.

وقال كل فى نفسه:

يا رب، استر يا رب يا رب نجهما من الخطر يا رب احفظهما لشبابهما، يا رب.

وأخذت القرية الطيبة تنظف نفسها. البرمنجانات ملأت البيوت والوقاية صارت أساساً فى حياتها. لا أكل قبل غسل المأكولات جيداً، ولا عيب فى غسل الأيدى بالبرمنجانات بعد التجمعات، حتى لو كانت صلاة الجمعة وأخذ الشيخ مختار يهتم بتوجيه النصيحة فى دروسه وخطبه وأحاديثه مع الناس الست راضية كذلك أخذت تردد ما تسمعه من الشيخ بين الريفيات، وعندما سئلت الشيخة تفيدة عن هذا الضيف الثقيل الذى ينزل كالقدر على بلدنا، عن طريق القرين، دعت للناس بالنجاة من الخطر.

قالوا لها: هذا غضب من الله، فاسغفرت الله العظيم وهو تقول:

بل رحمة منه سبح إنه وتع إلى ورددت: إن ما يصيبكم من خير فمن الله، وما يصيبكم من شر فمن أنفسكم وأخذت الشيخة تشرح لزوار الضريح أن الله لا يريد بالناس الشر. إن الله خير، أما الشر فمن الناس، ولو أن الناس طهروا أنفسهم وراعوا الله فى سلوكهم لما انزلقوا إلى السوء.

وعند محطة السكة الحديد، كانت قهوة المعلمة والدكاكين وحلقة السمك مليئة بأخبار القرين وكان أعيان الناحية يذهبون ليعرفوا أخبار الوباء هل يزال محصوراً فى القرين، أم أنه إمتد إلى بقية أجزاء البلاد؟ وكان القرويون يسألون وهم خجلون من أنفسهم ومن السؤال:

- وما ذنب القرين، حتى تتحمل وحدها هذه النكبة؟

أليست القرين بلداً من بلاد ربنا؟ من بلاد بلدنا؟

أليس أهلها ناساً مثلنا؟ فلاحين مساكين، شقق الحفاء أقدامهم، ومزق الجوع بطونهم؟

ما ذنبهم، ليتساقطوا وحدهم، واحداً بعد واحد، ولا تودعهم حتى الدموع؟ أم أن جفون الناس هناك قد جفت، فلم تعد قادرة على أن تدمع؟ لم يعد فيها مكان للدموع! ثم ماذا يبكون؟ يبكون الذين يذهبون أم يبكون مصيرهم الذى ينتظرون؟ مساكين!!

ونتركهم يا ناس؟ نتركهم وحدهم؟

يقولون أنه وباء كالقضاء، كالفناء!

ويقولون أنه يسرى مع الهواء، فى الفضاء!

ويقولون أنه ينتشر كألسنة اللهب، فى مهب الريح، إذا انطلقت من معاقلها، فكل شيء تراب!

اذن نتركهم!! نؤثر الراحة والحياة، ونتركهم!! وهل هذه من شهامة بلدنا؟! ننجو بأنفسنا، وليحترق الآخرون؟؟

لكن هل نحن الذين أحرقناهم؟ وباء هبط عليهم من السماء، فهل نذهب لنلقاه معهم، وبدلاً من كارثة واحدة، تصبح الكارثة كارثتين؟!

هل هذه هى شهامة بلدنا؟ هل من الشهامة أن تلقى بلدنا بنفسها فى التهلكة، على عكس ما أمر الله؟!

الله أمر بالتآخى والتعاون.

لكن الله نهى عن أن يلقى الناس أنفسهم فى التهلكة.

حجة أنتم تتلمسون الحجة، لتهربوا بجلدكم!

وكانت المعلمة تتدخل فى هذه المناقشات، وهى تغلى كانت تصيح فى الرجال: ناس من دمنا يتساقطون كالفراخ، ولا نمد لهم أيدينا!! يا خبر يا ناس انتهينا، هل إنتهينا فلم يعد فينا دم يحرك عروقنا لنساعدهم؟! وكان الرجال ينضمون إليها متحمسين الفلاحون وأهل المنيرة الذين أتوا معها ليديروا القهوة والدكاكين، والصيادون، كل هؤلاء كانوا يشاركون المعلمة حماستها حتى النساء كن معها، دياب وأبو اليزيد الحمار، والجوهرى كانوا فى مقدمة المتحمسين نذهب إليهم آ..ه.نذهب إليهم نعمل لهم أى شىء.

- لتأخذوا كوليرا؟! لتموتوا مع الميتين؟!

- بل لندفع عنهم الداء.

- لستم أنتم القادرين على دفع الداء.

- بل قادرون.

- بل عاجزون.

- بدمنا قادرون.

- ليسوا فى حاجة إلى دمكم. إنهم فى حاجة إلى دواء وطعام. وممرضين.

- نداويهم.

- ليس بالكلام يكون الدواء، ولا بالحماسة.

- أرسلوا إليهم الطعام والأغطية، وأنتم بعيد.

وكان المعلم بيومى الصايت هو الذى يصد هذا التيار، وكان يقول للمعلمة: ماذا يكسبون بأن يموت معهم آخرون؟ ماذا تكسب البلاد من مزيد من الضحايا؟

وكانت تصيح فيه: بل ماذا تكسب بمزيد من العاجزين؟

وكان المعلم بيومى يقول لها: العاجزون اليوم قد يصيرون قادرين فى غد، أما أن يموتوا من اليأس، فذلك أسوأ ما يصيب الحياة. إنهم بهذا يخدمون أعداء الحياة.

لكن المعلم بيومى، كان يعجز عن مواجهة الشيخة، عندما كان يذهب إلى الضريح، ليدخل فى زى الشيخ عبد الرءوف، أو ليبدو على طبيعته، "ممدوح الأعرج" بلا زى يدخل فيه، ولا اسم يتخفى وراءه كان يجدها ساهمة، شاردة، غائبة عن الدنيا وعن الناس، وحتى عن ابنها الصغير!

- ماذا دهاك يا مديحة؟ فيم تفكرين؟

- قلقة عليهما، خاصة محمود شىء فى قلبى يحدثنى أنه فى شدة.

- لا تخافى، واتركى الأمر لله سبحانه وتعالى.

- إنى أتركه لله، لكنى مع هذا مشغولة عليه، أنام فأحلم به وأصحو فأراه أمامى وجهاً لوجه كأنه واقف هناك عند قبر جلال يمسح دموعه.

لماذا كان واقفاً هناك؟ هل عرف شيئاً؟ هل شعر بشىء؟ أم أن شيئاً خفياً - كالذى يدور فى نفسى الآن - قد حرك مشاعره دون أن يعرف؟!!

وكان ممدوح يقول لها: يا شيخة صلى على النبى سترين أنك تبالغين.

وكانت ترد عليه: أبداً يا ممدوح، سترى أنت أن شعورى صادق، وأن شيئاً غير طبيعى يربط ما بين هذا الفتى وبينى!!

وبينما هما كذلك، كان أبو عوف الصغير يبحث لنفسه عن لعبة يتسلى بها، فأخرج من مخزن الشيخة الأوراق والأمانات.

ومع هذا لم يجد اللعبة التى يبحث عنها.

وصاحت به أمه تسأله ماذا يريد، فأجاب أنه كان قد أخفى كرة صغيرة هنا، لكنه لا يجدها.

ودخلت تبحث له عنها.

لكنها غابت، فلما طالت غيبتها صاح ممدوح يستفسر عن سر هذه الغيبة.

وصاحت مديحة من داخل الخص صيحة يائسة:

ضاعت مرة ثانية الوصية ضاعت مرة ثانية يا ممدوح.

ولم يصدق ممدوح، فأسرع إليها، فوجدها قد جلست على أرض الخص، وقد بدت فى ذهول أخذ يبحث هو الآخر، لكن دون جدوى كل هذا وأبو عوف الصغير ينظر إليهما فى براءة، لا يدرى ماذا يريدان. وكان يعجب وكلاهما يسأله: الم تأخذ شيئاً من هنا؟ وكان يهز رأسه ينفى عن نفسه هذه الشبهة، وهو لا يدرى سر هذا الاهتمام.

وخرج ممدوح، وأسرع إلى عم "أبو المكارم".

وهناك عند الساقية، وجده كالعادة خلف الثورين، وفى يده فرع من شجرة الصفصاف يضرب به الهواء، يسلى نفسه، ويستحث الثورين ولما رآ..ه قادماً وقف يبتسم له.

لكن الشيخ لم يكن مبتسماً، إنما هو قادم إليه وقد كشر عن أنيابه.

- بسم الله الرحمن الرحيم ماذا جرى؟

لكن الشيخ لم يرد، وإنما اتجه إلى بطن الصفصافة يفتش عما قد يكون بداخلها وأسرع إليه أبو المكارم يسأله، فلما عرف أن الوصية ضاعت، فقد أعصابه، وأخذ يولول ويصيح، فيما يشبه العواء، أو النباح، أو الزئير.

وترك أبو المكارم الشيخ، وذهب إليها، ليضمها إليه ويقبلها، ودموعه على خديه.

- ضاعت منى الوصية يا عم "أبو المكارم" سرقوها "ثانى"!

- "المرة الجاية" يخطفون ابنى.

- والمرة الثالثة، يقتلوننى.

- شيء غير مفهوم وراء هذه الألاعيب.

- ماذا أقول يا عم "أبو المكارم"؟ سلطان؟ سلطان محبوس.

- ماذا أقول غير هذا؟ النمس؟ وماذا بينى وبين النمس؟

- أنا خائفة يا عم "أبو المكارم".

صوته الصوت الذى اعتاد أن يخترق الحجب إليها، جلجل فى أذنها يقول:

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

ونظرت إلى ممدوح، ونظر إليها ممدوح.

قال ممدوح: سمعت؟

قالت: إنه يتحدث عن الأولياء.

قال: وأنت منهم.

قالت: عيب يا ممدوح نعملها ونصدقها؟!

قال: لكى يصدقها غيرنا، يجب أن نصدقها نحن.

قالت: يعنى أنت أيضاً ولى أنت الشيخ عبد الرءوف؟

قال: لا بد أن أكون.

قالت: يا ممدوح.

قال: الشيخ سيد يكذب!! حتى هو يكذب!

وعاد الصوت يجلجل فى الفضاء:

- الخوف من الجوف.

والشجاعة قناعة.

وربنا فوق، ورحمته فوق.

لا خوف نافع، ولا شافع.

وكله منه، وكله إليه.

وعاد ممدوح ينظر إلى الشيخة ويقول: سمعت؟

قالت: نعم سمعت ثم ماذا؟

قال ممدوح: تطمئنين هذا شيء يطمئنك.

قالت الشيخة: أبداً من اليوم سأذهب للست راضية سأبيت عند راضية إنما هنا في الخلاء، وليس معي إلا ابني هذا الصغير، حتى عم "أبو المكارم" لم يعد كافياً أنا هنا في خطر. أي والله في خطر هذه الوصية أتت لي بالنحس يا ليتني أعطيتها للعمدة! كنت ارتحت. لكنها الأمانة! إنها أمانة! إنها مسألة أخلاق!! اشربي يا بنت من الأخلاق!! ادفعي للأخلاق! تحملي في سبيل الأخلاق!!

ولم يعقب ممدوح على هذا الحديث كان يعلم أنها تعاني حالة شديدة، وأنها خائفة على نفسها، وعلى ابنها، وأنها محتاجة لا شك لبضعة أيام تستريح نفسيتها خلالها لتستأنف حياتها بعد أن تكون قد تخففت من هذه الأثقال المزعجة.

وذهبت الشيخة إلى البلد وكالعادة، رحبت الست راضية بها ترحيباً شديداً وأخذت منها الصغير، لتقبله في حب واعزاز ولم تسألها عن شيء، فإن الشيخة اعتادت على أن تزورها بين الحين والحين، وكانت تبيت عندها في بعض الليالي، دون أن تحتاج لتبرير أو لتفسير. إن الست أم راضية قد حطمتها الصدمة على زوجها، لكنها لا تزال قادرة على الابتسام والترحيب بالشيخة، والتحدث معها عن الشيخ مرزوق والكلام الجميل الذي كان يردده، وعن الشيخ "أبو عوف"، وعن البركة التي حلت بالبلد منذ هبط عليها وأقام عند سيدي الذكيري.

ولم تمض على ذلك أيام.

وفوجئت القرية ذات صباح، بعودة سلطان.

سلطان بن الحاج غضبان عاد ترك النقطة وعاد!

وأدار الناس وجوههم، كل منهم للآخر يسأله: كيف عاد؟

وعمد سلطان أن يكون أكثر صلفاً وغروراً ذهب إلى أمه، فأخذته بالأحضان، وانطلقت من بيتها الزغاريد، ووزعت أكواب الشربات.

أما القرية، فقد نظر كل من فيها إلى الآخر يسأل مرة أخرى: هل يشرب الشربات، ابتهاجاً بعودة الغائب؟ أم أن شرب هذا الشربات مكروه؟!

- ناس يوزعون الشربات نشرب معهم!

- دون أن ندرى لذلك سبباً!

- بل نحن ندرى الغائب عاد!

- عاد من الحجاز!!

- لا يهم! عاد والسلام!

- إنه عائد من النقطة، حيث كان محبوساً!

- ربما كان مظلوماً!!

- والثوران اللذان رأيناهما بعيوننا!

- واللصوص الذين سرقوهما!

- والرجلان اللذان حلا محل الثورين فى الساقية!

- هل كل هذا ظلم؟!

ولم تدر القرية كيف تتصرف، ولا ماذا تفعل قال فريق نفعل ما يفعله العمدة، لكن فريقاً آخر قال: العمدة منهم صحيح إنه واحد منا، ونحن الذين اخترناه، لكنه صهرهم، ولهم عليه واجب لا تحملوا العمدة ما لا يحتمل.

وقال فريق:إذن نقتدى بالشيخ مختار.

وذهبوا إلى الشيخ فى الجامع، فلما فرغ من الصلاة ودرس العصر، سأله الناس: ماذا نفعل يا مولانا؟ هل نذهب إلى بيت سلطان، ونشرب الشربات مع الشاربين؟ أم أن هذا حرام؟

قال الشيخ:

- شرب الشربات ليس حراماً يا أولاد.

قالوا:

- لكنه يوزع بمناسبة عودة سلطان.

قال الشيخ:

- وعودة سلطان ليست حراماً يا أولاد.

قالوا:

-إذن لا ضير فى أن نشارك فى الابتهاج بعودته.

قال الشيخ:

- اسمعوا يا أولاد، انى أعرف ما يدور بخلدكم انكم متحرجون ومترددون.

قالوا:

- وخائفون.

- وسألهم الشيخ:

- مم تخافون يا أولاد؟

قالوا:

- من الله ومن ضمائرنا.

قال الشيخ:

- فاذا لم تذهبوا هل ينصلح الحال؟ أم أن "سلطان" يزداد شراً، ويزداد خطراً؟

قالوا:

- يعنى نذهب إليه؟

قال:

- إلا إذا كنتم تخافون من شيخ الخفر لكنى أعرف أن قلب شيخ الخفر طيب، وأنه لن يقابل ذهابكم بسوء ومع هذا فالأجدى أن يكون معنا سأذهب أنا كذلك معكم سنمر جميعاً على شيخ الغفر، ثم نذهب كلنا إلى سلطان.

وشعر أهل القرية بالراحة شىء ثقيل على قلوبهم انزاح إذا كان الشيخ مختار نفسه معهم، فذلك لا شك حلال وواجب.

آ.. واجب! واجب علينا كلنا.

هل سلطان غريب إنه أحدنا، ابن الحاج غضبان، سيد من أسياد هذه البلد، وعين من أعيانها. هبوه أخطأ، فهل نتركه؟ هبوه أساء، فهلا تزول الإساءة؟! طيش إنه لايزال طائشاً.

وداعب الناس أمل، أن تؤدى هذه المعاملة الكريمة إلى خير البلد كلها.

وداعب الناس أمل، أن تؤدى هذه المعاملة الكريمة إلى خير البلد كلها.

وتردد فى سمع الرجال وهم يسيرون خلف الشيخ أن الاحسان إلى شخص يصلحه، وأن الخطأ لا يصلحه دائماً العقاب التسامح يصلح فى بعض الأحيان.

وتمنى الناس أن ينصلح حال سلطان بن غضبان.

وفى فيض من التمنى وصل الشيخ مختار والرجال معه إلى منزل شيخ الغفر ولم يطل الحديث بينهما، هى إلا كلمات حتى انضم شيخ الغفر إلى الجمع الذاهب ليشرب شربات عودة سلطان، ويهنئه بسلامة العودة إلى بلده وبيته وأهله.

لكن كل واحد من الرجال كان يسأل نفسه: ماذا لو فتح موضوع الثورين، واللصوص، وطلقات الرصاص، وفرج النمس؟!

وقال كل نفسه: ليت حديثاً حول هذا لا يدور.

- فإن دار؟

- آ.. عندئذ نطلب منه أن ينسى ما فات، وما فات مات!

- آ.. نحن أولاد اليوم لماذا نفتح سيرة الماضى، ونقلب صفحاتها؟

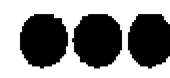
- آ.. والمهم أنك عدت، والعود أحمد.

وبين أخذ ورد، كان الجمع قد وصل إلى دوار الحاج غضبان، وهناك كان سلطان جالساً فى المندرة وحوله عدد من أقاربه الصغار، الساق على الساق، والنرجيلة ملتهبة، ونفس يدخل ونفس يخرج بدخان كثيف، والشاى موجود، كوباً بعد كوب، وكلمات كثيرة للثأر تتردد، وتهديد صريح يقال، وسب وشتم وقلة حياء يتصايح بها الأولاد الصغار عن البلد والفلاحين والغفر وشيخ الغفر! حتى العمدة لا يستثنيه أحد من هذا السباب!

وفجع الناس عندما سمعوا هذا الكلام.

كانوا قد أرسلوا يستأذنون.

نعم يستأذنون يا إيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى يؤذن لكم.



لكن بدلاً من أن يخرج صاحب البيت لاستقبال الناس، والإذن لهم بالدخول، سمع رغبتهم فى الدخول وكأنما لم يسمع شيئاً! ومضى يشد نفساً وينفخ نفساً، ويشرب كوب الشاى فى تأن بطىء، والأولاد حوله يسبون، وهو يضحك بأعلى صوت يستطيع!

الشيخ مختار دار حول نفسه كأنما الكلام آت من حيث لا يدرى! ومدبولى شيخ الغفر، تلفت حواليه! أصحيح ما يدور!

وظل ما يدور يدور، كأنما يريد سلطان أن يصل هذا الكلام إلى جموع الناس خارج الدوار!

والفلاحون المساكين تاهوا بين شيخ الجامع وشيخ الغفر ونظروا فى سذاجة ينتظرون الرأى والمشورة.

ولم يكن لدى أحد رأى أو مشورة، فساد الصمت، والسباب يخترق الفضاء إلى الناس كالسهام المسمومة.

ثم خرج سلطان، وأطل عليهم فى كبرياء.

وقبل أن يهم الشيخ مختار بحديث صاح يقول:

- نعم؟ ماذا تريدون؟

ولم يجب أحد! حتى الشيخ مختار لم يجب! الكلمات جمدت فى حلقة فلم يجب ونظر سلطان إلى مدبولى شيخ الغفر وقال:

- بهائمك رجعت لك فيم حضورك؟ ماذا تريد؟ تريد أن تقبض على مرة ثانية؟ تفضل قلت تفضل اقبض على، أو "انجر" من أمامى!

ثم نظر إلى الناس وقال فى غرور:

- وأنتم يا بهائم صحيح. سيد ابن عمى عنده حق كلكم بهائم بهائم ربنا أيضاً بهائم.

وضحك ضحكة طويلة ثم عاد إليهم يقول:

- والله والله والله ثلاثاً، لأرينكم النجوم فى عز الظهر.

وشعر الشيخ مختار، أن موقفه أصبح موقفاً غريباً، وأنه ضل الطريق إلى غايته.

لكنه عاد ـ قبل أن يفلت منه الزمام ـ يقول لنفسه:

- حكمة ربنا هذه حكمة ربنا هل تعترض على حكمة ربنا؟

وأدار الشيخ ظهره لسلطان، فأدارت القرية كلها ظهرها له، وعاد من حيث أتى.

لكن المرارة التى عاشت القرية عليها بعد ذلك كانت فوق ما تحتمل لقد عمل سلطان إلى أن يتصرف تصرفات غريبة.

كان يسب القرية علانية، وبأعلى صوته، وهو يمر بطرقاتها.

كان يجمع حوله عدداً من الرقعاء الصغار من أقاربه، ويسير بهم وفى يد كل منهم كرباج، يهدد به الفلاحين المساكين دون حياء.

وكان يذهب إلى الحقل، ويصر على أن يكون دوره فى رى أرضه أى دور، وكان يرفض أى كلام فى هذا أو مناقشة.

وكان يعتدى علانية على محاصيل الناس ينهب ما يشاء كما يشاء، بلا حساب لأحد.

كل هذا تحملته القرية كارهة.

لكن الشىء الذى لم تتحمله، أن يقيم وليمة للرقعاء من أقاربه، ولأشقياء الناحية، ويستقدم لهم غازية من كفر الزيات، بينما القرية حزينة على واحد من الفلاحين البسطاء قد اختاره الله إلى جواره.

مأتم هنا، ووليمة هناك!

دمعة هنا، وقهقهة هناك!

ناس يحزنون، وآخرون يسخرون من هذه الأحزان!

- لا يا عمدة هذا كثير!

وأجاب العمدة أنه مع الناس، وأنه مستعد لأن يذهب مع الغفر وأهل القرية، لطرد هؤلاء الرقعاء.

لكن الشيخ مختار نصح الناس أن يتركوا الخلق للخالق.

وقال الشيخ فى سماحة:

-إذا كان واحد قد فقد الكرامة، وأزاح عن وجهه برقع الحياء، فهو المذنب، ولا يجوز أن يجرنا إلى خطأ كالذى يقترفه. سلوكه خطأ، لكن الاعتداء عليه، وعلاج الخطأ بخطأ.. خطأ.

وسأل الناس:

- يعنى نتركه يا مولانا، يهزأ بنا؟

قال:

- يهزأ بنفسه، لا بكم ها أنتم مع أهل الميت تسمعون القرآن الكريم، فهل قصرتم فى شىء؟ هو الذى قصر دعوه لجزائه العادل.

وسكت الناس بغير اقتناع سكتوا طاعة للشيخ الجليل وامتثالاً لنصائحه، لكنهم كانوا يغلون فى داخلهم كانت الضحكات المعربدة تصل إلى آذانهم، فتختلط بآيات الذكر الحكيم، فتتمزق نفوسهم وهم يشعرون بالاهانة للميت ولهم ولكتاب الله.

ونقل واحد من أهل القرية ما يقال إلى سلطان، زلفى إليه.

وهب واقفاً، وهو يصيح:

- الشيخ مختار حتى الشيخ مختار! يقول عنى هذا؟

وأقسم ليؤدبنه فى التو والساعة.

لكن أقاربه وأصدقاءه تحايلوا عليه حتى هدأ، فجلس يفكر فى طريقة يؤدب بها الشيخ مختار.

وفجأة صاح:

- سأذهب حالاً إلى الساقية، وسأديرها لتغرق مياهها الحديقة هذا وقف الجامع! شىء لله يا جامع! ينفعه الآن لسانه النجس! سأخرب بيته! سأغرق الحديقة التى يعيش منها الجامع! تتاجرون باسم الجامع! طيب أنا وأنتم والزمن طويل.

وحاول أقارب سلطان أن يثنوه عما اعتزم، لكنه أصر اصراراً شديداً عندئذ اقترح أهله وأصدقاؤه عليه أن يبقى هو، وسيتولون هم الأمر.

وعندما ذهب الصغار الرقعاء إلى الساقية، لم يجدوا أحداً هناك.

الساقية كانت تستريح! كل البلد كانت قد روت أرضها، ولم يكن هناك حقل عطشان.

حتى "أبو المكارم" كان فى الخص كالساقية يستريح! إنه فى الخص يجد راحة نفسه وقلبه.

وبرغم الأحزان والهموم التى يشعر بها هناك، إلا أنه مع هذا يستريح الحزن أيضاً شىء يريح!

الدموع تريح ليس شرطاً أن تدخل البهجة قلوب الناس ليستريحوا! قد لا تكون البهجة مريحة الابتسامة أيضاً قد لا تريح كما تريح المأساة!

وأبو المكارم فى الخص، يشم أنفاسها كانت هنا كانت تتنفس هنا كانت تنام هنا وهنا أيضا كانت تحلم وكم ضحكت هنا، وكم عبثت، وكم لعبت، وكم تشاجرت، وكم احتقنت وجنتاها وهى تدمع وأمام الخص كانت جلستها ترقب أباها، أو تلعب مع أختها، أو تنتظر أمها وهى تئوب من السوق البعيد.

رائحتك يا تفيدة حلوة وأنفاسك يا تفيدة معطرة وأنت هنا وهناك، وفى كل ركن وفى كل مكان وجهك يطل من بين ثنايا الخوص، وعيناك تنظران من كل ثقب، ومن كل ركن.

ياه! هل كان لا بد أن تموتى!!

وينحنى الرجل الأخرس على أرض الخص، يكاد يقبل كل شبر فيه.

وما كان يدرى أن شقياً قد اختلس لحظات الذكرى هذه، ليملأ أرض الحديقة بالماء، فتغرق.

لكنه فى جلسته تلك من الخص، شعر أن الماء يزحف نحوه كالطوفان!

ماذا وما هذا؟ الماء هناك فى الرياح، والرياح بعيد، وبين الرياح وهذا الخص، جسر عال يمنع الماء ثم ساقية تستريح، بلا ثورين ثم هذا اللسان الطويل من أشجار الفاكهة: حديقة سلطان، التى صارت حديقة الجامع!

وحاول أبو المكارم أن يبعد عنه الوسواس، فألح عليه.

أيكون حادثاً آخر؟ ثوران رجلان، أو رجلان ثوران آخران!

لكن لا بد من ماذا؟! المرة الماضية، كان الرجلان يحلان محل ثورين سرقهما اللصوص، لكن هذه المرة، لاثوران، فماذا يسرقان؟ يسرقان الهواء؟! يسرقان الساقية؟! يسرقانك أنت؟!

وظل الوسواس يطن فى أذنيه، كالذباب، يبعده فيعود.

وهم من جلسته ليرى ماذا يحدث، وما هذا الماء الزاحف عليه.

وكانت مفاجأة مذهلة لقد رأى أبو المكارم الحديقة قد غرقت تماماً الماء صار فيها شبرا، وما كانت فى حاجة إلى ماء ولم يخطر بذهنه أن الساقية هى مصدر الماء أبداً، لا بد أنه جسر الرياح قد انقطع، فأغرق الحقول.

وجرى أبو المكارم دون انتظار.

لكنه لاحظ وهو يجرى على حافة القناة التى تفصل الحديقة عن بقية الزمام، إن الحقول التى عن يمينه جافة، لم تغرقها المياه.

يعنى الرياح قطع هنا، عند الحديقة فحسب؟! جائز!!

ومضى يجرى حتى وصل جسر الرياح.

فلما وصل، وسمع من بعيد صوت الساقية تدور! عجب، فإنه يعلم أن أحداً لا يدير الساقية! لكنه رأى بعد ذلك ما لم يكن يخطر له على بال.

فتيان، ثيران! تماماً كالرجلين الثورين، اللذين كانا يجران الساقية هذه المرة حل عدد من الفتيان محل الرجلين اللصين وكانوا يتشاتمون ويتضاحكون ويتمايلون ويتبادلون جر الساقية، فى عبث غير مفهوم.

واخترقت الألفاظ بينهم طبلة أذنيه، كالرصاص المسموم.

- هيا لا تسكت جر يا ثور.

- لا بد من أن نقضى على الفاكهة.

- لن تستطيع يا بنى.

- أنت لا تعلم شيئاً هذا الماء سيقضى عليها.

- من قال لك؟

- وأنت من قال لك عكس هذا؟

- الفاكهة ستعود!

- بقرعة؟ أم أنها تعرف العوم؟

- على مخدة من جريد النخيل.

- يا خى! سنربطها فى حجر ليشدها إلى القاع

- مثل تفيدة.

وهنا لم يستطع أبو المكارم أن ينتظر.

الساقية تدار بهولاء الرقعاء المجانين، والماء يملأ الحديقة ليقضى على الشجر، وهؤلاء الفتيان يتعابثون، لا يحسون أو يشعرون! ثم هم أخيراً يتطاولون! وعلى من يتطاولون؟ على القدس المقدس الحرام!

وهجم أبو المكارم عليهم بيديه، وهو يصيح.

وبغير انتظار أو ترتيب، أخذ يضرب هنا وهناك، لا يدرى من هذا، ولا من ذاك كلهم رقعاء، وكلهم أعداء، وكلهم يتواقحون على الذكرى الحبيبة المقدسة.

وما شعر، إلا أنهم يجرون أمامه كالنعاج، وهذا يمسك قفاه، والثانى يتأوه وهو يعدو، والثالث يسند رأسه على كفه، والرابع يتوجع مما أصابه.

وهو خلفهم بيديه ورجليه، وصيحات لا تنقطع، كأنها عواء الذئب أمام فريسته، لا تعرف إن كان عواء فرحة بما نال، أو حسرة على الفريسة تتمزق تحت عينيه.

شىء واحد أوقفه، فلم يعد وراء هؤلاء العابثين.

أبو عوف الصغير سمعه فأسرع إليه.

مديحة كذلك سمعت صوته فراعها عواؤه.

ممدوح أيضاً كان هناك، فى زى المعلم بيومى، فما استطاع صبراً على هذه الصيحات، وجرى ليرى.

كان أبو عوف أسرعهم إليه، فأمسك به بين يديه، وأخذ يضمه إلى حضنه وعيناه تدمعان! فلما أسرعت الشيخة تفيدة، هالها منظره وهو يبكى وجاء المعلم بيومى، فأخذ يسأله: ماذا حدث؟ ماذا جرى؟ لماذا تبكى يا عم "أبو المكارم"؟

وأشار أبو المكارم إلى الساقية و إلى الحديقة، ودموعه على خديه.

إن الصوت كان مفزعاً فأسرع إلى الساقية كذلك العمدة وشيخ الغفر وعدد من الرجال، وعندما تجمعوا حول "أبو المكارم" كانوا قد سمعوا القصة على أفواه الناس بصور مختلفة:

- غرقوا الأرض كلها!

- "راح المحصول" "رحنا وراح" المحصول!

- وقتلوا "أبو المكارم".

- يا نهار أسود ماذا يبقى لنا؟

- الشيخ أبو عوف ضيعه الانجليز!

- وهم ضيعوا "أبو المكارم"!

- والشيخة تفيدة "ولية" ضعيفة الحلية.

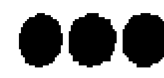
- و "أبو عوف"، "برضه" ولد صغير!

- يا سيدى يا ذكيرى، إلى متى؟

لكن مخاوف القرية تبددت، حينما تجمعت عند الساقية، ورأت "أبو المكارم" جالساً على حافة الساقية، وكان محتقن الوجه، دامع العينين!

واهتز الناس وهم يتطلعون إليه، ولم يملكوا أنفسهم فشاركوه البكاء.

لم يسأله أحد شيئاً، حتى العمدة! ولم يتحدث إليه أحد بشيء، حتى الغفر! وفى صمت، وبغير كلام، انتقل الأسى منه إليهم، فوضع كل منهم وجهه بين كفيه، يدارى الدموع التى تحدرت على خديه!



العمدة نفسه كان يبكى! مدبولى، شيخ الغفر كان يبكى!

الشيخة تفيدة، المعلم بيومى، الشيخ مختار كلهم كانوا يمسحون عيونهم فى هدوء، وفى حلق كل منهم غصة تمنعه من الكلام!

الناس الذين يعيشون عند المحطة، جاءوا أيضاً.

المعلمة وردة جاءت تجرى، فى شهامة رجال، وحولها دياب، وأبو اليزيد، وأم الشحات، ومرزوق، ومحروس، وجلال أخو سالمة، وخضرة الحلوة يجرى وراءها جلال ابن المعلم بيومى، ومعهم رجال كثيرون وأطفال، ونساء صغيرات.

لقد سرى بينهم نبأ أن "أبو المكارم" مات قتلوه فما ملكوا أنفسهم من الإسراع إليه، وهم لا يعرفون ماذا يعملون: يسخطون! يثورون! يولولون! يثأرون! يسكتون! يتصايحون! وشعروا أنهم يسرعون إليه فى غير تردد من يدرى، فقد يكون فى شدة لكن أى شدة؟ ألا تقولون مات! ألم يقتلوه؟ لكن أحداً لم يستطع أن يعرف شيئاً قتلوه أو لم يقتلوه، مات أو لم يمت، هذا شىء، وإسراعهم إليه شىء آخر. إنهم يشعرون أن عليهم أن يسرعوا إليه يسرعون والسلام وسواء كان فى شدة، أو فى رحمة الله، فذلك لا يمنعهم من الجرى إليه.

وعندما اقتربوا من الساقية، وهم بعد شريط مستطيل أسود على جسر الرياح، أخذوا يسألون كل من يقابلون:

- قتلوه؟

- لا!

- دفنوه؟

- لا!

فكانوا يسرعون، والقلق واللهفة واللوعة، تملك مشاعرهم جميعاً.

وكالموج الصاخب، يتكسر عندما يتلاقى مع الشاطىء، كذلك هم عندما صاروا جزءاً من هذه الجموع من أهل القرية.

المعلمة وحدها شقت الجموع إليه، كالسهم.

وعندما وصلت إليه، انحنت عليه ووضعت رأسها على رأسه فارتفع نشيجه، وارتفعت شهقاتها، وشعر الصغير "أبو عوف" أن عليه أن يبكى معهما، فتكون من هذا الخليط صوت غريب، كأنه الريح تعصف بالشجر! أو الساقية تنوح! أو الديكة تتصايح بالنجدة من خطر داهم!

وظهر الفتيان الثيران، من الرقعاء على جسر الرياح، وفى مقدمتهم سلطان.

وإشرأبت الأعناق.

كل القرية عرفت القصة، وأدركت أنهم هؤلاء، الذين أغرقوا الحديقة.

وكانوا قد ذهبوا إلى سلطان، يقولون له أن كل شىء قد تم، فقابلهم بالسخط والغضب والثورة.

- أنا لم أطلب منك أن تقتلوه!

- ونحن لم نقتل أحداً.

- ستقضون علينا كلنا.

- لماذا يا سلطان؟

- القرية اشتعلت ستحرقنا نار الغضب.

- أنت أردت أن تغرق الحديقة.

- نعم، لا أن تقتلوه.

- نقتل من؟

- يا كلاب، يا ذئاب، يا مجرمين.

وفاجأته أمه تسأله عما فعل، وكانت ترتعد من الخوف الأخبار التى سمعتها. كبستها ككيس القطن، فصارت أكثر قصراً، وأشد اكتنازاً التصقت بالأرض، فانبعجت جوانبها كالبالونة عندما يضغط عليها صبى طائش أما صوتها فقد اتسع كخرقة مبسوطة، وأخذت تتحدث كأنها أوزة خائفة أو مذعورة:

- الناس يقولون أنك قتلته أنت حرضت عليه وقتلته لماذا يا ابنى تعملها؟ ألا يزال "العمل" يملأ جنبيك؟

وأنا ماذا أعمل؟ أنا ما ذنبى؟ أنا وحيدة يا سلطان، وليس لى إلا الله وأنت!!

ولم يرد عليها كان يخاف أن تكون هذه نهايته فى البلد كيف يواجه الناس؟ والقرية، والعمدة، والشيخ مختار؟

ولولا أن صوتاً ارتفع إلى جواره يصيح أن "أبو المكارم" لم يقتل، لوقع مغشياً عليه.

وبين نبأ قتله، وأمل حياته، أخذ يتقلب عن يمين وشمال، ثم استخار الله، ومشى إلى الساقية، وخلفه الفتيان والثيران، من أقاربه.

وأفسح له الناس الصفوف، فظل يسير إلى "أبو المكارم"، وبينما كانت نظرات الناس تتجه نحوه فى سخط وغضب، تقدم هو من "أبو المكارم" وقال له:

– أنت تعرف معزتك عند عم "أبو المكارم" امسحها فىَّ.

ولم يرد أبو المكارم. إنه أخرس لا يرد.

ولم ينظر إليه استكثر على نفسه أن ينظر إليه.

قال سلطان:

– "عليه الزرع اللى يخسر، وعليه الشجر، الفاكهة عليه المحصول كله عليه".

وظل أبو المكارم لا ينظر إليه.

قال سلطان:

– كله لنا ما للجامع لنا غلطوا يا عم "أبو المكارم" "لسه طايشين" سامحهم سامحنى أنا يا سيدى.

لكن "أبو المكارم" كان شارداً عنه وعن كل شىء كان منظر تفيدة وهى تغرق، قد عاد إليه بكل ما فيه من الأسى، واللوعة كان يراها تطفو وتغطس، وصيحات الموت تختلط بأمواج الرياح الهادى كان يسمعها كان يحس كفيها تبحثان عن شىء تتشبثان به كان يشعر أنها تبحث عنه تدور بعينيها هنا وهناك تبحث عنه

وشعر العمدة أن "أبو المكارم" لا يطيق أن ينظر إلى سلطان، فأمسك بيده وقال له:

– اتركه الآن اتركه لحالة يا سلطان.

وفى تلك اللحظات، كان الفلاحون قد نزلوا إلى الحديقة، وفتحوا أرض الحديقة على القناة، وعلى المزارع المجاورة، حتى صفوها من الغرق.

وعندما وقف أبو المكارم تنفس الناس الصعداء.

وذهب إلى سيدى الذكيرى فزار، ووقف طويلاً عند قبر جلال، ثم صحب "أبو عوف" الصغير فى صمت إلى الخص البوص.

وكانت مفاجأته لا حد لها، عندما وجدها فى انتظاره فى الخص.

– من؟ غير معقول!

وبدأ الحديث بينهما على طريقته التى صارت مألوفة لأهل البلد وأهل الناحية جميعاً.

قالت تفسر ما بدا عليه من العجب:

– لماذا؟ أوحشتنى يا "أبو المكارم".

– وكيف حالك أنت؟ كيف حال المأمور ناجى؟

– بخير يسلم عليكم كلكم وأنت؟ غرقوا لك "الجنينة"؟! وضرب كفاً بكف، وهو يهز رأسه غاضباً.

قالت الست قمر:

– لقد جنوا.

– إنهم يقصدون الشيخ مختار ليتنى هدفهم، لكن هدفهم هم الشيخ.

– أعرف يا "أبو المكارم".

– وسيؤذونه إنهم يريدون أن يؤذوه.

– أعرف لكن ربنا موجود لا تخف عليه.

وأخذ أبو المكارم ينطر إليها فى توسل كمن يريد أن يسألها: لكن كيف؟

وطلبت الست قمر أن ترى العمدة لا بد من أن ترى العمدة.

وطار أبو المكارم إليه، فلما حضر جلس يستمع إليهما فى شغف شديد، وأبو عوف الصغير يدور حوله، يلعب تارة، ويجلس تارة، ويسمع معه تارة ثانية.

– كيف الحال يا ست قمر؟

– خائفة يا عباس.

– لماذا يا ست قمر؟

– لأن "سلطان" ينوى الشر.

– ربنا يكسره.

– إن شاء الله يكسره، لكن نحن يجب أن نعمل شيئاً.

– أننا نعمل ما نستطيع.

– لكنا لم نعمل شيئاً بعد.

– وماذا تريدنا أن نعمل؟

– نحتاط نحتاط بجد لا بالكلام.

– ونظر عباس فى بلاهة، وهو لا يدرى ماذا تقصد ودارت فى ذهنه عشرات الأسئلة، لكنه خجل أن يسألها: ماذا ينوى هذا الطائش أن يفعل؟ وضد من؟ ولماذا؟ ثم لماذا نستطيع نحن أن نفعل؟

وقبل أن يزداد ارتباكاً، قالت الست قمر:

– هذه المرة ينوى سلطان أن يقلب البلد على دماغكم كلكم.

– سلطان!! هذا الولد الصغير الطائش؟! وماذا يستطيع هذا البهيم أن يفعل؟

– صدقنى يا عمدة صدقنى أحسن لك.

قال عباس فى سخرية: أنت لا تعرفين شيئاً أنت بعيدة عن بلدنا يا ست قمر أنت غريبة.

قالت الست قمر فى عتاب: الآن صرت بعيدة يا عباس صرت غريبة؟!

قال فى سرعة: استغفر الله العظيم أقصد لا تعرفينها لكن غريبة، لأ.

وعاد يستفسر عما تعنيه، وأخذت تشرح له التدبير الجديد الذى لجأ إليه هذا الفتى الطائش.

قالت الست قمر:

- تعرف الشيخ "أبو طاقية"؟

وصاح عباس:

- طبعاً الله يقطعه!

قالت وهى تشد أنفاسها فى ضيق:

- يقطعه أو لا يقطعه، هذا لا يهم المهم أنه دبر للولد سلطان خطة تذهب بكم إلى الليمان.

وصاح عباس:

- "لومان! ليه؟ سارقين؟! "

قالت:

- السرقة أهون.

قال فى استنكار:

- "قاتلين"؟!

قالت:

- القتل أهون.

قال عباس وقد ضاق بنفسه:

- "إيه؟ هوه إحنا ح نلاقيها منين ولا منين؟! ".

قالت:

- نصيب! نصيبكم يا عباس.

قال:

- وماذا فعلناه، ليكون هذا نصيبنا؟

قالت:

- هل لا بد من أن تفعلوا شيئاً لتعاقبوا عليه؟

قال:

- "أمال" نعاقب من غير سبب!!

قالت:

- آ..! آ.. من غير سبب. المهم يثبت عليك أنك عملت.

قال:

- من غير أن أعمل.

قالت:

- تعمل أو لا تعمل المهم الاثبات إن أثبتوا عليك العمل، تلقى وعدك!

قال فى ضيق:

- بدون أن أعمل؟

قالت:

- يا عباس افهم "دا أنت عمدة" افهم.

قال:

- "طيب يثبتوا عليه إزاى"؟

قالت وهى تشد أنفاسها:

- هذا ما أردت أن تفهمه هذا هو التدبير يا عمدة

"افهم بقه". وأخذت الست قمر تروى التدبير:

- الشيخ أبو طاقية كان هنا.

وقاطعها عباس صائحاً:

- كان هنا يسرق، وضبط.

قالت:

- انتظر يا عباس أنا عارفة كل شىء لكنه فى النقطة قابل "سلطان".

وشرد عباس بعيداً، وهو يهز رأسه كمن اهتدى إلى شىء كان قد فاته ثم أخذ يقول، مع كل هزة من هزات رأسه:

- تمام تمام كان فى النقطة كان معه فى النقطة.

واستأنفت الست قمر حكايتها:

- سهروا مع بعض فى الزنزانة، وأكلوا مع بعض، وتكلموا وحكى سلطان سبب وجوده فى النقطة، وكشف عما فى داخل نفسه من حقد على البلد.

وسكتت الست قمر قليلاً وهى تتطلع إلى "أبو المكارم" والصغير "أبو عوف" فقد كانا يسمعان إليها بكل جوارحهما، ثم استأنفت الحديث:

- دبر الشيخ "أبو طاقية" الطريقة التى يستطيع بها سلطان أن يقضى عليكم ولا تنس يا بطل أن الشيخ "أبو طاقية" حانق عليكم. من قبل أنتم الذين طردتموه من النعمة.

وقاطعها عباس قائلاً:

- هو طرد نفسه بكذبه ودجله.

قالت الست قمر فى سخرية:

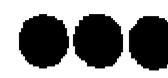
وكان لا بد من أن تتحملوه أليس المشايخ كالناس يخطئون.

قال:

– والولد..البطن المنفوخة بالحمل يخفونه هو الآخر؟ إن هذا هو الذى كشفه وكسفه، الله يكسفه!

قالت:

– ما علينا المهم جاءت فرصته فرسم له الطريق اسمع يا سيدى وعادت الست قمر تحكى للعمدة ما رسمه الشيخ "أبو طاقية لسلطان":



– هذه البلد متآمرة يا سلطان يا بنى.

– متآمرة ضد من؟

– ضد الحكومة ضد الملك ضد الانجليز.

– يا نهار أسود بلدنا؟

– آ.. بلدكم أنتم جميعاً بهائم.

– لكن أنا مولود فى البلد، وطول عمرى فيها، وأعرف حتى مهب الريح، ولا أعرف أنها متآمرة.

– لأنك لا تعرف شيئاً عن السياسة.

– انجليز، وملك، وحكومة؟ ما هذا يا عم؟

– قلت لك متآمرة تقول لأ ماذا أعمل؟

– لكن كيف؟ من قال لك؟

– أنا عارف أنا بينى وبينك أعمل مع البوليس السياسى.

– البوليس السياسى؟! فى شىء اسمه بوليس سياسى؟

– الله يرحمه أبوك أنت يا ولد طالع لمن؟ ألا تعرف البوليس السياسى؟ ألم يقل لك أبوك وعمك؟

– أبداً لم يقل لى أحد شيئاً.

– البوليس السياسى شىء هائل له قوة ونفوذ.. إيه؟

– يا سلام!!

– وعندهم فلوس، لا أول لها ولا آخر.

– يا سلام!!

– ومن يريدون أذاه، يضيع ينتهى إلى الأبد.

– يا سلام!!

– والذين يريدون رفعهم، يصلون بهم إلى الوزارة يصبحون وزراء.

– يا سلام!!

– وهذا البوليس هو بوليس الانجليز والملك والحكومة.

– هيه هكذا؟!

– طبعاً.

– وأنت بوليس؟!

– أنا أعمل معهم.

– تقول البوليس.. أنت تعمل بوليس؟

– مغفل أنت مغفل.

– ألم تقل هذا؟

– آ.. قلت هذا لكن هذا البوليس يعرف الأخبار من أين؟ ممن؟ لا بد له من ناس آذان أنا أذن له.

- تسمع يعنى.

- أسمع وأرى، وأراقب.

- وهل هذه شغلة؟ هذا لعب عيال.

- مجنون أنت مجنون هذه مهمة صعبة جداً.

- ويدفعون لك؟

- سؤال غريب هذا طبعاً.

- طيب لماذا تسرق إذاً؟

- زيادة الخير خيرين.

- يا خى!! لأ لأ قل الحقيقة.

- والله هذه هى الحقيقة وسترى كيف أفلت من هذه القضية.

- لكن هذه قضية سرقة، وقد ضبطوك متلبساً.

- أيا كان الأمر، هم سيتصرفون.

- يعنى تخرج منها؟

- كالشعرة من العجين!

- يا خبر يا أولاد اذن عفاريت لا بد أنهم عفاريت.

- ولا عفاريت ولا يحزنون.

- قضية كقضيتك لا تحفظ إلا إذا سرقوا الأوراق مثلاً، أو خطفوك، وهذا شغل عفاريت.

- لأ إنهم أقوى من العفاريت.

- "كمان"!

- والآن تريد أن تعرف حكاية المؤامرة؟

- طبعاً أرجوك.

- هل تسمع عن الأستاذ عيسى؟

- آ.. الله يرحمه كان محامياً من بلد جنبنا، وقد أعدموه.

- بلدكم شريكة فى هذه المؤامرة.

- بلدنا شريكة؟ بلدنا لا تعرف شيئا عنه عمرها ما رأته إلا وهو ذاهب إلى المحطة ليركب القطار، أو وهو عائد إلى بلده من المحطة.

- قلت أنك مغفل.

- لماذا؟ هذا هو الحق.

- ومن طلب منك الحق؟

- لا أحد أنا أقوله رداً عليك.

-إذا كنت تريد أن تؤذى البلد كلها، فهذا هو الطريق.

- أكذب؟

- لا يا شيخ وما الفرق بين الكذب والسرقة؟

- وهل سرقت أنا؟

- لا أنا!! وما الفرق بين الكذب والزنا؟

- وهل زنيت أنا؟

- لا أنا!! يا رجل استح.



هكذا كانت أحاديثها طوال المدة التى تقابلا فيها هناك، فى زنزانة النقطة وقد اتفقا يا عباس على أشياء مؤذية جداً يريدون أن ينكلوا بك، وبالشيخة وبمدبولى، وبالشيخ مختار، وبمرزوق ابنه.

وصاح عباس:

- لكن هذا ظلم.

قالت الست قمر فى أسى:

- وأين العدل؟ أين يكون العدل؟

قال عباس وهو يخبط كفاً بكف:

- عنى أنا أنا أتحمل لكن الشيخة!! أيضاً الشيخة!! "ليه؟"

قالت الست قمر:

- يظن أن الوصية عندها وهو يريد بأى شكل أن يفتش الخص الذى تعيش فيه، وتفرز كل الأوراق التى فيه، وسيسرق الوصية، بالتواطؤ مع البوليس السياسى.

قال عباس:

- "وصية إيه وبتاع إيه؟! وهيه عندها منين بس؟ " الوصية كانت مع سيد لما قتل أدهم أنا أخذتها، ثم سرقتها الغندورة، وأعطتها طبعاً للص زوجها أين ذهب بها؟ الله اعلم.

قالت الست قمر:

- ومن أدراك أنها أعطتها للص زوجها؟ يمكن أعطتها للحيوان سلطان أم لا تعلم! ألا تزال تنام على أذنيك؟!

وضرب كفاً بكف، وهو ينفخ من أنفه هواء كالنار.

لكن العمدة أخذ يسأل:

- أمنا بالله وسلمنا أن الغندورة أعطت الوصية لسلطان "طيب ما خلاص عاوز إيه تانى؟ ".

قالت الست قمر:

– ماذا جرى لك يا عباس؟ هل تنسى أم أنك تتناسى؟ ألم تعرف أنها ضاعت منه، وأن العلبة وجدت فارغة؟

قال وقد استدرك:

– آ.. آ.. صحيح! صحيح! من أخذها؟

قالت الست قمر:

– هو يعتقد أنها عادت للشيخة شخص أعادها إليها لتنفذها إذن قرر....

وقبل أن تتم صاح عباس:

– "يوديها فى داهية"!!

قالت الست قمر:

– إن شاء الله ما يوعى.

وسأل عباس:

– طيب والشيخ مختار ذنبه "إيه "؟

قالت الست قمر:

– والشيخ مرزوق،كان ذنبه "إيه "؟ ألم يقتلوه،أم أنك لا تزال نائم فى العسل نوم؟!

قال:

– ومرزوق أيضاً؟

قالت:

– أليس ابن الشيخ مختار؟

قال:

- أما مدبولى فأنا أعرف ذنبه.

وهز عباس رأسه فى عجب، ثم قال:

- لكن ماذا فعلنا؟ ماذا فعلت بلدنا؟ البوليس السياسى "ماله ومال بلدنا؟ "

قالت الست قمر:

- أنتم جميعاً شركاء الأستاذ عيسى فى جريمته.

وصاح العمدة:

- "يا ريت هو إحنا نطول"؟!

قالت الست قمر:

- لأ لأ لأ إياك تطلع من فمك إياك تبقى مصيبة.



أبو المكارم لم يطق على هذا الكلام صبراً، فإنه لم يتصور أن يصل الظلم بالناس إلى هذا الحد، وأن يصل التضليل بالحكومة إلى درجة الغفلة.

بلدنا شريكة فى مؤامرة الأستاذ عيسى؟

بلدنا هذه الجائعة العطشانة المحتاجة الخائفة؟!

بلدنا تقدر تقتل رئيس وزراء؟! تتخفى له فى الظلام وتقتله؟

إن بلدنا تعيش فى الظلام، وخيالها لا يمتد لأكثر من الساقية، ومعرفتها لا تزيد عن كفر الزيات أو إيتاى البارود، وفى أيام الأسواق!!

لكنه مع هذا لم يستطع الصبر، فإن هذا الكلام نذير شر، ولا يمكن السكوت عليه، والاكتفاء بانتظاره قد يأتى هذا البوليس السياسى فى أى وقت، ولن يرحم، ولن يترك شيئاً إلا فحصه.

آ..ه وأنت يا ولد عندك أشياء خطيرة.

المنشورات التى أتى بها إليك جلال لتخفيها، والتى أتى بها إليك ممدوح لتحفظها له عندما يريدها ثم وسائل التخفى التى عندك، وملابس ضابط جيش، أو بوليس، وبدل المطافىء وأزياء السمكرية وباعة اليانصيب، والنظارات، والأحذية.

ثم المسدسات والقنابل والمفرقعات.

والأخطر منشورات الأستاذ عيسى فعلاً أنسيت؟ ألم تذهب سبيلة الغجرية وتحضرها من الأستاذ عيسى الله يرحمه؟

كل هذا عندك يا "أبو المكارم".

ضاعت البلد يا ولد!! ذهبت بسببك فى شربة ماء!

وستكون أنت يا أخرس سبب هذه النكبة التى تحل بالبلد، وساعتها ابك كما تشاء، فلن يجديك البكاء، أو ولول كما تريد، فلن تنفعك الولولة.

وشعر أبو المكارم أنه محتاج لألف ساق مع ساقه ليسابق بها الريح، وألف يد مع يده ليجمع كل شىء، وألف عقل مع عقله ليفكر معه فى وسائل التخلص من ذلك كله، وألف لسان غير لسانه ليتكلم مع الناس طالباً الرأى والمشورة.

لكنه توكل على الله ومضى.

كل ما فعله أنه ذهب إلى الغجرية، وسحبها من ذراعها وعاد بها إلى الساقية، وفى الطريق شرح لها كل شىء بصدق وبصراحة.

وبدأ والغجرية والصغير أبو عوف فى تدبير الأمر.

أخذ يبحث هنا وهناك، وينقب عن أشياء ضائعة ومفقودة، ويجمع الأسلحة والمفرقعات والمنشورات والأحذية والنظارات وكل ماتعيه ذاكرته من أشياء خزنوها عنده.

ولم يضع "أبو المكارم" ثانية، ولم يدخر جهداً، ولم يترك لأحد فرصة سؤال.

كانت سبيلة تحمل معه هذه الأشياء، ولا تجرؤ على أن تسأله.

أبو عوف الصغير نسى أن أشياء كثيرة من هذه الأشياء قادرة على أن تسليه، لكنه لم يفكر فى أن يلعب إن الشعور بالخطر استولى عليه هو أيضاً.

وعندما تجمع كل شىء، وأحس أبو المكارم أنه لم ينس شيئاً، أشار لسبيلة أن عليها أن تستعمل كل حيلة تستطيعها لتضع بعض هذه الأشياء فى بيت سلطان، وبعضها الآخر فى بيت الغندورة.

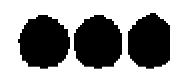
وشهقت سبيلة وهى تسمع هذا الكلام.

لكن إشارات "أبو المكارم" كانت حاسمة وعصبية لا تحتمل مناقشة.

قالت سبيلة:

سآ..خذ "أبو عوف" معى، يساعدنى.

ولم يعترض أبو المكارم، وتركهما على أن يعود ليجد كل شىء قد تم.



وذهب أبو المكارم إلى مديحة كان محتاجاً إلى أن يزور الضريح، ويقف عند قبر جلال.

كانت نفسه مفعمة بالأسى، وكانت عيناه مشحونتين بالدمع، وكان يشعر أنه محتاج إلى وقفة هناك، يفرغ فيها ما فى نفسه من الأسى، وما فى عينيه من الدمع.

وهناك وجد مديحة جالسة إلى جوار قبر جلال.

يا ربى! أفى هذا الوقت؟ ماذا جرى لها؟ هل شعرت بشىء؟ هل شعرت بنوع من الخطر يقترب منها؟ وهل لجأت إليه تستغيث به من المجهول؟ مجهول يغيث من مجهول!! يا رب ما أعظم حكمتك!!

واستند أبو المكارم إلى الناحية الثانية من القبر، ولم يقل شيئاً.

من يمين كانت هى تبكى ومن يسار كان هو يبكى والميت بين سيل من الدمع من هنا، وسيل من هناك، وكلاهما كالطوفان، لكنه طوفان رطب جنون وان يكن يرتعد من الخوف!!

وما هى إلا لحظات حتى انضم إليهما ممدوح، وكان لا يزال فى ملابس المعلم بيومى.

وبدأ أبو المكارم يروى ما حدث باشاراته وصيحاته وحركاته.

كان واجماً، يخاف المصير الذى ينتظر الشيخة وينتظر القرية.

كان يتوقع الشر، ويخاف من أن تهب على الناس ريح مسمومة تطيح بكل ما بقى لهم من طاقة شىء كالكوليرا التى اجتاحت القرين.

وكان يشعر أن هذه الكوليرا ستكون أسوأ من الكوليرا التى هى فى القرين.

ان كوليرا القرين تقتل الناس، فيذهبون إلى رحمته الواسعة يشكون لله من ظلم الناس وقسوتهم واهمالهم وأنانيتهم، لكن هذه الكوليرا ستكون شيئاً آخر ستقتل الناس لكنها لا تميتهم! وأشد القتل هذا الذى بين الحياة والموت الناس سيتعذبون عذاباً كالموت سيحبسون، أو يضربون، أو يقيدون من خلاف سيرون الموت بأعينهم، وهم أحياء!

أبو المكارم يعرف هذا وأكثر منه سمعه من جلال وهو يحكى له كيف تعذب الحكومة أعداءها، وكيف تنكل بهم، وكيف تذيقهم الويل وسمعه من مديحة، عندما تعرض أبوها الأسطى عبد الغفار للويل، وسمعه من ممدوح، ومن الأصدقاء الذين ترددوا على هذه المنطقة يختفون فيها عن عيون الجواسيس ورجال المباحث، وهذا البوليس السياسى.

ونظر أبو المكارم، فوجد الشيخة أمامه قد وجلت هى الأخرى كذلك كان المعلم بيومى.

قالت مديحة:

- وهل ستحضر الست قمر؟

وأشار الأخرس: لا

وقالت مديحة لممدوح:

- الفرار لن يجدى نبقى هنا نواجه المصير المجهول.

وضحك المعلم بيومى وقال:

- أما أنا فذاهب إلى المحطة، وسأعود لكم شيخاً مهيباً، يرفل فى جبة ولى من أولياء الله. ولم تعبأ مديحة بهذا الكلام، فعاد ممدوح يقول:

- سمعت يا ست الشيخة؟ هل سمعت؟

ولم تحفل به، ولم تلق إليه السمع، وظلت شاردة عنه، غائبة عن الدنيا جميعاً.

- يا ست الشيخة اسمعينى أنا قادم إليك فى زى الشيخ عبد الرءوف وسأقيم حضرة الليلة نعم سأقيم حضرة هنا عند الضريح هذه ليلة مباركة ولا يجوز أن تمر بلا حضرة وذكر ودرس.

ونظرت إليه وفى عينيها بريق تجرى فوقه قطرات من دمع حبيس وطال شرودها وهى تتذكر اليوم وما عسى أن تكون المناسبة وما هى إلا لحظات حتى هزت رأسها فى هدوء، وعلى شفتيها ابتسامة قانعة.

لقد أدركت ماذا يعنى هذا "الجن".

- يوم عاشوراء اليوم يوم عاشوراء، ولا يجوز أن نمر بلا حضرة تقام، واسم الله يذكر، ودرس من صميم الدين يقال.

وهزت رأسها تستفسر عن الترتيبات وكيف تتم.

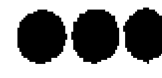
وقال على الفور، وهو ينظر إلى "أبو المكارم":

- أرسليه إلى الشيخ مختار، ليحضر مع الرجال بعد صلاة العشاء وعليك الشمع والقلل والجلسة والبخور هيا لا تضيعى الوقت يا ست الشيخة.

قالت الشيخة:

- حاضر، بمجرد أن يعود أبو عوف.

وكان الصغير قادماً من ناحية الساقية، فصاح المعلم بيومى قائلاً: هو ذا.



وتفرق كل واحد إلى عمله.

أبو المكارم ذهب إلى الشيخ وقال له، فلما ختم صلاة العصر قال للرجال:

- كنا سننسى الليلة عاشوراء، يا رجال! لست أدرى ماذا كنا نفعل لولاهم أن التى ذكرتنا هى الست الأصيلة الولية الطاهرة الشيخة تفيدة أرسلت فى طلب الشيخ عبد الرءوف حتى لا تمر الليلة كالمأتم ربنا يطيل لنا فى عمرها.

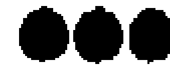
ومع رجع الصدى، كانت القرية قد علمت كل شىء، وأن الحضرة ستقام عند ضريح سيدى الذكيرى، وأن الشيخ مختار سيذهب بعد العشاء لذكر الله، وأن العمدة سيذهب هو الآخر، وكذلك شيخ الخفر ستخلو القرية من الناس ومن يدرى، قد يذهب سلطان!

أما الشيخة فقد كنست المكان ورشته وفرشت ما عندها من حصير حول الضريح وبدت الساحة من ضريح الذكيرى إلى قبر جلال مبسوطة نظيفة هادئة، فتذكرت لي إلى جلال التى كان يقيمها هنا لذكر الله، بينما يعد لشىء آخر، كان يصفه بأنه لا يقل أهمية عند الله من ذكر الله وكان يضحك بملء فمه وهو يقول لها: طبعاً الانجليز أعداء الله وكل من يذل الناس أو يعتدى على حقوق الغير عدو الله. إذن حرب الانجليز كذكر الله سأذكر الله أول الليل، وأذكره آخر الليل فى الأول ذكر على طريقة الشيخ "أبو عوف" وفى الثانى ذكر على طريقة جلال بن محمد بن سلطان، بن "الإيه " لغاية سيدنا آدم عليه السلام! مديحة تذكر هذا وتضحك فيما بينها وبين نفسها، فإنها لتكاد ترى وجه زوجها يطل عليها من قبره، وابتسامته العريضة تكاد تأكل وجهه.

أبو عوف الصغير كذلك أخذ يؤدى دوراً.

إنه يمسك القلل والأباريق ويحكها بالتراب الناعم النظيف، مرة ومرة حتى تعود جديدة كما كانت. وعندئذ يغسلها بالماء مرات قبل أن يملأها، ويضعها على حافة الضريح وعلى الشبابيك، مغطاة بأغطية صفراء براقة، لتصبح بعد حين ملآنة بالماء البارد ثم هو لا يكتفى بهذا المجهود لكنه يدخل الخص ويخرج بزجاجة ماء الورد، ليرش منها قطرات على كل قلة أو إبريق، لتصبح للماء رائحة جميلة تتفق مع جلال الليلة المباركة.

وما أن يفرغ من هذا، حتى يخرج الأوراد ويوزعها فى نواح مختلفة من الحضرة، ليقرأ فيها المنشدون ويرفعوا عقائرهم بالمدائح وقصائد الحب الإلهى.



سبيلة الغجرية هى الأخرى، كانت تعمل بسرعة لم تكن تستطيع أن تنتظر، وأمامها كوم من الأسلحة، وكوم من الذخيرة، وكوم من المتفجرات، وأوراق منثورة هنا وهناك، أشد خطراً من كل هذه الأسلحة والذخائر هذا كله و إلى جواره ألوان وأنواع وأشكال من الملابس والأحذية والنظارات والذقون البيضاء والحمراء والسوداء، والمسابح والمباخر والألوان.

تعملين فى هذا كله ماذا يا بنت يا سبيلة؟

الأخرس جمعها ورتبها وتركها لك، ولو ضبطوك بها، لصرت أنت صاحبتها، ومن يدرى ماذا يفعلون بك البوليس قادم، وأنت واقفة عاجزة عن الحركة تلقى إذن وعدك.

لكن عقلها الصغير تحرك بسرعة، فلم تضع وقتا. لا وقت الآن يمكن أن يضيع! إن الوقت أغلى من الذهب ومن الماس.

وأسرعت الغجرية تتحرك.

وبعد قليل كانت قد جمعت حولها "سعد" حبيب القلب، والجوهرى صاحب الترومبيل.

قال سعد:

- يا نهار أسود يا بنت يا سبيلة! من أين لك هذا كله؟

قالت:

- لا تسألنى الآن المهم نتخلص منها.

وقال الجوهرى:

- هذى مصيبة كيف نتخلص منها؟

ووضعت الفتاة الغجرية يدها على خدها، وتركت دموعها تسيل فى يأس.

قال سعد:

- طيب يا سبيلة حاضر لكن والله العظيم لأقطعن رقبتك لو لم تقولى لى فيما بعد من أين لك هذا.

وبدأ يتدبر الأمر مع الجوهرى.

واتفق الرجلان، على أن يحمل الجوهرى كل هذه الأشياء فى الترومبيل إلى بعيد، بعيد جداً، لتبتعد الشبهة عن البلد عند المحطة ضعها عند المحطة.

وصاح الجوهرى فى سعد قائلاً: يا شيخ حرام عليك تبعد التهمة عن البلد، وتلزقها فى المعلمة وردة والله المعلمة وردة أفيد من بلدكم كلها.

قال سعد: والله ما فكرت فى هذا لكن فيه فكرة عارف التين؟

قال الجوهرى: ومن منا لا يعرفه.

قال سعد: هذا أحسن مكان، لا فى البلد ولا فى النقطة.

ورحب الجوهرى بالفكرة، فبدأ يحمل هذه الحاجيات فى حذر، وينقلها من مدار الساقية إلى الترومبيل، والخفير سعد يحذره وينبهه ليحتاط ويساعده.

ولما كادا يفرغان قالت الغجرية:

- فيه خدمة يا جوهرى، تعملها لى؟

قال الجوهرى فى شهامة:

- خدامك يا بنت يا غجرية أى خدمة؟

وسكت قليلاً ثم قال لها:

- لكن هل أنا من بقية أهلك؟ لماذا أسمع كلامك؟

قالت فى دلال:

- الترومبيل هذا، من يحرسه لك، فى أى مكان تتركه؟

قال الجوهرى:

- أنت يا غجرية.

قالت فى سرعة:

- لأ ما أنا، لكن أنا وناسى يا جوهرى خدمة بخدمة.

قال الجوهرى:

- طيب يا غجرية لكن هذه الخدمة بالذى مضى كله!

قالت:

- لأ.. يا صاحب الترومبيل لأ.. وليش تريدنى أقول ليش.

قال فى سرعة:

- لأ.. وحياة أبوك.. لأ.

وسكتت وهى تنظر من طرف عينها إلى سعد.

وتظاهر سعد بأنه لا يعرف شيئاً، ليترك الجوهرى "على عماه" لا يعرف أن سبيلة قد حكت له كل شىء.

وقال سعد فى نفسه وهو يضحك:

- أى والله كل شىء كل شىء يا أوترومبيل كل شىء فى ضوء القمر، على شاطىء الرياح، والدنيا صمت لا يؤرقها غير نقيق الضفادع وصوت الساقية حينئذ ترسل قلبك يا جوهرى فى حناياك، يتقطع فى الجوى، ويهفو إلى الأشواق.

آه يا جوهرى أنت تجرى "بأترمبيلك" كبساط الريح، لكن قلبك يتوقف عندها، لا يسير لا إلى يمين ولا إلى يسار، والغجرية تحرسك من عيون الحساد و إلا فكيف تلقاها، وهى بنت العمدة القديم، وأرملة العمدة القتيل، وسليلة الحسب والنسب، وبنت الأصول أنت يا جوهرى لا تضمن أن تذهب إلى إيتاى البارود لقضية أو لاستخراج أوراق، فقد لا تذهب أبداً، فلا تراها أبداً لكن سبيلة تدبر لك الأمر، عندما تذهب لزيارة أو لعزاء هنا وهناك، عندئذ تتسلل ويدها فى يد الغجرية بين الحقول، لتجد مسلاة قلبها على شاطىء الرياح، والنجوم تخفق فوقها، مع قلبها فتخف النار.

- تحبنى يا جوهرى؟

- حباً لم تعرفه الحياة قبل.

- وأنا أرملة؟

- وأنت ما تكونين.

- ولى أولاد.

- ولك أحفاد.

- ولا تغار على من الماضى.

- ولا من الحاضر أو من المستقبل.

- وهلا فكرت فى مصير حبنا؟

- ولماذا أفسد اللحظات الحلوة بمخاوف ومتاعب ومشكلات؟

- وهلا تريد أن تتزوج؟

- نفسى ياريت.

- ولم لا؟

- اقبلى، وأنا أخذك إلى بيتى حالاً، زوجة أمام الله والناس.

- ولماذا تربط نفسك بواحدة مثلى، وراءها مشاكلها ومتاعبها وأولادها؟ ابحث عن واحدة خالية، تسعدها وتسعدك.

- خالية من ماذا؟

- من المتاعب والمشاكل.

- كالرخام صماء... أو ملساء!!

- كزهرة تفتحت أوراقها فى أمس.

- ولا يزال شذاها لم يتضوع بعد.

- فإن تضوع فأنت أول من يشمه.

- فى الشذى، لا أول ولا آخر الشذى شذى للأول والآخر.

- غريبة، لا ترى سواى؟

- وسواك هو أنت، فى عينى.

- إياك!!

- لا تخافى.

- تستمتع، وتقول كأنهن أنت.

- تغارين؟

- أكثر مما تغار.

- مم؟ مم تغارين؟

- حتى من الذين يصفقون لك، ويرددون اسمك.

- لكن هؤلاء ...

- أعرف ما تنوى أن تقول لكنهم يشاركوننى... فيك.

ويصل أطراف الكلام إلى الغجرية، فتهز رأسها وتبلع ريقها، وتترك لله أمرها.. تبعد؟ لا تستطيع، فقد يحتاجان إليها،إذا فاجآهما أحد تنتظر حيث هى؟ لكن هذا الكلام يخترق شغاف قلبها، ويذكرها بسعد وأغانيه وأناشيد الهوى على شفتيه، والناس من حوله يصفقون .

وتقول الغجرية لنفسها: أين أنت يا سعد الكلب، لتقول لى كلاماً كهذا؟

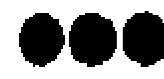
وترد على نفسها قائلة: كلام سعد أحسن من هذا.

وتعود تسمع كلاماً كالشهد فتتهد وتقول: بل هذا أحسن

لكنها تتذكر عذوبة سعد، وهو يطارحها الهوى فتصحح نفسها وتقول: بل سعد أحسن.

وهكذا تأخذ وتعطى، حتى تجد نفسها فى النهاية، يدها فى يد الست سيدة، وعيناها فى عينيها، وسر مكتوم بينهما لا يعرفه إلا الجوهرى وسعد، وهما عائدتان بعد هذا اللقاء إلى البلدة، أو إلى دوار العمدة غضبان.

لهذا فلم يخطر بذهن الغجرية فى هذه الشدة أحد إلا سعد والجوهرى، فأسرعت إليهما ليغيثاها مما هى فيه.



وقبل أن يتحرك الجوهرى "بالأوترومبيل" قالت الغجرية:

- تذهب وتعود حالاً.

قال الجوهرى:

- إيه؟ أوامر!! ماذا تريدين؟

قالت:

- شىء مهم والله يا جوهرى مهم وحياة عيونك.

قال وهو يشير إلى ما فى داخل الأوترومبيل:

- وهذه البلاوى؟!

قالت:

- سعد يدفنها، وأنت تعود "طوالى" ستعرف.

وهز رأسه، وهو ينظر إلى سعد الجالس إلى جواره، وانطلق على جسر الرياح، فى إتجاه محطة السكة الحديد.

وما هى إلا دقائق، وعاد الجوهرى إلى الساقية، ليجدها فى انتظاره.

قال:

- نعم.. "نعمين"؟

قالت:

- هذه اللفة عليك.

ونظر إلى اللفة فى تعجب، وهو يفحصها بعينيه.

قالت:

- هل تعزنى؟

قال:

- أنت عارفة.

قالت:

- وتثق فى؟

قال:

- طبعاً.

قالت:

-إذن تعطى هذه اللفة للجماعة، من غير "حديث ولا كلام".

قال:

- دون أن أدرى ما هى ماذا فيها؟ أى شىء هنا؟

قالت:

- هى ليست لها.. لكن والنبى اطلب تضعها فى بيت سلطان تخفيها فى مكان أمين فى بيته.

قال وهو يعجب أشد لعجب:

- ياه؟! وتذهب إلى بيت سلطان؟! وأمه وإمرأة أبيه؟ والزحام الذى هناك؟

قالت:

- لأ. تضعها فى المندرة، فى مكان "كده وإلا كده".

قال فى غضب:

- وتذهب إلى مندرة سلطان... لماذا؟ إنه أعزب وفاجر وفاسق.

قالت فى ثقة:

- يا خى! ألا يذهب معها إلى البندر؟

قال فى ارتباك:

- أى نعم يذهب، لكن... لكن معى فى الأوترومبيل معى.

قالت فى خبث:

- وتدخل بالأوترومبيل معها فى المكاتب والمحاكم؟

وارتبك ولم يستطع أن يرد، فقالت له:

– يا رجل، هى مرة هل سيخطفها؟ سيأكلها؟ والنبى!

وهز رأسه مستسلماً، فأمسكت بيده وهى تقول:

– وحياة النبى، ومن "نبى النبى نبى"، تذهب حالاً الآن قل لها تذهب الآن ستعرف أن هذا ضرورى جداً، لبلدنا كلها ستعرف حالاً، ويمكن الليلة.

قال فى تسليم:

– طيب. متى أنتظرها؟

قالت:

– بعد المغرب، فى المكان نفسه سآتى بها إليك "بس إياك الكلام الطرى النعسان يسرقكم".

ومضت هى تحمل لفة أخرى إلى البلد، وتوجهت إلى بيت فرج النمس، لترى الغندورة، فلما أصبحت على باب البيت أخفت اللفة فى طيات ملابسها.

وجلست سبيلة تسمع من الغندورة آخر أخبارها.

كانت سعيدة مرحة، تتحدث فى جرأة واستخفاف.

الله ماذا جرى لها؟ إن عادة الريفيات فى المحنة أو فى النكبة أن ينطوين على أنفسهن، فما بال الغندورة؟ ماذا جرى للغندورة؟

وحاولت سبيلة أن تجاريها لتعرف منها ماذا وراء هذه السعادة.

قالت الغندورة، والسعادة تغمرها:

– إنها ستفرج والنبى ستفرج "سلطان قال يومين وتفرج واليومين فاتوا" سترين يا غجرية أنها ستفرج.

وحكت للغجرية أن البلد كلها "حتروح فى داهية".

– ومالك أنت؟ هل أنت من البلد؟ أنت الغجرية، لا لك فى "الطور ولا فى الطحين".

"سلطان حيوديهم فى داهية" البوليس السياسى سيأتى، وواقعتهم سودة.

وقالت الغجرية: من هم؟

قالت: العمدة وشيخ الغفر، والشيخ مختار وابنه.

وهمست لها وهى تضيف:

وبينى وبينك، والشيخة تفيدة أيضاً.

وصبرت سبيلة على مضض وقالت: لكن لم؟

قالت وهى تتصنع الأهمية: فيه أشياء خطيرة... خطيرة.

قالت سبيلة: لكن هؤلاء ناس مساكين. خطيرة إيه؟!!

قالت الغندورة: لأ لأ وأنت تعرفين؟ من أين تعرفين؟!

قالت سبيلة: هل عندهم قوت، ليكون عندهم أشياء خطيرة؟

قالت الغندورة: سلطان قال لى أن البوليس السياسى هذا عنده أشياء خطيرة، يضعها هو عند من يريد أن يخرب بيته فهمت؟!

قالت سبيلة: يا حلاوة يعنى هم الذين يضعونها عند الناس

قالت الغندورة: فى مرح: آ.. فهمت؟

قالت سبيلة: ويكسبون ماذا؟

قالت الغندورة: شغلهم. شغلهم هكذا.

وبعد فترة صمت سألتها الغندورة عما تريد هل تعمل لها شايا؟ وقالت سبيلة أى والنبى دماغى مكسر وليتك تعملين شايا.

وقامت لتعمل لها الشاى، بينما تمكنت الغجرية من اخفاء اللفة فى مكان أمين من حجرتها، فلما عادت وجدتها فى انتظار الشاى

ولما استأذنت الغجرية لتعود أخذت تسأل نفسها:

- هل خنتها يا بنت؟ فتحت لك بيتها وقلبها، فوضعت لها مصيبة فى حجرتها!! لكن واحدة سعيدة بأن البلد كلها "حتروح فى داهية"، تستكثرين عليها مصيبة بسيطة صغيرة كهذه؟ واحدة تشترك فى تدبير الأذى، ولمن؟ للشيخة؟! للعمدة؟ لشيخ الغفر؟ للشيخ مختار؟ ثم تترفقين، أو تترددين، أو تشفقين؟ يا شيخة!!

وكانت قد وصلت إلى منزل العمدة غضبان، فدخلت لتزور الست السيدة، أرملة العمدة غضبان.

ووجدتها وحدها، فجلستا تتحدثان

- كيف حاله؟

- ينتظرك.

- متى؟

- الآن.

- ياه!!

- قال لمسألة هامة وعاجلة.

- حاضر حالاً.

ولم تمض دقائق حتى كانتا فى الطريق إلى زيارة. وفى جنح الظلام، تسللتا إلى الحقول، وأسرعتا إلى المكان المعهود، فتركتها على أن تعود إليها عندما تطلبها

ولم يضع الجوهرى وقتاً، فتم كل شىء، وعادت المرأتان، واحدة غجرية والثانية فى طيات ملابسها لفة مجهولة.

وعرجت الست السيدة على بيت سلطان، وكما فعلت الغجرية، انتهزت هى الأخرى الفرصة، والبالوظة تعد لها الشاى، فأسرعت إلى الدوار، وكان ملحقاً بالبيت وتمكنت من

أن تصنع اللفة فى مكان أمين، داخل دولاب مفتوح، وعادت فى خفة لتشرب الشاى مع الست جميلة البالوظة وتطمئن منها على سلطان، وأحواله.

عندئذ شعرت الغجرية أنها انتهت.

رأسها أخذت تدور حول نفسها بغير انقطاع لكن كان عليها أن تذهب إلى الساقية، لتطمئن "أبو المكارم"، وتؤكد له أن كل شىء قد تم والحمد لله.

ثانية واحدة يا سبيلة ثم تعودين.

لكنها وجدته واقفاً عند الساقية، وكأنه واقف على أظافره، لا يطيق الجلوس ولا الانتظار.

- ماذا جرى؟

- هس!

- "ليه؟ يا بنى"!!

- بس!

كانت ساحة الساقية هادئة، كأنما تنتظر شيئاً، وكان يبدو عليها جو من الوجوم الحزين. ما هذا؟ أين الناس وصوت الساقية، ونباح الكلاب وعواء الذئاب، وأعيرة نارية تنطلق مرة من هنا ومرة من هناك؟ لقد سكت كل شىء حتى الشجر لم يعد يتحرك فى هوادة، فيكون له حفيف لذيذ حتى مياه الرياح راحت فى سبات!

وبينما الصمت يخيم هنا على الطبيعة، كانت القرية مشغولة فى عشاء عاشوراء الرجال عادوا من حقولهم وصلوا المغرب، ثم التفوا مع عائلاتهم حول الطبالى يأكلون ما جاد عليهم به الله من طيبات. فيهم من ذبح طيراً، وفيهم من اشترى لحماً، وفيهم من لم يجد لا هذا ولا ذاك، فاكتفى ببرام أرز خال من اللحوم، وكثيرون لم يجدوا لا طيراً ولا لحماً ولا أرزاً، فجمعوا من الحقول بعض الخضروات وسلقوها فى الماء، وحمدوا الله على كل حال.

وبعد أن أكلوا وامتلأت بطونهم، توجهوا إلى الجامع ليصلوا العشاء، ويذهبون بعد العشاء إلى الخضرة عند ضريح سيدى الذكيرى. إن الفلاحين وأهل القرى يحبون ذكر الله حباً حماً، وهم يستعدون له بكل ما فى نفوسهم من تقوى، ويلبسون له الملابس الجديدة، ويسافرون من أجله إلى آخر الدنيا

كل هذا الوقت مر على الأخرس والغجرية وهما عند الساقية ينتظران! ماذا كانا ينتظران؟ شىء مجهول لا يعرفان إن كان خيراً أو أنه شر لكنهما ينتظران والسلام!

وعندما بدأت الحركة تعود، والناس يتجمعون حول الضريح، وأنوار الشموع تبدد ظلام الليل الدامس، ونداءات الشيخ عبد الرءوف تجلجل فى هذه الساحة القدسية، ظهرت من بعيد أشباح رجال قادمين.

ووقف الأخرس والغجرية على جسر الرياح، وهما يتظاهران بعمل من أعمال الرى عند الساقية، هكذا دون اتفاق!

وأقبل ثلاثة من الرجال مسرعين كانوا غرباء عن المكان والناحية، وكانوا يتحدثون بلغة أهل البندر قالوا للأخرس:

– تعرف بنت العمدة؟

وهز رأسه بنعم.

قال واحد: إيه؟ لم لا ترد؟ ثم هز رأسه فى أسى وقال مستنتجاً: آ.. أخرس! وهز الأخرس رأسه، فضحكوا ضحكاً متواصلاً وهم يقولون: أحسن!!.

واستأنف الرجل السؤال فسأل الأخرس هل يعرف بيت شيخ الغفر، فهز رأسه: نعم.

ثم نظر كل واحد إلى الآخر، وقال منهم واحد:

– أما الباقى، فنؤجل تفتيشهم حتى نرى.

هؤلاء هم، رجال البوليس السياسى أى والله هم! تفتيش! تفتيش ماذا؟ إنهم هم!

وقال واحد منهم لزميله:

- لماذا تأخروا؟

قال الآخر:

- إنهم على وشك الوصول ننتظرهم.

قال الثالث:

- طبعاً سننتظرهم هل لنا فى هذا اختيار؟

وما هى إلا لحظات، حتى كان أتروميبل الجوهرى أمام الساقية، وهبط منه ثلاثة من الشبان، فعظمهم الرجال الغرباء الوافدون، ووقفوا أمامهم وقفة عسكرية فيها طاعة وانتباه.

لا بد أنهم ضابط هؤلاء ضباط.

ودارت بينهم مناقشات سريعة التقط أبو المكارم منها كل شيء، فى فهم ووعى وذكاء.

- كله جاهز؟

- طبعاً يا افندم.

- وعرفتم بيت العمدة؟

- طبعاً يا افندم.

- وبيت شيخ الخفر؟

- أيضاً يا افندم.

- أظن هذان أهمهم.

- ضرورى يا افندم.

- وتأكدتم من الجو؟

- "أوى أوى يا أفندم".

- ومتى نفتش الآخرين؟

- وقتما تأمر يا افندم.

- الشيخة ما اسمها؟

- تفيدة يا افندم.

- والثانى. ما اسمه؟

- من يا افندم؟

- شيخ الجامع؟

- مختار يا افندم.

- طيب نبدأ بالاثنين الأولين.

- تحت أمرك يا افندم.

- فيه طريق سيارة؟

- أيوه يا افندم.

- ومن دليلنا؟

- واحد مضمون جداً يا افندم هذا الأخرس يا افندم.

- أخرس!!

وضحك الضابط طويلاً، وهم ينظرون إليه، ثم قال واحد:

- والعربة تكفى هذه العربة تكفى؟

- أمرك يا افندم نذهب نحن على الأقدام.

- ونذهب نحن بلا حرس؟! انحشروا جنب السواق.

وركب العساكر جنب الجوهرى، وركب الضابط فى الخلف، ووقف الأخرس على رفرف الأترومبيل من ناحية الجوهرى، وانطلقت السيارة.

وأمسك الأخرس بيد الجوهرى وضغط عليها ففهم كل شىء.

قال الجوهرى:

- أنت يا أخرس تدلنا. هيه... من أين؟

ومضت السيارة إلى بيت سلطان.

قال الضابط:

- هذا بيت العمدة؟

فهز الأخرس رأسه.

وهجمت القوة ودخلت البيت تفتشه حتى سلطان لم يكن هناك. كان البيت خاوياً خالياً إلا من الست جميلة البالوظة والست عيوشة وخادمة أو اثنتين، أما سلطان والرجال فكانوا فى الحضرة، بل إن بقية الخدم والخفر والخادمات ذهبوا إلى الحضرة ليشتركوا فى الذكر أو ليتفرجوا عليه، فى هذه الليلة المفترجة.

ولم يحتج الأمر لعناء كبير، فقد عثرت القوة على اللفة، فلما فتحتها، وجدت بها أسلحة ومجموعة من المتفجرات، ومنشورات سياسية تحرض على قلب نظام الحكم والثورة عليه بالقوة، وتدعو الناس إلى الجهاد وبذل النفس لطرد الانجليز أعداء الله من أرض الله.

وهز الضابط رءوسهم وهم يقولون:

- تماماً التبليغ مضبوط تماماً. كأنها منشورات عيسى بل إنها هى! يا نهار أسود! أما مؤامرة!! إنهم يسبون الذات الملكية!!

وقال رئيس الجماعة فى اندفاع:

- وأين البيت الثانى؟ أين بيت شيخ الخفر؟

وركب الأخرس على الرفرف إلى جوار الجوهرى، وعاد يمسك ذراعه كأنما يسر إليه بشىء، وانحشر العساكر إلى جوار الجوهرى، وركب الضابط فى خلف السيارة.

وقبل أن تتنبه القرية إلى شىء، كانت القوة قد وقفت أمام بيت الغندروة.

وكما حدث فى بيت سلطان حدث فى بيت الغندورة.

عثرت القوة على لفة ملآنة بعينات التمرد والغدر والأعداد لثورة مسلحة تحارب الانجليز والملك والحكومة.

قال أحد الضباط:

- نقبض عليه الآن.

قال واحد آخر:

- من؟ على من تقصد؟

قال الضابط:

- على العمدة وشيخ الغفر هذا يكفى هذه الأدلة تكفى لمحاكمة هامة جداً.

قال الضابط الثالث:

- والله ضمنت الترقية يا أخ.

وضحكوا جميعاً فى فرحة غامرة.

لكن أحد الضابط قال:

- اسمعوا نذهب الآن إلى دوار العمدة لنبدأ تحقيقاً على الفور ونطلب قوة اضافية لا يجوز أن نقبض على العمدة أو شيخ الخفر قبل أن تأتى القوة، وإلا فقد نتعرض نحن للخطر.

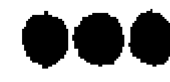
وهز كبيرهم رأسه، وهو يقول:

– عندك حق نذهب إلى الدوار للتحقيق المبدئى، ثم نطلب القوة، وعندما تحضر نتصرف.

وسأل ضابط:

– أليس الدوار هو نفسه المكان الذى فتشناه؟

وأشار الأخرس: لا! وشد كبيرهم من يده، فمشى معه إلى دوار العمدة.



الدوار أيضاً كان خالياً خاوياً، لا أحد فيه العمدة ذهب مع الرجال ليذكر الله فى هذه الليلة المباركة والغفر والخدم، والجيران، وكل الناس ذهبوا لينضموا إلى الحضرة.

قال الضابط فى سخرية:

– ما شاء الله ويتركون أمور البلد فوضى! وأين عامل التليفون؟

قال الجوهرى:

– لا بد أنه ذهب هو الآخر.

وصاح الضابط غاضباً، واتجه إلى التليفون فأداره مرات، فردت النقطة فقال فى صوت غاضب: أرسل قوة كبيرة حالاً، أنا من البوليس السياسى ضبطنا أشياء خطيرة ستكشف عن مؤامرة كبرى.

ونظر الجوهرى إلى "أبو المكارم"، نظرات ذات معنى.

وتلفت كل منهما، فقد سمعا سبيلة الغجرية تتحدث مع النساء العجائز ممن لم يستطعن الذهاب إلى الحضرة.

– هذى مصيبة يا خالة ومصيبة كبيرة.

– يا رب الطف بعبادك ماذا جرى لبلدنا يا بنت يا غجرية؟

- ماذا عملنا يا ربى؟ ماذا عملنا لنرى كل يوم مصيبة جديدة تحل ببلدنا؟

- من يعرف يا خالة؟ المثل يقول اشتدى يا أزمة، لتنفرجى.

- ومتى تنفرج؟

- لما نتوب.

- عن ماذا؟ يا بنتى؟

- عن ما نحن فيه.

- وماذا نحن فيه؟

- المعاصى يا خالة هل هذا قليل؟

وكان الجوهرى قد أسرع إلى القرافة ووثب من الأوترومبيل إلى الضريح، وشد العمدة خارج وصاح يقول له: الدنيا مقلوبة، عندك فى الدوار البوليس ملأ الدوار.

ولما سمع شيخ الغفر خرج هو الآخر من الحضرة، وتبعه الغفر، وبدأ الذاكرون يشعرون بأن شيئاً غير طبيعى يحدث فى الحضرة، وبين صفوفهم، فأخذوا يتلصصون لعلهم يرون شيئاً، ويسترقون السمع لعلهم يسمعون شيئا.

وشعر الشيخ عبد الرءوف بالأمر، فتعمد أن يصيح صيحة مدوية: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ثم استأنف الذكر، فاندفع الناس يذكرون الله فى حماسة أشد، وكأنما صيحات الشيخ قد ألقت مزيداً من الوقود، فزادت شعلة الإيمان توهجاً داخل قلوبهم ولم يعودوا يحسون شيئاً أو يشعرون بشىء لم يعودوا يخافون أو يهابون. لم يعودوا يتلصصون ليروا أو يسترقون السمع ليسمعوا.. لا الله إلا الله، الله أكبر الله أكبر. هو سبحانه وتعالى خالقهم، ولا يصح أن ينصرفوا عنه، وهم فى حضرته.

على أن الشيخ عبد الرءوف كان يدرك ما يدور الشيخة تفيدة كذلك كانت تدرك ما يدور، ولقد اكتفى الشيخ، واكتفت الشيخة بنظرات مستخفية ذكية.

وتعمد الشيخ أن يطيل الذكر، وأن يطلب من المنشدين مزيداً من مدائح الرسول عليه السلام، فكانت أعناق الرجال تشرئب فى تبتل وابتهالات.

وبعد الحضرة عقد الشيخ مجلسه، فبدأ درساً دينياً عن بيت رسول الله، وكيف حارب أهله المنكر، ووقفوا فى وجه الطغيان، حتى سقطوا فى ساحة الوغى شهداء، وضرب المثل بسيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه، وكيف استبسل فى سبيل عقيدته حتى سقط فى أشرف ميدان وكان الناس يسمعون هذا الكلام فيكبرون الله ويصلون على النبى، وفى عيونهم دموع على ابن بنت رسول الله.

وانشغل الناس بهذا السحر العميق، عن العمدة وشيخ الغفر، وما يدور فى الدوار ليكن فى الدوار ما يكون المهم هو هذا الحديث عن آل رسول الله.

واحد فقط من بين الرجال كان شديد القلق نظراته كانت زائغة، وحركاته كانت عصبية، وجلسته كانت قلقة سلطان كان هذا الواحد.

وكان الناس يعجبون له، ولولا أنهم شغلوا عنه بالحضرة ثم بالدرس والحديث الطلى الشفاف، لما رفعوا عيونهم عنه.

إن خروج عباس وشيخ الغفر من الحضرة أكد له أن الحكاية نفعت، وأن هذا هو أول الخيط، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

والله ورحت فى داهية يا بلد!

وتاه سلطان عن كل ما حوله، إن حديث الشيخ متصل.

لكنه لم يكن يسمع شيئاً مما يقال! كان يتلفت حواليه كاللص، كأنما كان ينتظر شيئاً، أو يتوقع قادماً من ناحية البلد والرفقاء حوله كانوا قلقين مثله كأنهم كانوا يجلسون على جمرات من نار، أو على دبابيس!! كانوا ينظرون إليه، ويقلدونه! لكن الناس مع هذا، لم تعبأ بهم، ولم تصرفها نظراتهم عن الشيخ وحديثه الجذاب.

فى دوار العمدة كانت تدور أحاديث أخرى.

تجمع الضابط حول العمدة ودارت بينه وبينهم مناقشات غريبة:

- أنت العمدة عباس؟

- نعم أنا.

- هيه فى أى حزب إن شاء الله؟

- حزب ما هذا؟

- اطلع منهم. كلهم مثلك ينكرون.

- ينكرون .... إيه؟

- يا عباس عيب. لن ينفعك الإنكار.

- يا حضرة الضابط أنا رجل صريح وبسيط، ولا أعرف كيف أنكر، ثم أنكر... إيه؟

- طيب الأستاذ عيسى كان طبعاً صديقك.

- لم أره وحدى فى حياتى.

- يعنى إيه؟

- يعنى لم أره إلا مع الناس، ويمكن مرة أو مرتين.

- اعترف يا عباس أحسن لك.

- والله انا احترت. ماذا تريدون؟

عندئذ كانت القوة قد وصلت. عدد من الخيالة وعلى رأسهم ضابط شاب، وعدد من الهجانة على الجمال، وعلى رأسه ضابط أسمر.

وكل هذه القوة، الخيالة والجمالة، أقبلت على أحد الضباط تضع نفسها تحت إمرته وبعد قليل أقبل ضابط النقطة ليكون هو الآخر فى الخدمة، ثم جاء نائب مأمور المركز ليكون بدوره تحت الطلب، ثم أوفدت المديرية مندوباً كل هذا توالى على القرية كما

تتوالى النكبات، ولم يكن أمامها إلا هذا الطريق. نعم ولا بد من أن تمر بالقرافة وضريح سيدى الذكيرى.

عندئذ شعر الشيخ عبد الرءوف أن قوة ما لن تستطيع أن تمنع الرجال من الفضول فسار فى مقدمتهم إلى البلد، وهم حيارى لا يعرفون ماذا يجرى، ولماذا تأتى القوة، وهل قصدها هذه القرية الآمنة، أم أنها فى طريقها إلى قرية أخرى ولم يجد السؤال. إن أحداً لا يعرف، وحتى أفراد القوة لا يجيبون.

سلطان فقط هو الذى سبق القوة، خفيفاً مبتهجاً! وحوله أقاربه!

وأمام دوار العمدة انتهى المطاف. أما القوة فدخل ضابطها إلى الدوار، وظل العساكر واقفين راجلين أو راكبين فى انتظار الأوامر.

– أوامر من؟

– أوامر من فى الداخل؟

– وماذا فى الداخل؟ من فى الداخل؟

– حضرات الضباط.

– وأين العمدة؟

– معهم فى الداخل.

– وشيخ الغفر؟

– معهم كذلك.

– نريد أن نرى العمدة؟

– ربنا يعينه.

– يعينه!! يعينه على ماذا؟ ماذا جرى له؟

– بلاوى!! يمكن مظلوم!!

- فيم ولماذا؟ وكيف؟

وسرت بين الناس موجة من الخوف والقلق على العمدة عباس وشيخ الغفر مدبولى، وكان أهل القرية واثقين من براءة ساحة العمدة وشيخ الغفر، وأن كل هذا لا يعدو أن يكون وقيعة أو فتنة.

الشيخ مختار صاح بهذا بين الناس. وكان صوته يتهدج وهو يقول: سبحان الله العظيم قال تعالى " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة "! أى والله يظلمون وتعم الفتنة الناس، حتى الأبرياء. لكن هذه هى طبيعة الفتنة.

ويسألونه: ماذا يظن؟

فيجيب: أظن الخير يا أولاد خير وطبعاً خير.

والتفت إليه ضابط شاب وسأل الناس:

- من هذا الشيخ هناك؟

قالوا له:

- سيدنا هذا الشيخ مختار.

وهز رأسه وهو يقول:

- أهو هذا، الشيخ مختار؟!.

ثم تقدم الضابط منه وسحبه من يده فى جفاف، وهو يقول:

- حضرتك أيضاً مطلوب! تفضل!

ولم يفهم أحد شيئاً، لكنهم لم يرتاحوا لهذا التصرف، وعجزوا فى الوقت نفسه وعن وقفه ولجأوا إلى الشيخ عبد الرءوف يستغيثون.

- أخذوا الشيخ مختار يا مولانا.

- إلى أين؟

- إلى الدوار.

- لعله خير يا أولاد اصبروا هو أقرب للتقوى.

- لكن ماذا ينوون لأن يفعلوا به؟

- لا شيء رجل طيب وبرئ ماذا يمكن أن يفعلوا ببرىء! سيطلقون ساحته بطبيعة الحال.

- فإن لم يفعلوا؟

- يكون الظلم بعينه الظلم.

وسمعه الضابط الشاب نفسه فسأل:

- ومن هذا الشيخ؟

قالوا له:

- شيخ ضريح سيدى الذكيرى الشيخ عبد الرءوف.

قال الضابط:

- هل له علاقة بالشيخة تفيدة؟

فشهقت الجموع وهى تقول:

- الشيخة تفيدة ماذا عنها أيضاً؟

قال الضابط:

- إنى أسأل.. أسأل.

قالوا:

- طبعاً هو شيخ الضريح، وهى شيخة الضريح.

وتقدم الضابط منه فى مثل الجفاف الذى تقدم به من الشيخ مختار، وقال له:

- وحضرتك أيضاً مطلوب! تفضل!

أبو المكارم وسبيلة والجوهرى وسعد، قد انتحوا جانباً وهم حائرون! ما هذا الذى يحدث؟ أتكون كل الترتيبات التى قاموا بها قد ضاعت عبثاً. لماذا يأخذون العمدة وشيخ الغفر، ثم الشيخ مختار والشيخ عبد الرءوف بينما سلطان فى بيته يمرح فى سعادة، ويتشفى فى البلد، التى يريد أن يخربها!!

قالت سبيلة الغجرية:

- عم "أبو المكارم". قل لى ما معنى هذا؟

وأمسك أبو المكارم بيدها فى قسوة ليسألها هل وضعت اللفة عند الغندورة فضربت على صدرها وهى تقول:

- نهار أسود!إذن ضبطوا ... ماذا..؟

- وهز رأسه متعجباً، ونظر إلى الجوهرى فقال:

- اسألوها ... والدليل ما ضبطوه فى بيته.

وضرب الأخرس الأرض بقدميه وهو لا يعرف شيئاً.

- لماذا هم هنا إذن؟

لماذا لا يقبضون على سلطان؟ وعلى الغندورة؟

أبدلاً من سلطان والغندورة يأخذون الشيخين؟!

وفى الدوار، كان ضابط البوليس السياسى طوال اللسان.

قابلوا الشيخ مختار بالسخرية، فقابل سخريتهم بأدب جم.

- أنت شيخ الجامع؟

- نعم يا بنى.

- وفاهم أننا سنصدق هذه العمامة وهذه الذقن؟

– استغفر الله العظيم.

– من شركاؤك هكذا بصراحة، بدلا من "البهدلة"؟

– شركائى فيم يا بنى؟

– "سيبك" من هذه الأمور! أنت عارف!

– عارف ماذا يا بنى؟

– يوه... هذا هو الصنف الذى أعمل له ألف حساب صنف مدرب وقادر على أن يلف بنا من هنا إلى هناك، لا يعطى ولا يأخذ. تكلم أيها الرجل أحسن لك.

– لا اله إلا الله، محمد رسول الله.

– لا يا شيخ هل هذا يوم القيامة؟ تظننا من؟

– تكلمت ما أعرف. قل أنت ماذا تريد؟

– أريد اعترافاً.

– اعترافاً بماذا يا بنى الحقيقة أنت تقول لى كلاماً كالألغاز.

عندئذ كان الشيخ عبد الرءوف قد دخل إلى الدوار-أتى به الضابط الشاب، ليسمع بعض عبارات السخرية.

– شيخ تانى!!

– السلام عليكم ورحمة الله.

– يا جدى عيب. اسمك إيه؟

– الفقير لله عبد الرءوف.

– آ..ه يا نارى منكم عارف! "حتجننونى"!

لكن الشيخ عبد الرءوف بادره قائلا له فى شدة وحزم:

- اسمع يا بنى. أنا رجل مثل والدك. قل لى ماذا تريد من غير لف ولا دوران. لا داعى للسخرية ولا لشىء بأى صفة أنا هنا؟ وزملائى هؤلاء واخوانى وأصدقائى، ماذا يراد منهم؟

وأجاب الضابط فى دهشة:

- الله الله الله. لأ دا أنت مدهش!!

ثم سكت قليلاً وهو يدور حولهم مرة، وينظر إليهم مرة ثم قال:

- على كل حال هذا أحسن إن كنت حقيقة تريد أن تعرف، فأنتم جميعاً هنا متهمون.

قال الشيخ عبد الرءوف فى حدة:

- بم؟ بذكر الله؟!

قال الضابط:

- لأ لأ لأ لا تتغابى يا سى الشيخ!

قال الشيخ فى ثقة:

- إذن بماذا؟

قال الضابط:

- بالتآمر على نظام الحكم وسب الذات الملكية، وحيازة أسلحة وذخيرة ومفرقعات لاستعمالها فى هذه الأغراض.

وبدا على الشيخ عبد الرءوف وعليهم جميعاً أنهم فوجئوا مفاجأة لم تكن تخطر لهم على بال.

قال العمدة: مؤامرة!!

وقال الشيخ الغفر: سلاح!!

وقال الشيخ مختار: قلب نظام الحكم!!

وقال الشيخ عبد الرءوف فى ثقة: وما الدليل؟ الكلام يا بنى لا يجوز أن يلقى على عواهنه. ما الدليل؟

قال الضابط فى غيظ:

- والنبى إيه؟ لا "برق لى كمان"!!

ثم اتجه إلى ركن فى المندرة، على دكة خشب، وأشار إلى أشياء منثورة فوقها:

- هذا هو الدليل، هذه الأشياء ضبطناها عند العمدة وعند شيخ الغفر هل تعرف ما هذه الأشياء؟ تعرف القراءة؟ خذ اقرأ.

وأعطاه منشوراً من المنشورات، فذهل لما فيه.

وخاف أن يكونوا هم الذين وضعوه فى دوار العمدة لم يكن الشيخ على علم بما دبرته سبيلة الغجرية، فسكت يفكر والضابط يسخر وتتوالى عباراته تقول:

- هيه؟ صدقت يا سى الشيخ؟ قرأت يا سى الشيخ؟ عرفت يا سى الشيخ؟ بس شاطر تزعق وتقول دليل... دليل... أبعد هذا دليل؟ ثم هذه الأسلحة مع المنشورات تعنى إيه؟ عرس؟! زفة!! مولد!!.

قال الشيخ يسأل فى صوت هامس:

- وهذه أشياء وجدتموها فى الدوار؟

قال الضابط:

- "إيه؟ ليه... هوه عبيط"؟! الدوار نظيف كانت فى بيته هناك فى آخر البلد.

قال الشيخ وهو لا يزال متردداً:

- تقول بيته فى آخر البلد؟

قال الضابط فى حدة:

- ألم تسمعنى؟

قال الشيخ:

- أريد التأكد بيت من؟

قال الضابط:

- بيت حضرة العمدة.

قال الشيخ فى عجب:

- بيت حضرة العمدة هنا يا بنى آخر البلد "إيه وبتاع إيه! لازم بيت ثانى"!

وبدأ الموقف كله يهتز الضابط نظروا كل منهم إلى الآخر، ولم يعرفوا ماذا يقولون.

الله!! قد لا يكون البيت الذى ضبطت فيه هذه الأشياء! ولا تلك الأشياء قد ضبطت فى بيت شيخ الغفر بيت من إذن؟ لقد سألنا على بيت العمدة فأخذونا إليه! بيت شيخ البلد فدلونا على البيت الثانى.

وخرج الضابط إلى الشارع يصيح:

نادو سائق السيارة حالاً. لا بد أن هناك خطأ فى التبليغ أنا كنت أشك! عمدة! عمدة وشيخ غفر يتآمران!! هناك شىء خطأ! ربما كان قصدهم أن العمدة وشيخ الغفر، قادرون على أن يدلانا على المتآمرين على كل حال، لا بد من التحقيق أين السائق؟ أين السيارة؟ ولم يكن الجوهرى بعيداً، فأسرع إليه، فصاح الضابط يسأل:

- ألم يكن البيت الأول الذى ذهبنا إليه هو بيت العمدة؟

قال الجوهرى فى سرعة:

- لا أعرف انا أعيش فى المحطة.

وصاح فيه يقول:

- أنت إيه؟ حمار حتى بيت العمدة لا تعرفة؟ خذونى إليه حالاً.

ونظر الضابط حواليه، يطلب الحرس، وخفيراً من خفراء البلد ليسأله بعض الأسئلة. وأسرع الخفير سعد إليه، فتبادلت سبيلة والأخرس نظرات فرحة راضية.

وقال الجوهرى:

- طر بنا إلى البيت الأول الذى ذهبنا إليه.

ونظر إلى زملائه وقال:

- سأعود حالاً.

وطار الجوهرى بالضابط والحرس والغفير سعد، وأمام بيت سلطان وقفت السيارة، فنزل الضابط ولما تأكد أن هذا هو البيت الذى دخله، قال للغفير:

- أليس هذا بيت العمدة؟

قال الغفير:

- لأ يا حضرة الضابط.

وصاح فى دهشة:

- بيت من إذن؟

قال الغفير:

- بيت الحاج غضبان.

قال الضابط:

- الحاج غضبان من؟ أين هو؟

قال الغفير:

- مات الله يرحمه.

قال الضابط:

- من يعيش فيه إذن؟

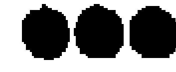
قال الغفير:

- ابنه سلطان وأمه الست جميلة البالوظة وإمرأة أبيه الست عيوشة.

قال الضابط فى عصبية شديدة:

- اقبضوا عليه اقبضوا عليه حالاً.

واقتحم المنزل على رأس الحرس يبحث عن سلطان ليقبض عليه.



وكان سلطان بين حوارييه الرقعاء يضحك من قلبه، وهو يتلقى الروايات والأخبار عن القبض على العمدة وشيخ الغفر والشيخين الآخرين!!

لم يكن قد قابل أحداً من أهله بعد.

بل أن أهله لم يعرفوا بتفتيش الدوار، وما ضبط فيه البيت كان خاويا، فلم يعرفوا شيئاً عما حدث وخيل إلى سلطان وجماعته أن "الصنارة غمزت وأن الواقعة وقعت، وأن البلد خربت، وأن سلطان وحده هو الذى سيتربع على تلها"!

وفجأة تبددت الأحلام، ودخلت قوة على رأسها ضابط يصيح:

- أنت سلطان؟ أنت صاحب هذا البيت؟

وقبل أن يرد صاح الضابط.

- اقبضوا عليه واقبضوا عليهم.

وخرج الضابط فى سرعة وعصبية، يطلب قوة أخرى، فلما آتت استقل السيارة وهو يقول للجوهرى: إلى البيت الثانى، الذى ضبطنا فيه الضبطية الثانية.

ووقف الجوهرى أمام بيت فرج النمس، حيث تعيش الغندورة، فقفز الضابط من السيارة ليتأكد من أن هذا هو البيت الذى يقصده.

وسأل الضابط الغفير سعد:

وهذا بيت شيخ الغفر؟

قال سعد فى سذاجة وبرود:

- لأ

قال الضابط فى غيظ:

- أمال بيت من يا بهيم؟

قال سعد:

- بيت فرج النمس.

قال الضابط:

- من هو فرج النمس هذا؟

قال سعد:

- واحد من بلدنا محبوس فى سرقة.

قال الضابط فى ضيق:

- باسم الله ما شاء الله. ومن يعيش هنا؟

قال فى بلاهة:

- "مراته. الغندورة مراته".

قال الضابط فى اشمئزاز:

- "حلاوتك!! الغندورة! بتدلعها"؟!

قال الغفير سعد فى استنكار:

- "لأ.. أدلعها ازاى.. هيه اسمها كده".

واقتحم الضابط المنزل، ووجد الغندورة، وكانت معها اثنتان من تابعاتها، فقال لها:

- أنت من؟

قالت:

- أنا الغندورة.

قال:

- أنت صاحبة البيت؟

قالت فى دهشة:

- "يوه! دا ماله ده! آ.. بيت جوزى! "

قال الضابط فى سرعة:

- اقبضوا عليها. اقبضوا عليها حالاً.

لكن الغفير سعد صاح فى عجب:

- يا خبر أسود يا أولاد! الغندورة!!

وعندما وصل الضابط إلى الدوار كان مجهداً ومتعباً وثائراً لكنه ـ مع هذا ـ نظر إلى الشيخ عبد الرءوف وقال له:

- لا تؤاخذنى يا سيدنا الشيخ أنا غلطت فى حقك عندك حق.

ثم نظر إلى العمدة وقال:

- وأنت يا عمدة حقك على أنت لست متهماً بشىء سامحنى.

وقال لشيخ الغفر:

- كذلك أنت يا شيخ الغفر شىء غريب غلطة.

أما الشيخ مختار، فقد اتجه نحوه، وأمسك بيديه، وهو يقول له:

- أما أنت يا شيخ مختار، فلا يكفى أن أعتذر " أعمل إيه" لتسامحنى؟

قال الشيخ مختار فى أدب:

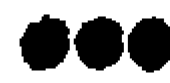
- العفو يا بنى العفو يا سيدى المسامح ربنا.

قال الضابط:

- شغلتنا صعب يا سيدنا الشيخ "ادعى لى.. والنبى تدعى لى".

وفى فرحة غامرة، خرج الشيخان بين الناس، فاستقبلتهما القرية بتهليل الرجال، وزغاريد النساء، وصيحات الأطفال.

بينما كان سلطان يدخل إلى الدوار مقبوضاً عليه، وخلفه الفندورة تطأطئ رأسها من الخجل.



وهناك عند سيدى الذكيرى جلست الشيخة تفيدة تسمع إلى ما حدث.

وكانت المعلمة وردة قد أسرعت إليها لتطمئن عليها، ومعها المعلم مبروك الحنطور، وأولاد المحطة من عمال القهوة والصيادين وباعة الصحف، والحمارة.

وكان المعلم بيومى مع هذا الجمع يتأمل كل شىء فى برود، ويسمع الروايات والتعليقات، ويهز رأسه فى تثاقل.

وكان صوت الساقية يصلهم رتيباً متصلاً، كاللحن المتعب المجهد الحزين.

وأخذ أبو المكارم يسير خلف ثورى الساقية فى بطء وعلى كتفيه عصاه، قد شبك يديه بطرفيها، وشرد يتأمل يتذكر ويتأمل و إلى جواره كان الصغير "أبو عوف" يسير إلى جواره تارة، ويقفز من مدار الساقية تارة، ويختفى بين فروع الصفصافة تارة.

سبيلة كذلك كانت جالسة تحت الشجرة، وخدها على كفها، وفى يدها عود من قش تخط به على التراب أشكالاً لا تعرف لها معنى.

والشجر يتمايل كأنه حسان القرية من العذارى.

والنخيلات البكر تتفتح تحت ضوء الشمس الدافئة.

والبساط الأخضر ممدود تحت البصر فى سماحة.

ورائحة زكية تتضوع فى أرجاء المكان، مع بداية الربيع، وأشجار الفاكهة تتشق عن زهر يافع.

وتظهر على جسر الرياح نقطة سوداء متحركة تزحف نحو القرية ترومبيل الجوهرى هو ترومبيل الجوهرى الذى تعرفه الناحية كلها قادم.

من يا ترى فيك يا ترومبيل الجوهرى؟

لكن الترومبيل يتجه إلى يمين عند الموردة.

وتتلفت حسان الموردة، تتطلعن إلى من فيه، ولا تزال سيقانهن عارية، ينظفنها بقطع خشنة من الحجر.

ويتوقف أبو المكارم ليتبع الترومبيل بعينه.

وعندما يقف أمام الضريح، يشب على قدميه، فيراها تهبط منه على غير انتظار هى: الست قمر!

ماذا أتى بها فى هذا الوقت من النهار؟

الشيخة تعرفها حق المعرفة.

والمعلمة تعرفها حق المعرفة.

والمعلم مبروك يعرفها كذلك حق المعرفة.

أما الآخرون فلا يعرفون إلا أنها واحدة من تابعات الشيخ "أبوعوف"، وافدة لزيارة.

لكنها تابعة حزينة تخطو فى ارتباك كمن ستتكفئ على وجهها!

وأسرع أبو المكارم إلى الضريح ليتبين الخبر، وفى ذيله، الصغير أبو عوف، وأحست الغجرية أنها هى الأخرى لا تستطيع الانتظار.

كان منظر الست قمر مثيراً.

الشيخة أسرعت إليها تأخذ بيدها كذلك المعلمة ووقف الرجال ترحيباً واحتراماً.

وجلست وأسندت رأسها على الضريح، وعيناها على القبر الفارغ، ثم أسبلت عينيها فى إغفاءة متعبة.

قالت الشيخة: ماذا جرى لها؟

ولم يجب أحد.

وبعد أن انصرف الرجال، ولم يعد حول الضريح إلا العدد الصغير الذى يعرفها، لم تتمالك نفسها، فتركت الدموع تنحدر على خديها فى صمت مثير.

وساد الجو نوع من الخوف، غامض وعميق.

يا ست قمر، اسم الله عليك، ماذا جرى؟

يا ست قمر، ربنا يتولانا ويتولاك، اخبرينا عما حدث؟

يا ست قمر، فيم هذه الدموع الصامتة المخيفة؟

ولم تجب الست قمر بشىء.

دمعها هو الذى كان يجيب لكن هذا الدمع كان يزيد النفوس أسى.

وفى هدوء، أخرجت من بين ملابسها لفة من أوراق ووضعتها أمام الشيخة تفيدة.

وعجبت الشيخة أشد العجب

إن الوصية هى أول شىء وقع عليه نظرها.

وشهقت فى فزع:

الله هى الوصية!

وتبادل أبو المكارم والمعلم بيومى نظرات حائرة.

قالت الشيخة:

ممن؟ من أرسله؟ ناجى؟

وهزت الست قمر رأسها: نعم.

لكنها أشارت إلى الأوراق الأخرى.

وأمسكت الشيخة بخطاب مطوى، فوجدته من المأمور ناجى سلطان إلى أمه: ووجدت عينيها تجرى على سطوره.

أمى الحبيبة:

إن الدمع لا يكفى لأعبر لك عن المأساة التى أعيش فيها لقد ذهب منى رفيق المحنة والعذاب: محمود محجوب.

صديقى وزميلى الضابط محمود محجوب مات يا أمى.

أخذته الكوليرا منى، وهو فى أعز سنوات العمر.

وعندما أصابته العدوى، رفض أن يعيش معى دقيقة واحدة خاف على فذهب إلى المستشفى، حيث انتظر قضاءه، حتى وافاه.

لكنه كان رجلا يا أماه كان مؤمناً بقضاء الله، فلم يفقد الثقة فى رحمته أبداً وإلى آخر ثانية يا أمى كان يبتسم ويضحك ويكتب لأمه ولأبيه ولأخيه خطابات مرحة ضاحكة.

بل وكان يشعر ـ وهو ملقى على فراش المرض ـ بواجبه نحو الضعفاء، فكان يقوم الليل يخدم العجائز ويقدم الماء للعطشى من المقعدين وعندما كان يموت منهم واحد، كان يقول فى سخرية، ذهب إلى حياة أرحب.

يا أمى إنى لا أستطيع أن أنساه وجهه أمامى هنا فى الحجرة، حيث كان سريره فى الركن الآخر. صوته معى يرن فى أذنى، وهو يضحك ويسخر وفى النقطة أراه يحدثنى وأشعر أنه لم يغادرنى ابداً.

حتى دموعه مع.ى نعم يا أماه، فقد كانت له دموع، كما كانت له بسمات كنت أراه فى بعض الأحيان يبكى، وعندما كان يرانى، كان يمسح دمعه، ويقول لى: دموع وحشة واغتراب أمى أوحشتنى يا حضرة المأمور أبى كذلك أوحشنى آه. لو تعرفهما إن لأحببتهما أكثر مما أحبهما. أخى حسين كذلك أوحشنى.

وكم من مرة أردت أن أنتهز الفرصة لأصارحه بحقه فى هذه الوصية، لكنى أعجز عن تفسير الموقف له، أو حكايته حكاية صريحة وكان حبه لأمه وأبيه يمنعنى من أن أنزعه نزعاً من هذا الجو العاطفى الحنون الذى يعيش فيه.

ثم اشتد عليه المرض يا أماه، فعجز عن الحركة، لكنه لم يعجز عن البسمات، والدموع كان يرانى فيبتسم، لكنه كان يطيل النظر إلى ويبكى وكم كان رائعاً وهو يبكى، وعلى شفتيه ابتسامة هادئة.

يا أماه سأموت من حزنى عليه. إنه جزء من حياتى ضاع منى، فى زحمة هذه المأساة.

لا أستطيع أن أصف لك أيامه الأخيرة، وإيمانه الجليل الرائع بالله كان يهمس لى همسات تقطع قلبى كان يقول لى: أتعبتك يا حضرة المأمور لكنى سأريحك سأذهب وعندما كنت أبكى من خوفى عليه كان يقول لى فى هدوء: أنت تعذبنى أنا أريد أن أذهب، تشيعنى ابتسامات رقيقة أنا ولدت فى وسط الأسى، فلا أقل من أن أخرج من الدنيا، وحولى زهور تتفتح يا حضرة المأمور الموت راحة. الموت ساحة. الموت خلود. لا تخف على. إياك أن تؤرقنى بدمعك، فأنا حريص على أن تضحك لى من قلبك .

كنت أضحك له يا أماه، لكن ضحك كوخز الخناجر يمزق صدرى الحزين.

ومات يا أماه.

لكنه قبل أن يموت أعطانى رسالتين: واحدة لأمه وأبيه، والثانية طلب منى أن أرسلها مع مخصوص إلى الشيخة تفيدة.

أما رسالته إلى أمه وأبيه، فقد كانت مفتوحة.

وقال فى رقة وعذوبة: تستطيع أن تراها، بعد أن أذهب وكررها بعد أن أذهب

لكنى لم أستطع يا أماه لم أستطع أن أقرأ حرفاً خطه بيمناه، وهو على سرير الموت لقد أرسلت الرسالة مع الرسول، الذى يحمل هذه الرسالة إليك.

أرجوك يا أماه أن تذهبى بها إلى الشيخة تفيدة، أو الست مديحة، زوجة أخى المرحوم جلال اذهبى بنفسك، فقد يكون فى وجودك بعض ما يخفف المأساة.

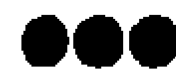
أماه.. مات محمود محمود يا أماه مات.

محمود محجوب مات، وإياك أن تسميه شيئاً آخر، فإن إنتسابه إلى الأسطى محجوب السائق أشرف من إنتسابه إلى عمى غضبان، وأكثر لياقة بشرف الأرض، التى سقط فوقها، وهو يؤدى واجبه الجليل

سامحينى يا أماه على هذا الخطاب الحزين، لكن هكذا حياتى، وما أحسب إلا أنها ستمضى هكذا حزينة حتى ألقاه



وشعرت الشيخة أنها لم تعد ترى من كثرة ما امتلأت عيناها بالدموع فلما مدت يدها إلى الوصية وجدت معها خطابا موجها إليها.



أختى وسيدتى:

إنى وأنا أواجه الموت، أشعر أنى على باب الحقيقة الكبرى، حيث لا حقيقة سواها.

خطوة واحدة أخطوها، ثم أصبح جزءاً منها.

لكنى قبل أن أخطو هذه الخطوة أرسل إليك هذه الرسالة لأعتذر لك.

لقد سرقت هذه الوصية من أوراقك.

سامحينى أيتها الأخت واغفرى لى.

وربما كان دافعى إلى ذلك أنها تخصنى، لكنى مع هذا سأظل سارقاً، حتى تغفرى لى أما غفران الله، فسأتولاه عندما ألقاه

لكن هذا لم يكن السبب على كل حال.

السبب يا سيدتى، هو أنى أردت أن أتنازل بمحض اختيارى عن هذه الوصية للابن "أبو عوف"، فهو أحق منى بها.

ذلك لأنى أرفض شيئاً موصى به من الحاج غضبان، فإن قبولى للوصية يحمل اعترافاً ضمنياً أنى أعترف بأبوبته.

وبرغم أنى أعلم عن يقين أنه أبى، غير أنى أرفض أبوته، فهو لا يستحقها.

لقد حكت لى أمى كل شىء، وروت لى الحقيقة كاملة، وهى لا تخجلها على الإطلاق، فقد تزوجها الرجل الثعلب، على طريقته الدنيئة، ثم رفض أن يتحمل ما عليه من الواجب، وقبل راضياً أن يقذف بى فى عرض الطريق، وأنا بعد جنين.

بينما تلقفنى أب، أرسلته إلى السماء، ليفيض على من حنانه، ما سلبه الثعلب الدنىء.

أبى محجوب.. الأسطى محجوب هو أبى، ولن أرضى بأب آخر سواه لذلك فإن عقد البيع الذى تركه الحاج غضبان عندك، ذلك الذى تسمونه وصية، شىء لا أقبله.

لكنى مع هذا لم أشأ أن أهمله فإن سلطان ابنه، هو الذى سيستفيد من اهماله، وهو - على شاكلة أبيه - لا يستحق.

ان أمى يا سيدتى عندما حكت لى الحقيقة تركت لى حرية اختيار حياتى، فقلت لها، لقد اخترت ما اختاره لى الله، ولن أقبل أن أستبدل أبى محجوب، بأى أب أياً كان شأنه ورجوتها أن تنسى ما قالته لى، وتلقى به فى طى الإهمال.

وفعلت يا سيدتى، وزاد قدرها عندى، أما حبى لها وحبى لأبى فهو الزاد الذى أعيش عليه.

واليوم وأنا على حافة الموت - أراه أمامى رؤى العين على مرمى النظر حيث أنام فى المستشفى - أشعر أن من واجبى أن أعيد إليك الوصية، بل لقد حملتها معى يوم جئت فى صحبة المأمور ناجى لنزورك ونزور الضريح ونزور قبر جلال ولقد أوشكت أن أعيدها إلى حيث أخذتها، لكنى خفت أن أموت دون أن أتخذ خطوات التنازل عنها "لأبو عوف" فتئول بعد موتى إلى هذا الكلب المسعور.

يا سيدتى وأختى..

هل كثير على أن أسألك الدعاء؟

أنا لست غريباً عنك إن زوجك أخ وحبيب وابنك ابن أخ وابن أخت، وهو فى أعز مكان من قلبى وليست هذه الوصية إلا بعض حقه وأنا ذاهب إلى الحقيقة الكبرى، لأصبح جزءاً منها، لا أعرف فيها فقراً ولا غنى، حيث لا وصية إلا العمل الصالح حيث لا دموع ولا عذاب ولا أسى حيث الناس جميعاً سواء، حتى الحاج غضبان.

اذكرينى يا سيدتى مع كل صباح، والساقية تدور، وأشجار النخيل تتمايل فى خيلاء، وادعى لى الله بالرحمة، فسأكون محتاجاً إلى كل دعوة طيبة، وكل همسة بالخير تنطق بها شفتاك.

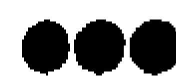
لكن لا تبك يا سيدتى.

لقد طلبت من أمى ألا تبكى.

كذلك طلبت من أبى ومن أخى.

وأنا أعلم أنى أطلب منهم شيئاً عسيراً لكنى مع هذا أطلبه، فانى لا أريد قبرى أن يتحول إلى ظلام إن الدموع ستحرقنى، وسيملأ دخان الحريق قبرى، وسيسد منافذ الرحمة أمامى.

بدلاً من الدموع ابتسمى، من أجلى.



لكن الشيخة لم تستطع أن تبتسم.

لقد شعرت بالدنيا تدور أمام عينيها، فارتمت فى حضن الست قمر تبكى.

وكانت المعلمة وردة قد شعرت بالمأساة، فارتمت عليهما هى الأخرى ودموعها تحرق وجنتيها.

أما الرجال، فقد أمسكوا بلفة الأوراق، وهم لا يصدقون عيونهم.

وساد ساحة الضريح هدوء، تخلله صوت الساقية، كأنه الأنين.

□□□

الساقية

قصة الإنسان والأرض والحياة،
فى أجيال تعاقبت تواجه المشكلات
فى صمت أعلى من هتافات التمرد،
وصبر أقوى من اندفاعات العصيان.
قصة الإرادة الصلبة، تختفى وراء
ابتسامة رضى وقناعة.

عبد المنعم الصاوى

رقم القيد بدار الكتب المصرية : ٥٨٧٥

خماسية الساقية :

صدر الكتاب الأول : **الضحية** . .

وصدر الكتاب الثانى : **الرحيل** . .

ثم وصدر الكتاب الثالث : **النصيب** . .

وهذا هو الكتاب الرابع "**التوبة**" من الخماسية .



٢٠ جنيه

الناشر: شركة عالمية للنشر والإعلان
محمد عبد المنعم الصاوى وشركاه
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧ فاكس : ٧٣٨٠٠٢٥
بريد إلكترونى : sawy@alamia.net
طبعة عام ٢٠٠٥

